

مُخْتَصَرُ الْجَامِعِ

فِي

السِّيَرِ النَّبَوِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُخْتَصَرُ الْجَامِعِ

فِي

السِّيَرِ النَّبَوِيَّةِ

تأليف

سيرة الزايد

إجازة في الشريعة وإجازة في الآداب

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

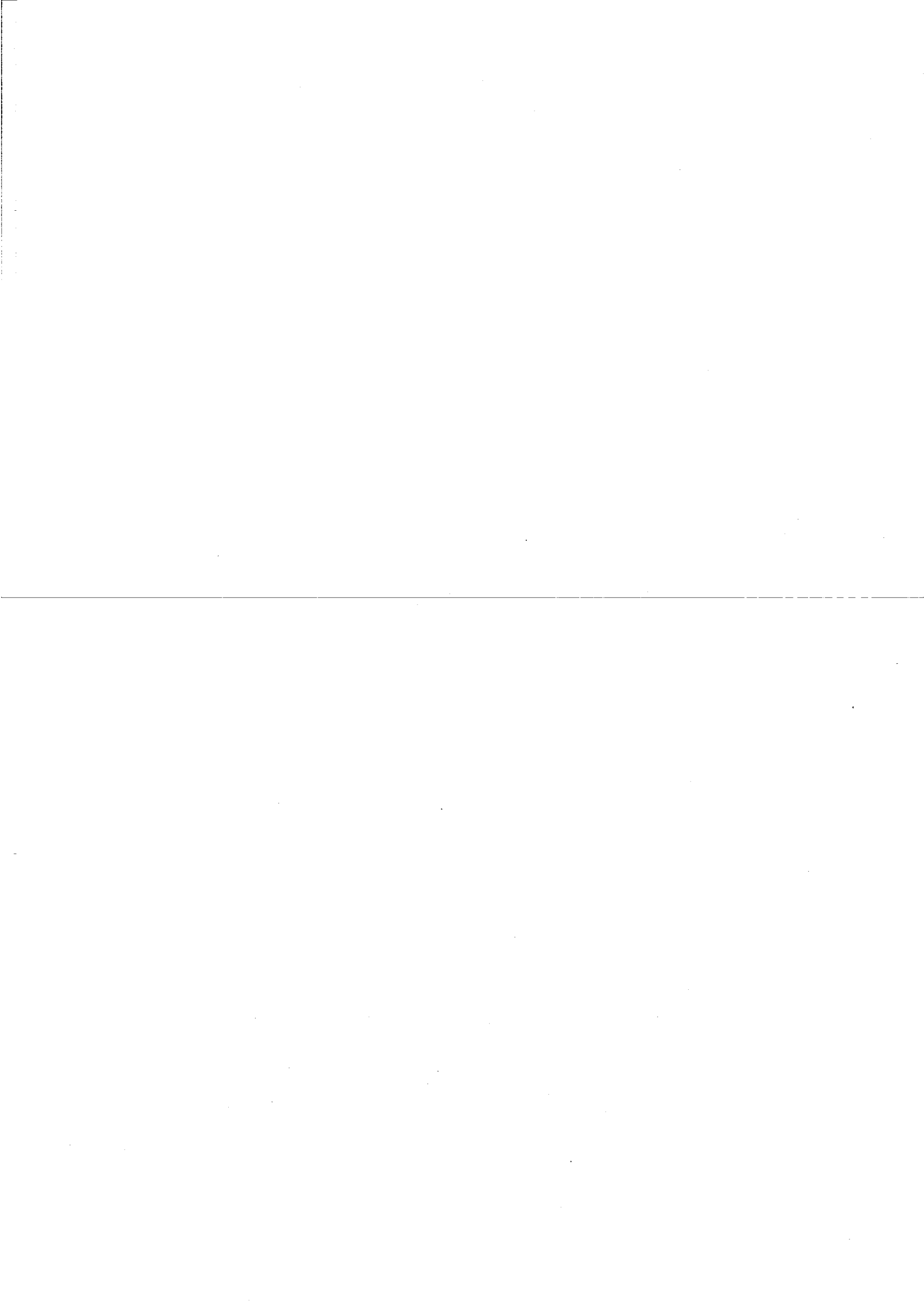
المطبعة: العلمية

عدد النسخ / ١٠٠٠ /

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

- إلى سيدي رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ سيّد الأولين والآخرين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين . قائد الغرّ المحجلّين ، وحامل لواء الحمد يوم الدين ، وإمام الهداة والمهتدين . أشرف من مشى على الأرض ، وأعظم من عرف التاريخ طهراً وسموّاً ورحمةً ونبلاً وكرماً ..
إليه ﷺ تقدّم هذا الكتاب ؛ إيماناً وتصديقاً ، وحباً ، وعهداً ، ووفاء ..
- إلى الدعاة المخلصين في كل مكان ، المهتدين بهديه ﷺ ، العاملين لنصرة الإسلام ، والذود عن ميراث النبوة المقدّس ، المرابطين على الشغل لا يغمض لهم جفن ..
إليهم أيضاً تقدّم هذا الكتاب ؛ رفاً ، وتقديراً ، ونصراً ، وحباً ، وتكريماً ..
- إلى الناشئة من أبنائنا ، أبناء الإسلام ، في كل أرض ومن كل لون وجنس ، الذين صوّحت نبات الإيمان في قلوبهم منذ غاب عنهم نور النبوة ونهجها حتى أضاعوا نسبهم الشريف ..
إليهم أيضاً تقدّم هذا الكتاب ؛ عوناً لهم على العودة إلى واحة الهدى ودين الحق ، ومراجعة ذلك الانتماء القدسي الشريف ..



محتويات الكتاب

الجزء الأول :

ويضم :

مقدمات .

القسم الأول : من الولادة إلى البعثة .

القسم الثاني : البعثة والدعوة في دورها المكي .

القسم الثالث : الدولة الإسلامية والدعوة في دورها المدني (من السنة الأولى

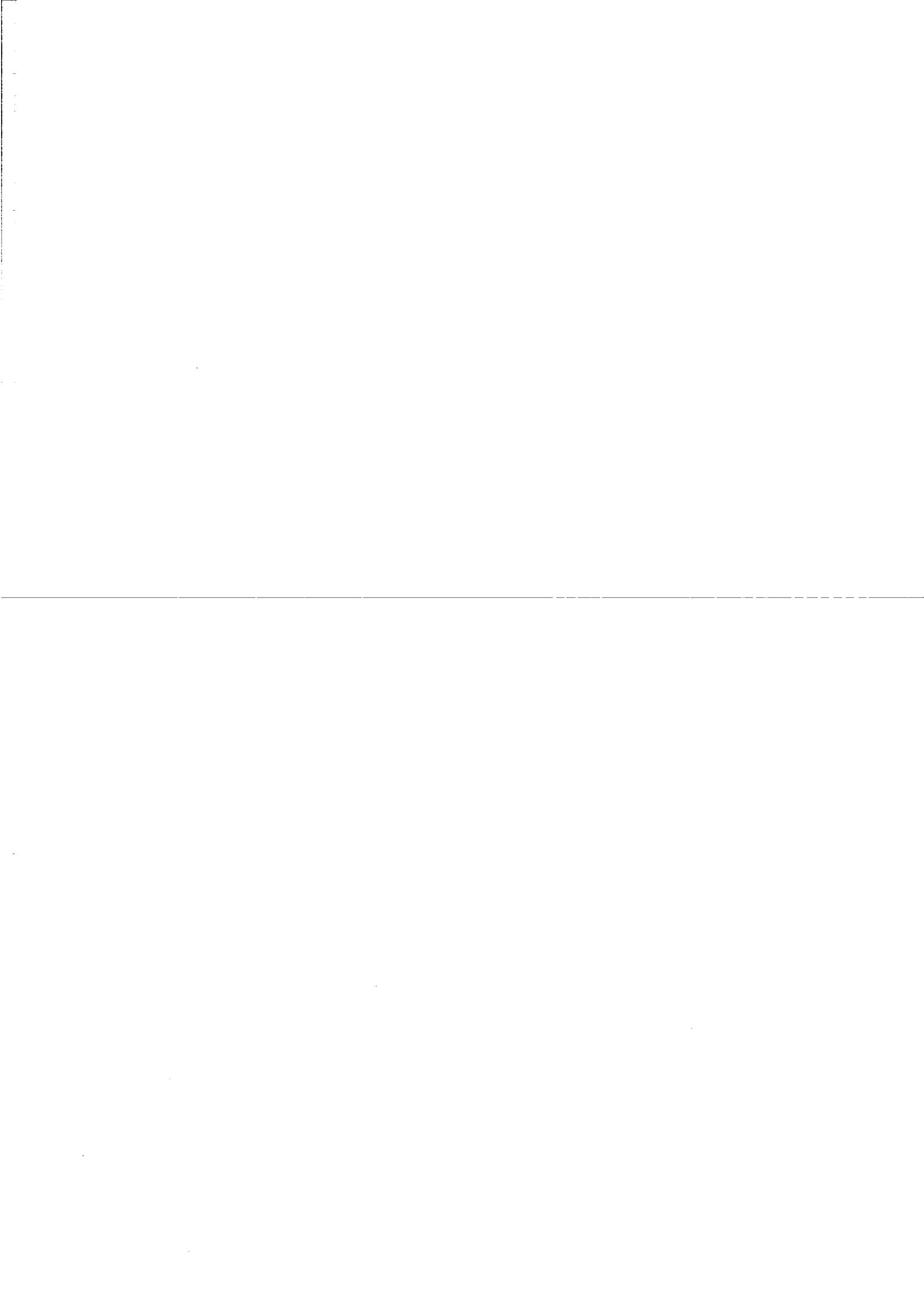
للهجرة حتى السنة الثالثة) .

الجزء الثاني :

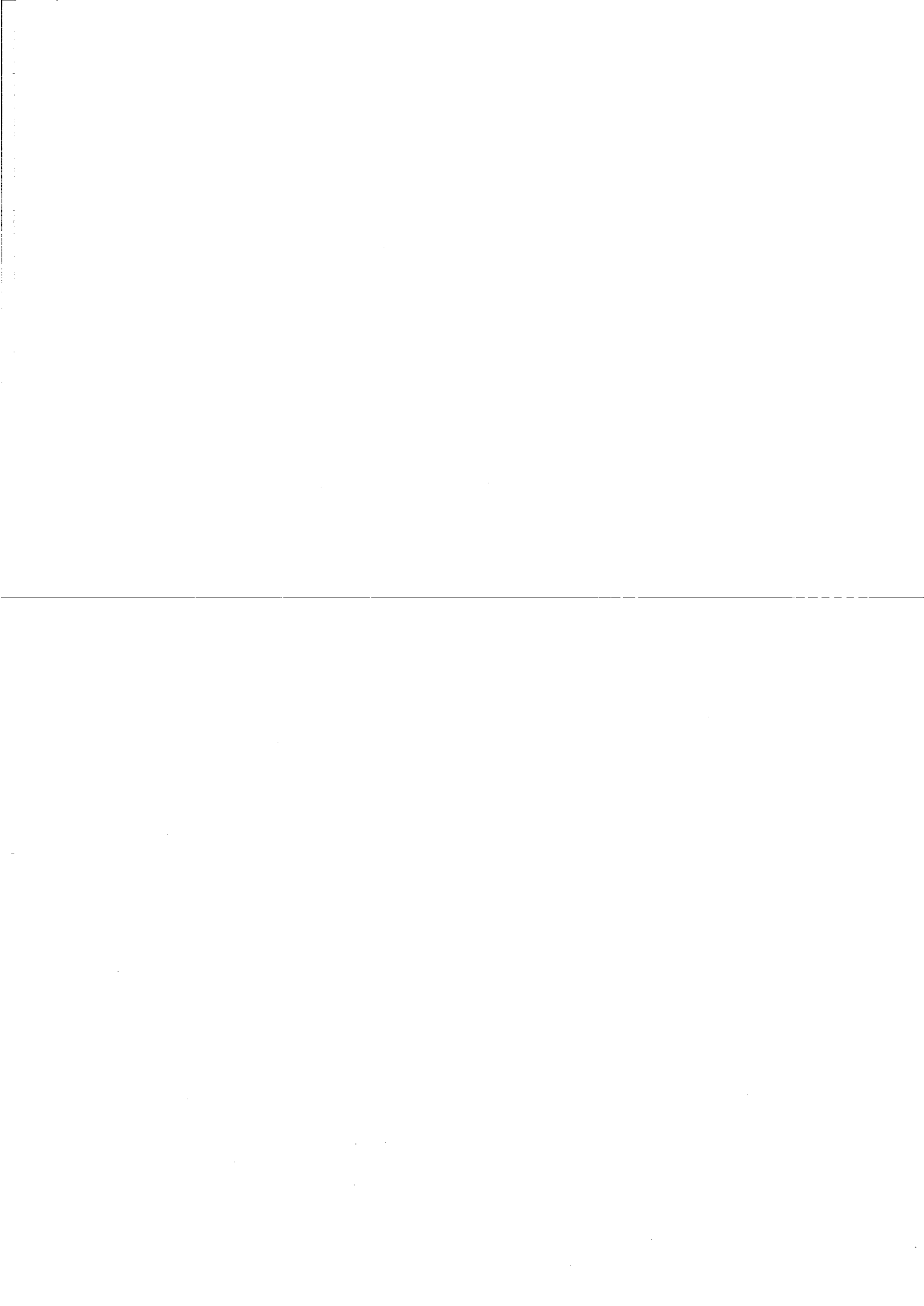
ويضم :

تتمة القسم الثالث (من السنة الرابعة للهجرة حتى الوفاة) .

القسم الرابع : شمائل النبي ﷺ .



الجزء لله



تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي كل نعمة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فإنّ جلّ الذين يكتبون اليوم في السيرة النبوية ، يعتمدون على الطريقة التحليلية القائمة على ما يسمى بالمذهب الذاتي في كتابة التاريخ .

ومن المعلوم أنّ هذه الطريقة تجمع بين تقيصتين اثنتين :

إحداها : عدم الانضباط بالموازين العلمية في النقل والرواية ، وتضييع القارئ بين احتمالات اعتماد الكاتب فيما يصور ويكتب ، على روايات ساقها ، أو تخيلات حاكها من خزانة فكره وخياله .

الثانية : فتح مجال رحب ، بهذه الطريقة ، للعبث بأحداث السيرة ، واستخدامها للهدف المطلوب أياً كان . فما أيسر أن يستنطق الكاتب ، من خلال اتباعه لهذا النهج ، مشاهد السيرة ووقائعها التاريخية ، بما يروق لفكره ويتفق مع مذهبه وعقيدته .

وهذا ما قد تمّ فعلاً ، فقد صاغ أولو الفكر والاتجاهات الماركسية ، أحداث السيرة النبوية ، على النحو الذي يخدم اتجاههم ويحقق الدعاية المطلوبة لمذهبهم ، أما ذور الميول الإمبريالية والأفكار الغربية ، فقد استطاعوا هم الآخرون أن يصوغوا أخبار السيرة النبوية طبق ما يتفق مع ميولاتهم وأهوائهم .

ولا شك أنّ هذا من أخطر أنواع العبث بالتاريخ ، ومن أسوأ مظاهر الخيانة للحق .

لذا ، فقد مست الحاجة إلى التحذير من اتباع الطريقة التحليلية والذاتية هذه ، وإغلاق السبل أمام الكاتبين دونها ، وانتزاع الثقة من أفئدة القارئ من بصراً على الاعتماد عليها ، والدعوة إلى الانضباط بالطريقة العلمية المعروفة في كتابة التاريخ الإسلامي عموماً والسيرة النبوية خصوصاً . وهي الطريقة القائمة على النقل ، ثم توثيق النقل بضوابط السند وموازين الصحة والضعف والبطلان فيه .

☆ ☆ ☆

ولقد كان من أفضل ما كتب في السيرة النبوية ، على هذه الطريقة العلمية المنضبطة ، في هذا العصر ، تلك الموسوعة التي ظهرت منذ سنتين تقريباً باسم « الجامع في السيرة النبوية » ، وكانت قد عكفت على إخراجها وضبطها بأدق ضوابط السند والرواية والتوثيق ، فتاة من أبرز الفتيات المنصرفات إلى خدمة هذا الدين الإسلامي العظيم ، علماً وتعليماً ودعوة وإحياء لأصوله ومنطلقاته العلمية المتنوعة ، في هذا القطر العربي الإسلامي المبارك . وأعتقد أنه لاقى قبولاً واستحساناً ، بل إعجاباً من سائر الأوساط .

أما هذا الكتاب فلخص أو مختصر عنه . وقد لاحظت أنه لا يختلف عن أصله في حجم المعلومات وضبط الأحداث بعد نقلها ، وإنما روعي فيه تجاوز المكررات واختصار الأسانيد ، مع الإبقاء على التوثيق والإحالات .

إنني إذ أهنيء الأنسة التي عكفت على إخراج هذا الكتاب طبق النهج العلمي الأمثل في خدمة السيرة النبوية والسنة المطهرة والفقهاء وأحكامه وثقافته الإسلامية عموماً - وهو جهد سبقت فيه بحمد الله الرجال في هذا العصر - أسأل الله أن يقيض من الإقبال عليه ، ما يتكافأ مع أهميته ، وأن يصلح أعمالنا ويجمع شملنا على ما يرضيه .

محمد سعيد رمضان البوطي

١٤ / جمادى الأولى ١٤١٥

١٧ / تشرين ثاني ١٩٩٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

لاشك أن بعثة المصطفى ﷺ كانت أكبر منعطف في تاريخ العرب بل في تاريخ العالم أجمع ؛ فقد كانت النور الذي شع وسط ظلمات الشرك ففضى على الكفر والضلال في عالم امتلأ بالزيف والفساد وصفه سبحانه بقوله : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (١) .

ولقد استطاعت رسالته ﷺ التي بلّغها الإنسانية عن ربّه أن تصوغ الإنسان الصالح القادر على إعمار الحياة ، وبناء الحضارة ، وقيادة الأمم تحت راية التوحيد ، فكانت خير حضارة عرفها التاريخ ، لكن المسلمين ما لبثوا - لسوء حظهم - أن تجافوا عن سنن نبيهم ، ونهجه ورسالته ، ففقدوا بذلك النور الذي قادوا به الأمم زمناً طويلاً ، ثم خلّفت من بعدهم أجيالاً جهلت رسولها وشريعته ، وأضاعت المنهج النبوي الذي قاد المسلمون به الحياة وحكوا الأمم ردحاً طويلاً من الزمن ، وبذلك تخلف المسلمون وسقطت من أيديهم راية القيادة العالمية ، ثم ما لبثوا أن تراجعوا أكثر فصاروا ساقية الأمم ، وأتباع كل ناعق من دعاة الشرق والغرب من أرباب المذاهب الوضعية ، فبعدت الشقة بينهم وبين نهج النبوة ومنابع الهدى ، واتسع الخرق على الراقع - كما يقولون - وحرار الدعاة إلى الله تعالى من أين يبدوون ، وكيف السبيل إلى إعادة هذه الأجيال إلى الإسلام ..!؟

وإذا كان أمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها وهو سلامة العقيدة وصحتها ، فإن الطريق إلى تصحيح المسيرة يجب أن يبدأ وينتهي بربط هذا الجيل برسوله الأعظم ﷺ ، مادام الله قد جعل الشهادة برسالته عليه الصلاة والسلام قسيم الشهادة بوحدانيته سبحانه .

وتبدو أهمية هذا الأمر الجليل في تصحيح المسيرة من خلال تأكيد علماء العقيدة على أنها المحرك الأول لفكر الإنسان وعاطفته وسلوكه ، ولا ريب أن الخطوة الأولى في ربط هذا الجيل برسوله محمد ﷺ إنما هي تعريفه به ﷺ تعريفاً كاملاً وسليماً وشاملاً من خلال كتب السيرة المطهرة .

ولما كانت أخبار سيرته ﷺ قد توزعت في هذه الكتب ولم تلتق جميعاً في واحد منها ، فقد رأينا أن نجتمعها لهذا الجيل من أصح المصادر وأفضلها في كتاب واحد بأسلوب مختصر خالٍ من الحشو والتكرار .

ومن ثمّ عدت إلى كتابي « الجامع في السيرة النبوية » - وهو كتاب ألفته منذ مدة قريبة جمعت فيه أحداث السيرة من مصادر المعروفة جميعاً ليكون مرجعاً في السيرة النبوية يعني عن العودة إلى تلك المصادر المتفرقة - فعمدت إلى دراسة جميع الروايات الواردة في حادثة ما ؛ فكنت أدرسها ثم ألخصها برواية واحدة تجمع بينها مع المحافظة على لفظ الروايات ما أمكن ، وعند تعذر الجمع بينها كنت أسوق الرواية من أحد المصادر ، وأذكر ما ورد من زيادات أو فوائد في روايات أخرى خلال سياق الرواية الأولى ، أو بعد الفراغ من إيرادها دون أن أذكر الروايات كاملة تجنباً للتكرار والإطالة دونما فائدة .

وكنت أحياناً أحاول التوفيق بين الروايات المتعارضة إن وجدت لذلك ضرورة . وقد عرضت عن ذكر الأخبار الضعيفة جداً أو الموضوعية ، واقتصر على الصحيح أو الحسن منها ، وكنت أذكر أحياناً بعض الأخبار الضعيفة لشهرتها مع الإشارة إلى ضعفها في الحواشي .

(١) الروم : ٤١ .

وقد سردت أحداث السيرة سرداً تاريخياً بحسب ترتيبها ، فإذا رأيت أصحاب المغازي والسير وأهل السنن قد اختلفوا في زمن حادثة ما ، سعيت إلى الترجيح بمقارنة الأحداث بعضها ببعض ، أو اعتمدت ما وجدته أصح الأقوال ، فإن لم أتعرف أصحابها اخترت أحد الأقوال وأشرت إلى الأقوال الأخرى .

وذكرت اليسير من تعليقات الكتّاب الإسلاميين على أحداث السيرة حيث بدا لي في ذلك فائدة أو إيضاح .

وضبطت الآيات الكريمة والأقوال النبوية الشريفة بالشكل ، ووضعتها ضمن أقواس تمييزاً وتوضيحاً ، كما ضبطت الأعلام ومواقع البلدان والغزوات وعرفت بها ، وشرحت الألفاظ والتراكيب الغريبة أو المبهمة .

وقد جعلت للكتاب مقدمات ثلاث :

الأولى : في أهمية دراسة السيرة النبوية

الثانية : في تاريخ التأليف في السيرة ؛ استعرضت فيها زمنياً طبقات المؤلفين فيها ، والأدوار المختلفة التي مرّ بها هذا التأليف .

الثالثة : ذكرت فيها لمحة موجزة عن وضع الجزيرة العربية قبل الإسلام - وهي في حقيقتها مستفاد من المقدمة التي سقتها في كتابي « الجامع في السيرة النبوية » مع اختصار جوانب منها ، وتعديل وإضافة وتفصيل في جوانب أخرى - وذلك من أجل أن أضيء على الواقع الذي بدأ منه رسول الله ﷺ عمله ؛ من حيث البيئة الجغرافية ، أو القوم الذين وقع عليهم الاختيار الإلهي الحكيم ليتلقوا من رسول الله ﷺ الرسالة السماوية الأخيرة ثم يبلّغوها العالمين . ومن جهة أخرى فإن عرض هذا الواقع يعين القارئ على فهم الأحداث ، وكشف أسبابها ، ومعرفة تسلسلها ونتائجها .

ثم قسمت الكتاب أقساماً أربعة تيسيراً للدراسة وإيضاحاً للملامح السيرة وتمييزاً لقسماتها ومراحلها :

الأول : من الولادة إلى البعثة .

الثاني : البعثة والدعوة في دورها المبكي .

الثالث : الدولة الإسلامية والدعوة في دورها المدني .

الرابع : شمائل النبي ﷺ .

أرجو الله سبحانه أن يجعل عملنا راشداً موفقاً وناجحاً ، خالصاً لوجهه الكريم ، مسهماً في تربية الجيل التريية الإسلامية وإعادته إلى جادة الإسلام وظلال النبوة الكريمة . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلفة

أهمية دراسة السيرة النبوية

تستد دراسة السيرة النبوية الشريفة أهميتها من مكانة رسول الله ﷺ في العقيدة الإسلامية ؛ إذ هي المصدر الأول لمعرفة ﷺ ، وبها يستعين المسلم على تحقيق أمور هي من صلب عقيدته ودينه .

فأولها : تحقيق الشهادة برسالته ﷺ ؛ باعتبار أن تلك الشهادة برسالته ﷺ هي الشطر الثاني من الركن الأول من أركان الإسلام : « محمد رسول الله » ، وتلك الشهادة يأبى الله ، عزّ وجلّ ، أن تكون كلاماً ينطق به اللسان ، إنما يريد بها سبحانه أن تكون مع ذلك وقبله وبعده عقيدة راسخة في ضمير المسلم ينبثق عنها فكر وعاطفة وسلوك في الحياة ... وهذه جميعاً يعين على تحقيقها دراسة السيرة المطهرة دراسة عميقة وجادة ، فإن المعرفة السليمة الكاملة تؤدي إلى الإعجاب بالشخصية المتعرف عليها إذا كانت عظيمة فكيف إذا كانت شخصية المصطفى ﷺ ؟ وشدة الإعجاب تقود إلى المحبة ، والمحبة إذا رافقها حسن الاتباع والتأسي مع كمال القناعة أدى ذلك إلى عقيدة راسخة تترك آثارها في الفكر والعاطفة والسلوك .

وثانيها : إزالة الشبهات التي زرعتها أعداء الإسلام في نفوس المسلمين حول صدق نبوته ﷺ ؛ فالسيرة تفيد المدارس التثبت من نبوته ﷺ وأنه ليس عبقرياً ولا بطلاً فحسب ، وإنما هو نبيّ الله ورسوله إلى الإنسانية جمعاء ، وإزالة ما قد يكون عالقاً في النفس من شبهات حول شخصيته ﷺ .

إن من أعظم الحقائق التي يجب أن يمتلكها المسلم اليوم حقيقة النبوة وارتباطها بحقيقة الوحي ، هذه الحقيقة التي يمتاز بها الرسل والأنبياء عن سائر الشخصيات الممتازة في الحياة ، من العاقرة والفلاسفة والأبطال والمفكرين والمصلحين ، والتي كادت أن تختفي في حياة الجيل المعاصر وراء ستائر البدائل الكثيرة التي طرحها أعداء الإسلام في ساحة فكر المسلم وقلبه في غمرة من الغزو الفكري الذي لا يزال يتعرض له العالم الإسلامي منذ عقود كثيرة من الزمان وفي غفلة من الدعاة المسلمين . فلقد سلّطت الأضواء على بدائل كثيرة عن رسول الله ﷺ ، وأطلقت في مقابل ذلك ألقاب معينة عليه ﷺ توهم بالتعظيم ، ولكن المراد منها في الحقيقة إبعاد معنى النبوة عنه ﷺ وطمس معالمها في شخصيته ، فرة البطل ومرة العبقرى ... حتى أصبح المسلم اليوم لا يفقه ماذا تعني النبوة ، ولا أين يجب أن تكون من حياته ، ولا كيف يجب أن تحكم سلوكه وعقيدته وشعوره ، ولا كيف يجب أن يربط مصيره بها ...

إن المستشرقين الذين يكرون بالليل والنهار لفصل هذا الجيل عن دينه وإقصاء الإسلام عن واقع الحياة يحاولون الدخول على عقيدة المسلم من كل باب ، وأخطر تلك الأبواب طراً شخصية المصطفى ﷺ . وهم يأبون أن يدرسوا الإسلام ورسوله دراسة موضوعية منهجية سليمة ، بالرغم من كل ما يتشددون به على الدارسين في ديارهم وما يزعمون لأنفسهم من سبق في المنهجية . إنهم لا يدخلون رحاب تاريخنا العظيم والسيرة بصورة خاصة إلا بمسبق ذهني وكده الكره للإسلام ، يركبون للبرهان على صحته كل مركب باطل من الخبر الضعيف والشاذ ، ولي أعناق النصوص وتحميلها من الدلالات ما ليس فيها ، وربط الأحداث ربطاً خاطئاً أو بتر بعض أجزاء الحدث .

إن تلك الشبهات التي تزرعها أيدي المكر والعناء في نفوس الجيل لا تثبت ولا تنور إلا في قلوب تعاني ظلمة السنوب والمعاصي ، أو ظلمة الجهل بثقافة الإسلام والقناعة بثقافة المستشرقين . وإن مسلم اليوم للأسف لا يملك ثقافة إسلامية كافية تنير له فكره وقلبه وتحفظه من كيد عدوّه وغزوه الثقافي ، وهو للأسف أيضاً غير آسف لذلك ؛ إنه لا يدرك أنه غافل عن معرفة أعظم شخصية عرفتها الحياة ، غيرت وجه التاريخ وانعطفت بالإنسانية أسعد منعطف وأرقاه .

إن الأجيال المسلمة اليوم قد تنكرت لنبيها ﷺ تنكراً مزرياً محجفاً وظالماً وكأنه ليس هو الذي أوجدها في التاريخ وجعل لها أعظم اسم فيه .. ترى من كان العرب قبيل البعثة المحمدية ؟ ومن كانوا يومذاك في التاريخ ؟.. من كانوا بين الحضارات والأمم الكبرى التي حولهم كفارس وروما ؟! لم تكن هاتان الدولتان يومذاك لتأبها للعرب ولا لجزيرتهم أبداً ..

وما يثير الدهشة أن تفتح هذه الأجيال بالمقابل قلبها وفكرها للثقافات المعادية للإسلام من غير أن تكلف نفسها البحث في مدى سلامتها ، وتفتح بما تطرحه عليها تلك الثقافات التي تلتقي جميعاً برغم اختلافها على هدف واحد هو : إقناع المسلمين بل أمم الأرض بأن الإسلام لا يصلح للحياة ، وأن شخصية رسول الله ﷺ لا تصلح لقيادة الإنسانية ولا تصلح شريعته لرسم حضارة عالمية معاصرة .

وثالثها : التمكن لمحبهته ﷺ في قلب المسلم لأنها شرط الإيمان ؛ فهي محبة مقصودة لذاتها في الشريعة الإسلامية لقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »^(١) .

وإن الحب ليفجر في النفس الإنسانية عجائب السلوك وغرائب للعاني المقدسة والراقية ، ويفجر أيضاً معاني التضحية والفداء ، وليس شيء يخلص الإنسان من معاييه النفسية والسلوكية مثل الحب .

ولكن أي حب ؟ إنه حب الله تبارك وتعالى ذلك الحب المقدس الذي يوصل إليه حب رسول الله ﷺ . إنه الدواء البني لا يخبب . يحدثنا جلال الدين الرومي عما يفعله هذا الحب فيقول : « إن الحب يحول المرء حلاً ، والتراب تبرا ، والكدر صفاء ، والألم شفاء ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذي يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة ، ويسود العبد » .

« إن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم ، إلا أن مرضى الحب يستزيدون المرض ، ويحبون أن يضاعف في ألمهم وحنينهم ، لم أر شراباً أحلى من هذا السم ، ولم أر صحة أفضل من هذه العلة ... إنها علة ولكنها علة تخلص من كل علة ، فإذا أصيب بها إنسان لم ينصب بمرض قط ، إنها صحة الروح ، بل روح الصحة ، يمتنى أصحاب النعم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم ... »^(٢) .

إن أكبر فجيعة أصيب بها العالم الإسلامي هي فتور هذا الحب المقدس في قلوب المسلمين بسبب إساءتهم إلى دينهم ومخالفتهم عن أمر نبيهم في كثير من الأمور وقبولهم البدائل عن رسول الله ﷺ تلك التي طرحها لهم أعداء الإسلام . هنالك انطفأ بريقهم وضاعت نخوتهم وتخلفوا بين الأمم .

إن المسلم اليوم لم يعد يتمتع بذلك الإشعاع الذي كان يضيء به - فيما مضى - ظلمات الكفر ودياجير الجاهلية ، وبالتالي فقد دوره في قيادة العالم إلى الهدى والرشاد . وهذه خسارة كبرى للمسلم والمعال لا يعوّض عنها ما بلغه العالم من الكشوف والاختراعات والتقدم العلمي والتوسع الاستعماري ؛ أما للمسلم فقد خرج من ساحة الرضا الإلهي إلى حيث التخلف ، وتردى والعياذ بالله في هوة التخلف والتبعية لأمم الكفر . وبذلك عادت الحياة شبيهة بما كانت عليه قبيل ظهور للصطفى ﷺ على مثل ما وصف الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾^(٣) . وأما العالم فقد انتكس بعد المسلم إلى حمأة الجاهلية .

واليوم لا يصلح حال الأمة إلا بما صلح عليه أولها ، وذلك بالعودة إلى طاعة رسول الله ﷺ ومحبته واتباع سنته .

وليعلم المسلم أن محبة رسول الله ﷺ ليست شيئاً رخيصاً يشتري بالثمن البخس أو التقديم البسيط أو أداء القليل من السنن والنوافل ، وإنما ثمة أن يترسم في حياته منهج رسول الله ﷺ وأخلاقه حتى يبلغ حرصه في ذلك (أن يقع خفّاً على خفّاً) ، وأن تصبح مرضاة رسول الله ﷺ ونصرة دينه همّة في ليله ونهاره وفي صحوه ومنامه وفي سرّه وعلنه .

(١) سنن النسائي : (ج ١١٤/٨) كتاب الإيمان وشرائعه .

(٢) رجال الفكر والدعوة : (ص : ٣٥٨ ، ٣٥٩) .

(٣) الرّوم : ٤١ .

إن الصحابة الكرام ما نالوا محبة رسول الله ﷺ بالثمن القليل ... لقد تركوا من أجله - في الله - المال والولد والأهل والوطن ، وتركوا الراحة والزعامة ورضوا بالمواجع واستقبلوا المنغصات راضين مسرورين .

في سبيل الله ورسوله كان يحلو عندهم المرّ ، ويسهل الصعب ، ويقرب البعيد ، وتحمل المهالك ، ويعذب الموت . وإن من يقرأ أخبارهم في غزومهم سواء كانوا مع رسول الله ﷺ أم كانوا وحدهم في سراياهم يدرك أنهم ما كانوا في غزوي أبداً وإنما كانوا في متنزه يسعد قلوبهم ، لقد كان حب للصطفى ﷺ يمسح على جراحاتهم وآلامهم ، ويهون لهم المصاعب ، ويحبب إليهم لقاء العدو ، ويرطب لهم جو الصحراء . وكان حبه ﷺ واحة يأوون إليها من هجير الكفاح وسهام العدو .

لقد وسّع حب رسول الله ﷺ آفاقهم وساحات قلوبهم وأغوار نفوسهم فغدوا بشراً من نمط ممتاز لا يعرف التاريخ أمثالهم أبداً ، يكفي فيهم قول رسول الله ﷺ : « النجوم أمان لأهل السماء ، وأصحابي أمان لأمتي »^(١) ، ومن يصفه الرسول ﷺ بأنه الأمان فقد كفاه ذلك عزاً وفخراً وشرفاً وعلواً وسبقاً في الصالحين وقرباً من الله عز وجل .

ويوم أحب الصحابة الكرام رسول الله ﷺ لم يفهموا ذلك الحبّ متعاً ومشاعراً وأشواقاً باهتة مبتورة ، وإنما فهموه خروجاً عن الذات في سبيل نصرته الإسلام ، ولم يروا أن قضية الإسلام ينقضي شأنها بالشهور والأيام ، وإنما عرفوا أن هذا الإسلام قد اختاره الله سبحانه خطاباً أخيراً للإنسانية ، خطاباً يحملهم ورقة عمل تمتد منذ لحظة إعلان إسلامهم إلى آخر لحظة في حياتهم بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ... هنالك شدوا الحيازيم وعرفوا أن أمامهم رحلة تخليق تمتد إلى آخر عمرهم ارتفعوا فيها فوق شهواتهم وفوق ثقله الأرض ومطالب الجسد وآلام الأرض وأفراحها وأحزانها ... ارتفعوا إلى حيث المثل والفضيلة والعطاء ، ونكران الذات والتجرد والثقة والثبات والتضحية والجهاد .

لقد علمهم حبّ رسول الله ﷺ أن يحملوا الإسلام رسالة حب إلى الإنسانية ، وعرفهم أن هذه البشرية الضائعة هي أحق بالرحمة والعطف منها بالانتقام والعقوبة . فخرجوا إليها يحملون لها الهداية على مراكب الرحمة والمحبة في ساهمهم وحرهم ... ترى أي حب هو أعظم مما تؤديه هذه المفاهيم التي ذكرها ربّعي بن عامر وهو يخاطب رستم يوم توجه المسلمون إلى فتح فارس .. قائلاً : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »^(٢) . أي حبّ - ترى - أعظم من هذا الحبّ ؟ إنسان يترك مألوف حياته ويترك الأهل والوطن ويضحى بروحه ، يعرضها للموت ليخرج إلى أمة لا تربطه بها رابطة أبداً من أجل أن يبلغها رسالة الإسلام ويخرجها من الظلمات إلى النور . إن هذه النوايا الطيبة وهذا الحب العظيم لشيء يجلّ عن الوصف وتعجز عنه اللغة حقاً ، فهذا أحببت الشعوب الفاتحين المسامحين ومهما أحببت رسول الله ﷺ الذي خرّجه من مدرسته فهو حب قليل في موازين الشكر والجزاء .

وليقرأ المسلم إن شاء صوراً من ذلك الحب والتقديس لرسول الله ﷺ في كتاب الأستاذ أبي الحسن الندوي (الطريق إلى المدينة) ، وفيه يعرض نماذج من أشعار العجم تشي على رسول الله ﷺ ، ويعرض فيه من خياله وفود المسلمين من كل جنس وأرض جاءت تزور قبر الحبيب ﷺ وتؤدي فروض الشكر التي وجبت عليها لرسول الهدى الذي حمل لها نعمة الإسلام ورفعها بهذا الدين مكاناً علياً . فن ذلك مثلاً يقول الشاعر الهندي الطاف حسين (المتوفى سنة ١٣٣٣ هـ) : « لقد هاجت صحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرق وعرب رعداً وبرقها ، فبينما رعدت على نهر تاجه في إسبانيا أمطرت على نهر الكنج في شبه القارة الهندية . لقد أحيا غيثها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعم برها البر والبحر ، فما ترى في العالم من رواء وبهاء ، ونور وسناء ، إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية »^(٣) .

(١) مجمع الزوائد : (ج ١٧/١٠) .

(٢) حياة الصحابة / محمد يوسف الكاندهلوي : (ج ٢٠٢/١) .

(٣) الطريق إلى المدينة : (ص : ١١٣) .

والحق أنه ما من كتاب يعرض شخصية المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، عرضاً حياً يحبب القارىء برسول الله ﷺ مثماً يعرضها كتاب السيرة .

ففي السيرة يجد المسلم نبيه ﷺ وهو يدرج منذ طفولته ، عليه الصلاة والسلام ، نحو الشباب المبارك ثم نحو الكهولة يقطع أشواطاً فريدة لا تعرف البشرية أمثالها صفاءً ولا نقاءً ولا سمواً ولا رعاية من الله ، يشهد النسب الرفيع والولادة المباركة واحتفال الكون به ﷺ ، ثم يشهد الكلاءة الإلهية على كل صعيد ، والتأديب الإلهي على مدى أربعين عاماً ، فيدرك عند ذلك كيف أعدَّ الله هذه الشخصية المباركة لمحل آخر رسالة ساوية للبشرية ، ثم يراه في نهاية فترة الإعداد عابداً لربه عاشقاً له ، ثم تلميذاً لجبريل ، عليه السلام ، يتلقى الوحي منه ويبلغه في أرقى صورة وأسماها وأحبها إلى الله ؛ فإذا هو المرئي الكبير المتصف بكمال البرّ والبشر وسمو الصحة والصبر والكرم والأدب وقوة الصلة بالله ، وإذا هو الأب الشفيق والمعلم الناصح للصحابة الكرام ؛ يرعاهم في فقرهم وغناهم ، وفي سموهم وهبوطهم ، ويوظف مواهبهم أرقى توظيف ، ويعدهم لينشروا معه رسالة السماء ، ويتحرك ﷺ لخدمة الإسلام ويمضي عليه الصلاة والسلام يتحمل أعباء النبوة ومشقاتها بدءاً من سن الأربعين ، تلك السن التي ينصح فيها الأطباء الناس بالاهتمام بالصحة وراحة الجسد والأعصاب ، على حين يرى النبي ﷺ في هذه السن وقد بدأ يحمل هذه السؤولية العظيمة وينتقل فيها من طور إلى طور ، فمن طور الموعظة والجدال مع المشركين وتلقي الأذى منهم في مكة إلى طور القيادة البارعة والسياسة الحكيمة في المدينة المنورة ، هناك يشهده المسلم قد بدأ حياته العسكرية في الثالثة والخمسين من عمره ، تلك السن التي تسرح فيها الجيوش أفرادها وتحيلهم إلى المعاش وتؤمن لهم حياة راغدة تقديساً لجهودهم الماضية ، في هذه السن يلقي المسلم نبيه ﷺ في الغزوات وأرض المعارك لا يكاد يتركها أبداً .

وكذلك انقضت حياة النبي ﷺ بين معلّمين مقدسين ؛ أولها قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ .. ﴾ (١) ، وثانيها قوله سبحانه وتعالى في أوخر ما نزل من الوحي : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٢) . فيما بين هذين المعلّمين تحرك النبي ﷺ بإذن الله وبأمر منه على هدى وبصيرة ، ولم يلق الله ، سبحانه وتعالى ، حتى كان نور الإسلام يسطع على أرجاء الجزيرة كلها وحتى دخل الناس فيها في دين الله أفواجاً .

من خلال ذلك العرض تستضيء للدارس المسلم شخصية الرسول الكريم ومعانيها الكبيرة ، فيلامس حبّ هذا النبي العظيم ، عليه الصلاة والتسليم ، شغاف قلبه وتتبدل نظرتة ، فإذا هو يجدد العهد مع الله ومع هذا النبي العظيم يعاهده أن يحيا هذا الدين حياة جديدة يجعل فيها المصطفى ﷺ في موضع الحبّ الكامل والطاعة الكاملة ، مع الاستماتة في نصرته الإسلام ، ويطلب من الله سبحانه أن يحشره تحت لوائه ، وألا يضلّه بعد أن هداه الله إليه ، وأن يجعل صلته به صلة الصحابة الذين خرّجتهم يده الكريمة ﷺ ﴿ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٣) .

ورابعها : الاطلاع على الإسلام في صورته الحركية وعلى منهج إمام الدعوة ﷺ في الدعوة إلى الله : إن أبرز سمة لهذا الدين الحنيف حركيته وعالميته ، وكل فهم للإسلام بعيد عن هاتين السمتين فهم ضال خاطيء . إن ديننا أعظم من أن يكون عباداتٍ وشعائر ، إنه دين الخير والعطاء والحب والسلام للإنسانية جمعاء ، وهو لا يقبل من أتباعه أبداً الصوم والصلاة وشهادة الحق فقط ، وإنما يريد منهم أن يكونوا حملة لراية الإسلام وأن يوصلوا كلمته إلى أقاصي الأرض ؛ فذلك حق الشكر لله على نعمة الإسلام . ومن ثم جعل الله سبحانه الدعوة إلى الإسلام فريضة من فرائضه .

والدعوة إلى الإسلام لا بد أن تنتهج منهج إمام الدعوة الرسول ﷺ باعتباره الأسوة الحسنة المختارة من قبل الله عز وجل ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٤) . وهو منهج نراه في السيرة واضح الملامح والقسيمات بكل أركانه ومراحله ، حتى إن كل من كتب من العلماء في الدعوة والدعوة إنما استقى من سيرة رسول الله ﷺ ؛ ففي السيرة يجد المسلم الداعية

(١) المدثر : ١ - ٣ .

(٢) المائدة : ٣ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

(٤) الحشر : ٧ .

العظيم محمدًا ﷺ كيف اختاره الله من بين الناس أجمعين وصنعه على عينه وأعدّه إعداداً عظيماً عظم رسالة الإسلام نفسها ، خرج بعده ﷺ مثال الجمال والكمال في الفكر والقلب والسلوك ليبلِّغ الإنسانية جمعاء خطاب الله الأخير إليها . فمن دعوة السّر إلى الجهر ، في إطار من السلم ، ثم ينتقل إلى المدينة فتكون للغازي دفاعاً ثم هجوماً ، كل ذلك في النطاق المحلي للجزيرة العربية ، ثم ترسم السيرة ملامح المرحلة العالمية في سني حياته الأخيرة ، صلوات الله عليه وسلامه ، حين يرسل بالكتب إلى الملوك والزعماء خارج الجزيرة يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ويجمع لأسامة ، رضي الله عنه ، قبيل وفاته ﷺ جيشاً يأمره أن يطأ به البلقاء والداروم من أرض فلسطين . مسلماً بذلك المسامين زمام المرحلة العالمية للدعوة ، ليتابعوا تلك المرحلة حتى آخر الدهر ، ثم ينتقل إلى رحمة ربّه راضياً مرضياً صلوات الله عليه وسلامه .

وهكذا يطّلع دارس السيرة على الإسلام في صورته الحركية العالمية متجسدة في شخص إمام الدعوة ﷺ ، ويرى فيه صفات الداعية وعوامل صياغته ، ويتعلم الأساليب التي يجب أن ينتهجها الداعية في معاملة الناس بكل ألوانهم وصفوهم بدءاً من الأحاب والأصحاب والأهل إلى كل جبهة معادية يواجهها في مسيرته إلى الله .

وخامسها : التمكن لمحبة صحابته ﷺ في قلب المسلم والسعادة بصحبته والتأسي بحياتهم ؛ فالسيرة تكسب المسلم أيضاً محبة صحابة النبي ﷺ إلى جانب محبته ﷺ ، ومحبته مطلوبة لذاتها ، فقد أثنى الله عليهم مهاجرين وأنصاراً في كتابه الكريم ، فقال عزّ من قائل : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) ، وبه النبي ﷺ إلى وجوب محبتهم فقال : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » (٢) .

وسيجد المسلم في صحبتهم ، رضي الله عنهم ، حافظاً على العمل ، وهو يقرأ صنيعهم وكيف كانوا يتخطون العقبات سواء ما قام منها في نفوسهم أو ما يلقونها من أعدائهم .

إن الفاضل منا اليوم ليعجب بنفسه وعبادته ويتحدث عن قيامه بالليل الساعة والساعتين ، فهل قرأ عن قيام عبّاد بن بشر ، رضي الله عنه ، في غزوة ذات الرقاع ؟ ويتحدث أحياناً عن الصدقة والصدقتين ، فهل قرأ عن صدقات أبي بكر وعثمان وأبي الدحداح رضي الله عنهم جميعاً ؟ ويتحدث عن جهاده في سبيل الله واحتسابه الولد أو الأخ ، فهل قرأ عن احتساب المرأة الدينارية أولادها وزوجها ؟ وهل قرأ ما فعل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بخاله يوم بدر ؟ وكيف احتسب حذيفة أباه البان ، رضي الله عنها ، في أحد ؟ ويتحدث عن زهده وخدمته الإسلام ، فهل قرأ كيف أغلق الصحابة الكرام أبواب الدنيا ، واستحالت حياتهم جهاداً في سبيل الله ؛ غزواً في النهار وعبادة بالليل ؟ وكانوا مثالاً وصفهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « أزهّد في الدنيا وأرغب في الآخرة » (٣) .

حقاً إن للسافة شاسعة بيننا وبين أولئك الصحابة الذين ضحوا بكل شيء من أجل الله ورسوله ، بينما وقفنا نحن عند حدود القراءة لأخبار تلك التضحيات الجليلة ، فلئن كان حظنا القراءة وحظهم التضحيات لقد باينونا بوناً عظيماً .

إن المسلم ليسعد بصحبة الصحابة الكرام في السيرة ، يرى فيهم نماذج إنسانية ممتازة لم يعرف مثلها التاريخ تحليقاً روحانياً ولا ارتفاعاً على شهوات الأرض وانتصاراً على النفس وقوة وذكاء وسرعة بديهة وسمو أدب ... لكل واحد منهم قصة مع الله تهز الضمير وتوقظ القلب ، لقد تفاعلوا مع النبي ﷺ فاستقبلوا سمات الهدى وأغلقوا أبواب الماضي وتفتحووا للحياة الجديدة بملاء القلوب ، لا يختزنون من مواهبهم شيئاً ولا يحتجزون عن النبي ﷺ شيئاً بعد أن أكرمهم الله بصحبته عليه الصلاة والسلام ... كانوا يستشعرون نعمة الله عليهم ليلاً ونهاراً ، لا يغيب عنهم ذلك الشعور ، كان دائماً في أعماقهم حياً يقظاً يحرم عليهم النوم ويقض عليهم مضاجع

(١) التوبة : ١٠٠ .

(٢) سنن الترمذي : (ج ٦٦٧/٥) كتاب الناقب - باب ٥٩/ح ٢٨٦٢ .

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء / الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : (ج ١٣٦/١) .

الراحة ويجعلهم في توتر مستمر لا ينسون فيه الإسلام ولا يستطيعون أن يغفلوا عن معركته لحظة ، هم في المعركة دائماً مع النبي ﷺ يشركونه وهج الكفاح ويحملون معه هموم الإسلام .

هنالك لا يجد المسلم مناصاً من أن يقارن نفسه بهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، فتصغر في عينه نفسه ، ويدرك أنه ليس من أهل الحب ولا التضحية ولا الفداء ... وأنه مقصر جداً في حق الله وحق رسوله ﷺ ، فيراجع نفسه وأوراقه ويسعى إلى حياة جديدة فيها الحب الحقيقي لله والانتفاء الحقيقي لرسول الله ﷺ ..

وإن المسلم لتأخذه الدهشة من صنع رسول الله ﷺ كيف استطاع ﷺ أن يحول هؤلاء الذين كانوا حفاة عراة متخلفين تجاوزتهم حضارة الفرس والرومان فيجعلهم بتربيته الربانية أقطاب الأرض وجهابذة الدنيا وأساتذة العالم وأطباء الإنسانية ومنقذي الغرقى من البشر ..

هنالك تزداد ثقة المسلم بمدرسة محمد ﷺ فلا يرضى عنها بديلاً ، ويراجع أسلوب تربيته الخاص وتربية أبنائه موقناً أن الإسلام لم يدع شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا أمر به وأرشد إليه .

وسادساً : توثيق علاقة المسلم بمربيه وإخوته وإضاءة طريقه إلى الله : إن دراسة السيرة النبوية تُمَتِّن صلة المسلم بجماعته ، فإن الجماعة المسامة المباركة المأذونة من قبل الله سبحانه قائدها تمثل لشخص رسول الله ﷺ ، لأنه يقتفي أثره ويقتدي بهديه ﷺ ، ومن ثم فواجب المسلم أن يحمل لشيخه من الحب والكرامة والتقدير والطاعة مثملاً كان يحمله الصحابة لرسول الله ﷺ ، وبغير هذا فلن تكون دعوة ولا جماعة ولن يكون نصر للإسلام ، بل وكل عمل يبذل لخدمة الإسلام خارج هذا الإطار مضیعة للوقت والجهد وسيّر لن يكتب له بقاء .

في السيرة يجد المسلم الجماعة الربانية الرائدة فيرى فيها جماعته ويرى شيخه في شخص المصطفى ﷺ ف « العلماء ورثة الأنبياء »^(١) ، ويرى أحبته وإخوته في الله ، ويجد أحباب الإسلام وأعداءه ، ويرى فيهم جميعاً إيجابياته وسلبياته ، ويتعرف مسارب الإيمان ومسارب الكفر والنفاق في النفوس ، وكيف تكون تزكية النفس واستصغار عطاياها وإرشادها إلى دروب الفلاح .

من الصحابة الكرام يتعلم المسلم كيف يكون حب رسول الله ﷺ ، وكيف يترجم الحب أدياً وتضحية وفداء وتجرداً لنصرة الإسلام ... يتعلم منهم كيف يكون الأدب مع رسول الله ﷺ ، مع العلماء ورثة الأنبياء ، مع الدعاة الكبار الذين ساروا على قدم النبوة ، مع كل من خدم هذا الدين .. يتعلم منهم الأدب الرفيع مع الشيخ ، والحب لإخوته في الله ..

ولسوف يجد في سلوك الصحابة إضاءة لسلكه إلى الله ، ولسوف يرى حلاً لكثير من مشكلاته النفسية وهو يراهم كيف كانوا يتجاوزون نفوسهم ويتغلبون على آلامهم وينتصرون في كل مرة ويقدمون رضا الله على رضا أنفسهم ..

إن السيرة لتغمر المسلم بمناخ إيماني راقٍ من صحبة المصطفى ﷺ وصحبة أحبائه وتفسر له كثيراً من المواقف التي يقابلها في حياته مع شيخه وإخوته ... فلقد كان الصحابة بشراً مثلنا ؛ عقباتهم عقباتنا ، ومواجهتهم مواجهتنا ، وأفراحهم أفراحنا ، ولكن الله اصطفاهم من دوننا ليجتازوا دروب الإيمان ويعيشوا تجاربه تحت إشراف الحبيب المصطفى ﷺ ويجوضوا مصاعبه حتى يصلوا في النهاية إلى قم الإيمان السامقة فيلكنهم الله إمره الدنيا وطبابة الإنسانية . لقد شاء الله أن يكونوا رواداً لنا في مسيرة الإيمان ، فشقوا لنا الطريق وعبدوه ، وضربوا لنا نماذج لا تنال في خدمة الإسلام ، وفي التغلب على النفس ، وفي الانتصار لصوت الحق ، وفي التنازل عن كل شيء من أجل الله والرسول والإسلام ... كانوا يتغلبون على عقبات الطريق ، وكان نصوص الهدف ووضوحه هو الذي يقيلهم من عثراتهم كلما كبوا ... كانوا يذنبون كما ذنب ولكنهم كانوا يتوبون إلى الله لا كما تتوب ، وإن مشاهد التوبة في حياتهم مشاهد تهز الضمير حقاً ... فمن ينسى توبة أبي لبابة ، أو توبة كعب بن مالك ، أو توبة أبي حذيفة بن عتبة ، أو توبة عمر بن الخطاب وعظم شعوره بالذنب يوم جادل النبي ﷺ في صلح الحديبية .. إلى غير ذلك من الأمثلة التي تذخر بها السيرة وتعلن عن عظمة هؤلاء الرجال وعظمة توبتهم ورقبهم الإيماني ومنزلتهم عند الله سبحانه وتعالى .

(١) سنن الترمذي (ج ٤٩/٥) كتاب العلم - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ح ٢٦٨٢ .

وتزويد السيرة المسلم ثقة بمستقبل العلاقة مع الله ضمن إطار الجماعة المباركة ، إذ يرى الصحابة ينتقلون بصورة مذهلة - على يد المصطفى ﷺ - من عالم الوثنيات والضياع والشقاء والضيق إلى عالم الإيمان الرحيب ... كانوا جفاة حفاة في الصحراء طحنتهم حروب الاستعلاء الفارغ والعداوات التافهة واهتمامات وأهداف رخيصة لم يرسمها ولم يوجهها وحي السماء ، فضاعت مواهبهم وجواهرهم النفيسة حتى التفتت يدهم النبوة الكريمة من وحل الوثنية والضياع ، فغسلتهم بماء التوحيد والإيمان ، وعطرتهم بعطر المحبة ، ثم رفعتهم نجومياً هادية في سماء الإنسانية .

هنالك يطمئن المسلم إلى سلامة الطريق الذي يسلكه مع الجماعة ويدرك عظم البضاعة التي يملكها إذ يراها بضاعة المصطفى ﷺ فيحرص عليها ويحيا لأجلها .

وسابعا : غرس الوعي في نفس المسلم وتمكينه من النهوض بأمرته ؛ فدراسة السيرة كفيلا بأن تزرع الوعي في نفس صاحبها ، وتمكّنه من النهوض بأمرته والعودة بها إلى المرتقى الذي ارتقته أيام التنزيل على يد الرسول ﷺ ، والذي عاشت فيه قروناً حتى تغافلت عن منابع النبوة وإرشاد التنزيل المبارك فهبطت المهبوط الطويل وغابت عن مسرح الحياة .

ونحن نفهم هذا في ضوء القيمتين العظيمتين اللتين يذكرهما المؤرخون لدراسة التاريخ ؛ فهم يذكرون أن لدراسة التاريخ قيمتين : قيمة نفعية وقيمة تربوية .

أما القيمة النفعية فتتمثل في أن كل إنسان مسؤول عن مسيرة أمته حضارياً ، وهو لا يستطيع أن يقوم بهذا الدور ما لم يتعرف تلك الحضارة ؛ مكوناتها وظروفها والشخصيات التي أثرت فيها والتي رسمت المنعطقات الكبيرة فيها . والمسلم مسؤول عن ذلك مرتين : مرة أمام الله سبحانه الذي أراد لحضارة المسلم أن تظلّ الإنسانية براية التوحيد والعبودية لله حين خاطبه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) ، ومرة أمام الإنسانية التي تعاني اليوم أفسى ألوان الضياع والشرود عن الله سبحانه وهي تمدّد الاستغاثة ، ولن تكون اليد المنقذة إلا يد المسلم الذي خصّه الله دون سواه بذلك الخطاب الكريم ، يقول أحد العارفين بما معناه : إن الإنسانية لتحتج لدى الله تبارك وتعالى ضد المسلم يوم القيامة ، لأنه لم يبلغها نعمة الإسلام .

إن على المسلم ، إذن ، أن يعرف قيمته وأن يعرف أنه ليس كأحد من الناس أبداً ، إن الله اختاره منقذاً للإنسانية ومرشداً هادياً ، ولا يجوز له أبداً أن يتنازل عن هذا المقام الرفيع لا رغبة بالزعامة ولا استعلاء ، بل لأن ما يعرفه ويقدر عليه من مداواة الإنسانية المريضة لا يقدر عليه غيره ولا يعرفه ، ومن ثم فإن تخليه عن تلك المرتبة وذلك المقام لا يقل جريمة أبداً عن تخلي الطبيب عن عمله في قرية مرض أهلها جميعاً وليس فيها طبيب غيره .

هكذا لا يجوز للمسلم أن يضيّع حياته سدى متثاقلاً إلى الأرض في مشكلات تافهة أو عمل هزيل ، ولن يسأخه الله سبحانه أن يبذل في خدمة الإسلام التسع والتسعين من وقته وطاقته وهو قادر على بذل المائة . ويجب أن يعلم المسلم مع ذلك أن هذا أشرف موقع في الحياة وأرفع مقام ؛ إنها خلافة النبوة فينبغي أن يعدّها لها نفسه إعداداً هائلاً عقدياً وثقافياً وروحياً ونفسياً وسلوكياً .

من هذه الوجهة تبدو دراسة السيرة - وهي جزء من التاريخ العربي والعالمي ، بل هي أرقى حلقة فيه باعتبارها أكبر حدث غير وجه التاريخ - قادرة على تحقيق تلك القيمة النفعية للمسلم ، إذ تعينه على النهوض بأمرته ودفع مسيرتها نحو الخير والارتقاء .

وأما القيمة الثانية لدراسة التاريخ فهي قيمة تربوية ، إذ تكسب صاحبها العادة التاريخية في تناول الحقائق والأسلوب التاريخي في التفكير فيها ، وذلك لأن حقيقة التاريخ ومهمة المؤرخ لا تتقف عند جمع الأحداث بل تتعداه إلى دراستها ومقابلتها وموازنتها ، ثم فرزها إلى صحيح وزائف ، ثم تصنيفها من حيث كونها سبباً أو نتيجة ، وتعين هذه التجربة المتكررة للمؤرخ أن يستنبئ من ورائها ما يقع من أحداث . والمسلم بهذا الاعتبار أولى الناس طراً بأن تكون لديه هذه العادة التاريخية في مقابلة الأحداث ، فلا يجوز له

(١) آل عمران : ١١٠ .

- وأمتة الإسلامية تمر بهذه الظروف الصعبة - أن يقابل الأحداث مقابلة فائرة أو غير مسؤولة فن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم^(١) ، كما لا يجوز له أن يكون ضعيف الوعي غريراً يصدق كل ما يقال وكل ما يلقى إليه من أخبار . وطالما أن المسلم مسؤول عن أمتة وعليه الإسهام في تصحيح مسيرتها ، فأنى له أن يفعل ذلك وهو لا يستطيع تقويم ما يجري حوله من أحداث ، ولا يملك قدرة على الاستنتاج أو الاستكشاف لفقدانه الحسّ التاريخي ، وبالتالي فهو غير قادر على خدمة هذه الأمة ولا على أن يرسم لها طريق الخلاص والنهوض ؟!

لقد طال الزمان على المسلم المعاصر وهو يضل عن الإسلام وأمتة ، فقد صار ضعيف الذهن فاسد المحاكمة ، يتقبل للأسف كل ما يقال له ، يستخفه الكبراء فيطيعهم ويضل عن الطريق لأنه جاهل حقيقة الإسلام ، جاهل أبعاد المؤامرة التي تدبر له والتي امتد تدبيرها قروناً من الزمان من أجل إبعاده عن ساحة الحياة ، وهو غافل لا يعرف ماذا تعني تلك الأخبار التي تلقى إليه أو يعرض عليه سماعها ، غير قادر على فرزها ولا على فهمها أو معرفة أصحابها أو دوافعهم إليها ، ومن ثم فهو غير قادر على الاستنتاج والتنبؤ ولا على الخروج بقرار يخدم أمتة .

إن مشكلة المسلمين اليوم عميقة الجذور ، متعددة الجوانب ، ولا بدّ لحلها من صياغة المسلم صياغة جديدة واضحة الملامح ، واضحة الهدف ، صافية المشارب ، ناصعة الوعي ، على نسق الصورة التي صاغ النبي ﷺ أصحابه الكرام صياغة موافقة لوحي السماء فإذا هم يتدفقون إيماناً ووعياً للقضية ؛ بنى لهم دولة الإسلام ثم سلمهم راية الفتح العالمي ومضى إلى ربّه راضياً مرضياً .

وثامنها : فتح كنوز معرفية للمسلم ؛ فالسيرة نبع لا يغيض من الثقافة والمعارف المتنوعة التي تنفع المسلم في دنياه وآخرته ، فيها معارف جغرافية وتاريخية ، وفيها معرفة واسعة عن أنساب العرب وقبائلهم ومنزلهم وأيامهم ووقائعهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ومعارف هامة حول التنزيل ؛ فإن السيرة هي التفسير العملي لكتاب الله وهي بيان واقعي لمبادئ الدين الإسلامي وأحكامه وتشريعاته ، وفيها معارف حول كثير من أمور العقيدة والأخلاق ، وهي رfid لرجال السياسة والتربية والحرب ورجال الأدب الذين يجدون فيها مادة للأدب الإسلامي ، فاللغة في السيرة هي اللغة التي يحتجّ بها لأنها لغة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتابعين الذين توفوا قبل (١٥٠ هـ) . واللغة في السيرة عموماً لغة مشرقة سهلة ميسرة غير متكلفة لها نور وجمال ، وهي لغة بليغة مؤثرة في القلب ، وكثير مما ورد في السيرة من عيون الأدب العربي وقد جعله البلغاء في مختاراتهم كحديث توبة كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، وقصيدة كعب بن زهير اللامية التي مدح بها رسول الله ﷺ مستشفعاً عنده ... وما من شك في أن نصوص السيرة لوجعلت نصوصاً لمادة الأدب في المراحل المدرسية بل والجامعية لكأنت جديدة بأن تعلم الطلاب التعبير الجميل ولغة العرب المشرقة ، وأن تجعلهم إلى جانب ذلك أناساً ذوي نفوس راقية مشرقة وذوي عزيمة فذة .

وكذلك الأمر في الفن والإعلام الإسلاميين ، فالسيرة نبع فيأض يصلح أن يستقي منه القصّاصون والمسرحيون وكتّاب القصة السينائية والمسلسلات التلفزيونية والرسامون والشعراء والمثقفون الذين يريدون أن يجعلوا ذلك كله في خدمة الدين ووسيلة من وسائل الدعوة إلى الله . يقول أحد الكتّاب المعاصرين في هذا الصدد : نحن في عصر سكت فيه صوت الأسلحة بسبب من التوازن الدولي ، وأخذت ساحات المواجهة والصراع والحوار الحضاري والثقافي ألواناً جديدة ، إنها الحروب الحديثة ، حروب المعلومات والإعلام ، وصراع المبادئ والعقائد والمذاهب المعاصرة والدعايات السياسية والمذهبية التي تغرق العالم بسيلها الجارف وتحاول إعادة تشكيل عقله وزرع عواطفه وتحديد استجاباته والتحكّم بنوقه وسلوكه ابتداء ، إلى درجة أصبحت معها الدول والشعوب المتخلفة في هذا الميدان تعيش وكأنها في معسكرات من الأسر والاعتقال الفكري ، إنه عصر الجبر والتسيير الإعلامي والتحكّم الثقافي والسياسي الذي أصبح يملكنا ويقتحم علينا بيوتنا ويطاردنا في أخصّ خصائصنا ويخطف منا أبناءنا ونساءنا . ولا يجوز للمسلم والحالة هذه أن يستهتر بإحدى وسائل الإعلام والنشر ويتركها لعدو الإسلام يغتال بها قلوب أجيالنا المسلمة وعقولها وعقائدها ، وإن من وسائل الدعوة إلى الله وأساليبها وميادين العمل الإسلامي ومواقفه المؤثرة والفاعلة أوسع من أن تحصر بعصر أو تجمد على شكل أو تحاصر من قبل عدو ، إذا استشعر المسلم مسؤوليته واستعاد فاعليته وأخلص النية وتمس الصواب والترم الحكمة والبصيرة التي أمر الله بها في البلاغ المبين .

☆ ☆ ☆

(١) الحديث أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٤٨/١٠) .

إن عظمة السيرة تأتي من أنها ترد للمسلم ثقته بدينه ونبيه ﷺ ، لأنها الصورة التطبيقية للإسلام والترجمة العملية له في شخص رسول الله ﷺ وصحبه الكرام ، رضوان الله عليهم ، أيام لم يكن المسلم يعرف ذلك الفصام النكد بين العقيدة والسلوك ، وسوف تبقى كنزاً فريداً ومنبعاً فياضاً لإيمان المسلم وحركته في الحياة ومصدراً لمعرفة رسول الله ﷺ .

هكذا تبدو دراسة السيرة فرضاً لا ترفاً علمياً ولا مجرد متعة روحية ، لأنها تزود المسلم بما يثبت به إيمانه ودينه ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فلا بد من الإقبال على السيرة فهماً وحفظاً ووعياً واتباعاً ، وأن نحرص على نقلها إلى الأجيال من أجل أن نعيد إليها حقيقة النبوة وشخصية محمد بن عبد الله رسول الإسلام وخاتم النبيين .

على أن الله جلّ وعلا لا يملك كنوز السيرة إلا للمسلم تائب بدأ مرحلة من التغيير وفتح صفحة جديدة في حياته وأخذ نفسه فيها بالمجاهدة ، وبذل وسعه في مرضاة الله سبحانه ، وأقبل على رسول الله ﷺ بكل همته وقلبه ، وله من العبادات في السر والعلن ومن الصدقات والعمل الصالح لخدمة الإسلام ما لا يعلمه إلا الله ، هنالك يملكه الله تلك الكنوز .

☆ ☆ ☆

تاريخ التأليف في السيرة النبوية

لقد أحسن إلينا الصحابة الكرام غاية الإحسان ، إذ نقلوا لنا صورة صادقة عن حياة النبي ﷺ بدقائقها وتفصيلها ، لنحلّق في أجوائها ونتنسّم أريجها ، ويمجد فيها كل إنسان وكل جيل من الأجيال وكل طبقة من طبقات الناس الهداية والنور والقدوة الحسنة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١) .

وقد كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، أمناء فيما نقلوه ، دقيقين فيما صوروه ، بما وهبهم الله من ذهن متفتح ، وبصيرة نافذة ، وفطرة سليمة ، وأمانة عظيمة ، ومحبة صادقة عميقة جعلتهم حريصين على حضور مجالسه وسماع هديته ، حتى لم يغيب عنهم شيء من أمره ، فكانوا يتناقلون أخباره ، ويشيعون أقواله ، تحذوهم مشاعر الحب والتقدير ، وتدفعهم أمانة التبليغ الملقة على عواتقهم .

وقد تلقف التابعون الكرام من أفواه الصحابة الأجلاء كل ما نقلوه عن نبيهم ﷺ ، وما بيّنوه من أقواله وأفعاله ، وما حدّثوا به من دقائق حياته المباركة ، وسألوهم عن جميع شأنه ، وتوفروا فريق منهم على جمع كل ما قيل عنه ﷺ حتى إذا كانت سنة تسع وتسعين للهجرة في عهد عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وخيف ذهاب العلم والعلماء ، وألحت الحاجة إلى معرفة أخبار النبي ﷺ في الأمصار ، ليعرف الناس سنة نبيهم ﷺ فيتسكوا بها ، ويدركوا طريقة عيشه فينهجوا متهجها ، كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم وهو من شيوخ المحدثين وكبارهم ، طالباً منه أن يدوّن حديث رسول الله ﷺ ، فدوّن ما كان يحفظه منه في كتاب وزعه على الأمصار . كما أمر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ، عالم الشام والمدينة ، بتدوين الحديث ، فدوّن له في ذلك كتاباً ، وأخذ المحدثون بعدها يؤلفون في الحديث كتباً لا يلتزمون فيها نهجاً معيناً في الترتيب والتنسيق ، ثم تدرّجوا في التصنيف فصاروا يبيّون كتب الحديث ، وخصّصوا باباً أطلقوا عليه اسم (المغازي والسير) ، وكانوا يقدّمون بين يدي ذلك حديثاً عن أخبار الجاهلية ، يعرف من خلاله أخبار آبائه ﷺ ، وتتضح طبيعة العصر الذي نشأ فيه .

طبقات المؤلفين في السيرة :

كان في طليعة المؤلفين في السيرة النبوية أربعة ؛ أولهم : عروة بن الزبير^(٢) (المتوفى سنة ٩٤ هـ) الفقيه المحدث العالم بالسيرة ، وقد كان نسبته من قبل أبيه وأمه أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنهم ، أثر في روايته الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبي ﷺ وحياته صدر الإسلام .

وثانيهم : أبان بن عثمان بن عفان^(٣) (المتوفى سنة ١٠٥ هـ) الأموي القرشي ، الفقيه المحدث ، وقد دوّن ما سمع من أخبار السيرة النبوية والمغازي .

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد ، ولد في خلافة عمر ، رضي الله عنه ، سنة (٢٣ هـ) ، وكان ثقة حافظاً ثبتاً فقيهاً ، قال عنه الزهري : « رأيت بجرأ لا ينفذ » ، وقال عبد الملك بن مروان : « من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة » .

(٣) هو ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، ولد ومات في المدينة ، شارك في وقعة الجمل وولي إمارة المدينة وتقدّم عند خلفاء بني أمية . كان من رواة الحديث الثقات ، ومن فقهاء المدينة ، ومن أهل الفتوى . قال عمرو بن شعيب : « ما رأيت أحداً أعلم بحديث ولا فقه من أبان ابن عثمان » .

وثالثهم : وهب بن منبه^(١) (المتوفى سنة ١١٠ أو ١١٤ أو ١١٦ هـ) المؤرخ الثقة ، وقد كانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء وسير الملوك ولا سيما الإسرائيليات .

ورابعهم : شرحبيل بن سعد الخطمي المدني ، العالم بالمغازي والبدرين (والمتوفى سنة ١٢٣ هـ) .
ويعدّ هؤلاء الطبقة الأولى وهم ثقات فيما رووه ، غير أن وهباً أكثر من الرواية عن الإسرائيليات .

وجاءت بعدهم طبقة أخرى ، اشتهر منها في كتابة السيرة النبوية ثلاثة هم : عاصم بن عمر بن قتادة^(٢) (المتوفى سنة ١٢٠ هـ) وهو راوية عالم بالمغازي والسيرة . وابن شهاب الزهري^(٣) (المتوفى سنة ١٢٤ هـ) أول من دوّن الحديث وأحد أكبر الحفاظ والفقهاء . وابن حزم الأنصاري المدني^(٤) (المتوفى سنة ١٣٥ هـ) .

وقد بادت كتب هؤلاء جميعاً ، ولم يبق منها إلا اسمها الذي نجده في بعض مؤلفات المتقدمين ، وإلا بعض نقول عنها نجدها منتثرة في مصنفات من جاء بعدهم من العلماء .

ثم جاءت الطبقة الثالثة من المؤلفين ، وكان أشهر من صنف في السيرة من رجالها : موسى بن عقبة^(٥) (المتوفى سنة ١٤١ هـ) وكان عالماً بالسيرة النبوية ، وقد ألف كتاباً في المغازي ، لم يصل إلينا مع أنه كان موجوداً حتى القرن العاشر للهجرة .

ومعمر بن راشد^(٦) (المتوفى سنة ١٥٤ هـ وقيل سنة ١٥٠ هـ) ، وله كتاب في المغازي لم يصل إلينا سوى نقول عنه ، عند الواقدي وابن سعد خاصة .

ومحمد بن إسحاق^(٧) (المتوفى سنة ١٥١ هـ) شيخ رجال السيرة .

(١) هو أبو عبد الله وهب بن منبه بن كامل الأنباري الصنعاني ، يعدّ من التابعين ، وأصله من خراسان من أهل هراة ، وأمه من حمير ، أخرج كسرى والده من هراة إلى الين فأسلم في عهد النبي ﷺ ، وولد وهب في خلافة عثمان ، رضي الله عنه ، سنة (٣٤ هـ) في صنعاء ، وقد اختلف في وفاته .

(٢) هو أبو عمرو عاصم بن عمر بن قتادة الظفري الأنصاري المدني ، أمره عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل ، قال عنه النسائي : « ثقة » ، وقال ابن سعد : « كان راوية للعلم وله علم بالمغازي والسيرة » .

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ، ولد سنة (٥٠ هـ) ، قيل إنه حفظ القرآن في ثمانين ليلة ، وكان يحفظ ألفين ومائتي حديث ؛ نصفها مسند ، تابعي من أهل المدينة ، رأى عشرة من الصحابة وسمع من سهل بن سعد وأنس بن مالك وغيرها ، رضي الله عنهم ، نزل بالشام واستقر بها ، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله : « عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه » . وقال الإمام مالك : « بقي ابن شهاب وماله في الدنيا نظير » .

(٤) هو عبد الله بن أبي بكر بن حزم الأنصاري المدني ، ولد سنة (٦٥ هـ) ، قال النسائي عنه : « ثقة ثبت » ، وقال ابن سعد : « كان ثقة ، كثير الحديث » ، وقال مالك عنه : « كان من أهل العلم والبصر » .

(٥) موسى بن عقبة بن أبي عياش ، أبو محمد الأسدي ، ولد في المدينة ومات فيها ، التقى وهو غلام سنة (٦٨ هـ) بعبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، وتلمذ على الزهري ، وكانت له في مسجد النبي ﷺ حلقة يُدرّس مغازي رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ، وفق السنين ، وقد قرظه الإمام مالك كثيراً ؛ فكان إذا قيل له مغازي من نكتب ؟ قال : « عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة » . وقد روى كتابه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة (المتوفى سنة ١٥٨ هـ) ، واختصره ابن عبد البر (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) في كتاب : « الدرر في اختصار المغازي والسير » ، وهناك مقتبسات وروايات منه في « عيون الأثر » لابن سيد الناس .

(٦) معمر بن راشد وهو الإمام الحجة أبو عروة الأزدي الحرّاني بالولاء ، فقيه حافظ ، متقن ، ثقة من أهل البصرة ، ولد فيها سنة (٩٥ هـ) واشتهر فيها ، سكن الين وتزوج فيها ، وأقام إلى أن مات فيها . قال الإمام أحمد بن حنبل فيه : « عليكم بهذا الرجل فإنه لم يبق أحد من أهل زمانه أعلم منه » .

(٧) سنن ابن إسحاق بكلمة خاصة .

ويلحق برجال هذه الطبقة محمد بن عمر الواقدي^(١) (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) صاحب كتاب «المغازي» الذي يمثل الصورة الأخيرة من مراحل تطور التأليف في السيرة النبوية في القرنين الأول والثاني للهجرة. وقد تميّز عن غيره بتطبيقه المنهج التاريخي العلمي الفني، فكان يرتب التفاصيل المختلفة للحوادث بطريقة منطقية، ويذكر التفاصيل الجغرافية عن مواقع الغزوات، ويؤرخ لمغازيه بدقة، وتوارخه أدق وأثبت في نظامها من التواريخ الماثلة في كتب السيرة الأخرى، وفي مغازيه أخبار كثيرة لانجدها عند غيره، ويزيد في قيمة أخباره أنه كان يقدم رأيه الصريح في تقويمها.

وقد وضع موسى بن عقبة مع ابن إسحاق والواقدي الأسس التي بنى عليها المؤلفون المتأخرون كتبهم مثل الطبري وابن سيد الناس وابن كثير.

وجاء بعد هؤلاء محمد بن سعد^(٢) (المتوفى سنة ٢٣٠ هـ) صاحب «الطبقات الكبرى»، وهو راوية الواقدي. وزياد بن عبد الله البكائي^(٣) (المتوفى سنة ١٨٣ هـ) وهو راوية ابن إسحاق.

وجاء من بعد ذلك أبو محمد عبد الملك بن هشام^(٤) (المتوفى سنة ٢١٨ هـ) وقد صارت سيرة ابن إسحاق تنسب إليه، وأصبح أكثر الناس يعرفها باسم «سيرة ابن هشام».

(١) محمد بن عمر بن واقد، أبو عبد الله المدني، ولد بالمدينة سنة (١٣٠ هـ)، ورحل إلى بغداد سنة (١٨٠ هـ)، وولي القضاء في عهد المأمون إلى أن مات. كان جواداً مشهوراً بالسخاء، وكان عالماً بالمغازي واختلاف الناس وأحاديثهم، معنياً بجمع التفاصيل عن الأخبار والأحاديث والروايات المختلفة، يكثر سؤال أبناء الصحابة عما سمعوا من المشاهد، ولا يعلم غزاة إلا مضى إلى موضعها يعاينه.

كان علماء عصره في شأنه فريقين: فريق يثني عليه ويوثقه كالخطيب أبي بكر والإمام مالك والدراوردي وأبو يحيى الزهري وابن غير وابن سلام وإبراهيم الحربي. وفريق آخر يضعفه ولا يأخذ بحديثه كالبخاري والرازي والنسائي والدارقطني. وقد أخذ عليه الإكثار من الأخبار الغريبة، وأنه كان يجمع الأسانيد المتعددة ويورد لها متناً واحداً متوخياً الإيجاز إذا كثرت الروايات وتشابهت. وقد علل له ابن سيد الناس ويحيى بن معين وإبراهيم الحربي.

(٢) محمد بن سعد ولد في البصرة سنة (١٦٨ هـ)، لازم أستاذه الواقدي في بغداد يكتب عنه حتى عرف باسم كاتب الواقدي، اتصل بأعلام عصره العدول الثقات وقيد مروياته عنهم حتى وُصف بأنه كثير العلم، كثير الحديث والرواية، كثير الكتب. كسب تقدير معاصريه ومن بعدهم، فأثنوا عليه ووثقوه ووصفوه بالفضل والنبل والفهم وفضلوه على أستاذه الواقدي، ولبعضهم عليه مأخذ. قال عنه الحافظ ابن حجر: «أحد الحفاظ الثقات الكبار المتحررين».

خلف لنا مؤلفات؛ أشهرها كتابه «الطبقات» الذي تحدث فيه عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين إلى عصره، وبلغ من الدقة فيه حداً جعله وثيقة بالغة القيمة. وقد خصص لسيرة النبي ﷺ من هذا المؤلف نحو جزءين، وليس له فيه تعليقات كثيرة، ولكن ما وجد يدل على قدرة نقدية طيبة.

(٣) الحافظ أبو محمد زياد بن عبد الله بن طفيل البكائي الكوفي، والبكائي نسبة إلى بني البكاء من بني عامر بن صعصعة. حدث في بغداد بالمغازي عن محمد بن إسحاق، وكان أتقن من روى السيرة عنه، وقد رواها عنه عبد الملك بن هشام مرتبة فنسبت إليه. قال أبو علي صالح بن محمد: «هو من أثبت الناس في هذا الكتاب، وذلك أنه باع داره وخرج يدور مع ابن إسحاق حتى سمع منه الكتاب». وقال ابن إدريس: «ما أحد أثبت في ابن إسحاق من زياد البكائي لأنه أملى عليه مرتين». توفي في الكوفة في خلافة هارون الرشيد.

(٤) أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتعافري، ولد ونشأ في البصرة، وكان مؤرخاً عالماً بالسير والأنساب واللغة وأخبار العرب. روى لنا من طريق البكائي سيرة ابن إسحاق بعد أن هدبها ونقحها، وحذف قسماً كبيراً مما ليس فيه غناء أو نفع ولاله صلة بسيرته ﷺ، وحذف من الأخبار ما يسوء ومن الشعر ما لم يثبت لديه، هذا إلى تكللة أضافها وأخبار أتى بها. وقد ساق في صدر السيرة منهجه لرواية ذلك الكتاب، والترم جانب الأمانة والحرص فيما رواه، فلم يغير منه كلمة واحدة، وكان يصدر كل كلام يورده لبيان الخطأ أو شرح الغامض أو معارضة الروايات بقوله: «قال ابن هشام». قال ابن خلكان: «وابن هشام هو الذي جمع سيرة رسول الله ﷺ من المغازي والسير لابن إسحاق وهدبها ولخصها. وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس المعروفة بسيرة ابن هشام». توفي في مصر.

شارحو سيرة ابن إسحاق :

لقيت سيرة ابن إسحاق من الدارسين والشارحين عناية صادقة ، كان منهم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي^(١) (المتوفى سنة ٥٨١ هـ) في كتابه « الروض الأنف » تعقب ابن إسحاق وابن هشام بالشرح والتعليق .

كما شرحها أبو ذر الحاشي^(٢) (المتوفى سنة ٦٠٤ هـ) شرح الغريب وتعرض لما فيها من أخطاء .

مختصرو سيرة ابن إسحاق :

عني بعض الكتاب باختصار سيرة ابن إسحاق ، منهم برهان الدين إبراهيم بن محمد الشافعي في كتابه « الذخيرة في مختصر السيرة » وألفه في سنة (٦١١ هـ) . وعماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي في كتابه « مختصر سيرة ابن هشام » وألفه في سنة (٧١١ هـ) . ومنهم في العصر الحديث عبد السلام هارون وسمى كتابه « تهذيب سيرة ابن هشام » .

جامعو السيرة :

وجاء بعد ابن هشام من عني بجمع السيرة النبوية من الكتب التي تقدمت ، فجمعها ابن سيد الناس^(٣) (المتوفى سنة ٧٣٤ هـ) في كتابه « عيون الأثر » وعرضها عرضاً حسناً معتدلاً في الغالب على ما ورد عن ابن إسحاق والواقدي .

كما صنف الفقيه علي بن إبراهيم الحلبي^(٤) (المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ) كتابه « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » المعروف باسم « السيرة الحلبية » في سيرة النبي ﷺ جمع فيه الأخبار المجردة عن الأسانيد ، وجمع بعض الغريب ، وعلق على بعض الحوادث بأسلوب حسن لقي القبول لدى الكثيرين .

مؤرخو السيرة :

وحين انصرفت طائفة من المؤرخين إلى تأليف كتب في التاريخ كتبوا سيرة النبي ﷺ كجزء من التاريخ العام . ومن هؤلاء

- (١) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الحشمي ، أبو زيد السهيلي الأندلسي ، ونسبه إلى سهيل من قرى مالقة ، ولد سنة (٥٠٨ هـ) في مالقة ، ونبغ فيها . كان ضريفاً حافظاً عالماً باللغة والسير . لم يصلنا من مؤلفاته غير « الروض الأنف » ، قال فيه الصفيدي : « وهو كتاب جليل جود فيه ماشاء ، وذكر في أوله أنه استخرجه من نيف وعشرين ومائة ديوان » . وقد دل كتابه على إلمامه وبغزارة اطلاعه في كثير من الأمور وتمكنه في ألوان كثيرة من العلوم ، فكان فيه المؤرخ واللغوي والأديب والنحوي والإخباري والعالم بالقراءات ، وكان السهيلي فوق هذا شاعراً ، عرف بين الناس بالصلاح والورع والتقوى ، كما كان عفاً قنوعاً يرضى بالكفاف ، طلبه صاحب مراكش إليها وأكرمه وتوفي فيها .
- (٢) أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الحياتي الحاشي المعروف بابن أبي الركب . ولد في جيان سنة (٥٣٥ هـ) على الأرجح وشب فيها ، تنقل في مدن الأندلس خطيباً ومدرباً للعبودية وقاضياً ، وأخيراً استقر في فاس وتوفي هناك . كان حامل لواء العربية في الأندلس ، وكان عارفاً بالأدب واللغات والشعر ، نقاداً ، مطلق العنان في معرفة أخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها ، ولم يكن في وقته أضبط منه ولا أتقن في جميع العلوم حفظاً وقلماً ، وكان ذا سمعة ووقار وفضل ودين ومروءة ، كثير الحياء ، وقور المجلس ، معروف بالهدى على سنن السلف .
- (٣) فتح الدين أبو الفتح محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس الشافعي الإمام الحافظ اليعمرى الأندلسي الإشبيلي المصري ، ولد سنة (٦٧١ هـ) في القاهرة ، وسمع الكثير وتفق على مذهب الشافعي ، وأخذ علم الحديث عن والده وعن ابن دقيق العيد ولازمه سنين طويلة وتخرج عليه ، وكان ابن دقيق العيد يحبه ويؤثره ويركن إلى نقله . ساد أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقه والنحو وعلم السير والتاريخ . وكان حافظاً بارعاً وأديباً متقناً وشاعراً ، وهو من بيت رياسة وعلم ، تفرد بالحديث في وقته ، وكان صدوقاً حجة ، له خبرة بالرجال وطبقاتهم ويد طولى في علم اللسان ، ومحاسنه حجة . توفي في القاهرة .
- (٤) أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي . ولد في مصر (سنة ٩٧٥ هـ) وأصله من حلب ، واشتغل بالأدب والتاريخ ، وله عدة مؤلفات مشهورة متداولة بالإضافة إلى السيرة الحلبية . توفي في مصر .

المؤرخين : ابن جرير الطبري^(١) (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) . ويعدّ كتابه المسمى « تاريخ الرسل والملوك » أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب ، أرخ فيه للعالم منذ بدء حدوثه إلى الزمن الذي عاش فيه فجاء تكملة لما قدّمه المؤرخون قبله وتمهيداً لما جاء بعده ، جمع فيه الكثير من الأخبار في كل فن ، وكان ثقة فيما روى . سار على طريقة المحدثين يسوق الرواية وأسانيدها ولا يبدي في ذلك رأياً في الغالب ، وقد نسّق أخباره تنسيقاً حسناً وضمن كتابه فصلاً وبتغافاً من فنون الكتب التي لم يعد لها أثر ، وأورد من أقوال العلماء ما لا يجده في غيره . وقد بلغ ما خصصه لسيرته ﷺ نحو جزء ونصف من كتابه نقل مادتها عن علماء السيرة .

ومن المؤرخين ابن عساكر^(٢) (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) . ويعدّ كتابه « تاريخ مدينة دمشق » درة في تاج التراث العربي الإسلامي فلا يضارعه أي مؤلف آخر ، وهو مؤلف من ثمانين مجلدة ، وقد افتتح تاريخه بالترجمة للرسول الكريم محمد ﷺ ، فأرّخ للسيرة النبوية بجوانبها كلها وما كان فيها من أحداث .

كما صنّف ابن كثير^(٣) (المتوفى سنة ٧٤٤ هـ) كتاب « البداية والنهاية » الذي أرّخ فيه للدول الإسلامية حتى زمانه ، وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام ؛ ضمن القسم الأول سيرة رسول الله ﷺ واعتمد في عرضها على القرآن الكريم والسنة الشريفة وعلى من تقدّمه من كبار المؤرخين وأصحاب السير ، وقد نسّق أخباره ورتبها ، وأثبت أحكامه على كثير من الروايات التي ساقها .

المؤلفون في دلائل النبوة والشاغل :

ولا بد أن نذكر أخيراً من ألقوا في دلائل النبوة والشاغل فكانت كتبهم مصدراً من مصادر السيرة النبوية ، اعتمدها علماء كثيرون فكانوا ينقلون منها أو يعزّون إليها . أشهرهم أبو نعيم الأصبهاني^(٤) (للمتوفى سنة ٤٣٠ هـ) الذي ألف كتاباً سماه « دلائل النبوة » حوى خمسة وثلاثين فصلاً تحدثت عن أسماء رسول الله ﷺ ، واشتهر أمره قبل مبعثه ، وذكر الكتب السماوية له ، كما تحدثت عن صفاته وما خصّه الله به وغير ذلك .

(١) محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ، ولد سنة (٢٢٤ هـ) بأمل في طبرستان واستوطن بغداد وأقام فيها إلى حين وفاته . فقه العلم صبياً ، ورحل في سبيله يافعاً ، ولقي المئتين من الرواة والعلماء ، وطالع صنوف الكتب ، وجال في نواحي كل فن ، وضرب فيها جميعاً بسهم ، حتى أصبح إمام عصره غير مدافع ، كان حافظاً لكتاب الله بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالنسب ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ، بصيراً بأيام الناس وأخبارها ، بارعاً في النحو والشعر واللغة ، ألف كتباً كثيرة ، وظل يكتب أربعين سنة ، وكان ثقة في نقله وتاريخه ، أشهر مؤلفاته كتاب « جامع البيان في تأويل آي القرآن » في التفسير .

(٢) الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، لقب بابن عساكر . ولد في دمشق سنة (٤٩٩ هـ) ، وتردد على مجالس العلم منذ نعومة أظفاره ، وقرأ على طائفة من شيوخ دمشق وعلمائها ، وحضر حلقات الإقراء والتدريس في مسجد بني أمية ، وتلقى الفقه الشافعي . رحل إلى العراق وقرأ على كبار الشيوخ فيها ، وسمع من علماء مكة والمدينة أثناء حجه ، ورحل إلى خراسان وأخذ عن علمائها ، ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها ، وترك مؤلفات كثيرة تزيد عن ستين كتاباً ؛ سائرها في الحديث ، وأشهرها « تاريخ مدينة دمشق » . تناقل العلماء أخبار ذكائه وسعة حفظه ، وطبقت شهرته الأفاق ، وتصدر للحديث ياذن من شيوخه ، وقضى حياته في الجمع والتصنيف والرواية والتأليف والمطالعة والسميع ، وكان أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، تقياً ، كثير العبادة .

(٣) الإمام عماد الدين إسماعيل بن عمر ويكنى أبا الفداء ، يعرف بابن كثير ، قيسياً الأصل ، ولد سنة (٧٠١ هـ) بقرية مجدل في نواحي بصرى الشام حيث كان والده خطيباً ، وانتقل إلى دمشق سنة (٧٠٦ هـ) مع والده ، وقرأ الفقه وسمع الحديث واشتغل بالفتاوى والتدريس والمناظرة ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو ، وتوسّع في فن الرجال وعلل الحديث ، واشتهر فيها بدقّة نظره وسعة اطلاعه ، شهد العلماء كالذهبي وابن حجر بفضله وعلمه . وله تصانيف كثيرة ؛ أهمها كتابه « تفسير القرآن العظيم » ، وكتاب « البداية والنهاية » . توفي ودفن في دمشق .

(٤) أبو نعيم أحمد بن عبد الله المهراني الأصبهاني ، ولد سنة (٣٢٦ هـ) ، جالس العلماء وأخذ عنهم ، ونبغ في سن مبكرة . ذاع صيته وامتدت شهرته وأجازته كبار المشايخ والعلماء . بقي دؤوباً على العلم طول حياته فلم يَزْ إلا مدرساً أو دارساً أو مصنفاً . قال عنه ابن خلكان : « كان أبو نعيم من أعلام المحدثين وأكابر الحفاظ الثقات » . وقال حمزة بن العباس العلوي : « كان أصحاب الحديث يقولون : بقي الحافظ أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير ، لا يوجد شرقاً ولا غرباً أعلى إسناداً منه ولا أحفظ » . وقد أخذ عليه روايته الأحاديث الموضوعة دون التنبيه إليها في كثير من الأحيان ، ولعله كان يكتفي بذكر السند عن التنبيه . ترك الكثير من المؤلفات ؛ منها « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » .

كما ألف أبو بكر البيهقي^(١) (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) كتاب « دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة » وهو درة تصانيفه ومن أنفس وأشمل ما صنف في هذا الموضوع ، اعتمد فيه أساساً على الصحيحين ونقل منها كثيراً ، كما نقل عن سنن أبي داود والترمذي وابن ماجة والنسائي والدارمي ومسند الإمام أحمد والمستدرک للحاكم ، كما أخذ عن مغازي موسى بن عقبة ومغازي الواقدي ، وأكثر الأخذ من سيرة ابن إسحاق ، وفي كتابه أخبار لم ترد إلا عنده . وقد حظي كتابه هذا بتقدير العلماء لأنه شرط أن لا يورد فيه من الأحاديث إلا الصحيح ، ولذلك اتفقت كلمة العلماء على أنه أفضل كتاب في موضوعه من حيث الشمول والصحة والدقة والتهذيب والترتيب .

السيرة والموالد :

وهناك نوع آخر من التأليف في السيرة هو نوع من الاختصار ، إلا أنه اختصار للمقسم الأول من حياة رسول الله ﷺ : مولده ونشأته في طفولته ، وما يتعلق بهذا الولد الكريم وتلك الطفولة المباركة من إرهاصات ، ثم حياته من شبابه إلى بلوغه السن التي حمل فيها الرسالة ، وما طبع عليه من أخلاق مجيدة وشمائل حميدة .

والكتب المؤلفة في هذا النوع لا تعد ولا تحصى ، منها المنظوم ، ومنها المنثور ، ومنها المطول والمختصر والوسط . وأشهر الذين تناولوا التأليف في هذا الموضوع الحافظ ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) ، والحافظ العراقي (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) ، والإمام جعفر البرزنجي (المتوفى سنة ١١٨٧ هـ) .

وقد وضع هذا اللون من التأليف أساساً ليقرأ يوم الاحتفال بذكرى مولده ﷺ من كل عام ، كما درج على ذلك أهل الإسلام بعد القرون الثلاثة الأولى ، وذلك تذكيراً للناس بهذه الصفحات المشرفة من السيرة العطرة ، وتغذية لأرواحهم ، وتحريكاً لعواطفهم السامية نحو حب الإسلام ورسوله وواجب افتدائه بالنفس والأهل والمال .

واليوم أصبحت الموالد وسيلة من أهم وسائل الدعوة إلى الله والإعلام الإسلامي ، التي إن أحسن استخدامها أتت بالثمار الطيبة والنتائج المرضية بإذن الله تعالى .

السيرة والنقد المعاصر :

إن شعور التقديس للسيرة المطهرة دفع كثيراً من العلماء الذين دونوها عن نقد أخبارها ، وكذلك لم يحاول أولئك العلماء على مرّ العصور تفسير أحداثها ، إيماناً منهم بأن المسامين في غنى عن ذلك بسلامة عقيدتهم وتسليمهم بكل ما يصدر عن صلوات الله عليه وسلامه ، وأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

فأما محاولة اتخاذ التاريخ الإسلامي كله ميداناً للدراسة والاختبار ، نستخلص منه القيم والموازين التي لا تستقيم أية برجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها ، فإنها لم تخطر على قلوبهم . ولعلّ السبب في ذلك أن الفكر البشري عامة والفكر التاريخي على وجه الخصوص ما كان قد بلغ درجة من النضج والتطور تتيح له ذلك أساساً .

لم تكن لدى الأجيال السابقة شبهات حول السيرة المطهرة على كل حال ، وإنما بدأت شبهات تحوم في نفوس الأجيال المعاصرة منذ اتجهت نحو الثقافات الوافدة وتحافت عن الثقافة الإسلامية الصافية ، هنالك تجرأ كثير من المستشرقين وأعداء الإسلام على الطعن في السيرة عن طريق تفسير أحداثها تفسيراً يبتريها عن أسبابها الحقيقية بدافع التعصب والهوى كما هو معروف ، فتصدى بعض علمائنا يزيل

(١) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري شيخ خراسان ، ولد سنة (٢٨٤ هـ) في خسروجرد من قرى بيهق ونشأ فيها ملازماً للشيخوخ ، وقد رحل إلى بلاد شتى في طلب العلم كالعراق والحجاز وأصبهان ، وأخذ عن أكثر من مائة شيخ وروى عنه خلق كثير ، وكان ذا همة عالية ونفس سامية لا ترى فوق العلم مطلباً أنفوس منه ، وكان زاهداً متقللاً من الدنيا بالقليل ، كثير العبادة والورع ، وكان فقيهاً أصولياً على المذهب الشافعي . قال عنه ابن الجوزي : « كان واحد زمانه في الحفظ والإتقان وحسن التصنيف ، وجمع علم الحديث والفقه والأصول ... وله التصانيف الكثيرة الحسنة » . ومن مصنفاته : « السنن الكبرى » . توفي ودفن في بيهق .

اللبس عن الأخبار التي تناوها المستشرقون بالظن فجاء تفسيراً إسلامياً ولكنه جزئي ، نرى ذلك في ردود الشيخ محمد عبده ؛ كرده على خير زواج رسول الله ﷺ من السيدة زينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، وغير ذلك من الأخبار .

فلما تمادى الكيد بالأعداء حتى وضعوا نظرياتهم في تفسير التاريخ الإنساني العام - ومنه التاريخ الإسلامي - ورسوا المناهج لذلك ، تنبّه علماءنا إلى ضرورة تفسير تاريخنا كله تفسيراً إسلامياً يصدر عن القرآن نفسه في نظرتة إلى التاريخ الإنساني وتفسيره وإظهار سنن الله فيه .

فمن المحاولات التي ظهرت لهذا المنهج الجديد القائم على عرض التفسير الإسلامي للتاريخ من خلال الرؤية القرآنية ما قام به الأستاذ محمد إقبال في كتابه « تجديد الفكر الديني في الإسلام » ، والأستاذ عبد الحميد صديقي في كتابه « تفسير التاريخ » ، والأستاذ راشد البراوي في كتابه « التفسير القرآني للتاريخ » . إلا أن هذه المحاولات وغيرها كلها لم تسلم من نقد .

وأولى المحاولات الجادة والجيدة في هذا المجال جاءت على يد الدكتور عماد الدين خليل في كتابه « التفسير الإسلامي للتاريخ » أرادته - كما ذكر في مقدمته - أن يكون مرجعاً منهجياً يرتبط بالقرآن ارتباطاً عضوياً ، وسعى فيه إلى كشف الرؤية القرآنية نفسها تجاه حركة التاريخ مستهداً مادة بنيانه من معطيات القرآن ذاته^(١) .

ابن إسحاق :

محمد بن إسحاق صاحب أشهر كتاب في السيرة ، وأعلى ما ألف فيها ، وأشدّها وثوقاً ، ألف سيرته في بغداد في أوائل أيام المهديين بطلب من الخليفة المنصور .

مولده ورحلاته ووفاته : ولد محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار في المدينة المنورة سنة (٨٥ هـ) على الراجح ، وأنضى فيها ثوب شبابه . وتنقل في البلدان الإسلامية فرحل إلى الإسكندرية ثم الكوفة والجزيرة والري والحيرة ، وفي بغداد ألقى عصا الترحال وصنف كتابه السيرة للمهدي ابن الخليفة المنصور ، ووافته منيته فيها سنة (١٥٠ هـ) ، وقيل سنة (١٥١ هـ) حسب ترجيح ابن خلكان ، ودفن في مقبرة الخيزران .

علمه ومكانته : كان ابن إسحاق بجزراً من بحور العلم ، ذكياً ، حافظاً ، نساباً ، عالماً بالسير والمغازي وأيام الناس وقصص الأنبياء ، وقد احتج بروايته في الأحكام قوم من أهل العلم وصدف عنها آخرون ، حدث عن أبيه وعمه موسى بن يسار ، وعن فاطمة بنت المنذر ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وابن شهاب وغيرهم ، وحدث عنه أئمة العلماء ومنهم يحيى بن سعيد الأنصاري ، وسفيان الثوري ، وابن جريج ، وشعبة ، وإبراهيم بن سعد ، وشريك بن عبد الله النخعي ، وسفيان بن عيينة ومن بعدهم . ذكر ابن المديني عن سفيان بن عيينة أنه سمع ابن شهاب يقول : « لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا » يعني ابن إسحاق ، ولما سئل الزهري أيضاً عن مغازيه قال : « هذا أعلم الناس بها » . وقال الشافعي : « من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق » . وقال هارون بن شعبة : « لوسود أحد في الحديث لسود محمد بن إسحاق » ، وقال محمد بن إسماعيل البخاري : « رأيت علي بن عبد الله - أي المديني - يحتج بحديث ابن إسحاق . وسئل أبو زرعة عنه فقال : « من تكلم في محمد بن إسحاق ؟ هو صدوق » ، وقال أبو حاتم : « يكتب حديثه » ، وقال ابن المديني : « مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة » فذكرهم ثم قال : « وصار علم الستة عند اثني عشر ، أحدهم ابن إسحاق » .

ردّ شبهات الطاعنين : وقد تكلم بعض أهل العلم في محمد بن إسحاق ؛ فطعنوا في روايته وانتقصوا علمه ، ومن هؤلاء الإمام مالك بن أنس ، وهشام بن عروة . أما الإمام مالك فقد حنق عليه لأنه جرّح في نسبه فزعم أنه مولى من موالى ذي أصبح ، وكان مالك يرى أنه من أنفسهم ، فوقع بينها لذلك مفاوضة ، فلما صنف الإمام مالك للموطأ قال ابن إسحاق : « ائتوني به فأنا يبطاره » ، فنقل

(١) انظر : التفسير الإسلامي للتاريخ (ص : ٨٠ - ٨) .

ذلك إلى مالك فاتهمه بالرواية عن اليهود ، وكان بينها ما يكون بين الناس حتى عزم ابن إسحاق على الخروج إلى العراق ، فتصالحا حينئذ وأعطاه عند الوداع خمسين ديناراً ونصف ثمرة تلك السنة . ولم يكن الإمام مالك يقدح فيه من أجل الحديث إنما كان ينكر عليه تتبعه غزوات النبي ﷺ من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وقرىظة والنضير وما أشبه ذلك من الغرائب عن أسلافهم . وكان ابن إسحاق يتتبع ذلك عنهم ليعلم ذلك من غير أن يحتج بهم ، وكان مالك لا يرى الرواية إلا عن متقن صدوق .

وأما هشام بن عروة فأنكر على ابن إسحاق سماعه من فاطمة بنت للنذر زوجته ، والذي قاله ليس مما يجرح به الإنسان في الحديث - كما قال أبو حاتم ابن حبان - لأن الرواية قد تكون من وراء حجاب ، وذلك أن التابعين كالأسود وعلقمة سمعوا من عائشة ، رضي الله عنها ، من غير أن ينظروا إليها ، بل سمعوا صوتها . وكذلك ابن إسحاق كان يسمع من فاطمة والستر بينهما مسبل . وقد قال الإمام أحمد في تخطئة هشام : « وما ينكر هشام ؟ لعله جاء فاستأذن عليها فأذنت له » . وسأل يعقوب بن شيبة ابن المديني فقال : كيف حديث محمد بن إسحاق ، صحيح ؟ قال : « نعم حديثه عندي صحيح » قلت له : فكلام مالك فيه ، قال : « لم يجالسه ولم يعرفه » ... قلت له : فهشام بن عروة قد تكلم فيه ، قال علي : « الذي قال هشام ليس بحجة ، لعله دخل على امرأته وهو غلام فسمع منها » .

وقد أخذ على ابن إسحاق أنه يروي عن مجهولين ، وهذا لا يوجب ردّ روايته ، بل يفرّق بين بعض حديثه وبعض ، فیردّ ما رواه عن مجهولين ، ويقبل ما حمله على المعروفين ، وأخذت عليه مأخذ أخرى لا تثبت لدى التحقيق ولا توقع في روايته كبير وهن . ويكفي ابن إسحاق توثيقاً أنه روى عنه الأئمة الثقات وروى عنه أصحاب الكتب الستة : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

☆ ☆ ☆

مقدمة عن وضع الجزيرة العربية قبل الإسلام

موقع الجزيرة العربية وحدودها :

جزيرة العرب هي أكبر شبه جزيرة في العالم ، تبلغ مساحتها أكثر من مليون ميل مربع بقليل ، تحيط بها المياه من أطرافها الثلاثة ، ويطلق علماء العرب عليها تجوزاً اسم جزيرة العرب . وهي تقع في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا ، ويحدها من الشرق الخليج العربي المعروف عند اليونان باسم الخليج الفارسي ، ومن الجنوب بحر العرب الذي هو امتداد للمحيط الهندي ، أما حدها الغربي فهو البحر الأحمر المعروف باسم بحر القلزم في الكتب العربية ، وحدها الشمالي خط وهمي^(١) يمتد في اصطلاح علماء العرب من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي .

والجزيرة العربية لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي ، فأما باعتبار وضعها الطبيعي الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ، وهذا الوضع جعل الجزيرة حصناً منيعاً لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويسيطروا عليها سيطرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً في جميع الشؤون منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين هما فارس والروم ، لم يكونوا يستطيعون دفع هجاتها لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة لموقعها الجغرافي الخارجي فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم ، وتلتقي بها برّاً وبحراً ؛ فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقية ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا ، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم والشرق الأوسط والأدنى ، وتفضي إلى الهند والصين ، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحراً ، وترسي سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة مباشرة .

وهذا الموقع المتوسط جعل شمالي الجزيرة وجنوبيها مهبطاً للأمم ومركزاً لتبادل التجارة والثقافة والديانة والفنون ، كما جعلها مهداً لنبوات كثيرة ومبعثاً لعدد من الأنبياء كسيدنا هود وسيدنا صالح عليهما السلام^(٢) .

طبيعة الجزيرة وأقسامها :

إذا نظرنا نظرة عامة إلى خارطة جزيرة العرب نرى أنها أرض مرتفعة في الغرب تسيطر على السواحل الضيقة ، تنحدر المنحدراراً شديداً وتكوّن سلاسل من المرتفعات متصلاً بعضها ببعض ، تبدأ من اليمن وتمتد شمالاً حتى أطراف بادية الشام ، ويطلق عليها عدة أسماء ؛ فهي جبال السراة (السراة هي الأرض المرتفعة) وهي جبال السروات ، وهي جبال الحجاز . كما كانت تسمى باسم الإقليم الذي هي فيه ، فيقال جبال الحجاز في الحجاز ، وجبال عسير في إقليم عسير .

أما في الشرق فيكون المنحدر الأرض تدريجياً وطويلاً ، ولذلك فالأقسام الغربية من الجزيرة أعلى من الأقسام الشرقية .

وتمتد في الأقسام الجنوبية من الجزيرة سلاسل من الجبال تسيطر على المنخفضات الساحلية ، وتتصل بسلسلة جبال اليمن ،

(١) وذلك من الناحيتين الجيولوجية والتاريخية ، إذ أن أرض الهلال الخصيب جيولوجياً وحدة لا يمكن فصلها عن تربة الجزيرة ، وجزء لا يختلف من حيث طبيعته الصحراوية وخواصه عن سائر أنحاء بلاد العرب . أما من الناحية التاريخية فإن هذا الخط وهم وخطأ ، لأن العرب سكنوا في شمال هذا الخط قبل الميلاد بمئات السنين ، فقد سكنوا في العراق من ضفة نهر الفرات الغربية ، وامتدوا في البادية حتى بلغوا أطراف الشام ، وسكنوا في فلسطين وطور سيناء حتى بلغوا ضفاف النيل الشرقية .

(٢) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / للدكتور جواد علي (ج ١/١٤٠ - ١٤٣) ، والرحيق المختوم / للشيخ صفي الرحمن المباركفوري

(ص : ١٩ - ٢٠) .

وتكثر فيها الأودية ، ويكون أعلى ارتفاع لهذه السلاسل في أقصى الجنوب الشرقي ؛ أي في عُمان حيث يبلغ ارتفاع الجبل الأخضر زهاء عشرة آلاف قدم .

وأما الأرض الوسطى من الجزيرة فتتألف من هضبة تدعى نجداً ، وفيها منطقة جبلية تتكون من الغرانيت يقال لها جبل شهر ، وقد عرفت قديماً بجبلي طييء ، وتتألف من سلسلتين يقال لإحدهما أجاً وللأخرى ساسى . وهناك منابع عديدة للمياه في شعاب هذه السلسلة وفي السهل الكبير المنبسط بينها . وأما جبل طويق فهو مرتفعات تقع في الوسط الشرقي من نجد ، وتتألف من الحجارة الرملية وتحيط بها الصخور والحجارة الكلسية .

وإذا استثنينا اليمن وعُمان وبعض الوديان الواقعة في سلسلة الجبال الغربية وفي نجد والأحساء ، فإن أغلب أرض الجزيرة تتكون من بوايدٍ سهول تغلبت عليها الطبيعة الصحراوية . والأراضي التي تعد اليوم من المجموعة الصحراوية هي : الحِزار أو الأراضي البركانية ، والدهناء ويطلق على القسم الغربي منها اسم الأحقاف ، وهو منطقة واسعة من الرمال بها كتبان اقترن اسمها باسم عاد : ﴿ وَأَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ (١) . والنفوذ وهي صحراء واسعة ذات رمال بيض أو حر تذروها الرياح فتكوّن كتباناً مرتفعة وسلاسل رملية متوجة . (انظر مصور الجزيرة الطبيعي) .

أما عن المياه فليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف مثل نهر دجلة أو النيل ، بل فيها أنهار صغيرة ، وهي لذلك تعدّ في جملة البلاد التي تنقل فيها الأنهار والبحيرات ويتغلب عليها الجفاف .

ويقل فيها سقوط الأمطار ، ولذلك أصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان ، غير أنها كثيرة الأودية ، تطغى عليها السيول عند سقوط الأمطار ، وقد تكون هذه السيول خطراً يهدد القوافل والمدن والأملاك ويأتي على الناس بأفدح الخسائر . ونذكر من هذه الأودية : وادي الرمة ، ووادي الحمض أو وادي إضم كما كان يسمّى قديماً ، ووادي السُّرحان . وإلى جانب هذه الأودية يوجد في الجزيرة العربية عدد من البحيرات والآبار ، بالإضافة إلى العيون التي توجد في الواحات والتي تقوم حولها في العادة حياة مستقرة ، وأهم هذه الواحات بيشة . ونتيجة لقلّة المياه في الجزيرة فإن الزراعة فيها محدودة وناتجها لا يكفي لإعاشة السكان .

ويذكر الهمذاني في كتابه (صفة جزيرة العرب) أن العرب كانوا يقسمون بلادهم إلى خمسة أقسام هي :

١ - الحجاز : ويمتد من تخوم الشام عند العقبة إلى الليث وهو وادٍ أسفل السراة يدفع في البحر ، فتبدأ عندئذ أرض تهامة ، ويقال للقسم الشمالي من الحجاز أرض مدين وحسمى ، نسبة إلى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم ، والتي تتجه من الشمال نحو الجنوب . وقد سمي هذا القسم بالحجاز لأنه يحجز بين اليمن والشام .

وتتخلل الحجاز أودية عديدة ، منها وادي الحمض (إضم) الذي ورد ذكره في أخبار سرايا رسول الله ﷺ ، ووادي القرى وهو وادٍ مهم ، ويمرّ به طريق القوافل القديم الذي كان شرياناً من شرايين الحركة التجارية في العالم ، ومن أهم مواضع وادي القرى العُلا . وتعدّ مكة والمدينة أهم مدن الحجاز ، ففي أولها الكعبة المشرفة ، كما أنها مكان ولادة النبي ﷺ ، ومهبط الوحي . والمدينة هي مكان هجرته ﷺ ويؤوي تراها جسده الطاهر .

ومن المدن المشهورة في الحجاز الطائف ، وهي بلدة خصبة طيبة المناخ ، كثيرة الساتين والعيون ، تقع جنوب شرقي مكة . وخيبر وتقع في الشمال الشرقي من المدينة على طريق قوافل الشام .

٢ - تهامة : ويطلق هذا الاسم على الأرض الممتدة من غرب جبال السراة إلى ساحل البحر الأحمر ، وهي منطقة شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف ، ومن هنا سميت تهامة من التهم وهو شدة الحر وركود الرياح . وتسمى أيضاً بالفور لانخفاض أرضها . وهي تتألف من تهاّم ؛ فهناك تهامة اليمن وتهامة عسير وتهامة الحجاز . ومنها تمر القوافل التجارية التي تسلك الطريق الغربي الذي يمتد متاخماً للبحر الأحمر . وأهم مدنها جدّة وهي ميناء مكّة ، وينبع وهي ميناء المدينة .

(١) الأحقاف : ٢١ .

٣ - الين : وتقع في الركن الجنوبي الغربي للجزيرة ، وهي تمتد على طول المحيط الهندي ، ويحدها البحر الأحمر من الغرب والحجاز من الشمال . وتحترق السراة الين من الشمال إلى الجنوب حتى البحر ، وتتخللها الأودية التي تنساب فيها الأمطار . وقد سميت بهذا الاسم لأنها تقع على يمين الكعبة ، أو لأنها بلاد اليمن والخير والبركة ، وكان القدماء يسمونها بلاد العرب السعيدة أو الين الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها . وقد قيل في سبب التسمية أقوال أخرى .

وكانت بلاد الين تقسم إلى عدة أقسام هي : حضرموت ، وعمان ، ومهرة وتعرف عند الجغرافيين باسم الشحر ويطلق اليوم اسم الشحر على الميناء الغربي وحده ، ونجران . وأهم مدنها صنعاء .

٤ - نجد : وتشمل المنطقة التي تقع شرقي الحجاز وتمتد حتى الخليج العربي . وحدود نجد غير محددة تماماً في الكتب الجغرافية العربية وذلك بسبب تعدد الآراء والأقوال . وهي مرتفع فسيح فيه صحروات وجبال ، وقد سميت بهذا الاسم لارتفاع أرضها . ويتصور كثير من الناس أن نجداً أرض قاحلة تماماً ، وهذا خطأ إذ أنها تشتهر بمراعيها التي تربي فيها أشهر الخيول العربية ، وأهم مدنها الرياض وحائل .

٥ - العروص : وتشمل الهامة (وقاعدتها حَجْر) والبحرين وما والاها . وأغلب الأرض فيها صحارى وسهول ساحلية . وسميت بالعروض لاعتراضها بين نجد واليمن .

ولا بد من الإشارة هنا - ونحن نتحدث عن صفة جزيرة العرب وأقسامها - إلى جزيرة سوقطرة من الجزر التي تقابل الساحل عربي الجنوبي ، وهي جزيرة كانت تعادل وزنها ذهباً يوم كان البخور والصبر يعادلان بالذهب ، أما اليوم فلا نجد سكانها لحاصلهم السوق القديمة لزوال دولة المعابد والملوك الآلهة ، وحلول عهد الذرة والنفط . وسكان هذه الجزيرة منذ القدم خليط من عرب وإفريقيين وهنود ويونان ، وهي اليوم في قبضة الإنكليز^(١) . (انظر مصور الجزيرة الطبيعي) .

سكان الجزيرة وطبيعتهم :

تغلغت الطبيعة الصحراوية على شبه الجزيرة ، وظهر الجفاف عليها لعوامل طبيعية ، وبسبب الموقع الجغرافي - كما تقدم - فكان ذلك كله سبباً في قلة سكانها في الماضي والحاضر ، رغم اتساع مساحتها ، وسبباً في عدم نشوء مجتمعات حضرية وحكومات مركزية كبيرة فيها ، وسبباً في نقشي البداوة وغلبة الطبيعة الأعرابية على أهلها ، وبروز روح الفردية عندهم ، وتقاتل القبائل بعضها مع بعض ، لذلك انحصرت الحضارة في الأماكن المطيرة والأماكن التي خرجت منها المياه الجوفية عيوناً وينابيع ، أو قاربت المياه فيها سطح الأرض فأمكن حفر الآبار فيها ، كما في مكة المكرمة ويثرب والحيرة واليمن التي كانت تعدّ من أرقى بلاد العرب حضارة .

فالحياة في جزيرة العرب مرتبطة بوجود الماء ، وإليه كان الأعراب ينتقلون من موضع إلى آخر ، فكانوا لا يرتبطون بالأرض ارتباطاً للزارع بأرضه ، فلا يستقرون في مكان إلا إذا وجدوا فيه الكلاً والماء ، فإذا جفّ الكلاً وقلّ الماء ارتحلوا إلى مواضع جديدة .

ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية ، يمثّل مجتمعهم في القبيلة ، وكانت هذه الحياة لاتعرف الراحة والاستقرار ، ولا تعترف إلا بنطق القوة ، حياة جلبت المشقة لأصحابها ، والمشقة لمن يقيم على مقربة منهم في الحضر ، فهم في نزاع دائم فيما بينهم ، ثم هم في نزاع مع الحضر^(٢) .

ولكن العرب من جهة أخرى على جانب كبير من الصفات الخلقية الرفيعة والمثل والقيم ، ينطق بذلك شعرهم وحكمهم ، مما رشحهم لأن يختارهم الله ، تبارك وتعالى ، حملة لأعظم رسالة في تاريخ الأرض ونقلها إلى غيرهم . وسوف يأتي تفصيل هذه الصفات .

(١) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١/١٤٤-١٧٤ ، ١٨٣) ، ومعالم تاريخ العرب قبل الإسلام / د . أحمد أمين سليم (ص : ٩٥ -) ، وتاريخ العرب القديم وعصر الرسول / د . نبيه عاقل (ص : ٢٨-٣١) .

(٢) انظر السيرة النبوية / للدوي (ص : ٥٤-٥٥) .

أنساب العرب ومنازلهم :

للنسب عند العرب شأن كبير ، ولا يزال العربي يقيم له وزناً ، فعلى نسب المرء في البادية تقوم حقوق الإنسان ، ففسبه هو الذي يحميه ويحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه ، فالانتماء إلى عشيرة أو قبيلة أو حلف هو حماية للمرء وجنسية في عرف هذا اليوم ، فالقبيلة هي قومية الأعرابي وحياته منوطه بحياتها ، ولهذا كانت قومية أهل الوبر (البدو أو الأعراب) قومية ضيقة لا تتعدى حدود القبيلة ومصالحها ، ومن هنا صارت القبائل كتلاً سياسية ، كل كتلة وحدة مستقلة ، لا تربط بينها إلا روابط المصلحة والفائدة والقوة والضعف والنسب . والعادة انتساب كل قبيلة إلى جد تنتمي إليه وتدعي أنها من صلبه وأن دماؤه تجري في عروق القبيلة ، وتتباهى به وتتفاخر .

ويذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أول من أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها في ديوان ، وذلك عند فرضه العطاء في سنة خمس عشرة أو عشرين للهجرة ، وقد كان النسابة في الجاهلية والإسلام يحفظون الأنساب في ذاكرتهم وقد امتازوا بشدة الحافظة ، وكان لهم شأن خطير بين قومهم لأنهم المرجع في هذا الشأن .

وقد ضاعت أصول الجرائد التي دوّنت عليها الأنساب في ذلك الديوان ، ويظهر أن أهل الأخبار لم ينقلوا صورها وإنما أخذوا الأسس التي قام عليها التسجيل حيث أشاروا إلى أن الخليفة استند إلى أساس الوضع القائم للقبائل والقربى برسول الله ﷺ . ولم يقتصر التسجيل المذكور على نسب القبائل في البادية فحسب بل شمل ذلك نسب أهل القرى ككة والمدينة والطائف وغيرها ، لأن أصحابها وإن أقاموا واستقروا إلا أنهم كانوا كالأعراب من حيث الانتساب إلى الآباء والأجداد ، لأن حياتهم الاجتماعية حملتهم على التمسك بعصبية النسب للمحافظة على الأمن والسلامة والمال لعدم وجود حكومة قوية تقوم إذ ذاك بتأمين هذه الواجبات .

وعلى الرغم من التسجيل المذكور الذي كان لأغراض حكومية رسمية (العطاء) ، فإن أنساب القبائل لم تثبت وتستقر إلا بعد ذلك بأمد ، وقد حصل في العصر الأموي خروج قبائل من نسب قديم ودخولها في آخر جديد .

وقد ساعد شروع النسابين في تدوين علمهم في تثبيت الأنساب وإقرارها لاسيما أنساب القبائل المشهورة المعروفة .

وقد كان لعمل الخليفة الراشدي عمر ، رضي الله عنه ، في تسجيل الأنساب أهمية كبيرة للباحثين في هذا الشأن ، لأنه ثبت الأسس ووضع القواعد للنسابين في الإسلام وقفل من الاضطراب الذي كان يقع في النسب ، وعليه سار المسلمون في تقسيم العرب إلى أصليين كما سيأتي .

وننتهي من هذه المقدمة عن أهمية النسب وتدوينه إلى ما خلاص إليه المؤرخون والنسابة بهذا الشأن مع التأكيد على وجود خلاف أشير إليه أحياناً . وسأكتفي بذكر القبائل الكبرى أو المشهورة والإشارة إلى بطونها إن كانت مهمة ، ومن أراد المزيد يمكنه العودة إلى دليل السيرة وكتب الأنساب ففيها الكفاية .

اتفق معظم المؤرخين على تقسيم العرب من حيث القدم إلى ثلاث طبقات : عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة . أما العرب البائدة فهم العرب القدامى الذين هلكوا واندثروا قبل الإسلام ، ولم يبق منهم غير آثار وذكريات وقد ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم ، منهم عاد وثمود وعملق وجزهم الأولى^(١) .

وأما العرب العاربة ، وتسمى بالعرب القحطانية في عرف النسابين ، فهم العرب الخالص المنحدرة من صلب قحطان ، ومنازلهم الأولى في اليمن ، ويقال لهم لذلك عرب الجنوب . وقحطان في رأي أكثر النسابة هو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن يسام بن نوح عليه السلام .

(١) وجرم هؤلاء غير جرم القحطانية على رأي النسابين ، ولذلك يقولون لجرم هذه جرم الأولى ويرجعون نسبها إلى عابر بن شالخ ، ولجرم القحطانية جرم الثانية وينسبها البعض إلى جرم بن قحطان وهم أصهار إسماعيل عليه السلام . انظر : المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام

وأما العرب المستعربة فتسمى بالعرب العدنانية عند النسابين ، وموطنهم الأول مكة المكرمة ، ويقال لهم عرب الشمال ، وهم من صلب إسماعيل بن إبراهيم عليها السلام . قيل لهم العرب المستعربة لأنهم انضموا إلى العرب العاربة وأخذوا منهم العربية ، فهم الفرع والقحطانيون أو العرب العاربة الأصل . وعدنان في نظر العدنانيين هو جدهم الأعلى ، كما أن قحطان هو الجد الأعلى للقحطانيين ، ولما كانت الطبقة الأولى من العرب قد بادت وذهبت ، تكون العرب الباقية وكلها من ولد قحطان وعدنان ، استوعبت شعوب العرب كلها .

وقد اشتهرت من القبائل القحطانية قبيلتان : جُرهم ويعرَب ، ومن يعرَب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين هما : حمير وكهلان ابنا سبأ .

أما حمير فأشهر بطونها قضاة ويختلف في نسبتها إلى حمير ؛ إذ يدخلها بعض النسابة في عدنان^(١) ولا يوافقون على إلحاق نسبتها بالين . ومن فروع قضاة : بلي ، وجهينة ، وكلب ، وبهراء ، وعذرة .

وأما كهلان فهي مجموعة قبائل ضخمة أضخم من قبائل حمير ، وأشهر بطونها همدان ، وطيبى ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، وجذام ، والأزد ؛ ومن فرع الأزد : الأوس والخزرج وأولاد جفنة وهم الغساسنة ملوك الشام .

ولما أخذ الينيون بأسباب الحضارة قامت لهم عدة ممالك ؛ منها سبأ وحمير ، وقد حاول بعض ملوك سبأ الاستفادة من مياه الأمطار الكثيرة ، فأقاموا سدًا لحفظ المياه وراءه يسمى العرم بلسانهم ، وقد تحولت أراضيهم بتنظيم الري في هذه البلاد إلى جنات كما فصل القرآن الكريم ذلك في سورة سبأ .

وحين أخذت بلاد اليمن في الاضطراب ، وعجز أهلها عن إصلاح السد الذي أقامه أسلافهم ، وحين فشلت تجارتهم لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام ، هاجرت بطون كهلان عن اليمن وانتشرت في أنحاء الجزيرة ، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم^(٢) .

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان .

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

١ - الأزد : وكانت هجرتهم على رأي سيدهم وكبيرهم مزيقياء عمرو بن عامر ، فساروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال ، فأما ثعلبة بن عمرو فتوجه نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذي قار ، ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو يثرب ، فأقام بها واستوطنها . ومن أبناء ثعلبة هذا : الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة .

وسار حارثة بن عمرو وبنوه - وهم خزاعة^(٣) - في ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمر الظهران^(٤) ، ثم توجهوا نحو الحرم فقتلوا مكة وأجلوا عنها سكانها الجراهمة ، وهم من القبائل القحطانية القديمة ، وانتزعوا منها سدانة البيت واحتفظوا بها إلى أن انتقلت إلى قريش كما سيأتي .

(١) يقال : قضاة هو الولد البكر ليمعة بن عدنان ، ويقال بل هو ابن مالك من حمير . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧/١) .

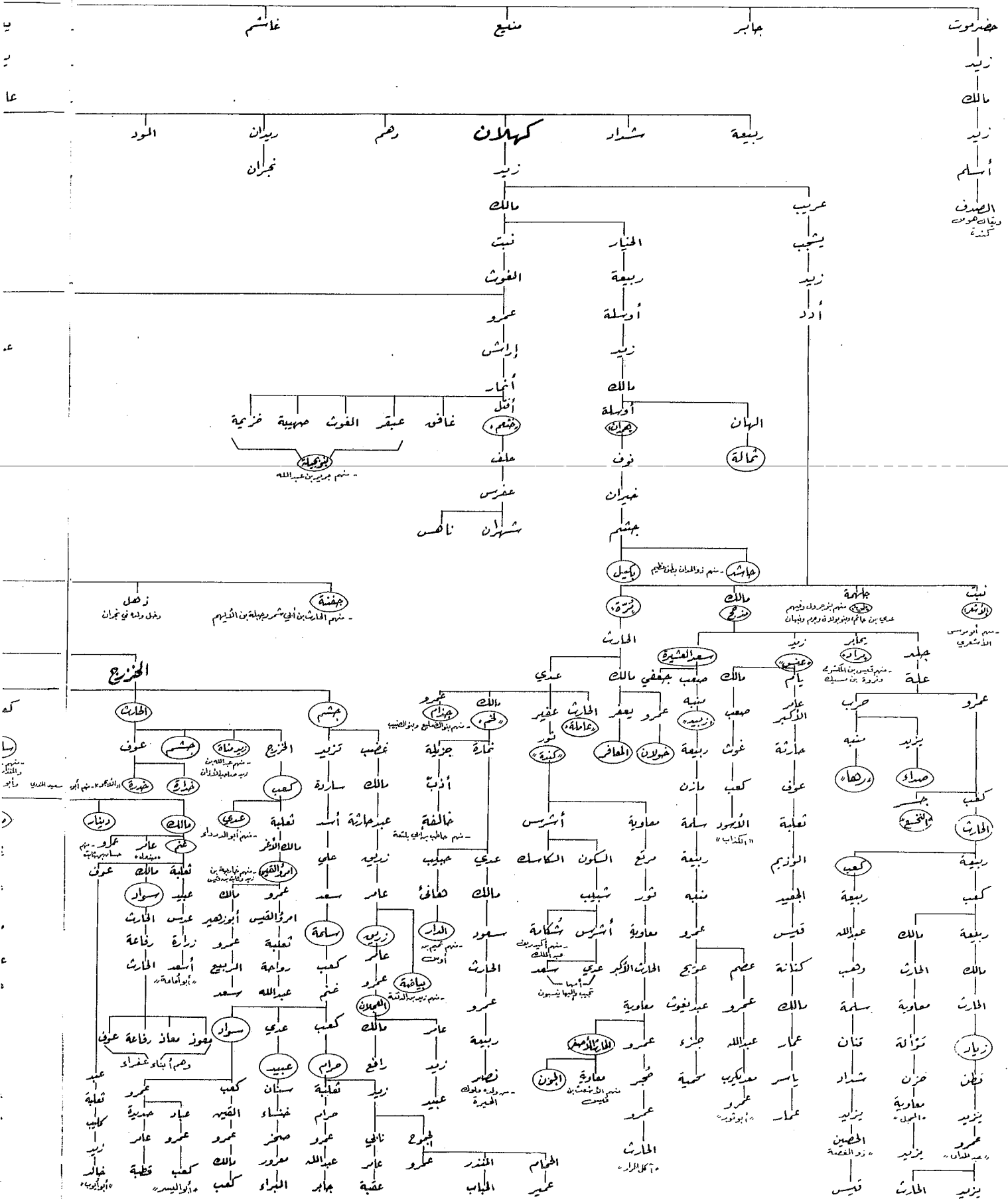
(٢) سيل العرم الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة سبأ والذي كان سبباً في تدمير سد مأرب للمرة الأخيرة حدث بعد عام ٥٥٠ م أي قبيل مولد النبي ﷺ بسنوات قليلة . ومن الثابت أن السد لم يهدم مرة واحدة بل تعرض للإهمال والكوارث الطبيعية مراراً منذ أواسط القرن الرابع الميلادي . انظر : معالم تاريخ العرب قبل الإسلام / د . أحمد أمين سليم (ص : ١٠١ ، ١٠٣) .

(٣) اختلف في نسب خزاعة ، فقيل : خزاعة في مضر وهم من ولد قحمة بن إلياس بن مضر ، وقيل : هي قحطانية من اليمن من ولد عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو ، وقيل : خزاعة هم أولاد أفضى ولحيّ ابني حارثة بن عمرو . وإنما قيل لهم خزاعة لأنهم تخزّعوا ؛ أي انقطعوا عن قومهم وفارقوهم حين أقبلوا من اليمن . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨١/١ ، ٩٨-٩٩) ، ونسب معدّ والبن الكبير / لابن الكلبي (ج ٤٣٩/٢) .

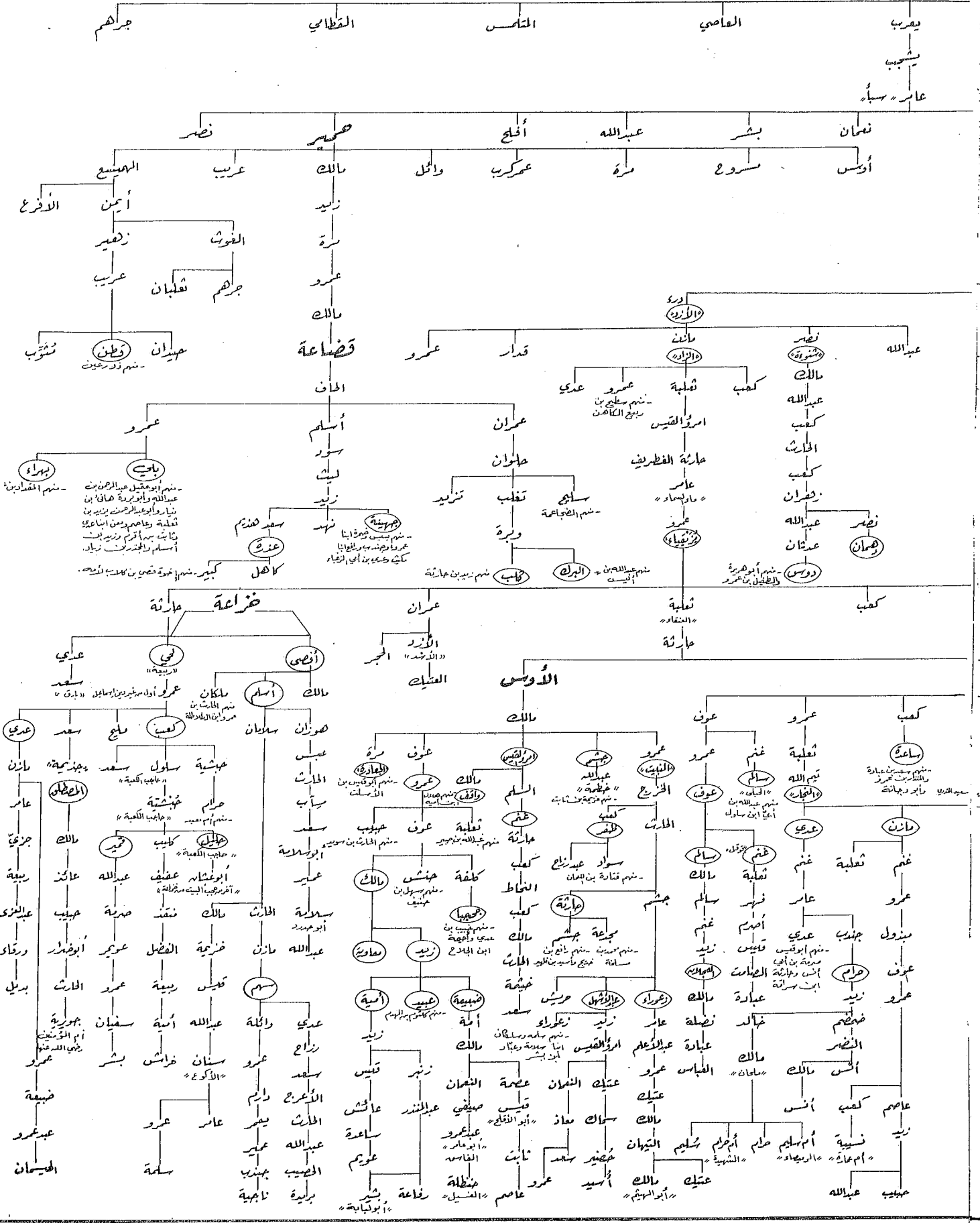
(٤) الظهران : وإد قُرب مكة وعنده قرية يقال لها مَرّ تُضاف إلى هذا الوادي فيقال : مَرّ الظهران (معجم البلدان) ج ٩٠/٦) .

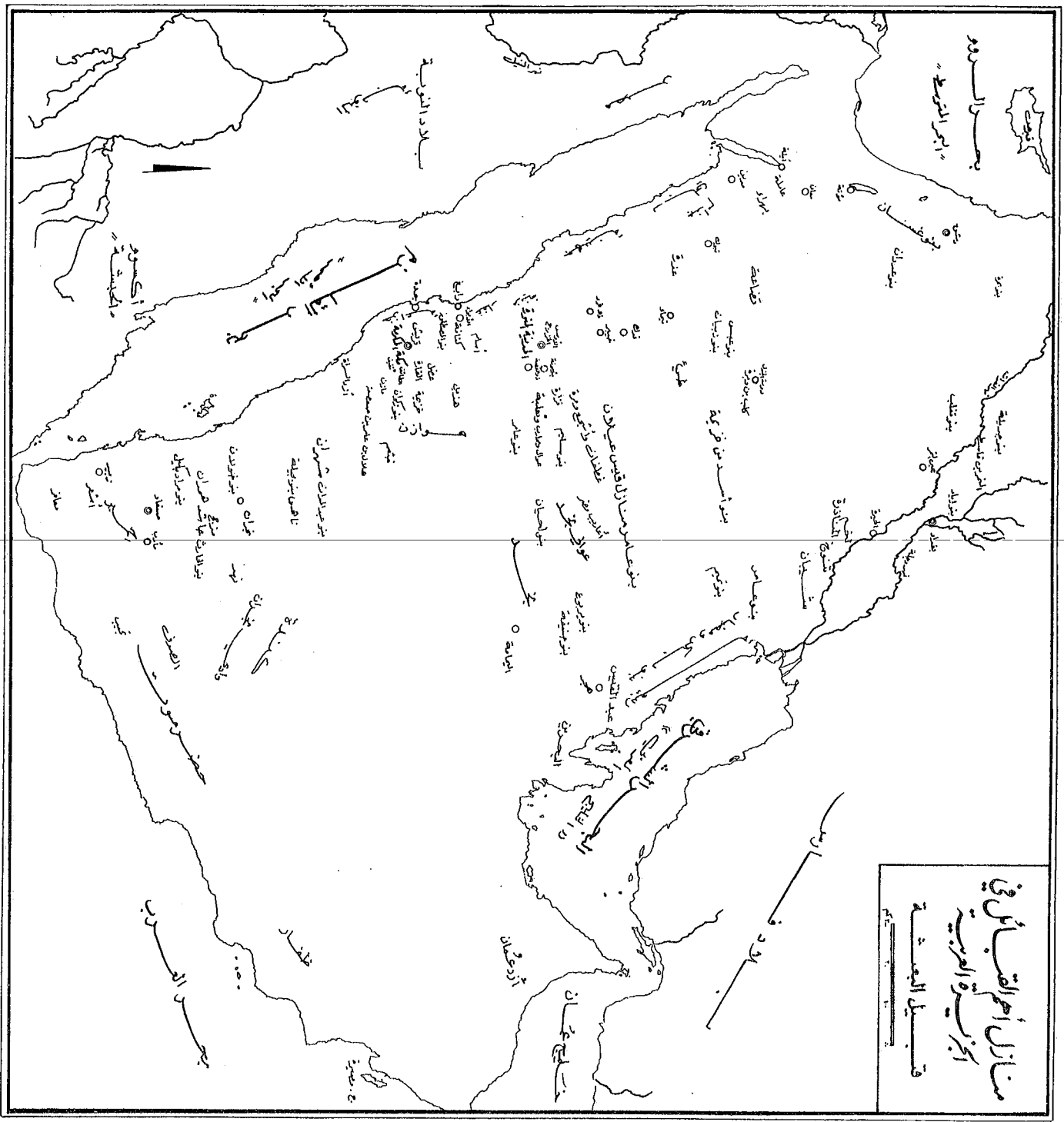
الأنساب القحطانية

قحط



حطبان





وأما عمران بن عمرو فاتجه نحو عُمان فنزلها واستوطنها هو وبنوه ، وهم أزد عُمان . واتجهت قبائل نضر بن الأزد نحو الشمال ، فأقامت بتهامة ، وهم أزد شَبْوَةَ ، وذهب قوم منهم إلى العراق . ذُكر أنهم سَمُوا شَبْوَةَ لَشَنَّانٍ ؛ أي تباغضُ تَوقَع بينهم ، أو لتباغضهم عن بلدهم .

وسار حَفْنَةَ بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة ، وسَمُوا بذلك نسبة إلى ماء في الحجاز يقال له غَسَّان ، كانوا قد نزلوا به أولاً قبل رحيلهم إلى الشام .

٢ - لَحْمٌ وَجَدَامٌ : وكان مسير قبيلة لحم بن عدي إلى الحيرة فنزلوا بها وسكنوها ، ومنهم نضر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة . أما جَدَامٌ فنزلت في القسم الجنوبي من بلاد الشام في جبال حِمْيَ وِراء وادي القرى .

٣ - طَبِيءٌ : وسارت قبيلة طَبِيءٍ بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلت بالجبلين أَجَاً وَسَلْمَى ، وأقاموا هناك ، حتى عُرف الجبلان بجبلي طَبِيءٍ . وقد ورد ذكر هذين الجبلين كثيراً في أشعار العرب الطسائيين لما لها من المنعة والحصانة ، وبها كانوا يستهينون بسُلطان الملوك من بني نصر .

٤ - كِنْدَةَ : ونزلت قبيلة كندة بالبحرين ، ثم اضطرت إلى مفادرتها ، فنزلت بِحَضْرَمَوْتٍ ، ثم نزلت نجداً ، وكَوْنَتْ هناك حكومة كبيرة الشأن ، ولكنها سرعان ما فنيت ، وذهبت آثارها .

وهناك قبيلة من حِمْيَرٍ ، وهي قُضَاعَةُ التي اختلفت في نسبتها إليه ، هجرت اليمن أيضاً واستوطنت عدة مناطق في الشمال ، فأقامت كلب بن وبرة منها في بادية السماوة (طرف شمال نجد ، وتتصل بادية السماوة بأطراف العراق) ، وأقامت بنو عُذْرَةَ في وادي القرى وتَبُوك ، وامتدت منازلها حتى بلغت قرب أُيْلَةَ ، وجاورتها بطون أخرى من قضاة مثل جَهْيَنَةَ وبَلِيَّ .

- وأما العدنانيون فهم من صلب إسماعيل بن إبراهيم ، عليها السلام ، كما أسلفنا . وقد اختلف الأخباريون وأصحاب الأنساب في عدد من كان بين إسماعيل وعدنان من الآباء ، رأينا أن نضرب الذكر عنه صفحاً لشدة اختلاف رواياتهم في أسماء الآباء وعدمهم .

والمشهور في كتب التاريخ أن سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، هاجر من بلاد العراق ؛ من بلدة يقال لها « أور » على الشاطئ الغربي من نهر الفرات ، بالقرب من الكوفة ، واتجه منها إلى « حاران » أو « حران » ، ومنها إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعوته ، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها . وقدم مرة إلى مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيداً وسوءاً بزوجه سارة ولكن الله رد كيده في نحره ، وعرف فرعون مالمسارة من الصلة القوية بالله تعالى ، حتى أخذها هاجر ، اعترافاً بفضلها ، وزوجتها سارة إبراهيم عليه السلام .

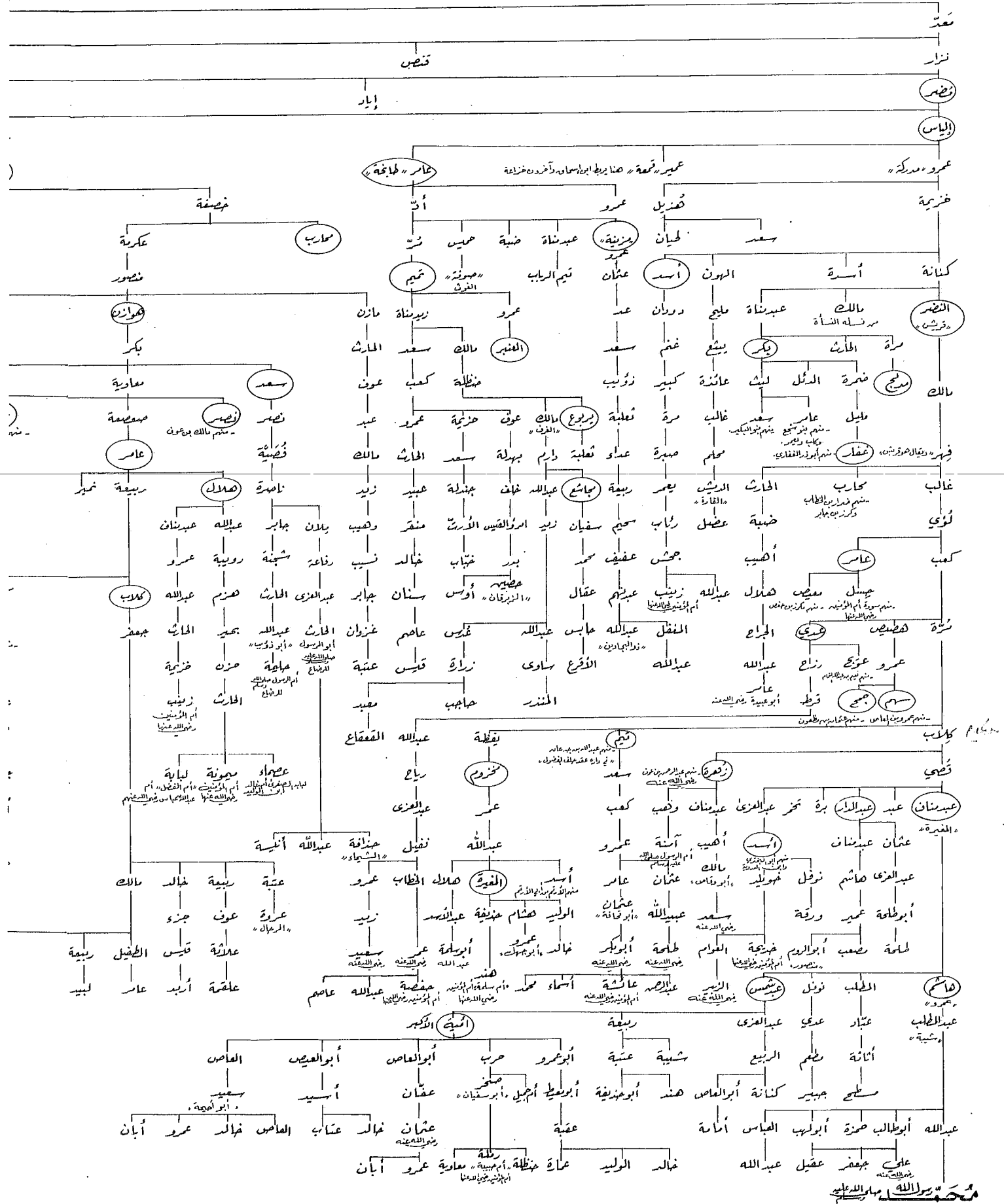
وعاد إبراهيم ، عليه السلام ، إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، عليه السلام ، فهاجر بها إلى الحجاز ، وأسكنها بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالرايية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فتركها هناك ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ، ولم تقض أيام حتى نفذ الزاد والماء ، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله تعالى ، فصارت قوتاً لها وبلاغاً إلى حين .

وفي ذلك الوقت هاجرت قبيلة جرهم الثانية من اليمن ، فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل ، ويقال إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة ، وقد صرحت رواية للبخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل ، عليه السلام ، وقبل أن يشب ، وأنهم كانوا يبرون بهذا الوادي قبل ذلك^(١) . فلما شب وتعلم العربية منهم صاهرهم ، فتزوج امرأة منهم ، ثم طلقها بأمر أبيه وتزوج بامرأة أخرى هي رَعْلَةُ بنت مَضَاض بن عمرو كبير جرهم وسيدهم .

وكان إبراهيم ، عليه السلام ، لا يزال في جهاد ودعوة ، وانتقال من مكان إلى آخر يدعو الناس إلى الله ، ويعود إلى مكة ليपालح تركته ؛ فيقضي فيها أياماً ، ثم يغادرها . ولا يُعلم عدد المرات التي قدم فيها إلى مكة ، لكن من الثابت أنه في إحدى هذه المرات بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل ، عليهما السلام ، ورفعها قواعدهما ، وأذن إبراهيم ، عليه السلام ، في الناس بالحج كما أمره الله .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٤/٤) كتاب الأنبياء .

الأنساب العدنانية



عبدنان

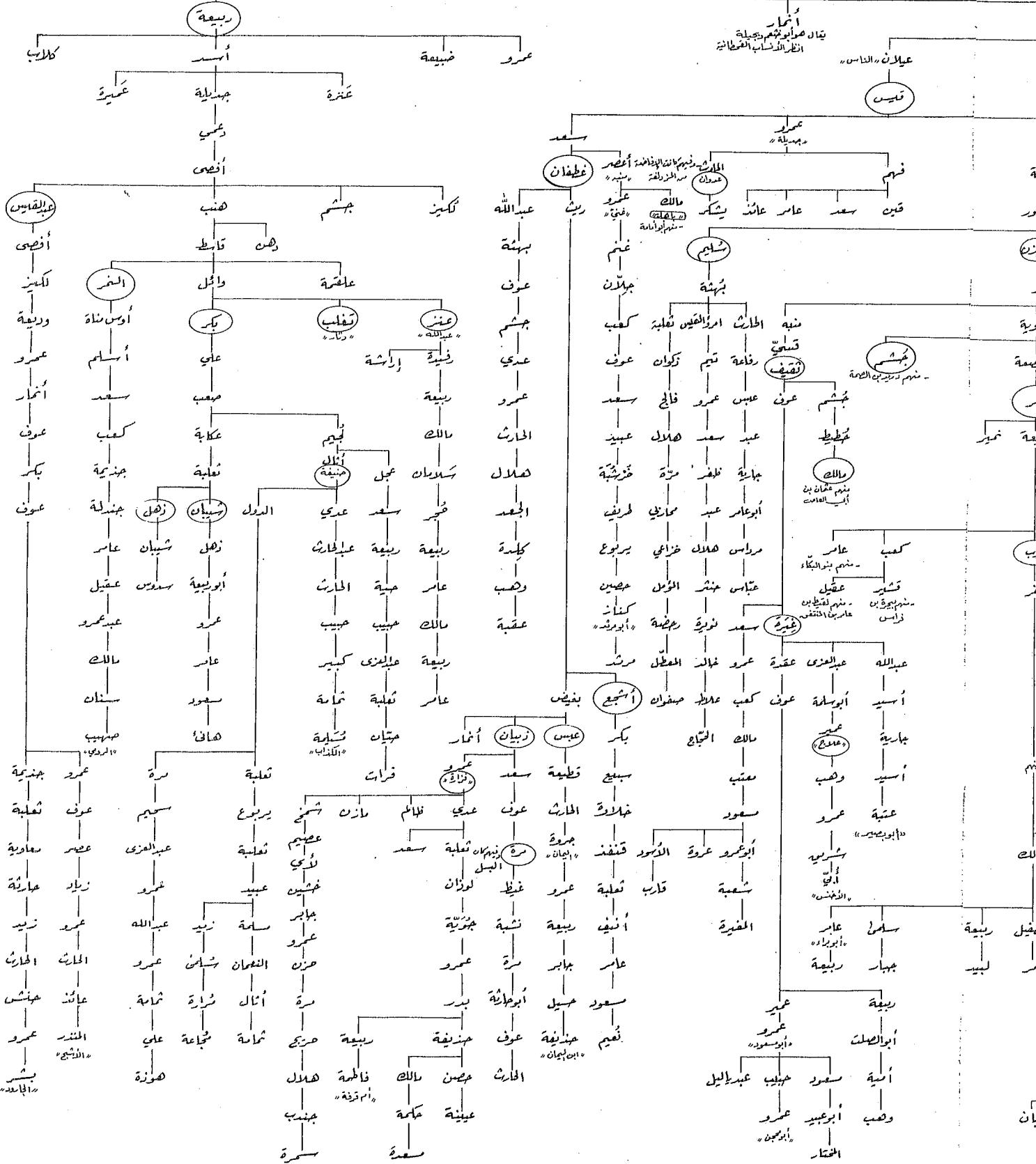
عك

إبراهيم

عبدان الناس

أخبار
يقال هو أبوهم بجيلة
انظر الأقسام العظيمة

قضاة
اختلف في نسب قبيلهم إلى الملك بن مهران
انظر لرواية الأقسام العظيمة



وقد رزق الله تعالى إسماعيل ، عليه السلام ، من ابنة مُضاض اثني عشر ولداً ذكراً ، تشعبت منهم اثنتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، ثم انتشرت في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها ، ثم فُقدت أخبارهم في غياب الزمن ، إلا أولاد نابت وقيدار (أو قيذر) ابني إسماعيل عليه السلام .

فقد ازدهرت حضارة الأنباط - وهم من أحفاد نابت - في شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لهم من باطرافها ، واتخذوا البثراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناوئتهم أحد ، حتى جاء الرومان ففقدوا عليهم .

وأما قيدار فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منهم عدنان^(١) وولده معدّ وعكّ ، أما عكّ فصار إلى الين ؛ وذلك أنه تزوج في الأشعريين فأقام فيهم . وأما معدّ فولد له أربعة نفر : نزار وقُضاعة وقنص وإياد ، فأما قُضاعة فتيامنت إلى حير^(٢) ، وأما قنص فهلكت بقيتهم ، ويقال كان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة^(٣) . وقيل : لم يكن لمعدّ ولد غير نزار ومنه تفرقت بطون معدّ ، فكان لنزار أربعة أولاد تشعبت منهم أربع قبائل عظيمة : إياد ، وأنمار ، وربيعة ، ومُضَر . أما إياد فكانت تقم بهامة حتى أرغت على الخروج منها بسبب حروب وقعت بينها وبين ربيعة ومُضَر ، فارتحل قسم منهم إلى العراق ، وسار بعضهم إلى حص وأطراف الشام . وأما أنمار فهو أبو خنعم وبجيلة ، وقد تيامنت فلحقت بالين ، ويقول نساب الين : بجيلة هو أنمار بن إراش من ولد كهلان بن سبأ ، ودار بجيلة وخنعم يمانية .

وأما ربيعة ومُضَر فهما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكانا الفرعين الرئيسيين لعرب الشمال ، فانحدر من ربيعة عدة قبائل منها : أسد بن ربيعة ، وحنيفة ، وعبد القيس ، ومجموعة قبائل ابني وإيل : بكر وتغلب .

وتشعبت قبائل مُضَر إلى شعبتين عظيمتين : بطون قيس عيلان الناس بن مُضَر ، وبطون إلياس بن مُضَر (ويسمّيها البعض بطون خنيد نسبة إلى أمهم) . فن قبائل قيس عيلان بن مُضَر : خصفة ، وسعد ، وعمرو . ومن أولاد خصفة : عكرمة ومُحارب . ومن أعقاب عكرمة القبيلتان المشهورتان : هوازن ، وسلم . ومن أعقاب هوازن : ثقيف ، وعامر بن صعصعة ، وسعد بن بكر وإليه ينسب كل سعدي ومنهم حلّمة بنت أبي ذؤيب السعدية التي أرضعت النبي ﷺ . ومن أولاد سعد بن قيس عيلان : غطفان ، ومن بطونها : أشجع ودثيان ، ومن ذبيان فزارة ومرة .

وقد تفرعت من إلياس بن مُضَر بطون كثيرة ، منها : هذيل بن مُدرّكة (ومنهم بنو ليحيان) ، وبنو أسد بن خزيمّة ، وبطون كنانة بن خزيمّة ، وبطون تميم بن مرّ ، ومزينة .

وستتوقف هنا قليلاً لنفصل بعض الشيء في أولاد إلياس بن مُضَر الذي كان من نسله سيدنا محمد ﷺ . فيذكر أنه ولد لإلياس ثلاثة أولاد : مُدرّكة ، وطابخة ، وقمعة . وكان اسم مُدرّكة عامراً ، واسم طابخة عمراً^(٤) ، واسم قمعة عميراً ، ويُرّم أن عامراً وعمراً كانا في إبل لها يرغيانها ، فاقتنصا صيداً ، فقعدا عليه يطبخانه ، وعدت عادية على إبلها ، فقال عامر لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ ، فلحق عامر بالإبل فجاء بها ، فلما راحا على أبيها حدثاه بشأنها ، فقال عامر : أنت مُدرّكة ، وقال لعمرو : وأنت طابخة . وأما عمير فانقمع في الحياء فلم يخرج فسّمى قمعة .

وكان لمُدرّكة ولدان : خزيمّة وهذيل ، فولد لخزيمّة أربعة نفر : أسد ، وأسدة ، والهون ، وكنانة . فولد لكنانة أربعة نفر : النُضَر ، ومالك ، وعبد مناة ، وميلكان . ومن كنانة قريش ؛ وهم أولاد فُهر بن مالك بن النُضَر بن كنانة ، وقيل : بل أولاد النُضَر بن كنانة . قال ابن هشام : النُضَر : قريش ؛ فن كان من ولده فهو قُرشيّ ، ومن لم يكن من ولده فليس بقُرشيّ . وإنما سميت قريش قريشاً من التقرّش ؛ أي جمع المال والتجارة ، أو التجمع ؛ فإنها لما تجمعت بمكة وجمعت خصال الخير سميت بذلك ، وقيل من التقرّيش ؛

(١) ويقال : إن عدنان من ولد نابت بن إسماعيل . انظر : سيرة ابن هشام (ج ١/٥) .

(٢) تقدمت الإشارة إلى الخلاف في نسب قُضاعة .

(٣) ويقال أيضاً : إن النعمان من لحم من ولد ربيعة بن نُضَر - كما ذكرنا آنفاً - وبعض نساب أهل الكوفة يقولون إنه من ولد ساطرون ملك الحضر (والحضر : حصن عظيم كالدينة على شاطئ الفرات) . سيرة ابن هشام (ج ١/٧٦) .

(٤) ويقال : بل اسم مدرّكة : عمرو ، واسم طابخة : عامر .

أي التفتيش ، فقد كان فُهر بن مالك - ويقال النُّصر بن كِنانة - يقرِّش عن حاجة الناس ، فيسدها بماله ، فن كان محتاجاً أغناه ، ومن كان عارياً كساه ، ومن كان طريداً آواه ، ومن كان خائفاً حماه ، ومن كان ضالاً هداه ، وكان بنوه يقرِّشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم . وقيل في سبب التسمية أقوال أخرى .

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جَمَح ، وسَهْم (ومنهم عمرو بن العاص رضي الله عنه) ، وعَدِيَّ (ومنهم عُمر بن الخطاب رضي الله عنه) ، ومَخْزُوم (ومنهم خالد بن الوليد رضي الله عنه) ، وتَيْم (ومنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه) ، وزُهْرَةَ (ومنهم سَعْد بن أبي وقاص رضي الله عنه) ، وبطون قُصَيِّ بن كِلَاب ؛ وهي : عبد الدار بن قُصَيِّ ، وأسَد بن عبد العزَّى بن قُصَيِّ ، وعبد مَنَاف بن قُصَيِّ .

وكان من عبد مَنَاف بن قُصَيِّ أربع فصائل : عبد شمس ، ونُوْفَل ، والمُطَلِّب ، وهاشم . وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المُطَلِّب بن هاشم صلوات الله عليه وسلامه .

ولما تكاثرت أولاد عدنان من ربيعة ومضر وقعت بينهم حروب كثيرة ، تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب متبعين مواقع القطر ومنازل العشب ، فهاجرت عبد القيس وبطون من بكر بن وائل وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها . ويذكر أنه لما جاء بنو عبد القيس إلى البحرين ، كانت البلاد إذ ذاك لإياد ، فجلبت إياد من البحرين ونزحت نحو العراق .

وخرجت بنو حنيفة إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبه اليمامة ، وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاطمة إلى البحر فأطراف سواد العراق .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ويقال إنها نزلت أولاً في الحجاز ونجد والبحرين ، فلما تحاربت مع بكر بن وائل زحفت نحو الشمال حتى بلغت أطراف الجزيرة وعُرفت تلك الديار بديار ربيعة .

وسكنت بنو تميم في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، فنزل بعضهم البصرة بالعراق . وانحازت مُزَيْنَةَ إلى جبال رضوى وما والاها من أرض الحجاز .

وأقامت بنو سُلَيْم بالقرب من المدينة في مواطن حرار ذات مياه ومعادن عرفت بمعدن سُلَيْم .

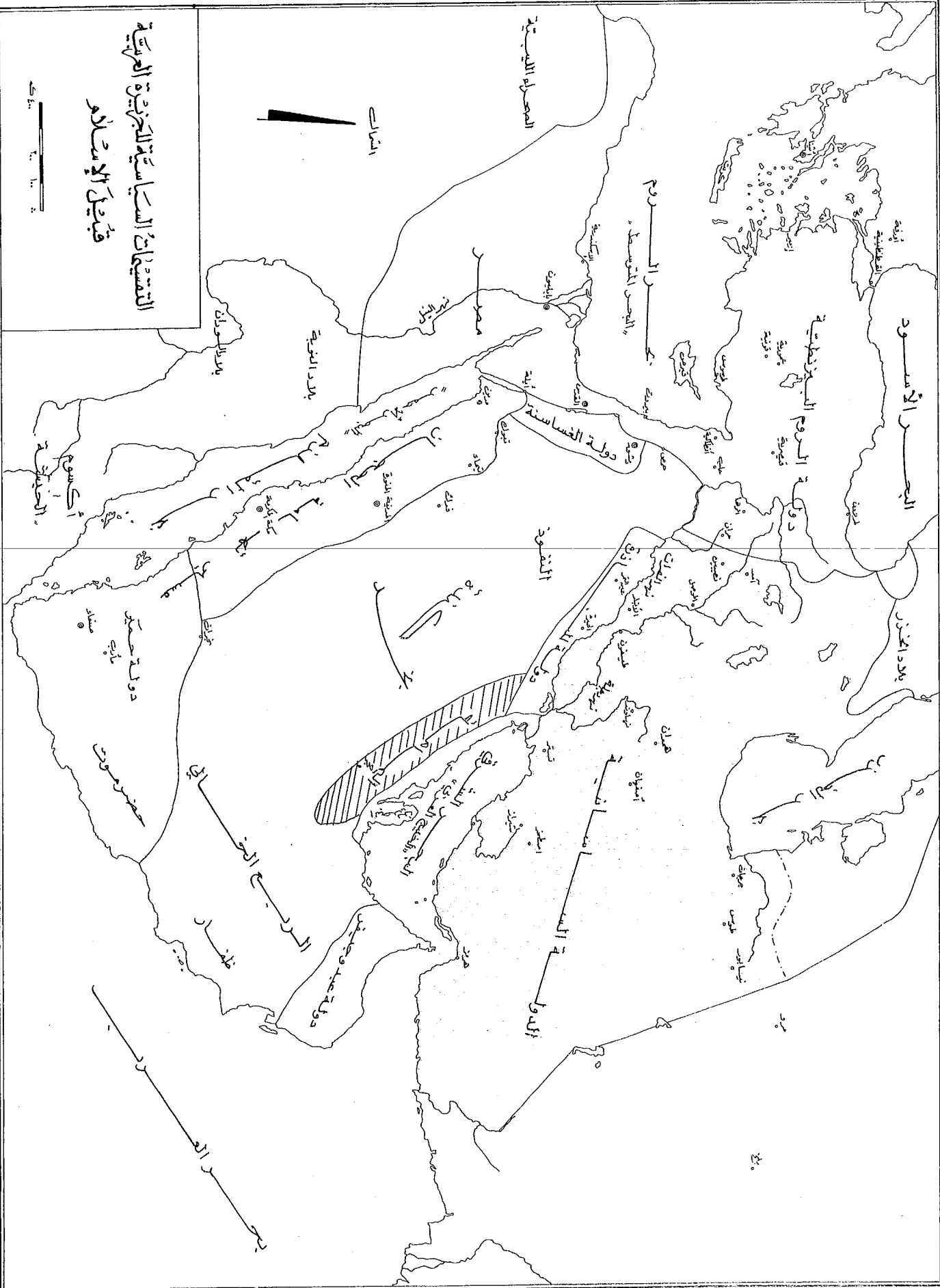
وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس . وأقام بنو عامر بن صعصعة في القسم الغربي من نجد . وسكنت بنو أسد بن خزيمَةَ شرقي تيماء وغربي الكوفة ، وكانت طييء تقيم بجوارهم . وأقام بنو هذيل بن مدركة على مقربة من الطائف ، وفي أماكن أخرى في نجد وتهامة بين مكة والمدينة .

ونزلت عطفان شرقي خيبر وحدود الحجاز إلى جبلي طييء ، وسكنت أشجع بضواحي يثرب ، وبنو ذُبْيَان بالقرب من تيماء إلى حوران ، ونزلت فزارة بنجد وانتشرت في مواطن أخرى .

وبقي بتهامة بطون كِنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قُصَيِّ بن كِلَاب فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم^(١) . (انظر مصور منازل أهم القبائل في الجزيرة العربية قبل البعثة) .

وبعد أن عرضنا لمحة موجزة عن طبيعة الجزيرة ، وتحدثنا عن طبقات العرب وقبائلهم الكبرى وأشهر بطونها ، بقي لنا أن نعرض صورة سريعة عن تاريخ الحكم والإمارة والملل والأديان في الجزيرة ، وأن نتكلم بإيجاز عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية للعرب قبل الإسلام ، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام . وسنفرد كلاً من مكة ويثرب بكلمة خاصة .

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢/٩ ، ٧٩-١١٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ١/٥٩) ، وتاريخ الطبري (ج ٢/٢٦٤ ، ٢٦٧) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للسقطلاني (ج ١/٧٦) ، والمفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١/٢٩٤) فما بعدها ، ٢٧٥-٢٧٦ ، ٤٦٥-٤٦٦ ، ٤٧٠-٤٧٢) ، و(ج ٢/٢٢٤ ، ٢٥ ، ٢٠١-٢١٩) فابدها ، وتاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ١/٨٠-٢٠) ، ويثرب قبل الإسلام / د . محمد السيد الوكيل (ص : ٦٨-٧١) ، والرحيق المختوم (ص : ٢٠-٢٧) .



التسميات السياسية للجزيرة العربية
 قبل الإسلام



الحكم والسياسة في بلاد العرب :

كانت أكثر بلدان العالم في القرن السادس للميلاد حين بزغت شمس الإسلام تحت سيطرة قوتين عظيمتين ؛ هما إمبراطورية الروم وعاصمتها القسطنطينية ، وإمبراطورية فارس وعاصمتها طَيْسْتُون (المدائن) . أما الجزيرة العربية فقد كان حكامها قسامين :

الأول : الملوك المتّوجون ، وهم ملوك اليمن وملوك الشام وملوك الحيرة ، وكانوا غير مستقلين استقلالاً تاماً ، بل لهم تبعية لفارس أو الروم .

الثاني : رؤساء القبائل والعشائر ، وكان لهم ما للملوك من الحكم والمزايا ، ولكنهم لم يكونوا أصحاب تيجان ، ومعظمهم كان على تمام الاستقلال ، وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متّوج^(١) .

الملك باليمن :

من الممالك التي قامت في اليمن مملكة معين وكانت في الشمال ، وسبأ جنوبيها ، وقتبان وكانت أشد إمعاناً في الجنوب بنواحي عدن ، أما حضرموت فكانت شرقي هذه الممالك الثلاث . وستنكلم عن بعض هذه الممالك .

أ - مملكة معين : يستدل من النقوش ، وما ورد في التوراة ، وما كتبه بعض مؤرخي اليونان أن معين ظهرت بين سنتي ١٢٠٠ و ٦٥٠ ق.م ، وأنها كانت على جانب عظيم من القوة والثروة حتى استطاعت أن تمد نفوذها - بفضل نشاطها التجاري - إلى الخليج الفارسي وإلى أعالي بلاد الحجاز مما يلي سواحل البحر الأحمر .

ب - مملكة سبأ^(٢) : كانت مملكة سبأ بين معين وقتبان ، وامتد نفوذها من ساحل الخليج الفارسي شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً . وقد انتقل سلطان معين إلى سبأ التي بدأت قوتها تظهر في أواخر أيام معين ، وامتد عصرهم بين سنة ٩٥٠ - ١١٥ ق.م تقريباً . ويتبين من الآثار التي عثر عليها الباحثون أن دولة سبأ الحقيقية مرت في طورين يتميزان بألقاب ملوك السبئيين :

الطور الأول : وينتهي حوالي سنة ٦٥٠ ق.م ، كان ملوكهم يلقبون فيه بـ « مكرب سبأ » ، وكانت حاضرتهم الأولى صرواح وهي خريبة الحديثة على مسيرة يوم غربي مأرب . وفي هذا الطور بدأ بناء سد مأرب الذي كان له شأن كبير في تاريخ اليمن .

والطور الثاني : من سنة ٦٥٠ - ١١٥ ق.م ، كان الحكام يحملون في هذا الزمن لقب « ملك سبأ » ، واتخذوا مأرب حاضرة لهم بدل صرواح لازدياد أهميتها بعد بناء السد .

وقد ساعد أهل سبأ - ومن بعدهم - على الاستقرار ذلك الخصب الذي امتاز به هذا الإقليم الذي كانوا يسكنونه من بلاد العرب ، كما كان لتجارته المطردة الواسعة النطاق مع مصر والشام وبابل أثر كبير في تدفق موارد الثروة على هذه البلاد .

ومع ما كان لدولة سبأ من تقدم في الحضارة والتجارة ، يظهر أنها لم يكن لها قوة حربية ، فإن الملكة بلقيس ، وهي من أشهر ملوك سبأ ، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم والتوراة ، لم تخف خوفاً حين تسلمت رسالة سليمان ، عليه السلام ، وقالت لقومها - كما حكى القرآن الكريم على لسانها - : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾^(٣) ، ويبدل على ذلك أيضاً قول سليمان ، عليه السلام ، حين أرسل إلى بلقيس مهديداً : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهِنَّ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهِنَّ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهَمَّ صَاغِرُونَ ﴾^(٤) .

(١) انظر : تاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ٢١/١) ، والرحيق المختوم (ص : ٢٨) .

(٢) سبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، أولد أولاداً نسلوا ، وكانت من ذرياتهم شعوب ، وإليه نسب نسله السبئيين . ويقال : إن اسمه الحقيقي عبد شمس (أو عامر) ، وأما سبأ فلقب لقب به ، لأنه أول من سبأ ؛ أي سنّ السبي من ملوك العرب وأدخل اليمن السبأيا . انظر الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٢٥٨/٢) .

(٣) النمل : ٢٤ .

(٤) النمل : ٢٧ .

جـ - مملكة حمير^(١) : ظهرت مملكة حمير بعد سنة ١١٥ ق.م ، وهي تقع بين سبأ والبحر الأحمر ، وتشغل الأراضي التي يطلق عليها اسم قتبان . وقد حلت أول الأمر محل قتبان التي ظهرت قبلاً ، ثم استوعبت مملكة سبأ . واتخذ الحميريون ريدان التي عرفت فيما بعد باسم ظفار مقراً للملكهم . وكانت ظفار مدينة داخلية على بعد مائة ميل شرقي مخا على الطريق إلى صنعاء ، وحلت محل مأرب عاصمة ملوك سبأ .

ويمكن تقسيم تاريخ مملكة حمير إلى دورين :

الأول : استمر حتى سنة ٣٠٠ م ، وكان ملوك هذا العصر يلقبون بملوك « سبأ وذئب ريدان » . وقد ساعدهم موقعهم الساحلي على أن يلعبوا دوراً تجارياً هاماً ، وكانت الزراعة مزدهرة عندهم . إلا أنه قبيل نهاية هذا الدور بدأت قوة حمير تأخذ في الضعف والاضطراب ، بسبب تنازع القبائل فيما بينها ، ولمزاحة الرومان لهم في طريق التجارة البحري مزاحة شديدة بعد أن بسطوا سيطرتهم على مصر وسوريا وشمال الحجاز ، وبسبب إهمالهم للطريق البرية التي كان يمكنهم احتكارها لكثرة ما عليها من محطات حميرية ، ولكنهم أهملوها فضعفوا وتضاءلت أهميتهم التجارية . وهذا الطريق البري بمحطاته المتعددة هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة سبأ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَيًّا ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سَيَّرُوا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَأَيَّاماً آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَجَادِيثَ وَمَرْقَدَاتٍ كُلُّ مَرْقَدٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾^(٢) . وهذه الأسباب هي التي أدت إلى هجرة عدد كبير من أهل اليمن إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب كما تقدم .

الثاني : وفي حوالي سنة ٣٠٠ م ، أو بعد ذلك بقليل ، استعادت دولة حمير قوتها وضمت إليها القبائل المجاورة ، وأخضعت حضرموت وسائر بلاد اليمن ، وأصبح لقب ملوكها « ملك سبأ وذئب ريدان وحضرموت ويمت » . وقد عرف العرب هذه الدولة الثانية باسم دولة التبابعة ، لأن ملوكها كان يتبع بعضهم بعضاً ، كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابعاً له على مثل سيرته . وقد ذكر بعضهم أن هذا اللقب لم يكن يلقب به إلا الملوك الذين يملكون اليمن وشيخر وحضرموت . وأشار إلى تبع في القرآن الكريم : ﴿ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُتَّبَعُ ﴾^(٣) ، ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُتَّبَعُ ﴾^(٤) .

وفي هذا الدور هاجم الأحمش الهن واستولوا عليها ، سنة ٣٤٠ م مستغلين التنافس بين قبيلتي همذان وحمير ، غير أن الحكم الحميري لم يتح له أن يعيش طويلاً ، فقد استطاع أهل اليمن إخراجهم سنة ٣٧٨ م ، وعاد الحكم إلى الحميريين . وكانت أهداف هذه الحملة الحميرية الأولى على اليمن انتزاع السيادة التجارية من أهلها وبث الدين النصراني بينهم .

ومن أشهر ملوك حمير تبان أسعد أبو كرب (٣٨٥ - ٤٢٠ م) الذي استطاع توسيع ملكه حتى بلغ البحر الأحمر والمحيط الهندي والأقسام الجنوبية من نجد ، وربما كان قد استولى على جزء كبير من الحجاز ، وقد ذكر أهل الأخبار أنه غزا بلاد الترك والتبت والصين ، وغزا القسطنطينية ومرّ في طريقه بالعراق فتحير قومه فبنى هناك مدينة سماها الحيرة ، ويقال إنه أول من تهدّد من العرب كما سيأتي .

وذكروا أيضاً أنه لما ملك ابنه حسان بن تبان أسعد أبي كرب سار بقومه من أهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض العجم ، كما كانت التبابعة قبله تفعل ، حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن المسير معه ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهلهم ، فكلموا أخاً له يقال له عمرو ، وكان معه في جيشه ، فقالوا له : اقتل أخاك حسان ، ونملكك علينا ، وترجع بنا إلى بلادنا ، فأجابهم إلى ذلك ورجع عمرو بن معه إلى اليمن ، فأصيب بمرض نفسي ، وقتل خلقاً من قومه لندمه على قتله أخاه ، ثم لم يلبث أن هلك .

(١) ينسب الحميريون إلى حمير بن سبأ بن يشجب .

(٢) سبأ : ١٨ - ١٩ .

(٣) الدخان : ٣٧ .

(٤) سورة ق : ١٤ .

ومرج الأمر في حمير بعد وفاة عمرو وتفرقوا ، فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة ، يقال له لَخْنِيْعَة ذوشناتر ، فلكهم ، وكان امراً فاسقاً يعمل عمل قوم لوط ، فبث بيوت أهل المملكة منهم ، وقتل خيارهم حتى قتله زُرْعَة ذو نُوَاس بن تَبَان أسعد ، فلكتته حمير وقبائل اليمن عليهم ، وتسمى يوسف ، وأقام في ملكه زماناً .

وكان ذو نُوَاس اليهودي شديد التعصب على النصرانية وأراد اجتثاثها من اليمن ، فطلب من نصارى نجران ترك دينهم والدخول في اليهودية ، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود وأحرقهم بالنار في سنة ٥٢٣ م . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة بقوله سبحانه : ﴿ قَتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

ويرجح بعض المؤرخين أن ذا نُوَاس لم يكن يهودياً ، وإنما كان وثنياً ، وأنه دعا أهل نجران إلى الرجوع إلى الوثنية لآلئ اليهودية ، كما جاء في القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود أنهم لم ينقموا من أهل نجران إلا لأنهم كانوا يؤمنون بالله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

- استيلاء الحبشة على اليمن : وكان من جراء اضطهاد ذي نُوَاس للنصارى أن أوعز الرومان إلى حليفتهم الحبشة باحتلال اليمن ، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى غرضين : أحدهما سياسي وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقاً لتجارتهم إلى الشرق إذا وقعت في يد حلفائهم الأحباش ليقضوا على تجارة منافسيهم الفرس ، والآخر ديني وهو جعل السيادة للنصرانية هناك . فجهز الأحباش حملة كبيرة وأرسلوها إلى اليمن بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م ، فهزموا ذا نُوَاس وأصحابه ، وانتهى بذلك ملك التبابعة من اليمن ، وأصبح أرياط حاكماً عليها من قبل نجاشي الحبشة حتى خرج عليه أبرهة أحد قواد جيشه فقتله واستولى على الحكم بعد أن استرضى نجاشي الحبشة .

ولأهل الأخبار روايات أخرى عن كيفية استئثار أبرهة بالحكم واغتصابه له . منها : أن النجاشي أرسل جيشاً قوامه سبعون ألفاً ، جعل عليه قائدان أحدهما أبرهة ، فلما ركب ذو نُوَاس فرسه واعترض البحر فاقتحمه وهلك به ، نصّب أبرهة نفسه ملكاً على اليمن ، ولم يرسل للنجاشي شيئاً ، فغضب النجاشي ، ووجه إليه جيشاً عليه رجل من أصحابه يقال له أُرِيَاط ، فلما حلّ بساحته بعث إليه أبرهة : إنه يجمعني وإنيك البلاد والدين ، والواجب عليّ وعليك أن ننظر لأهل بلادنا وديننا من معي ومعك ، فإن شئت فبارزني ، فأبينا ظفر بصاحبه كان الملك له ، ولم يقتل الحبشة فيما بيننا . فرضي بذلك أرياط ، وأجمع أبرهة على المكر به ، فاتعدا موضعاً يلتقيان به ، وأكن أبرهة لأرياط عبداً في وهدة قريبة من الموضع الذي التقيا فيه ، فلما التقيا سبق أرياط فزرق أبرهة بحرته ، فزالته الحربة عن رأسه وشمرت أنفه ، فسّمى الأشرم ، ونهض العبد من الحفرة ، فزرق أرياط فأنفذه فقتله ، وأخذ أبرهة الحكم لنفسه ، واستأثر به .

وتجمع روايات أهل الأخبار على أن النجاشي غضب على أبرهة لما فعله باليمن ولما أقدم عليه من قتل أرياط ، وأنه حلف ألا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ، ويمجّر ناصيته ، ويهرق دمه . فلما بلغ ذلك أبرهة كتب إلى النجاشي كتاباً فيه تودد واعتذار وتوسل واسترضاء ، فرضي النجاشي عنه ، وثبته على عمله بأرض اليمن .

وكان من أول ما قام به أبرهة الأشرم أن بنى القلبيس كنيسة في صنعاء لصرف الحجاج عن الكعبة إليها ، كما جند الجنود لغزو مكة وهدم الكعبة لهذا الغرض - وقد عرّف هو وجنوده بأصحاب الفيل - فأخفق في غزوته على ماسيأتي ذكره عند الكلام عن عبد المُطَّلِب جدّ النبي ﷺ .

ولعل الرومان كانوا هم المحرضين لأبرهة على غزو مكة حتى تكون العربية الغربية كلها تحت سيطرة النصرانية بالإضافة إلى قسم كبير من العربية الجنوبية ، فتنحقق لهم مآربهم في التحكم بأهم جزء من خطوط الملاحة البحرية العالمية المؤدية إلى الهند والسواحل الإفريقية ، وإنزال ضربة كبيرة بأعدائهم الفرس وبمن كان يساعدهم من سادات القبائل .

استيلاء الفرس على اليمن : وبعد حادثة أصحاب الفيل ووفاة أبرهة خلفه ولداه يكسوم ثم مشروق ، وقد أذلاً أهل اليمن وأساءا

(١) البروج : ٤ - ٨ .

(٢) البروج : ٨ - ٩ .

معاملتهم ، فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن الحميري حتى قدم على قيصر ملك الروم ، فشكا إليه ما هم فيه ، وسأله أن يخرج الأحباش من بلاد اليمن ، ويليهم هو ، ويبعث إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فلم يُجبه إلى طلبه . فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر ، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا إليه أمر الحبشة ، فقال له النعمان : إن لي على كسرى وفادة كل عام ، فأقيم حتى يكون ذلك ، ففعل ، ثم خرج معه فأدخله على كسرى أنوشروان ، وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القنقل^(١) العظيم ، يضرب فيه الياقوت والمؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك ، وكان عنقه لا تحمّل تاجه ، إنّا يُستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاجه ، فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا برك هيبه له ، فلما دخل عليه سيف بن ذي يزن برك ، ثم قال له : أيها الملك ! غلبتنا على بلادنا الأعرية ، فقال له كسرى : أي الأعرية : الحبشة ، أم السند ؟ فقال : بل الحبشة ، فجئتك لتصرفني ويكون ملك بلادك لك ، قال : بعدي بلادك مع قلة خيرها ؛ فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لي بذلك ، ثم أجازة بعشرة آلاف درهم وافي وكساه كسوة حسنة . فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك ، فقال : إن لهذا لشأناً ، ثم بعث إليه ، فقال : عدت إلى حياء - أي عطاء - الملك تنثره للناس !! فقال : وما أصنع بهذا ؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة !! يرغبه فيها ، فطمع كسرى في الاستيلاء على هذه البلاد ، وعقد مجلساً من ذوي الرأي في بلاده ، فقال لهم : ماذا ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟ فقال قائل : أيها الملك ! إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكاً ازددته ، فبعث معه كسرى من كان في سجونته ، وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم رجلاً منهم ، يقال له وهريز ، وكان ذا سنّ فيهم ، وأفضلهم حسباً وبيتاً ، فخرجوا في ثمان سفن ، فغرقت سفينتان ، ووصل إلى ساحل عدن ست سفن ، فجمع سيف إلى وهريز من استطاع من قومه ، وقال له : رجلي مع رجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً ، قال له : وهريز : أنصفت . وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن ، وجمع إليه جنده ، فأرسل إليه وهريز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن وهريز ، فزاده ذلك حنقاً عليهم ، فلما توافق الناس على مصافقتهم قال وهريز : أروني ملكهم ، فقالوا له : أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؟ قال : نعم ، قالوا : ذاك ملكهم ، فقال : اتركوه ، فوقفوا طويلاً ، ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحول على البغلة ، قال وهريز : بنت الحمار ذلّ وذللّ ملكه ، إني سأرميه ؛ فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أودنكم ؛ فإني قد أخطأت الرجل ، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولاثوا به فقد أصبت الرجل فاحملوا عليهم ، ثم وتر قوسه ، وأمر بحاجبيه فعصبا له ، ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه ، فتغلغلت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه ، ونكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولاثت به ، وحملت عليهم الفرس ، وانهمزوا فقتلوا وهربوا في كل وجه ، ودخل وهريز صنعاء منتصراً ونفى عنها الحبشة وذلك في سنة ٥٧٥ م تقريباً ، وكتب إلى كسرى : إني قد ضبطت لك اليمن وأخرجت من كان بها من الحبشة . فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذي يزن على اليمن وأرضها . وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية يؤديها إليه كل عام ، وكتب إلى وهريز أن ينصرف إليه ، فانصرف . .

وكان سيف بن ذي يزن أبقى معه جمعاً من الحبشة يخدمونه ويمشون معه في ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وبهوته انقطع المملك عن بيت ذي يزن . فلما بلغ ذلك كسرى بعث وهريز إلى بلاد اليمن في أربعة آلاف من الفرس ، وأمره ألا يترك أسود ولا ولد عربية من أسود صغيراً أو كبيراً إلا قتله ، فلما دخل وهريز بلاد اليمن لم يترك بها حبشياً إلا قتله ، ثم كتب إلى كسرى بذلك ، فأمره عليها حتى هلك ، فأمر كسرى ابنه المُرزيان بن وهريز على اليمن ، فلمات مات أمر كسرى التينجان بن المُرزيان (أو البينجان) بتولي منصب أبيه ، فكان عليها حتى مات ، فأمر كسرى ابنه خرّخره بن التينجان ، فكان عليها ، ثم غضب كسرى عليه واستدعاه إلى عاصمته ، فذهب إليها ، فخلعه كسرى وولى باذان (باذام) على اليمن ، وهو آخر ولاية هذه البلاد من قبل كسرى فارس ، وعاش إلى عهد النبي ﷺ ، وأسلم هو ومن كان معه من الفرس والأبناء^(٢) في السنة السادسة للهجرة أو بعدها على أثر ما دار بينه وبين رسول الله ﷺ من الرسائل كما سيأتي في أحداث السيرة النبوية . وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن .

(١) القنقل : المكيا .

(٢) الأبناء : جيل جديد ظهر في اليمن من تزاوج الفرس باليمنيين ، وإلى هذا الجيل ينتسب باذان أيضاً . انظر : الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن حكم الفرس للبين لم يكن حكماً تاماً فعلياً ، فلم يكن ولا تتم يحكون الين كلها ، وإنما كان حكمهم حكماً شكلياً اسمياً ، اقتصر على صنعاء وما والاها ، أما الأطراف والمدن الأخرى فكان الحكم فيها لسادات الين من بقايا الأسر المالكية القديمة للأقبال والأذواء ، وهو حكم يسمى حكم أصحاب الجاه والنفوذ . وقد شاء بعض منهم أن يظهر نفسه بمظهر الملوك المنفردين بالحكم والسلطان والجاه ، فلقبوا أنفسهم بلقب ملك ، وحملوه افتخاراً واعتزازاً ، ولم يكن أولئك الملوك ملوكاً بالمعنى المفهوم ، إنما كانوا سادات أرض وقبائل جملوا أنفسهم بألقاب الملوك . فكان على حمير عند مبعث رسول الله ﷺ سادات نعتوا أنفسهم بنعوت الملوك ، من بينهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر ، وزُرعة ذو يزن ، وهم الذين أرسلوا إلى رسول الله ﷺ مبعوثاً عنهم يخبره بإسلامهم على ماسيأتي تفصيله في حينه في أحداث السيرة النبوية .

وكانت همدان عند مبعثه ﷺ مستقلة في إدارة شؤونها ، وقد أسلمت كلها في يوم واحد على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما سيأتي .

وأما نجران فقد كانت مستقلة بشؤونها أيضاً ، يديرها ساداتها وأشرفها ، ولها نظام سياسي وإداري خاص تخضع له ، ولم يكن للفرس عليها سلطان . وكان أهلها من بني الحارث بن كعب ، وهم من مذحج ، وكانوا نصارى . ومن أشرفهم بنو عبد المدان بن الديان أصحاب كنيسة نجران ، وهم الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ ودعاهم إلى المباحلة كما سيأتي (١) .

الملك بالحيرة :

ذكرنا أن بطوناً من كهلان هاجرت من الين واحتلت جزءاً من ريف العراق ، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحوهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية . وقد استطاع هؤلاء العرب ، بسبب ضعف ملوك الطوائف في فارس ، أن يكونوا لهم ملكاً في منطقة الحيرة لم يكن قوياً ولكنه لم يكن أضعف من ممالك الطوائف .

ولما كان عهد أردشير - مؤسس الدولة الساسانية - استطاع أن يعيد لدولة فارس وحدتها وأن يخضع العرب المقيمين في العراق على تخوم ملكه لسلطانه وكان هذا سبباً في رحيل قضاة إلى الشام . ولكن لما كانت فارس معرضة لهجمات بعض القبائل العربية ، رأى أردشير أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ، وينع القبائل من الإغارة على تخوم ملكه ، إلا أن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على حرب الروم الذين كان يتخوفهم ، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام (الفساسنة) الذين اصطنعهم ملوك الروم ، فرأى لهذه الاعتبار أن يبقى على مملكة الحيرة ويكتفي بخضوع ملوكها إليه ، فولى جديمة الأبرش ونصبه ملكاً على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكان يبقى عنده كتيبة من جنود الفرس ، ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية .

وبعد موت جديمة سنة ٢٦٨ م ولي الحيرة عمرو بن عدي اللخمي ، أول ملوك اللخمين - في عهد كسرى سابور بن أردشير - ثم لم تزل الملوك من اللخمين تتوالى على الحيرة حتى ولي الفرس قباد بن فيروز ، وفي عهده ظهر مزدك ، وقام بالدعوة إلى الإباحية ، فتبعه قباد كما تبعه كثير من رعيته ، ثم أرسل قباد إلى ملك الحيرة ، وهو المنذر بن ماء السماء ، يدعو إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به . فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباد ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حنجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي .

وخلف قباد كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جداً ، فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث بن عمرو لكنه هرب إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها يزيد بن عدي العبادي ؛ فقد دس إلى كسرى أن النعمان يألف أن يزوج بناته وأخواته من كسرى وأولاده ، فتوعده كسرى وطلبه ،

(١) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١/٢٣٢ ، ٥٧٥ ، ٥٧٩ ، ٦٣١) و (ج ٢/٤٨٠-٤٨٢ ، ٥١٨ ، ٥٢٤-٥٢١ ، ٥٣٠-٥٣٢) و (ج ٤/١١٤ ، ١٨٠) ، وتاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ١/٢١٧-٢٢٢) ، وتاريخ العرب القديم وعصر الرسول / د . نبيه العاقل (ص : ٩٨-١٠٥) ، والرحيق المختوم (ص : ٢٨-٣٠) .

فأدرك النعمان سوء المصير فخرج حتى نزل سراً على هانيء بن مسعود سيّد بني شَيْبَانَ (وهم من بكر بن وائل) ، فأودعه أهله وولده وماله وسلاحه ، ثم توجّه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات ، وولّى الحيرة بدله إياس بن قَبِيصَةَ الطائي ، وأمره أن يرسل إلى هانيء بن مسعود يطلب منه رد ودائع النعمان من أموال ودروع وغيرها ، فأبى ذلك هانيء حمية ووفاء بالعهد . وبلغ كسرى الخير فغضب وهدد باستئصال بكر بن وائل . وقد جرى بين كسرى وبين بكر بن وائل مفاوضات وعرض عليهم كسرى إحدى خصال ثلاث : الاستسلام لكسرى يفعل بهم ما يشاء ، أو الرحيل من الديار ، أو الحرب . واجتمعت كلمة بني بكر على الحرب وعدم الاستسلام ، فجمعوا شتاتهم ورضوا صفوفهم ، وكان ممن انضم إليهم بنو عجل وبنو إياد وبنو شيبان ، وما لبثوا أن جاءت مَرَازِبَةُ^(١) كسرى وكتائبه في موكب إياس ، وكانت بين الفريقين وقعة هائلة عند ذي قار (وذو قار ماء لبكر بن وائل يقع قريباً من الكوفة) انتصر فيها بنو بكر بن وائل وانهمزمت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد النبي ﷺ بقليل^(٢) ، فإنه عليه السلام ولد لثانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة .

وعلى إثر هذه المعركة أقصى كسرى إياس بن قبيصة عن حكم الحيرة وولّى عليها حاكماً فارسياً يحكمها حكماً مباشراً ، وكان حكمه سبع عشرة سنة على ما يذكر الطبري ، وفي سنة ٦٢٢ م عاد الملك إلى آل لحم ، فتولّى منهم المنذر بن النعمان الملقب بالغرور ، ولم ترد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، بجيوش المسلمين .

وقد كان لأهل الحيرة أثر كبير في الحضارة العربية ؛ فقد كانوا يجوبون أرجاء الجزيرة العربية بالتجارة ، ويشغلون بتعليم القراءة والكتابة . وبذلك أصبحوا واسطة في نشر المعارف في الجزيرة ، كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب على أثر اعتناق بعض ملوكهم الدين النصراني بعد تركهم الوثنية^(٣) .

الملك بالشام :

في العهد الذي هاجرت فيه قبائل من الين إلى العراق ، هاجرت قبائل أخرى من الين أيضاً واستقرت ببادية الشام ، وكانت من قُضَاعَةَ من بني سليح ، وهم المعروفون باسم الضجاعة ، فاصطنعهم الرومان لينعوا عرب البادية من العبث والإغارة على حدودهم ، وليكونوا عدة ضد الفرس ، وولّوا منهم ملكاً ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهايته تقريباً ، حيث انتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان ، فقد غلبوا الضجاعة على ما بيدهم وانتصروا عليهم ، فجعلتهم الروم ملوكاً على عرب الشام . ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهن عمالاً للملوك الروم حتى جاء الإسلام وكانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ . وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأهم الذي كتب له رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فأسلم ثم ارتد نصرانياً ، ويقال إنه أسلم في عهد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، على أثر انتصار المسلمين في اليرموك غير أنه لم يلبث أن تحول إلى النصرانية ، وهجر وطنه ليستقر نهائياً في بلاد الدولة الرومانية . وقد كان الغساسنة كلهم على النصرانية عند ظهور الإسلام .

أما حدود مملكة الغساسنة ، فلم تكن على وجه العموم ثابتة ، بل كانت تتبدل وتتغير بحسب تبدل سلطة الملوك ، وتغيرها ، وهي عادة نجدتها لدى جميع الممالك والإمارات التي تكوّنت في البادية أو على أطراف البوادي ، حيث تكون معرضة لغزو القبائل ، ولننفوذ القبائل الفتية القوية التي تطمع في ملك الإمارات التي تجد فيها شيئاً من الوهن والضعف . ولهذا نجد ملك الغساسنة يتوسّع ويتقلص بحسب الظروف فيصل إلى مقربة من دمشق وإلى فلسطين ولبنان وإلى ولايات سوريا الشمالية في بعض الأحيان ، وفي مساحات شاسعة من البادية إلى المدى الذي يصل إليه سلاحهم ، ثم نجده تارة أخرى أقل من ذلك بكثير ، لضعف الأمير المالك ولطمع القبائل فيه ولاختلافه مع السلطات .

- (١) المَرَازِبَةُ : جَمْعُ مَرَزِيَانٍ ، وهو الرئیس من الفرس ، المُقَدَّمُ على القوم دُونَ المَلِكِ . انظر : (لسان العرب : ج ١٦٣٤/٣) .
- (٢) وقيل : كانت وقعة ذي قار قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، وقيل : بعد وقعة بدر بأشهر ، فلما بلغه ذلك قال : « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبني نُصْرُوا » .
- (٣) انظر : الرحيق المختوم (ص : ٢٠-٢٢) ، وتاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ٢٤-٢٢/١) ، وتاريخ العرب القديم وعصر الرسول / د . نبيه عاقل (ص : ١٩٧-٢٠٠) .

وقد بلغت دولة الغساسنة درجة كبيرة من الحضارة ، فقد كان ببلادها كثير من الحصون ، كما كان بها كثير من البيع والكنائس . وكان ملوكها يقتنون الجوارى الروميات ، ومبانيها مكسوة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها . وقد تعاملوا من مخالطتهم الروم ومحاربتهم الفرس الفنون الحربية ، وطرق الدفاع ، وكسبوا المران العسكري^(١) .

الإمارة بالحجاز :

حافظ الحجاز على استقلاله منذ أقدم العصور ، فلم يعث بحريته الملوك الفاتحون ، في الوقت الذي عبث فيه كثير من ملوك الفرس باستقلال كثير من الأمم ، كذلك ظل محافظاً على استقلاله أيام الإسكندر المقدوني . وكان من أثر تمتع أهل الحجاز بالاستقلال طول حياتهم أن ظهرت فيهم طبائع خاصة بهم ، من حيث عراقة أصلهم وشرف آبائهم وشهامتهم التي كانت مضرب الأمثال ، ولغتهم التي حافظت على نقائها وصفائها .

ولي إسمايل ، عليه السلام ، زعامة مكة وولاية البيت طول حياته ، ثم ولي اثنان من أبنائه نابت ثم قي دار ، ويقال العكس ، ثم ولي أمر مكة بعدها جدهما مضاض بن عمرو الجُرهمي ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم وظلت في أيديهم حتى انتزعتها منهم خزاعة . وكان سبب تغلب خزاعة على جرهم وخروجهم من مكة أن جرهما بغت على قطوراء وتنافسست معها ، وكانت قطوراء أبناء عم جرهم ، وكانوا يقيمون أسفل مكة بأحياد ، وجرهم في أعلاها بقعيقعان ، فاقتمتوا قتالاً شديداً ، وقُتل السَيِّدَع صاحب قطوراء ، وتصلح الطرفان ، واستقر الأمر لجرهم . ثم إن جرهما بغت بمكة ، وظلمت من دخلها من غير أهلها ، وأكلت مال الكعبة الذي يهدى لها ، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين ويشير حفيظتهم ، فلما رأت ذلك خزاعة - وكانت قد نزلت بمز الظهران إثر خروجها من اليمن - استغلت الأمر ، فقام بنو عُبْشَانَ منها بمعونة بطون من عدنان وهم بنو بكر بن عبد مَناة بن كِنانة بحاربة جرهم حتى انتزعوا منها سدانة البيت وأخرجوها من مكة واستولوا على حكمها في أواسط القرن الثاني للميلاد .

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم ، ودرسوا موضعها ، ودفنوا فيها عدة أشياء ، قال ابن إسحاق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي - وهو غير مضاض الجرهمي الذي تقدم ذكره - بغزالي الكعبة وبمجر الركن الأسود فدفنها في بئر زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً .

واستبدت عُبْشَانَ من خزاعة بأمر مكة دون بني بكر بن عبد مَناة بن كِنانة ، إلا أنها تركت إلى قبائل مُضَرَ ثلاث وظائف هامة تعتبر من مظاهر السيادة إذ تخص مناسك الحج وشعائره .

الأولى : الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة ، والإجازة بهم يوم النفر من منى ، وكان يلي ذلك بنو العَوْث بن مَرٍّ من بطون إلياس بن مُضَرَ ، وكانوا يُسمَوْنَ صَوْفَةَ . قال ابن هشام : وإنما ولي ذلك العَوْث بن مَرٍّ لأن أمه كانت امرأة من جرهم ، وكانت لا تلد ، فنذرت لله إن هي ولدت رجلاً أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ، ويقوم عليها ، فولدت العَوْث ، فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، فولي الإجازة بالناس من عرفة ؛ لمكانه الذي كان به من الكعبة ، وولده من بعده حتى انقرضوا . ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمي رجل من صَوْفَةَ ، ثم إذا فرغ الناس من الرمي ، وأرادوا النفر من منى أخذت صَوْفَةَ بجاني العقبة ، فلم يجز أحد حتى يمروا ، ثم يخلون سبيل الناس . فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مَناة بن تميم ، وعلى رأسهم صفوان بن الحارث وبنوه من بعده حتى جاء الإسلام .

الثانية : الإفاضة من جَمْع - أي المَزْدَلِفَةَ - غداة النحر إلى منى ، وكان ذلك في بني عدوان من قَيْسِ عَيْلَانَ الناس .

الثالثة : إنساء الأشهر الحرم ، وكان ذلك إلى بني مالك بن كِنانة ، وهي وظيفة تتعلق بتحديد الأشهر الحرم الأربعة التي يجرم فيها القتال ويسود الأمن والسلام . قال ابن إسحاق : وكان أول من نسا الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل ، وحرمت منها ما حرّم ، القلمس من كِنانة ، ثم قام بنوه من بعده ، وكان آخرهم أبو ثَمَامَةَ جِنَادَةَ بن عَوْف ، وعليه قام الإسلام .

(١) انظر : الرحيق المختوم (ص : ٢٢) ، وتاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ٢٧١ - ٤٤) ، والملفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٣٩٢٣ - ٤٤٠) .

وكانت العرب إذا فرغت من حجّها اجتمعت إليه ، فحرم الأشهر الحرم الأربعة ، فإن أراد أن يحلّ منها شيئاً أحلّ المحرم فأحلّوه وحرم مكانه صغراً فحرموه ليواطئوا عدّة الأربعة الأشهر الحرم ، فإن أرادوا الصدور قام فيهم ، فقال : اللهم ! إني قد أحللت لهم أحد الصفرين ؛ الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل .

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة ، وفي عهدهم انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقي بأطراف مكة بطون قريش ، وهم حُلُول وصرم^(١) ، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كِنانة ، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قُصَيّ بن كِلَاب .

ويذكر من أمر قُصَيّ بن كِلَاب أن أباه مات وهو في حضن أمّه ، ونكحت أمّه رجلاً من بني عُدْرة ، وهو ربيعة بن حرام ، فاحتلها إلى بلاده بأطراف الشام ، فحملت قُصَيّاً معها لصغره ، وهو يومئذ فطيم ، فسَمِي قُصَيّاً لتقصيها به إلى الشام ، وكان يدعى زيدا ، فلما شبّ قُصَيّ رجع إلى مكة ، وكان واليها إذ ذاك حُلَيْل بن حُشَيْب من خزاعة ، فخطب قُصَيّ إلى حُلَيْل ابنته حُبَيّ ، فرغب فيه حُلَيْل وزوجه إياها ، فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد قُصَيّ ، وتَخَمَّر بنت قُصَيّ ، وبِرة بنت قُصَيّ . فلما مات حُلَيْل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيراً إلى تغلب قُصَيّ على أمر مكة والبيت . وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب :

الأولى : أن قُصَيّاً لما انتشر ولده ، وكثر ماله ، وعظم شرفه ، وهلك حُلَيْل ، رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشاً رؤوس آل إسماعيل وصرحهم ، فكلم رجلاً من قريش وبني كِنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة ، فأجابوه إلى مادعاهم إليه ، فكتب عندئذ إلى أخيه من أمّه رزاح بن ربيعة يدعوه إلى نصرته والقيام معه ، فأجابته ومن تبعه من قُضاعة .

الثانية : أن حُلَيْلاً - فيما تزعم خزاعة - أوصى قُصَيّاً بالقيام على الكعبة وبأمر مكة .

الثالثة : أن حُلَيْلاً أعطى ابنته حُبَيّ ولاية البيت ، واتخذ أبا غُبْشان الخزاعي وكيلاً لها ، فقام أبو غُبْشان بسدانة الكعبة نيابة عن حُبَيّ ، فلما مات حُلَيْل اشترى قُصَيّ ولاية البيت من أبي غُبْشان بقر من الحمر ، ولم ترض خزاعة بهذا البيع ، وحاولوا منع قُصَيّ عن البيت ، فجمع قُصَيّ رجلاً من قريش وبني كِنانة لإخراج خزاعة من مكة ، فأجابوه .

وأياً ما كان الأمر ، فلما مات حُلَيْل وفعلت صُوفَة ما كانت تفعل أتاها قُصَيّ بن معه من قريش وكنانة وقُضاعة عند العقبة ، فقال : نحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه ، فغلبهم قُصَيّ على ما كان بأيديهم ، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قُصَيّ ، فباداهم قُصَيّ ، وأجمع حربهم ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم تداعوا إلى الصلح ، فحكّموا يَعْمُر بن عوف أحد بني بكر ، ففضى بأن قُصَيّاً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة ، وكل دم أصابه قُصَيّ منهم موضوع يَشْدَخُه^(٢) تحت قدميه ، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقُضاعة ففيه الدية مؤداة ، وأن يخلى بين قُصَيّ وبين الكعبة ومكة ، فسَمِي يَعْمُر يومئذ بالشداخ لما شدخ من الدماء ووضع منها .

وكان استيلاء قُصَيّ على مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد تقريباً ، ومن ذلك الوقت صارت لقُصَيّ ، ثم لقريش ، السيادة التامة والأمر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني بلا منازع لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه ، فأقر النسأة ، وآل صفوان وعدوان ومرة بن عوف^(٣) على ما كانوا عليه من المناصب ، لأنه كان يراه

(١) الحُلُول : جماعات البيوت ، والصرم : الأبيات المجتمعة المنقطعة من الناس ، والصرم أيضاً : الجماعة من ذلك ، والفِرقة من الناس ليسوا بالكثير . انظر : (لسان العرب : ج ٩٧٢/٢ ، ج ٢٤٤٠/٣) .

(٢) شَدَخَ دَمَ فُلَانٍ : أهدّره وأبطله (الوسيط : ج ٤٧٨/١) .

(٣) وفيهم كان البسل ، والبسل : ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب ، قد عرفت ذلك لهم العرب ؛ لا ينكرونه ولا يدفعونه ، يسرون به إلى أي بلاد العرب شاؤوا لا يخافون منهم شيئاً . انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٤/١) .

دينياً في نفسه لا ينبغي تغييره حتى جاء الإسلام ، فهدم الله به ذلك كله^(١) .

وما زال فضل قریش يزاد بين القبائل حتى جاء عبد المطلب جد النبي ﷺ ، الذي اشتهر بتجديد حفر بئر زمزم ، وفي عهده خذل الله أئمة الأشرم وصدّه عن مكة والبيت الحرام ، ونجت مكة في أيامه من خطر الحبشة ، فذاعت شهرته وقصدته القبائل من كافة أطراف الجزيرة^(٢) .

الحكم في سائر بلاد العرب :

ذكرنا أن القبائل العربية هاجرت من اليمن واستقرت في مناطق مختلفة من بلاد العرب ، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعاً للملك العرب بالحيرة ، وما كان منها في بادية الشام كانت تبعاً للملوكة الغساسنة ، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية . وأما ما كان منها في البوادي في داخل الجزيرة فكانت حرّة مطلقاً .

وفي الحقيقة كانت لهذه القبائل رؤساء تسودهم ، وكانت القبيلة حكومة مصغرة ، أساس قيامها السياسي الوحدة العصبية والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العدوان عنها . وسيد القبيلة يختار من بين من جمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم والحلم ، وقد يجيء لرئيس القبيلة ابن يعدله في الشرف والسؤدد وحينئذ يستطيع أن يرث مكان أبيه ، وإذا تكررت رئاسة القبيلة في بيت من بيوتها عرف هذا البيت بالمجد والجاه .

وكانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ، فكانت القبيلة تبعاً لرأي سيدها في السلم والحرب ، لا تتأخر عنه بحال ، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لكتاتور قوي ، حتى كان بعضهم إذا غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب . لكن كان للبدوي أن يتمرّد على أي قرار يتخذه رئيس القبيلة ، إلا أن عليه في هذه الحال أن يدع القبيلة وأن يهجرها هجراً تاماً ، وكثيراً ما لجأ البدوي إلى هذا التصرف ، فإن أهم ما يمتاز به البدو عدم الخضوع ، فالحرية عند البدوي هي خير ما يعتز به ، ولا يستطيع أن يتنازل عن أي جزء منها لقاء أي شيء . والدارس لتاريخ البادية ونظام الحكم فيها يجد أن تمرد أفراد من القبيلة على حكم رئيسها كان كثير الوقوع ، وكانت الحرية المطلقة والأنانية المفرطة والأثرة من أهم العوامل التي تتحرك في نفوس البدو ، فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ويؤثرون أن يخلعوا أنفسهم ويهيون على وجوههم مع نظرائهم من الخلعاء .

ومن أجل هذا لم يكن سهلاً أن يتم بالبادية ارتباط بين عدد من القبائل لتكوين ممالك ، فالقبيلة الواحدة كانت معرضة للانقسام بطوناً كما كبرت ، وكان أفراد كثيرون منها يتركون أو يطردون منها من حين لآخر . وهناك مملكة وحيدة قصيرة العمر قامت في أواسط الجزيرة العربية بين الحكم القبلي وهي مملكة كندة (٤٨٥ - ٥٢٩ م) وكان أحد الملوك التابعة قد قهر بعض القبائل في أواسط الجزيرة فعين حجراً أكل المرار ملكاً عليها ، ولكن سرعان ما انهزم ملوك كندة أمام وثبة جديدة قام بها اللخميون ملوك الحيرة ، وقد تسبب عن انهزام ملوك كندة في الشمال أن تفتت ملكهم في قلب الجزيرة وعادت الحياة القبلية إلى الظهور .

وقد كان للسادة والرؤساء حقوق خاصة ، فكان سيد القبيلة يمتاز عن سائر رجال قبيلته ببيته الكبير ، المكوّن من خيمة ضخمة تكون مضيفاً للرئيس ومجلساً للقوم يؤمّه سادات القبيلة وأشرف الأحياء ، وموئلاً لذوي الحاجات من الناس وله خيام أخرى أعدت لحريمه ولأهله .

وكان الرئيس يمتاز عن أفراد قبيلته بكثرة عدد نسائه ، فسيد القبيلة مزواج في الغالب ، عنده المال ، وعنده الجاه والرئاسة ، فلا يجد صعوبة في الحصول على زوجات صغيرات السن لينجن له أولاداً ، يكونون له حصناً حصيناً أو أمناً له على ماله ، وعوناً له على القبيلة ، فيحمي بهم نفسه ، ممن قد يطمع في الرئاسة وفي انتزاع السيادة منه بالقوة .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٥/١ ، ١١٦-١٢٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٧/١ - ٦٩) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١/٣٦٠) ، والرحيق المختوم (ص : ٣٤-٣٦) . وسيأتي التفصيل فيما يتعلق بأعمال قصي ومآثره عند الحديث عن مكة المكرمة .

(٢) سيأتي التفصيل في مآثر عبد المطلب عند الحديث عن أسرة النبي ﷺ .

ومن حق الرئيس والسيد المُرَبَّاع من الغنمة ، والصَّفِيّ ، والنشيطه ، والفضول أيضاً . يقول الشاعر :

لك المرباع فينا والصفايا وحكك والنشيطه والفضول

والمرباع : ربع الغنمة ، والصفى : ما يصفه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطه : ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم ، والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوها .

- ويجدر بنا وقد عرضنا صورة مصغرة عن الحكم والإمارة في بلاد العرب أن نذكر مجمل أحوالهم السياسية ، فالبلاد التي كانت مجاورة للفرس أو الروم كانت حالتها السياسية في تضعف وانحطاط بوجه عام ، خاصة في القرن السادس الميلادي ، فقد كان الناس بين سادة وعبيد ، أو حكام ومحكومين ، فالسادة لهم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما في استطاعتهم التذمر والشكوى ، فقد كان الحكم استبدادياً ، والحقوق ضائعة مهدورة .

أما القبائل المجاورة لهذه البلاد فكانت تتقاذفهم الأهواء والأغراض ، مرة يدخلون في أهل العراق ، ومرة يدخلون في أهل الشام ، وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية ، حتى قال شاعرهم :

وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ويعتمدون عليه وقت الشدائد .

وأما حكومة الحجاز ، فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ، ويرونها قادة وسدنة المركز الديني ، وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية ، وحكمت في الحرم وما والاها بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، عليه السلام ، وكان لها من الدوائر والوظائف ما يشبه دوائر البرلمان كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن مكة المكرمة^(١) .

أديان العرب :

كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب ، كان منهم من آمن بالله وأمن بالتوحيد ، وكان منهم من آمن بالله وتعبد للأصنام إذ زعموا أنها تقرهم إليه ، وكان منهم من تعبد للأصنام زاعمين أنها تنفع وتضر ، وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ، ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف فلم يعتد بشيء ، ومنهم من تزندق ، ومنهم من آمن بتحكم الألهة في الإنسان في هذه الحياة ، وببطلان كل شيء بعد الموت ، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب ، ولا كل شيء مما جاء في الإسلام عن يوم الدين .

ومذهب أهل الأخبار أن العرب كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، دين الحنيفية والتوحيد ، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً مما ذكروا به ، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم ، عليه السلام ، حتى جاء عمرو بن لحي الخزاعي ، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين ، فأحبّه الناس ، ودانوا له ، ثم إنه خرج من مكة إلى الشام ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، ففتن بها ، فقدم معه هبيل وجعله في جوف الكعبة ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه فأجابوه ، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة لأنهم ولّوا البيت وأهل الحرم . وكان هبيل - على ما يزعم ابن الكلبي - من عقيق أحمر وعلى صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، وأدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ لَحْيٍ يَجْرُ قُصْبَةً^(٢) فِي النَّارِ ، فَسَأَلْتُهُ عَمَّنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَ : هَلَكُوا^(٣) .

(١) انظر : الرحيق المختوم (ص : ٢٨ - ٤٠) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٤ / ٢٤٤) فا بعدها .

(٢) القُصْبُ : المِعى ، وقيل : القُصْبُ : اسمٌ للأثْمَاءِ كُلِّهَا ، وقيل : هو ما كان أسفلَ البَطْنِ مِنَ الأثْمَاءِ (النهاية : ج ٤ / ٦٧) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٨١ / ١) .

وقيل : إن عبادة الأصنام نشأت في قريش تدريجياً ، فقد توصلوا من تعظيم حجارة الحرم التي كانوا يحملونها معهم إذا طعنوا من مكة تعظيماً للحرم ، ومحافظه على ذكره ، إلى أن صاروا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلف الخالوف فنسوا ما كانوا عليه ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات .

واتخذت العرب إلى جانب الأصنام بيوتاً للعبادة يستونها الطواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، وتهدى إليها كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتحرع عندها ، على أن هذه البيوت لا ترقى في المكانة إلى الكعبة ، وتظل الكعبة عندهم سيدها لأنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده . وكان لهذه البيوت سدنة وحجاب^(١) يتولون أمرها ويرعون حرمتها ويخدمونها ، وكانوا يزعمون أنهم ألسنة الأرباب الناطقة على سطح الأرض ، فكان لهؤلاء السدنة مكانة كبيرة في قومهم ، يبيئون لهم الحلال والحرام وأوامر الأصنام وكيفية التقرب إليها ومراسم عبادتها .

ومن أقدم أصنام العرب مناة ، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد ، ثم اتخذوا اللات في الطائف ، ثم العزى بوادي نخلة الشامية .

أما مناة فكانت للأوس والخزرج وغسان وأزد شئونة ومن دان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام ، وكانت على هيئة صخرة ، وقد سميت بذلك لأن دماء النساء كانت تمني عندها - أي تراق - وقيل إنها صنم كان منصوباً على ساحل البحر ، وقد تكون الصخرة مذبحاً أقدم عند الصنم لتذبح عليها ما يهل للصنم فسمي باسمها . وكانت القبائل العربية الأخرى تعظمها كذلك وفي جملتها قريش وهذيل وخزاعة ، أما سدنتها فالغطاريف من الأزد .

وأما اللات فكانت - على حد قول ابن الكلبي - أحدث من مناة ، وكانت صخرة مربعة بيضاء ، بنت ثقيف عليها بيتاً صاروا يسرون إليه . وكان سدنتها وحجابها بني معتب من ثقيف ، وقد انتقل تقديسها من ثقيف إلى قريش وجميع العرب .

وأما العزى فهي من الآلهة التي عبدها العرب عامة وقريش خاصة ، وهي أحدث من اللات ومناة ، وكانت رفيعة المنزلة عندهم ، وكانت - كما يذكر الأزرق - ثلاث شجرات سمرات ، وكان في كل واحدة شيطان يُعبد ، وقد بنوا فوقها بيتاً للعبادة ، وادّعوا أن أصواتاً تخرج من داخله ويسمعا المتعبدون . وقيل بل كانت العزى صنماً له بيت ، وأمامه خزانة يضع فيها الناس هداياهم ونذورهم لها ، كما كانوا ينحرون لها ، وأما الشجرات فإنها شجرات مقدسة أيضاً لأنها في حرم العزى . وكان سدنتها من سلم حلفاء بني هاشم .

ثم كثر الشرك وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز ، ويُذكر أن عمرو بن لُحَيّ كان له رأي من الجن فأخبره أن أصنام قوم نوح : ودًا وسواعًا ويَعُوثَ وَيَعُوقَ وسُراً مدفونة بجدة ، فأتاها ، فاستخرجها ، ثم أوردتها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل ، فذهبت بها إلى أوطانها . فكان ودًا لكُلبَ بنِ وَبْرَةَ من قُضاعة بدومة الجندل ، وسواعٌ هُذَيْلَ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إِيَّاسَ بَرْهَاطَ من أرض يَمَعِ ، وَيَعُوثَ لأَئِمِّمَ من طِيءَ وأهل جَرَشَ ومُدْحِجَ في جَرَشَ أو قَرِيهَا ، وَيَعُوقَ لَحْيَوَانَ بطن من هَمْدَانَ بأرض همدان من اليمن ، وسُرا الذي الكَلَاعَ بأرض حَمِيرَ .

وهكذا انغمس العرب في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص . ومن هذه الأصنام :

عُثَيَانِسَ (عم أنس) : وكان بأرض خولان ، وإِسَافَ ونَائِلَةَ : في الحرم قرب زمزم ، وهما في الأصل - على ما تزعم الروايات - رجل وامرأة من جرهم ، فسقا في داخل الكعبة ، فسخرها الله حجرين ، فأخرجا ووضعها عند الكعبة ليتعظ بها الناس ، فلما طال مكثها وعبدت الناس الأصنام عبداً معها .

وَرُضَى (رضاء) : وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب من تميم ، ومَنَافَ : لا يُعرف موضعه ولا من تعبده ، وذو الحَلَصَةَ : في تَبَالَةَ بين مكة واليمن ، وكان يسمى بالكعبة اليمانية ، وكان مروة بيضاء منقوش عليها كهية التاج ، وكان سدنتها بني أمامة من باهلة ، وكانت تعظمها وتهدى إليها خثعم ويحييلة وأزد السراة ومن قارهم من بطون العرب من هوازن ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة .

(١) السدنة : خادم الكعبة وبيت الأصنام ، والجمع : السدنة . والحجاب : البواب ، وجمعة حجة وحجاب (لسان العرب : ج ١٩٧٧ ، ص ٧٧٧) .

وسعد : صخرة طويلة بساحل جدة في أرض بني مِلْكان من مُصَر ، وذو الكَفَيْن : في أرض دُوس ، وذو الشَّرى : بالسَّراة ، وهو صنم بني الحارث بن يَشْكُر من الأزد ، وقد عبده الأنباط ، وكان على هيئة صخرة مربعة ، وكانوا يسفحون عليها أو أمامها دم الضحايا .
والأَقْيَصِر : في مشارف الشام ، وكان لِقْضَاعَة ولَحْم وجُذام وعَظْفَان . والفُلْس : في أرض طَيْبِء ، وهو لطِيءٌ ومن يليها بجبلي أجاً وسلَمَى ، وكان عبارة عن أخدود في وسط جبل أجا يشبه شكله شكل إنسان ، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ، وكان سدنته بنو بُولَان . (انظر : مصور الجزيرة العربية قبيل الإسلام / الأديان) .

وذو الكَعَبَات : بِسْتَداد لبكر وتغلب ابني وائل ، وإياد . وريثام : بصنعاء ، وكان بيتاً لِحَمِير وأهل البن . وأصنام أخرى كثيرة ، حتى كان لأهل كل دار بمكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً . ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعنهما حتى تساقطت ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت .

وتدرج العرب من عبادة الأصنام والأوثان^(١) إلى عبادة جنس الحجارة ، قال أبو رجاء العَطَارِدِيّ : كنّا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثُوءَ^(٢) من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ، ثم طفنا به . وقال ابن الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذها ربياً ، وجعل ثلاث أثنافي^(٣) لِقِدره ، وإذا ارتحل تركه .

وقد كان للجاهليين تقاليد وأساليب في عبادة الأصنام ، ابتدع أكثرها عمرو بن لُحَيّ ، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لُحَيّ بدعة حسنة ، وليس بتغيير لدين إبراهيم عليه السلام . فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها ويهتفون بها ، ويستغيثونها في الشدائد ، ويدعونها لحاجاتهم ، معتقدين أنها تشفع عند الله تعالى ، وتقربهم إليه ، وتحقق لهم ما يريدون ، كما قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(٤) ، وقال عز وجل : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٥) .

وكانوا يعتقدون أنها تضرهم وتهلكهم وتنزل بهم الشر في هذه الدنيا ، وأن من سب الأصنام أو تطاول في كلامه عليها نزلت به قارعة . روي أنه لما أسلم ضِمَام بن ثَعْلَبَة السَّعْدِيّ وقدم على قومه فكان أول ما تكلم به أن قال : بُسَّت اللَّاتُ وَالْعَزَّى ، قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجدام ، اتق الجنون . قال : إنها والله ما يضران ولا ينفعان . ولما تحرش رسول الله ﷺ بالأصنام وعابها خوفاً المشركون من أن يصاب بسوء ، وإلى تخويفهم هذا أشير في القرآن الكريم : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾^(٦) . ولما أسلمت زبيرة ، رضي الله عنها ، فذهب بصرها ، قالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللَّاتُ وَالْعَزَّى .

وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها ، ويتدللون عندها ، ويسجدون لها ، كما كانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين ، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسائها . وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾^(٧) ، وفي قوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾^(٨) .

(١) تطلق كلمة الأصنام على التمثال الذي يكون على صورة الإنسان ، ويكون مصنوعاً من خشب أو ذهب أو فضة فقط . وأما الأوثان فتطلق على كل

ما كان منحوتاً من حجارة على صورة إنسان .

(٢) الجُثُوءُ : الشَّيْءُ المَجْمُوع (النهاية : ج ٢٣٩/١) .

(٣) الأثنافي : جَمْعُ أَثْفِيَةٍ وَقَدْ تُخَفَّفُ البَاءُ فِي الجَمْعِ ، وَهِيَ الحِجَارَةُ الَّتِي تُنْصَبُ وَتُجْعَلُ القِدْرُ عَلَيْهَا (النهاية : ج ٢٣/١) .

(٤) الزمر : ٣ .

(٥) يونس : ١٨ .

(٦) الزمر : ٢٦ .

(٧) للمائدة : ٣ .

(٨) الأنعام : ١٢١ .

وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخصّون للأضنام شيئاً من مآكلهم ومشاربهم حسب ما يبدو لهم ، وكذلك كانوا يخصّون لها نصيباً من حرثهم وأنعامهم ، كما كانوا يخصّون من ذلك جزءاً لله أيضاً ، وكانوا كثيراً ما ينقلون ما كان لله لأضنامهم ، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأضنامهم بحال . قال تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغَمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) . كما كانوا يتقربون إلى أضنامهم بالنذر في الحرث والأنعام ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرْغَمِهِمْ ، وَأَنْعَامٌ حَرَمَتْ ظُهُورُهَا ، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ (٢) .

وكان من تقاليدهم الدينية : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي . قال ابن إسحاق : البحيرة بنت السائبة ، والسائبة هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سببت ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجزّ وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنبا ، ثم خلّي سبيلها مع أمها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، كما فعل بأمها ، فهي البحيرة بنت السائبة .

والوصيلة : الشاة إذا أتت (٣) عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ، ليس بينهم ذكر ، جعلت وصيلة ، قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم ، إلا أن يموت منها شيء ، فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم .

والحامي : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ، ليس بينهم ذكر حمي ظهره ، فلم يركب ، ولم يجزّ وبره ، وخلّي في إبله يضرب فيها ، لا ينتفع منه بغير ذلك . قال الله تعالى مشيراً إلى افترائهم في ذلك : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُ مِثْقَلَةُ فِهْمٍ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ (٥) . وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك . وفي الصحيح عن سعيد بن المسيّب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم (٦) ، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأكثر من الجؤن الحزاعي : « يا أكثم ! رأيت عمرو بن لحي بن قميعة بن خنديف يجزّ قصبه في النار ، فما رأيت رجلاً أشبهه برجل منك به ، ولا بك منه » ، فقال أكثم : عسى أن يضربني شبهه يا رسول الله ، قال : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير دين إسما عيل ، فنصّب الأوثان ، وبجّر البحيرة ، وسبب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي » (٧) .

وكانت العرب تستقسم بالأزلام ، والزلم : القيدح الذي لا ريش عليه . وكانت الأزلام ثلاثة أنواع : نوع فيه نعم ولا ، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالها ، فإن خرج : نعم ، عملوا به ، وإن خرج : لا ، أخروه ذلك العام حتى يأتيه مرة أخرى . ونوع فيه المياه والديّة ، فإن أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج عملوا به ، وكذا إذا اختلفوا في الديّة من يحملها منهم ضربوا بالقداح ، فإن خرجت الديّة فعلى من خرجت حملها . ونوع فيه : منكم أو من غيركم أو ملصق ، فكانوا إذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائه جزور ، فأعطوها صاحب القداح ، فإن خرج : منكم ، كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه : من غيركم ، كان حليفاً ، وإن خرج عليه : ملصق ، كان على منزلته فيهم ، لانسب ولا حلف .

ويقرب من هذا الميسر والقداح ، وهو ضرب من ضروب القمار ، وكانوا يقسمون به لحم الجزور التي يذبحونها بحسب القداح .

(١) الأنعام : ١٣٦ .

(٢) الأنعام : ١٣٨ .

(٣) أتت : ولدت ، أنثين في بطن واحد (لسان العرب : ج ٤١٣/١) .

(٤) المائدة : ١٠٢ .

(٥) الأنعام : ١٣٩ .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٦/٦٨) كتاب التفسير - سورة المائدة .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٨١/١) .

وكان الجاهليون يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين . والكاهن : هو من يتعاطى الإخبار عن الكوائن في المستقبل ، ويدعي معرفة الأسرار . ومن الكهنة من يزعم أن له تابعا من الجنّ يلقي عليه الأخبار ، ومنهم من يدعي إدراك الغيب بفهم أعطيه ، ومنهم من يدعي معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا القسم يسمى عرافاً ، من يدعي معرفة السرورق ومكان السرقة والضالة ونحوهما . والمنجم من ينظر في النجوم ، أي الكواكب ويحسب سيرها ومواقبتها ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل . والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم ، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء ، فكانوا يقولون : مطرنا بنوء^(١) كذا وكذا .

وكانت فيهم الطيرة ، وهي التشاؤم بالشيء ، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الطيبي فينفرونه ، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا وعدوه حسناً ، وإن أخذ ذات الشمال انتهبوا عن ذلك وتشاءموا . وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم .

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب ، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور ، والحيوانات والدور والنساء ، والاعتقاد بالعدوى ، والهامة ، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره ، وتصير روحه هامة ، أي بومة تطير في الفلوات وتقول : اسقوني اسقوني ، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح .

وكان للعرب - شأن كل أمة مشرقة في كل زمان ومكان - آلهة شتى من الملائكة والجنّ والكواكب ، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ، ويتوسلون بهم عند الله . وعبدوا كذلك الجنّ وأمنوا بقدرتهم وتأثيرهم . قال تبارك وتعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) . وفي القرآن الكريم أنهم جعلوا بين الله سبحانه وبين الجنة نسباً : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ، وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّ أَنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ ﴾^(٣) ، وأنهم جعلوا الجن شركاء له سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(٤) . وفي بني مليح من خزاعة الذين كانوا يعبدون الجنّ نزل قوله جلّ وعلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمثالَكُمْ ﴾^(٥) ، وكانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وقيم الدبران ، ولخم وجذام المشتري ، وطبيئ سهيل ، وقيس الشعري العبور ، وأسد عطارداً .

وكان عامة العرب يتصورون للنبي صورة خيالية ، ويحسبون ذاته قدسية ، لا يأكل ولا يشرب ولا ينجس ولا يلد ولا يمسي في الأسواق . كما كان عامتهم ينكرون البعث بعد الموت ، فكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هناك حياة بعد هذه الحياة ، فيها الحساب والثواب والعقاب ، ولذلك سخروا من البعث لما سمعوا به ، قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾^(٦) ، ﴿ وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَئِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾^(٧) . وقد روي أن العاص بن وائل السهمي أتى إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بين يديه فقال : يا محمد ! أبيعث الله هذا حياً بعد ما أريم ؟ قال : « نعم ، يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم » . وإذا كان من هؤلاء المنكرين للبعث من كان يقدم القرابين والهدايا للأصنام - كما ذكرنا آنفاً - فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى عنه في الآخرة ، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه في هذه الحياة الدنيا ، لتن عليه بالنعيم والخيرات ولتدفع عنه شر الأذى والأمراض . أما الآخرة فهو لا يهتم بها ، لأنه لم يكن يتصور بعثاً بعد الموت . ذكر أن الحارث بن عبد العزى أبا رسول الله ﷺ من الرضاعة لما قدم مكة قالت له قريش : ألا تسبع يا حار ما يقول ابنك هذا ؟ فقال : وما يقول ؟

(١) النوء : هو النجم الذي يكون مع المطر (لسان العرب : ج٦/٤٥٦٨) .

(٢) سبأ : ٤١ .

(٣) الصافات : ١٥٨ .

(٤) الأنعام : ١٠٠ .

(٥) الأعراف : ١٩٤ .

(٦) الجاثية : ٢٤ .

(٧) الإسراء : ٤٩ .

قالوا : يزعم أن الله يبعث بعد الموت ، وأن لله دارين ، يعذب فيها من عصاه ، ويكرم فيها من أطاعه ، فقد شئت أمرنا وفرق جماعتنا .

كان أهل الجاهلية على ذلك ، وفيهم بقايا من دين إبراهيم ، عليه السلام ، ولم يتركوه كله ، مثل تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة ، وتعظيم الأشهر الحرم ، والتحنث والاختتان . لكن ابتدعوا في ذلك بدعاً ، منها أن قريشاً كانوا يقولون نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت وقاطنو مكة ، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا ، وكانوا يسمون أنفسهم الحمس ، فلا ينبغي لنا أن نعظم من الحِلِّ ما نعظم من الحرم ، فكانوا لا يقفون بعرفة ، ولا يفيضون منها ، لأنها من الحِلِّ ، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة . وفيهم نزل قول الله عز وجل : ﴿ تَمَّ أَيْضًا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾^(١) .

ومن الأمور التي ابتدعوا أيضاً أنهم قالوا : لا ينبغي للحمس أن يَأْقِطُوا الأَقِطَ^(٢) ، ولا يَسْلُتُوا السَّنَّ^(٣) ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم^(٤) ماداموا حرمًا .

ثم رفعوا في ذلك ، فقالوا : لا ينبغي لأهل الحِلِّ أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحِلِّ إلى الحرم ، إذا جاؤوا حجاً أو عمارة .

كما أمروا أهل الحِلِّ أن لا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا شيئاً منها كان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه . فإن طاف أحد في ثيابه التي جاء بها من الحِلِّ ألقاها بعد الطواف ولا ينتفع بها هؤلاء ولا أحد غيرهم ، وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي . وأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٥) . فوضع الله سبحانه أمر الحمس ، وما كانت قريش ابتدعت منه ، عن الناس بالإسلام حين بعث الله به رسوله ﷺ .

ومن بدعهم كذلك أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام ، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقباً يدخلون ويخرجون منه ، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء براً . وقد أبطل ذلك الإسلام فقال الله عز وجل : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾^(٦) .

- وإلى جانب هذه الوثنية التي دان بها معظم العرب كانت هناك ديانات أخرى تسربت إلى الجزيرة العربية من الخارج أو نبتت من داخلها ، وهي اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئية ديانة بعض العرب ، والحنيفية التي نبتت من داخل الجزيرة .

أما اليهودية فقد وجدت سبيلها إلى الجزيرة عن طريق المهاجرين اليهود الذين تركوا الأرض الفلسطينية وذلك في زمنين : الأول : إثر تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م ، فهاجر قسم منهم من فلسطين إلى الحجاز واستوطن في ربوعها الشمالية . والزمن الثاني : إثر احتلال الرومان لفلسطين بقيادة بنطس سنة ٧٠م ، فقد نشأ من ضغط الرومان على اليهود ، وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز ، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء وفدك ، وأنشأت فيها القرى والحصون والقلاع . (انظر : مصور الجزيرة العربية قبيل الإسلام / الأديان) .

(١) البقرة : ١٩٩ .

(٢) الأقط : شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمتص ، والقطة منه أقطعة ، وهو من اللبن الإبل خاصة . وأقط الطعام يَأْقِطُهُ أَقْطًا : عَمِلَهُ بِالْأَقِطِ ، فهو مأقوط (لسان العرب : ج ١ / ٩٧) .

(٣) سَلَا السَّنَّ يَسْلُوهُ سَلًا وَسَلَاةً : طَبَخَهُ وَعَالَجَهُ فَأَذَابَ زُبْدَهُ (لسان العرب : ج ٣ / ٢٠٥٧) .

(٤) الأدم : جمع آدم وهو الجلد ما كان (لسان العرب : ج ٤ / ٤٥١) .

(٥) الأعراف : ٢١ - ٢٢ .

(٦) البقرة : ١٨٩ .

فمن طريق هؤلاء المهاجرين انتشرت الديانة اليهودية بين بعض العرب ، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام^(١) . وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة في يثرب هي : قَيْشِقَاع ، والنَّضِير ، وقَرْيَظَةَ . أما مَكَّة المكرمة فلم يستوطنها إلا عدد قليل من اليهود ، ولم يكن لهم معبد ولا حي خاص بهم ، ولذلك فقد كان مشركو مَكَّة يندهبون إلى يثرب ليسألوا أبحار اليهود عن النبي ﷺ .

ودخلت اليهودية البن من قبل أبي كَرَبِ تَبَّانِ أُسْعَد ، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب فاعتنق هناك اليهودية^(٢) ، وجاء بَحْرِيَّين من بني قريظة إلى البن ، فأبطل الأوثان ، وأخذت اليهودية في التوسع والانتشار فيها ، ولما ولي ابنه يوسف ذو نواس اضطهد النصارى من أهل نجران ، فلما أتوا ترك دينهم خدَّ لهم الأخدود وأحرقهم بالنار ، كما مضى ذكره ، وذلك في سنة ٥٢٣ م .

وقد كان لليهودية كدين أثر في يثرب وما حولها وفي كل الأماكن التي أقاموا فيها ، ومع أن هذا التأثير لم يكن بالغا إلا أنه كان ملحوظاً وواضحاً . فقد أدخلت اليهودية على عقائد العرب تغييرات هامة ، من حيث البعث والشواب والعقاب ، جعلتهم يستمدون لقبول الإسلام ديناً بدلاً من الوثنية التي لم تستطع إشباع رغبات العقلاء والمستنيرين من العرب .

- أما الديانة النصرانية فقد وجدت طريقها إلى بلاد العرب عن طريق الأحباش والرومان ، فقد احتلت الحبشة البن أول مرة سنة ٢٤٠ م واستمر إلى سنة ٢٧٨ م . وفي ذلك الزمان دخل التبشير النصراني في ربوع البن .

ولما احتلت الحبشة البن مرة ثانية كرد فعل لما فعله ذو نواس وتمكن أْبْرَهَةَ من حكمها ، أخذ ينشر النصرانية فيها بأوسع نطاق ، حتى بلغ من أمره أن بنى القلْبُيس بالبن ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ويهدم الكعبة ، بيت الله ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .

وقد كان أهم موطن للنصرانية في نجران ، فقد دخلها رجل يدعى قَيْمِيُون ودعا أهلها إلى النصرانية فأجابوه ، يروي لنا ابن إسحاق قصته فيقول : كان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدين مجاب الدعوة ، وكان سائحاً ينزل بين القرى ، لا يُعرف بقريّة إلا أخرج منها إلى قرية لا يعرف بها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يديه ، وكان بناءً يعمل الطين ، وكان يعظّم الأحد فإذا كان يوم الأحد لم يعمل شيئاً ، وخرج إلى فلاة من الأرض فصلى بها حتى يسي . قال : وكان في قرية من قرى الشام يعمل عمله ذلك مستخفياً ، ففطن لشأنه رجل من أهلها يقال له صالح ، فأحبه صالح حباً لم يحبه شيئاً كان قبله ، فكان يتبعه حيث ذهب ، ولا يفطن له فيميون ، حتى خرج مرة في يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع وقد اتبعه صالح ، وفيهين لا يدري ، فجلس صالح منه منظر العين مستخفياً منه ، لا يجب أن يعلم مكانه ، وقام فيميون يصلي ، فبينما هو يصلي إذ أقبل نحوه الثنين (الحية ذات الرؤوس السبعة) فلما رآها فيميون دعا عليها فماتت ، ورأها صالح ولم يدر ما أصابها ، فخافها عليه فعيّل عَوْله^(٣) فصرخ : يا قَيْمِيُون ! الثنين قد أقبل نحوك ، فلم يلتفت إليه ، وأقبل على صلاته حتى فرغ منها وأمسى ، فأنصرف ، وعرف أنه قد عرف ، وعرف صالح أنه قد رأى مكانه ، فقال له : يا فيميون ! تعلم والله أنني ما أحببت شيئاً قطّ حبك ، وقد أردت صحبتك ، والكينونة معك حيث كنت ، فقال : ماشئت ، أمري كما ترى ، فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم ، فلزمه صالح ، وقد كاد أهل القرية يفتنون لشأنه ، وكان إذا فاجأه العبد به الضر دعا له فشفي ، وإذا دُعي إلى أحد به ضُر لم يأت ، وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير فسأل عن شأن فيميون ، فقيل له : إنه لا يأتي أحداً دعاه ، ولكنه رجل يعمل للناس البنين بالأجر ، فعمد الرجل إلى ابنه ذلك ، فوضعه في حجرته ، وألقى عليه ثوباً ،

(١) كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن يثرب قبل الإسلام .

(٢) وسبب قتال أبي كَرَبِ تَبَّانِ أُسْعَد لأهل يثرب أنه كان قد مرّ بالمدينة ذات مرة حين توجه إلى المشرق وخلف ابنه فيها ، فقتل غيلة ، فلما أقبل أجمع على تدمير المدينة واستئصال أهلها ، فجمع له عمرو بن طلحة أحد بني النجار قومه لحربه ، فاقتتلوا ، فبينما أبو كَرَبِ على ذلك إذ جاء خبران من أبحار يهود بني قَرْيَظَةَ حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة ، فنصحاها ألا يفعل وأخبراه أنها مهاجرة نبي ، فانتهى عن ذلك ، وأتبعها على دينها . فلما أراد الرجوع إلى البن توجه إلى مَكَّة فأقى البيت فطاف به ثم كساه ، فكان أبو كَرَبِ - فيما يزعم أهل الأخبار - أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرم . انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/١ - ٢١) .

(٣) يقال : عيّل صَبْرَهُ ، أي غَلِب (النهاية : ج ٣٢٢/٣) .

ثم جاءه فقال له : يا فيميون ! إني قد أردت أن أعمل في بيتي عملاً ، فانطلق معي إليه حتى تنظر إليه ، فأشارطك عليه ، فانطلق معه حتى دخل حجرته ، ثم قال له : ما تريد أن تعمل في بيتك هذا ؟ قال : كذا وكذا ، ثم انتشط^(١) الرجل الثوب عن الصبي ، ثم قال له : يا فيميون ! عبد من عباد الله أصابه ما ترى فادع الله له ، فدعا له فيميون ، فقام الصبي ليس به بأس ، وعرف فيميون أنه قد عُرف ، فخرج من القرية ، واتبعه صالح ، فبينما هو يمشي في بعض الشام إذ مرَّ بشجرة عظيمة ، فناداه منها رجل ، فقال : يا فيميون ! قال : نعم ، قال : ما زلت أنظرك وأقول : متى هو جاء ؟ حتى سمعت صوتك ، فعرفت أنك هو ، لا تبرح حتى تقوم عليّ فيأتي ميّت الآن ، قال : فمات ، وقام عليه حتى واره ، ثم انصرف ، وتبعه صالح حتى وطئ بعض أرض العرب ، فعَدُوا عليها ، فاخطفتهما سيّارة من بعض العرب ، فخرجوا بها حتى باعوها بنجران ، وأهل نجران يومئذ على دين العرب : يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم ، لها عيد في كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علّقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه ، وحلّي النساء ، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً ، فابتاع فيميون رجل من أشرفهم ، وابتاع صالحاً آخر ، فكان فيميون إذا قام من الليل يتهدج في بيت له أسكنه إياه سيده يصلي استسرج له البيت^(٢) نوراً حتى يصبح من غير مصباح ، فرأى ذلك سيده فأعجبه ما يرى منه ، فسأله عن دينه ، فأخبره به ، وقال له فيميون : إنما أنتم في باطل ، إن هذه النخلة لا تضّر ولا تنفع ، ولو دعوت عليها إلهي الذي أعبده أهلها ، وهو الله وحده لا شريك له ، قال : فقال له سيده : فافعل ، فإنك إن فعلت دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه ، قال : فقام فيميون فتطهر وصلّى ركعتين ، ثم دعا الله عليها ، فأرسل الله عليها ريحاً فجَعَفَتْهَا^(٣) من أصلها فألقته ، فأتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه ، فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم ، عليه السلام ، ثم دخلت عليهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض ، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران في أرض العرب^(٤) .

وفي رواية أخرى ، عند ابن إسحاق ، أن أهل نجران كانوا أهل شرك ، يعبدون الأوثان ، وكان في قرية من قرأها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، وكان أحد رجال نجران واسمه الثامر يرسل ابنه عبد الله مع غلمان أهل نجران إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فكان يمر على صاحب خيمة بين نجران وتلك القرية ، وقد أعجبه ما رآه من صلاته وعبادته وتقواه ، فجلس إليه ويسمع منه حتى دخل في دينه ، وصار يدعو إليه بين أهل بلده . فمن ثم انتشرت النصرانية في نجران ، وظهرت على الوثنية .

وتذكر هذه الرواية أن عبد الله بن الثامر أخذ من ثم يبشّر بالنصرانية ، ويأتي بالمعجزات إذ يشفي المرضى ، حتى لم يبق أحد بنجران به ضرّ إلا أتاه فاتبعه على أمره ، ودعا له فعوفي ، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران . فدعا فقال له : أفسدت عليّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلن بك ! قال : لا تقدر على ذلك ، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض ، ليس به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بجور لا يقع فيها شيء إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس ، فلما غلبه ، قال عبد الله بن الثامر : إنك والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله فتؤمن بما أمنت به ، فإنك إن فعلت ذلك سلّطت عليّ فقتلتني ، فوحّد الله ذلك الملك ، وشهد بشهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعضاً في يده فشجّه شجّة غير كبيرة فقتله ، فهلك الملك مكانه ، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر^(٥) .

وقد روي أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دُفْن منها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده ، فإذا أُخرت يده عنها انثَعَبَتْ^(٦) دماً ، وإذا أرسلت يده ردها عليها ، فأمسكت دمه ، وفي يده خاتم مكتوب فيه : ربي الله . فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب

(١) اُنْتُشَطَ الشَّيْءُ : جَذَبَهُ وَنَزَعَهُ (الوسيط : ج ١٢٠/٢) .

(٢) أي أضاء فصار كالسراج .

(٣) جَعَفَتْ : قَلَعَتْ (الوسيط : ج ١٢٧/١) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٠١-٢٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣١-٢٤) .

(٦) انثَعَبَتْ : أي سالت (النهاية : ج ٢١٢/١) .

يخبره بأمره ، فكتب إليهم عمر رضي الله عنه : أن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه الدفن الذي كان عليه ، ففعلوا^(١) .

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وقضاة وغيرها لجاورتهم الرومان ، بل قد اعتنقتها بعض ملوك الحيرة أيضاً .

كما وجدت النصرانية لها سبيلاً إلى اليمامة فانتشرت هناك ، وكان حاكمها هُوذة بن عليّ الحنفي عند مبعث رسول الله ﷺ نصرانياً . ودخلت النصرانية أيضاً إلى البحرين وقطر وبعض جزر الخليج العربي ، ومن رجال البحرين النصارى الجارود بن عمرو الذي قدم على النبي ﷺ فأسلم كما سيأتي .

- أما المجوسية فكان معظم أتباعها في بلاد العرب من الفرس الذين كانوا يقيمون في اليمن واليمامة والبحرين وعمّان . (انظر : مصور الجزيرة العربية قبيل الإسلام / الأديان) . وفي روايات أهل الأخبار ما يفيد بتجس بعض العرب ، فورد أن زُرارة بن عدس وابنه حاجب بن زُرارة ، وهما من سادات تميم ، كانا قد اعتنقا المجوسية ، واعتنقتها أيضاً الأقرع بن حابس ، ورجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي لها . فلما ظهر الإسلام اعتنقه الفرس في اليمن ، ونبذوا المجوسية ، أما مجوس البحرين فبعضهم أسلم وبعضهم دفع الجزية من فضل البقاء على دينه .

- وأما الصابئية فقد دلّت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم ، عليه السلام ، وقد دان بها كثير من أهل الشام وأهل اليمن في غابر الزمان ، وبعد تتابع الديانتين اليهودية والنصرانية تضعض بنيان الصابئية وتمد نشاطها ، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس أو مجاورين لهم في العراق وعلى شواطئ الخليج العربي .
- وأما الحنيفية فقد كان يدين بها أفراد معدودون ، لم تعجبهم ديانة قومهم الوثنية ، ورأوا أن هذه الديانة لا توصل إلى الله ، فالتجّؤوا إلى ديانة إبراهيم ، عليه السلام ، الذي كان حنيفاً يوحد الله ويعبده ، فاعتنقوها ، فسّموا بالأحناف^(٢) . لكن لم يشكل هؤلاء في أي فترة من فترات تاريخ الجزيرة فئمة أو جماعة كبرى لعبت دوراً في تاريخها الديني ، أو كان لها وجود ديني مؤثر .



تلك هي أديان العرب التي جاء الإسلام وهم عليها ، وقد أصابها الانحلال والبوار ، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم ، عليه السلام ، كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعته ، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق ، فكثرت معاصيهم ، ونشأ فيهم على مرّ الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجري مجرى الخرافات ، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية تأثيراً بالغاً .

أما اليهودية فقد أصبحت مجموعة من طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة ، وتسربت إليها معتقدات خرافية ووثنية ، وعمّ التهاون بالتعاليم التي حضّ الله تعالى عليها وأمر كل فرد بتقديسها ، وصار هم رؤسائها الحظوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين .

وأما النصرانية فقد امتحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، ووثنية الرومان المنتصرين ، وأصبح كل ذلك ركماً ، دُفنت تحته تعاليم المسيح عليه السلام البسيطة ، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب الكثيفة . ولم يكن لهذه الديانة في نفوس العرب الذين دانوا بها تأثير حقيقي ، لبعد تعاليها عن طراز المعيشة التي ألفوها ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما المجوس فقد كانت لهم آداب وشرائع دقيقة ، فانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وتقديس الشمس ، وأصبحت الديانة عندهم عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة ، أما خارج المعابد فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم ، وما تلي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لافرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق في الأعمال والأخلاق .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦١) :

(٢) سيأتي ذكر نبذة عن أخبارهم في أول السيرة .

وأما سائر الأديان التي كانت منتشرة في بلاد العرب وفي العالم كله قبيل ظهور الإسلام ، فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين ، فقد تشابهت قلوبهم ، وتواردت عقائدهم ، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم^(١) .

الحالة الاقتصادية :

وتشمل الزراعة والرعي والتجارة والصناعة . أما الزراعة فكانت محدودة بسبب طبيعة أرض الجزيرة الصحراوية ، فاشتهرت بها بلاد اليمن والطائف ويثرب ، ومن أشهر المزروعات : الفواكه في الطائف ، والنخيل في المدينة ، والقمح في اليمن .

وأما الصناعة فكان العرب أبعد الأمم عنها ، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة والنجارة وصناعة الحديد والآلات الحربية واستخراج المعادن وغيرها كانت في أهل اليمن بالدرجة الأولى ثم في الحيرة ومشارف الشام . وقد اشتهرت مدينة جَرَش في اليمن بصناعة الدبابات والمجانيق ؛ فكان بعض العرب يقدمون إليها لتعلمها ، منهم أهل الطائف كما سيأتي في سياق الحديث عن غزوة الطائف بعد .

وقد لعب الرقيق والموالي دوراً كبيراً في أعمال الحرف والزراعة في جزيرة العرب ، كما استغل اليهود في يثرب أنفة العرب الصرحاء من الاشتغال بالحداثة فاحتكروها لأنفسهم ، وربحوا منها ربحاً طيباً ، وذلك بإنتاجهم الأدوات والآلات الزراعية وبصنعهم الأسلحة اللازمة لكل إنسان لحماية نفسه ، مثل صنع السيوف والخناجر والدرع ، وقد سلّحوا أنفسهم بها ، كما باعوا منتوجهم من غيرهم .

وأما التجارة فكانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة ، وأكبر مصدر للثروة عند العرب . وقد أشرنا سابقاً إلى النشاط التجاري في اليمن عند الحديث عن الحكم فيها ، ولما وقعت اليمن تحت وطأة الاحتلال الحبشي ثم الفارسي تقلص نشاطها التجاري تقلصاً كبيراً ، ومن ثم استطاع أهل مكة - ولعوامل متعددة - احتكار تجارة اليمن والشام وغيرهما كما سيأتي .

وللعرب أسواق كانوا يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ، ويحضرها سائر العرب بما عندهم من حاجة إلى بيع وشراء ، وتقع هذه الأسواق في مواضع مختلفة متناثرة من جزيرة العرب ، ومن أشهرها : عكاظ وذو المجاز ومَجَنَّة في منطقة مكة ، وحَبَاشَة بمنطقة تهامة ، وسوق عدن ، وسوق الرابية بمحرموت . وكانت سوق عكاظ أعرفها لأنها سوق تجارة وسوق سياسة وسوق أدب ، فيها كان يخطب كل خطيب مصتق ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل على ما يذكره بعض أهل الأخبار^(٢) .

الحالة الاجتماعية :

ونعني بالحالة الاجتماعية علاقة العربي بزوجه وأولاده وبني عمه وعشيرته ، وعلاقة القبائل المختلفة ببعضها ببعض ، ومكانة المرأة في المجتمع العربي الجاهلي ، وأهم ملامح هذا المجتمع .

أما عن علاقة الرجل بأهله ، فقد كانت تختلف باختلاف أوساط العرب بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع زوجته في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي ، وكان للمرأة من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة ، تُسلّ دونها

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٦٧-١٧ ، ٣٠-٣٤ ، ٨٢-٩٧ ، ١٦٤-١٦٥ ، ٢١٦-٢٢١) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٨/٥ ، ٢١٦) كتاب المغازي - باب أين ركز الراية يوم الفتح ، باب وفد بني حنيفة ، و (ج ١٩٧/٦) كتاب التفسير - باب سورة المائدة ، والمفضل في تاريخ العرب (ج ٢٤٦/٦ ، ١٢٦-١٢٨ ، ١٨٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٥٢٨-٧٨٧) ، ويثرب قبيل الإسلام / د . محمد السيد الوكيل (ص : ١٢٠-١٢٢) ، وأخبار مكة / للأزرقي (ج ١٨٠/١-١٨٢ ، ١٩٣-١٩٤) ، والأصنام / لابن الكلبي ، ومعالم تاريخ العرب قبل الإسلام / د . أحمد أمين سليم (ص : ٢١٢) ، والرحيق المختوم (ص : ٤٢-٤٨) ، وماذا خسر العالم باخطاط المسلمين / للندوي (ص : ٥٥-٥٦) .

(٢) انظر : الرحيق المختوم (ص : ٥٢) ، والمفضل في تاريخ العرب (ج ٣٧٧/٧ ، ٥١١ ، ٥٤٣ فما بعدها) .

السيوف ، وتُراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بماله في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت التباثل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال . ومع هذا فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة ، وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم^(١) .

بينما هذه حال الأشراف ، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من النكاح لا نستطيع أن نعبّر عنها إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة . تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم ؛ يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها . ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإلّا يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهط مادون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها لياالي بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحببت باسمه ، فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل . ونكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهنّ البغايا ، كنّ ينصبن على أبوابهنّ رايات ، تكون علماً ، فمن أرادهنّ دخل عليهنّ ، فإذا حملت إحداهنّ ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لها القافة^(٢) ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتأط^(٣) به ودّعي ابنه ، لا يمتنع من ذلك ، فلما بُعث محمد ﷺ بالحقّ هدم نكاح الجاهلية كلّها إلا نكاح الناس اليوم^(٤) .

وأشار أهل الأخبار إلى وجود أنواع أخرى من النكاح ، الغالب عليها سقوط الصداق والخطبة منها ، وهي نكاح المتعة ، وهو نكاح إلى أجل ، فإذا انقضى وقعت الفرقة . وقد كان هذا النوع من الزواج معروفاً عند ظهور الإسلام ، وقد أشير إليه في القرآن الكريم : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾^(٥) . ومن دوافع حدوث هذا الزواج التنقل والأسفار والحروب . وينسب أولاد المتعة إلى أمهاتهم في الغالب ، وذلك بسبب اتصافهم المباشر بالأمّ ، ولا تحال الأب عن الأمّ في الغالب إلى أماكن أخرى قد تكون نائية ، فتقطع الصلات بين الأب والأمّ ، ولهذا يأخذ الأولاد نسب الأمّ ونسب عشيرتها .

ونكاح البدل : وهو أن يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي ، فهو زواج بطريق المبادلة بغير

مهر .

ونكاح الشغار : وهو أن يزوّج الرجل ابنته أو أخته على أن يزوّج الآخر ابنته أو أخته ليس بينهما صداق .

وقد أباح الجاهليون للرجل تعدد الزوجات ، والجمع بين أي عدد شاء من الأزواج دون تحديد . أما الاكتفاء بامرأة واحدة أو باثنتين أو أكثر ، فذلك أمر خاص يعود إليه . كما أباح التشريع الجاهلي للرجل امتلاك أي عدد يشاء من الإماء ، وتكون الأمة ملكاً للرجل وليس لها حقوق الزوجة إلا إذا أعتقها مالك رقيتها وتزوّجها ، فعندئذ تكون له زوجة بحض قرار الرجل وإرادته .

وكان أهل الجاهلية يجمعون بين الأختين ، وكانوا يتزوّجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها . ويسمى الذي يخلف على امرأة أبيه الضيزن .

(١) يُقَالُ: افْتَتَتْ عَلَيْهِ: إِذَا انْفَرَّتْ بِرَأْيِهِ دُونَهُ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ (النهاية : ج ٤٧٧/٣) .

(٢) الْقَافَةُ: جَمْعُ قَائِفٍ، وَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُ شَبَهَ الْوَالِدِ بِالْأَخَارِ الْخَفِيَّةِ (فتح الباري : ج ١٨٥/٩) ، وانظر : (الوسيط : ج ٧٧٢/٢) .

(٣) الْأَطَّةُ: الْأَصْقَةُ، وَيُقَالُ: لَيْطَ الْوَلَدَ بِأَبِيهِ: أَلْحَقَهُ بِهِ (الوسيط : ج ٨٥٦/٢) .

(٤) صحيح البخاري (ج ٢٠٧/٧) كتاب النكاح - باب من قال لا نكاح إلا بولي . .

(٥) النساء : ٢٤ .

وكان الطلاق عند الجاهليين ثلاثاً ، فإذا طلق الرجل واحدة واثنتين فامرأته تظل له ، إلا إذا طلقها ثلاثاً فلا سبيل له عليها .

وهناك نوع آخر من الطلاق يسميه أهل الأخبار بالظهار ، بأن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي أو كظهر أخي أو عتي وما شابه ذلك . وقد أشير إليه في القرآن الكريم : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ (١) . وهو طلاق يظهر أنه كان شائعاً فاشياً بين الجاهليين ، سبب انتشاره التسرع والتهور وعدم ضبط النفس والانفعالات العاطفية ، فإذا تخاصموا مع المرأة أو مع أقربائها ، أقسموا بين الظهار . وقد كان هذا بين من أيمان أهل الجاهلية خاصة .

وأشار أهل الأخبار إلى نوع آخر من أنواع الطلاق ذكروا أنه كان من طلاق أهل الجاهلية سموه الإيلاء ، وهو القسم على ترك المرأة مدة ، مثل شهر أو سنة أو سنتين أو أكثر ، لا يقترب في خلالها منها . وقد منع الإسلام التبرص مدة تزيد على أربعة أشهر ، وجعله طلاقاً مؤجلاً .

وقد كانت المرأة ، في الأوساط العامة من المجتمع الجاهلي ، عرضة غبن وحييف ، تؤكل حقوقها ، وتبتر أموالها ، وتحرم إرثها ، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تتكح زوجاً ترضاه ، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة . فكانت إحداهن إذا مات زوجها كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره ومنها بنفسها ، إن شاء نكحها ، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يزوجها حتى تموت . وظل هذا شأن الجاهليين إلى أن نزل الوحي بتحريم ذلك .

كما كانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل ، فيمتنع الرجل بحقوقه ولا تمتنع هي بحقوقها ، يؤخذ مما تؤتي من مهر ، وتمسك ضراراً للاعتداء ، وتلاقي من بعلها نشوراً أو إعراضاً ، وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة ، ومن المأكولات ما هو خالص للمذكور ويحرم على الإناث كما ذكرنا سابقاً .

وكان الزنى شائعاً في جميع الأوساط ، لانستطيع أن نخص منها وسطاً دون وسط ، إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاضم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الفاحشة . فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد ، لكن كانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء ، والظامة الكبرى هي الإماء ، فكان أولياؤهم يكرهونهن على الزنى يأخذون أجورهن .

أما علاقة الرجل مع أولاده ، فكانت على أنواع شتى ، فمنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق ، ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو سوداء أو برصاء أو عرجاء تشاءمياً بهذه الصفات . ويذكر الأخباريون أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قل ذلك فيها إلا من بني تميم ، فإنهم تزايد فيهم ذلك قبيل الإسلام . وقبيلة كِنْدَةَ وقَيْسٌ وهَذَيْلٌ وأسَدٌ وبَكْرٌ بن وائل من القبائل التي عُرِفَ فيها الوأد ، وخَزَاعَةُ وكِنَانَةُ ومَضَرٌ ، وأشدهم في هذا تميم زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهم .

ومن أسباب الوأد إضافة إلى الفاقة وخشية لحوق العار بالإنسان من السبي هو اعتقاد بعض العرب أن الملائكة بنات الله ، فيجب إلحاق البنات بالبنات .

وورد أن الجاهليين كانوا يدفنون البنات وهن أحياء ، خصوصاً كِنْدَةَ ، وقد يتأخر في بعض الأحيان وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكى في ذلك المبكيات . روي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إننا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان ، فكنا نقتل الأولاد ، وكانت عندي ابنة لي ، فلما أجابت وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها ، فدعوتها

(١) المجادلة : ٢ .

يوماً فاتبعته ، فررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد ، فأخذت بيدها فردّيت^(١) بها في البئر ، وكان آخر عهدي بها أن تقول : يا أبتاه ، يا أبتاه . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف^(٢) دمع عينيه^(٣) .

ورود في القرآن الكريم ما يشير إلى قتل بعض الجاهليين أولادهم خشية الإملاق وخوف الفقر ، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب ، فكان يشترهم بعض سراة العرب وأشرفهم . وفيهم نزل قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾^(٤) .

وكان من عادة العرب ألا يورثوا البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئاً من الميراث ، ويعتبرون أن حق الإرث محصور بالذكور الكبار ، على أن يكونوا ممن يركب الفرس ويحمل السيف ؛ أي يطبق القتال .

أما معاملة الرجل لأخيه وأبناء عمه وعشيرته ، فكانت موطّدة قوية ، فقد كانوا يحبون للعصبية القبلية ويموتون لها . وكانت روح الاجتماع سائدة بين أبناء القبيلة الواحدة ، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم ، وكانوا يسرون على المثل القائل : (انصر أخاك ظالمًا أو مظلوماً) على المعنى الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه . إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد ، أو التسابق على موارد الماء ونبات الكلال كثير ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد ، كالحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج ، وغيرها . وكان للشعر أثر كبير في تأجيج نيران العداوة بين القبائل العربية بتعداد المآثر والمفاخر لقوم ودفع نظرائهم عنها .

وأما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً ، وكانت قوام منبهة في الحروب . فإذا قتل رجل من قبيلة فرداً من قبيلة أخرى ، فإن الأخذ بالثأر يصبح لزاماً على أفراد قبيلة المقتول ، فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل . ومن الواضح تبعاً لذلك أن قتل شخص من قبيلة كان يستدعي حروباً طويلة ، قد تمتد عدة سنوات لتعدد الأخذ بالثأر ، ولم يكن يطفىء الدم إلا سفك دم جديد .

يقول الأستاذ الندوي حول ذلك : (هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر ، فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا لأن كليباً - رئيس مَعَدٍّ - رمى ضرع ناقة البَسُوس بنت مُنْقِذٍ فاختلط دمها بلبنها ، وقتل جساس بن مُرَّة كليباً ، واشتبهت الحرب بين بكر وتغلب ، وكان كما قال المهلهل أخو كليب : « قد في الحَيان وثكلت الأمهات ويثم الأولاد ، دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن » .

كذلك حرب داحس والغبراء ، فما كان سببها إلا أن داحساً فرس قيس بن زهير كان سابقاً في رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر ، فعارضه أسدي بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله ، ففاته الخيل ، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائها ، وأسر ونزح للقبائل ، وقتل في ذلك ألوف من الناس^(٥) من عبس ودثيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان .

هكذا كانت حياة العرب شبكة محبوكة من ترات وثارات فشت حبالها في القبائل وأوصى بها الآباء الأبناء ، وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة ، والطمع والجشع ، والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب ، حتى كانت أرض الجزيرة - كما يقول الأستاذ الندوي - كفة جابل لا يدري الإنسان متى يُغتال وأين ينهب . وما كان يخفف من حدّة تلك الحروب وصرامة تلك الثارات إلا الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ، وفي بعض الحالات كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة ، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعوناً لهم على حياتهم وحصول معاشهم .

(١) زدى يروي زدياً : روى (لسان العرب : ج ١٦٣١/٢) .

(٢) وكف الدمع وكفاً : سأل (لسان العرب : ج ٤٩٠٨/٦) .

(٣) سنن الدارمي (ج ٢/١) .

(٤) الإسراء : ٢١ .

(٥) ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين (ص : ٦١-٦٢) .

وكانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها وامتيازاً ، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج ، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة ، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسب متوارثاً ، يتوارثه الأبناء عن الآباء كما مضى ذكره ، وكانت طبقات مترفة مُسَخَّرَة وطبقات سوقة وعوام فقيرة معدمة ، فكان التفاوت الطبقي من مسلمة المجتمع العربي .

لقد كان بين الجاهليين أناس عُرفوا بالغنى والثراء وبكثرة المال ، كالذي سنذكره عن بعض رجال مكة ، فقد كان بينهم رجال متخمون شبعون ، سكنوا بيوتاً حسنة ، زينتوا بأثاث جيد وثير ، ولبسوا ملابس الحرير والألبسة الجيدة المستوردة من بلاد الشام واليمن ، وأكلوا أكالات الأعاجم وتفننوا في الطبخ ، وشربوا بآنية من ذهب وفضة وبلور ، وساهموا في قوافل تجارة مكة الجماعية ، كما كانت لهم قوافل خاصة بهم تأتي إليهم بأرباح طيبة ، ومنهم من استثمر ماله بامتلاك الأرض لاستغلالها ، كما فعلوا بالطائف ، ومنهم من استغل ماله بالربا وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة ، إلى غير ذلك من وسائل اتبعوها في جمع المال .

وكان معظم العرب فقراء مدقعين لم يملكو من حطام هذه الدنيا شيئاً ، وكانت حالتهم مزرية مؤلمة . فكان منهم من لا يستطيع أكل الخبز لغلائه بالنسبة لهم ، ولا يستطيع شراء الملابس ليلبسها ، فيستر جسمه بالأسمال البالية وبالجلود ، ويعيش متضوراً جوعاً .

وما زاد في فقر بعضهم شرب الخمر والمقامرة ، فكان بعضهم يفني ماله في شرب الخمر ، وكان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعده حزناً سليباً ، ينظر إلى ماله في يدي غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً . فعلوا ذلك أملاً في التخلص من ألم الفقر والحرمان بالجوء إلى الخمر لطمس ألم الفقر والذل ، وإلى القمار أملاً في الكسب والريح ، فزادوا بذلك فقرهم ، وعرضوا أنفسهم إلى الخسارة .

وقصارى القول أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض ، من الضعف والعمية ؛ فالجهل ضارب أطنابه ، والخرافات لها جولة وصوله ، والناس طبقات ، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالمجذبات أحياناً ، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة ، وأما الحكومات فجُلَّ اهتمامها امتلاء الخزائن من رعيته أو جرّ الحروب على مناوئها^(١) .

العلوم والآداب :

العرب من الشعوب التي عرفت الكتابة ومارستها قبل الإسلام بزمان طويل ، بل عرفوا الكتابة قبل الميلاد ببضع مئات من السنين . فقد كان بينهم من يحسن الكتابة والقراءة ، إلا أن السواد الأعظم منهم كان يجهل الكتابة والقراءة قبيل الإسلام . ولم يكن العرب يعنون بتعليم أطفالهم الكتابة والقراءة ، إنما كان الرجل منهم يشعر بالحاجة إلى ذلك فيتعلّمها . فكان منهم من يقرأ ويكتب بالقلم المسند (أو قلم حُمير ، وهو قلم ظهر في اليمن بصورة خاصة ، وهو يباين القلم الذي نكتب به الآن) ، وكان بينهم من يقرأ ويكتب بالقلم الذي دون به القرآن الكريم ، فصار القلم الرسمي للإسلام ، بفضل تدوين الوحي به . كما كان بينهم من يكتب بقلم النبط وبقلم بني إرم ، وكان بينهم من يكتب ويقرأ بقلمين أو أكثر ، منهم وَرَقَة بن نُؤْفَل الذي كان يكتب الكتاب العبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب .

وقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على أهلها في نشر الكتابة والعلوم بينهم ، إذ صارت معابدهم مدارس يتعلم فيها الناس أصول ديانتهم ومبادئ المعرفة والكتابة والقراءة لمن يرغب من الأطفال .

ولم يحل عدم انتشار التعليم في بلاد العرب في الجاهلية دون قيام نهضة أدبية في خلال ذلك العصر ، وليس أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر الذي يكون صورة صادقة لنواحي الحياة . ولا يغيب عن الأذهان ما كان لاجتماع الشعراء في مكة وفي سوق عكاظ من أثر في حياة العرب الأدبية .

(١) انظر : الرحيق المختوم (ص : ٤٩-٥١) ، والمفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٧٩/٥ ، ٩١-٩٥ ، ٥٣٣-٥٣٢) ، وتاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ٦٦/١) ، وماذا خسّر العالم بالخطاط المسلمين (ص : ٥٩-٦٢) .

وقد كان في العرب أطباء عالّجوا المرضى بالسحر والأدوية ، أو بالأدوية التي أخذوها عن سبقهم ومن تجاربهم الخاصة . وقد شاع استعمالهم للكي والبتير والفصد والحجامة . واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً ، فكان الجاهليون يستعينون بالنساء لمرض الجرحى في غزورهم وغاراتهم .

أما العلوم التي حدقها العرب بحكم البيئة التي نشأوا فيها وطبيعة البلاد التي درجوا على أرضها فهي علم الأنواء . فكانوا أصحاب عناية ودراية في تتبع الأنواء وتعرّف أوقات نزول الغيث .

واتخذ الجاهليون النجوم دليلاً لهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر ، وقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (١) .

وكان العرب مثل غيرهم من الشعوب يلجأون إلى المتفرسين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الخافية عليهم من حاضر ومستقبل ، وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم . والكهّان هم المتخصصون بهذه المعرفة عند الجاهليين .

وقد مهر العرب في علم الأثر ، فكانت لهم دراية خاصة بمعرفة آثار الأقدام ، وساعدهم على ذلك تلك الصحراء المغطاة بالرمال التي تنطبع فيها آثار الأقدام بسهولة .

كما مهروا في علم الأنساب ؛ فقد كان يسكن جزيرة العرب قبائل متعددة ، ومن ثم دفعتهم الحاجة الملحة إلى أن يحفظوا أنسابهم التي يعتمدون عليها في عقد محالفاتهم أو في شن الغارات على أعدائهم أو المنافسة على مركز الرياسة فيهم . إلى غير ذلك من العلوم التي تنشأ في مثل هذه البيئة والتي هي أولى بأن يطلق عليها مجموعات من المعارف من أن تكون علوماً بالمعنى الذي نعرفه (٢) .

الأخلاق :

لا ينكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنيا ورذائل ينكرها العقل السليم ويأبأها الوجدان ، منشؤها جميعاً فساد العقيدة ، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم ، وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية ، بل كان عدم المشاركة في مجالس القمار عاراً ، وقد رسخ فيهم الربا وجرى مجرى الأمور الطبيعية ، وفشا فيهم الزنى حتى كان غير مستنكر استنكاراً شديداً . كما سبق أن ذكرنا - مما جعل منهم أمة منحطة الأخلاق ، متضعضة الكيان ، وحاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية ، وقد وُجد الظلم والقسوة ، وغمط الناس ، وبطر الحق ، وأكل أموال الناس بالباطل .

ولا تصوير للحياة الخلقية التي كان يعيشها أهل الجزيرة بصفة عامة وأهل مكة بصفة خاصة ، أبلغ وأصدق من تصوير جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، للحياة العربية والأخلاق الجاهلية أمام النجاشي ملك الحبشة ، وقد جاء فيه : (أيها الملك ! كنّا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف) (٣) .

لكن رغم ذلك امتاز العرب ، بين أمم العالم وشعوبه ، في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفرّدوا بها ، كالفصاحة ، وقوة البيان ، وحبّ الحرية ، والفروسية ، والشجاعة ، والصرافة في القول ، وجودة الحفظ ، وقوة الذاكرة وما إلى ذلك ، وكانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروّع الإنسان ويفضي به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق :

(١) الأنعام : ٩٧ .

(٢) انظر : الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١٠٨-١٠٧/٨ ، ١٥٢ ، ٢٩٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤) ، وتاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ٦٦٧-٦٨) .

(٣) انظر الخبر بطوله في سيرة ابن هشام (ج ٣٥٨-٣٥٩) .

الكرم : وكانوا يتبارون فيه ، وقد استنفذوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومثنى على غيره . كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع ، وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته ، فتأخذه نخوة الكرم فيقوم إليها ويدبجها لضيفه . ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات .

ومنها الوفاء بالعهد : فقد كان العهد عندهم ديناً يتسكون به ، ويستهنون في سبيله قتل أولادهم ، وتخريب ديارهم ، وتكفي في معرفة ذلك قصة وفاء هانيء بن مسعود الشيباني لودائع النعمان والتي كانت سبباً في وقعة ذي قار⁽¹⁾ .

ومنها عزة النفس وإباء عن قبول الخسف والضميم : وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة ، وشدة الغيرة ، وسرعة الانفعال ، فكانوا لا يسمعون كلمة يشتمون منها رائحة الذلّ والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان ، وأثاروا الحروب العوان ، وكانوا لا يباليون بالتضحية بأنفسهم في هذا السبيل . يدل على ذلك ما ذكره المؤرخون العرب من سبب قتل عمرو بن كلثوم الفارس المشهور والشاعر الفحل لعمرو بن هند ملك الحيرة ، فقد ذكروا أن عمرو بن هند ملك الحيرة أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن يزيّر أمّه ، فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب ، وأمر عمرو بن هند برواقه ، فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، ودخل عليه عمرو بن كلثوم في رواقه ، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق ، وقد كان عمرو بن هند أمر أمّه أن تنحي الخدم إذا دعا بالظرف ، وتستخدم ليلى ، فدعا عمرو بمائدة ، ثم دعا بالظرف فقالت هند : ناوليني ياليلى ذلك الطبق ! فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعدت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : واذاه يالتغلب ، فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه ، ووثب إلى سيف لعمرو بن هند معلّق بالرواق ، فضرب به رأس عمرو بن هند ، وانتهب بنو تغلب ما في الرواق وساروا نحو الجزيرة ، وقال في ذلك عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة التي عدت من المعلقات السبع .

ومنها المضي في العزائم ، فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار لا يصرفهم عنه صارف ، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله .

ومن أخلاقهم أيضاً الحلم والأناة والتؤدة ، كانوا يمتدحون بها ، إلا أنها كانت فيهم عريضة الوجود لفرط شجاعتهم ، وسرعة إقدامهم على القتال .

ولهم أخلاق فاضلة أخرى ، يضيق بحثنا هنا عن استقصائها ، ولعلّ هذه الأخلاق إلى جانب أمور أخرى كانت سبباً في اختيار العرب حملة لرسالة السماء الأخيرة .

فما هي تلك الأمور التي رشحتهم لحمل عبء الرسالة العامة وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري دون غيرهم من الأمم ؟

أولها : الموقع الجغرافي المتوسط لأرض العرب بالنسبة للعالم ، فالجزيرة العربية تتوسط العالم ، قديمه وحديثه ، فهي مع كونها جزءاً من قارة آسيا تقع بمقربة من قارة إفريقيا ، ثم قارة أوروبا ، وكلّ منها مركز الحضارات والثقافات والديانات والحكومات القوية الواسعة ، وتمرّ بها القوافل التجارية التي تصل بين بلاد مختلفة ، وقد تصل بين قارات تحمل من بلد ما يستطرف وينتج فيه إلى بلد يفتقر إليه .

ولهذا الموقع المتوسط أهميته لدى علماء السياسة والثقافة والدين ، وإن له لمزايا كبيرة وإيجابيات يجعل الجزيرة جديدة بأن تكون مركزاً لدعوة تعمّ العالم وتخاطب الأمم . وسوف يبقى لهذا الموقع المتوسط آثاره البعيدة في الحضارة الإنسانية التي يسعى الإسلام لإقامتها في الأرض تحت رايته ويأمر بها أتباعه .

وأما مكة المكرمة بالذات ، مبعث الرسول ومهبط الوحي ، فهي في غاية التوسط في العالم ، حتى لقد تبين لبعض العلماء أنها سرّة العالم . ولعل هذه الحقيقة تعبر عنها تسمية الله سبحانه وتعالى لمكة المكرمة (أمّ القرى) ، وفي هذه التسمية إحياء كبير بما أراد الله عزّ وجلّ ، لهذا البلد الحرام من الإشراف على مدن الأرض وبلدان العالم .

(1) تقدّم ذكر ملخص القصة عند الحديث عن الملّك بالحيرة .

وفي مكة البيت الحرام أول بيت وضع للناس ، فهي صحح القبائل جميعاً ومنطلق القوافل إلى الشمال والجنوب ، وأهلها أهل الرئاسة الدينية والمكانة الاجتماعية لدى العرب جميعاً - كما سيأتي بيانه . وإضافة إلى هذا فإن لسان قريش كان أقوى الألسنة أداءً وأصحها لفظاً وأشرقها أسلوباً ، ومن أجل ذلك حرص الشعراء على قرص الشعر بلغة قريش ، ونزل القرآن الكريم بها أيضاً .

ثانيها : عزلة الجزيرة عما حولها من الأمم : فبالرغم من توسط هذه الجزيرة في العالم ووقوعها بين قوتين متنافستين : قوة الروم النصرانية وقوة الفرس المجوسية ، وقوة الغرب وقوة الشرق ، فإن الله تبارك وتعالى حماها من تأثير الأمم الأخرى بما جعل جوها حاراً وأرضها جرداء لا تصلح للزراعة ، وبصعوبة اقتحامها بما أحاطها به من الصحارى والرمال من كل جانب ، فزهدت بها الأمم الكبرى التي حولها ، فظلت لذلك تحتفظه بحريتها وشخصيتها ، ولم تخضع لإحدى الدولتين إلا في بعض أطرافها في الشمال والجنوب (اليمن) ، وفي قليل من قبائلها . فكانت في خير موقف لتكون مركزاً للدعوة الإنسانية عالمية ، تتحدث من مستوى عال ، بعيدة عن كل نفوذ سياسي وتأثير أجنبي .

ثالثها : السذاجة البدوية وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها التي أفسدت غيرهم من الأمم ، فكانت فطرة العرب أقرب إلى الصفاء والسلامة ، وبالتالي قبول الإسلام من الأمم التي عاصروها .

فهذه العزلة التي عاشها العرب في جزيرتهم أعانتهم على أن يحتفظوا بفطرتهم سليمة من المؤثرات الفاسدة ، وعلى أن تبقى وثنيتهم سطحية بسيطة غير معقدة . فكان جهلهم جهلاً بسيطاً يسهل إزالته ، وكانت هدايتهم أيسر وأبقى وأعمق أثراً ، على حين كان جهل الأمم المجاورة التي خالطت وثنيتها أدواء الحضارة جهلاً مركباً ، فكانت بذلك أكثر استعصاء على الهدى . يتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوي عن هذه الناحية فيقول :

(وقد اختار الله العرب ، ليتلقوا هذه الدعوة أولاً ، ثم يبلغوها إلى أبعاد أنحاء العالم ، لأن ألواح قلوبهم كانت صافية ، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة ، يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم ، والفرس ، وأهل الهند ، الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وأدابهم الراقية ، ومدنياتهم الزاهية ، ويفلسفاتهم الواسعة ، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية ، لم يكن من السهل حلها . أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداءة ، ومن السهل المسور محوها وغسلها ، ورسم نقوش جديدة مكانها . وبالتعبير العلمي المتأخر كانوا أصحاب « الجهل البسيط » الذي تسهل مداواته ، بينما كانت الأمم المتعدنة الراقية في هذا العصر مصابة بـ « الجهل المركب » الذي تصعب مداواته وإزالته (١) .

ذلك حق لا شك فيه ، فمن المعروف أن هداية الأميين أيسر وأسهل من هداية أصحاب العلوم كاليهود والنصارى الذين كان لديهم علم من الكتب السماوية ، ولديهم من الغرور بذلك العلم شيء كبير ، كانوا يتيهون به على العرب الأميين ، ولديهم معتقدات راسخة فكانوا يتمسكون بها . ومما زاد من صعوبة نحو آثار الديانات السماوية السابقة أن بعضها - كالنصرانية - قد دخل الجزيرة على مراكب حضارية ، وكان بعضها قد أصابه التحريف ودعاه أصحابه بفكر فلسفي معقد ، ومن ثم تأخر إسلام هؤلاء عن إسلام العرب ، ولم يسلم منهم إلا القليل ، وانتهى مصير الباقي إلى الجزية .

ولهذا فإنه بالرغم من الصدود الأول الطويل الذي لقيه رسول الله ﷺ من قومه تكبراً وخوفاً على الزعامة ، ونفوراً من ترك دين الأجداد ومن التبعية والضغط المطلق الجديد الذي حملته الشريعة الإسلامية ، فإنهم ما إن زابلهم الكبر والتعدى حتى رسخت مبادئ الإسلام في قلوبهم رسوخاً عظيماً وفهموا ، فتشبهوا بالإسلام تشبهاً كبيراً وحازوا بذلك شرف السبق إلى حمله أول مرة وتبليغه العالم .

وكان من نتائج الفطرة العربية السليمة الصراحة والصدق والأمانة والنفور عن الغدر والخداع والخيانة ، إلى غير ذلك من صفات طيبة ومكارم أخلاق ، سرذنا بعضها أنفاً . يقول الأستاذ الندوي في هذا الصدد :

(وكانوا على الفطرة ، وأصحاب إرادة قوية ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه

(١) السيرة النبوية / أبو الحسن علي الحسن الندوي (ص : ٣٦) .

واحتضنوه ، واستأثروا في سبيله . يعبر عن هذه النفسية خير تعبير ما قاله سهيل بن عمرو ، حين سمع ما جاء في كتاب الصلح في الحديبية : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » : « والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ولا قاتلناك » (١) ...

وكانوا واقفين جادين ، أصحاب صراحة وصرامة ، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم ، اعتادوا القول السديد ، والعزم الأكيد ، يدل على ذلك دلالة واضحة ما روي في قصة بيعة العقبة الثانية ، التي تلتها الهجرة إلى المدينة ، قال ابن إسحاق :

« لما اجتمعت الأوس والخزرج في العقبة لبياعوا رسول الله ﷺ قال العباس بن عباد الخزرجي : يا معشر الخزرج ! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت (٢) أموالكم مضيبة ، وأشرفكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فيأنا نأخذنه على مضيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وقينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه » (٣) . وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبايعوا رسوله (٤) .

وإبها : صلاحية العرب لحمل أعباء العقيدة بما اعتادوه في صحرائهم من شظف العيش والبعد عن حياة الرفاه والترف .

هذا الشظف الذي عاشوه هيأهم لحمل رسالة الإسلام والنهوض بتكليفها ، فقسوة الصحراء التي تحرم أصحابها المتع من جهة ، والمزلة عن المؤثرات الحضارية ومغرياتها من جهة أخرى ، كل ذلك حفظهم من الترهل والفساد الذي أصيب به أصحاب الحضارات الجبارة .

علمهم عيش الصحراء القاسي التقشف والزهد والقدرة على التحمل ، والعيش مع جوهر الأمور ، يقتضون عليه ويستغنون به عن زخارف الحياة التي عرفتها الحضارات حولهم . فهم قادرون على عدم تلوين الطعام وتنويع اللباس وأغماط العيش ، قادرون على قلة المباح ، والترفع عن متاع الأرض والتنصل من جوازها ، قادرون على القتال الدائم ؛ في روحهم قدرة على الثورة والتمرد ورفض المذلة بالغا ما بلغ الثمن . يقول الأستاذ الندوي في وصفهم :

(وكان العرب بمنزل عن أدواء المدنية والترف ، التي يصعب علاجها ، والتي تحول دون التمسك للعقيدة والتفاني في سبيلها ... وكانوا مغاوير حرب ، وأحلاس خيل ، وأصحاب جلادة وتقشف في الحياة ، وكانت الفروسية هي الخلق البارز الذي لا بد أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل ، لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات ، والقنوة والبطولة .

وكانت قواهم العملية والفكرية ، ومواهبهم الفطرية ، منخورة فيهم ، لم تستهلك في فلسفات خيالية ، وجدال عقيم بينظي ومناهج كلامية دقيقة ، وحروب إقليمية سياسية ، فكانت أمة بكرة ، دافقة بالحياة والنشاط ، والعزم والحماس (٥) .

كل ذلك مواهب إلهية هيأتهم لحمل الرسالة ، ولقد أثبت تاريخهم أنهم يوم ناداهم الإسلام لأداء واجب العقيدة كانوا حاضرين قادرين على حمل المسؤولية وتحمش المشاق والتخفف من متاع الأرض وجوازها كما سنرى خلال عرض أحداث السيرة .. لقد كان لهم من المعانة السابقة معين على المعانة الجديدة ، فرفعهم الله عنده بذلك مكاناً علياً وشرفهم بحمل بضاعة الهداية والإيمان إلى الإنسانية جمعاء .

بينما كان الناس في الدولتين الرومانية والفارسية قد استحذت عليهم حياة الترف والبذخ ، وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة اللزورة وخرقوا فيه إلى أذقانهم .. كما يقول الأستاذ الندوي - (فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين ساديين في غفلتهم لا هم

(١) انظر : صحيح مسلم (ج ١٤٠٩/٤) كتاب الجهاد والسير - باب صلح الحديبية / ح ٩٠ .

(٢) التُّهْكُ : التَّنْقُصُ (لسان العرب : ج ٤٥٦١/٦) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٥/٢) .

(٤) السيرة النبوية / للندوي (ص : ٣٦-٣٧) .

(٥) المصدر السابق : (ص : ٢٨) .

لهم إلا اللذة والتهايم الحياة ، وبذخوا بذخاً عظيماً تخطى القياس ، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقاً عظيماً جداً ، فكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسون ألف جواد وشيء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة ، وقصره مثال في الأبهة والغنى ...

كذلك كان الشام في الدولة الرومية وحواضرها ، وكانت الدولتان والمدنيتان - الفارسية والرومية - كفسري رهان في البسخ والترفة في دقائق المدنية . وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم في الشام بذخاً عظيماً ، وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم وهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهية شيئاً كثيراً ، وبلغت من الترف والأناقة شأواً بعيداً ..

وكان الأمراء والأقبال والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة وأفراد الطبقة الوسطى على آثار الملوك يحاولون أن يقلدوهم في لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم ، وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم ، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعاً عظيماً وتعتمدت المدنية تعقداً عظيماً ، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة ... درج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ، ورضوا بلبانها ونشأوا عليها حتى أصبحت لهم الطبيعة الثانية ، وعزّ عليهم الفصال ، وشقّ عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى في ساعة عصبية وفي فاقة واضطرار ، ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فرّ من المدائن أخذ معه ألف طاه وألف مغنّ وألف قيمّ للنور وألف قيمّ للبزة وآخرين وكان يستقل هذا العدد . واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عرفأقي به في قرح غليظ ، فقال : لومتّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هنا ، فأقي به في إناء يرضاه (١) .

إن الضعيف المتعلق بزخارف الدنيا ، العاجز عن فقد الكاليات فيها ، ومن اعتاد أن يعطي نفسه هواها من لبوس ومأكّل ومنام ، لا يقدر على الصمود لمطالب العقيدة ، وإن تكاليفها لكثيرة .. إنها تقتضي جلدأ ومكابدة ، تفرض على أصحابها الكفاح ، وتوجههم إلى كثير من المصابرة والقدرة على الاستغناء عن متاع الأرض وجوازئها ومباهجها ، والاستغناء عن أقرب الناس وعن أحب الأشياء إلى النفوس من أجل النهوض بالأمور الجسام التي تقتضيها الرسالة . ومن ثم لا يصلح لحل العقيدة إنسان قلبه متعلق بالشهوات وجسده قد كبلته ثقله الأرض وأقعدته الرغائب الحسيية .

خامسها : ما كان يتحلّى به العرب من صفات حميدة وأخلاق فاضلة ، سبق أن ذكرنا طرفاً منها وأشرنا إلى أنها إحدى الأمور التي كانت سبباً في اختيار العرب حملة لهذا الدين . على حين كانت الأمم والحضارات الكبرى في ذلك الزمان قد انحطت انحطاطاً عظيماً وضعفت الحاسة الأخلاقية فيها ، حتى ذابت أسس الفضيلة وانهارت دعائم الأخلاق .

وإن من يقرأ أشعار العرب والكتب التي حفظت أخبارهم يرى أن العرب كانوا أمة يعشقون المثل ويضحون بأرواحهم أحياناً من أجلها ، وأنه كانت لديهم مفاهيم خلقية ندر اجتماعها في أمة من الأمم ، كالنجدة والوفاء وإغاثة الملهوف والأنفة من التذلل والحفاظ على الأعراض ، والترفع عن اللؤم والجن والبخل والبعد عن الغدر والنفاق ، إلى غير ذلك من المكارم والمثل الأخلاقية ، التي أعانتهم على حفظها عزلتهم في الصحراء ، فلم تسلبهم إياها مخالطة الأمم . ولعلّهم زاد العرب تعلقاً بهذه الأخلاق الرفيعة وتشبهاً بها أنهم كانوا يحتكمون إليها ويلوذون بها ، فكانت سلاحهم ضد غوائل الحياة في الصحراء حيث الأمن ضائع فلا يأمن الإنسان على نفسه وماله ولا على عرضه وأرضه شيئاً ، فلولا مسكة من خلق تحلّى بها العرب لأكل بعضهم بعضاً .. هنالك بدت قيمة الأخلاق في الجزيرة العربية ، ولقد اعتادها العربي حتى رسخت في نفسه قياً أصيلة لا يرى عاراً ولا خطراً أكثر من التخلي عنها .

ومهما يكن ، فإن هذه القيم بلا شك صلة كبيرة بالتدين ، وهي من صلب الدين ، وإنه لا يصلح لهذا الدين إلا إنسان يعيش المثل الرفيعة ويقدمها ويحتكم إليها في حياته . وإن الدين الإسلامي كله إنما جاء لإيقاظ الحاسة الخلقية لدى الإنسان ، إذ لا تستقيم الحياة إلا بها ، جاء لينصر القيم الرفيعة في المجتمع الإنساني عامة ويبيئها على أسس ربانية ، خلافاً لما كانت عليه في الجاهلية ، وهو في جملة مجموعة مكارم ومثل رفيعة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) .

(١) ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين / الندوي (ص : ٧١-٧٤) .

(٢) كنز العمال (ج ١٦٣) .

أما ما عرفنا من المفاصد الأخلاقية التي كان يعماني منها العرب كشراب الخمر والزنى وواد البنات والنزوة الظالم ، فإنما سببها فساد العقيدة . كما سبق أن أشرنا - فإن عقيدة الشرك لم تكن لتسببهم في الوقوف عند مكارم الأخلاق وعدم تجاوزها إلى الآثام ، ومن ثم تردوا إلى الفجور والضلالة . فلما فتح الإسلام مغاليق قلوبهم بفتح التوحيد ووضح لها مضر تلك المفاصد أعلنوها عالية : انتهىنا ربنا انتهىنا (١) .



تلك هي أبرز الأمور التي اختار الله ، عز وجل ، لأجلها الجزيرة العربية ، دون غيرها من أرض الله الواسعة ، لتكون مهبط الرسالة الأخيرة ، ونقطة انطلاق للإسلام في العالم ، وليكون أهلها ، دون سائر الأمم ، حمة لهذه الرسالة وتبليغها للعالمين . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٢) .

الحاجة إلى نبي مرسل :

على أنه بالرغم من تلك المواهب التي أكرم الله بها العرب ، والمزايا التي امتازت بها أرضهم ، فإنه لم تكن في الجزيرة العربية أمارات يقظة ، أو آثار قلق ظاهر ، وما كان الحنفاء والباحثون عن الحق ، الذين لا يجاوز عددهم رؤوس الأصابع ، إلا كعده ضئيل من الريح ، يطير في ليلة شاتية مطيرة شديدة الظلام ، فلا يهدي تائها ولا يدفء مقرواً .

وكان القرن السادس للميلاد - الذي كانت فيه البهثة الحمديّة - وما يليه من فترة زمنية ، من أشد الفترات التي مرت بها الجزيرة العربية ، بل العالم كله ، ظلمة وانحطاطاً ، وأبعد من كل أمل في الإصلاح ، وأصعب مرحلة واجهها نبي من الأنبياء ، وأدقها .

يقول الأستاذ الندوي : (وقد أحسن أحد الكتاب الإنجليز في السيرة النبوية السيد ويليم موير وهو معروف بتعامله على الإسلام وصاحب رسالته ، عليه الصلاة والسلام ، تصوير هذه الفترة والإنكار على ما قاله بعض الكتاب الأوروبيين ، أن البركان كان متهيئاً للانفجار ، فجاء محمد ﷺ في أوانه ومكانه ، فناولته شرارة من النار ، فانفجر ، يقول : « لم تكن الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية صالحة لقبول أي تغيير أو نهضة عندما كان النبي ﷺ شاباً ، ولعل اليأس من إصلاح القوم لم يصل ذروته مثل ما وصل في عصره ، ولكن حينما تضعف الثقة بسبب واحد لنتيجة خاصة ، تفتعل له أسباب أخرى ، وتعتبر أسباباً لحدوث هذه النتيجة . من ذلك ما يقوله بعض الناس أن محمداً حين نهض ، نهض معه العرب كلهم لإيمان جديد ، ووقفت الجزيرة العربية وقفة رجل واحد ، ثم يستنجدون من ذلك أن الجزيرة العربية كلها كانت متهيئة متحمسة إذ ذاك لتحول مفاجيء عظيم ، ولكن التاريخ عندنا يكذب هذه النتيجة ، إذا تأملنا في تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام بقلب هادئ ، فلم تنجح جهود المسيحيين المتواصلة ، ودعوتهم وموعظتهم المستمرة خلال خمسة قرون إلا في كسب عدد قليل جداً من بعض القبائل ، فتمر موجة صغيرة على سطح بحر الحياة العربية الهادئ ، نتيجة لتلك الجهود الحثيرة الضعيفة ، التي قام بها دعاة المسيحية ، تتخللها حيناً بعد حين موجات أكثر قوة وعمقاً ، يتجلى فيها تأثير الدعوة اليهودية ، ولكن موجات الوثنية العربية والأوهام الإسماعيلية كانت أعنف وأظنى ، كان هذا التيار الجاهلي الوثني يضرب جذران الكعبة » .

وقال في مكان آخر من هذا الكتاب : « وكانت أوضاع العرب قبل البهثة الحمديّة بعيدة عن كل تغيير ديني ، كما كانت بعيدة كل البعد عن وحدة الصفوف واجتماع الشمل ، وكان دينهم يقوم على أساس وثنية سقيمة تعمقت جذورها ، واصطدمت بصخرتها محاولات نصارى مصر والشام للإصلاح ، قباعت بالفشل » (٣) .

(١) انظر : الرحيق المختوم (ص : ٥٢-٥٤) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ٣٥-٤٧ ، ٨٢) ، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص : ٥٢-٥٨) ، وقبسات تربوية من السيرة النبوية / ٥ . حسن أبو غدة (ص : ٦) .

(٢) الأنعام : ١٢٤ .

(٣) السيرة النبوية / للندوي (ص : ٤٨-٤٩) .

أما الظروف السائدة في عهد المملكتين الساسانية والبيزنطية في القرن السادس للميلاد فيقول المؤلف الإنجليزي هـ . ج . ولس فيها : (كانت العلوم والفلسفة والسياسة في حالة احتضار في عهد هذين النظامين للتخاريين والتجهين إلى الانحطاط ، فقد كان الجليل الأخير من فلاسفة أثينا عاصماً على المؤلفات الأدبية العتيقة بالتواجد ، بكل احترام وحب ، ولو بدون فهم لها ، فلما انقرض هذا الجليل ، لم تبق طبقة ولا أفراد أحرار شجعان ، يتزعمون حرية الفكر وحرية التعبير ، ولا الذين يحتفظون - على الأقل - بتراث فكر حر ، ويبحث نزيه جدي ، على دأب القدماء والسابقين لهم ، وبجانب ما كان للفوضى السياسي والاجتماعي من دور كبير في القضاء على مثل هذه الطبقة ، كان من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الإنساني ، وتجمد القرائح البشرية ، أن هذا العصر كان عصر العصبية وعدم التسامح في ظلال الحكومتين الإيرانية والبيزنطية ، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعاً ما ، وقد كانتا فرضتا قيوداً على العقل البشري) (١) .

وهكذا فقد كانت الأوضاع الفاسدة ، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في عصر البعثة المحمدية ، أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون من أفراد الناس - كما يقول الأستاذ الندوي - . فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد ، أو إزالة عادة من العادات ، أو قبول عبادة من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذي لم يخل منهم عصر ولا مصر .

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض جاهلية ، ووثنية قنريبية ، تراكتت عبر القرون والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وجهود المصلحين والمعلمين ، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان ، واسع الأرجاء ، يسع العالم كله ، ويؤوي الأمم كلها ، قضية إنشاء إنسان جديد ، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء ، كأنه ولد من جديد ، أو عاش من جديد : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٢) ، قضية اقتلاع جرثومة الفساد واستئصال شائفة الوثنية ، واجتثاثها من جذورها ، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر ، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً ، لا يتصور فوقه ، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته ، وخدمة الإنسانية ، والانتصار للحق ، يتغلب على كل رغبة ، ويقهر كل شهوة ، ويحرف بكل مقاومة ، وبالجملة الأخذ بمحجز الإنسانية المنتهرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة ، والسلوك بها على طريق أولها سعادة يحظى بها العارفون للمؤمنين ، وآخرها جنة الخلد التي وعده المتقون ، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قول الله تعالى في معرض المن ببعثة محمد ﷺ : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ (٣) .

إنه لم يعرف في تاريخ البشرية كله عمل أدق وأعقد ، ومسؤولية أعظم وأضخم من مسؤولية محمد ﷺ كني مرسل ، كما أنه لم يعرف غرس أشرف مثل غرسه ، وسعيًا تكفل بالنجاح مثل سعيه ، إنها أعجوبة المعجائب ، ومعجزة المعجزات ، وقد شهد بذلك أديب وشاعر فرنسي في قوة وبلاغة ، ووضوح وصراحة ، يقول لامارتين : « إن إنساناً لم ينهض أبداً - متطوعاً أو غير متطوع - لمثل هذا الهدف الأسمى ، لأن هذا الهدف كان فوق طاقة البشر ، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والأحلام ، التي حالت بين الإنسان وخالقه ، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربه ، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية العقلية المعقولة الساطعة ، في ضباب هذه الوثنية السائدة والآلهة المادية ، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى ، إنه لم يحمل إنسان مثل هذه المسؤولية الضخمة ، والمهمة العظيمة الجليلة ، التي تخرج عن طوق البشر ، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة » ...

إنما كان يحتاج هذا الانقلاب الشامل ، وهذا البعث الجديد للإنسانية إلى رسالة جديدة ، من أعظم الرسالات ، وإلى رسول يرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله ، وصدق الله العظيم :

(١) المصدر السابق (ص : ٢٤) .

(٢) الأنعام : ١٢٢ .

(٣) آل عمران : ١٠٣ .

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ، رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ، فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ (١) .

☆ ☆ ☆

(١) البيئـة : ١ - ٢ . انظر : السيرة النبوية / للندوي (ص : ٥٠-٥٢) .

مكة المكرمة عند ظهور الإسلام

مكة بلد في وادٍ غير ذي زرع ، تشرف عليها جبال جُرد ، فتزيد في قسوة مناخها ، ليس بها ماء غير ماء زمزم ، وآبار أخرى حجة حفرها أصحاب البيوت ، أما المياه الجارية والعيون الغزيرة فليس لها وجود بهذا المعنى هناك ، وكل ما كان يحدث نزول سيول ، قد تكون ثقيلة قوية ، تهبط عليها من شعاب الهضاب والجبال ، فتنزول بها أضراراً فادحة وخسائر كبيرة ، وقد تصل إلى الحرم فتؤثر فيه .

لذلك لم تصلح أرض مكة لأن تكون أرضاً ذات نخيل وزرع وحب ، فاضطر سكانها إلى استيراد ما يحتاجون إليه من الأطراف والخارج ، وأن يكتفوا في حياتهم بالتعيش مما يكسبونه من الحججاج ، وأن يضيفوا إلى ذلك تجارة تسمفهم وتغننيهم ، وتضمن لهم معاشاً ، وأماناً يحفظ لهم حياتهم ، فلا يطمع فيهم طامع ، ولا ينغص عليهم عيشهم منغص .

ويعود الفضل في ازدهار مكة كمركز تجاري إلى وجود الحرم فيها ، وهو المنطقة التي تحرم فيها كل أنواع العنف والقتل ، ومن هنا كانت القوافل تقدم إليها دون أن يمس أصحابها فيها سوء . يضاف إلى هذا موقعها الجغرافي ؛ فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من اليمن قاصدة بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام قاصدة اليمن . ثم مالبت أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل سر السفر وفائدته ، فسافروا بأنفسهم على هيئة قوافل ، تتولى نقل التجارة لأهل مكة وللتجار الآخرين من أهل اليمن ومن أهل بلاد الشام ، فلما كان القرن السادس للميلاد احتكر تجار مكة التجارة في غربي الجزيرة ، وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشام والعراق .

وقد علمت الأسفار سادة قريش أشياء كثيرة من أمور الحضارة والثقافة ، مما كان له أثر كبير في تثقيف عقولهم ورفي مداركهم حتى وصلوا إلى مستوى فكري لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات . فقد أرتبهم الأسفار بلاداً غريبة ذات تقدم وحضارة ، وجعلتهم يجتكون بعرب العراق وبعرب بلاد الشام ، فتعلموا من الحيرة أصول كتابتهم ، وهذبوا لسانهم ، ودونوا به أمورهم . وكان لهم اهتمام بما كان يجري ويقع في السياسة الدولية ، فكان لهم علم بما يحدث بين الفرس والروم ، وبين الحبش وأهل اليمن ، لأن لما يحدث علاقة كبيرة بتجارهم وبالأسواق التي كانوا يخرجون إليها للبيع والشراء .

وقد تمكنت مكة في نهاية القرن السادس الميلادي ، وبفضل نشاط قريش التجاري ، ولاتصال سادتها بالعالم الخارجي ، من القيام بأعمال هامة صيرتها من أهم المراكز المرموقة في غربي الجزيرة وفي التجارة ، كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤونها واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لأن تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت أغنيائه من ترف وبنخ وخدم وإسراف .

ولقد كان لوجود الكعبة المشرفة في مكة المكرمة أكبر الأثر في جعلها أعظم مركز ديني في الجزيرة ، فكانت وفود الحجيج تقصدها من شتى أنحاء الجزيرة ، فتلقى عند أهلها الأمن والسلام والكرم والضيافة . وكانت تقام حول الحرم ؛ في عكاظ وذو المجاز ومجنة أسواق للتجارة والأدب والسياسة ، جعلت مكة أيضاً أكبر مركز إشعاع إعلامي في الجزيرة مثلما أنها أكبر مركز إشعاع ديني فيها ، إذ كان الحججاج والمجتمعون في الأسواق إذا رجعوا إلى قبائلهم حدثوهم بكل ما رأوا وسمعوا ، فتطير أخبار مكة وأخبار قريش خاصة إلى كل مكان في الجزيرة . ويُذكر أن أهل مكة كانوا مثلاً في الجزيرة العربية في سلامة الذوق والظرف والأناقاة ، وكانت لغتهم هي الميزان وهي المرجع وعليها الاعتقاد في سائر أطراف الجزيرة ، وكانوا أبلغ العرب وأفصحهم وأصحهم تعبيراً ونطقاً ، وأبعدهم عن المهجنة أو الرطانة وتأثير الاختلاط بالمعجم .

وهذا كله جعل قبائل العرب الأخرى تدين لقريش بالإجلال والإكبار، وتعترف لها بالتفوق عليها، وتسير في ركابها، وتتبع تقويمها، وتحضر في مواسمها. وبما ساعد على سيادة قريش أيضاً واحترامهم عند جميع العرب حلف الفضول^(١)، فقد أخذت فيه قريش على نفسها ألا تجرد مظلوماً في مكة إلا نصره، ولا غريباً من الوافدين إليها إلا أووه وأنصفوه ممن يعتدي عليه فيأخذ ماله ويأكله. وأصبحت بذلك مكة عند ظهور الإسلام القاعدة الرئيسية لغربي الجزيرة والزعمية لها، فكانت رمز مقاومة الإسلام، والحصن العتيق المقاوم له، فلما ذك هذا الحصن دكت المقاومة دكاً، واستسلمت المواضع والقبائل للإسلام دون مقاومة تذكر^(٢).

أعمال قُصَيِّ وتنظيم شؤون مكة :

يعد قُصَيِّ بن كلاب أول بان لمجد مكة وموطد لنفوذ قريش فيها، فهو الذي استخلص أمر مكة وشؤون البيت من خِزاعة في أواسط القرن الخامس للميلاد - كما مر معنا - وهو الذي أوجد لها مكانة، وجعل لها نوعاً من التنظيم والإدارة.

يذكر أهل الأخبار أنه هو الذي جمع قومه القرشيين من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة، فسبى لذلك مُجمَعاً، وأنه حكم منذ ذلك الحين فيهم، وملك عليهم، فكان قُصَيِّ أول ولد كعب بن لُؤَيِّ أصاب مُلكاً، وأطاعه قومه به، وأنه قسم مكة رباعاً بينهم، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها. وإليه يُنسب تقسيم قريش إلى طبقتين: قريش البطاح، وقريش الظواهر. أما قريش البطاح فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها، وهم سادة القرشيين ومن بينهم بنو هاشم وبنو أمية وبنو مخزوم وبنو تيم، وكانت منازلهم في الشعب بين أخشي مكة (أي جبلها، وهما جبل أبي قُبَيْس المشرف على الصفا، والجبل الأحمر الذي كان يسمى في الجاهلية بالأعراف، وهو الجبل المشرف وجهه على قَعِيْعَان). وأما قريش الظواهر فهم الذين سكنوا خارج الشعب في أعلى مكة، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً؛ أي أنهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر، وكانوا يفخرون على قريش البطاح أنهم أصحاب قتال، وأنهم يقاتلون عنهم وعن البيت، ولكنهم كانوا أقل منزلة منهم وكانوا دونهم في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه، لأنهم أعراب فقراء لم يكن لهم عمل يقتاتون منه غير الرعي، ومنهم بنو الأذرم وبنو هُصَيْص بن كعب بن لُؤَيِّ وعمامة بني محارب والحارث ابني فِهْر. وإلى جانب هؤلاء كان يسكن مكة الأحابيش، والأحلاف؛ أي القبائل التي لم تكن من قريش ولكنها كانت متحالفة معها.

ويذكر أن من جملة ما أحدثه قُصَيِّ في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية، أنه أحدث وقود النار بالمزْدَلِفَة حين وقف بها، حتى يراها من دفع من عرفة، فلم تزل توقد تلك النار تلك الليلة في الجاهلية وبعد الإسلام.

ومن أهم أعمال قُصَيِّ أنه ابتنى لنفسه داراً بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وجعل منها مجلس شورى لقريش ودار حكومة لها وسماها دار الندوة. وفي هذه الدار كان الملأ والسراة من قريش يتشاورون في مهام أمورهم ويبتون في جميع الشؤون العامة والخاصة من تجارة وحرب، وعقد المعاهدات والاتفاقات وتجهيز القوافل وإبرام عقود الزواج وما إلى ذلك. وما عدا أبناء قُصَيِّ كان لا يدخل دار الندوة من قريش إلا من بلغ سن الأربعين.

وينسب إلى قُصَيِّ تنظيم أمور مكة الداخلية والخارجية، ولا سيما ما يتعلق بخدمة البيت الحرام من وظائف، فكان له إلى جانب رئاسة دار الندوة: اللواء، والحجابة، والسقاية، والرفادة مما سنعود إلى تفصيله بعد قليل. ولما كبر وأحسن بدنواً أجله قال لولده البكر عبد الدار وكان ضعيفاً: لأحقتك بالقوم وإن شرفوا عليك. إذ كان عبد مناف بن قُصَيِّ قد شرف وساد في حياة أبيه، فأوصى قُصَيِّ لعبد الدار بما كان يليه من مصالح قريش، فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة. وكان قُصَيِّ لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه، وكان أمره في حياته وبعد مماته كالدين المتبع، فلما هلك أقام بنوه أمره لانزاع بينهم، ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بني عمهم عبد الدار في هذه المناصب، فأبى بنو عبد الدار ترك ما في أيديهم وأصروا على الاحتفاظ به، ففتقرت عند ذلك قريش فرقتين؛ فكانت طائفة مع بني عبد الدار ويساندونهم بنو مخزوم وسهم وجمح وعدي، وطائفة مع بني عبد مناف ويساندونهم

(١) سيأتي خير حلف الفضول وسبب عقده في أول أحداث السيرة.

(٢) انظر: المنهول في تاريخ العرب، قبل الإسلام (ج ٤/١٢٤-١٢٤)، والسيرة النبوية/للندوي (ص: ٨٠).

بنو أسد وزهرة وتيمم والحارث بن فهر، في حين ظل على الحياد كل من بني عامر بن لؤي ومُحارب بن فهر. وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكّدين ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، وأخرجت بنو عبد مناف وأحلافهم جفنة مملوءة طيباً، فوضعوها عند الكعبة، ثم غس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا وتحالفوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسَمُوا الْمُطَيَّبِينَ. وأخرجت بنو عبد الدار ومن كان معهم جفنة من دم فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا وتحالفوا ألا يتخاذلوا فسَمُوا الْأَحْلَافَ أَوْ لُقَّةَ الدَّمِ (١). وتهدأ الطرفان للقتال، ثم تداعوا إلى الصلح، على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة بيد بني عبد الدار، فرضوا بذلك، وتحاجز الناس عن الحرب. ثم حكّم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لعبد شمس بن عبد مناف، وكان مُقَلِّداً لكثير العيال، فتنازل عن السقاية والرفادة لأخيه هاشم الذي كان موسراً يستطيع الاضطلاع بنفقاتها، فكان هو الذي يلي هاتين الوظيفتين طوال حياته، فلما مات خلفه أخوه الْمُطَلَّبُ بن عبد مناف، وولي بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ، وبعده أبنائه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس بن عبد المطلب، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة طلب إليه العباس أن يجمع له السقاية والحجابة، فأبى ذلك، وترك له السقاية فصارت من بعده لابنه عبد الله بن عباس، رضي الله عنها، وإلى أولاده من بعده.

وستوقف الآن قليلاً لنعرّف بالوظائف الدينية والسياسية آنفة الذكر.

فأما اللّواء : فهو وظيفة تتعلّق بشؤون الحرب، وليس لها صبغة دينية. واللواء هو العلم الذي يُحمل في المعارك ويدافع عنه أفراد القبيلة حتى الموت. وكان اللواء لقصي، فكانت لا تُعقد راية الحرب إلا بيده، ثم انتقل إلى بني عبد الدار، وظلّ يدهم حتى جاء الإسلام.

وأما الحِجَابَةُ : فهي حجابة الكعبة، وكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة، فهو الذي يأذن للناس بالدخول إليها. فكان قصي هو الذي يفتح بابها ويولي أمر خدمتها وسدانتها، ثم أوصى بها قصي لابنه عبد الدار ومن بعده لأبنائه، فكانت بيد عثمان بن طلحة، رضي الله عنه، حين فتح النبي ﷺ مكة المكرمة.

وأما السَّقَايَةُ : فهي جمع الماء من آبار مكة المختلفة وحمله على الإبل في التّربّ وسكبه في حياض من أدم (جلد) توضع في فناء الكعبة، وتُحَلَّى بشيء من التبر والزبيب، فيشرب الحجاج منها إذا وردوا مكة. وكان قصي قد حفر بكة آباراً عديدة لحل أزمة مياه الشرب التي كانت تشكو منها مكة، وسار على سنته في حفر الآبار (٢) وتقصي مواقع المياه هاشم بن عبد مناف، ثم ابنه عبد المطلب من بعده، الذي كان من أهم أعماله الخالدة إلى اليوم حفر بئر زمزم في المسجد الحرام على مقربة من البيت، وستأتي قصة حفره.

وأما الرِّقَادَةُ : فهي طعام كان يُصنع للحجاج على سبيل الضيافة. وكان قصي فرض على قريش خُرْجاً تخرجه في الموسم من أموالها إلى قصي، فيصنع به طعاماً للحجاج، يأكله من لم تكن له سعة ولا زاد عن يحضر الموسم، فقال لهم حين أمرهم به : يامعشر قريش ! إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وأهله وزوّار بيته، وهم أحقّ الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحجّ، حتى يصدروا عنكم. وألت هذه الوظيفة إلى بني عبد مناف، كما ذكرنا، ثم ألت إلى هاشم، حتى انتهت إلى أبي طالب فكان يقوم بهذه المهمة حين جاء الإسلام.

وكانت لقريش مناصب سوى ذلك وزّعوها بين رجال منهم أقرّ لهم بالفضل وحصافة الرأي. ومن هذه المناصب :

الأيسار : أي تولية قِداح الأضنام للاستقسام، وكان ذلك في بني جُمَح، وألت إلى صفوان بن أمية منهم، فكان لا يسبق بأمر هام حتى يكون هو الذي يسير على يديه.

(١) ورد في سيرة ابن هشام (ج ٢١٣/١) أن لُقَّةَ الدَّمِ غير الأحلاف، وأنها كانت زمن بنيان الكعبة حين اختلفت قريش وأرادت كل قبيلة أن ترفع الركن إلى موضعه دون الأخرى، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في تلك الجفنة، فسَمُوا لعقة الدم. وسيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن بنيان الكعبة في أول السيرة.

(٢) راجع للتفصيل في أسماء الآبار التي حفرتها قريش قبل زمزم سيرة ابن هشام (ج ١٥٩/١-١٦٢)، وأخبار مكة / للأزرقي (ج ١١٢-١١٣).

وتحجير الأموال : أي نظم القربات والندور التي تُهدى إلى الأضنام ، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات ، وكان ذلك في بني سَهْم ، وآلت إلى الحارث بن قيس منهم .

والشورى : كانت في بني أسد بن عبد العزى ، وآلت إلى يزيد بن زَمْعَةَ بن الأسود منهم ، فكانت قريش لا تجتمع على أمر حتى يعرضوه عليه ، فإن وافقه والاهم عليه ، وإلا تخير وكانوا له أعواناً .

والأشناق : أي نظم الديات والغرامات ، كان ذلك في بني تميم ، وآلت إلى أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فكان إذا احتل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا جماله من نهض معه ، وإن احتل غيره خذلوه .

والقبة والأعنة : أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فهي قيادة الخيل في الحرب ، وكانتا في بني مخزوم ، وآلتا إلى خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، عند ظهور الإسلام .

والسفارة : كانت في بني عدي ، وآلت إلى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، منهم . وتعني أنهم كانوا إذا وقعت بين أهل مكة وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم^(١) حي لمفاخرة جعلوه لهم منافراً ورضوا به .

وكانت قيادة جيش مكة إلى بني أمية في الغالب . ولكن العادة أن يتولى سادات مكة قيادة أحيائهم في القتال ، أما التنسيق بين خطط المقاتلين لإنجاح المعركة فيكون أمره إلى من تسلمه قريش قيادتها العامة في الحرب من الرجال المحاربين أصحاب الرأي في الحروب .

ويضاف إلى ماتقدم قيادة قوافل قريش ، وكان أمرها إلى أبي سفيان عند ظهور الإسلام . وقد كانت رئاسة القوافل من الأعمال الهامة في الجاهلية ، وعندما تعود القافلة سالمة غائمة يستقبل قائدها استقبال الأبطال .

وهكذا فقد كانت الزعامة الدينية والدنيوية لعدة أبطن من بطون قريش ، انتهى إليها الشرف في الجاهلية ووصل في الإسلام ، وهي هاشم ، وأمّية ، وعبد الدار ، وأسَد ، وتيمم ، ومخزوم ، وعدي ، وجَمَح ، وسَهْم .

فكان الحكم في مكة حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة ، تطاع فيها الأحكام ، وتنفذ الأوامر لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على أهل مكة ، بل لأن الأحكام والأوامر هي أحكام ذوي الوجوه والسنن والرئاسة والشرف ، وأحكام هؤلاء مطاعة في عرف أهل مكة وفي عرف غيرهم من أهل الجزيرة .

ولم يكن في مكة ملك له تاج وعرش ، ولا رئيس واحد يحكمها على أنه رئيس المدينة ، وإنما الحياة فيها مبنية على أساس العصبية القبلية ، فكانت تتألف من شعاب ، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة تحكمها الأسر : كل شعب لعشيرة ، وأمر كل شعب لرؤسائه ، وهم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب فيه ، وليس في استطاعة متبرّد مخالفة أحكامهم ، وإلا أدّبه حيّه وملؤه أي أشرفه .

وكثيراً ما كان يحصل بين رؤساء العشائر أو الأسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ ، وهو إن لم يقلق الأمن ويعبث بسلام مكة ، إلا أنه أثر في حياتها الاجتماعية أثراً خطيراً ، انتقلت عدواه إلى الإسلام ، كما حدث بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس ، الذي كان ينافس عمه على الرئاسة بما كان له من ثروة ، مما ولد الجفوة بين الأُسرتين .

وكان قانون القوم دستورهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾^(٢) . فلأ مكة أناس يحافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً ، سنّتهم التعلّق بالماضي ، وكره الخروج عن العرف والعادة مها كانت ، ومها كان في الجديد من منطوق وحق ، كما

(١) يقال : نافر الرجل منافرة إذا قاضيته . والمنافرة : المُفَاخَرَةُ والمُحَاكَمَةُ في الحسب . وقيل : المُنَافَرَةُ : أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ، ثم يحكمنا بينهما رجلاً . انظر : (لسان العرب : ج ٤٤٩٦) .

(٢) الزخرف : ٢٣ .

قال جلّ وعلا : ﴿ قَالَ أَوْلُو جِئْتِكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(١) . والمستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والأجداد يعاقب حتى يعود إلى رشده وصوابه ، وهم باستاتتهم في التسك بالماضي كيف كان ، ويتطرفهم في المحافظة على العرف ، إنما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ، ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد المحافظة على مصالحها ، استناداً إلى العادات ، وهم يحكون بهذا القانون للوروث وعلى الناس الطاعة والانقياد^(٢) .

الحالة الاقتصادية :

مكة كما ذكرنا بلد في واد غير ذي زرع ، لذلك كان عماد حياة أهلها التجارة ، والأموال التي تُجبي من القوافل القادمة من الشام إلى اليمن والصاعدة من اليمن إلى الشام ، وما ينفقه الحجيج القادمون في اللوازم المقدسة . وهناك مورد آخر درّ على أثرياء هذه البلدة المقدسة ربحاً كبيراً ، هو الرِّبَا الذي كانوا يتقاضونه من إيداع أموالهم إلى المحتاجين إليها من تجار ورجال قبائل .

وكانت لقريش رحلتان تجاريتان كبيرتان ؛ إحداهما إلى الشام في زمن الصيف ، والأخرى إلى اليمن في زمن الشتاء . ويظهر أن أهل مكة كانوا يسهمون جميعاً في الاتجار ، فيقدم المكي المتكّن كل ما يستطيع تقديمه من مال ليستغله ويأتيه برزق يعيش عليه ، ولذلك يعدّ رجوع القافلة آمنة مطمئنة بشرى وسروراً للجميع .

وقد نشطت الحركة التجارية في مكة ، فكان تجارها يتجولون في بلاد كثيرة من إفريقيا وآسيا ، ويحملون من كل بلد ما يستطرف ويستطرف فيها ، وما تشتد إليه الحاجة في بلادهم . وبسبب فقدان الأمن في بلاد العرب ، فقد عمدت قريش إلى عقد المعاهدات مع عدد كبير من القبائل على طول طريق التجارة ، لتيسير تجارتها ، ومرورها بأمن وسلام نحو العراق وبلاد الشام واليمن والحبشة وغيرها . ويقال إن أولاد عبد مناف ، وهم المعروفون بأصحاب الإيلاف ، كانوا أول من عقد المعاهدات التجارية بين قريش وسادات العرب في البلاد المجاورة ، فهاشم أخذ لقريش عهداً أو إيلافاً من ملوك الشام فتاجروا آمنين ، وعبد شمس أخذ لقريش عصمة من صاحب الحبشة ، والمطلب أخذ عصمة من ملوك اليمن ، وأخذ نوفل عصمة من ملوك العراق .

وكانت الأشهر الحرم عندهم أشهر أمن وسلام ، فكان أهل مكة يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب البيت وداخل حدود الحرم ، والناس يهرعون إلى هذه الأسواق ويؤمنونها من جهات الجزيرة البعيدة ليقتضوا منها حاجتهم ويتزودوا لقومهم . ولم يجزؤ أحد على الإخلال بحرمة هذه الأشهر ، ولما قامت الحرب بين قريش وكنانة وقيس عيلان ، ستمتها العرب حرب الفجار^(٣) لما فيها من انتهاك حرمة الأشهر الحرم وخروج قريش فيها على سنتها ودينها في تحريم القتال في هذه الشهور .

وقد ذكرت أسواق كانت في مكة يستدل بها على ما وصل إليه أهلها من مدنية وتطور ، منها سوق العطارين ، وسوق الفاكهة ، وسوق الرطب . وكانت أسواقهم رحبة واسعة تباع فيها الحنطة والسمن والعسل والحبوب تحملها العير من الحارج ، وكان زقاق للحذائين ، وسوق للبرازين ، ومكان للحجامين والحلاقين .

وقد أدى نشاط بعض أبناء مكة في التجارة إلى حصولهم على ثروات كبيرة طائلة ، كأي أحيحة وعبد الله بن جدعان والوليد بن المغيرة ، وأي سفيان بن خزب . وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال ، وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء قريش ، ينفق أمواله في الناس ، ويتعامل بالرِّبَا ، حتى جاء الإسلام ، وأعلن إلغاء الأموال الربوية ، فبدأ رسول الله ﷺ ذلك بعمه العباس ، رضي الله عنه ، كما سيأتي في حجة الوداع . ويظهر مما جاء في القرآن الكريم أن بعض هؤلاء الأغنياء كان يقسو على المحتاج فلا يقرضه

(١) الزخرف : ٢٤ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٣٧/١ - ١٥٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧١/١ - ٧٢) ، والمنفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٢٧/٤ - ٢٩ ، ٤٤ - ٦٤ ، ٩٢ - ٩١) ، و (ج ٢٤٧/٥ - ٢٥٠) ، وأخبار مكة (ج ١٠٩/١ ، ١١٤) ، وأسواق العرب في الجاهلية والإسلام / لسعيد الأفغاني (ص : ١١٠ - ١١٢) ، والرقيق المحتوم (ص : ٢٧ - ٢٨) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ٧٥ - ٧٦) .

(٣) كانت أيام الفجار خمسة في أربع سنين ، وأشهرها فجار البراض الذي شهده النبي ﷺ مع أعمامه كما سيأتي .

المال إلا برأياً فاحشاً ، وكان يشتط عليه ، كما كان بعضهم لا يتورع من أكل أموال اليتيم والضعيف طمعاً في زيادة ثرائه ، وكان يستغل رقيقه استغلالاً شنيعاً ، حتى إنه يكره فتياته على البغاء ليستولي على ما يأتين به من مال .

هذا بالنسبة للتجارة ، أما الصناعة فلم تكن لها مكانة كبيرة عند أهل مكة ، ولم يباشرها في عامة الأحوال إلا الموالي وأبناء العجم ، إلا أنه قد وجدت بعض صناعات كانوا مضطرين إليها ، ومارسها بعض أبناء مكة العرب ، فقد روي أن خباب بن الأرت كان قتيلاً - أي حداداً - يعمل السيوف ، وكان العوام أبو الزبير خياطاً ، وكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجاراً . وقيل كانوا يلجأون في صناعة البناء إلى عمال من الروم أو الفرس^(١) .

القوة الحربية :

كانت قريش تؤثر السلم والهدوء في عامة الأحوال ، مالم تتحد عقيدتها وما لم تثر غيرتها الدينية أو القبلية ، شأنها شأن الشعوب التي أكثر اعتمادها في الكسب والمعاش على التجارة وتنظيم الأسواق ، ووفود القبائل من كل صوب إلى بلدها ، والتقاءهم التقاء يفيدها إجلالاً دينياً وفائدة اقتصادية ، ويدبر عليها الأرزاق الكريمة ، وإلى ذلك أشار الله عز وجل بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾^(٢) .

لكن رغم ذلك كانت لقريش قوة حربية يحسب لها الحساب ، إذ لم تكن بقوتها الذاتية في الحروب ، ولكنها كانت تستخدم قوة الأحابيش ، وهم بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة ؛ من كنانة ، وخزيمة بن مدركة ، وخزاعة ، تحالفوا مع قريش بوادي أسفل مكة يقال له الأحبش ، فسموا لذلك بالأحابيش . كما كان لقريش عدد كبير من العبيد والموالي ، الذين كانوا يقاثلون في صفوفها ، فكانت تستطيع أن توجه إلى القتال بضعة آلاف مقاتل ، وقد استطاعت أن تجمع عشرة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب ، وهي أكبر قوة حربية عرفها تاريخ الجزيرة العربية في العصر الجاهلي^(٣) .

الأحوال الاجتماعية والخلقية والدينية :

كانت الأحوال الاجتماعية والخلقية ضعيفة عند أهل مكة ، كما هو الحال عند سائر العرب - غير المكارم والقيم التي كانوا يؤمنون بها ويعضون عليها بالنواجذ - فقد شاع فيهم القمار والميسر ، وفشت فيهم الخمر ، وانتشرت القيان ومجالس اللهو ، وشاع فيهم الزنى ، وقد وجد الظلم وأكل أموال الناس بغير الحق حتى عقدوا حلف الفضول .

أما الحالة الدينية فكانت أضعف بحكم بُعد العهد بالنبوات ، وانتشار الوثنية التي اقتبسوها من الأمم المجاورة ، ووصولاً إلى درجة سخيفة راعنة من الوثنية وعبادة الأصنام والتمسك بالخرافات والأوهام ، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحة ، والبعد عن الإبراهيمية الحنيفية السمحة .

وقد مضى التفصيل في ديانة أهل مكة عند الحديث عن أديان العرب بصورة عامة ، وكذلك الأمر بالنسبة لحياتهم الاجتماعية والأخلاقية فقد تقدم الحديث عنها ضمن أخلاق العرب وحالتهم الاجتماعية بعمامة .

بقي أن نقول ، بعد هذه اللوحة السريعة عن مكة المكرمة ، إن الإسلام هو الذي صير قريشاً قريشاً ذات ذكر في الكتب ، وهو الذي سودها على العرب ، وجعل لها المكانة الأولى بين القبائل ، والخلافة فيها ، بفضل كون رسول الله ﷺ منهم وظهور الإسلام في مكة . ولولا الإسلام لكانت مكة مدينة من المدن ، لبعض أسرها ثراء حصلت عليه بفضل نشاطها التجاري ، وبفضل وجود البيت وحج القبائل إليه^(٤) .

(١) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١١٣/٤ - ١١٥ - ١٢٢ - ١٢٥) ، و (ج ٤٤٦/٧) فما بعدها ، وتاريخ الإسلام / د . حسن إبراهيم حسن (ج ٤٩/١ ، ٥٨) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ٧٦ - ٨٠) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٥٢/٢) .

(٢) سورة قريش : ٣ - ٤ .

(٣) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٣٠/٤) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ٨١) .

(٤) انظر : المفصل في تاريخ العرب (ج ١٢٦/٤) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ٨٢ - ٨٣) .

يثرب قبل الإسلام

تعدّ يثرب من الأماكن التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد ، قيل إنها سمّيت يثرب نسبة إلى يثرب بن قانية من أولاد سام ابن نوح ، وكان هو أول من نزلها من قومه عبيل فدُعيت باسمه ، وقيل بل سمّيت بذلك من التثريب ، وقيل غير ذلك .

ولكي نأخذ صورة إجمالية صحيحة عن مدينة يثرب التي اختارها الله ، عزّ وجلّ ، دار هجرة للرسول ﷺ ، ومنطلق الدعوة الإسلامية في العالم ، ومهد أول مجتمع إسلامي يقوم بعد ظهور الإسلام ، لابد من معرفة موقعها الجغرافي ووضعها الاجتماعي والاقتصادي ، وصلة القبائل المقيمة فيها بعضها ببعض ، ومركز اليهود فيها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، والواقع الذي كانت تعيشه هذه المدينة الخصب الغنية ، التي التقت فيها ديانات وثقافات ومجتمعات مختلفة ، بخلاف مكّة ذات الطبيعة الواحدة ، والطابع الموحد ، والدين المشترك^(١) . وفيما يلي بعض التفاصيل .

موقع يثرب وأهميته :

تعدّ يثرب من حيث موقعها مركزاً لدائرة يتراوح نصف قطرها ما بين ٤٢٥ - ٥٤٠ كم ، وليس هذا التراوح كبيراً بالنسبة لمساحة الجزيرة الكبيرة ولا بالنسبة للمسافات الشاسعة التي تقع عليها المدن .

وإذا كانت يثرب هي مركز الدائرة ، فإن المدن التي تقع على محيطها هي : مكّة المكرمة في الجنوب ، حائل في الشمال ، بريدة في الشرق ، جدّة في الجنوب الغربي ، الوجّه في الشمال الغربي . ويلاحظ أن هذه المدن هي أهم المدن في الجزيرة العربية إما دينياً أو تجارياً أو زراعياً ، فيثرب بهذا الموقع الممتاز تعدّ منطلقاً ذا أهمية عظيمة ، يمكن الاتصال منها بأي من هذه المدن . وهي مدينة حجازية مرموقة من قديم الزمان ، كما تقع على الطريق التجاري بين اليمن والشام ، مما ييسر لأهلها سبل التجارة ، وقد جعل هذا الموقع ليثرب مركزاً سياسياً ، بحيث يتمكن للسيطر عليها من السيطرة على طريق القوافل المارة من الجنوب إلى الشمال ولو عبرت عن طريق الساحل^(٢) .

طبيعة يثرب :

ويثرب مثل مكّة مؤلفة من شعاب ، تسكنها بطون الأوس والخزرج ، وقبائل اليهود . وفي الشعاب حوائط (أي بساتين صغيرة) ، وفي الحوائط آبار يستقون منها ، وقد احتقر اليهود آباراً كانوا يبيعون الماء منها بالدلاء ، مثل بئر رومة ، وقد حدث رسول الله ﷺ لما قدم المدينة على شراؤها ، فاشتراها عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، وجعلها سبيلاً للمسلمين .

وتكتنف يثرب من جهتها الشرقية والغربية حرّتان^(٣) ، تُعرف الحرّة الغربية بحرّة الوبرة ، وهي تبدأ من ذي الحليفة (آبار عليّ) ، وفي نهاية هذه الحرّة من جهة الشمال يقع بئر رومة ، وتمتد هذه الحرّة من الجنوب قبالة قباء وتنتهي إلى الشمال عند بئر رومة أيضاً .

(١) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج٤/١٢٨-١٢٩) ، ويثرب قبل الإسلام / للدكتور محمد السيد الوكيل (ص : ١١-١٢) .

(٢) انظر : يثرب قبل الإسلام (ص : ١٤-١٩) .

(٣) الحرّة : أرض ذات حجارة سود كأنها أُخْرِقَتْ . والجمع جرار . (الوسيط : ج ١/١٦٥) .

وأما الحرّة الشرقية فتُعرف بحرّة واقم ، وهو حصن لبني عبد الأشهل من الأوس سميت الحرّة به . وتعدّ هذه الحرّة أكثر عمراناً من الوبرة ، وهي تمتد من الجنوب جهة عوالي المدينة والعريض إلى الشمال حيث تنتهي عند جبل أحد . وهاتان الحرّتان حصنان طبيعيان ليثرب من الجهتين المذكورتين .

أما من جهة الجنوب فتقع واحة قباء على بُعد ميلين من يثرب تقريباً ، وينحدر من قُباء واديان هما وادي بَطْحَان ووادي رَأُونَاء ، ويتجهان إلى الشمال حيث يتصلان بوادي قنّاة الواقع في جنوب أحد ، وهذه الأودية كلها تلتقي عند مجمع الأودية بقرب رُوْمَة .

وفي الجنوب الشرقي يقع وادي مَذْيَيْب ووادي مَهْرُور ؛ اللذان استوطنهما اليهود وأقاموا عليها في عوالي المدينة التي كانت تعتبر أخصب بقاعها .

وفي الشمال الشرقي ليثرب يقع جبل أحد وسمي بذلك لتفرده وعدم اتصاله بجبال أخرى ، كذلك يقع جبل سُلْع في الشمال الغربي ليثرب حيث يجري وادي بطحان ويلتقي به وادي قنّاة .

ويثرب على شاكله مكّة ، لم يكن فيها سور ولا حائط يحيط بها ، على نحو ما كان لمدينة الطائف ، فكان عماد دفاع أهلها بالتحصن في بيوتهم وبسدّ منافذ الطرق في أثناء الخطر ، والأغنياء الميسرون يعتمدون على أطامهم وحصونهم يلجؤون إليها عند الشدّة ومن معهم من أتباعهم يرمون أعداءهم من فوق السطوح بالسهم وبالحجارة .

أما جو يثرب فهو يمتاز بالجفاف معظم أيام العام ، لكنه على العموم خير من جو مكّة ، فهو ألطف وأفرح ، ولم يعان أهلها ما عانى أهل مكّة من قحط في الماء ومن شدّة في الحصول عليه ، فالماء متوفر بعض الشيء في يثرب ، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة بجفر آبار في البيوت ، ولهذا صار في إمكان أهلها زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدايق ، والتفسيح فيها ، والخروج إلى أطراف المدينة للزهة ، فأثّر ذلك في طباع أهلها فجعلهم ألين عريكة وأشرح صدراً من أهل البيت الحرام^(١) .

سكانها :

تعاقب على أرض يثرب كثير من السكان ، عرف بعضهم المؤرخون ، وبعضهم لا زال مجهولاً لهم ، ويقال إن عبيلاً هم أول من سكن يثرب ، وكان الذي اختطها منهم يثرب بن قانية وهو الذي سميت يثرب باسمه كما ذكرنا آنفاً .

ويذكر المؤرخون أن اليهود حلّوا في يثرب وسكنوها قبل قدوم الأوس والخزرج إليها ، ثم توالى الهجرات اليهودية إلى جزيرة العرب بصفة عامة ويثرب بصفة خاصة حتى كانت آخرها سنة ٧٠ م إثر تدمير الرومان لهيكل بيت المقدس . ولنبداً بالحديث عن اليهود أولاً ثم الأوس والخزرج .

اشتهرت في يثرب ثلاث قبائل من اليهود وهي : قَيْنَقَاع ، والنَضِير ، وقَرْيُظَة ، وكان لهذه القبائل الأمّ توابع يلتحقون بها ، وينسبون إليها كبنّي هذال التابعين لبني قريظة ، وكبنّي زُبَاع وهم فرع من فروع بني قريظة أيضاً .

وكان اليهود يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصة بهم ، فكانت بنو قَيْنَقَاع يسكنون داخل يثرب في محلّة خاصة بهم ، وكانت مساكن بني النَضِير بالعالية بوادي بطحان على بُعد ميلين أو ثلاثة من المدينة ، وكانت عامرة بالنخيل والزروع ، وكانت بنو قَرْيُظَة يسكنون في منطقة مهزور التي تقع على بُعد بضعة أميال من جنوب المدينة .

وكانت لهم حصون وأطام^(٢) في قراهم ، بلغ عددها تسعة وخمسين أطماً ، وكانوا يعيشون متكئين مستقلين في محالهم ، غير أنهم لم يتمكنوا من إنشاء حكومات يحكمها اليهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها ، يؤدّون لهم أتاوة في كل عام مقابل

(١) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١٣١/٤ - ١٣٢) ، ويثرب قبل الإسلام (١٥ - ١٨) ، والسيرة النبوية للندوي (ص : ١٥٢ - ١٥٤) .

(٢) الأطم والأطم : الحصن والبيت المرتفع ، جمعه : أطام وأطوم (الوسيط : ج ٢٠/١) .

حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدي عليهم ، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم ، وكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب .

وكانوا ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع ، وكانت لهم مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم ودينامهم وأحكام شريعتهم وأيامهم الماضية ، كما كانت أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم .

وكانت لهم تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم ، أخذوا بعضها عن كتبهم ، وبعضها وضعها لهم علماءهم وأخبارهم من عند أنفسهم . وكانت لهم أعيادهم الخاصة بهم ، وأيام خاصة يصومون فيها كيوم عاشوراء .

وقد كانت العلاقة بين القبائل اليهودية مضطربة متوترة ، وقد أدى التنافس بين ساداتهم إلى نشوب معارك بينهم في الجاهلية ، واضطرت بنو قَيْنِقَاع بسبب ذلك إلى الالتجاء إلى أحياء يثرب وإلى محالفة الخزرج ، وفي مقابل ذلك تحالفت بنو النَّضِير وبنو قُرَيْظَةَ مع الأوس ، فصاروا فرقتين : فرقة مع الخزرج ، وفرقة مع الأوس . وقد أشار القرآن الكريم إلى تحاصم اليهود وتنايذهم وإخراجهم بعضهم بعضاً من ديارهم وأسر بعضهم بعضاً وافتداء الأسرى كالذي وقع بين بني قَيْنِقَاع وبني النَّضِير في قوله جلّ وعلا : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتِفِكُمْ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهَوْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) . وقد أنبهم الله سبحانه في هذه الآيات لأنهم فعلوا فعل المشركين والأعراب ، مع أنهم أهل دين واحد وكتاب . أما المشركون فلا لوم عليهم ، لأنهم لم يكونوا على دين ، وليس لهم كتاب يأمرهم وينهاهم .

وكانت الدِّية التي يؤديها اليهود في المعارك والخصومات التي تقع بينهم مختلفة ، وغير متكافئة ، فكان بنو النَّضِير يؤديون الدِّية كاملة لشرفهم في يهود ، أما بنو قُرَيْظَةَ فكانوا يؤديون نصف الدِّية . وفي خلاف في الدِّية وقع بينهم التجأوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم ، فحكم بالدِّية متساوية كما سيأتي في أحداث السيرة .

وذكر أن أخبار اليهود لم يكونوا يحكمون بالحق فيما بين الناس ، كانوا يحابون ويتحزون ويحكمون بالباطل ويأكلون السحت جزاء حكمهم بالباطل . وكانوا يتساهلون في تطبيق أحكام الشريعة مع الشريف لشرفه ، ويتشددون مع الدنيء لدنائه وفقر حاله ، فكان الشريف إذا زنى جلدوه ومثلوا به ، وإذا زنى الوضيع رجموه ، وكان هذا شأنهم حتى اختلفوا في الحكم على رجل زنى منهم ، فذهب فريق منهم إلى النبي ﷺ فحكم بينهم بما جاء في التوراة كما سيأتي .

وكان جلّ اعتماد اليهود في يثرب عند ظهور الإسلام على التجارة ومعاطاة الربا والزرع وبعض أنواع الصناعة . وكانوا يبيعون بالرهن ، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه ، وكانت المرهنة لا تقتصر على الرهائن المالية ، بل نطختها إلى مرهنة النساء والولدان ، ومن شأن هذه المرهونات أن تؤدي إلى نشوء الحقد والكراهية بين المرهنين والمرتهنين ، ولا سيما إذا كانت في الأبناء والنساء .

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم المالي ، وصاروا يتحكمون في الأسواق تحكماً فاحشاً ، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم .

وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج خاضعة لمنفعة الشخصية والمكاسب المادية ، فهم يعملون على إثارة الحروب بين الفريقين ، متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج ، وكان يهتهم فقط أن تكون لهم السيطرة المالية على يثرب . ويذكر أنهم كانوا إذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبي يستعملون به عليهم ، ففي رواية عن بعض الصحابة ، رضي الله عنهم ، أنهم قالوا : (كنا قد علوناهم في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكانوا

(١) سورة البقرة : ٨٤-٨٥ .

يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن تتبعه ، قد أطل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم) ، فكان حديثهم عن النبي المرتقب دوره في تشجيع الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام .

أما لغة اليهود في يثرب فقد كانت العربية بطبيعة الحال ، ولكنها لم تكن خالصة ، بل كانت تشوبها الرطانة العبرية ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً ، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم .

أما الجانب الديني والدعوي فلم يُلِّ اليهود إلى نشر دينهم ، كما لم يميلوا إلى إرغام الأمم على اعتناق دينهم ، وما لاشك فيه أن عدداً من العرب المنتهين إلى الأوس والخزرج وغيرها من القبائل العربية دانوا باليهودية عن رغبة منهم ، أو بتأثير المصاهرة والزواج ، أو بحكم النشأة في البيئة اليهودية ، مثل كعب بن الأشرف الذي يعرف بالنضري ؛ كان من قبيلة طيء ، تزوج أبوه في بني النضير ، فنشأ كعب يهودياً متحمساً . وكان بعض من لا يعيش له ولد من العرب ينذر إذا ولد له ابن وعاش أن يهوده .

هذا عن سكان يثرب من اليهود ، أما الأوس والخزرج فكان قدومهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم ، ولما نزلوا بيثرب وجدوا الأموال والأطام والنخل بيد اليهود ، وجدوا العدد والقوة معهم ، فكثروا معهم أمداً وعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم بعضاً ويمتنعون به عن سواهم ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً حتى نقضت اليهود العقد وتسلمت على يثرب ، فاستعان الأوس والخزرج بأقربائهم الغساسنة على اليهود فغلبوهم ، وصارت الغلبة للعرب على يثرب منذ ذلك العهد ، في زمن لا يبعد كثيراً عن الإسلام ؛ أي في حوالي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد . ولذلك كان العرب وقت الهجرة النبوية هم أصحاب الكلمة العليا في يثرب ، بينما كان اليهود بطوناً متفرقة ، دخل بعضها في محالفات مع الأوس ، ودخل بعضها الآخر في محالفات مع الخزرج كما ذكرنا آنفاً .

ويرجع نسب الأوس إلى جدِّهم أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر من الأزد ، والخزرج هم إخوة الأوس ؛ فالخزرج بن حارثة جدُّ الخزرج هو شقيق أوس بن حارثة .

وينقسم الأوس إلى خمسة بطون كبرى ؛ عوف ، وعمرو وهم النبيت ، وجشم ، ومرة ، وامريء القيس ، وكلهم أبناء مالك بن الأوس . وقد عُرف بنو مرة بالجعدارة كذلك ، قيل إنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يقولون للرجل إذا جاورهم جَعِدِرِ حيث شئت فأنت آمن ؛ أي : اذهب حيث شئت .

وقد تفرعت من بطون الأوس الكبرى بطون أخرى ، منها : خَطْمَة ، وأمَيْة ، ووائل ، وواقف ، وهي التي كوّنت بينها حلفاً عُرف بأوس اللات . ومنها أيضاً بطون عمرو بن عوف بن مالك وهم أهل قباء ، وبنو جَحْجَبَا ، وبنو ظَفَر . وتشعبت هذه البطون إلى أفخاذ عديدة حدثت بينها منازعات وحروب .

ومن الأوس أحيحة بن الجلاح من بني جَحْجَبَا سيّد الأوس في الجاهلية ، وكانت عنده سلمى بنت عمرو النجارية ، وأولاده منها إخوة عبد المطلب جدُّ النبي ﷺ .

والخزرج أيضاً بطون ، أشهرها بنو النجار وينتسبون إلى تيمم اللات بن ثعلبة ، والحارث ، وجشم ، وعوف ، وكعب . وقد تشعبت بنو النجار إلى أربعة بطون : مالك ، وعدي ، ومازن ، ودينار . وسكن هؤلاء في المنطقة الوسطى التي حول المسجد النبوي الشريف الذي بني فيما بعد .

وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية ، وهي منطقة العوالي من يثرب ، وجاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم ؛ أي قُرَيْظَةَ والنضير . بينما سكنت بطون الخزرج في مناطق أقل خصباً وهي المنطقة الوسطى الشمالية ، وهي سافلة المدينة ، وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة ، وهي قَيْنَقَاع ، وبعض العشائر اليهودية القليلة العدد . (انظر : مصور المدينة المنورة / قبائل ومساجد) . ولقد كان لهذا الجوار وهذه المنازل أثر كبير في العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين اليهود والعرب من جهة ، وبين العرب بعضهم مع بعض من جهة أخرى .

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التي كانت بين الأوس والخزرج ، فقد وقعت بينهم حروب كثيرة لأسباب تافهة ، هلك فيها من الطرفين خلق كثير ، وما كانت لتقع لولا العصبية الضيقة التي يعيشون لها ويحاربون ، كحرب فارح ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ،

وحرب الفجار الأولى - وهي غير حرب الفجار التي وقعت بين قيس وكنانة - وحرب الفجار الثانية ، ثم يوم بُعث وكان هذا اليوم آخر الأيام المشهورة التي وقعت بين الأوس والخزرج ، وذلك قبل الهجرة النبوية بسنوات ، وكان النصر فيه حليف الأوس . وقد بقي الحيان يتخاصمان حتى شُرِّفت المدينة بقدوم النبي ﷺ ، فأمرهما بالكف عنه ، ووجَّها وجهه أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التي كانت فيما بينهما . ولا يُنسى أن اليهود عملوا على الدسّ بين الأوس والخزرج وتشجيع عوامل الفرقة ، وإذكاء روح التحاسد ، حتى يشغلهم بأنفسهم عنهم ، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بالشعالب .

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن حبل الأمن كان مضطرباً في يثرب ، فلم يكن هناك استقرار يجعل السكان ينصرفون إلى تنمية مواردهم الاقتصادية ، بل كانت حياتهم كلها حذر وتربص واستعداد ، ولقد حال هذا الوضع القلق دون بلوغ يثرب مكانها اللائق بها في الجزيرة العربية على الرغم من موقعها الممتاز وأرضها الخصبة^(١) .

الحالة الدينية :

كان العرب تابعين لقريش وأهل مكة في العقيدة والديانة ، ينظرون إلى قريش كسدنة للبيت ، وقادة في الدين ، وقدوة في الاعتقاد والعبادة ، خاضعين للوثنية السائدة في جزيرة العرب ، يعبدون من الأصنام ما تعبدها قريش وأهل الحجاز ، إلا أن علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها الآخر ، فكانت مئة لأهل يثرب كما ذكرنا سابقاً ، وكان الأوس والخزرج أشدَّ إعظاماً لها من غيرهم ، حتى كان من اتخذ منهم في داره صنماً من خشب أو غيره يسميه مئة أيضاً ، كما فعل ذلك عمرو بن الجموح قبل أن يسلم .

ويذكر أن الأوس والخزرج كانوا يحجّون ويقفون مع الناس مواقف الحج كلها ، ولكن لا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا من حجّهم أتوا مئة وحلقوا رؤوسهم عندها ، وأقاموا بقربها لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك .

وقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾^(٢) ، أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية يهلّون لمئة الطاغية ، وكان من أهلها يتحجّج أن يطوف بالصفاء والمروة ، فلما أسلموا سألو رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ الآية^(٣) .

ولم يكن يثرب صنم أو بيت خاص اشتهر كاللآت والعزرى ، يعكفون على عبادته ، وتشدّ إليه الرحال من خارجها ، ويسدون الأصنام لم تنتشر في يثرب انتشارها في مكة ، فكان أهلها في الوثنية عيالاً على أهل مكة وأتباعاً لهم .

ورغم وجود اليهود في يثرب ، ورغم تأثيرهم الكبير في الحياة فيها ، إلا أن عامة الأوس والخزرج لم يتخذوا اليهودية ديناً لهم ، ولم يستبدلوها بالوثنية عدا أفراد قلائل كما ذكرنا آنفاً .

وكذلك لم تجد النصرانية لها طريقاً إلى قلوب أهل يثرب ، رغم اختلاطهم بالنصارى في رحلاتهم المتكررة إلى بلاد الشام التي كانت خاضعة للروم النصارى ، ولم يسمع عن جماعة منهم تنصروا وتركوا عبادة الأوثان ، سوى فئة قليلة جداً ، منهم أبو عامر عبد عمرو بن صيغبي ، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس هم بها ولكنه لم يدخلها^(٤) .

(١) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٤/١٢٩-١٤٠) ، و (ج ٦/٥٣٣-٥٣٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦٩) ، ويثرب قبل الإسلام / للدكتور محمد السيد الوكيل (ص : ٢٣ ، ٣١ ، ٥٦-٦٥ ، ١٢٦) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ١٤٥-١٥٢) .

(٢) البقرة : ١٥٨ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦/٢٨) كتاب التفسير - سورة البقرة .

(٤) انظر : يثرب قبل الإسلام (ص : ١٠٤) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ١٥٤-١٥٥) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٦/٦٠٢-٦٠٢) .

الحالة الاجتماعية :

لم يخرج المجتمع اليثري عن نظام المجتمعات العربية في الجزيرة ، فقد كان يقوم على أساس النظام القبلي ، فالقبيلة فيه هي وحدة الحياة الاجتماعية . ولم يخل المجتمع اليثري أيضاً من وجود طبقات كانت هي اللبنة التي تكوّن منها هذا المجتمع ، وتنحصر هذه الطبقات في ثلاث : الأحرار الصرحاء : وهم أبناء القبيلة الأصليون الذين تجمعهم صلة النسب والدم ، ويعدّ اليهود ضمن هذه الطبقة . والموالي : وهم الذين ينضمون إلى قبيلة غير قبيلتهم الأصلية عن طريق الجوار أو الحلف أو العتق . والعبيد : وهم الذين يجلبون عن طريق الحرب أو الشراء . وقد كان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث صفاتها المميزة ووضعها الاجتماعي الخاص بها .

فالمجتمع اليثري كان قائماً ، إذن ، على أساس طبقي فيه السادة وفيه العبيد ، وفيه الفقراء والأغنياء ، وفيه الصرحاء والحلفاء ، وكانت الهوة سحيقة بين كل طبقة وما يقابلها ، واليون شاسعاً بين الناس بعضهم وبعض ، فبينما يتمتع السادة بكل الحقوق يحرم العبيد من جميع الحقوق ، ويقدر توفر أسباب الرخاء للأغنياء كان حرمان الفقراء من الحقوق الطبيعية للإنسان ، وبينما يؤدي الصريح بديّة كاملة يكون الحليف على النصف منه .

وقد كانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج ، وكانوا يصاهرونهم ، ويتزوّجون فيهم ، وقد تزوّج هاشم بن عبد مناف وهو سيّد قريش سلمى بنت عمرو النجارية ، كما أشرنا من قبل ، إلا أنهم كانوا يرون لأنفسهم فضلاً عليهم ، وكانوا ينظرون إلى الفلاحة التي كان يمارسها أهل يثرب نظرة فيها شيء من الاحتقار ، وقد تجلّت هذه النظرة في الكلمة التي قالها أبو جهل وهو عقير^(١) ، قد قتله الأنصار ، قال : لو غير أكار^(٢) قتلني^(٣) .

الحالة السياسية والحكم :

لا يختلف نظام الحكم في يثرب عن طريقة نظام الحكم في مكة ، فلم يكن لأهل يثرب عند ظهور الإسلام رئيس ، وقد حاول بعض ساداتها من الأوس والخزرج تنصيب أنفسهم ملوكاً على المدينة ، غير أنهم لم يفلحوا في مسعاهم ، والظاهر أن المنافسة الشديدة العنيفة التي كانت بين الأوس والخزرج على الزعامة والرئاسة دورها في عدم تمكن أي أحد من سادة يثرب من الانفراد بزعامة المدينة وبالسيادة عليها .

كما لم يكن في يثرب حكومة تسيطر على الأوضاع فيها وتنظم العلاقات بين سكانها ، وبينهم وبين جيرانهم والدول الأخرى المحيطة بمدينتهم ، بل كانت هناك صلات وروابط اتخذت أساساً لتنظيم هذه العلاقات .

وقد اختلفت أسس تلك الصلات والروابط بحسب الظروف التي كانت تدعو إليها ، فأساس الصلات بين أهل يثرب وجيرانهم من أهل البادية هو الحذر والاستعداد ، وذلك لأن أهل البادية كانوا دائماً يتطلعون إلى ما في الحضر من الخيرات ويرون أنها حلال لهم ، فكانوا يغيرون دائماً على المدن ويروّعون أهلها وينهبون ثرواتهم .

أما علاقة يثرب بمدن الحجاز فكانت قائمة على أساس الاحترام والمنافع المتبادلة ، وكانت على العموم علاقة حسنة وطيبة . فثلاً كانت قوافل التجار تخرج من مكة إلى الشام فتمرّ بيثرب فتجد فيها الحماية لتجارها والقري لرجالها ، كما كانت يثرب ترسل إلى مكة فتبتاع منها ما تحتاجه من البضاعة التي كانت تجلب إلى مكة من البلاد المختلفة .

وكذلك كانت العلاقات التي أقامتها يثرب مع الدول الخارجية المحيطة بها علاقات حسنة ، وهي علاقات فرضتها الظروف ، فأما الفرس والروم فكانت علاقة يثرب بها محدودة ووقتيّة ، ومتوقفة على نهاب بعض تجارها إلى أراضي هاتين الدولتين ، وكذلك كانت

(١) العقير : مقطوع الساق (لسان العرب : ج ٣٠٣٤/٤) .

(٢) الأكار : الزّراع (لسان العرب : ج ١٠٠/١) .

(٣) انظر : يثرب قبل الإسلام / د . محمد السيد الوكيل (ص : ١٨٩) ، والمدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى / للدولف نفسه (ص : ٥٤) ، والسيرة النبوية / للندوي (ص : ١٥٥) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٩/٥) كتاب المغازي - باب غزوة بدر .

علاقتها بالفساسنة حتمتها ظروف القرابة وحاجة يثرب إلى مساعدة أبناء عموماتهم الغساسنة للتغلب على اليهود ، وأما علاقتها بالبن فقد أوجبتها القرابة والخنين إلى الوطن الأصلي وقدم بعض تجار البن إليها في طريقهم إلى الشام .

وكان لوجود اليهود في يثرب أثر في سياستها على الصعيدين الداخلي والخارجي ، فقد ذكرنا كيف سكن اليهود يثرب قبل الأوس والخزرج ، وكيف انتقلت مقاليد الأمور فيها من يدهم إلى يد الأوس والخزرج ، ومن ثم لجأ كل قوم من اليهود إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم .

وأما على الصعيد الخارجي ، فقد كان لليهود أثر إيجابي في ردّ حملة عسكرية مدمرة على يثرب ، وإبعاد شرّها عنها ، فقد ذكرنا فيما مضى أن أبا كرب الحيري كان قد قصد يثرب لإحراق نخلها وإهلاك أهلها ، فردّه عن ذلك خبران من أحبار اليهود ، وأقنعه بالعدول عن رأيه ، كما أقنعه باليهودية فتهود . ويقال إن دافع اليهود لذلك هو خوفهم على حياتهم وحرصهم على حفظ أموالهم والعيش في أمن واستقرار .

كذلك كان حرص اليهود على التمتع بخيرات يثرب والاستئثار بها وحرصهم على حيادة هادئة فيها سبباً في إيقاد نار حرب ضروس بين أبنائها الأوس والخزرج ، اللذين كان اليهود يعتبرون ائتلافها واجتماعها على رئيس واحد انتهاء لفترة وجودهم في يثرب^(١) .

الحالة الاقتصادية :

يثرب منطقة زراعية ، وهي ذات وديان كثيرة ، تفيض بمياه السيول فتروي أرضها البركانية الخصبة ، لذلك كان اعتماد أكثر أهلها على الزراعة ، ومن أهم حاصلاتها التمر والعنب والحبوب والبقول ، وكان التمر أيام الجذب يسدّ كثيراً من حاجة السكان الغذائية ، وكان كعملة يتبادل بها أهلها عند الحاجة .

وكان أهل يثرب مثل غيرهم تجاراً ، يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها ، كما أن موقع مدينتهم في الطريق بين الحجاز والشام جعلها محطاً تلتقي فيه القوافل الناهية إلى بلاد الشام والقادمة منها ، إلا أن حركتهم التجارية لم تكن في القوة والانتشار بمكانة الحركة التجارية في مكة المكرمة .

وقامت في يثرب بعض الصناعات التي مارس أكثرها اليهود ، وأهمها النجارة والبناء والحياكة وصناعة السيوف والسهام والأواني المنزلية ، إلى غير ذلك من الصناعات التي اقتضتها حياة الناس ومعاشهم . وكان عامة بني قَيْنُقَاع صاغة ، وكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة والحليّ الكثيرة من الذهب والفضة ، مع أن عددهم كان غير كثير .

ولم تكن يثرب - على خصبها - مكتفية غذائياً ، فكان أهلها يستوردون بعض المواد الغذائية من الخارج . وكانت العملة في مكة ويثرب واحدة ، وهي العملة الرومانية والعملة الساسانية ، وكانت على نوعين دنانير ودرهم . وكانت يثرب تعتمد على المكابيل وتحتاج إليها أكثر من مكة لاعتماد أهلها على الحبوب والثمار . وكانت الأكيال المستعملة فيها الممدّ والصاع والفرق والوسق .

وكان اليهود - كما عرّف من طبيعتهم وتاريخهم في كل بلد - أكثر غنى من العرب بسبب وضع أيديهم على المناطق الغنية بخصوبة التربة ووفرة المياه ، وكان العرب بطبيعتهم العربية أهل ضيافة وكرم فكانوا يضطرون إلى الاستدانة من اليهود ، وأكثر ما تكون هذه الاستدانة بالرّبا والرّهن ، كما أنهم لم يتمكنوا رغم تحضرهم واستقرارهم من التخلص من الروح الأعرابية تخلصاً تاماً ، بل بقوا محافظين على أكثر سجايهم ، ومنهم النزعة إلى التخاصم والتقاتل ، فألهتهم هذه النزعة عن الانصراف إلى غرس الأرض والاشتغال بالزراعة كما فعل اليهود ، وعن الاشتغال بالتجارة بمقياس كبير على نحو ما فعل أهل مكة .

وكان لأهل يثرب ثروة من الإبل والبقر والأغنام ، ويستخدمون الإبل في إرواء الأراضي ويسوّونها بالإبل النواضح ، وكانت لهم مراعي اشتهرت منها زغابة والغابة ، يحتطب منها الناس ويرعون فيها ماشيتهم . وكانت لهم خيل يستخدمونها في الحروب لكن كانت قليلة بالنسبة إلى مكة .

(١) انظر : يثرب قبل الإسلام (ص : ١٢٥-١٣٧ ، ١٤٣ ، ٢٠٧) ، والمفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٢٥١/٥) .

وكان في يثرب عدة أسواق ، أهمها سوق بني قَيْنُقَاع مركز بيع الأُخْلِيّ والمصنوعات الذهبية ، وكانت سوق البزازين التي ظَلَّت قائمة حتى مجيء الإسلام ، ثم تحول عنها المسلمون إلى سوق المدينة التي خطَّها لهم رسول الله ﷺ ، وكان عطارون يبيعون أنواع العطور والمسك ، وكان يوجد من يتجر في العنبر والزُّبُق .

وكانت أنواع من البيع منها ما قرره الإسلام ، ومنها ما منعه كالنَّجَش^(١) والاحتكار ، وتلقي الركبان خارج المدينة ، والبيع بالنسيئة^(٢) ، وبيع المرابنة^(٣) ... وكان من الأوس والحزرج من يتعامل بالرِّبَا وإن كان ذلك نادراً بالنسبة إلى اليهود .

وهكذا لم ينتقل رسول الله ﷺ من مدينة مكَّة إلى قرية يثرب ، بل انتقل من مدينة إلى مدينة ، وإن كانت هي الأخرى تختلف عن الأولى في مظاهر كثيرة للحياة ، وكانت أصغر منها نسبياً ، ولكن الحياة فيها أكثر تعقداً ، والقضايا التي واجهها النبي ﷺ أكثر تنوعاً لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة ، لا يتغلب عليها ولا يصهر المدينة كلها في بوتقة عقيدة واحدة ، ودعوة واحدة إلا الرسول المؤيد من الله تعالى ، الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة ، والقوى المتصارعة والأهواء المتعاكسة ، وألقى عليه بحبَّة منه ، وصدق الله العظيم : ﴿ هُوَ الَّذِي أُيِّدَكَ بِنُصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ وَالْفَافَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٤) .

☆ ☆ ☆

(١) النَّجَشُ : هو أن يَرِيدَ الرَّجُلُ ثَمَنَ السَّلْعَةِ ، وهو لا يَرِيدُ شَرَاءَهَا ، وَلَكِنْ لِيَسْمَعَهُ غَيْرُهُ فَيَرِيدُ بَرِيادَتِهِ (لسان العرب : ج ٤٣٥٢/٦) .

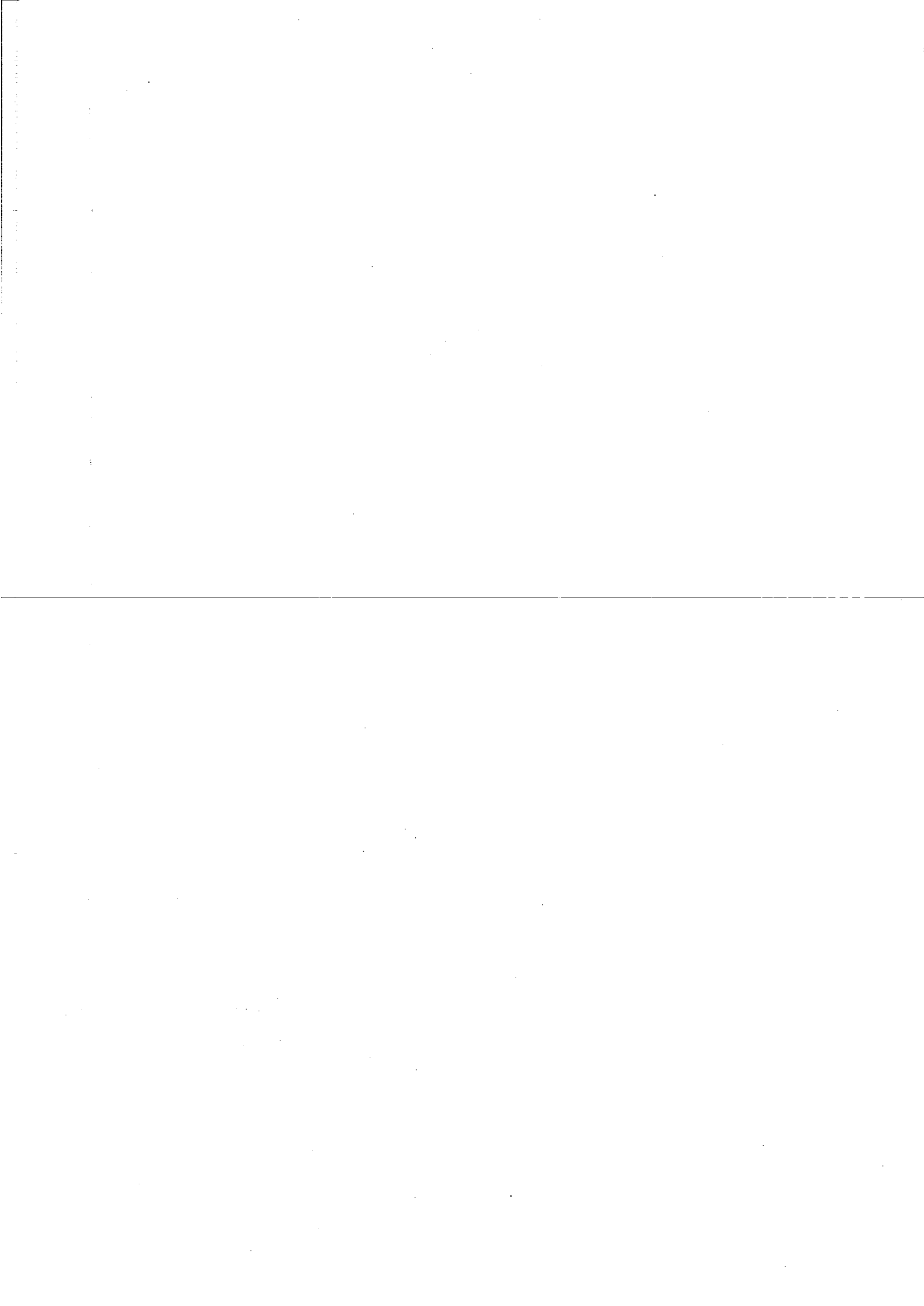
(٢) النَّسِيئَةُ : هي البَيْعُ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ (لسان العرب : ج ٤٤٠٤/٦) .

(٣) الْمُرَابَنَةُ : بَيْعُ الرُّطْبِ عَلَى رُؤُوسِ النُّخْلِ بِالثَّمَرِ كَيْلًا ، وكذلك كُلُّ ثَمَرٍ يَبِيعُ عَلَى شَجَرِهِ بِثَمَرِ كَيْلًا ، وَإِنَّمَا نَهَى عَنْهُ لِأَنَّ الثَّمَرَ بِالثَّمَرِ لَا يَجُوزُ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ ، فَهَذَا مَجْهُولٌ لَا يُعْلَمُ أَيُّهَا أَكْثَرُ (لسان العرب : ج ١٨٠٩/٣) .

(٤) الأنفال : ٦٢ - ٦٣ . وانظر : السيرة النبوية / للندوي (ص : ١٥٦-١٦١) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١٤١/٤) .

القسم الأول

« من الولادة إلى البعثة »



نسب النبي ﷺ وولادته

نسبه الشريف ﷺ :

هو مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الْمُطَلِّب (واسمه شَيْبَةَ الْحَمْد) بن هاشم (واسمه عَمْرُو) بن عبد مناف (واسمه الْمُعْتَبِرَة) بن قُصَيِّ (واسمه زيد) بن كِلَاب بن مَرَّة بن كَعْب بن لُؤَيِّ بن غَالِب بن فِهْر بن مَالِك بن النَّضْر (واسمه قَيْس) بن كِنَانَة بن خَزَيْمَة بن مَدْرِكَة (واسمه عامر) بن إلياس بن مَضْر بن نزار بن معد بن عدنان^(١) .

هذا هو القدر الصحيح المجمع عليه من نسب النبي ﷺ ، وأما ما فوق ذلك فمختلف فيه بين أهل السَّيْر والأنساب ، لكن لا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله بن إبراهيم خليل الله عليهما السلام ، وإنما الخلاف في عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء فقلّ ومكثر ، وكذلك من إبراهيم إلى آدم ، عليهما السلام ، لا يعلم ذلك على حقيقته إلا الله عز وجل .

وقد كره الإمام مالك وجماعة من العلماء أن يرفع الرجل نسبه إلى آدم ؛ من أجل أن هذا كله من باب التخرص والظنون التي لا يمكن أن يوثق بها . لذلك ضربنا صفحاً عن ذكر النسب الشريف إلى آدم عليه السلام .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ، ثم يسك ويقول : « كَذَبَ النَّسَابُونَ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ »^(٢) .

وعن عروة بن الزبير وسليمان بن أبي حنيفة قالوا : ما وجدنا في شعر شاعر ولا في علم عالم أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان بحق ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾^(٣) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرضاً ، وروي نحو ذلك عن عمر وعكرمة وغير واحد^(٤) .

أصالة نسب النبي ﷺ :

اختار الله ، عز وجل ، نبيّه ﷺ من خير القرون وأزكى القبائل وأفضل البطون ، فكان ﷺ أوسط قومه نسباً وأعظمهم شرفاً ، وقد جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان أنه سأله : كيف نسبه فيكم ؟ فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب^(٥) .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا قَرْنًا ، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ »^(٦) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١/١) ، وصحيح البخاري (ج ٥٦/٥) كتاب المناقب - باب مبعث النبي ﷺ ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٥/١) .

(٢) الفرقان : ٢٨ .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٥٦/١) .

(٤) تاريخ مدينة دمشق (ق ٤١/١) .

(٥) عيون الأثر (ج ٢٢/١) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٥/١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

(٧) صحيح البخاري (ج ٢٢٩/٤) كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ .

كما روي عنه عليه السلام أنه قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » (١) . وفي رواية : أنه اصطفى بني عبد المطلب من بني هاشم ، ثم اصطفاه من بني عبد المطلب (٢) . وفي رواية أخرى : أنه ما كان في صنف من الناس إلا كانوا خيار أهل الدنيا (٣) ، فأشرف القبائل قبيلته ، وأشرف الأفضاخ فخذ عليه السلام .

روي أن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم ، فجعلوا مثل النبي عليه السلام كمثل نخلة في كبوة (٤) من الأرض ، فبلغ ذلك النبي عليه السلام فقال : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ؛ من خير فرقه وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » (٥) .

طهارة نسب النبي عليه السلام وشرف آبائه :

وكما اختار الله ، عز وجل ، نبيه عليه السلام من خير القبائل والبيوت ، فإنه لم يتسأل إلى نسبه الشريف شيء من أدران الجاهلية ، فهو عليه السلام من سلالة آباء كرام ليس فيهم مسترذل ، بل كلهم سادة أشرف أطهار .

روي عن النبي عليه السلام أنه قال : « وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرها ، فأخرجت من بين أبوين فلم يصنني شيء من عهر الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لذن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً » (٦) .

وعنه أيضاً عليه السلام قال : « لم يأتني أبواي في سفاح ، لم يزل الله ، عز وجل ، ينقلني من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة ، صافياً مهذباً ، لا تتشعب شعبان إلا كنت في خيرها » (٧) .

وقد جاء عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ (٨) ، قال : من نبي إلى نبي ، ومن نبي إلى نبي ، حتى أخرجك نبياً (٩) .

أسرة النبي عليه السلام :

تعرف أسرة النبي عليه السلام بالأسرة الهاشمية نسبة إلى جدّه هاشم بن عبد مناف ؛ فهو واسطة العقد في قريش . وإذا قرأنا ما حفظه التاريخ وكتب السيرة من أخبار بني هاشم وأقوالهم استدللنا به على ما كان يمتاز به هؤلاء من مشاعر الإنسانية الكريمة ، والاعتدال في كل شيء ، ورجاحة العقل ، وقوة الإيمان بما للبيت من مكانة عند الله ، والبعد عن الظلم ، والسخاء ، إلى غير ذلك من المعاني الكريمة والحاصل الحميدة التي تليق بأجداده عليه السلام . وسندكر فيما يلي شيئاً من أخبار هاشم ومن بعده .

هاشم بن عبد مناف :

ذكرنا أن هاشماً تولّى السقاية والرّفاة من بني عبد مناف حين تقاسم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار المناصب فيما بينهما . وكان هاشم رجلاً موسراً ، ذا شرف كبير ، وقد روى أهل الأخبار أن اسمه عمرو ، وقيل له هاشم لأنه أول من هشم الثريد (١٠) لقومه بمكة

(١) صحيح مسلم (ج ٤/١٧٨٢) كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي عليه السلام ، ح ١ .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢٠/١) .

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (ج ٢/١١٠) .

(٤) الكبوة : الرّبوّة (لسان العرب : ج ٥/٢٨١٥) .

(٥) سنن الترمذي (ج ٥/٥٨٤) كتاب المناقب - باب في فضل النبي عليه السلام ح ٣٦٠٧ ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١/١٧٤) ، والخبر نقله ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٢/٢٥٥) وقال : هذا حديث غريب جداً من حديث مالك ، تفرد به القدامي وهو ضعيف . وانظر طبقات ابن سعد (ج ١/٦٠) .

(٧) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١/٦٧) .

(٨) الشعراء : ٢١٩ .

(٩) طبقات ابن سعد (ج ١/٢٥) .

(١٠) هشم الثريد : كثر الخبز وأعدّه للثريد (الوسيط : ج ٢/٩٦٧) .

وأطعمه ، ويُذكر أن قريشاً كانت قد أصابهم قحط ، فرحل إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة ، وبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس أو وارد عليه . وكان أخذ على نفسه عهداً بأن يسقي الحجّاج ويكفيهم بالماء قربة إلى ربّ البيت مادام حياً ، فقام لذلك بجفر عدة آبارٍ مما يسّر لمكة الماء وساعد على إكثاره عندهم .

وهو أوّل من سنّ الرحلتين لقريش ؛ رحلة الشتاء والصيف ، وكان يطعم الحجّاج أوّل ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمبنى والمزدلفة وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم ، والخبز والسمن ، والسويق والتّم ، ويجعل لهم الماء فيسقون بمبنى إلى أن يصدروا منها فتنتقطع الضيافة .

وينسب إليه كذلك إيلاف قريش ، والمقصود بالإيلاف عهدود ومواثيق مع سادات القبائل في مقابل إسهامهم بأموالهم وبجبايتهم لقوافل قريش ، في مقابل ضرائب معينة تُدفع لهم وسهاماً من الأرباح تُؤدى لهم مع إعطائهم رؤوس أموالهم وما ربحته في الأسواق^(١) .

ومن حديث هاشم أنه خرج إلى الشام تاجراً ، فلما قدم المدينة تزوّج سلمى بنت عمرو أحد بني عديّ بن النّجار ، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح من الأوس ، وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ؛ إذا كرهت رجلاً فارقت ، فخطبها هاشم فعرفت شرفه ونسبه فزوّجته نفسها ، وأقام عندها أياماً ، ثم خرج إلى الشام - وهي عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين ، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب ، وسمته شيبية لشيبية كانت في رأسه .

وكان لها ثم أربع بنين وهم : شيبية ، وأسد ، وأبو صيفي ، ونضلة . وخمس بنات وهنّ : الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وحية^(٢) . وفي رواية : حنة^(٣) .

عبد المطلب بن هاشم :

أوصى هاشم عند وفاته إلى أخيه المطلب ، فصارت السقاية والرّفاة إليه من بعده ، وكان ذا شرف في قومه وفضل ، وكانت قريش تسميه الفيض لسخائه وفضله .

ولما صار شيبية بن هاشم وصيفاً^(٤) أو فوق ذلك ، سمع به المطلب ، فرحل في طلبه ، فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ففاضت عيناه وضمه إليه وكساه حلة يمانية ، وأردفه على راحلته ، فقال شيبية لعمّه : لست بمفارق أمي إلا أن تأذن لي ، فسألها المطلب أن ترسله معه ، فأبت فقال لها : إني غير منصرف حتى أخرج به معي ، إن ابن أخي قد بلغ وهو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف في قومنا ؛ نلي كثيراً من أمرهم ، وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة في غيرهم . فأذنت له ، فاحتمله ، فدخل به مكة مردفه على بعيره ، فقالت قريش : هذا عبد المطلب ابتاعه ، فيها سمي شيبية عبد المطلب - فقال المطلب : ويحك ! إنما هو ابن أخي هاشم قديمت به من المدينة^(٥) . فلم يزل عبد المطلب مقياً بمكة حتى ترعرع ، ثم إن المطلب بن عبد مناف خرج تاجراً فهلك برذمان من أرض اليمن ، فولي بعده عبد المطلب السقاية والرّفاة ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبّه قومه ، وعظم خطرهم فيهم^(٦) حتى عرف بين أهل مكة بـ « شيبية الحميد » لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له : « الفيّاض » لجوده ، و « مطعم طير السماء » لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش على رؤوس الجبال .

(١) تاريخ الطبري (ج ٢٥١/٢ - ٢٥٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧٨/١) ، ومعالم تاريخ العرب قبل الإسلام / للدكتور أحمد أمين سليم (ص : ١٢٩) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١١٩/١ ، ١٤٨) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٨٠/١) .

(٤) الوصيف : الغلام دون المراهق (الوسيط : ج ١٠٤٨/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٨/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٢/١) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ١٥٢/١) .

وكان عبد المُطَلِّب مِّن حَرَمِ الحِجْر على نفسه في الجاهلية ، وهو أول من تَحَنَّثَ^(١) بغار حِراء ، فكان إذا جاء شهر رمضان صعده وأطعم المساكين . وكان مجاب الدعوة ، فكانت قريش إذا أصابها جَدْبٌ تأخذ بيده فتخرج به إلى جبل ثَبِيرٍ يستسقي الله لهم ، فكان يسأل الله لهم الغيث فيغاثون .

هذا ، ولم يكن عبد المطلب عظيماً عند قريش فحسب ، وإنما كان عظيماً كذلك في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، فقد روي أنه ذهب إلى اليمن مهتماً بالملك عندما تولى مُعَدِيكَرِب سيف بن ذي يَزَنَ عرش اليمن ، مما يدل على أن عبد المطلب كان ذو مكانة عند ملوك العرب تعطيه الحق في الاتصال بهم وتهنئتهم بالملك ، كما يدل في الوقت نفسه على مكانته عند قريش ، حتى أنه كان رئيساً لوفدها في هذه المهات العظيمة^(٢) .

وقد روي أن المُطَلِّب لما قدم مكة بآبٍ أخيه وَفَّه على ملك أبيه هاشم وسلمه إليه ، فلما مات المُطَلِّب عرض تَوَقَّل بن عبد مناف لعبد المطلب في أُرْكَاح^(٣) له فغضبه إياها ، فشى عبد المطلب إلى رجالات قومه ، فسألهم النصره على عمه ، فقالوا : لسنا بداخلين بينك وبين عمك ، فكتب إلى أخواله من بني النَّجَّار أبياتاً يستجدهم ، وسار خاله أبو أسعد بن عَدِيٍّ في ثمانين راكباً حتى نزل بالأبطح من مكة ، فلتقاه عبد المطلب فقال : المنزل يا خال ! فقال : أما حتى ألقى نوفلاً فلا ، قال : تركته جالساً في الحجر في مشايخ قريش ، فأقبل حتى وقف على رأسه ، ثم استل سيفه وقال : ورب البيت لئن لم ترد على ابن أختي أركاحه لأمكن منك هذا السيف ، فقال : رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل أبو أسعد على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثاً ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة . فلما جرى ذلك حالف نوفل بني عبد شمس كلها على بني هاشم ، ولما رأَت خُرَاعَةَ نصر بني النَّجَّار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كما ولدتموه ، فنحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة وحالفوا بني هاشم على بني عبد شمس ونوفل . وهذا الخلف الذي صار سبباً لفتح مكة كما سيأتي^(٤) .

ومن أهم الأحداث التي وقعت في حياة عبد المُطَلِّب أمران : حفر بئر زَمْرَم ، وحادثة الفيل .

أما زَمْرَم فكانت سُمِّيَا من الله ، وخلاصة أمرها أن عبد المُطَلِّب أتى في المنام مرات فأمر بحفرها ووصف له موضعها ، فقيل له : احفر طَيِّبَةً ، قال : وما طَيِّبَةٌ ؟ فلما كان الغد أتاه فقال : احفر بَرَّةً ، قال : وما بَرَّةٌ ؟ فلما كان الغد أتاه وهو نائم في مضجعه ذلك في الحجر ، فقال : احفر المَصْنُونَةَ ، قال : وما المَصْنُونَةُ ؟ أبني لي ما تقول ، فلما كان الغد أتاه فقال : احفر زمزم ، قال : وما زمزم ؟ قال : تراث من أبيك الأعظم ، لا تَنْزَفْ ولا تَدْمُ^(٥) ، تسقي الحجاج الأعظم ، وهي بين الفَرث والدم عند نَقْرَةِ الغُرَابِ الأعظم^(٦) - وكان غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفَرث والدم - عند قرية النبل ، وهي شرب لك ولولديك من بعدك . فعدا عبد المُطَلِّب يبعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، ليس له يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها ، فلما بدا لعبد المطلب الطي كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك الماء ، فأتوه فقالوا : يا عبد المطلب ! إنها بئر إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً ، فأشركنا معك فيها ، فقال : ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به دونكم ، فأجعلوا بيننا وبينكم من شئتم أحاكمم إليه ، قالوا : كاهنة بني سعد هَدَيْمٌ ، وكانت بمَعَانَ من مشارف الشَّام ، فخرجوا إليها وخرج مع عبد المطلب عشرون رجلاً من بني عبد مناف ، وخرجت قريش بعشرين رجلاً من قبائلها ، فلما كانوا بالفقير من طريق الشَّام أو حَذْوَهُ في ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فأبوا عليهم فقالوا : إننا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم ، فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما ينتخوف

(١) يَتَحَنَّثُ : يَتَعَبَّدُ . يُقَالُ : فُلَانٌ يَتَحَنَّثُ : أَي يَفْعَلُ فِعْلاً يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الْإِثْمِ وَالْحَرَجِ (النهاية : ج ٤٤٩/١) .

(٢) معالم تاريخ العرب قبل الإسلام (ص : ١٣٠-١٣١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٣٧/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٧١/١ ، ٨٢) .

(٣) الأُرْكَاحُ : جَمْعُ رُكْحٍ ، النَّاحِيَةُ الْمَشْرِقَةُ عَلَى فِضَاءٍ ، وَالسَّاحَةُ وَالْفِنَاءُ (الوسيط : ج ٣٦٩/١) .

(٤) انظر : تاريخ الطبري (ج ٢٤٨/٢-٢٥١) ، والرحيق المختوم / للشيخ صفي الرحمن المباركفوري (ص : ٥٧) .

(٥) لا تَنْزَفْ : أَي لَا تَفْتِنِ مَأْوَاهَا عَلَى كَثْرَةِ الْإِسْتِقَاءِ (النهاية : ج ٤٢/٥) . وَلَا تَدْمُ : أَي لَا تَعَابُ ، أَوْ لَا تَلْفَى مَدْمُومَةً ، مِنْ قَوْلِكَ أَذْمَمْتَهُ إِذَا وَجَدْتَهُ مَدْمُومًا . وَقِيلَ : لَا يُوَجَدُ مَأْوَاهَا قَلِيلاً ، مِنْ قَوْلِهِمْ بَرَّرْ دَمَةً ، إِذَا كَانَتْ قَلِيلَةً الْمَاءِ (النهاية : ج ٧١٩/٢) .

(٦) الغُرَابُ الأعصمُ : نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الغُرَابِ (الوسيط : ج ٦٥٢/٢) .

على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأيُنَا إلاَّ تَبَعٌ لرأيِك ، فرنا بما شئت ، قال : فيأني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرتَه لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرتَه ، حتى يكون آخركم رجلاً واحداً ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً ، فحفروا ثم قعدوا ينتظرون الموت ، ثم إن عبد المطلب قال : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لَعَجْز ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا ، فارتحلوا ، وقام عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفِّها عين من ماء عذب ، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه ، وشربوا جميعاً واستقوا ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله ، فشربوا واستقوا وعرفوا فضل عبد المطلب فقالوا له : قد قضي لك علينا ؛ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم ، فوالله لا نخاصمك فيها أبداً ! فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وختلوا بينه وبين زمزم . وحينئذ نذر عبد المطلب لأن أتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعه لينحرن أحدهم عند الكعبة .

ولما حفر عبد المطلب زمزم استخرج الأشياء التي دفنتها جرَّهم حين خرجت من مكة ، أي السيوف والدروع والغزاليين من الذهب ، ف ضرب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزاليين ، فكان أول ذهب خُلِّيَتْه الكعبة - فيما قيل - ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج^(١) .

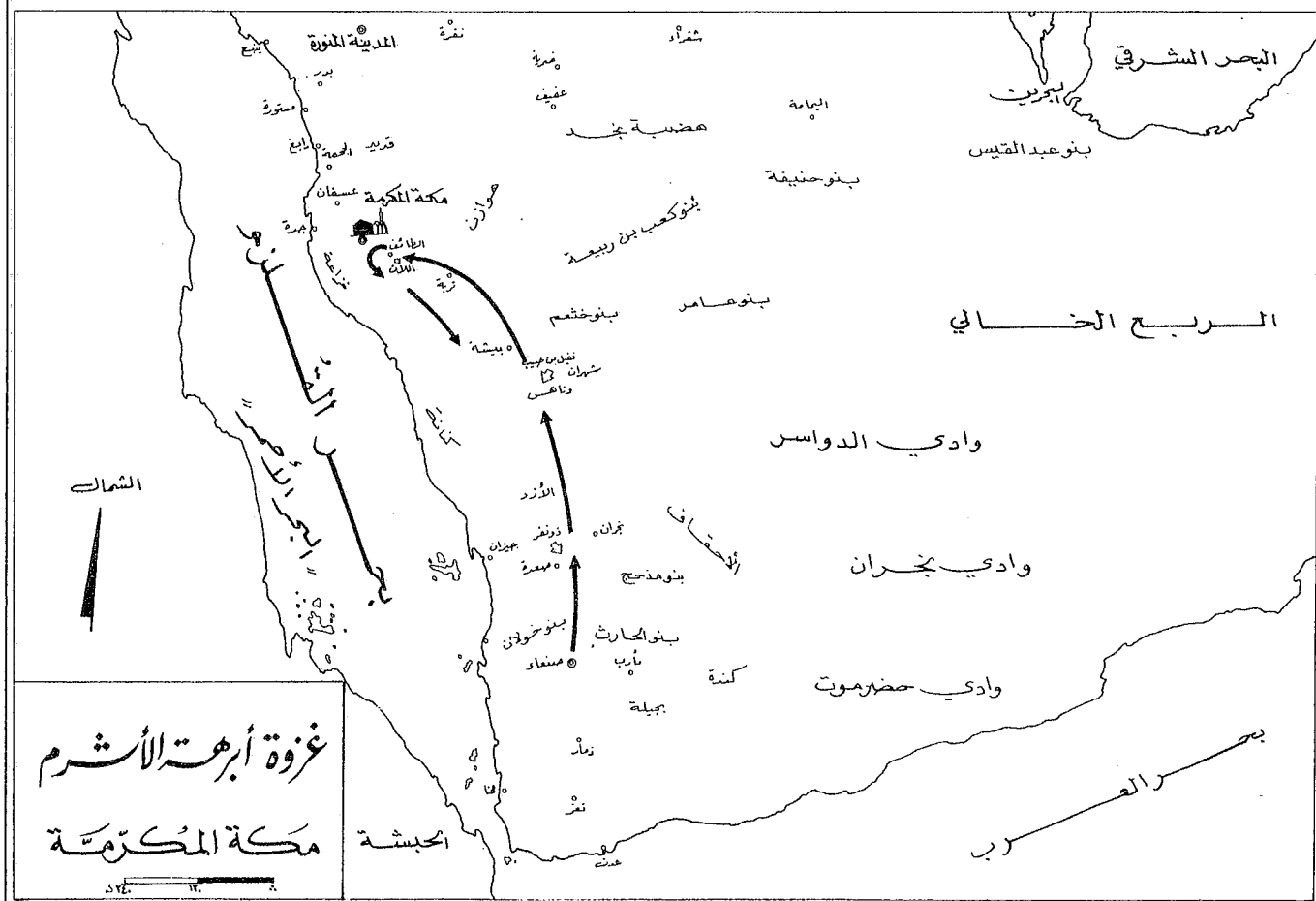
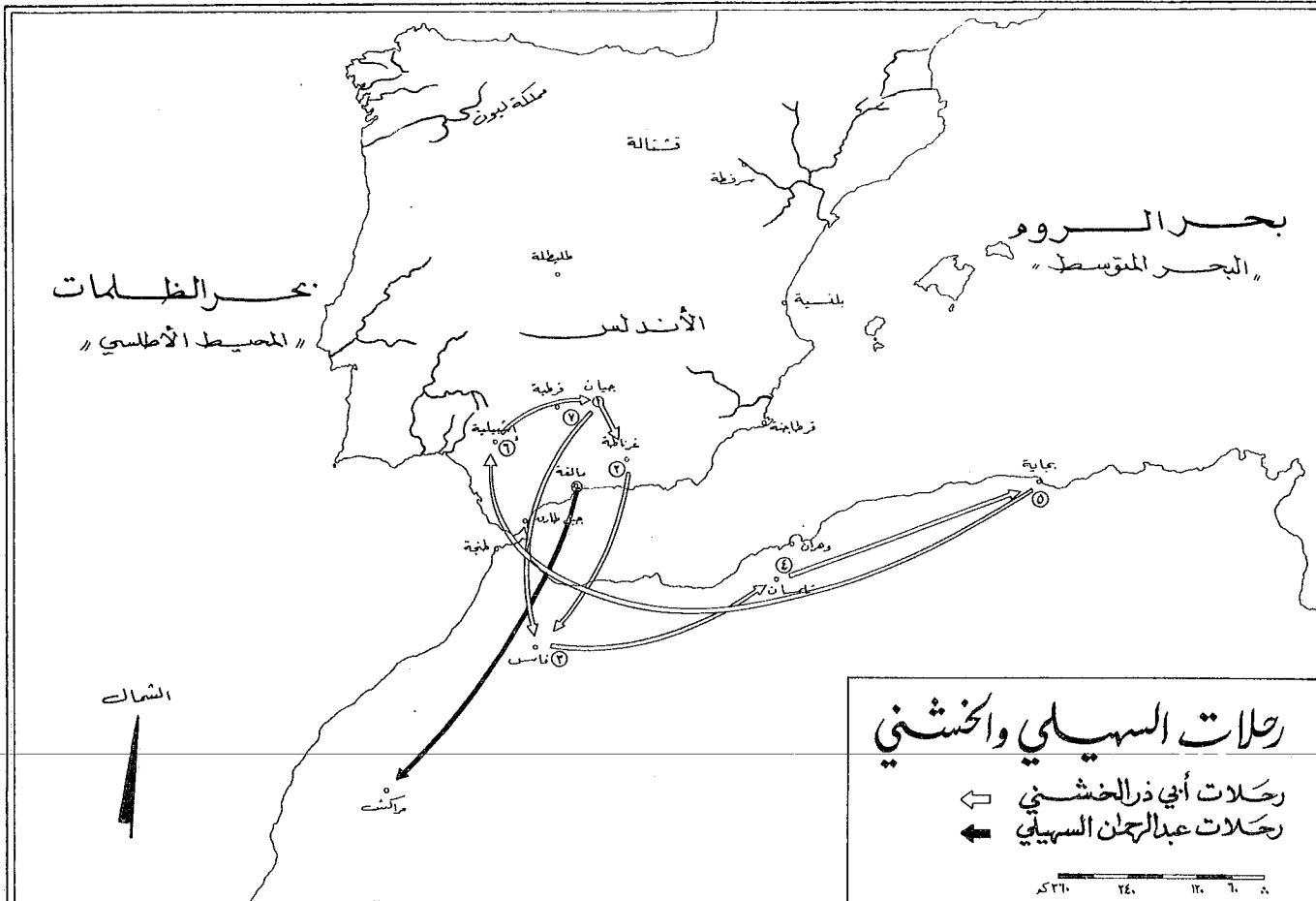
وأما حادث الضيل فهو حادث عظيم لم يحدث مثله في تاريخ العرب ، وكان دليلاً على ظهور حادث أكبر ، وعلى أن الله تعالى يريد بالعرب خيراً ، وأن للكعبة شأناً ليس لغيرها من بيوت الدنيا ومراكز العبادة ، وقد نيظت بها رسالة ودور في تاريخ الديانات ومصير الإنسانية لا بد أن تؤديه وأن تقوم به .

وكان من خبر هذا الحادث أن أبرهة الأشرم عامل النجاشي على اليمن بنى بصنعاء كنيسة عظيمة ، لم ير مثلاً لها في زمانها بشيء من الأرض ، سماها القليس ، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلاً للملك كان قبلك ، ولست بمُنْتَه حتى أصرف إليها حج العرب .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي وسمع رجل من كنانة عزَّ عليه الأمر ، وهو من العرب الذين رضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها ، لا يعدلون بها بيتاً ، ولا يرون عنها بديلاً ، فخرج حتى أتى الكنيسة فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة وجمع جيفاً فألقاها فيها . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه . ثم سار بجيش عظيم وخرج معه بتسعة فيلة أو ثلاثة عشر فيلاً واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة وكان اسمه محموداً . وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضِعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل - كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم - يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخراجه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزَم ذو نفر وأصحابه ، وأخذ له ذو نفر فأتي به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك ! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائِي معك خيراً لك من قتلي ، فتركه من القتل ، وحبسَه عنده في وثاق . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نَفِيل بن حبيب الحثعمي في قبيلتي خثعم : شَهْرَان وناهيس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزَمه أبرهة ، وأخذ له نَفِيل أسيراً ، فأتي به ، فلما هم بقتله قال له نَفِيل : أيها الملك ! لا تقتلني فأني دليلك بأرض العرب ، وهاتان ينداي لك على قبيلتي خثعم بالسمع والطاعة ، فخلَى سبيله ، وخرج به معه يدُّله ، حتى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مَعْتَب الثقفي في رجال من ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس يبتننا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات ، وهو بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ، كما مرَّ معنا سابقاً - إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم ، فبعثوا معه رجلاً يدلُّه على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه الدليل حتى أنزله المَعْمَس^(٢) ، وهناك أمر أبرهة أصحابه بالغارة على نَعَم الناس ، فبعث رجلاً من الحبشة ، يقال له الأسود بن مقصود ، على خيل له حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٥٤/١ - ١٥٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٣/١ - ٨٥) .

(٢) المَعْمَسُ : مَوْضِعٌ قَرِبَ مَكَّةَ فِي طَرِيقِ الطَّائِفِ (معجم البلدان) ج ١٠٤/٨ .



يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لاطاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة خنَاطة الحميري إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم ، فإن هو لم يُرد حربي فأنتي به ، فلما دخل خنَاطة مكة واجتمع بعبد المطلب أخبره بما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم - عليه السلام - فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ، فقال خنَاطة : فانطلق معي إليه ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنييه ، حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نَفر - وكان له صديقاً - حتى دخل عليه وهو في محسه ، فقال له : يا ذا نَفر ! هل عندك من غداء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفر : وما غداء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ؟ ما عندي غداء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي ، وسأرسل إليه فأوصيه بك ، وأعظم عليه حَقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ، فقال : حسبي ، فبعث ذو نَفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب غير مكة ، يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه ، وانفعه عنده بما استطعت .

ففعل أنيس ، وأذن أبرهة لعبد المطلب بالدخول عليه ، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتي أن يرُد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا ربّ الإبل ، وإن للبيت رباً سنعاه ، قال : ما كان ليجتمع مني ، قال : أنت وذاك . فأمر بردّ إبله عليه ، فلما قبضها قَلدها^(١) النعمال وأشعرها^(٢) وجعلها هدياً وبئها في الحرم كي يُصاب منها شيء فيغضب ربّ الحرم ، ثم قام عبد المطلب يدعو الله ويستنصره وهو آخذ بحلقه باب الكعبة يقول :

لاهُمَّ إِنِّ المرءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فامنع حِلالكُ
لا يغلِبَنَّ صليبيهم ومِحالهم غَدُوا مِحالكُ
إِن كُنْتَ تارَكهم وقيلتنا فأمر ما بَدَا لَكُ

وأشار عبد المطلب على قومه بالتفرق في الشُّعاب والتحرز في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من مَعَرَّة الجيش ، لأنه رأى أن لاطاقة لهم بأبرهة وجنوده ، وأن للبيت رباً يحميه .

وتهباً أبرهة لدخول مكة ، وعبأ جيشه ، وهياً فيله ، فلما كان في وادي مُحَسَّر بين المُزدلفة ومِنى برك الفيل ، ولم يقدّم إلى الكعبة . ويقال إنهم لما وجَّهوا الفيل إلى مكة أقبل نَفِيل بن حبيب الخثعمي حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال : ابرك محمود أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل ، وخرج نَفِيل يشد حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطَّبْرزِين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مَرآقه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجَّهوه راجعاً إلى البين فقام يهرول ، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى مكة فبرك . فبينما هم كذلك إذ أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل من البحر ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أمثال الحص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا صار تنقطع أعضاؤه وهلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هارين يبتدرون الطريق الذي منه

(١) تَقْلِيدُ البُذْنِ : أن يُجْعَلَ في عُنُقِها شِعَارٌ كَمَرَوَّةٍ مَرَادَةٌ أو خَلْقٌ نَعْلٌ ، فَيُعْلَمُ به أَنَّها هَدْيٌ . انظر : (لسان العرب : ج ٢٧١٨/٥) .

(٢) أَشْعَرُ البِدْنَةُ : أَغْلَمُها ، وهو أن يَشَقَّ جِلْدُها أو يَطْعَمَها في أُسْبِمِها في أَحَدِ الجَانِبَيْنِ بِمِبْضَعٍ أو نَوْحٍ حتَّى يَظْهَرَ البَدَنُ وَيُعْرَفَ أَنَّها هَدْيٌ . (لسان

العرب : ج ٢٢٧٧/٣) .

جاؤوا ويسألون عن نَفِيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نَفِيل - حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته - :

أين المفرّ وإِلَهِ الطَّالِبِ والأشرم للغلوب ليس الغالب

وقال أيضاً :

ألا حَيِّتْ عَنَّا يَا رَدُّنَا ردينة ، لو رأيتِ فلا تريه
نَعِمْتَاكُم مع الإصباح عينا إذاً لعذرتني وحمّدت أمري
لدى جنب المُخَصَّب ما رأينا حمّدتُ الله إذ أبصرتُ طيراً
ولم تَأْتِيْ عَلَيَّ مافات بيننا وكِيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ
وخِيفَ حجارة تُلقَى علينا وكلّ القوم يسأل عن نَفِيل
كأن عليّ للحبشيان دَيْنَا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل . (انظر : مصور غزوة أبرهة الأشرم مكة المكرمة) .
وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ؛ أغله أغلة ، كما سقطت أغلة أتبعها منه مدّة تمث^(١) قيحاً ودماً ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل فرخ الطائر ، وانصدع صدره عن قلبه فبات شراً ميتة . وذلك ما قصّه القرآن في قوله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾^(٢) .

فلما ردّ الله الأحباش عن مكة ، وأصابهم بما أصابهم به من النعمة ، أعظمت العرب قريشاً وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو ، وازدادوا تعظيماً للبيت الحرام وإيماناً بكانه عند الله تعالى . وقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما ردّ عن قريش من كيدهم ، منها ما قاله عبد الله بن الزُّبَيْرِ :

تَنَكَّلُوا عن بطن مَكَّة إنها كانت قديماً لا يرام حريمها
لم تخلّق الشُعْرَى لِيَالِي حَرَمَتِ إذ لا عزيز من الأنعام يرومها
سائلُ أمير الجيش عنها ما رأى ولسوف يني الجاهلين عليها
ستسون ألفاً لم يؤبوا أرضهم بل لم يعيش بعد الإياب سقيها
دانت بها عباد وجّرم قبلهم والله من فوق العباد يقمها^(٣)

وقد وقع هذا الحادث في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين أو بخمسة وخمسين يوماً سنة ٥٧١ م . وكان ذلك آية من الله ، ومقدمة لبعثة نبي يبعث في مكة ويظهر الكعبة من الأوثان ، ويعيد إليها ما كان لها من رفعة وشأن ، وتكون لدينه صلة عميقة دائمة بهذا البيت .

واستعظم العرب هذا الحادث فأرخوا به ، وقالوا : وقع هذا في عام الفيل ، وولد فلان في عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين .

ومات عبد المطلب بعد أن جاوز الثمانين ، وكان ذلك في حوالي عام ٥٧٨ م ، ودفن بالحجون ، وهو جبل بأعلى مكة ، كان أهل مكة يدفنون موتاهم فيه .

وكان لعبد المطلب عشرة بنين وهم : الحارث ، والزُّبَيْر ، وأبو طالب ، وعبد الله ، وحَمْرَةَ ، وأبو لهب ، والقَيْدَاق ، والمَقْوَم ،

(١) أي ترشح ، والمراد هنا أن جسمه كان يرشح مدّة ودماً ، والمُدّة : هو القيح . انظر : الوسيط (ج ٨٦٠/٢ ، ٨٦٥) .

(٢) الفيل : ١ - ٥ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/١ - ٦٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩١/١ - ٩٢) .

وَضْرَارَ ، وَالْعَبَّاسَ . وَقِيلَ : كَانُوا أَحَدَ عَشَرَ فَزَادُوا وَلِدَا اسْمِهِ قَتْمَ ، وَقِيلَ : كَانُوا ثَلَاثَةَ عَشَرَ فَزَادُوا عَبْدَ الْكَعْبَةِ وَحَجَلًا ، وَقِيلَ : إِنْ عَبْدَ الْكَعْبَةِ هُوَ الْمُقَوِّمُ ، وَحَجَلًا هُوَ الْغَيْدَاقُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَوْلَادِهِ رَجُلٌ اسْمُهُ قَتْمٌ .

وَأَمَّا الْبَنَاتُ فَسِتْ وَهِنَّ : صَفِيَّةٌ ، وَأُمُّ حَكِيمٍ وَهِيَ الْبِيضَاءُ ، وَعَاتِكَةُ ، وَأُمِّيَّةٌ ، وَأَرْوَى ، وَبَرَّةٌ (١) .

هَذَا وَقَدْ تَمَيَّزَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِأَرْبَعِيَّةٍ فَرِيدَةٍ مِنْ نَوْعِهَا ، لَا تَدُلُّ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا تُصَدَّرُ إِلَّا مِنْهُ ، وَكَانَتْ كُلُّهَا مَزِيحًا مِنَ الْأَنْفَةِ وَالكَرَمِ وَالرِّصَانَةِ وَمَوَاجَهَةِ الْغَيْبِ فِي ثِقَّةٍ وَصَبْرٍ وَأَنَاةٍ ، وَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ أَوْلَادَهُ بِتَرْكِ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ ، وَيَحْتَمِمْ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَيُنَهَاهُمْ عَنِ ذُنُوبِ الْأُمُورِ ، وَكَانَ يَقُولُ : لَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا ظَلُومٌ حَتَّى يَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَنْ وِرَاءَ هَذِهِ الدَّارِ دَارٌ أُخْرَى يَجْزَى فِيهَا الْحَسَنُ بِإِحْسَانِهِ وَيُعَاقِبُ الْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ رَفِضَ فِي آخِرِ عَمْرِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَوَحَّدَ اللَّهَ ، وَرَوَى أَنَّهُ وَضَعَ سِنًّا وَرَدَتْ فِيهَا بَعْدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَقْرَبَتْهَا سَنَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، مِنْهَا الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ ، وَتَحْرِيمُ الْحَمْرِ وَالزُّنَى ، وَأَنْ لَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عَرِيَانًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ دِيْبَةَ النَّفْسِ مِائَةَ مِنَ الْإِبْلِ ، وَكَانَتِ السِّدِيَّةُ قَبْلَ ذَلِكَ عَشْرًا مِنَ الْإِبْلِ ، فَجَرَّتْ فِي قَرِيْشٍ وَالْعَرَبِ مِائَةَ مِنَ الْإِبْلِ ، وَأَقْرَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ (٢) .

عَبْدُ اللَّهِ وَالِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

أُمُّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ أَحَبَّ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الذَّبِيحُ ، وَذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ كَانَ قَدْ نَذَرَ - حِينَ لَقِيَ مِنْ قَرِيْشٍ مَا لَقِيَ عِنْدَ حَفْرِ زَمْزَمَ - لَنْ وَلِدَ لَهُ عَشْرَةَ ذَكَورٍ ثُمَّ بَلَّغُوا مَعَهُ حَتَّى يَمْنَعُوهُ أَنْ يَنْذِيحَ أَحَدَهُمْ اللَّهُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، فَلَمَّا تَكَامَلُوا عَشْرَةَ أَخْبَرَهُمْ بِنَذْرِهِ فَأَطَاعُوهُ ، فَكَتَبَ أَسْمَاءَهُمْ فِي الْقِدَاحِ ، وَأَعْطَاهَا قِيَمَ هَبْلٍ ، فَضَرَبَ بِالْقِدَاحِ فَخَرَجَ الْقِدَاحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَخَذَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبُ بِيَدِهِ وَأَخَذَ الشَّقْرَةَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ لِيَنْذِيحَهُ ، فَنَعَتَهُ قَرِيْشٌ وَلَا سِوَا إِخْوَتِهِ وَأَخْوَالِهِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : فَكَيْفَ أَمْنَعُ بِنَذْرِي ؟ فَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ عَرَّافَةَ بِالْحِجَازِ فَيَسْتَأْمِرُهَا ، فَاتَّاهَا فَأَمَرَتْ أَنْ يَضْرِبَ الْقِدَاحَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَعَلَى عَشْرٍ مِنَ الْإِبْلِ ، فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ يَزِيدُ عَشْرًا مِنَ الْإِبْلِ حَتَّى يَرْضَى رَبَّهُ ، فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى الْإِبْلِ غُرْهَا . فَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَأَقْرَعَ بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَبَيْنَ عَشْرٍ مِنَ الْإِبْلِ فَوَقَعَتِ الْقِرْعَةُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَزِيدُ مِنَ الْإِبْلِ عَشْرًا عَشْرًا وَلَا تَقَعُ الْقِرْعَةُ إِلَّا عَلَيْهِ إِلَى أَنْ بَلَغَتْ الْإِبِلُ مِائَةَ فَوَقَعَتِ الْقِرْعَةُ عَلَيْهَا ، فَنَحَرَهَا عَنْهُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، وَتَرَكَهَا فِي الْفُضَاءِ لَا يَرِدُ عَنْهَا إِنْسَانًا أَوْ سَبْعًا أَوْ طَيْرًا ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا . وَلِذَلِكَ كَانَ يُقَالُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ابْنُ الذَّبِيحِينَ ، يَعْنِي إِسْمَاعِيلَ وَأَبَاهُ عَبْدَ اللَّهِ (٣) .

- زَوَاجُ عَبْدِ اللَّهِ : وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ أَوْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً زَوَّجَهُ أَبُوهُ أَمِيَّةَ بِنْتَ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ مَرْثَةَ ، وَهِيَ يَوْمئِذٍ أَفْضَلُ امْرَأَةٍ فِي قَرِيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا (٤) ، وَأَبُوهَا سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ نَسَبًا وَشَرَفًا . فَبَنِيَ بِهَا عَبْدُ اللَّهِ فِي مَكَّةَ فَحَمَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشْرَفُ وَلَدِ آدَمَ حَسَبًا وَأَفْضَلُهُمْ نَسَبًا مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ . رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَمْ تَزَلْ تُنَازِعُنِي الْأُمَّمُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى خَرَجْتُ مِنْ أَفْضَلِ حَيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ هَاشِمٌ وَزُهْرَةُ » (٥) .

قِيلَ : إِنَّهُ لَمَّا تَزَوَّجَ عَبْدُ اللَّهِ أَمِيَّةَ لَمْ تَبْقِ امْرَأَةٌ مِنْ قَرِيْشٍ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ وَعَبْدُ شَمْسٍ وَعَبْدُ مَنَافٍ إِلَّا مَرَضَتْ أَسْفًا عَلَى عَدَمِ تَزَوُّجِهَا بِهِ .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٩/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٣/١) .

(٢) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٨٢/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٩/١) ، ومعالم تاريخ العرب قبل الإسلام / للدكتور أحمد أمين سليم (ص : ١٣١ - ١٣٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٦٨-١٦٤/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٩-٨٨/١) ، والمستدرك (ج ٥٥٤/٢) .

(٤) أي : أفضل امرأة من قريش نسبا ، من جهة الأب ، وموضعا من جهة الأم . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٠٢/١) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٠/١ ، ١٦٩) فما بعدها ، وتاريخ مدينة دمشق / لابن عساكر (ق ٢٠٢/١) .

وروي عن العباس ، رضي الله عنه ، أن عبد المطلب قدم اليمن في رحلة الشتاء فنزل على حِثْر من اليهود ، فقال له رجل من أهل الزُّبُور : يا عبد المطلب ! أتأذن لي أن أنظر إلى بدنك ما لم يكن عورة ؟ قال : ففتح إحدى منخريه فنظر فيه ، ثم نظر في الأخرى فقال : أشهد أن في إحدى يديك مُلْكاً وفي الأخرى النُّبوة وأرى ذلك في بني زهرة فكيف ذلك ؟ فقال عبد المطلب : لا أدري ، فقال : هل لك من شاعة - أي زوجة - قال : أما اليوم فلا ، قال : إذا قدمت فتزوّج فيهم . فرجع عبد المطلب إلى مكة فتزوّج هالة بنت وهب بن عبد مناف ، فولدت له حمزة وصفيّة ، وتزوّج عبد الله بن عبد المطلب أمانة بنت وهب ، فولدت رسول الله ﷺ ، فقالت قريش حين تزوّج عبد الله أمانة : فلج^(١) عبد الله على أبيه^(٢) .

الآيات التي ظهرت لأمانة عند حملها برسول الله ﷺ :

ولمّا حملت أمانة برسول الله ﷺ ظهر لحمله آيات عجيبة ، فقد روى ابن إسحاق بلفظ : ويزعمون فيما يتحدث الناس أن أمانة كانت تحدث أنها أتيت - حين حملت برسول الله ﷺ - فقيل لها : إنك قد حملت بسيّد هذه الأمة^(٣) .

وقالت أمانة أيضاً - فيما رواه ابن سعد - : ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثِقَلَةٌ كما تجد النساء ، إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي ، وأتاني آتٍ وأنا بين النائم واليقظان فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنني أقول : ما أدري ، فقال : إنك قد حملت بسيّد هذه الأمة ونبيّها ، وذلك يوم الاثنين ، قالت : فكان ذلك ممّا يقنّ عندي الحمل . ثم أمهلني حتى إذا دنا ولادني أتاني ذلك الآتي فقال : قولي إذا وضعته : أعيذه بالواحد من شرّ كلّ حاسد ، ثم سمّيه محمداً^(٤) . وفي رواية أخرى : وعلّقي عليه هذه التيمية ، قالت : فاتتبهت وعند رأسي صحيفة من ذهب مكتوب فيها :

أعيذه بالواحد	من شرّ كلّ حاسد
وكلّ خلّق رائد	من قائم وقاعد
عن السبيل حائد	على الفساد جاهد
من نافث أو عاقد	وكلّ خلّق مارد
ياخذ بالمرصاد	في طريق الموارد ^(٥)

أنهم عنه بالله تعالى ، وأحوطه منهم باليد العليا ، والكفّ الذي لا يرى ، يد الله فوق أيديهم ، وحجاب الله دون عاديهم ، لا يطرده ولا يضره في مقعد ولا منام ، ولا مسير ولا مقام ، أول الليالي وآخر الأيام^(٦) .

وقيل : إنه كان من دلالات حمل النبي ﷺ أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت : حمّل برسول الله ﷺ وربّ الكعبة ، وهو أمان الدنيا وسراج أهلها . ولم يبق كاهنة من قريش ، ولا وقبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبها ، وانتزع علم الكهنة ، ولم يكن سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً ، والمَلِك لا ينطق يومه ذلك ، وممرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبخارات ، وكذلك البحار يبشّر بعضهم بعضاً به ، في كل شهر من شهوره ، نداء في الأرض ونداء في السماء : أن أبشّروا فقد آن لأبي القاسم أن يخرج إلى الأرض مهبوناً مباركاً^(٧) .

(١) فلج : ظرف (الوسيط : ج ٧٠٦٢) .

(٢) الخبر في المستدرک (ج ٦٠١٢) وحكم الذهبي بضعفه .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٧٠/١) .

(٤) انظر طبقات ابن سعد (ج ١٨١) ، وسيرة ابن هشام (ج ١٧٠/١) .

(٥) ذكر الحافظ عبد الرحيم العراقي أن بعض أهل السير يذكرون هذه الآيات ويجعلونها من حديث ابن عباس ولا أصل لها يعتد به .

(٦) الخبر في دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١٧٠/١) وإسناده واه جداً كما ذكر الشامي . انظر : (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للتسطلاني : ج ١٠٧/١) .

(٧) الخبر في دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٧٨٠/٢) وهو غريب جداً كما ذكر الحافظ ابن كثير في شمائل الرسول (ص : ٥٧٥) ، وأشار التسطلاني إلى شدة ضعفه . انظر : (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية : ج ١٠٨/١) .

روى ابن إسحاق أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يا رسول الله ! أخبرنا عن نفسك ، قال : « نَعَمْ ، أنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشْرَى أَخِي عَيْسَى ، وَرَأْتُ أُمِّي حِينَ حَمَلْتُ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ الشَّامِ » (١) .

وفي رواية عنه ﷺ قال : « إِنَّ أُمِّي رَأَتْ فِي الْمَتَامِ أَنَّ الَّذِي فِي بَطْنِهَا نُورٌ ، قَالَتْ : فَجَعَلْتُ أُتْبِعُ بَصْرِي النُّورَ ، وَالنُّورُ يَسْبِقُ بَصْرِي حَتَّى أَضَاءَتْ لِي مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » (٢) .

وفاة عبد الله : خرج عبد الله إلى غزة في غير لقريش ، فلَمَّا فرغوا من تجارتهم أقبلوا راجعين فنزلوا بالمدينة ، وعبد الله يومئذ مريض ، فتخلف عند أخواله بني عدي بن النجار ومضى أصحابه إلى مكة ، فلم يلبث عندهم شهراً حتى تُوِّفِيَ (٣) .

روي عن الزُّهْرِيِّ أن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله إلى المدينة يبتار لهم تمرًا فمات بها ، ودفن في دار النابغة وله خمس وعشرون سنة - وقيل غير ذلك - ورسول الله ﷺ يومئذ حمل (٤) . وهذا هو أثبت الأقاويل ، وقيل : مات عبد الله وهو ﷺ ابن شهرين ، وقيل ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهراً (٥) .

ميراث النبي ﷺ من أبيه : وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال ، وقطعة غنم ، وسيف ، وجارية حبشية اسمها بركة وهي أم أيمن (٦) . وزاد الطبري : مولاه شقران قيل إنه ورثه عن أبيه (٧) .

ولادة النبي ﷺ :

ولد رسول الله ﷺ في شعب بني هاشم بمكة المكرمة ، ويقال في الدار التي تُعرف بدار ابن يوسف (٨) ، فجر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٩) عام الفيل (١٠) .

وقد روي في صفة ولادته ﷺ آيات غريبة ، فمنها :

ماروي أن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام (١١) ، وأنه ولد نظيفاً مابها قدر ، ووقع على الأرض معتداً على يديه ، رافعاً رأسه إلى السماء (١٢) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/١) .

(٢) تاريخ الطبري (ج ١٦١/٢) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٩٩/١) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٩٩/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٨٧/١) ، وسيرة ابن هشام (ج ١٧١/١) ، وصحيح مسلم (ج ١٢٩٢/٣) كتاب الجهاد والسير - باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائهم ح ٧٠ .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٠٠/١) ، وتاريخ دمشق / لابن عساكر (ق ٦٤/١) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٠٠/١ ، ٤٨٥) .

(٧) تاريخ الطبري (ج ١٧٠/٢) .

(٨) وهي الدار التي كانت بعد مهاجر رسول الله ﷺ في يد عقيل بن أبي طالب ، ولم تنزل في يده حتى تُوِّفِيَ ، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج فبنى داره التي يُقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت في الدار ، حتى أخرجته الحيزران أم هارون الرشيد فجعلته مسجداً يُصلَى فيه . انظر : تاريخ الطبري (ج ١٥٦/٢) .

(٩) هذا هو المشهور في تاريخ ولادته ، وقد حقق العالم الفلكي محمود باشا المصري أن ولادته ﷺ كانت يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ، ويوافق ذلك العشرين أو اثنين وعشرين من شهر نيسان عام ٥٧١ م . انظر : الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري (ص : ٦٢) .

(١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧١/١) ، وتاريخ مدينة دمشق / لابن عساكر (ق ٥٧/١) .

(١١) الخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦١٧/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(١٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٢/١) .

وروي عن أمّ عثمان بن أبي العاص أنها شهدت ولادة أمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولادته قالت : فما شيء أنظر إليه في البيت إلا نور ، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول : ليقعن علي^(١) .

وعن عكرمة أن رسول الله ﷺ لما ولدته أمّه وضعته تحت بُرمة^(٢) فانفلقت عنه ووجدته مفتوح العينين قد شقّ بصره ينظر إلى السماء^(٣) .

وقد روي أن إرهابات مندرة بيعته وقعت ليلة مولده ﷺ لم تثبت بسند صحيح ، لكن رأينا إيرادها لشهرتها .

فمن هانئ المخزومي قال : لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس^(٤) إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخذت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبدان إبلاً صعباً تقود خيلاً عرابياً^(٥) قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها . فلما أصبح كسرى أفزعته ذلك ، وتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أن لا يدخر ذلك عن وزرائه ومرازبته^(٦) حين عيل صبره ، فجمعهم ، ولبس تاجه ، وقعد على سريريه ، ثم بعث إليهم ، فلما اجتمعوا عنده ، قال : أتدرون فيما بعثت إليكم ، قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك بذلك . فبينما هم كذلك إذ أتاه كتاب بخمود نار فارس ، فزاد غمّاً إلى غمه ، ثم أخبرهم بما هاله ، فقال الموبدان : وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت في هذه الليلة . ثم قصّ عليه رؤياه في الإبل . قال : أي شيء يكون هذا يا موبدان - وكان أعلمهم في أنفسهم - قال : حدّث يكون من ناحية العرب . فكتب كسرى عند ذلك : من ملك الملوك كسرى إلى النعمان بن منذر . أمّا بعد ؛ فوجه إني برجل عالم بما أريد أن أسأل عنه ، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو الغساني ، فلما قدم عليه قال : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : يسألني ، أو يخبرني الملك ، فإن كان عندي منه علم أخبرته ، وإلا دللته على من يعلمه . قال : فأخبره بما رأى ، قال : علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام يقال له سطيح ، قال : فاذهب إليه فاسأله واثنني بتأويل ما عنده ، فنهض عبد المسيح يقول (فذكر أبحاثاً من الشعر) ، قال : ففتح سطيح عينيه ثم قال : عبد المسيح ، على جمل مسيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الصريح ، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبدان ، رأى إبلاً صعباً ، تقود خيلاً عرابياً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها . يا عبد المسيح ! إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب المراهة ، وفاض وادي السأوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخذت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكلّ ماهوات أت . ثم قضى سطيح مكانه ، فنهض عبد المسيح إلى رحله ، فلما قدم على كسرى فأخبره بقول سطيح فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور . فملك منهم عشرة في أربع سنين ، والباقيون إلى أن قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٧) .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن أمنة كانت تقول : لقد أخذني ما يأخذ النساء ولم يعلم بي أحد من القوم ذكر ولا أنثى ، وإني لوحيدة في المنزل ، وعبد المطلب في طوافه ، قالت : سمعت وجبة^(٨) شديدة وأمرأ عظيماً ، فهالني ذلك ، وذلك يوم الاثنين ، فرأيت كأن جناح طير أبيض قد مسح على فؤادي فذهب عني كلّ رعب وكلّ فزع ووجع كنت أجده ، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٧/١) .

(٢) البرمة : القدر مطلقاً ، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز والين (النهاية : ج ١٢٧/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ١٠٢/١) .

(٤) ارتجس : أي اضطرب وتحرك حركة سماع لها صوت (النهاية : ج ٢٠١/٢) .

(٥) تقود خيلاً عرابياً : أي عريضة منسوبة إلى العرب (لسان العرب : ج ٢٨٦٧/٤) .

(٦) المرابطة : جمع مرزبان ، وهو الرئيس من الفرس ، المقدم على القوم دون الملك . وقد تقدم .

(٧) القصة في دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٢٦/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١٧٤/١) . وساق ابن هشام في السيرة (ج ١٧/١) رؤيا ربيعة بن نصر أحد ملوك الين وتأويل شقّ وسطيح لها بنحو هذه القصة عن كسرى . وشق كاهن من كهان العرب ، وكان بيد واحدة وعين واحدة ، وكانت العرب تأتيه فيخبرهم بما سيأتي . وسطيح كاهن أيضاً من كهان العرب . قيل : إن جسده لا عظم فيه غير جمجمة رأسه فكان يدرج كالثوب ، فإذا غضب انتفض .

(٨) الوجبة : هي صوت الشوط (النهاية : ج ١٥٤/٥) .

وظننتها لبناً ، وكنت عطشى فتناولتها فشربتها ، فأضاء مني نور عال ، ثم رأيت نسوة كالتخل الطوال كأنهن بنات عبد المطلب يمدقن بي ، فبينما أنا أعجب وأقول : واغوثاه ! من أين علمن بي هؤلاء ؟ واشتد بي الأمر وأنا أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول ، فإذا أنا بديباج أبيض قد مد بين السماء والأرض ، وإذا قائل يقول : خذوه عن أعين الناس . قالت : ورأيت رجلاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق فضة ، وأنا يرشح مني عرق كالجمان^(١) أطيب ريحاً من المسك الأذفر^(٢) ، وأنا أقول : يا ليت عبد المطلب قد دخل علي ، وعبد المطلب عني ناء ، قالت : فرأيت قطعة من الطير قد أقبلت من حيث لا أشعر حتى غطت حجرتي ، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من البواقيت ، فكشف لي عن بصري ، فأبصرت ساعتى مشارق الأرض ومغاربها ، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات ؛ علم في المشرق ، وعلم في المغرب ، وعلم على ظهر الكعبة ، وأخذني الخماض ، واشتد بي الأمر جداً ، فكنت كأني مستندة إلى أركان النساء ، وكثرن علي حتى كأن الأيدي معي في البيت وأنا لا أرى شيئاً ، فولدت محمداً - ﷺ - فلما خرج من بطني ذرت فنظرت إليه ، فإذا أنا به ساجد قد رفع أصبعيه كالمضرع المبتهل ، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء تنزل حتى غشيت به ، فغيب عن وجهي ، فسمعت منادياً يقول : طوفوا بمحمد ﷺ شرق الأرض وغربها وأدخلوه البحار كلها ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ، ويعلموا أنه سمي فيها الماحي ، لا يبقى شيء من الشرك إلا محي به في زمنه ، ثم تجلت عنه في أسرع وقت ، فإذا به مدرج في ثوب صوف أبيض أشد بياضاً من اللبن وتحتة حريرة خضراء ، قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، وإذا قائل يقول : قبض محمد على مفاتيح النصر ومفاتيح الريح ومفاتيح النبوة^(٣) .

وروى الخطيب البغدادي أن أمنة قالت : لما وضعت عليه الصلاة والسلام رأيت سحابة عظيمة لها نور أسمع فيها سهيل الخليل وخفطان الأجنحة وكلام الرجال حتى غشيت به ، وغيب عني فسمعت منادياً ينادي : طوفوا بمحمد ﷺ مشارق الأرض ومغاربها وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته في جميع الأرض ، واعرضوه على كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش ، وأعطوه خلق آدم ومعرفة شيث وشجاعة نوح وخلة إبراهيم ولسان إسماعيل ورضا إسحاق وفصاحة صالح وحكمة لوط وبشرى يعقوب وشدة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وصوت داود وحب دانيال ووقار إلياس وعصمة يحيى وزهد عيسى ، واغسوه في أخلاق النبيين . قالت : ثم انجلي عني فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طياً شديداً ينبع من تلك الحريرة ماء ، وإذا بقائل يقول : يخ يخ قبض محمد على الدنيا كلها لم يبق خلق من أهلها إلا دخل طائماً في قبضته . قالت : ثم نظرت إليه ﷺ فإذا هو كلقمير ليلة البدر ، ريحه يسطع كالسك الأذفر ، وإذا بثلاثة نفر في يدهم إبريق من فضة ، وفي يدهم الآخر طست من زمرد أخضر ، وفي يده الثالث حريرة بيضاء فنشرها ، فأخرج منها خاتماً تحار أبصار الناظرين دونه ، فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات ، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم ولقه في الحريرة ، ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده^(٤) .

وقد روي أن الأصنام نكست ليلة مولده ﷺ ، فعن عروة أن نفراً من قريش ، منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه ، قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً وكانوا يعظمونه وينحرون له الجوزر .. فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبواً على وجهه فأنكروا ذلك ، فأخذوه فردوه إلى حاله فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً ، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة ، فلما رأوا ذلك اغتوا له وأعظموا ذلك ، فقال عثمان بن الحويرث : ماله قد أكثر التنكس ؟ إن هذا الأمر قد حدث ، وذلك في الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ، فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله ، فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول فذكر أبياتاً منها :

تردى لمولود أضاءت بنوره
جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب^(٥)

(١) الجمان : اللؤلؤ الصغار ، وقيل : حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ (النهاية : ج ٢٠١/١) .

(٢) أي طيب الريح (النهاية : ج ١٦١/٢) .

(٣) الخبر في دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٧٨٢/٢) وهو غريب جداً وشديد الضعف كما ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه شامل الرسول (ص : ٥٧٧) ، والزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية (ج ١٠٨/١) .

(٤) الحديث فيه نكارة . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١١٣/١) .

(٥) الخبر في تاريخ دمشق (ق ٢٤٢/١) .

وكانت اليهود قد أُنذرت بولادة النبي ﷺ ، فعن حسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، أنه قال : والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين ، أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمه^(١) بيثرب : يامعشر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا : ويلك مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به^(٢) ، وفي رواية : وهو لا يطلع إلا بالنبوة^(٣) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها ، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس من قريش : يامعشر قريش ! هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقالوا : والله ما نعلمه ، قال : الله أكبر أما إذا أخطأكم فلا بأس ، فانظروا واحفظوا ما أقول لكم ؛ ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كَتْفَيْهِ علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عُرف فرس ، لا يرضع ليلتين ، وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل إصبعيه في فمه فنعه من الرضاع . فتصدع القوم في مجلسهم وهم متعجبون من قوله وحديثه ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سمّوه محمداً ، فالتقى القوم فقالوا : هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي فأخبروه الخبر ، قال : فاذهبوا معي حتى أنظر إليه ، فخرجوا به حتى أدخلوه على أمنة ، فقال : أخرجني إلينا ابنك ، فأخرجته وكشفوا له عن ظهره فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودي مغشياً عليه ، فلما أفاق قالوا : ويلك مالك ؟ قال : ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل ، فرحتم به يامعشر قريش ؛ أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب ، وكان في النفر يومئذ الذين قال لهم اليهودي ما قال هشام بن الوليد بن المغيرة ، ومسافر بن أبي عمرو ، وعُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وعُتْبَةُ بن ربيعة شاب فوق الحتم في نفر من بني عبد مناف وغيرهم من قريش^(٤) .

ونقل عن بقي بن مخلد أنه ذكر في تفسيره أن إبليس لعنه الله رن أربع رنات^(٥) : رنة حين لعن ، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب^(٦) .

فرح عبد المطلب بولادة النبي ﷺ وتسميته :

ولما وضعت أمه ﷺ أرسلت إلى جدّه عبد المطلب تخبره بولادة حفيده ، فأتاه فنظر إليه وحدته بما رأت حين حملت به وحين وضعت وما قيل لها فيه وما أمرت به أن تسميه ، وفرح عبد المطلب بحفيده واستبشر ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكر له ما أعطاه . ولعله رأى في مقدمه عوضاً عن ابنه الذي اخترمته المتية^(٧) شاباً ، فحوّل مشاعره عن الراحل الناهب إلى الوافد الجديد يكلؤه ويغالي به .

رَوَى أن أمنة لما ولدت النبي ﷺ جاءه عبد المطلب فأخذه وقبّله ثم دفعه إلى أبي طالب فقال : هو وديعتي عندك ، ليكون لابني هذا شأن ، ثم أمر فتحرت الجزائر ، وذبحت الشاء ، وأطعم أهل مكة ثلاثاً ، ثم نحر في كل شعب من شعاب مكة جزوراً ، لا يُمنع منه إنسان ولا سبع ولا طائر^(٨) .

(١) الأطم : البناء المرتفع كالحيض . وقد تقدم .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١٧١/١) .

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٨٨/١) .

(٤) الخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٠٧/٢) وقال : هنا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ولم يوافقه الذهبي .

(٥) الرنة : الصيحة الشديدة (الوسيط : ج ٢٧٧/١) .

(٦) عيون الأثر (ج ٢٧/١) .

(٧) اخترمته المتية : أخذته (الوسيط : ج ٢٢٩/١) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٢/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١٧٢/١) .

ولما كان اليوم السابع ختنه على عادة العرب^(١)، وعقّ عنه بكبش، وجعل له مأدبة، وسماه محمداً ﷺ. ولم يكن العرب يألفون هذا الاسم، فاستغربه كل من سمعه من قريش، وسألوا عبد المطلب فقالوا: لِمَ رَغِبْتَ به عن أسماء أهل بيته؟ فأجابهم: أردت أن يحمده الله تعالى في السماء وخلقه في الأرض^(٢).

ويروى أن عبد المطلب إنما سماه محمداً لرؤيا رآها، زعم أنه رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها. فقصصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً مع ما حدثته به أمه^(٣).

روي عن جُبَيْر بن مُطْعِم، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أُنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَسَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاثِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»^(٤).

رضاع النبي ﷺ:

أول من أَرْضَع النبي ﷺ من المراضع - بعد إرضاع أمه له - ثُوَيْبَةَ^(٥) بلبن ابن لها يقال له مَسْرُوح، أَرْضَعته أياماً قبل أن تقدم حَلِيمَةَ. وكانت قد أَرْضَعَت قبله حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وأَرْضَعَت بعده أبا سَلَمَةَ بن عبد الأسد الخزومي رضي الله عنه. وذكر بعضهم أنها أَرْضَعَت عَمَّه العَبَّاس بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش أيضاً، رضي الله عنهما، كما ذكروا عَقْبَةَ بن الحارث بن عامر، وأمّ يحيى بنت أبي إهاب أَرْضَعَتها ثويبة أيضاً.

ويقال إنه ﷺ ارتضع من ثمانين نساء وقيل من عشر؛ منهن امرأة من بني سعد غير حليمة، وأمّ أيمن بركة الحبشية والمشهور أنها من الخواضن لا المراضع^(٦).

ثم التمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع على عادة أهل مكة، الذين كانوا يؤثرون إذا وُلِد لهم وليد أن يلتبسوا له مرضعة من البادية؛ ليكون أنجب للولد وأفصح له؛ فإن تنشئة الأولاد في البادية في كنف الطبيعة الصافية أدنى إلى تزكية الفطرة، وإتمام الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف، وإلتقائهم اللسان العربي الفصيح في مهدهم منذ نعومة أظفارهم. ويدل على هذا ما ورد أن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه: «أَنَا أَعْرَبُكُمْ، أَنَا قُرَشِيٌّ، وَأَسْرَضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ»^(٧).

(١) ويقال: وُلِد النبي ﷺ ختنوناً مسروراً؛ أي مقطوع السرة. وقد ورد هذا في أحاديث اختلف العلماء الحفاظ في الحكم عليها، فمنهم من ضعفها، ومنهم من صححها، ومنهم من رآها من الحسان. من ذلك ما روي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه. عن النبي ﷺ قال: «من كرامتي على ربي أنني وُلِدْتُ مَخْتُوناً لَمْ يَرَ أَحَدٌ سِوَانِي». انظر: دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١٩٢/١)، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٢٤/١).

(٢) انظر: زاد المعاد (ج ٨٢/١)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٢/١).

(٣) عيون الأثر (ج ٢٠/١).

(٤) صحيح البخاري (ج ٢٢٥/٤). كتاب المناقب - باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ.

(٥) ثويبة هي مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب أريته بعض أهله فقال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيراً غير أني سقيت في هذه بعنقوتي ثويبة، وأشار إلى التقير التي بين الإبهام والتي يليها من الأصابع. وكان رسول الله ﷺ يرضعها وهو بكفة، وكانت خديجة رضي الله عنها تكرمها، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة كان يبعث إليها بصلة وكسوة، حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع مرجعه من خيبر، فقال: «مَا فَعَلَ أَبْنَاهُ مَسْرُوحٌ؟» فقيل: مات قبلها ولم يبق من قرابتها أحد. انظر صحيح البخاري (ج ١٢٧/٧) كتاب النكاح - باب ﴿وَأَمَهَاكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٨/١)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٩/١).

(٦) انظر: صحيح البخاري (ج ١٢٧/٧) كتاب النكاح - باب ﴿وَأَمَهَاكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾، والمستدرک (ج ٤٢٢/٣). وطبقات ابن سعد (ج ١٠٨/١)، وعيون الأثر (ج ٢٧/١)، وتاريخ الطبري (ج ١٦٩/٣)، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٣٧/١)، والروض الأنف (ج ١٨٦/١).

(٧) انظر: سيرة ابن هشام (ج ١٧٢/١، ١٧٨)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٠٢/١)، والسيرة الحلبية (ج ٨٧/١). وفقه السيرة / محمد الغزالي (ص: ٦٣).

وأقبلت المراضع من البادية يلتسن تربية أولاد الأشراف ، فاسترضع عبد المطلب لحفيده امرأة من قبيلة سَعْد بن بَكْر وهي حَلِيمة بنت أبي دُوَيْب^(١) ، وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة من نفس القبيلة .

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وخِدَامَة بنت الحارث وهي الشَّيْمَاء ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ أَرْضَعته حَلِيمة أَيْاماً .

وكان عمه حمزة ، رضي الله عنه ، مسترضعاً له عند قوم من بني سَعْد بن بكر ، فأرضعت أمه السعدية رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليلة ، فكان حمزة ، رضي الله عنه ، رضيع رسول الله ﷺ من جهتين ؛ من جهة ثوية ومن جهة السعدية^(٢) .

وكانت حليلة تحكي قصة رضاعها للنبي ﷺ فتقول : إنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء^(٣) لم تبق لنا شيئاً ، قالت : فخرجت على أتان لي قمرأء^(٤) ، معنا شارف^(٥) لنا ، والله ماتبض بقطرة^(٦) ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يُغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمتُ بالركب^(٧) حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجزاً^(٨) ، حتى قدمنا مكة تلتس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرَضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيم !! وما عسى أن تصنع أمه وجدّه ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيبي ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه ، قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجرى أقبل عليه تُذَياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ،

وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل^(٩) ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا ربياً وشبعاً ، فبئنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليلة ! لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا ، وركبت أتانى وحملتني عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى إن صواحي ليقلن لي : يا ابنة أبي دُوَيْب ! ويحك !! اُزْبِعي^(١٠) علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى ، والله إنها لهي هي ، فيقلن : والله إن لها لكشأناً . قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمي تُروج عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً كُبُناً^(١١) ، فنحلب ونشرب

(١) وكان رسول الله ﷺ يرب أمه حليلة ويكرمها ويبسط لها رداءه لتجلس عليه ، روي أن حليلة قدمت على رسول الله ﷺ مكة وقد تزوج خديجة ، فتشكت جذب البلاد وهلاك الماشية ، فكلم رسول الله ﷺ خديجة فيها ، فأعطتها أربعين شاةً وبعيراً . انظر : المستدرک (ج ١٦٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٢/١) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٢/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٩/١) ، والمستدرک (ج ٢٥٤/٣) .

(٣) سنة شهباء : أي ذات قحطٍ وجذبٍ ، والشهباء : الأرض البيضاء التي لا خضرة فيها لقلّة المطر ، من الشهبّة وهي البياض ، فسُميت سنة الجذب بها (النهاية : ج ٥١٢/٢) .

(٤) الأتان : الحمار الأثني خاصة ، والقمرأء : هي الشديدة البياض . انظر : (النهاية : ج ٢٧/١) ، ج ١٠٧/٤ .

(٥) الشارف : الناقة المسبية (النهاية : ج ٤٦٢/٢) .

(٦) ماتبض بقطرة : أي ما يقطر منها لبن (النهاية : ج ١٢٢/١) .

(٧) أي أطلت المسافة لتلهم عليها . انظر : (الوسيط : ج ٢٠٥/١) ، وفي الروض الأنف (ج ١٨٢/١) : أذمتُ بالركب ؛ تريد أنها حبستهم ، ويروي : حتى أذمتُ ، وأذم بالركب إذا أبطأ .

(٨) العجف : الهزال (الوسيط : ج ٥٩٢/٢) .

(٩) شاة حافل : أي كثيرة اللبن (النهاية : ج ٤٠٩/١) .

(١٠) اُزْبِعي : أي اُزْقِي واقتصري (النهاية : ج ١٨٧/٢) .

(١١) أي كثيرة اللبن ، جمع لبون . يُقال : ألبنّت الناقة إذا نزل لبنها في ضرعها ، واللَّبُون : ذات اللبن . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٤٥/١) ، ولسان العرب : (ج ٣٩٨٩/٥) .

وما يجلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم !! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضّ بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً كئيباً^(١) .

وفي رواية أن أمه أمينة قالت لحليمة : يا طيرسلي عن ابنك فإنه سيكون له شأن ، وأخبرتها ما رأته وما قيل لها فيه حين ولدته ، وقالت : قيل لي ثلاث ليال : استرضعي ابنك في بني سعد بن بكر في آل ذؤيب^(٢) .

وذكر في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ كان لا يقبل إلا على ثديها الواحد ، وكانت تعرض عليه الثدي الآخر فيأباه ، كأنه قد أشعر ، عليه السلام ، أن معه شريكاً في لبانها ، وكان مفطوراً على العدل ، محبوباً على المشاركة والفضل ﷺ^(٣) .

ويروى أنه لما قدمت حليلة مكة استقبلها عبد المطلب فقال : من أنت ؟ فقالت : امرأة من بني سعد ، فقال : ما اسمك ؟ فقالت : حليلة ، فتبسم عبد المطلب وقال : يخ يخ سعدٌ وحلمٌ خصلتان فيها خير الدهر وعز الأبد ، يا حليلة ! إن عندي غلاماً يتيماً وقد عرضته على نساء بني سعد فأبىن أن يقبلن وقلن : ما عند اليتيم من الخير ؛ إنما نلتس الكرامة من الآباء ، فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به ؟ فقالت : ألا تدرني حتى أشاور صاحبي ؟ قال : بلى ، فانصرفت إلى صاحبها فأخبرته ، فكان الله قذف في قلبه فرحاً وسروراً فقال لها : يا حليلة ! خذيه ، فرجعت إلى عبد المطلب فوجدته قاعداً ينتظرها ، فقالت : هلم الصبي ، فاستهل وجهه فرحاً ، فأخذها وأدخلها بيت أمنة فقالت لها : أهلاً وسهلاً وأدخلتها البيت الذي فيه محمد ﷺ ، فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن ، وتحت حريرة خضراء راقداً عليها على قفاه يغط ، تفوح منه رائحة المسك ، قالت حليلة : فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله ، فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً ، وفتح عينيه إلي فخرج منها نور حتى دخل عنان السماء وأنا أنظر ، فقبلته بين عينيه وحلته ، ما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره^(٤) .

فطام النبي ﷺ وحادثة شق الصدر :

ولم تزل حليلة تتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه ﷺ وفطمته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً^(٥) كأنه ابن أربع سنين . قالت حليلة : فقدنا به على أمه زائرین لها ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه ، وقلنا لها : لو تركت بي عندي حتى يغلظ فياني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردت معنا . وفي رواية : أن أمنة قالت لها : ارجعي بابني فياني أخاف عليه وباء مكة ، فوالله ليكون له شأن ، فرجعت به حليلة .

وهكذا عاد رسول الله ﷺ إلى بادية بني سعد ، حتى إذا كانت السنة الثالثة أو الرابعة من مولده وقع حادث شق صدره ﷺ^(٦) .

وقد روي هذا الحادث في السنن الصحاح من عدة طرق ، فروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني

(١) سيرة ابن هشام (ج ١ / ١٧٣) .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ١ / ١١٠) .

(٣) الروض الأنف (ج ١ / ١٨٧) .

(٤) السيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية (ج ١ / ٤٧) .

(٥) استجفر الصبي : إذا قوي على الأكل (النهاية : ج ١ / ٢٧٧) ، وفي السيرة الحلبية (ج ١ / ١٠٨) : غلام جفّر : أي شديد قوي .

(٦) انظر سيرة ابن هشام (ج ١ / ١٧٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١ / ١١٢) .

ظُئِرَهُ^(١) فقالوا : إن محمداً قد قُتِلَ ، فاستقبلوه وهو مُتَّعِجٌ اللون^(٢) ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المِخِيطِ^(٣) في صدره^(٤) .

وفي رواية ابن إسحاق أن رجلين أتياه فاستخرجا من قلبه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسل قلبه ويطنه بالثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنوه بهم ، فوزنهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزنوه بهم ، فوزنهم ، فقال : دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها^(٥) .

وفي رواية للبيهقي في الدلائل : أنه أتاه رهط ثلاثة فاستخرج أحدهم نُكْتَةً^(٦) سوداء من قلبه مملوءة دماً وقال : هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله ، ثم حشاه بشيء كان معه ، ثم رده مكانه ، ثم ختمه بخاتم من نور ووجد برد الخاتم في عروقه ومفاصله^(٧) .

ويروى أن حليلة قالت : فوالله إنه - بعد مقدمنا بأشهر (أي لما عادت به ﷺ من عند أمه) - مع أخيه لفي بهم^(٨) لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبييه : أدركا أخي القرشي قد أتاه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقا بطنه ، فهما يَسُوطَانِهِ^(٩) ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتجعاً وجهه ، قالت : فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بني ؟ قال : « جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا بي وشقا بطني ، فالتسا فيه شيئاً لأدري ما هو »^(١٠) ؟

وروى الإمام أحمد أنها استخرجا علقتين سوداوين من قلبه ، ثم غسل قلبه بماء ثلج ثم بماء بَرْد ، ثم ذرأ السكينة في قلبه ، ثم لأمه أحدهما وختم عليه بخاتم النبوة ، ثم انطلق ﷺ إلى أمه فأخبرها بالذي لقيه ، فأشفت عليه أن يكون ألبس به وأعادته بالله تعالى^(١١) .

وفي رواية أنه ختم قلبه بخاتم من نور ، فامتلاً قلبه نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاد قلبه مكانه فوجد برد ذلك الخاتم في قلبه دهرأ ، وأنهم كانوا ثلاثة أخذوه من بين الصبيان وأنهم ضموه إلى صدورهم وقبلوا رأسه وما بين عينيه ثم قالوا : يا حبيب الله ! لم ترع ، إنك لوتدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك ، ثم جاء أهل الحي تتقدمهم أمه حليلة وهي تهتف بأعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه ! فانكبوا عليه فقبلوا رأسه وما بين عينيه وقالوا : حينذا أنت من ضعيف ، ثم قالت ظئره : يا وحيداه ! يا يتيماه ! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك ، ثم اتفقوا على أن يذهبوا به إلى الكاهن ، فقص عليه أمره ، فلما سمع قوله وثب إليه وضقه إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام ، واقتلوني معه ، فواللوات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم ، وليسهن عقولكم وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط ، فانزعته حليلة من حجر الكاهن وقالت : لو علمت أن هذا يكون من قولك ما أنيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك فإننا غير قاتلي هذا الغلام^(١٢) .

(١) الظُّئِرُ : الْمُرْضَعَةُ غَيْرَ وُلْدِهَا (النهاية : ج ١٥٤/٣) .

(٢) اِتَّبَعَ لَوْنَهُ وَامْتَعَجَ : إِذَا تَغَيَّرَ مِنْ خَوْفٍ أَوْ أَلَمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ (النهاية : ج ١٠٧/٥) .

(٣) الْمِخِيطُ : الْإِبْرَةُ (النهاية : ج ٩٢/٢) .

(٤) صحيح مسلم (ج ١٤٧/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ ح ٢٦١ .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/١) .

(٦) نُكْتَةٌ : أَي أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنَّقْطَةِ (النهاية : ج ١١٤/٥) .

(٧) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٠/١) .

(٨) الْبَهْمُ : جَمْعُ بَهْمَةٍ ؛ وَهِيَ وَلَدُ الضَّانِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى (النهاية : ج ١٦٨/١) .

(٩) يُقَالُ سَطَّ اللَّبَنُ أَوْ اللَّدْمُ ، أَوْ غَيْرَهَا ، أَسْوَطُهُ : إِذَا ضَرَبَتْ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . وَالْمِسْطُوطُ : عَوْذٌ يُضْرَبُ بِهِ (الرُّوسُ الْأَنْفُ : ج ١٨٨/١) .

(١٠) سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/١) .

(١١) انظر مسند الإمام أحمد (ج ١٨٤/٤) .

(١٢) تاريخ الطبري (ج ١٦٠/٢) وروى الخبر ابن عساكر في تاريخ دمشق (ق ٣٧٧/١) وقال : هذا حديث غريب وفيه من يجهل ، وقد روي عن شداد من وجه آخر فيه انقطاع .

وقد تكررت حادثة شق الصدر هذه مرات أخرى : مرة عند مجيء الوحي ، ومرة عند المعراج ، وقيل مرة ثالثة عند بلوغه عشر سنين (١) .

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال : نعم ، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجد لها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إليّ يمينا حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لأجد لأحدهما مساً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه ، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر (٢) ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهية العلقمة ، ثم تبذرها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال : اغد وأسلم ، فرجعت بها أغدو رقّة على الصغير ورحمة للكبير » (٣) .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى الحصانة التي أضفاها الله تعالى على نبيه ﷺ فجعله منذ طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنساني ومفاتن الحياة الأرضية .

عودة النبي ﷺ إلى أمه أمنة :

وخشيت حليمة على النبي ﷺ بعد حادث شق الصدر فردته إلى أمه ، وكان قد بلغ من العمر خمس سنين ، وقيل : أربع سنين . وفي ذلك تقول حليمة : قال لي أبوه : يا حليمة ! لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، قالت : فاحتلناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ قالت : فقلت : نعم ، قد بلغ الله بابني وقضيت الذي عليّ وتخوفت الأحداث عليه ، فأذيتك عليه كما تحبين ، قالت : ما هذا شأنك فأصديني خبرك ، قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها ، قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت : فقلت : نعم ، قالت : كلا والله مال للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبني لشأناً ... دعيه عنك وانظقي راشدة .

وقيل إن ما هاج أمه السعدية على رده ﷺ إلى أمه أن نفرأ من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوا عنه ، وقلوبه ثم قالوا لها : لناخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره ، فلم تكذب حليمة تنفلت به منهم .

وقيل إنها لما عادت به أول مرة كانت لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً ، ثم رأت غمامة تظله إذا وقف ووقفت ، وإذا سار سارت ، فأفرعها ذلك أيضاً من أمره فقدمت به إلى أمه (٤) .

قال ابن إسحاق : وزعم الناس ، فيما يتحدثون ، والله أعلم ، أن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس وهي مقبلية به نحو أهله ، فالتسته فلم تجده ، فأنت عبد المطلب فقالت له : إنني قد قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلني ، فوالله ما أدري أين هو ، فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، فيزعمون أنه وجده ورقة بن نوفل بن أسد ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعوده ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه أمنة (٥) .

(١) انظر السيرة الحلبية (ج ١٠١/١) .

(٢) أي من غير إتمام (السيرة الحلبية : ج ١٠٢/١) .

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ١٣٩/٥) .

(٤) انظر سيرة ابن هشام (ج ١٧٦/١ ، ١٧٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٢/١ ، ١٦٦) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ١٧٨/١) .

حواضن النبي ﷺ :

يذكر أن أخته الشفاء بنت الحارث كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمها وتورّكه ، وكانت أم أيمن بركة الحبشية تحضنه مع أمه أمنة ثم بعد أن ماتت ، حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها ، ثم أنكحها زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد رضي الله عنها ، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر^(١) . ويروى أن رسول الله ﷺ كان يقول لها : « يأمه » ، وكان إذا نظر إليها قال : « هذه بقية أهل بيتي »^(٢) .

وفاة أم النبي ﷺ :

بقي رسول الله ﷺ مع أمه في كلاءة الله وحفظه ينبتة الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته ، حتى إذا بلغ ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله من بني النجار بالمدينة تزورهم به ، ومعها خادماتها أم أيمن ، فنزلت به في دار التابغة حيث توفي والده عبد الله ودفن ، فمكثت عندهم شهراً ، فكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً في مقامه ذلك ، ويروى أنه نظر ﷺ إلى تلك الدار وهو بالمدينة بعد الهجرة فقال : « ههنا نزلت بي أمي ، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار ، وكان قوم من اليهود يَحْتَلِفُونَ يَنْظُرُونَ إليَّ » .

ثم قفلت به أمه راجعة ، فماتت في الطريق بالأبواء بين مكة والمدينة ، ودُفنت هناك على المشهور ، ولها من العمر عشرون سنة تقريباً^(٣) .

وجهور المسلمين على أن أمه وأباه ﷺ ناجيان ، لأنها من أهل الفترة الذين انقطعوا عن خير الأنبياء السابقين ، فهم ليسوا مكلفين ولا معذبين لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾^(٤) ، أما الأحاديث الواردة بتعذيب من غير أو بدل أو عبد الأصنام من أهل الفترة فهي أحاديث آحاد ، وقد يكون تعذيب من صحّ تعذيبه منهم لأمر خاص بهم^(٥) .

كفالة عبد المطلب للنبي ﷺ :

وعادت أم أيمن بالنبي ﷺ إلى مكة فضمه جدّه عبد المطلب إليه ، ورقّ عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، وكان يقربه منه ويدينه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام ، وكان لا يأكل طعاماً إلا قال : عليّ بابي ، فيؤتى به إليه .

قال ابن إسحاق : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفّر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه عليه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسرّه ما يراه يصنع^(٦) .

وفي رواية : أن عبد المطلب كان يقول : دعوا ابني إنه ليؤنس^(٧) ملكاً . وقال قوم من بني مدليج لعبد المطلب : احتفظ به فإننا لم نرقدماً أشبه بالقدم التي في اللقام منه ، فقال عبد المطلب لأبي طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ، فكان أبو طالب يحتفظ به . وقال

(١) انظر سيرة ابن هشام (ج ١٧٢/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٠/١) ، وصحيح مسلم (ج ١٣٩٢/٣) كتاب الجهاد والسير - باب ردّ المهاجرين إلى الأنصار منائحهم ... ح ٧٠ .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٨) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٩/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٦/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٦٦/١) .

(٤) الإسراء : ١٥ .

(٥) انظر : السيرة الحلبية (ج ١٠٨/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٦٥/١-١٧٢ ، ١٨٤) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٧/١) .

(٧) يؤنس : يُجَسُّ أو يَعْلَمُ (لسان العرب : ج ١٥٠/١) .

عبد المطلب لأم أمين ، وكانت تحضن رسول الله ﷺ : يا بركة ! لا تغفلي عن ابني ، فأني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة (١) .

ويروى أنه بينما يوماً عبد المطلب جالس في الحجر ، وعنده أسقف نجران ، وكان صديقاً له ، وهو يحادثه ويقول : إننا نجد صفة نبي بقي من ولد إسماعيل ، هذا البلد مولده ، من صفته كذا وكذا ، فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه فقال : هو هذا ، ما هذا منك ؟ قال : ابني ، قال الأسقف : ما نجد أباه حياً ، قال عبد المطلب : هو ابن ابني ، وقد مات أبوه وأمه حبل به ، قال : صدقت ، قال عبد المطلب لبنيه : تحفظوا بابن أخيكم ، ألا تسمعون ما يقال فيه (٢) .

وعن كندير بن سعيد عن أبيه قال : حججت في الجاهلية فإذا أنا برجل يطوف بالبیت يرتجز ويقول :

ربّ ردة إلي راكبي محمداً ردة إلي واصطنع عندي يوماً

فقلت : من هنا ؟ فقالوا : عبد المطلب بن هاشم بعث بابن ابنه محمد في طلب إبل له ، ولم يبعثه في حاجة إلا أنح فيهما ، وقد أبطأ عليه ، فلم يلبث أن جاء محمد والإبل فاعتقه وقال : يا بني ! لقد جزعت عليك جزءاً لم أجزعه على شيء قط ، والله لأبعثك في حاجة أبداً ، ولا تفارقني بعد هذا أبداً (٣) .

ولما بلغ رسول الله ﷺ ثمانين سنة توفي جده عبد المطلب ودُفن بالحجون (٤) كما سبق أن ذكرنا .

كفالة أبي طالب للنبي ﷺ :

وكان عبد المطلب حين حضرته الوفاة أوصى أبا طالب بكفالة النبي ﷺ وحفظه وحياطته ، وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائد .

فنهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكل وجهه ، وضمه إلى ولده ، وقدمه عليهم . روى ابن سعد أن أبا طالب كان يحب رسول الله ﷺ حباً شديداً لا يحب ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصب (٥) به أبو طالب صباة لم يصب مثلها بشيء قط ، وكان يخصه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ، فكان إذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يحضرايني ، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم ؛ فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : إنك لمبارك ، وكان الصبيان يصحون رُصصاً (٦) شعثاً (٧) ، ويصبح رسول الله ﷺ دهبيناً كحياً (٨) .

قالت أم أمين : ما رأيت النبي ﷺ شكاً صغيراً ولا كبيراً جوعاً ولا عطشاً ، كانوا يغدو فيشرب من زمزم فأعرض عليه الغذاء فيقول : لا أريده أنا شعبان (٩) .

(١) طبقات ابن سعد (ج ١١٧/١) .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٠٧/١) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٠٣/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٧/١) .

(٥) صبّ : رقّ واشتاق (الوسيط : ج ٥٠٧/١) .

(٦) الرّمص : هو البياض الذي تقطعه العين وتجتبع في زوايا الأجنان (النهاية : ج ٢٦٣/٢) .

(٧) شعث : جمع أشعث ، يقال : شعيت الشعر : تغيّر وتلبّد (الوسيط : ج ٤٨٦/١) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٣/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٩/١) .

(٩) طبقات ابن سعد (ج ١٦٧/١) .

وكان يوضع لأبي طالب وسادة يجلس عليها ، فيأتي النبي ﷺ فيجلس عليها فيقول أبو طالب : إن ابن أخي ليحسّ بنعم أي بشرف عظيم^(١) .

روي عن جُلهمة بن عُرْفُطَةَ قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ! أفضح الوادي ، وأجذب العيال ، فهلمّ فاستسق لنا ، فخرج أبو طالب ومعه غلام - هو النبي ﷺ - كأذ شمس دُجِنَ تحلّت عنه سحابة قَتَاء^(٢) ، وحوله أغيلة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بإصبعه^(٣) ، وما في السماء قَرَعَةٌ^(٤) ، فأقبل السحاب من ههنا ومن ههنا ، وأغدق وأغدوق ، وانفجر له الوادي ، وأخصب النادي والبادي^(٥) . وفي هذا يقول أبو طالب :

وأبيضَ يَسْتَسْقَى الغمام بـوجهه
ثيالَ اليتامى عِصْمَةً للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل^(٦)

وهكذا نشأ رسول الله ﷺ في بيت عزّ وشرف ، عزيزاً مكرماً ، معظماً ، محفوفاً بعناية الله سبحانه وتعالى .

وكانت فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب وأم علي بن أبي طالب تحوط رسول الله ﷺ وتكرمه ، فكان ﷺ يقول بعد : « إنها كانت أحسن خلق الله إليّ صنيعاً بعد أبي طالب »^(٧) .

روي عن أنس بن مالك قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم عليّ ، رضي الله عنها ، دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال : « رَحِمَكَ اللهُ يَا أُمِّي كُنْتُ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي ، تَجُوعِينَ وَتُشْبِعِينِي ، وَتَعْرَيْنَ وَتَكْسِينِي ، وَتَمْنَعِينَ نَفْسَكَ طَيِّباً وَتَطْعِمِينِي ، تُرِيدِينَ بِنَدْوَةِ اللهِ وَالنَّارَ الْآخِرَةَ » . ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبها رسول الله ﷺ بيده ، ثم خلع رسول الله ﷺ قيضه فألبسها إياه ، وكفنها ببرد فوقه ، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ، وأبا أيوب الأنصاري ، وعمر بن الخطاب ، وغلاماً أسود ، يحفرون حفراً وقبرها ، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه فقال : « اللهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، اغْفِرْ لَأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ ، وَلَقِّنْهَا حُجَّتَهَا ، وَوَسِّعْ عَلَيْهَا مَدْخَلَهَا بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِي ، فَإِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، وكبّرَ عليها أربعاً وأدْخَلُوهَا اللَّحْدَ هُوَ وَالْعَبَّاسُ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ^(٨) .

(١) طبقات ابن سعد (ج ١٢٠/١) .

(٢) أي كأنه شمس ذات ظلمة أو ذات يوم مظلم . وسحابة قَتَاء : وهذا من بديع التشبيه - كما قال الزرقاني - فإن شمس يوم

الغيم حين ينجلي سحابها الرقيق تكون مضيئة مشرقة مقبولة للناس ليست محرقة . (شرح الزرقاني على المواهب : ج ١٩٠/١) .

(٣) أي أشار به إلى السماء كالتضرع الملتجئ (المصدر السابق) .

(٤) قَرَعَةٌ : أي قِطْعَةٌ مِنَ الْغَيْثِ ، وَجَمْعُهَا قَرَعٌ (النهاية : ج ٥٧/٤) .

(٥) النادي : أهل الحضر ، والبادي : أهل البادية . (شرح الزرقاني على المواهب : ج ١٩٠/١) .

(٦) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للسقطلائي (ج ١٨٩/١) . والثَمَالُ : الملجأ والغياث . وقيل : إن أبا طالب إنما مدح النبي ﷺ بقوله :

« يستسقى الغمام بوجهه » لما شاهده منه قبل ذلك ، فقد روي أن قريشاً تتابعت عليهم سنون جذب في حياة عبد المطلب فارتقى هو ومن حضره من قريش أبا قُبَيْس ، فقام عبد المطلب واعتضد النبي ﷺ فرمعه على عاتقه وهو يومئذ غلام ، ثم دعا فسقوا في الحال . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٨٩/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٥/٢) .

(٧) انظر : مجمع الزوائد (ج ٢٥٧/٩) .

(٨) رواه الميثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٥٦/٩) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

سفر النبي ﷺ إلى الشام :

ولما بلغ رسول الله ﷺ تسع سنين ، وقيل اثنتي عشرة سنة ، خرج به أبو طالب تاجراً إلى الشام ، ويقال إن أبا طالب أراد المسير إلى الشام فقال له النبي ﷺ : « أَيُّ عَمٍّ إِلَى مَنْ تُخَلِّفُنِي هَهُنَا ؟ فَمَا لِي أُمَّ تُكْفَلُنِي ، وَلَا أَحَدٌ يُؤْوِيَنِي » ، فرق له وقال : والله لأخرجنَّ به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً ، فأردفه خلفه حتى وصل إلى بصرى من أرض الشام ، وكان بها راهب يقال له بحيرى انتهى إليه علم النصرانية ، وقيل كان من أحبار يهود تيماء ، فلما نزل الركب قريباً من صومعته خرج إليهم ، وكانوا كثيراً ما يرون به فلا يخرج إليهم قبل ذلك ، وذلك فيما يزعم أنه رأى رسول الله ﷺ حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، فأرسل بحيرى إلى القوم ودعاهم إلى طعامه وقال : إني أحبُّ أن تحضروا كلكم ، فاجتمعوا إليه وتخلَّف رسول الله ﷺ من بين القوم - لحداثة سنه - فلما نظر بحيرى في القوم ولم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده ، قال : يامعشر قريش ! لا يتخلفنَّ أحد منكم عن طعامي ، فقالوا له : يا بحيرى ! ما تخلَّف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سناً ، فتخلَّف في رحالهم ، فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ، قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللآلئ والعزرى إن كان للؤم بنا أن يتخلَّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، وقد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرَّقوا قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام ! أسألك بحق اللآلئ والعزرى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بها ، فزعم أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَسْأَلُنِي بِاللَّاتِ وَالْعَزْرَى شَيْئاً فَوَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئاً قَطُّ بَغْضَهِمَا » ، فقال بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال له : « سَلْنِي عَمَّا بَدَأَ لَكَ » ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله : من نومه ، وهيئته ، وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده . فأخذ بحيرى بيد رسول الله ﷺ وقال : هذا سيّد العالمين ، هذا رسول ربِّ العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبيّ ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة . ثم التفت بحيرى إلى عمّه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : ولم ؟ قال : لأن وجهه وجه نبيّ وعينه عين نبيّ ، قال : وما النبيّ ؟ قال : الذي يوحى إليه من السماء فينبئ به أهل الأرض ، قال : الله أجلُّ ممّا تقول ، والتفت إلى النبيّ ﷺ فقال : ألا تسمع ما يقول ؟ قال : « أَيُّ عَمٍّ ! لَا تَنْكِرُ لِلَّهِ قُدْرَةَ » . ثم أخبره أنه ابن أخيه ، فقال بحيرى : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت ؛ فارجع بابن أخيك إلى بلدته ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه هنا ليبغنه شراً - وفي رواية : ليقتلنه - فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرِع به إلى بلاده .

فخرج به عمّه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام (١) .

قال ابن إسحاق : وزعم أن زبيراً وتمّاماً ودريساً - وهم نفر من أهل الكتاب - قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآه بحيرى ، في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمّه أبي طالب ، فأرادوه فردّهم عنه بحيرى ، وذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدّقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه (٢) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١ / ١٩٤) ، وتاريخ الطبري (ج ٢ / ٢٧٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ١ / ١٥٢) ، وسنن الترمذي (ج ٥ / ٥٩٠) كتاب المناقب -

باب ماجاء في نبوة النبي ﷺ ح ٣٦٢٠ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١ / ٨٩) ، والسيرة الحلبية (ج ١ / ١١٧) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١ / ١٩٧) .

رعي النبي ﷺ الغنم :

عاد النبي ﷺ من هذه الرحلة لبيداً سعيه في طلب الرزق ، فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال : « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَرَعَى الْغَنَمَ » ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نَعَمْ ، كُنْتُ أُرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيضَ لِأَهْلِ مَكَّةَ »^(١) .

وفي رواية عند الإمام أحمد : « بَعَثَ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ يَرْعَى غَنَمًا عَلَى أَهْلِهِ ، وَبُعِثْتُ أَنَا ، وَأَنَا أُرْعَى غَنَمًا لِأَهْلِي بِجِيَادَ »^(٢) . وكان النبي ﷺ قد رعاها في بني سعد أيضاً .

كلاهما الله عز وجل للنبي ﷺ وسيرته قبل البعثة :

وكان الله ، عز وجل ، يحفظ نبيه ﷺ ويكلؤه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته ، فكان لا يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب^(٣) ، ولا يحضر للأوثان عيداً ، حتى إنه ﷺ بلغ أن كان رجلاً ذا شأن عظيم ، ومقام كريم ، أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حملاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق السدئية ، تنزهاً وتكرماً ، حتى سماه قومه الصادق الأمين قبل أن ينزل عليه وحى ، وكانوا يُقرّون له بذلك ، ويعترفون له في مواقفهم الخاصة والعامة حتى كانوا لا ينحرون جزوراً إلا التسوية فيدعو لهم فيها^(٤) .

روي أن رسول الله ﷺ قال : « لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي غُلْمَانَ قَرِيشٍ نُنْقَلُ حِجَارَةً لِنَعِضٍ مَا يَلْعَبُ بِهِ الْغُلْمَانُ ، كُنَّا قَدْ تَعَرَّى وَأَخَذَ إِزَارَهُ فَجَعَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ ، فَإِنِّي لَأَقْبِلُ مَعَهُمْ كَذَلِكَ وَأُدْبِرُ إِذْ لَكُمْ مَأْرَأَةٌ لَكُمَّةٌ وَجِيعَةٌ ، ثُمَّ قَالَ : شَدَّ عَلَيكَ إِزَارَكَ ، قَالَ : فَأَخَذْتَهُ وَشَدَدْتُهُ عَلَيَّ ، ثُمَّ جَعَلْتُ أُحْمِلُ الْحِجَارَةَ عَلَى رَقَبَتِي ، وَإِزَارِي عَلَيَّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي »^(٥) .

وروي عن أمّ آيين قالت : كان ببؤانة صنم تحضره قريش تعظمه تنسك له النساء^(٦) ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل ، وذلك يوماً في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله ﷺ ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقُلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقُلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً ؟ قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ماشاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فرعاً ، فقالت له عماته : مادهاك ؟ قال : « إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي لَمَمٌ » ، فقُلن : ما كان الله لبيبتلينك بالشیطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟ قال : « إِنِّي كُلُّمَا دَنَوْتُ مِنْ صَنَمٍ مِنْهَا تَمَثَّلَ لِي رَجُلٌ أَبْيَضٌ طَوِيلٌ يَصِيحُ بِي وَرَاءَكَ يَا مُحَمَّدٌ لَا تَمَسَّهُ ! » ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ^(٧) .

وروي الحاكم بسنده عن زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب^(٨) .

وعن النبي ﷺ أنه قال : « فَلَمَّا أَنْ نَشَأْتُ بُغِضْتُ إِلَيَّ وَأَوْثَانُ قَرِيشٍ وَبُغِضَ إِلَيَّ الشُّعْرُ »^(٩) ، وسئل النبي ﷺ فقيل له : هل

(١) صحيح البخاري (ج ١١٥/٣) كتاب السلم - باب في الإجارة .

(٢) مسند الإمام أحمد (ج ٩٦/٣) . وجياد : هي لعة في أحياء ، وهو موضع بككة يلي الصفا (معجم البلدان : ج ١٢٧/١) .

(٣) النصب : صنم أو حجر ، كانت الجاهلية تنصبه ، تدنخ عنده (لسان العرب : ج ٤٤٣٦/٦) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٧/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٧/٢) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ١٩٧/١) .

(٦) تنسك له النساء : أي تدنخ له الذبائح ، والتسيكة : الذبيحة ، والجمع : نسك ونسائك (لسان العرب : ج ٤٤١٢/٦) .

(٧) طبقات ابن سعد (ج ١٥٨/١) .

(٨) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢١٦/٣) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٩) تاريخ الطبري (ج ١٦١/٢) .

عبدت وثناً قط؟ قال : « لا » ، قالوا : هل شربت خمرًا قط؟ قال : « لا » ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كُفْرٌ ، وما كنت أدري ما الكتاب وما الإيمان » (١) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « سمعتُ زَيْدَ بنَ عَمْرٍو بنِ نَعْمَانَ يُعِيبُ أَكْلَ مَا ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَا ذُفَّتْ شَيْئاً ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، بِمَا أَكْرَمَنِي بِهِ مِنْ رِسَالَتِهِ » (٢) .

وهم النبي ﷺ مرة أن يستمتع ببعض متاع الدنيا كما يستمتع غيره ، فتدخلت العناية الربانية وحالت بينه وبينها ، فعن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممتُ بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر ، كإلهام يعصمني الله تعالى منها ، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى : أبصر لي غنمي حتى أشر هذه الليلة بمكة كما تشرم الفتيان ، قال : نعم ، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دُفوف وزمر ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان تزوج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة ، فلهوت بذلك الغنا والصوت حتى غلبتني عيني فميت فما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت فسمعت مثل ذلك ، فقييل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس ، ثم رجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما فعلت شيئاً . قال رسول الله ﷺ : فوالله ما هممت بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته » (٣) .

شهود النبي ﷺ حرب الفجار :

ولما بلغ رسول الله ﷺ الخامسة عشرة من عمره ، وقيل العشرين كانت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان ، وسميت بحرب الفجار لانتهاكهم الحرمات بينهم ، ولأنها وقعت في الشهر الحرام . وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية ، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس . وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم ، وكان ينبل على عمومته - أي : يجهز لهم النبل للرمي أو يرده عنهم نبل عدوهم (٤) .

روي أن رسول الله ﷺ ذكر حرب الفجار فقال : « قد حصرته مع عمومي ، وزميت فيه بأسهم ، وما أحب أني لم أكن ففعلت » (٥) .

شهود النبي ﷺ حلف الفضول :

وكان هذا الحلف في ذي القعدة في شهر حرام ، بعد حرب الفجار بشهر ، وقد تداعت إليه قبائل من قريش : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي لشرفه وسنه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته .

وسبب هذا الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعته ، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدا عليه الزبيدي الأحلاف عبد السدار ومخزوماً وجمح وسهياً وعدي بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل وزبروه (٦) ، فلما رأى الزبيدي الشرع على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته ، فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، وتعاهدوا وتحالفوا

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (ج ٨٧/٢) .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٣٩/١) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٤٥/٤) وقال : هنا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٨/١ ، ٢٠١) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٥٧/٨) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١٢٨/١) .

(٦) زبير فلاناً عن الأمر : منعة ونهاة . يقال : زبر السائل : أتهرة وزجره (الوسيط : ج ٢٨٩/١) .

بالله ليكون يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ، فسَمَت قريش ذلك الحلف : حلف الفضول وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه (١) .

وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : « لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ » (٢) .

اشتغال النبي ﷺ بالتجارة :

عمل النبي ﷺ بالتجارة ، وكان شارك السائب بن أبي السائب قبل البعثة ، وهو من المؤلفلة قلوبهم ، أعطاه ﷺ يوم الجعرانة من غنائم حنين وقد قال فيه النبي ﷺ : « نِعْمَ الشَّرِيكَ السَّائِبُ لَا يُشَارِي (٣) وَلَا يُبَارِي (٤) » ، كما كان السائب يقول مفتخراً بشركته للنبي ﷺ بعد إسلامه : بأبي أنت وأمي كنت شريكي ، فنعيم الشريك كنت لا تداري ولا تباري (٥) .

وفي الخامسة والعشرين من عمره خرج ﷺ تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها (٦) .

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم (٧) إيّاه بشيء يجعله لهم ، وكانت قريش قومًا تجارًا ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها ؛ من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، فقبله رسول الله ﷺ منها .

ويقال إن أبا طالب قال للنبي ﷺ : أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتدّ الزمان علينا ، وهذه غير قومك ، وقد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجلاً من قومك في غيراتها (٨) ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك لما يبلغها عنك من طهارتك ، وفضلتك على غيرك . فبلغ خديجة الخبر فأرسلت إليه في ذلك ، وقالت له : أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك ، فقال أبو طالب : هذا رزق قد ساقه الله إليك .

فخرج رسول الله ﷺ في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة ، وجعل عومته يوصون به أهل العير ، حتى قدما بصرى من الشام ، فنزلا في ظل شجرة ، قريباً من صومعة راهب من الرهبان ، يقال له نسطور ، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة : هنا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ، ثم قال لميسرة : أفي عينيه حُمْرة ؟ قال : نعم لا تفارق ، فقال : هو نبي ، وهو آخر الأنبياء . ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها فوقع بينه وبين رجل تلاح (٩) ، فقال له : احلف باللات والعزى ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا حَلَفْتُ بِهَا قَطُّ ، وَإِنِّي لَأَمْرٌ فَأَعْرِضْ عَنْهَا » ، فقال الرجل : القول قولك ، ثم قال لميسرة : هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم ، ثم اشترى رسول الله ﷺ ما أراد أن يشتري ، وأقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرَة (١٠) واشتدّ الحرّ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٤/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/١) ، والروض الأنف (ج ١٥٦/١) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١٤٥/١) .

(٣) المُشَارَةُ : المُلَاجَةُ ، وقد شَرِي واستشَرِي : إذا لَجَّ في الأمر ، وقيل : لا يُشَارِي مِنَ الشَّرِّ ؛ أي لا يُشَارِرُهُ ، والأوَّلُ الوَجْهُ (النهاية : ج ٤٦٨/٢) .

(٤) الرِّاءُ : الجِدَالُ ، والتَّيَارِي والمُتَمَارَةُ : المُجَادَلَةُ على مذهب الشُّكِّ والرِّيبَةِ (النهاية : ج ٢٢٢/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٠/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٢٥/٣) .

(٦) طبقات ابن سعد (ج ١٢٩/١) .

(٧) المُضَارِبَةُ : أن تُعْطِيَ مَالاً لِغَيْرِكَ يَتَّجِرُ فِيهِ فَيَكُونُ لَهُ سَهْمٌ مَعْلُومٌ مِنَ الرِّيحِ ، وهي مُفَاعَلَةٌ مِنَ الضَّرْبِ في الأَرْضِ والسَّيْرِ فِيهَا لِلتَّجَارَةِ (النهاية : ج ٧٩/٣) .

(٨) العِيرَاتُ : جَمْعُ عَيْرٍ ، وهي الإِبِلُ بِأَحْمَالِهَا . وقيل : هي قَافِلَةُ الحَمِيرِ فَكَثُرَتْ حَتَّى سُمِّيَتْ بِهَا كُلُّ قَافِلَةٍ . وقيل : هي الإِبِلُ التي تَحْمِلُ الطَّعَامَ وَغَيْرَهُ مِنَ التَّجَارَاتِ ، ولا تُسَمَّى عَيْرًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ . انظر : (النهاية : ج ٣٢٩/٣) ، (شرح الزرقاني على المواهب : ج ٣٩٢/١) .

(٩) المُتَلَاوِمَةُ والمُبَاغِضَةُ ، ثم كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى جُعِلَتْ كُلُّ مُنَافِقَةٍ وَمُدَافِقَةٍ مُلَاحِقَةً (لسان العرب : ج ٤٠١٥/٥) .

(١٠) الهَاجِرَةُ : نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ اسْتِدْبَادِ الحَرِّ (لسان العرب : ج ٤٦١٩/٦) .

يرى ملكين يُظِلَّان رسول الله ﷺ من الشمس ، وهو يسير على بعيره ، فوعى ذلك كله ميسرة . وكان الله قد ألقى عليه المحبة من ميسرة ، فكان كأنه عبد له ، فلما كانوا بمَرِّ الظُّهْران قال ميسرة : يا محمد ! انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ؛ فإنها تعرف لك ذلك ، فتقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ، وخديجة في عليّة^(١) لها ، فرأت رسول الله ﷺ وهو على بعيره ومَلَكان يُظِلَّانَه ، فأرته نساءها ، فعجبن لذلك ، ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبّرها بما ربحوا في وجههم فسرت بذلك ، فلما دخل ميسرة عليها أخبرته بما رأت ، فقال : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام ، وأخبرها بما قال الراهب نستور وما قال الآخر الذي خالفه في البيع . ثم باعت خديجة ما جاء به من تجارة فربحت ضعف ما كانت تبيع أو قريباً ، وأضعفت له ضعف ما سمت له^(٢) .

وفي رواية عن الزهري أن النبي ﷺ لما استوى وبلغ أشده ، وليس له كثير مال . استأجرت خديجة بنت خويلد إلى سوق حَباشة ، وهو سوق بتهامة ، واستأجرت معه رجلاً من قريش ، فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها : « مارأيت من صاحبة أجيّد خيراً من خديجة ، ما كُنّا نُرْجِعُ أنا وصاحبي إلا وَجَدْنَا عندها ثُخْفَةً^(٣) من طعام تخبّؤهُ لنا »^(٤) .

وفي رواية : أن خديجة استأجرت رسول الله ﷺ سفرتين إلى جَرَش كل سفرة بقلوص^(٥) ، وجرش بناحية الشام^(٦) .

زواج النَّبِيِّ ﷺ من السيدة خديجة :

كانت خديجة ، رضي الله عنها ، تسمى سيّدة نساء قريش والظاهرة ، وذلك لشدة عفافها ، وكانت برة نقيّة ذات عقل واسع ، وحسب ومال .

ويذكر أنه لما عاد النبي ﷺ إليها بأرباح مضاعفة ، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه من شمائل كريمة وخصائص حميدة ، أعجبت خديجة ، رضي الله عنها ، بعظيم أمانته وحسن أخلاقه وصدق حديثه ، ووجدت ضالتها المنشودة فيه ، فقد عرفت أنه رجل لا تستهويه حاجة ، وأنه لا يتطلع إلى مال ولا إلى جمال ، فحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، فذهبت إلى النبي ﷺ وعرضت عليه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك . وقيل إن السفير بينهما غلامها ، وقيل مولاة مولدة لها .

ويذكر أيضاً من الأسباب التي حملت خديجة ، رضي الله عنها ، على أن تعرض نفسها على رسول الله ﷺ مع ما أراد الله تعالى بها من الخير ما روي أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه في المسجد ، فاتجعلن يوماً فيه فجاءهن يهودي وقال : يا معشر نساء قريش ! إنه يوشك فيمكن نبي قرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل ، فحصبته النساء بالخصباء وقبحنه وأغلظن له ، وأغضت^(٧) خديجة على قوله ، ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ، ووقع ذلك في نفسها ، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات ، وما رآته هي قالت : إن كان ما قال اليهودي حقاً فإذا ذلك - أي النبي - إلا هذا^(٨) .

ولترك نفيسة بنت منية تروي لنا قصة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها . قالت نفيسة : كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة ، جَلْدَة ، شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتني دسيساً^(٩) إلى محمد ﷺ

(١) المَلِيَّة : الفُرْقَة في الطَّايِبِ الثَّانِي مِنَ النَّارِ وما فَوْقَه ، وَجَمَّعُهَا : غَلَايَ (الوسيط : ج ٦٣١/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٣/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٩/١ ، ١٣٠) .

(٣) الثُّخْفَةُ : الطَّرْفَةُ مِنَ الْفَاكِهِةِ وغيرها (لسان العرب : ج ٤٢١/١) .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٠/١) .

(٥) الْقُلُوصُ مِنَ الْإِبِلِ : الْفَتِيَّةُ الْمُجْتَمَعَةُ الْخُلُقِ ، وذلك من حين تَرَكَبَ إلى التاسعة من عُمرها ثم هي ناقة (الوسيط : ج ٧٦١/٢) .

(٦) السنن الكبرى للبيهقي (ج ١١٨/٦) .

(٧) أَغْضَى عَلَى الشَّيْءِ : سَكَتَ وَصَبَرَ (الوسيط : ج ٦٦١/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٤-٢٠٣/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥/٨) ، والسيرة الحلبية (ج ١٣٩/١) .

(٩) الدَّسِيسُ : مَنْ يُرْسَلُ سِرّاً لِيَأْتِيَ بِالْأَخْبَارِ (الوسيط : ج ٢٨٢/١) .

بعد أن رجع في غيرها من الشام ، فقلت : يا محمد ! ما يمنك أن تزوج ؟ فقال : « ما يبدي ما أتزوج به » ، قلت : فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : « فَمَنْ هي ؟ » قلت : خديجة ، قال : « وكيف لي بذلك ؟ » ، قالت : قلت : عليّ ، قال : « فأنا أفعل » . قالت نفيسة : فذهبت فأخبرت خديجة ، فأرسلت إليه : أن ائت لساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر - لأن أباهما مات قبل حرب الفجار (١) - .

ثم إن رسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه ، فأقروا له ذلك ، ورضوها زوجة له ﷺ ، فخرج معه عمه أبو طالب وعمه حمزة حتى دخلوا على عمرو بن أسد فخطبوا إليه ابنة أخيه ، وحضر القعد رؤساء مضر ، فقام أبو طالب فخطب في حفل الزواج فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضئ (٢) معداً ، وجعلنا حَضَنَةَ بيته ، وسؤاس حَرَمِهِ ، وجعل لنا بيتاً بمحجوجاً وحَرَمًا آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يُوزَن برجل إلا رَجَحَ به شرفاً وتَبَلَّأً ، وفضلاً وعقلاً ، فإن كان في المال قُلٌّ ؛ فإن المال ظلّ زائل ، وأمر حائل ، ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب إليكم راغباً كريماً خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما حكم عاجله وأجله اثنتا عشرة أوقية ذهباً ونشأ (٣) ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسم .

فكان جواب ولي خديجة : هذا البُضْعُ لا يُفْرَعُ أَنفَهُ (٤) ، وزوجها منه . وفي رواية أنه لما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل فقال : الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عدت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تُكْرِهُ المشيرة فضلكم ، ولا يَزِدْ أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رَغِبْنَا في الاتصال بِحَبْلِكُمْ وَشَرَفِكُمْ ، فاشهدوا عليّ يا معاشر قريش بأنني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعائة دينار . ثم سكت ، فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : اشهدوا عليّ يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد . وشهد على ذلك صناديد قريش (٥) .

وكان عمر النبي ﷺ حين تزوجها خمساً وعشرين سنة ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً ، وكانت سنها يومئذ أربعين سنة . وهي تجتمع في نسبها مع النبي ﷺ في قصي بن كلاب فهي من أقرب نسائه إليه ﷺ في النسب (٦) .

وكانت السيدة خديجة ، رضي الله عنها ، قد تزوجت قبل النبي ﷺ برجلين ؛ أولهما عتيق بن عائذ ، فولدت له عبد الله ، وجارية اسمها هند فتزوجها ابن عمها صفيي بن أمية من بني غزوم فولدت له محمداً ، ويقال لبني محمد هذا بنو الطاهرة لمكان السيدة خديجة . وثانيهما أبو هالة بن مالك من بني تميم واسمه هند ، فولدت له ولداً اسمه هالة وولداً اسمه هند أيضاً ، وجارية اسمها زينب .

وقد ابنت النبي ﷺ بخديجة ، رضي الله عنها ، في البيت الذي كانت تسكنه ، وفيه ولدت جميع أولادها ، وفيه توفيت ، ولم يزل النبي ﷺ ساكناً فيه حتى خرج إلى المدينة مهاجراً فأخذه عقييل بن أبي طالب (٧) .

أولاد النبي ﷺ :

وقد أنجب النبي ﷺ أولاده جميعاً من السيدة خديجة ، رضي الله عنها ، عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

وكان أول من وُلد لرسول الله ﷺ قبل النبوة القاسم وبه كان يكنى بعد النبوة ، ثم زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم وُلد له في الإسلام عبد الله وكان يلقب بالطيب والطاهر رضي الله عنهم .

- (١) طبقات ابن سعد (ج ١٣١/١ ، ١٣٢) .
- (٢) الضئضئ : الأمل (النهاية : ج ٦٧٣) .
- (٣) النش : نصف الأوقية ، وهو عشرون درهماً (النهاية : ج ٥٧٥) . ويقال إن رسول الله ﷺ أصدقها عشرين بكرة انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٢/١) .
- (٤) هذا البُضْعُ لا يُفْرَعُ أَنفَهُ : يريد هنا الكفه الذي لا يَزِدْ بِكَاحِهِ ، وأصله في الإبل أن الفحلَ المَجِين إذا أراد أن يَضْرِبَ كرائمَ الإبل فَرَعُوا أَنفَهُ بِعَصَا أو غيرها ليرتد عنها ويتركتها (النهاية : ج ١٣٣/١) .
- (٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣١/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٠١/١ ، ٢٠٢) ، وسيرة ابن هشام (ج ٢٠٥/١) .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٢/١ ، ٢٠٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧/٨) ، وعيون الأثر (ج ٤٧/١) .
- (٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢١/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤/٨) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٨٢/٢) ، وأخبار مكة للأزرقي (ج ١٩٧/٢) .

وكانت سلمي مولاة صَفِيَّة بنت عبد المطلب تُقْبَلُ (١) خديجة في ولادها ، وكانت تَعَقُّ عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت خديجة رضي الله عنها ، إذا ولدت ولداً دفعته إلى من يرضعه ، إلا فاطمة لم يرضعها أحد غيرها (٢) .

ومات بنوه ﷺ في صغرهم ، فمات القاسم بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من المشي غير أن رضاعته لم تكن تكمل ، ثم مات عبد الله وهو طفل .

وقد كان المشركون يعيرون النبي ﷺ بانقطاع أثره لوفاة أولاده الذكور ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنها ، قال : مات القاسم وهو أول منبت من ولده ﷺ بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل : لقد انقطع نسله فهو أتر ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (٣) .

أما البنات فكلهن أدركن الإسلام ، واجتمعن معه ﷺ في المدينة بعد الهجرة ، ومات سائرهن في حياة النبي ﷺ ، إلا فاطمة ، رضي الله عنها ، فلحقت به بعد ستة أشهر من وفاته ﷺ . فماتت زينب ، رضي الله عنها ، في أول السنة الثامنة من الهجرة ، وتوفيت رُقِيَّة زمن بدر ، وأمّ كلثوم بعد تبوك في السنة التاسعة للهجرة (٤) .

وكانت السيدة فاطمة ، رضي الله عنها ، أحبّ أهله إليه ﷺ (٥) ، روي عن عائشة أمّ المؤمنين ، رضي الله عنها ، قالت : ما رأيت أحداً أشبه سُمّاً ودلاً (٦) وهدياً برسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في قيامها وقعودها . قالت : وكانت إذا دخلت على النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه ، وكان النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها (٧) ...

بناء الكعبة ومشاركة النبي ﷺ :

الكعبة أول بيت بُني لعبادة الله ، عزّ وجلّ ، في الأرض ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٨) . وعن أبي ذرّ ، رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ! أي مسجد وُضِعَ في الأرض أول ؟ قال : « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ » (٩) .

ويقال أول من قام في بنائها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل ، عليهما السلام ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٠) .

وقد تعرّضت الكعبة للعوادي التي أوهت بنيانها وصدّعت جدرانها ، وقبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم

- (١) قَبِلَتْ الْقَابِلَةُ الْوَلَدَ : تَلَقَّتْهُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ (الوسيط : ج ٢١٨/٢) .
- (٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣٢/١) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ق ١٠٥/١) .
- (٣) الكوثر : ٣ ، والخبر في طبقات ابن سعد (ج ٧/٣) .
- (٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٦/١) ، وتاريخ دمشق (ق ١٠٧/١) ، والروض الأنف (ج ٢١٤/١) ، والمستدرک (ج ٤٢/٤) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٧٠/٧) .
- (٥) انظر : سنن الترمذي (ج ٧٠١/٥) كتاب المناقب - باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ ح ٢٨٧٤ .
- (٦) الدَّلُّ : الهُدْيُ وَالسَّمْتُ ، وهو عبارة عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار ، وحسن السيرة والطريقة واستقامة المنظر والهيئة (النهاية : ج ١٣١/٢) .
- (٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٧٢/٤) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة ، وأقره الذهبي .
- (٨) آل عمران : ٩٦ .
- (٩) صحيح البخاري : ج ١٧٧/٤ كتاب الأنبياء .
- (١٠) البقرة : ١٢٧ .

انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، إضافة إلى أن نفرًا من اللصوص سرقوا كنزها الذي كان في جوفها ، وكانت الكعبة رَضًا^(١) فوق القامة ، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل ، عليه السلام ، ولم يكن لها سقف ، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكائنها وحفاظاً على حرمتها .

واتفقت قريش على أن لا يدخلوا في بناء الكعبة من كسبهم إلا طيباً ، فلا يدخلوا فيها مهر بغي ولا بيع رباً ولا مظلمة أحد من الناس .

وكانوا يهابون هدمها فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي وقالوا : ننتظر الوليد فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعنا فهدمنا ، فلما رأوا أنه لم يصبه شيء هدموا معه ، حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ، عليه السلام . روى ابن إسحاق في سبب انتهائهم عن تلك القواعد أن رجلاً من قريش أدخل عَتَلَةً^(٢) بين حجرين من أساس إبراهيم ، عليه السلام ، ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر تنقضت^(٣) مكة بأسرها ، فانتهوا عندئذ عن ذلك الأساس^(٤) .

وفي رواية عن ابن عباس أن أولية قريش كانوا يحدّثون أن رجلاً من قريش لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة ، وانتهوا إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، عمد رجل منهم إلى حجر الأساس الأول ، فرفعه وهو لا يدري أنه من الأساس الأول ، فأبصر القوم بَرَقَةً تحت الحجر كادت تلتصق بصر الرجل ، ونزل الحجر من يده فوقع في موضعه ، وفزع الرجل والبُناة ، فلما انتهوا إلى أسّ البيت الأول وجدوا في حجر منها - فلا أدري لعله ذكر أنه في أسفل المقام - كتاباً لم يدروا ما هو حتى جاءهم خبر من يهود اليمن فنظر إلى الكتاب فحذّتهم أنه قد قرأه ، فاستحلفوه لتحدّثنا بما فيه ، ولتصدّقنا عنه ، فأخبرهم أنّ فيه : أنا الله ذو بكة ، حرمتها يوم خلقت السموات والأرض والشمس والقمر ، ويوم وضعت هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك حنفاء^(٥) .

وقد اشترك سادة قريش ورجالها الكبار في أعمال الهدم والبناء ، فقسّموا الكعبة وجعلوا لكل قبيلة جزءاً منها ، فجمعت كل قبيلة من قريش حجارة على حدة ، وشرعوا يبنونها كما كانت .

وكان النبي ﷺ ينقل الحجارة مع قومه وله من العمر خمس وثلاثون سنة^(٦) . روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره ، فقال له العباس عمّه : ينا ابن أخي ! لو خلّلت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة ، قال : فحلّه فجعله على منكبيه ، فسقط مغشياً عليه ، فما رُئي بعد ذلك عزياً^(٧) .

ولما بلغت القبائل في البنيان موضع الحجر الأسود تنازعوا فيه يمتاز بشرف وضعه في مكانه ، حتى كاد أن يتحول هذا النزاع إلى حرب ضروس في أرض الحرم ، إذ قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، وتعاقدت هي وبنو عديّ بن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في تلك الجفنة ، فسُموا لعقة الدم . فكثوا على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً حتى عرض عليهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي أن يحكموا فيما اختلفوا فيه أول داخل من باب بني شيبه ، ففعلوا . وشاء الله أن يكون ذلك الداخل رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلَمْ إِلَيَّ ثَوْباً » ، فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لَتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِثَوْبِي مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ أَرْفَعُوهُ جَمِيعاً » . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه رسول الله ﷺ هو بيده ثم بنى عليه^(٨) .

(١) الرُّضْمُ : أن تُنَضَّدَ الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط . انظر : الروض الأنف (ج ٢٢١/١) ، ولسان العرب (ج ١٦٦٢/٣) .

(٢) العَتَلَةُ : حديدة كبيرة يُفْلَعُ بها الشَّجَرُ والأحجارُ (النهاية : ج ١٨٠/٣) .

(٣) النَّقِيضُ : الصَّوْتُ ، وَتَنَقَّضَتِ العُرْفَةُ : أي تَشَقَّقَتْ وجاء صَوْتُها ، ولعل المراد هنا : اهْتَزَّتْ انظر (النهاية : ج ١٠٧/٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٩/١-٢١٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤٥/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٦٣/٢) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٦٠/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٩/١ ، ٢١١) .

(٧) صحيح البخاري (ج ١٠٢/١) كتاب الصلاة - باب كراهية التمري في الصلاة وغيرها .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٣/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤٦/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٢٥/٣) .

وبذلك دفع رسول الله ﷺ عنهم حرباً كانت وشيكة الوقوع ، وهذا يدل على رجاحة عقله وحضور بديهته ، وعلى علو المنزلة التي بلغها ﷺ في قومه . وقد روي عن ابن خثيم أنه كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام (١) ، وروي عن الزهري أنهم كانوا لا ينحرون جزوراً إلا التمسوه فيدعو لهم فيها (٢) .

ومع جهد قريش في بناء الكعبة فقد قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إبراهيم ، عليه السلام ، فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع ، وهي التي تسمى بالحجر أو الحطيم ، ورفعوا بابها عن الأرض لئلا يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة (٣) .

ولما استقر الأمر ، فيما بعد ، للنبي ﷺ في الجزيرة كلها أثر تركها على ما انتهت إليه ، ولم ير ضرورة لتجديدها . روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال لها : « يا عائشة ! لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهديم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وأزقت بالارض ، وجعلت له بابين : باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم » (٤) .

وعنها أيضاً قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (٥) أمين البيت هو ؟ قال : « نعم » ، قلت : فلم لم يدخلوه في البيت ؟ قال : « إن قومك قصرت بهم النفقة » ، قلت : فما شأن بابه مرتفعاً ؟ قال : « فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، ولولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت ، وأن الأزق بابه بالارض » (٦) .

صفة النبي ﷺ في الكتب السماوية :

وقد وصفت النبي ﷺ الكتب السماوية والصحف السالفة القديمة ، روى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل ؛ والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحزراً للأمينين (٧) ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكّل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب (٨) في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً (٩) .

وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أن يهودياً كان يقال له جريجرة ، كان له على رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، دنانير ، فتقاضى (١٠) النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له : « يا يهودي ! ما عندي ما أعطيك » ، قال : فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا اجلس معك » ، فجلس معه ، فصلّى رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة ، وكان أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يتهدّدونه ويتوعّدونه ، ففطن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « ما الذي تصنعون به ؟ » فقالوا : يا رسول الله ! يهودي يجيبك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « منعني ربي أن أظلم معاهداً ولا غيره » . فلما

(١) طبقات ابن سعد (ج ١٥٧/١) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٧/٢) .

(٣) السيرة الحلبية (ج ١٤٤/١) .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٨٠/٢) كتاب الحج - باب من أين يخرج من مكة .

(٥) الجدر : الحيز ، لما فيه من أصول حائط البيت (النهاية : ج ٢٤٦/١) .

(٦) صحيح مسلم (ج ٩٧٢/٢) كتاب الحج - باب جدر الكعبة وبابها ح ٤٠٥ .

(٧) أي حصناً للعرب (فتح الباري : ج ٥٨٦/٨) .

(٨) السخب والصخب بمعنى الصياح (لسان العرب : ج ١٩٦/٣) .

(٩) صحيح البخاري (ج ٨٧/٣) كتاب البيوع - باب كراهية السخب في السوق .

(١٠) تقاضاة الدين : طلبته منه (الوسيط : ج ٧٤٩/٢) .

ترحل النهار قال اليهودي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقال : شطر مالي في سبيل الله ، أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة : محمد بن عبد الله ، مولده بمكة ، ومهاجره بطيبة ، وملكه بالشام ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا متري بالفحش ، ولا قول الخنا^(١) ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، هذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله . وكان اليهودي كثير المال^(٢) .

وعن عليّ ، رضي الله عنه ، أيضاً قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فإني لأخطب يوماً على الناس وخبر من أحبار اليهود واقف في يده سفر ينظر فيه ، فنادى إليّ فقال : صف لنا أبا القاسم ! فقال عليّ رضي الله عنه : رسول الله ﷺ ، ليس بالقصير ولا بالطويل البائن ، وليس بالجعد القطط^(٣) ولا بالسبط وهو الرجل الشعر^(٤) أسوده ، ضخم الرأس ، مشرب لونه حمرة ، عظيم الكراديس^(٥) ، شثن الكفئين والقدمين^(٦) ، طويل المسربة وهو الشعر الذي يكون في النحر إلى السرة ، أهدب الأشفار^(٧) ، مقرون الحاجبين^(٨) ، صلت الجبين^(٩) ، بعيد ما بين المنكبين ، إذا مشى يتكفا^(١٠) كأنما ينزل من صتب^(١١) ، لم أر قبله مثله ولم أر بعده مثله ، قال عليّ : ثم سكت ، فقال لي الخبر : وماذا ؟ قال عليّ : هذا ما يحضرنني ، قال الخبر : في عينيه حمرة ، حسن اللحية ، حسن الفم ، تام الأذنين ، يقبل جميعاً ويُدبر جميعاً ، فقال عليّ : هذه والله صفته ! قال الخبر : وشيء آخر ، فقال عليّ : وما هو ؟ قال الخبر : وفيه جنتا^(١٢) ، قال عليّ : هو الذي قلت لك كأنما ينزل من صتب ، قال الخبر : فإني أجده هذه الصفة في سفر آبائي ونجده يُبعث من حرم الله وأمنه وموضع بيته ، ثم يهاجر إلى حرم يحرمه هو ويكون له حُرمة كحُرمة الحرم الذي حرم الله ، ونجد أنصاره الذين هاجر إليهم قوماً من ولد عمرو بن عامر أهل نخل ، وأهل الأرض قبلهم يهود ، قال : قال عليّ : هو هو ؟ وهو رسول الله ﷺ ، فقال الخبر : فإني أشهد أنه نبي الله وأنه رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ، فعلى ذلك أحيأ وعليه أموت وعليه أُبعث إن شاء الله . قال : فكان يأتي عليّاً فيعلمه القرآن ويخبره بشرائع الإسلام ، ثم خرج عليّ والخبر هنالك حتى مات في خلافة أبي بكر وهو مؤمن برسول الله ﷺ يُصدّق به^(١٣) .

وروى ابن عساكر بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال : بينا رجلان يحدث أحدهما صاحبه وكذب خلفها يسمع ولا يعلمان بكانه إذ قال أحدهما لصاحبه : رأيت الليلة - أوقال : البارحة - كل نبي في الأرض - مع كل نبي أربعة مصابيح ، مصباح من بين يديه ، ومصباح من خلفه ، ومصباح عن يمينه ، ومصباح عن شماله ، ومع كل رجل من معه مصباح ، إذ قام رجل منهم فأضاء

- (١) الخنا : الفحش في القول (النهاية : ج ٨٦/٢) .
- (٢) المستدرک (ج ٦٢٢/٢) قال الذهبي في التلخيص : الحديث منكر .
- (٣) القطط : الشديدة الجعودة (النهاية : ج ٨١/٤) .
- (٤) رجل الشعر : أي لم يكن شديداً الجعودة ولا شديداً السبوطية ، بل بينهما (النهاية : ج ٢٠٣/٢) .
- (٥) الكراديس : هي رؤوس العظام ، واحدها كرهوس . وقيل : هي ملتقى كل عظمتين ضخمين ، كالركبتين والمرفقتين والمنكبين ، أراد أنه ضخم الأعضاء (النهاية : ج ١٦٢/٤) .
- (٦) شثن الكفئين والقدمين : أي أنها يميلان إلى الغلظ والقصير . وقيل : هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر ، ويحمد ذلك في الرجال لأنه أشد لقبضهم ، ويدم في النساء (النهاية : ج ٤٤٤/٢) .
- (٧) أهدب الأشفار : أي طويل شعر الأجنان (النهاية : ج ٢٤٩/٥) .
- (٨) وهذا خلاف الأحاديث الأخرى الواردة في صفة النبي ﷺ وفيها أنه مفروق الحاجبين وهو الصحيح في صفته ﷺ . انظر النهاية (ج ٥٤/٤) .
- (٩) صلت الجبين : أي واسعة ، وقيل : الصلت : الأملس ، وقيل : البارز (النهاية : ج ٤٥/٣) .
- (١٠) إذا مشى تكفى : أي تمايل إلى قدام (النهاية : ج ١٨٣/٤) .
- (١١) كأنما ينزل من صتب : أي من موضع متحدر (النهاية : ج ٢/٢) .
- (١٢) الجنتا : ميل في الظهر ، وقيل : في العنق (النهاية : ج ٣٠٢/١) .
- (١٣) طبقات ابن سعد (ج ٤١٢/١) .

في كل شعرة في رأسه مصباح ، قلت : من هذا ؟ قالوا : محمد رسول الله ، فقال كعب للمحدث : يا عبد الله ! عن تحدثت ؟ قال : عن رؤيا رؤيتها البارحة ، فقال كعب : والله لكأنك نَشَرْتَ التوراة فقرأت هذا فيها^(١) .

وذكر الواقدي عن النعمان السبائي قال : وكان من أحبار يهود باليمن ، فلما سمع بذكر النبي ﷺ قديم عليه فسأله عن أشياء ثم قال : إن أبي كان يَحْتَم على سيفٍ يقول لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبيٍ قد خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه ، قال نعمان : فلما سمعت بك فتحت السفر فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة ، وإذا فيه ما تحل وما تحرم ، وإذا فيه أنك خير الأنبياء وأمتك خير الأمم ، واسمك أحمد صلى الله عليك وسلم ، وأمتك الحمادون ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم صدورهم ، لا يحضرون قتالاً إلا وجبريل معهم ، يتحنن الله إليهم كتحنن الطير على أفراسه ، ثم قال لي : إذا سمعت به فاخرج إليه وأمن به وصدق به . فكان النبي ﷺ يجب أن يسمع أصحابه حديثه ، فأتاه يوماً فقال له النبي ﷺ : « يا نعمان ! حدثنا » فابتدأ النعمان الحديث من أوله فَرَوِي رسول الله ﷺ يتبسم ، ثم قال : « أشهد أنني رسول الله » ، ويقال : إن النعمان هذا هو الذي قتله الأسود العنسي وقطعه عضواً عضواً وهو يقول : أشهد أن محمداً رسول الله وأنك كذاب مُفْتَرٍ على الله ، ثم حرقه بالنار^(٢) .

- صفة النبي ﷺ في الإنجيل :

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : إن رسول الله ﷺ مكتوب في الإنجيل لفظاً ولا غليظاً ، ولا صخاباً في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح^(٣) .

وعن سهل مولى عتيبة أنه كان نصرانياً من أهل مريس ، وأنه كان يتيماً في حجر أمه وعمه ، وأنه كان يقرأ الإنجيل ، قال : فأخذت مصحفاً لعمي فقرأته حتى مرت بي ورقة فأنكرت كتابتها حين مرت بي ومسيستها بيدي ، قال : فنظرت فإذا فصول^(٤) الورقة ملصقة بفراء ، قال : ففتنتها فوجدت فيها نعت محمد ﷺ : أنه لا قصير ولا طويل ، أبيض ، ذو صفيرتين ، بين كتفيه خاتم ، يكثر الاحتباء ، ولا يقبل الصدقة ، ويركب الحمار والبعير ، ويحتلب الشاة ، ويلبس قميصاً مرقوعاً ، ومن فعل ذلك فقد برىء من الكبائر ، وهو يفعل ذلك ، وهو من ذرية إسماعيل ، اسمه أحمد ، قال سهل : فلما انتهيت إلى هذا من ذكر محمد ﷺ جاء عمي ، فلما رأى الورقة ضربني وقال : مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها ؟ فقلت : فيها نعت النبي ﷺ أحمد ، فقال : إنه لم يأت بعد^(٥) .

وروى أبو نعيم في دلائل النبوة فذكر خروج المعيرة بن شعبة ، رضي الله عنه ، إلى المقوقس ، ثم قال : قال المعيرة : فرجعنا إلى منازلنا فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها ، وسألت أساقفتها ، من قبضها وزومها ، عما يجحدون من صفة محمد ﷺ ، وكان أسقف من الميظط هو رأس كنيسة أبي غني كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعوهم ، لم أر أحداً قط يصلي الصلوات الخمس أشد اجتهاداً منه ، فقلت : هل بقي أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، وهو آخر الأنبياء ، ليس بينه وبين عيسى بن مريم أحد ، وهو نبي قد أمرنا عيسى باتباعه ، وهو النبي الأمي العربي ، اسمه أحمد ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، في عينيه حُمْرة ، ليس بالأبيض ولا بالأدم^(٦) ، يُعْفِي شعره^(٧) ، ويلبس ما غلظ من الثياب ، ويجزي بما لقي من الطعام ، سيفه على عاتقه^(٨) ، ولا يبالي من لاقى ، يباشر القتال بنفسه ،

(١) تاريخ مدينة دمشق : (ق ٢٢٨/١) .

(٢) عيون الأثر . (ج ٥٩/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٣٦٢/١) .

(٤) فصول : أي أجزاء انظر (الوسيط) ج ٦٩٨/٢ .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ٣٦٢/١) .

(٦) أدم أدماً وأدمه : اشتدت سمرته فهو آدم ، وهي أدماء (الوسيط) ج ١٠/١ .

(٧) يُعْفِي شعره : يقال : عفا الثبت والشعر وغيره يفمو فهو عافٍ : كثر وطال ، ويقال : أعفَيْته وعَفَيْته (لسان العرب : ج ٢٠٢٠/٤) .

(٨) العاتق : ما بين الكتف والعنق (الوسيط) ج ٥٨٨/٢ .

ومعه أصحابه يُفَدُونَهُ بأنفسهم ، هم له أشدّ حباً من أولادهم وأبائهم ، يخرج من أرض القَرَطِ (١) ، ومن حَرَمٍ يأتي إلى حَرَمٍ ، ويهاجر إلى أرض سِبَاحِ (٢) ونخل ، يدين بدين إبراهيم عليه السلام .

قال المُعِينَةُ بن شُعْبَةَ : زِدْنِي فِي صِفَتِهِ ، قَالَ : يَأْتِرُ عَلَى وَسْطِهِ ، وَيَغْسِلُ أَطْرَافَهُ ، وَيَخْصَمُ بِمَا لَمْ يَخْصَمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ ، كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ ، وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَجُعِلَتْ لَهُ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهوراً ؛ أَيِنَا أَدْرَكَتَهُ الصَّلَاةُ تَيْمَمَ وَصَلَّى ، وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مُشْتَدداً عَلَيْهِمْ لَا يَصِلُونَ إِلَّا فِي الْكِنَائِسِ وَالْبَيْعِ .

قال المغيرة : فَوَعِيْتُ ذَلِكَ كَلِمَةً ، مِنْ قَوْلِهِ وَقَوْلِ غَيْرِهِ ، فَرَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْأَلْتُ ، وَأَخْبَرْتَهُ بِمَا قَالَ الْمَلِكُ وَقَالَتْ الْأَسَاقِفَةُ الَّذِينَ كُنْتُ أَسْأَلُهُمْ وَأَسْمَعُ مِنْهُمْ مِنْ رُؤَسَاءِ الْقَبِيطِ وَالرُّومِ . وَأَعْجَبْتُ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَحَبُّ أَنْ يُسَمِعَهُ أَصْحَابَهُ ، فَكُنْتُ أَحَدَهُمْ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِينِ وَالثَّلَاثَةِ (٣) .

وروى البيهقي في دلائله بسنده عن مقاتيل بن حيان قال : أوحى الله ، عز وجل ، إلى عيسى بن مريم : جسد في أمري ولا تهزل ، واسمع وأطع ، يا ابن الطاهر البكر البتول ! إني خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين ، فإيتاي فاعبد ، وعلي فتوكل ، فسر لأهل سوران بالسريانية ، بلغ من بين يدتيك أني أنا الله الحي القيوم الذي لا أزول ، صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والمذرة (٤) والعمامة وهي التاج ، والتلعين ، والمراوة وهي القضيبي ، الجعد الرأس ، الصلت الجبين ، المفروق الحاجبين ، الأنجل (٥) العيين ، الأهدف الأشفار ، الأذعج العينين (٦) ، الأفتى (٧) الأنف ، الواضح الجبين ، الكث اللحية ، عرقه في وجهه كأنه اللؤلؤ ، ريح المسك يتفتح (٨) منه ، كأن عنقه إبريق فضة ، وكان الذهب يجري في تراقيه (٩) ، له شعرات من لبيته (١٠) إلى سترته تجري كالقضيبي ، ليس على صدره ولا على بطنه شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا جاء مع الناس عمرهم (١١) ، وإذا مشى كأنها يتقلع من الصخر وينحدر في صعب ، ذو النسل القليل - وكأنه أراد الذكور من صلبه (١٢) .

- صفة النبي ﷺ في صحف إبراهيم عليه السلام وفي الزبور :

روى ابن سعد بسنده عن الشعبي قال : في مجلة إبراهيم ﷺ : إنه كائن من ولدك شعوب وشعوب حتى يأتي النبي الأمي الذي يكون خاتم الأنبياء (١٣) .

- (١) القَرَطُ : وَرَقُ السَّلْمِ يُدْبَغُ بِهِ (النهاية : ج ٤٢/٤) .
- (٢) السِبَاحُ : جَمْعُ سَبَخَةٍ ، وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي تَعْلُوهَا الْمُلُوحَةُ وَلَا تَكَادُ تُنْبِتُ إِلَّا بَعْضَ الشَّجَرِ (النهاية : ج ٢٣٢/٢) .
- (٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١٠٦/١) .
- (٤) المِذْرَعَةُ وَالْمِذْرَعُ وَالْمِذْرَاعَةُ وَاحِدٌ . وَهِيَ ثُوبٌ مِنْ صُوفٍ ، جَبَّةٌ مَشْقُوقَةٌ الْمُقَدَّمُ . انظر : (الوسيط : ج ٢٨٠/١) .
- (٥) أَي الْوَاسِعُ (النهاية : ج ٢٢/٥) .
- (٦) الدَّعَجُ وَالِدُّعَجَةُ : السُّوَادُ فِي الْعَيْنِ وَغَيْرِهَا ، يَرِيدُ أَنْ سِوَادَ عَيْنَيْهِ كَانَ شَدِيدَ السُّوَادِ ، وَقِيلَ : الدَّعَجُ : شِدَّةُ سِوَادِ الْعَيْنِ فِي شِدَّةِ تَبَاضُحِهَا (النهاية : ج ١١٩/٢) .
- (٧) الْقَنَا فِي الْأَنْفِ : طَوْلَةٌ وَدِقَّةٌ أُرْبَتِيهِ مَعَ حَدَبٍ فِي وَسْطِهِ (النهاية : ج ١١٦/٤) .
- (٨) يَنْفَحُ : يَفُوحُ وَيَنْتَشِرُ انظر (النهاية : ج ٩٠/٥) .
- (٩) التَّرَاقِي : جَمْعُ تَرَقُوقَةٍ ، وَهِيَ الْعِظْمُ الَّذِي بَيْنَ ثَغْرَةِ النَّخْرِ وَالْعَاتِقِ (النهاية : ج ١٨٧/١) .
- (١٠) اللَّبَّةُ : هِيَ الثَّغْرَةُ الَّتِي فَوْقَ الصَّدْرِ (النهاية : ج ٢٢٢/٤) .
- (١١) أَي كَانَ فَوْقَ كُلِّ مَنْ مَعَهُ (النهاية : ج ٢٨٤/٣) .
- (١٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٨/١) .
- (١٣) طبقات ابن سعد (ج ١٦٣/١) .

وكذلك وردت صفة النبي ﷺ في الزُّبُور فقد ذكر وَهَبُ بنُ مُنَبِّهٍ في قصة داود النَّبِيِّ ﷺ وما أوحى إليه في الزُّبُور: يا داود ! إنه سيأتي من بعدك نبيٌ يُسَمَّى أحمد ومحمداً ، صادقاً سيِّداً ، لا أغضب عليه أبداً ، ولا يُغضبني أبداً ، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأُمَّتُه مَرْحُومَةٌ ، أعطيتهم من التَّوَالِفِ مثل ما أعطيت الأنبياء ، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرُّسُل ، حتى يأتيوني يوم القيامة نورهم مثل نور الأنبياء ، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهَّروا لي لكل صلاة كما افترضت على الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرُّسُل قبلهم . يا داود ! فإني فضلت محمداً وأُمَّتُه على الأمم كلها ؛ أعطيتهم ستَّ خصال لم أعطها غيرهم من الأمم : لا أوأخذهم بالخطأ والنسيان ، وكلَّ ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرتهم لهم ، وما قدموا لأخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلته لهم أضعافاً مضاعفة ، ولهم في المذخور عندي أضعافاً مضاعفة وأفضل من ذلك ، وأعطيتهم على المصائب في البلايا إذا صبروا وقالوا إنا لله وإنا إليه راجعون الصلاة والرحمة والهدى إلى جنات النعيم ، فإن دعوني استجبت لهم ؛ فيما أن يرؤهُ عاجلاً وإما أن أصرف عنهم سوءاً وإما أن أذخره لهم في الآخرة . يا داود ! من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها فهو معي في جنتي وكرامتي ، ومن لقيني وقد كذب محمداً وكذب بما جاء به واستهزأ بكتابي صبَّبت عليه في قبره العذاب صبّاً ، وضربت الملائكة وجهه ودَّبره عند منشره من قبره ، ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار (١) .

وعن وَهَبُ أيضاً قال : قرأت في زيور داود ، عليه السلام ، ذكر نبينا ﷺ أنه يَحُورُ (٢) من البحر إلى البحر ، من لندن الأنهار إلى منقطع الأرض ، وأنه يختر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم ، ويُلحَسُ أعداؤه التراب من تحت قدميه ، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ، لأنه يخلص المضطهد ممن هو أقوى منه ، ويرأف بالضعفاء والمساكين ، ويصلى عليه في كل وقت ويبارك عليه في كل يوم ، ويدوم ذكره مع ذكر الله ، عز وجل ، إلى الأبد (٣) .

هذه الروايات السالفة الذكر ناطقة برسالة محمد ﷺ ، فإن فيها البشارة به ﷺ وفيها ذكر صفاته وأحواله ، ولهذا كان الأخبار والرهبان ينتظرون ظهوره ، وكانوا يخبرون برسالته مما اطلعوا عليه في كتبهم المقدسة ، وكانت حلقة السعدية تعرض للنبي ﷺ على اليهود والكهَّان وتحدثهم بشأنه فيعرفونه من أوصافه وأحواله ، وقد أخبر برسالته ﷺ بحيرى الراهب كما مر معنا ، وأخبر برسالته أيضاً وتنبأ بقرب مبعثه كثير من الأخبار والرهبان مما سنأتي على ذكره .

تنبؤ الأخبار والرهبان والكهَّان بمبعث النبي ﷺ :

وقد كانت الأخبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهَّان من العرب تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب من زمانه . أمَّا الأخبار من يهود والرهبان من النصارى فعنوا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، وأمَّا الكهَّان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهي لا تُحجب عن ذلك بالقذف من النجوم ، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منها ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالأحتمال حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرَّفوها (٤) .

وقد روي في خبر قتال تبع لأهل المدينة أن عالمان راسخان في العلم من أخبار يهود بني قريظة أتياه لَمَّا سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له : أيها الملك ! لا تفعل فإنك إن آبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، فقال لها : ولم ذلك ؟ فقالا : أيها الملك ! إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل ، مولده مكَّة ، اسمه أحمد ، وهذه دار هجرته ، فتناهى تبع عن ذلك ، ورأى أن لها علماً ، وأعجبه ما سمع منها ، فانصرف عن المدينة ، واتبعها على دينها (٥) .

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٨٠/١) .

(٢) يَحُورُ : أي يُمَلِكُ . انظر (لسان العرب : ج ١٠٤٦/٢) .

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (ج ١٢٧/٢) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٢١/١) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ١٦٨) .

روى ابن إسحاق بسنده عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان سلمة من أصحاب بدر - قال : كان لنا جار من يهود بني عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ، قال سلمة : وأنا يومئذ أحدث من فيه سنًا ، علي بُرْدَةٌ لي مضطجع فيها ببناء أهلي ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يَرَوْنَ أن بعثاً بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلان !! فإية ذلك ؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة والين ، فقالوا : ومتى تراه ؟ قال : فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سنًا فقال : إن يَسْتَنْفِذَ هذا الغلام عمه يَدْرِكُه ، قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسولهُ ﷺ وهو حيّ بين أظهرنا ، فأمنّا به ، وكفر به بُغياً وحَسْداً ، قال : فقلنا له : ويحك يا فلان !! ألسنت الذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قُرَيْظَةَ قال : قال لي : هل تدري عمّ كان إسلام ثعلبة بن سَعْيَةَ ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ؟ - نفر من بني هذَل إخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام - قال : قلت : لا ، قال : فإن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهَيَّيَان قَدِمَ علينا قبيل الإسلام بسنين فحلّ بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلاً قطّ لا يصلي الخمس أفضل منه ، فأقام عنده ، فكنا إذا قَحِطَ غَنّا المطر قلنا له : اخرج يا ابن الهَيَّيَان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تَقَدَّمُوا بين يَدَي مَخْرَجِكُمْ صدقة ، فنقول له : كم ؟ فيقول : صاعاً من تمر ، أو مُدَّين من شعير ، قال : فنخرجها ، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتِنَا فيستسقي الله لنا ، فوالله ما يَبْرَحُ مجلسه حتى تَمُرَّ السَّحَابَةُ ونُسْفَى ، قد فعل ذلك غير مرّة ولا مرّتين ولا ثلاث ، قال : ثم حضرته الوفاة عنده ، فلمّا عرف أنه ميّت قال : يا معشر يهود ! ماترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال : قلنا : إنك أعلم ، قال : فيأني إنيّا قَدِمْتُ هذه البلدة أتوكّف (٢) خروج نبيّ قد أظلم زمانه ، وهذه البلدة مهاجرة ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه ، وقد أظلم زمانه فلا تُسَبِّحَنَّ إليه يا معشر يهود ؛ فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه (٣) .

وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : سمعت أبي مالك بن سنان يقول : جئت بني عبد الأشهل يوماً لأتحدّث فيهم ونحن يومئذ في هذنة من الحرب ، فسمعت يوشع اليهودي يقول : أظلم خروج نبيّ يقال له أحمد ، يخرج من الحرم ، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهليّ كلبستهزيء به : ما صفته ؟ قال : رجل ليس بقصير ولا بالطويل ، في عينيه حُمْرة ، يلبس الشملة (٤) ، ويركب الحمار ، سيفه على عاتقه ، وهذا البلد مهاجرة . قال : فخرجت إلى قومي بني خُدْرة ، وأنا يومئذ أتعجب ممّا قال ، فأسمع رجلاً يقول : ويوشع يقول هذا وحده ؟ ! كلّ يهود يثرب تقول هذا . قال أبي مالك بن سنان : فخرجت حتى جئت بني قُرَيْظَةَ ، فأجد جمْعاً فتذاكروا النبيّ ﷺ ، فقال الزبير بن باطا : قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا بخروج نبيّ وظهوره ولم يبق أحد إلا أحمد ، وهذه مهاجرة . قال أبو سعيد : فلمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أخبره أبي هذا الخبر فقال رسول الله ﷺ : « لو أسلم الزبير وذووه من رؤسائهم ، كلهم له تبع » (٥) .

- ما ورد عن الرهبان :

ورد في قصة إسلام سلمان ، رضي الله عنه ، أنه صحب أربعة من كبار رجال الدين من النصارى واحداً إثر واحد ، وأنه لمّا طلب من آخرهم عند قرب وفاته أن يوصي به إلى غيره كما فعل به الثلاثة الذين قبله قال : أيّ نبيّ ! والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنّا عليه من الناس أمرك به أن تأتيه ، ولكنه قد أظلم زمان نبيّ ، وهو مبعوث بدين إبراهيم ، عليه السلام ، يخرج بأرض

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢٣٦/١) .

(٢) توكّف الأمر : توقّعه وسأل عنه (الوسيط : ج ١٠٦٧/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/١) .

(٤) الشملة : كساء يتغطى به ويتلقف فيه (النهاية : ج ٥٠٧/٢) .

(٥) دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٩٢/١) .

العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينها نخل ، به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل (١) .

وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن طلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنه ، قال : حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعة يقول : سألوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهل الحرم ؟ قال طلحة : قلت : نعم ؛ أنا ، فقال : هل ظهر أحمد بعد ؟ قال : قلت : ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذي يخرج فيه وهو آخر الأنبياء ، مخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخل وحرّة وسياخ ، فإياك أن تسبق إليه (٢) .

- أما ما ورد عن الكهّان ، فقد جاء في حديث سواد بن قارب - وكان كاهناً في الجاهلية - أنه جاءته صاحبتة من الجن قبل البعثة بشهر أو قريباً منه فأخبرته بحجب الجن عن استراق السمع .

روي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد يريد عمر بن الخطاب ، فلما نظر إليه عمر ، رضي الله عنه ، قال : إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً في الجاهلية ، فسلم عليه الرجل ثم جلس ، فقال له عمر رضي الله عنه : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال له : فهل كنت كاهناً في الجاهلية ؟ فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! لقد خلت في واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيّتك منذ وليت ما وليت ، فقال عمر : اللهم غفراً ؛ قد كنّا في الجاهلية على شر من هذا ؛ نعبد الأصنام ، ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام . قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ؛ لقد كنت كاهناً في الجاهلية ، قال : فما أعجّب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : جاءتني ، قبل الإسلام بشهر أو شيعه (٣) ، أعرف فيها الفرع فقالت : ألم تر الجنّ وإبلاستها (٤) ، ويأسها من بعد إنكاسها (٥) ، ولحوقها بالقلاص (٦) وأحلاسها (٧) ؟ قال عمر بن الخطاب : صدق ، ثم أنشأ يحدث الناس فقال : والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلًا ؛ فنحن ننتظر قسمة ليقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قط أشد منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه يقول : يا جليح (٨) ، أمر نجيح ، رجل فصيح يقول لا إله إلا الله ، قلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح يقول لا إله إلا الله ، فقمتم فما تشيننا (٩) أن قيل : هذا نبي (١٠) .

وروي أن امرأة من بني سهم يقال لها الغيطلة ، كانت كاهنة في الجاهلية ، فلما جاءها صاحبها في ليلة من الليالي فأنقض (١١) تحتها ثم قال : أدر ما أدر ، يوم عقر ونحر ، قالت قريش حين بلغها ذلك : ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى فأنقض تحتها ثم قال :

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٧/١) .

(٢) المستدرک (ج ٢٦٩/٢) .

(٣) الشّيع : مقداره من العدد ، يقال : أقمت به شهراً أو شيع شهر ، أي مقداره أو قريباً منه (لسان العرب : ج ٢٢٧/٢) .

(٤) أي تحيرها ودهشتها (النهاية : ج ١٥٢/١) .

(٥) الإنكاس : الانقلاب ، قال ابن فارس : معناه أنها يمسّت من استراق السمع بعد أن كانت قد ألفت (فتح الباري : ج ١٨٠/٧) .

(٦) القلاص : جمع قلوص ، وهي الناقة الشابة .

(٧) الأحلاس : جمع جلس ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب (النهاية : ج ٤٢٣/١) .

(٨) جليح : اسم شيطان ، والجليح في اللغة : ما تطاير من رؤوس النبات وخف ، ويروى : يا دريح ، وكأنه نداء للعجل المذبوح لقولهم : أحر ذريجي ؛ أي : شديدة الحمرة ، فصارت وصفاً للعجل الذبيح من أجل الدم ، ومن رواه : يا جليح ، فإله إلى هذا المعنى ؛ لأن العجل قد جليح أي كشف عنه الجلد (الروض الأنف : ج ٢٤٢/١) .

(٩) يقال : لم ينشأ أن فعل كذا : أي لم يلبث (النهاية : ج ٥٢/٥) .

(١٠) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٧/١) ، وصحيح البخاري (ج ٦١/٥) كتاب المناقب - باب إسلام عمر رضي الله عنه .

(١١) أنقض : صوت ، التقيض : الصوت الخفي (لسان العرب : ج ٤٥٢٤/٦) ويروي انقض : أي سقط تحتها .

شُعُوبَ مَاشِعُوبٍ ، تُصْرَعُ فِيهِ كَعْبٌ لِجَنُوبٍ^(١) ، فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن فانظروا ما هو ؟
فا عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب ؛ فعرفوا أنه الذي كان جاء به إلى صاحبه^(٢) .

قال ابن إسحاق : وحدثني علي بن نافع الجَرَشِيُّ أن جَنُوباً ، بطناً من اليمن ، كان لهم كاهن في الجاهلية ، فلما ذكر أمر
رسول الله ﷺ وانتشر في العرب قالت له جَنُوبٌ : انظر لنا في أمر هذا الرجل ، واجتمعوا له في أسفل جبله ، فنزل عليهم - حين طلعت
الشمس - فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، ورفع رأسه إلى السماء طويلاً ، ثم جعل يَنْزُرُ^(٣) ، ثم قال : أيها الناس ! إن الله أكرم محمداً
واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد في جبله راجعاً من حيث جاء^(٤) .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن قريشاً أتوا كاهنة فقالوا لها : أخبرينا بأقربنا شَبْهاً بصاحب هذا المقام^(٥) ، فقالت : إن
أتم جَزَرْتُمْ كِسَاءً على هذه السَهْلَةِ^(٦) ، ثم مشيت عليها أنباتكم ، فَجَرُّوا ثم مشى الناس عليها ، فأبصرت أثر محمد ﷺ ، فقالت : هذا
أقربكم شَبْهاً به ، فكثبوا بعد ذلك عشرين سنة ، أو قريباً من عشرين سنة ، أو ماشاء الله ، ثم بُعِثَ ﷺ^(٧) .

وروى ابن سعد بسنده عن جابر ، أو غيره ، قال : إن أول خبر جاء إلى المدينة عن رسول الله ﷺ أن امرأة من أهل المدينة
كان لها تابع فجاء في صورة طائر حتى وقع على حائط دارهم ، فقالت المرأة : انزل حدثنا ونحدثك وتخيرنا ونخبرك ، قال : إنه قد بُعِثَ
بمكة نبي حرم علينا الزنا ومنع منا القرار^(٨) .

حجب الشياطين عن استئراق السمع عند قرب المبعث :

فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينهم وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستئراق
السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد ؛ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ حين
بعثه وهو يقص عليه خبر الجن إذ حجبوا عن السمع ، فعرفوا ما عرفوا وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوا : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ
اسْتَمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا
رَّصَدًا ، وَأَنَا لَآنْذِرِي أَشْرَ الْأَرْضِ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾^(٩) . فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما منعت من السمع
قبل ذلك لثلاً يشكّل الوحي بشيء من خبر السماء ، فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه لوقوع الحجّة ، وقطع الشبهة ،
فأمّنوا وصدّقوا ثم ولّوا إلى قومهم منذرين : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمِ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾^(١٠) الآية ، وكان قول الجن : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾^(١١) أنه كان
الرجل من العرب ، من قريش وغيرهم ، إذا سافر فنزل بطن واد من الأرض لبييت فيه قال : إني أعود بعزير هذا الوادي من الجن
الليلة من شر ما فيه^(١٢) .

(١) كَعْبٌ هَاهُنَا هُوَ : كَعْبُ بَنِ لُؤَيِ ، وَالذِّينَ صَرَعُوا لِجَنُوبِهِمْ بِيَدِي وَأَخَذَ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ مَعْظَمَهُمْ مِنْ كَعْبِ بَنِ لُؤَيِ ، وَشُعُوبٌ هَاهُنَا جَمْعُ شَعْبٍ
(الروض الأنف : ج ٢٣٩/١) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٥/١) .

(٣) يَنْزُرُ : يَقْفُرُ . يُقَالُ : نَزَرْتُ عَلَى الشَّيْءِ أَنْزَرْتُهُ نَزْرًا ؛ إِذَا وَثَبْتَ عَلَيْهِ (لسان العرب : ج ٤٤٠٢/٦) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٥/١) .

(٥) أي مقام إبراهيم عليه السلام .

(٦) السَهْلَةُ : تَرَابٌ كَالرَّمْلِ يَجِيءُ بِهِ الْمَاءُ (لسان العرب : ج ٢١٢٥/٣) .

(٧) مسند الإمام أحمد (ج ٣٢٢/١) .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ١٩٠/١) .

(٩) الجن : ١٠ - ١ .

(١٠) الأحقاف : ٣٠ .

(١١) الجن : ٦ .

(١٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن أول العرب فرزع للرمي بالنجوم - حين رمي بها - هذا الحي من ثقيف ، وأهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج ، قال : وكان أدهى العرب وأكرها (١) رأياً ، فقالوا له : يا عمرو ! ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال : بلى ؛ فانظروا : فإن كانت معالم النجوم - التي يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء (٢) من الصيف والشتاء لما يصلح الناس في معاشهم - هي التي يرمى بها فهو والله طيب الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها ، وإن كانت نجوماً غيرها ، وهي ثابتة على حالها ؛ فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق ، فما هو (٣) ؟

وعن عبد الله بن عمرو قال : لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله ﷺ منعت الشياطين السماء ، وزميت بالشهب ، فجاؤوا إلى إبليس فذكروا ذلك ، فقال : أمر قد حدث ، هذا نبي قد خرج عليكم بالأرض المقدسة مخرج بني إسرائيل ، قال : فذهبوا إلى الشام ثم رجعوا إليه فقالوا : ليس بها أحد ، فقال إبليس : أنا صاحبه ، فخرج في طلبه بمكة ، فإذا رسول الله ﷺ بجرا منحدراً ، معه جبريل عليه السلام ، فرجع إلى أصحابه فقال : قد بعث أحمد ومعه جبريل فما عندكم ؟ قالوا : الدنيا نجبت إلى الناس ، قال : فذلك إذن (٤) .

وعن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٥) قال : كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحي ، وكان إذا نزل الوحي سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصفوان (٦) ، فلا ينزل على أهل ساء إلا صغقوا ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ، ثم يقول : يكون العمام كذا ويكون كذا ، فيسمعه الجن فيخبرون الكهنة به ، والكهنة الناس يكون كذا وكذا فيجدونه كذلك ، فلما بعث الله عز وجل محمداً ﷺ دحروا (٧) ، فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك هلك من في السماء ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ، وصاحب الغنم شاة ، حتى أسرعوا في أموالهم ، فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب : أيها الناس ! أمسكوا عليكم أموالكم فإنه لم يمت من في السماء ، وإن هذا ليس بانتشار ، ألستم ترؤن معالمكم من النجوم كما هي ، والشمس والقمر والليل والنهار ؟ قال : فقال إبليس : لقد حدث اليوم في الأرض حدث فأتوني من تربة كل أرض ، فأتوه بها ، فجعل يسمها فلما شمت تربة مكة قال : من هاهنا جاء الحدت ، فتصتوا ؛ فإذا رسول الله ﷺ قد بعث (٨) .

بقايا الخنفاء قبل بعثة النبي ﷺ :

دانت العرب بدين إبراهيم ، عليه السلام ، وبدين جدتها إسماعيل ، عليه السلام ، فكانت تعبد الله وتوحده ، حتى طال عليهم الأمد ونسوا خطأ بما ذكروا به ، فدخل فيهم الشرك واعتادوا عبادة الأصنام ، وتسلمت إليهم التقاليد الباطلة والأخلاق الفاحشة ، فابتعدوا بذلك عن ضياء التوحيد وعن منهج الخنيفية ، إلا أنه بقي فيهم عدة شعائر من دين إبراهيم ، عليه السلام ، وبقيت فيهم بقية من الناس ظلمت متمسكة بالتوحيد وسائرة على منهج الخنيفية . وقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الأحناف وبعثهم بأنهم كانوا على دين

(١) النكز : هو الدهاء ، والأمر المنكز ، ويقال للرجل إذا كان قطيناً : ما أشد نكزه (النهاية : ج ١١٥/٥) .

(٢) الأنواء : ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمينة السنة كلها من الصيف والشتاء والربيع والخريف (لسان العرب : ج ٤٥٦٧/٦) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٤/١) .

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٩٥/١) .

(٥) سياً : ٢٢ .

(٦) الصفوان : الحجج الأمس (النهاية : ج ٤١٧/٣) .

(٧) الدختر : الدفع يقنف على سبيل الإهانة والإذلال (النهاية : ج ١٠٣/٢) .

(٨) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٠/٢) .

إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) . منهم وَرَقَّةُ بن نُوفَل ، وَعَبِيدُ اللَّهِ بن جحش ، وَعُثْمَانُ بن الْحَوَيْثِرِ ، وَزَيْدُ بن عمرو بن نَفِيل . وقد اتفق هؤلاء على ترك دين قومهم ، وأن يتفرقوا في البلدان يلتسبون الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

فأما وَرَقَّةُ بن نُوفَل فاستحکم في النصرانية وأتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب (٢) . روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال : « لَا تَسُبُّوا وَرَقَّةً فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهَ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ » (٣) .

وأما عُبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة مع امرأته أُم حَبِيبَةَ بنت أبي سفيان ، رضي الله عنها ، فلما قدمها تنصّر وفارق الإسلام حتى مات هنالك نصرانياً (٤) .

روي عن أُم حَبِيبَةَ قالت : رأيت في المنام كأن عبيد الله بن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهه ، ففزعته فقلت : تغيرت والله حاله ؛ فإذا هو يقول حين أصبح : يا أُم حَبِيبَةَ ! إني نظرت في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانية وكنت قد دنتُ بها ثم دخلت في دين محمد ثم رجعت إلى النصرانية ، فقلت : والله ما خير لك ، وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له ، فلم يخفِ بها وأكب على المحر حتى مات (٥) .

وأما عُثْمَانُ بن الْحَوَيْثِرِ فقدم على قيصر ملك الروم فتنصّر وحسنت منزلته عنده ، ومات على ذلك ، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين (٦) .

روي أن قيصر كان قد توجَّع عُثْمَانُ وولاه أمر مكة ، فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يدينوا لملك ، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى : ألا إن مكة حَيَّ لِقَاحٍ (٧) لا تدين لملك ، فلم يتم له مراده ، قال : وكان يقال له البطريق ، ولا عقب له ومات بالشام مسموماً ، سمّه عمرو بن جُفْنَةَ الغسانيّ الملك (٨) .

وأما زَيْدُ بن عمرو بن نَفِيل ففارق دين قومه ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التي تُذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤودة ، وقال : أعبد ربَّ إبراهيم ، وبادى قومه بعباد ما هم عليه (٩) .

قال ابن إسحاق : وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم ﷺ ، فكانت صفية بنت الحَضْرَمِيِّ كَلِمًا رآته قد تهتأت للخروج وأراده ، أذنت به الخطاب بن نفيل ؛ وكان الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه ، وكان يعاتبه على فراق دين قومه ، وكان الخطاب قد وكل صفية به وقال : إذا رأيته قد همَّ بأمر فأذني به .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن بعض أهل زيد بن عمرو بن نفيل أن زيدا كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال : لبَّيك حقاً حقاً ، تَعْبُداً وِرْقاً ، عُدْتُ بما عاذ به إبراهيم ، مُسْتَقْبِلَ الكعبة وهو قائم إذ قال :

(١) البقرة : ١٢٥ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/١ ، ٢٤٣) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٠٧/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/١) .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢/٤) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/١) ، والبدایة والنهاية (ج ٢٤٢/٢) .

(٧) حَيَّ لِقَاحٍ : يقال : قومٌ لِقَاحٌ وحَيَّ لِقَاحٌ ؛ أي لم يدينوا للملوك ، ولم يملكوا ولم يصيبهم في الجاهلية سياء (لسان العرب : ج ٤٠٥٩/٥) .

(٨) انظر : الروض الأنف / للسهيلى (ج ٢٥٥/١) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/١) .

أَنْفِي لَكَ اللَّهُمَّ عَانَ (١) رَاغِمٌ
مَهَا تُجَشَّنِي (٢) فَأَيْتِي جَاشِمٌ
الْبِرُّ أَبْغِي لَا الْخُصَالُ
لَيْسَ مَهْجَرٌ كَمَنْ قَالَا (٣)

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

وَأَسَلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسَلَمْتُ
لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا

وكان الخطّاب قد أذى زيدا حتى أخرجه إلى أعلى مكة ، فنزل حراء مقابل مكة ، ووكل به الخطّاب شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة ، فكان لا يدخلها إلا سراً منهم ، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطّاب ، فأخرجوه وأذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراقه ؛ فقال وهو يعظم حرّمته على من استحل منه ما استحل من قومه :

لَا هَمَّ إِنِّي مُحْرِمٌ لِأَحِلِّهِ (٤) وَإِنْ بَيْتِي أَوْسَطَ الْمَحِلِّ
عند الصفا ليس بذى مصله

ثم خرج يطلب دين إبراهيم ، عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأخبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كلها ، حتى انتهى إلى راهب بميمنة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم أهل النصرانية ، فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال : إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يملك عليه اليوم ، ولكن قد أظلم زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها ، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية ؛ فالحق به فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه ، وقد كان شاماً (٥) اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها ، فخرج سريعا حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة ، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه (٦) .

ويقال إنه توفي وقريش تبني الكعبة ، قبل أن يبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، ودفن بأصل حراء (٧) .

وكان زيد بن عمرو بن نفيل يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تدبونها على غير اسم الله إنكاراً لذلك وإعظاماً له (٨) .

روى البخاري بسنده عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إني لعلّي أن أدين دينكم فأخبرني فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنى أستطيعه ! فهل تدلني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال زيد ، وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله ، فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، قال : ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنى أستطيع ! فهل تدلني على غيره ، قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين

(١) الغاني : الأسير ، وكل من ذل واستكان وخضع فقد عانا يحنو ، وهو غان ، والمرأة عانية ، وجموعها عوان (النهاية : ج ٢١٤/٢) .

(٢) جشم الأثر وتجنّته : تكلفه على مشقة ، وأجشيتي فلان أمراً وجشيتيه ؛ أي : كلفني (لسان العرب : ج ٦٢٧/١) .

(٣) الخال : الخيلاء والكبر ، وقوله : ليس مهجر كمن قال ؛ أي : ليس من هجر وتكيس كمن أتر القائلة والنوم (الروض الأنف : ج ٢٦٢/١) .

(٤) معنى قوله : إني محريم لأحله ؛ أي ساكن بالحرّم لا الحليل ، والحليل : ما خرج عن دائرة الحرّم ، انظر (الروض الأنف : ج ٢٦٢/١) .

(٥) شام : يقال : شامت فلاناً إذا قاربتة وتعرفت ماعنده بالاختبار والكشف (النهاية : ج ٥٠٢/٢) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٤٧/١ ، ٢٤٨) .

(٧) انظر طبقات ابن سعد (ج ٢٨١/٢) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٥٠/٥) كتاب المناقب - باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم ، عليه السلام ، خرج ، فلما برز رفع يديه فقال :
اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ (١) .

وهذا الحديث . يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا وغطت بضاهاها الكثيف على الأديان الظاهرة . اليهود يشعرون بأنهم
مطاردون في الأرض منبذون من أقطارها ، فعلى الداخل في دينهم أن يحمل وزراً من المقت المكتوب عليهم . والنصارى وقع بينهم
شقاق رهيب في طبيعة المسيح ووضعه ، ووضع أمه ، من الإله الكبير ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقاً يلعن
بعضها بعضاً (٢) .

روى ابن إسحاق بسنده عن أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنها ، قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مُسنداً
ظهره إلى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش ! والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري ، ثم يقول :
اللَّهُمَّ لَوَاتِي أَعْلَمُ أَيَّ الْوَجُوهِ أَحَبُّ إِلَيْكَ عَبْدَتِكَ بِهِ ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُهُ ، ثُمَّ يَسْجُدُ عَلَى رَأْسِهِ (٣) . وفي رواية عن أسماء ، رضي الله عنها ،
أيضاً أنه كان يحيي الممودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أكفيها مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال
لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها (٤) .

وعن جابر قال : سألنا رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل فقلنا : يا رسول الله ! إنه كان يستقبل القبلة ويقول : ديني
دين إبراهيم وإلهي إله إبراهيم ، وكان يصلي ويسجد ، قال : « ذاك أمة واحدة ، يُحْشَرُ بَيْنِي وَبَيْنَ يَدَيْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ » (٥) .

روي أن ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمرو بن الخطاب - وهو ابن عمه - قالوا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن
عمرو ؟ قال : « نَعَمْ ؛ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ أُمَّةً وَاحِدَةً » (٦) ، وكان رسول الله ﷺ يستغفر له ويترحم عليه ويقول : « إِنَّهُ مَاتَ عَلَى دِينِ
إِبْرَاهِيمَ » (٧) ، ويقول أيضاً : « قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْجَنَّةِ يَسْحَبُ دُبُولاً » (٨) .

ومن الخفاء أيضاً :

أبو قيس صرمة بن أبي أنس أخو بني عدي بن النجار ، وكان رجلاً قد تهرب في الجاهلية ، ولبس المُسُوح (٩) ، وفارق
الأوثان ، واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية لكنه لم يدخل بها ، فاعتزل قومه وقال : أعبد رب إبراهيم حين فارق الأوثان . فلما قدم
رسول الله ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه (١٠) .

ومنهم أيضاً أبو قيس بن الأسلت ، وكان يعرف بيثرب يقال له الحنيف ، وكان شاعراً . قال الواقدي : لم يكن أحد من الأوس
والخزرج أوصف للحنيفية ولا أكثر مسألة عنها من أبي قيس بن الأسلت ، واختبر اليهودية والنصرانية فأبأهما ، وطلب دين إبراهيم
الحنيف وتمسك به من ترك الأوثان وأكل ما ذبح على النصب ، وكان يذكر صفة النبي ﷺ وما تخبره به يهود من ذلك . فلما قدم
رسول الله ﷺ المدينة وأسلمت الأوس والخزرج قيل له : يا أبا قيس ! هذا صاحبك الذي كنت تصف ، فقال : أجل قد بُعث بالحق ،

(١) المصدر السابق .

(٢) فقه السيرة / للشيخ محمد الفزالي : (ص : ٨٧) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/١) .

(٤) صحيح البخاري (ج ٥١/٥) كتاب المناقب - باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

(٥) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٤١٦/٩) وقال : رواه البزار ورجال الصحيح غير مجالد وقد وثق ، وهذا من جيد حديثه ، وضعفه الجمهور .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/١) .

(٧) طبقات ابن سعد (ج ٢٨١/٣) .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ٢٧٩/٣) .

(٩) المُسُوحُ : ثوب الزاهب (الوسيط) : ج ٨٧٥/٢ .

(١٠) انظر سيرة ابن هشام (ج ١٣٠/٢) .

وجاء إلى النبي ﷺ فقال له : إلام تدعو ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » ، وذكر شرائع الإسلام ، فقال أبو قيس : ما أحسن هذا وأجمله ، أنظر في أمري ثم أعود إليك . وكاد يُسلم ، فلقيه عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : من أين ؟ فقال من عند محمد ؛ عرض عليّ كلاماً ما أحسنه وهو الذي كنا نعرف والذي كانت أخبار يهود تخبرنا به ، فقال له عبد الله بن أبي : كرهت والله حرب الخزرج ، فغضب أبو قيس وقال : لا أسلم سنة ، ثم انصرف إلى منزله حتى مات قبل الحول . ويقال إنه سمع يُوحّد عند الموت^(١) .

ومنهم أيضاً أمية بن أبي الصلت ، وقد كان رسول الله ﷺ يستنشد الشريد بن سويد الثقفي من شعر أمية ويقول : « إن كاذباً يُسلم »^(٢) .

وكان أمية قد تنصر وليس المُسوح ، وكان يقول : كنت أجد في كتيبي نبياً يُبعث من المعزم ، وأنه كان يظنّ بل لا يشكّ أنه هو ، فلما دارس أهل العلم وجده من بني عبد مناف ، فكان يرى أنه لا يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة ، فلما رأى أنه جاوز الأربعين ولم يُوحّ إليه عرف أنه ليس به ، فلما بُعث النبي ﷺ أتاه أمية في جماعة من قريش حتى جلسوا إلى النبي ﷺ في ظل الكعبة ، فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر ، حتى إذا فرغ قال : أجبني يا ابن عبد المطلب ! فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . يس والقرآن الحكيم ﴾^(٣) حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجرّ رجله فبعتته قريش يقولون : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد أنه على الحق ، فقالوا : هل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره ، ثم خرج أمية إلى الشام ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، ولم يرجع أمية من الشام إلا بعد غزوة بدر ، وهم بالرحيل إلى رسول الله ﷺ ليسلم ، فقالوا له : إنه قتل عتبة وشيبة ابني ربيعة وألقاهما في قلب بدر وهما ابنا خالك ، فترك الإسلام . وقيل إنه منعه من اتباعه ما قاله لأبي سفيان حينما سأله : ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : الاستحياء من نسيات ثقيف إني كنت أحدثهم أني هو ، ثم يروني تابعاً لغلام من بني عبد مناف^(٤) .

روي أن الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت قدمت على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إن مثلك أخيك كمثل الذي أتاه الله آياته فأنسلخ منها »^(٥) .

ومن بقايا الحنفاء قس بن ساعدة الإيادي ، روي أن وفد إباد قدم على رسول الله ﷺ فسألهم عن قس بن ساعدة الإيادي ، فقالوا : هلك يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت في الموسم بعكاظ وهو على حمتل له أحمر - أو على ناقية حمرآء - وهو ينادي في الناس : أيها الناس ! اجتمعوا واستمعوا وعوا ، واتعظوا تنتفعوا ؛ من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . أما بعد ؛ فإن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ؛ نجوم تفور ولا تغور ، وبحار تفور ولا تغور ، وستف مرفوع ، ومهاد مؤضوع ، وأنهار منبوع . أقسم قس قسماً بالله لا كذباً ولا إثماً : ليتبعن الأمر سخطاً ، ولين كان في بعضه رضاء ، إن في بعضه لسخطاً ، وما هذا باللعيب ، وإن من وراء هذا للمعجب . أقسم قس قسماً بالله لا كذباً ولا إثماً : إن الله ديناً هو أَرْضَى لهُ من دين نحن عليه . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ » .

قال رسول الله ﷺ : « ثم أنشد قس بن ساعدة أبياتاً من الشعر لم أحفظها عنه » . فقام أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فقال : أنا حضرت ذلك المقام ، وحفظت تلك المقالة ، فقال رسول الله ﷺ : « ماهي ؟ » فقال له أبو بكر : قال قس بن ساعدة في آخر كلامه :

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٨٤/٤ ، ٢٨٥) .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٥١٢/٥) .

(٣) يس : ١ - ٢ .

(٤) انظر : البداية والنهاية (ج ٢٢٦/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٢١/٨) .

(٥) البداية والنهاية (ج ٢٢٤/٢) .

في السَّمَاوَاتِ الْأُولَى
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ
أَيُّقُنْتُ أَنِّي لَمْ أَحْصِ
مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
تِلْكَ لَيْسَ لَهَا مَصَادِيرُ
يَمِضِي الْأَكْبَرُ وَالْأَصْغَرُ
وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَايِرُ
لَا حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

ثم أقبل رسول الله ﷺ على وفد إيراد فقال : « هل وجد لقس بن ساعدة وصية ؟ » فقالوا : نعم ؛ وجدنا له صحيفة تحت رأسه مكتوب فيها :

يَانَاعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَمْوَاطِ فِي جَدَثِ
دَعُهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُّ بِهِمْ
مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمَوْتٌ فِي ثِيَابِهِمْ
عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا ثَوْبِهِمْ خِرَقٌ
كَأَنَّ بَنِيَّ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ
مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْأَوْزَقُ (١) الْخَلْقُ (٢)

فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَقَدْ آمَنَ قَسٌّ بِالْبَعْثِ » (٣) .

وفي رواية قال رسول الله ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ قَسًّا ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ يُبْعَثَهُ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، أُمَّةً وَحْدَهُ » (٤) .

ومن هؤلاء الأحناف : كعب بن لؤي بن غالب ، روي أنه كان يجمع قومه يوم الجمعة فيخطب فيهم ، ويذكرهم بأيات الله في الآفاق وبالبعث بعد الموت ، ويبشّرهم بمخرج نبي كريم من الحرم . وكان بين موت كعب بن لؤي وبين مبعث النبي ﷺ خمسمائة وستون سنة (٥) .

☆ ☆ ☆

(١) الْأَوْزَقُ : الْأَسْمَرُ (لسان العرب : ج ٤٨١٧/٦) .

(٢) خَلَقَ الثَّوْبَ وَالْجِلْدَ وَغَيْرَهَا خَلْقًا : تَلَيَّ (الوسيط : ج ٢٥١/١) .

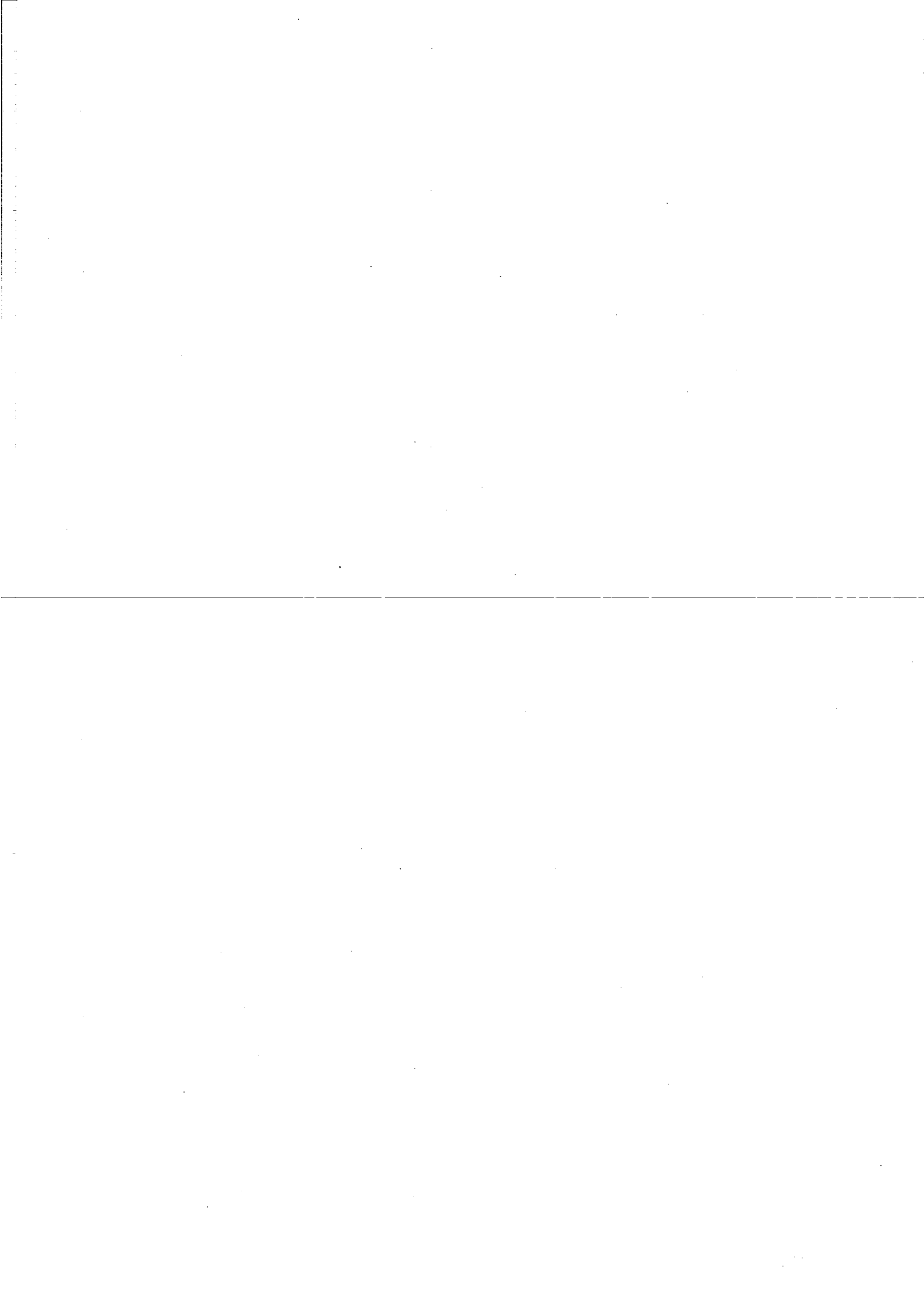
(٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠٢/٢) .

(٤) انظر : عيون الأثر (ج ٦٩/١) .

(٥) انظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١٠٦/١) .

القسم الثاني

« البعثة والدعوة في دورها المكي »



بعثة النبي ﷺ

مقدمات نزول الوحي :

- تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ :

روى ابن إسحاق بسنده عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ - حين أَرَادَهُ اللهُ بِكَرَامَتِهِ ، وابتدأه بالنبوة - كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسّر^(١) عنه البيوت ، ويُفْضِي إِلَى شِعَابِ^(٢) مَكَّةَ وَبَطُونَ أوديتها ، فلا يمرّ رسول الله ﷺ بِحَجْرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : فَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَوْلَهُ وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَخَلْفَهُ فَلَا يَرَى إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ ، فَكَثَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ يَرَى وَيَسْمَعُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ ، ثُمَّ جَاءَهُ جَبْرِيْلٌ بِمَا جَاءَهُ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ وَهُوَ بِحِجْرَاءَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ^(٣) .

وروى مسلم بسنده عن جابر بن سمرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لِأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لِأَعْرِفُهُ الْآنَ »^(٤) .

- سماع النبي ﷺ الصّوت ورؤيته الضّوء :

روى مسلم بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة ، يسمع الصّوت ويرى الضّوء^(٥) سبع سنين ولا يرى شيئاً ، وثمان سنين يُوحى إليه^(٦) .

وعنه أيضاً قال : إن النبي ﷺ قال لخديجة : « إِنِّي أَرَى ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنَنٌ » ، قالت : لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله ! ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له ، فقال : إن يك صادقاً ؛ فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى ، فإن بُعِثَ وأنا حيّ فسأعزّزه وأنصره وأؤمن به^(٧) . وفي رواية أنه قال ﷺ لها : « لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَاهِنًا » ، فقالت : إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ، إنك تصدّق الحديث ، وتؤدّي الأمانة ، وتصل الرّحم^(٨) .

(١) تَحَسَّرَ : تَهَيَّأَ .

(٢) الشُّعْبُ : انْفِرَاجٌ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ (الوسيط : ج ٤٨٦/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٥٢/١) .

(٤) صحيح مسلم (ج ١٧٨٢/٤) كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ح ٢ .

(٥) يسمع الصّوت ؛ أي صوت الهاتف به من الملائكة ، ويرى الضّوء ؛ أي نور الملائكة ونور آيات الله تعالى ، حتى رأى المَلَكَ بعينه وشافهه بوحى الله تعالى (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١٠٥/١٥) .

(٦) صحيح مسلم (ج ١٨٢٧/٤) كتاب الفضائل - باب كم أقام النبي ﷺ بمكة وللمدينة ح ١٣٢ .

(٧) مسند الإمام أحمد (ج ٣١٢/١) .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ١٩٥/١) .

- حبّ النبي ﷺ للخلوة :

ولما تقاربت سنّ النبي ﷺ الأربعين حبّب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده . فكان رسول الله ﷺ يهجر مكة كلّ عام ليقضي شهر رمضان في غار حراء^(١) ، وكان ذلك مما تحنّث^(٢) به قريش في الجاهليّة^(٣) . وحرّاء غار في جبل النّور يقع في جانب الشّمال الغربي من مكّة على مسافة ثلاثة أميال منها على يسار الذهاب إلى منى .

وكان النبي ﷺ يتزوّد لخلوته لبعض ليالي الشّهر ، فإذا نفذ ذلك الزّاد رجع إلى أهله يتزوّد قدر ذلك ، فيقيم في حراء شهراً من كلّ سنة يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضي وقته في الذّكر والعبادة^(٤) والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة ، حتى وصل من الصّفاء والإشراق إلى مرتبة عالية انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحة قلبه المجلّوة ، فأصبح لا يرى رؤيا إلاّ جاءت كفلق الصّبح^(٥) .

وكان النبي ﷺ إذا قضى جواره^(٦) من شهره ذلك كان أوّل ما يبدأ به - إذا انصرف قبل أن يدخل بيته - الكعبة ، فيطوف بها سبعا ، أو ما شاء الله تعالى من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته .

وظل النبي ﷺ على ذلك ثلاث سنوات إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك^(٧) .

- الرّؤيا الصّادقة :

وكان أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من النّبوة الرّؤيا الصّادقة ، فكان لا يرى رؤيا في نومه إلاّ جاءت كفلق الصّبح ، حتى مضت على ذلك ستّة أشهر^(٨) ، ثم بدىء بالوحي عليه الصّلاة والسلام .

- شقّ صدر النبي ﷺ :

رؤي عن سعيد بن المسيّب أنه قال : وكان - فيما بلغنا - أوّل ما رأى أن الله ، عزّ وجلّ ، أراه رؤيا في المنام ، فشقّ ذلك عليه ، فذكرها رسول الله ﷺ لامرأته خديجة ... ثم إنه خرج من عندها ، ثم رجع إليها فأخبرها أنه رأى بطنه شقّ ثم طهّر وغسّل ، ثم أعيد كما كان ، قالت : هذا والله خير فأبشّر ، ثم استعلن له جبريل عليه السّلام . وذكر الخبر (وفيه قصة : نزول سورة العلق)^(٩) .

(١) قيل : الحكمة في تخصيصه بالتخلي في غار حراء أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة ، فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات : الخلوة ، والتّعبّد ، والنظر إلى البيت (فتح الباري : ج ٢٥٥/١٢) .

(٢) أي : تتعبّد . وقد تقدّم .

(٣) تقدّم أن عبد المطلب كان أوّل من تحنّث بحرّاء . ثم تبعه على ذلك من كان يتألّه - أي يتعبّد - كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيّرة . انظر : (السيرة الحلبية : ج ٢٣٧/١) .

(٤) قيل : إنه ﷺ كان يتعبّد قبل النّبوة بشرع إبراهيم ، عليه السلام ، وقيل : بشريمة موسى عليه السلام (السيرة الحلبية : ج ٢٣٧/١) .

(٥) انظر فقه السيرة / للشيخ محمد الغزالي (ص : ٨٨ - ٨٩) .

(٦) الجوار : الاعتكاف (النهاية : ج ٢١٢/١) . والفرق بين الجوار والاعتكاف ، أن الاعتكاف لا يكون إلاّ داخل المسجد ، وأما الجوار فإنه قد يكون خارجه (الروض الأنف : ج ٢٦٨/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٤-٢٥٢/١) ، وصحيح البخاري (ج ٢/١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢١/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٣٧-٢٣٦/١) ، ومعجم البلدان (ج ٢٣٩/٣) ، والرّحيق المختوم (ص : ٧٤) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٢/١) ، وصحيح البخاري (ج ٢/١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، والسيرة الحلبية (ج ٢٣٤/١) . وتعدّ هذه الرّؤيا التي استمرت ستّة أشهر جزءاً من ستّة وأربعين جزءاً من النّبوة ، لأن مدة النّبوة كانت ثلاثاً وعشرين سنة . انظر (السيرة الحلبية :

ج ٢٣٤/١) .

(٩) دلائل النّبوة للبيهقي (ج ١٤٢/٢) .

نزول الوحي :

ولما تكامل للنبي ﷺ أربعون سنة ، وخرج إلى حراء ، كما كان يخرج في شهر رمضان ، أتاه جبريل عليه السلام ، بأمر الله تعالى ، وبعثه سبحانه رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً .

قال ابن إسحاق : ابتدء رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان ، يقول الله عز وجل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ .. حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (٢) ، وقال الله تعالى : ﴿ حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٣) .

وكان ذلك يوم الاثنين ليلاً لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وقيل : في الحادي والعشرين منه ، وقيل غير ذلك (٤) .

ولنترك السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، تروي لنا قصة بدء الوحي . قالت : أول ما أبدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : « ما أنا بقارىء » ، قال : « فأخذي فطعتي (٥) حتى تبلغ مني الجهد » ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذي ، ففطعتي الثانية حتى تبلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذي فطعتي الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ﴾ (٦) . فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، رضي الله عنها ، فقال : « زملوني (٧) زملوني » ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسي » ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل (٨) ، وتكسب المعدوم (٩) ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية (١٠) ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ! ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً (١١) ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : « أومخرجني هم ؟ » قال : نعم ؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي (١٢) .

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) القدر : ١ - ٥ .

(٣) الدخان : ١ - ٥ .

(٤) انظر سيرة ابن هشام (ج ٢٥١/١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨) ، وصحيح البخاري (ج ٧٢/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، وصحيح مسلم (ج ٨٢٠/٢) كتاب الصيام - باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ... ح ١٩٨ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٩٤/١) ، والرحيق المختوم / للشيخ المباركفوري (ص : ٧٥) .

(٥) القَطْ : العَصْرُ الشَّدِيدُ وَالْكَبْسُ (النهاية : ج ٣٧٢/٣) .

(٦) الملق : ١ - ٣ .

(٧) تَزَمَّلَ بِثَوْبِهِ : التَمَّ فِيهِ (النهاية : ج ٣١٢/٢) .

(٨) الْكُلُّ : الثَّقَلُ مِنْ كُلِّ مَا يَتَكَلَّمُ (النهاية : ج ١٩٨/٤) .

(٩) الْمَعْدُومُ : الْفَقِيرُ الَّذِي صَارَ مِنْ شِدَّةِ حَاجَتِهِ كَالْمَعْدُومِ نَفْسِهِ ، أَرَادَتْ تَمْطِي الْفَقِيرَ الْمَالَ (النهاية : ج ١٩٢/٣) .

(١٠) في رواية للبخاري في الصحيح (ج ٢٨/٩) كتاب التمبر - باب أول ما أبدى به رسول الله ﷺ من الوحي ... : « وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعربية من الإنجيل » .

(١١) أي : ياليتني كنت شاباً عند ظهور النبوة ، حتى أبلغ في نصرتها وحماتها (النهاية : ج ٢٥٠/١) .

(١٢) صحيح البخاري (ج ٢/٨) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ خرج من غار حراء بعد ما فوجيء بالوحي - وفي رواية أخرى أنه قال ﷺ : « ولم يكن في خلق الله ، عز وجل ، أحد أبغض إليّ من شاعِرٍ أو مجنون ، فكنت لأطيق أنظر إليها ، فقلت : إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون ، ثم قلت : لا تحدث عني قریش بهذا أبداً ، لأعبدن إلى حالي (١) من الجبل فلا طرحن نفسي منه فلا تترحن » - قال : « حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد ! أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأبي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد ! أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال : فوقفتم أنظر إليه ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أضرف وجهي عنه في أفق السماء ، قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتك كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أترجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرفت عني ، وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذيها مضيفاً إليها (٢) ، فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسل في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي ، ثم حدثتها بالذي رأيت » . فقالت : أبشر يا ابن عم وأثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصّر وقرأ الكتاب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فتولي له فليثبت ، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، فسئل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم (٣) .

وفي رواية للبيهقي في دلائل النبوة : أن النبي ﷺ لما جاءه جبريل ، عليه السلام ، برسالة ربه انصرف منقلباً إلى أهله موقناً ، قد رأى أمراً عظيماً ، فلما دخل على خديجة قال : « رأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيتك في المنام ، فإنه جبريل ، عليه السلام ، استعلن لي ، أرسله إليّ ربي » ، وأخبرها بالذي جاءه من الله ، عز وجل ، وما سمع منه ، فقالت : أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً ، فأقبل الذي جاءك من عند الله ، عز وجل ، فإنه حق ، وأبشر فإنك رسول الله حقاً (٤) .

قال الشيخ محمد الغزالي : كان موقف زوجة خديجة منه من أشرف المواقف التي تُحمد لامرأة في الأولين والآخرين ، طمأنته حين قلق ، وأراحته حين جهد ، وذكرته بما فيه من فضائل مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً ، وإن الله إذا طبع رجلاً على المكارم الجليلة والمناقب السمحة فلكما يجعله أهل إعزازه وإحسانه ، وبهذا الرأي الراجح والقلب الصالح استحقت خديجة أن يبيها رب العالمين ، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين (٥) .

قال ابن هشام : حدثني من أتق به أن جبريل ، عليه السلام ، أتى رسول الله ﷺ فقال : أقرىء خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله ﷺ : « يا خديجة ! هذا جبريل يُقرئك السلام من ربك » ، فقالت خديجة : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام (٦) .

وعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنها ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب (٧) لا صخب فيه ولا نصب » (٨) .

(١) الحالين : المكان المرتفع المنيف (الوسيط : ج ١٩٢/١) .

(٢) ضاف إليه : دنا وما واستأنس به (الوسيط : ج ٥٤٩/١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٤/١) ، وتاريخ الطبري (ج ٣٠٢/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ١٤٧/٢) .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٢/٢) .

(٥) فقه السيرة / للشيخ محمد الغزالي (ص : ٩٢) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٥٩/١) . والخبر رواه بمعناه البخاري في صحيحه (ج ٤٨/٥) كتاب المناقب - باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها .

(٧) القصب في هذا الحديث : لؤلؤ مجوف واسع كالقصر المنيف (النهاية : ج ٦٧/٤) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ٢٥٩/١) .

فترة الوحي :

وقد فتر الوحي عن رسول الله ﷺ بعد أول مرة رأى جبريل ، عليه السلام ، فيها مدة يسيرة ، فعن جابر بن عبد الله قال :
حَسِبَ الوحي عن رسول الله ﷺ في أول مرة ، وحبَّب إليه الخلاء ، فجعل يخلو في حراء^(١) .

وحزَن رسول الله ﷺ لذلك حزناً شديداً حتى كان يفتدو إلى تَيْبَر^(٢) مرة وإلى حراء مرة يريد أن يُلقِي نفسه منه^(٣) ، روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنها قالت بعد أن ذكرت قصة بدء الوحي : وَفَتَرَ الوحي فَتْرَةً حتى حَزَنَ النَّبِيُّ ﷺ فيما بَلَّغْنَا ، حَزْناً غَداً منه مِراراً كي يتردَّى مِن رُؤوسِ شَواهِقِ الجبال ، فَكَلِمًا أُوفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لكي يُلقِي نفسه ، تبتدئ له جبريل فقال : يا مُحَمَّد ! إِنَّكَ رسولُ الله حقاً ، فَيَسْكُنُ لذلك جَأْشَهُ^(٤) ، وَتَقَرَّرَ نفسه ، فيرجع ، فإذا طالَتْ عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك ، فإذا أُوفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تبتدئ له جبريل فقال له مثل ذلك^(٥) .

قال ابن حجر : وكان ذلك - أي انقطاع الوحي - ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروح ، وليحصل له التشوف إلى العود^(٦) .

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد بسنده عن ابن عباس أنها كانت أياماً ، وأما ما اشتهر من أنها دامت سنتين ونصف أو ثلاث سنوات فلا يصح بعد إدارة النظر في جميع الروايات ، وإن صح ذلك فليس المراد بفترة الوحي المقدر بثلاث سنين أو أقل ، وهي ما بين نزول ﴿ أَقْرَأْ ﴾ و ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ عدم مجيء جبريل ، عليه السلام ، بل تأخر نزول القرآن فقط . وقيل : إن إسرائيلي قرن نبوته في تلك الفترة ، ونفى الواقدي هذا القول وجزم بعدم صحة ذلك^(٧) .

نزول الوحي مرة ثانية والأمر بالدعوة إلى الله :

ولمَّا عرف محمد ﷺ معرفة اليقين أنه أضحى نبياً لله الكبير المتعال ، وأن الذي جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء ، وصار تشوقه وارتقابه لحيء الوحي سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، جاءه جبريل ، عليه السلام ، للمرة الثانية ، ثم نزل عليه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .. ﴾^(٨) .

روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : قال رسول الله ﷺ وهو يُحَدِّثُ عن فترة الوحي : « بَيْنَمَا أَنَا مُشِيٌّ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحَرَاءِ ، جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَفَرَّقْتُ^(٩) مِنْهُ - وفي رواية أخرى عنه : حتى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ - فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي ، فَدَثَرُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّحْزَنَ فَأُهْجِرْ ﴾^(١٠) .. قال : ثم تَتَابَعِ الْوَحْيُ »^(١١) .

كانت هذه الأوامر المتتابعة الفاطعة إيداناً لرسول الله ﷺ بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة ، والتشمير ، والإنذار والإعذار ، فليقم يحمل الرسالة وينذر الناس ، وليأنس بالوحي ، وليصبر على عنائه فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٣٧٧/٣) .

(٢) تَيْبَرٌ : جَبَلٌ مِنْ أَعْظَمِ جِبَالِ مَكَّةَ (معجم البلدان : ج ٦٣) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٩٦/١) .

(٤) الْجَأْسُ : الْقَلْبُ وَالنَّفْسُ ، وَالْجَنَانُ ، يُقَالُ : فَلَانَ رَابِطَ الْجَأْسِ : أَي ثَابِتَ الْقَلْبِ لَا يَزْتَاغُ وَلَا يَنْزَعُ لِلْعَطَائِمِ وَالشَّدَائِدِ (النهاية : ج ٢٣٢/١) .

(٥) صحيح البخاري (ج ٢٨/٩) كتاب التعبير - باب أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة .

(٦) فتح الباري (ج ٢٧/١) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٩١/١ ، ١٩٦) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٨٧/٢) ، والرحيق المختوم (ص : ٧٨) .

(٨) فقه السيرة / للشيخ الغزالي (ص : ٩٤) .

(٩) فَرَّقَ يَفْرُقُ فَرْقًا : خَافَ وَفَزِعَ (النهاية : ج ٤٣٨/٣) .

(١٠) للدثر : ١ - ٥ .

(١١) صحيح البخاري (ج ٢١٥/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، و (ج ٢٠٢/٦) سورة للدثر .

فقام رسول الله ﷺ وظلّ قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً ! لم يسترح ولم يسكن ، ولم يعيش لنفسه ولا لأهله ، قام وظلّ قائماً على دعوة الله يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به ، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، عبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى ، عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً ، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد ؛ منذ أن سمع النداء العلوي الجليل ، وتلقى منه التكليف الرهيب ... جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء^(١) .

تحقق خديجة رضي الله عنها من الوحي :

روى ابن إسحاق بسنده عن خديجة ، رضي الله عنها ، أنها قالت لرسول الله ﷺ : أي ابن عمّ ! أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال : « نَعَمْ » ، قالت : فإذا جاءك فأخبرني به ، فجاءه جبريل ، عليه السلام ، كما كان يصنع ، فقال رسول الله ﷺ لخديجة : « يا خديجة ! هذا جبريل قد جاءني » ، قالت : قم يا ابن عمّ فاجلس على فخذي اليسرى ، قال : فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها ، قالت : هل تراه ؟ قال : « نَعَمْ » ، قالت : فتحوّل فاجلس على فخذي اليماني ، قالت : فتحوّل رسول الله ﷺ فجلس على فخذه اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟ قال : « نَعَمْ » ، قالت : فتحوّل فاجلس في حجرتي ، قالت : فتحوّل رسول الله ﷺ فجلس في حجرها ، قالت : هل تراه ؟ قال : « نَعَمْ » ، قال : فتحوّلت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها ، ثم قالت له : هل تراه ؟ قال : « لا » ، قالت : يا ابن عمّ أثبت وأبشر ؛ فوالله إنه لملك ، وما هذا بشيطان^(٢) . وفي رواية : أبشر فإنه ملك كريم ، لو كان شيطاناً ما استخيا^(٣) .

مراتب الوحي وشدة نزوله :

للوحي مراتب شتى بعضها أيسر من بعض ، إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح كما ذكرنا آنفاً .

والثانية : ما كان يلقى به الملك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه ، فعن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن جبريل ، عليه السلام ، ألقى في روعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فإن الله لا ينال فضلَه بمَعْصِيَةِ »^(٤) .

والثالثة : أنه ﷺ كان يتثل له الملك رجلاً ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً ، وقد روي أن جبريل ، عليه السلام ، كان يأتيه في صورة دحية الكلبي ، وكان دحية ، رضي الله عنه ، رجلاً جميلاً أبيض^(٥) .

والرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن ناقته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاءه ﷺ الوحي كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت ، رضي الله عنه ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها^(٦) . روى البخاري بسنده عن السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام ، رضي الله عنه ، سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة

(١) انظر : فقه السيرة / للشيخ الغزالي (ص : ٩٤) ، وفي ظلال القرآن / تفسير سورة المزمل والمدثر .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٥٧/١) .

(٣) دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٢٨٢/١) .

(٤) المستدرک (ج ٤٢/٢) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١٠٧/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٢٥٦/٨ ، ٢٥٧) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٣٠/٤) كتاب الجهاد والسير - باب قول الله تعالى ﴿ لا تستوي القاعدون ... ﴾ ، والمستدرک (ج ٥٠٥/٢) ، وطبقات

ابن سعد (ج ١٩٧/١) .

الجرس ، وهو أشدُّ عليّ ، فَيُفْصَمُ عَنِّي (١) وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ « (٢) .
وعنها أيضا قالت رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً (٣) .
وفي رواية أخرى عنها أيضا أنها كانت تأخذه البرحاء (٤) حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات (٥) .
والخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين ، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

والسادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .
والسابعة : كلام الله تعالى له منه إليه بلا واسطة ملك ، كما كلم الله موسى بن عمران ، عليه السلام ، وهذه المرتبة ثابتة لسيدنا موسى ، عليه السلام ، قطعاً بنص القرآن ، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء والمعراج .
وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة ، وهي تكليم الله سبحانه له كفاحاً من غير حجاب ، وهذا على مذهب من يقول إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف (٦) .

وروي أن رسول الله ﷺ كان يخاف من نسيان الوحي ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ (٧) قال : كان النبي ﷺ يُعَالَجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً ، وَكَانَ يُحْرِكُ شَفْتَيْهِ .. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ﴾ ، قال : جَمَعُهُ فِي صَدْرِكَ ثُمَّ تَقْرُؤُهُ ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ، قال : فَاسْتَمِعَ لَهُ وَأَنْصَتَ ، ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ ، قال : فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ جَبْرِيْلُ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، اسْتَمَعَ ، فَإِذَا انْطَلَقَ جَبْرِيْلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا أَقْرَأَهُ (٨) .

-
- (١) يُفْصَمُ عَنْهُ : يَقْلَعُ (النهاية : ج ٤٥٢/٣) .
 - (٢) صحيح البخاري (ج ٢/١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .
 - (٣) صحيح البخاري (ج ٣/١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .
 - (٤) تَأْخُذُهُ الْبَرْحَاءُ : أَي شِدَّةُ الْكَرْبِ مِنْ ثِقَلِ الْوَحْيِ (النهاية : ج ١١٣/١) .
 - (٥) صحيح البخاري (ج ٢٣٠/٣) كتاب الشهادات - باب تعديل النساء بعضهم بعضاً .
 - (٦) انظر زاد المعاد (ج ٧٨/١ - ٨٠) .
 - (٧) القيامة : ٧٥ .
 - (٨) صحيح البخاري (ج ١٨٧/٩) كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ .

أدوار الدعوة في حياة النبي ﷺ ومراحلها

ومنذ أن تلقى النبي ﷺ أمر ربّه في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ... وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ قام من فوره يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ويعرض عليهم الأخذ بهذا الدين الذي أرسله الله به .

وقد مرّت الدعوة في حياة النبي ﷺ منذ بعثته إلى وفاته بدورين اثنين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز ؛ وهما :

١ - الدور المكي ، واستمر ثلاث عشرة سنة تقريباً .

٢ - الدور المدني ، واستمر عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكلّ منها خصائص تمتاز بها عن غيرها ، ويظهر ذلك جلياً بعد النظر في الظروف التي مرّت بها الدعوة خلال الدورين ..

ويمكن تقسيم الدور المكي إلى مرحلتين :

- المرحلة الأولى : الدعوة سرّاً ، واستمرت ثلاث سنوات .

- المرحلة الثانية : الدعوة جهراً ، وباللسان فقط ، دون قتال ، من بداية السنة الرابعة للبعثة حتى الهجرة إلى المدينة .

أما الدور المدني فيمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل :

- المرحلة الأولى : مرحلة أثّرت فيها القلاقل والفتن ، وأقيمت فيها العراقيل من الداخل ، وزحف فيها الأعداء إلى المدينة لاستئصال خضرائها من الخارج . واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية سنة ست من الهجرة .

- المرحلة الثانية : مرحلة الهدنة مع الزعامة الوثنية ، واستمرت حتى فتح مكة ، في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وهي مرحلة دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام .

- المرحلة الثالثة : مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجا ، وهي مرحلة توافد القبائل والأقوام إلى المدينة ، واستمرت إلى انتهاء حياة النبي ﷺ في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة^(١) .

وقد اعتمدنا في سرد أحداث السيرة المتعلقة بالدور المكي على التقسيم الآنف الذكر ، فأفردنا قسماً خاصاً لمرحلة الدعوة سرّاً ، وقسماً آخر لمرحلة الدعوة جهراً .

أما الدور المدني ، فلم نعتد في تفصيلنا لأحداثه على تقسيمه إلى المراحل السابقة ، وإنما أفردنا لكل سنة من سنّيه قسماً خاصاً به ، فقسم لأحداث السنة الأولى من الهجرة ، وثان لأحداث السنة الثانية ، وثالث لأحداث السنة الثالثة وهكذا ...

(١) الرحيق المختوم / للشیخ صفي الرحمن المباركفوري (ص : ٨٤ ، ١٩٥) ، وفقه السيرة / للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص : ٧٥) .

المرحلة الأولى

« الدعوة إلى الإسلام سرّاً »

بدأ النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام سرّاً بإلهام من الله ، عزّ وجلّ ، لئلا يفاجيء أهل مكة بما يبهجهم عليه ، فجعل يعرض الإسلام على ألق الناس به من آل بيته وأصدقائه ، ويعرضه على كل من يتوسّم فيه خيراً ممن يعرفهم بحبّ الحق والخير ويعرفونه بالصدق والصلاح^(١) .

المسلمون الأوائل :

فكان أول من أجابه من هؤلاء - الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجملة نفسه وصدق خبره - جماعة عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم زوجته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لَقَدْ فَضَّلْتُ خَدِيجَةَ عَلَى نِسَاءِ أُمَّتِي كَمَا فَضَّلْتُ مُرَيْمَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ »^(٢) .

قال ابن إسحاق : وأمّنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيّه ﷺ ؛ لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها : تَنَبَّهَتْ ، وَتَخَفَّفَ عَلَيْهِ ، وَتَصَدَّقَهُ ، وَتَهَوَّنَ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ ، رَحِمَا اللَّهُ تَعَالَى^(٣) .

ثم أسلم مولاة زيد بن حارثة الكلبي ، وابن عمّه علي بن أبي طالب ، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق رضي الله عنهم .

أما زيد بن حارثة ويقال له حبّ النبي ﷺ فكان أول من أسلم من الموالى ، وكان قد أسير ورّق ، فلكته خديجة رضي الله عنها ، وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ ، فلما رآه ﷺ أعجبه فاستوهبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبنّاه ، فكان يدعى زيد بن محمّد ، وذلك قبل أن يوحي إليه . وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً ، وبكى عليه حين فقده ، فلما علم أنه بمكة قدمها ليفديه ، فدخل حارثة وأخوه على النبي ﷺ فقال : يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ! يا ابن هاشم ! يا ابن سيّد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته ، تفكّون العاني ، وتطمعون الأسير ، جئناك في ابننا عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإننا سنرفع لك في الفداء . فقال : « مَنْ هُوَ ؟ » قال : زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : « فَهَلَّا غَيْرُ ذَلِكَ » ، قال : ما هو ؟ قال : « ادْعُوهُ فَخَيْرٌ فَإِنْ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ بِغَيْرِ فِدَاءٍ ، وَإِنْ اخْتَارَنِي فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَنِي أَحَدًا » . قال : قد زدتنا على النصف وأحسننا ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له : « إِنْ شِئْتَ فَأَقِمْ عِنْدِي ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَنْطَلِقْ مَعَ أَبِيكَ » ، فقال : بل أقم عندك ، وما أنا بالذي اختار عليك أحداً ، أنت مني بمكان الأب والأم ، فقال : وَيَحْكُ يَا زَيْدُ ! اخْتَارَ الْعَبْدِيَّةَ عَلَى الْحَرِيَّةِ ، وَعَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ؟ قال : نعم ، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي اختار عليه أحداً أبداً . فلم يزل

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٢/١) .

(٢) مجمع الزوائد (ج ٢٢٢/٩) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٥٩/١) .

زيد عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله فصدقه وأسلم وصلى معه ، فلَمَّا أنزل الله عز وجل : ﴿ اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾^(١) قال : أنا زيد بن حارثة^(٢) .

وأما علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فلم يبلغ الحلم حين أسلم ، وكان ابن عشر سنين ، وقيل : ابن ثمان سنين ، ولم يعبد الأوثان قط لصغره ، وكان في حجر النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه^(٣) ، وكان أول من أسلم من الصبيان .

روى ابن إسحاق بسنده عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج قال : كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب ، ومما صنع الله له ، وأراده به من الخير ، أن قریشاً أصابتهم أزيمة^(٤) شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه - وكان من أسير بني هاشم - : « يا عباس ! إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزيمة ، فأنطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله أخذ من بينه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكلهما عنه » ، فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فقال لها أبو طالب : إذا تركتا لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما . فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرأ فضمه إليه ، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً ، فاتبعه علي ، رضي الله عنه ، وأمن به وصدقه ، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه^(٥) .

وأما أبو بكر بن أبي قحافة ، رضي الله عنه ، فإنه كان أول من آمن بالرسول ﷺ من الرجال البالغين الأحرار . واسمه عبد الله ، ويقال له عتيق أيضاً لحسن وجهه وجماله ، وقيل : إنما سمي عتيقاً لأن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر »^(٦) .

وكان رضي الله عنه صديقاً لرسول الله ﷺ قبل البعثة ، وهو أصغر منه بثلاث سنين ، وكان يعلم من صدقه ﷺ وأمانته وحسن سجيته وكرم أخلاقه ما يمنع من الكذب على الخلق ، ولهذا ما إن ذكر له رسول الله ﷺ أن الله أرسله بادر إلى تصديقه ولم يتلعم^(٧) . قال ابن إسحاق : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عينة كبوة^(٨) ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم^(٩) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه^(١٠) » .

وقد روي في سبب إسلامه رؤيا رآها قبل ذلك ، وذلك أنه رأى القمر ينزل إلى مكة ، ثم رآه قد تفرق على جميع منازل مكة ويبيتها ، فدخل في كل بيت منه شعبة ، ثم كأنه جمع في حجره ، فقصها على بعض الكتائبين ، فعبثها له بأنه النبي المنتظر الذي قد أطل زمانه تتبعه وتكون أسعد الناس به ، فلما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام لم يتوقف^(١١) . ثم أزر النبي ﷺ في نصردين الله تعالى بنفسه وماله . روى البخاري بسنده عن أبي الدرداء ، رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « إن الله بعثني إليكم ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ »^(١٢) .

(١) الأحزاب : ٥ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٦/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٠/٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٤/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١/٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٠٦/٦) .

(٤) الأزيمة : السنة المجذبة (النهاية : ج ٤٧/١) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٤/١) .

(٦) المستدرک (ج ٦١٣/٣) قال الحاکم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صالح ضعفه والسند مظلم .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٧/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦٤/٢) ، والبداية والنهاية (ج ٢٧/٣) .

(٨) الكبوة : الوقفة كوقفه العائر ، أو الوقفة عند الشيء يكرهه الإنسان (النهاية : ج ١٤٦/٤) .

(٩) قال ابن هشام : عكم : تكلمت .

(١٠) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٨/١) .

(١١) الروض الأئف / للسيهلي (ج ٢٨٨/١) .

(١٢) صحيح البخاري (ج ٦٥/٥) كتاب المناقب - باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ .

قال ابن إسحاق : لَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مُؤَلَّفًا لِقَوْمِهِ ، مُحِبًّا سَهْلًا ، وَكَانَ أَنْتَسَبَ قَرِيشَ لِقَرِيشٍ ، وَأَعْلَمَ قَرِيشَ بِهَا وَبِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَكَانَ رَجُلًا تَاجِرًا ذَا خَلْقٍ وَمَعْرُوفٍ ، وَكَانَ رِجَالُ قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ وَيَأْتُونَهُ لَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمْرِ ؛ لِعِلْمِهِ وَتِجَارَتِهِ وَحَسُنَ مَجَالَسَتِهِ ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ مَنْ وَثِقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ مِمَّنْ يَغْتَشَاهُ وَيَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فَأَسْلَمَ بَدْعَائِهِ - فِيمَا بَلَغَنِي - عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ (١) . وَكَانَ الزُّبَيْرُ حِينَ أَسْلَمَ ابْنَ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً (٢) .

فَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ هُمُ الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ وَطَلِيْعَةُ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ تَلَاهُمْ جَمْعٌ آخَرَ مِنَ الْمَسْلَمِينَ الْأَوَائِلِ وَهُمْ : أَبُو عُبَيْدَةَ وَاسْمُهُ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجِرَاحِ ، وَأَبُو سَلَمَةَ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ ، وَالْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ ، وَعَثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ ، وَأَخُوهُ قُدَامَةُ وَعَبْدُ اللَّهِ ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ الْمُطَّلِبِ ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ ، وَامْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ بْنِ نَفِيلٍ أُخْتُ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَأَسْمَاءُ وَعَائِشَةُ بِنْتَا أَبِي بَكْرٍ ، وَأُمُّ الْفَضْلِ وَهِيَ لِبَابَةِ الْكِبْرَى بِنْتُ الْحَارِثِ ، وَخَبَّابُ بْنُ الْأَزْتِ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ ، وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ، وَعُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَخُو سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ .

ثُمَّ بَدَأَ النَّاسَ يَتَسَامَعُونَ بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ ، وَسَارِعَ الْفُقَرَاءُ وَالْأَرْقَاءُ إِلَى الدَّخُولِ فِيهَا ، فَأَسْلَمَ مَسْعُودُ بْنُ رَبِيعَةَ الْقَارِي ، وَسَلِيْطُ بْنُ عَمْرٍو ، وَأَخُوهُ حَاطِبُ ، وَعِيَّاشُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَامْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ سَلَامَةَ ، وَخُنَيْسُ بْنُ خَدَّاقَةَ ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ حَلِيفُ آلِ الْخَطَّابِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَأَخُوهُ أَبُو أَحْمَدٍ حَلِيفًا بِنِي أُمِّيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَامْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ ، وَحَاطِبُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَامْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْمُجَلَّلِ ، وَأَخُوهُ حَطَّابُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَامْرَأَتُهُ فَكَيْهَةَ بِنْتُ يَسَارٍ ، وَمَعْمَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَالسَّائِبُ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَزْهَرَ ، وَامْرَأَتُهُ زَمْزَمَةُ بِنْتُ أَبِي عَوْفٍ ، وَالنَّحَّامُ وَاسْمُهُ نَعِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - وَإِنَّمَا سَمِيَ النَّحَّامَ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُ نَحْمَةً فِي الْجَنَّةِ » (٣) - وَعَامِرُ بْنُ فَهْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، وَامْرَأَتُهُ أُمَيْمَةُ بِنْتُ خَلْفٍ ، وَأَبُو خَدِيفَةَ بْنِ عُبَيْتَةَ وَاسْمُهُ مِهْشَمٌ ، وَوَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَخَالِدُ وَعَامِرُ وَعَاقِلُ وَإِيَّاسُ بَنُو الْبُكَيْرِ بْنِ عَبْدِ يَالِيلٍ ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ حَلِيفُ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَصُهَيْبُ بْنُ سِنَانَ حَلِيفُ بَنِي تَيْمٍ مِنْ مَرَّةَ ، وَبِلَالُ بْنُ رَبَاحِ الْحَبَشِيُّ ، وَمُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٤) .

أَسْلَمَ هَؤُلَاءِ سِرًّا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْتَمِعُ بِهِمْ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الدِّينِ مُسْتَخْفِيًا ، لِأَنَّ الدَّعْوَةَ كَانَتْ لَا تَنْزِلُ فَرْدِيَّةً وَسِرِّيَّةً ، وَكَانَ الْوَحْيُ قَدْ تَتَابَعَ وَحْيِي نَزُولُهُ بَعْدَ نَزُولِ أَوَائِلِ سُورَةِ الْمَدْثَرِ ، وَكَانَتْ الْآيَاتُ وَقَطْعُ السُّورِ الَّتِي تَنْزِلُ فِي هَذَا الزَّمَانِ آيَاتٍ قَصِيرَةٍ ، ذَاتِ فَوَاصِلٍ رَائِعَةٍ مَنِيْعَةٍ ، وَإِيقَاعَاتٍ هَادِيَّةٍ خَلَابَةٍ تَتَنَاسَقُ مَعَ ذَلِكَ الْجَوْهَرِ الْمَاسِ الرَّقِيقِ ، تَشْتَمِلُ عَلَى تَحْسِينِ تَرْكِيْبَةِ النُّفُوسِ ، وَتَقْبِيْحِ تَلْوِيْثِهَا بِالشَّهَوَاتِ ، تَصِفُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ كَأَنَّهَا رَأَى عَيْنَ ، تَسِيرُ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي جَوْأِ غَيْرِ الَّذِي فِيهِ الْجَمْعُ الْبَشَرِيُّ آنَذَاكَ (٥) .

أَوَّلُ فَرَضِ الصَّلَاةِ وَالْوُضُوءِ :

وَكَانَ فِي أَوَائِلِ مَا نَزَلَ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ ، رَوَى عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ جَبْرِيْلَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَتَاهُ فِي أَوَّلِ مَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ ، فَعَلَّمَهُ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ (٦) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٨/١) .

(٢) المستدرک (ج ٣٥٩/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/١) ، وَنَحْمُهُ : صَوْتُهُ وَجَسَّهُ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٩-٢٧٤) ، وَصَحِيْحُ مُسْلِمٍ (ج ٢٢٧٩/٤) كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ ح ١٤ ، وَالْمُسْتَدْرَكُ (ج ٢٨٥/٣ ، ٢١٣ ، ٢٨٢) ، وَجَمْعُ

الزَّوَائِدِ (ج ٣٠٥/٩) ، وَطَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ (ج ٩٥/٤) وَ (ج ٢٧٧/٨) .

(٥) الرَّحِيقُ الْمَخْتُومُ : (ص : ٨٦) .

(٦) مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ (ج ١٦١/٤) .

وقد ذكر الطبري عن هشام بن محمد أن فرض الوضوء والصلاة كان في أول يوم أوحى إلى النبي ﷺ فيه^(١). وقال مقاتل بن سُلَيْمان: فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالعداء وركعتين بالعشي، ثم فرض الخمس ليلة المعراج^(٢).

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افتُرِضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهُمَزَ له بِعَقِبِهِ^(٣) في ناحية الوادي، فانفجرت منه عَيْنٌ، فتوضأ جبريل، عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر إليه لِيَرِيَهُ كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسول الله ﷺ خديجة، فتوضأ لها لِيَرِيَهَا كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته^(٤).

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب، مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيًا رجعا، فكثا كذلك ما شاء الله أن يَكْثَا، ثم إن أبا طالب عثر عليها يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي! ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: «أبي عم! هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رُسُلِهِ، ودين آييننا إبراهيم» - أو كما قال ﷺ - «بَعَثَنِي اللهُ بِهِ رَسُولاً إلى العباد، وأنت أي عم! أحمق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحمق من أجابني إليه، وأعانني عليه» - أو كما قال - فقال أبو طالب: أي ابن أخي! إني لأستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت. وذكروا أنه قال لعلي: أي بني! ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت! آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، وأتبعته، فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزُمة^(٥).

استخفاء النبي ﷺ والمسامين في دار الأرقم:

وقد كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالتزام الحيطة والحذر والتخفي وعدم الإعلان عن الإسلام إلى أن يقضي الله أمره، فكانوا إذا أرادوا الصلاة خرجوا إلى الشعاب فاستخفوا فيها بصلاتهم عن أنظار قريش، وقد بقوا على ذلك طيلة مدة الدعوة السرية.

وبينا كان سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شُعب من شعاب مكة، إذا بجاعة من المشركين يظهرون عليهم، وهم يصلون، فاستنكروا عليهم وعابوا عليهم ما يصنعون، فصر المسامون، فلم يتركهم المشركون حتى قاتلهم، واضطر المسامون أن يدافعوا عن أنفسهم، وضرب سعد، رضي الله عنه، أحد المشركين بعير فشجّه، فكان هذا أول دم أُهريق في الإسلام^(٦).

وفي رواية أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا، فرأى ومثنى، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في إحدى شعاب مكة، إذ هجم عليهما رجلان من المشركين، كانا فاحشيين، فرموهما بالحجارة ساعة، حتى خرجا وانصرفا وهما يشتان، فأتيا أبا جهل وأبا لهب وعقبته بن أبي معيط، فذكرا لهم الخبر، فانطلقوا لهم في الصبح، وكان المسامون يخرجون في غلس الصبح فيتوضؤون ويصلون، فبينما هم في شُعب إذ هجم عليهم المشركون فبطشوا بهم ونالوا منهم، وأظهر أصحاب رسول الله ﷺ الإسلام ودبوا عن أنفسهم^(٧).

(١) انظر تاريخ الطبري (ج ٣٠٤/٢).

(٢) عيون الأثر: (ج ٩١/١).

(٣) العقب: عظم مؤخر القدم (الوسيط: ج ٦١٩/٢).

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٢/١).

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٥/١).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢٧٥/١).

(٧) انظر: المستدرک (ج ٥٢/٤).

هذان الحادثان من الاعتداء على المسلمين خلال صلاتهم في الشُّعاب ، حملاً رسول الله ﷺ على نصيح المسلمين بالتخفي والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأحوال ، وخاصة أن المسلمين ليس لهم من القوة ما يواجهون به قريشاً ، ودخل هو وجماعة من أصحابه دار الأرقم بن أبي الأرقم الخزومي على الصفا ، وكانت بم عزل عن أعين المشركين ومجالسهم ، فاتخذها مركزاً للدعوة إلى الله عز وجل ، ولإجتماعه بالمسلمين من أجل الإرشاد والتعليم ، وذلك في أواخر السنة الثالثة من النبوة أو في السنة الرابعة ؛ أي في أواخر مرحلة الدعوة السريّة^(١) .

وليس في كتب الأخبار والسِّيَر تاريخ مضبوط لمدة التي استخفى فيها الرسول ﷺ والمسلمون في دار الأرقم ، فهناك من يجعل مدتها شهراً فقط ، والأغلب أنها استمرت حتى أسلم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في أواخر السنة السادسة من النبوة^(٢) .



(١) ذكر الشيخ صفى الرحمن المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم (ص : ١٠٥) أن دخول النبي ﷺ دار الأرقم كان في السنة الخامسة من النبوة ، وذلك بعد أن لاقى المسلمون من التعذيب والاضطهاد الشيء الكثير ، فكان من الحكمة أن يخفي عامة الصحابة إسلامهم وعبادتهم واجتماعهم ، أما النبي ﷺ فكان يجهز بالدعوة بين ظهرائي المشركين ولكن يجتمع بالمسلمين سرّاً في دار الأرقم نظراً لصالحهم وصالح الإسلام .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٨٢/١) ، والمستدرك (ج ٥٠٢/٣ ، ٥٠٤) .

المرحلة الثانية « الجهر بالدعوة »

استمرت الدعوة السريّة ثلاث سنوات ، وكانت حصيلة هذه المدة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة - وهم وإن كان عددهم قليلاً إلا أنهم كانوا أوتاداً يمكن الاعتماد عليهم في حمل رسالة الإسلام - ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاءه من الحق ، وأن يبيدي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه .

وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١) ، واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ .

ثم نزل قوله عز وجل : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٣) .

الدعوة في الأقربين :

بادر رسول الله ﷺ إلى تنفيذ أمر ربه ، فكان أول شيء فعله أن دعا جميع ذويه وأهل قرابته وعشيرته من بني هاشم ونفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فاجتمعوا أربعين أو خمسة وأربعين رجلاً ، فيهم زهبط كلهم يأكل الجذعة^(٤) ويشرب الفرق^(٥) ، فصنع لهم مَدًّا من طعام عليه رجل شاة ، فأكلوا حتى شبوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ، ثم دعا بغمراً^(٦) من لبن فشربوا حتى رَوُوا وبقي الشراب كأنه لم يمس . ولمّا أخبرهم رسول الله ﷺ بما أنزل الله عليه ، وأراد أن يكلمهم ويدعوهم إلى الله بادره أبو لهب إلى الكلام

(١) قال الشيخ صفي الرحمن المباركفوري : « والسورة التي وقعت فيها الآية - وهي سورة الشعراء - ذكرت فيها أولاً قصة موسى ، عليه السلام ، من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل ، ونجاتهم من فرعون وقومه ، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مرّ بها موسى ، عليه السلام ، خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله .

قال : أرى أن هذا التفصيل إنما جيء به حين أمر الرسول ﷺ بدعوة قومه إلى الله ، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجاً لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يبهرجون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسول ، من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة - علاوة على ما ذكر من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب ، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين (الرحيق المختوم / ص : ٨٩) .

(٢) الشعراء : ٢١٤ - ٢١٦ .

(٣) الحجر : ٩٤ .

(٤) الجذع : يختلف في أسنان الإبل والخيل والبقر والشاة ، فأما البعير فإنه يجذع لاستكمال أربعة أعوام ودخوله في السنة الخامسة ، والدكّر جذع والأنثى جذعة ، وهي التي أوجبتها النبي ﷺ في صدقة الإبل (لسان العرب : ج ٥٧٦/١) .

(٥) الفرق : مكيال ضخم لأهل المدينة معروف ، وقيل : مكيال يكال به اللبن (لسان العرب : ج ٣٤٠١/٥) .

(٦) الغمّر : القدح الصغير (النهاية : ج ٢٨٥/٣) .

وقال : هؤلاء هم عمومك وبنو عمومك فتكلم بما تريد ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك ، إن أقمت على ما أنت عليه ، فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش وتمدها العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر ما جئتهم به . فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وصنع لهم من الطعام مثل ما صنع أول مرة ، فأكلوا وشربوا ، ثم خطبهم رسول الله ﷺ فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ ، وَأُؤْمِنُ بِهِ ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » ، ثم قال : « إِنَّ الرَّاغِبَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَاللَّهُ لَوْ كَذَّبَتِ النَّاسَ جَمِيعاً مَا كَذَّبْتُمْ ، وَلَوْ عَزَّزَتِ النَّاسَ جَمِيعاً مَا عَزَّزْتُمْ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَاللَّهُ لَتَمَوَّزْتُمْ كَمَا تَنَامُونَ ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَاناً وَبِالسُّوءِ سُوءاً ، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا ، وَاللَّهُ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ مَا أَعْلَمُ شَاباً فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جِئْتُمْ بِهِ ، إِنِّي قَدْ جِئْتُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ ، فَأَبُؤْكُمْ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي ؟ » .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاومتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير أني أسرهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لأزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب . ثم تكلم سائر القوم كلاماً لينا غير أبي لهب فإنه قال : يا بني عبد المطلب ! هذه والله السؤة ؛ خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيري ؛ فإن أسلمتوه حينئذ ذلكم وإن منعتموه فقتلتم ، فقالت صفية عمه رسول الله ﷺ لأبي طالب : أي أخي ! أيحسبك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله ما زال العلماء يجربون أنه يخرج من ضئضء عبد المطلب نبي فهو هو ، فقال أبو لهب : هذا والله الباطل والأمامي ، وكلام النساء في الحجال^(١) ، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس^(٢) ، فقال أبو طالب : والله لننعمه ما بقينا^(٣) .

روي عن علي ، رضي الله عنه ، قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثُونَ ، فَأَكَلُوا وَشَرَبُوا ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ يَضُنُّ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي وَيَكُونُ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟ » ، فَلَمْ يَقَمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَفَكَرَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ ، فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَا . قَالَ : فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى يَدِي^(٤) .

الدعوة على جبل الصفا :

وبعد ما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته ، أخذ يفكر في وسيلة جديدة يبلغ فيها قومه رسالة ربه ، فصعد جبل الصفا ذات يوم فقال : « يَا صَبَاحَاهُ » ، ثم نادى بطون قريش كلها ، فلما اجتمعوا إليه دعاهم إلى الله وأنذرهم عذابه فقال : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنَفَعَةً وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيباً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَأَشْهَدُ بِهَا لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ »^(٥) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يَنَادِي : « يَا بَنِي فَهْرٍ ! يَا بَنِي عَدِي ! » لِيُطَوِّنَ قَرِيشَ ، حَتَّى اجْتَمَعُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ؟ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقَرِيشُ ، فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تَرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ » ،

(١) الْحَجَلَةُ : مِثْلُ الْقَبِيَّةِ ، وَالْجَمْعُ حِجَالٌ (لسان العرب : ج ٧٨٧-٧٨٨) .

(٢) مَا هُمْ إِلَّا أَكْلَةُ رَأْسٍ : أَي قَلِيلٌ ، قَدْرٌ مَا يُشْبِهُهُمْ رَأْسٌ وَاحِدٌ (لسان العرب : ج ١٠١/١) .

(٣) انظر : الكامل في التاريخ / لابن الأثير (ج ٤٠/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٨٢/١) فما بعدها ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٥٩/١) .

(٤) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١١١/١ ، ١٥٩) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٧٤/١ ، ٢٠٠) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٢٢/٢) .

قالوا : نعم ، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً ، قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابِ شَدِيدٍ » ، فقال أبو هلب : تبتاً لك سائر اليوم ! ألهذا جمعنا ؟ فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ (١) .

وروى بسنده عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ ! » - أو كلمة نحوها - « اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لِأَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ! لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ! لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَيَا صَفِيَّةَ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ! لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ! سَلِّبِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لِأَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً » (٢) .

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشاً ، فَاجْتَمَعُوا ، فَعَمَّ وَخَصَّ ، فَقَالَ : « يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ! أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي مِرَّةَ بْنِ كَعْبٍ ! أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ! أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ ! أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ! أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةَ ! أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أُمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، غَيْرَ أَنْ لَكُمْ رَحِمًا سَابُلَهَا بَيْلَالُهَا » (٣) » (٤) .

موقف قريش من النبي ﷺ إثر جهره بالدعوة :

لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة للإسلام وصدع بالحق كما أمره الله تعالى لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ، وكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام بني عبد المطلب ليكنم من السماء ، وكان ذلك دأبهم حتى عاب آهتهم وسفّه عقولهم ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه (٥) ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا عمه أبا طالب الذي حذب (٦) عليه ومنعه وقام دونه (٧) .

ومضى رسول الله ﷺ في دعوته مظهراً لأمر الله لا يردّه عنه شيء ، ومعكراً على خرافات الشرك وتزهاته ، وموضحاً لهم أن آهتهم التي يعكفون على عبادتها لا تفيدهم ولا تضرهم شيئاً ، وأن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين .

وفد قريش إلى أبي طالب :

فلما طال ذلك ورأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعجبهم (٨) من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو البختري العاص بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، وبنّيّه ومُنْبَهُ ابنا الحجاج ، والعاص بن وائل ، أو من مشى منهم ، فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن أخيك قد سب آهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضللّ آبائنا ، فإمّا أن تكفّه عنّا وإمّا أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفّيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردّهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه (٩) .

(١) سورة المسد : ١ - ٢ ، والخبير في صحيح البخاري (ج ١٤٠/٦) كتاب التفسير - سورة الشعراء .

(٢) صحيح البخاري (ج ١٤٠/٦) كتاب التفسير - سورة الشعراء .

(٣) أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً (النهاية : ج ١٥٢/١) .

(٤) صحيح مسلم (ج ١٩٢/١) كتاب الإيمان - باب في قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ح ٣٤٨ .

(٥) ناكر : حازب ، انظر (النهاية : ج ١١٥/٥) .

(٦) حذب عليه يحذب : عطف (النهاية : ج ٢٤٩/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٥/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٩٩/١) .

(٨) أغتبه : أفضة العتبي ورجع إلى مترّبه (لسان العرب : ج ٢٧٩٢/٤) .

(٩) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٦/١) .

ما تحته ، قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر ، فلمّا فكر قال : هذا سِحْرٌ يُؤَثِّرُ يَأْتُرُهُ (١) عن غيره ، فنزلت : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ (٢) .

وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن الوليد كان يختلف إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، يسأله عن القرآن ، وأنه لما سمعه شهد أنه من كلام الله تعالى ، فلما سمع بذلك النفر من قريش قالوا : والله لئن صبأ الوليد لتضبون قريش ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكم شأنه ، فانطلق إلى الوليد في بيته وقال له : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألسنت أكثرهم مالا وولداً ؟ قال أبو جهل : يتحدثون أنك إما تدخل على ابن أبي قحافة فتصيب من طعامه ، فقال الوليد : قد تحدت به عشيرتي !! فلا أقرب أبا بكر (٣) .

وبعد أن اتفقت قريش على هذا القرار باشروا في تنفيذه ، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يريهم أحد إلا حذروه رسول الله ﷺ وذكروا له أمره .

والذي تولى كبر ذلك هو أبو لهب ، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس إذا وافى الموسم في منازلهم وفي عكاظ ومجنته وذو المجاز يدعوهم إلى الله تعالى ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، وأبو لهب خلفه يقول : لا تطيعوه ولا تسمعوا منه ، فإنه صابئ كذاب (٤) .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها . وخشي أبو طالب ذمها (٥) العرب أن يركبوه مع قومه ، فقال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشرف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ﷺ ولا تاركة لشيء أبداً حتى يهلك دونه (٦) .

ما نزل بشأن ابن أم مكتوم رضي الله عنه :

وكان رسول الله ﷺ يدعو أشرف قريش إلى الإسلام ولا يألو جهداً في نصحهم ، فبينما هو يوماً مع نفر من زعمائهم وكبرائهم ، فيهم الوليد بن المغيرة وعنتبة وشيبة ابنا ربيعة ، يتألفهم ويعرض عليهم القرآن ، إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ، فجعل يسأل رسول الله ﷺ ويستقرئه القرآن ، فشق ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وأصحابه وما طمع فيه من إسلامهم ، فلما أكثر عليه القول خاف رسول الله ﷺ أن يكون التفاتة إلى ذلك المسكين الأعمى ينفر عنه قلوب أولئك الزعماء ، فأعرض عنه وعبس في وجهه وأقبل على الآخرين ، فعاتبه الله على ذلك بقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مَكْرَمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مَطَهَّرَةٍ ﴾ (٧) . قال ابن إسحاق : أي يقول له : إنما بعثتك بشيراً ونذيراً ، لم أخص بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعه من ابتغاه ولا تصدّ به لمن لا يريده .

فما عبس رسول الله ﷺ بعدها بوجه فقير ، وكان إذا أقبل عليه ابن أم مكتوم يقول له : « مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي » ، ويبسط له رداءه ، وكان عليه الصلاة والسلام يكرمه ويسأله عن حاجته (٨) .

روى الحاكم بسنده عن مسلم بن صبيح قال : دخلت على عائشة ، رضي الله عنها ، وعندها رجل مكفوف ، وهي تقطع له

(١) يَأْتُرُ : يُرْوِي وَيُحْكِي عنه (النهاية : ج ٢٢/١) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٥٠٦/٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٣) انظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٠٢/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١/٢) ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٣٤١/٤) .

(٥) الذّهْمَاءُ : الْجَبَاعَةُ مِنَ النَّاسِ (لسان العرب : ج ١٤٤٥/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٦/١) .

(٧) عبس : ١ - ١٤ .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٨/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٩/٤) ، والمستدرک (ج ٥١٤/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٠٤/١) ، وابن أم مكتوم :

هو ابن خال السيدة خديجة رضي الله عنها .

الأثرُج^(١)، وتطعمه إياه بالعسل ، فقلت : من هذا يأم المؤمنين ؟ فقالت : هذا ابن أم مكتوم الذي عاتب الله تبارك وتعالى فيه نبيه ﷺ^(٢) .

أساليب قريش في محاربة النبي ﷺ ودعوته :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ مستمر فيها هو عليه ، لا يصرفه عن دعوته إلى الله تعالى هذا ولا ذاك ، لأبوهب عمه ، ولا قريش قبيلته ، ولا الدنيا كلها بأسرها ، سلكت طرقاً أخرى في محاربتة ووقع دعوته .

- فن ذلك ما روي أن أباهب كان قد زوج ولديه عتبة وعنبة بنتي رسول الله ﷺ رقيقة وأم كلثوم قبل النبوة ، فلما بادى رسول الله ﷺ قريشاً بأمر الله تعالى وعاب ألفتهم ، قالوا : إنكم قد فرغتم محمداً من هه ، فردوا عليه بناتهن فاشغلوه بهن . فمشوا إلى أبي العاص بن الربيع - وكانت تحتها زينب بنت رسول الله ﷺ - فقالوا له : فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت ، قال : لاها الله إذا^(٣) ، لا أفارق صاحبتني ، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش ، وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره خيراً . ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب ، فقالوا له : طلق بنت محمد ، ونحن ننكحك أي امرأة من قريش شئت ، فقال : إن زوجتوني بنت أبان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها ، ولم يكن دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهواناً له ، وخلف عليها عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، بعده^(٤) .

وفي رواية : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ قال أبو لهب لابنائه عتبة وعنبة : رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد ، وقالت أمها ابنة حرب بن أمية : طلقاها فإنها صبتا ، فطلقاها .

ولما طلق عتبة أم كلثوم ، رضي الله عنها ، جاء إلى النبي ﷺ فقال له : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فسوق قينصه ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إني أسأل الله أن يسلمك عليك كلبته » . فخرج عتبية في تجار من قريش حتى نزلوا بمكان في الشام ، يقال له الزرقاء ، ليلاً ، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتبية يقول : يا ويل أمي ! هو والله آكلي كما دعا محمد علي ، قتلي ابن أبي كبشة وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فعدى عليه الأسد من بين القوم فضغمة^(٥) فقتله .

وفي رواية : أنه لما دعا النبي ﷺ على عتبية قال له أبوه : أي بني ! والله ما آمن عليك دعوة محمد ، وأن الأسد لما أطاف بهم تلك الليلة وأرادوا النوم ، جعل أبو لهب ابنه عتبية وسطهم ثم ناموا ، فأقبل الأسد فشم وجوههم ، ثم تخطاهم حتى أخذ برأس عتبية فضغمة^(٦) ، فقال أبو لهب : قد عرفت والله ما كان لينفليت من دعوة محمد^(٧) .

- ومن أساليب قريش أيضاً في مجابته الدعوة لجوؤها إلى إثارة الشبهات حول مصدر القرآن الكريم ، ونشر الدعايات الكاذبة حول شخصية النبي ﷺ ، والإكثار من ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته . فكانوا يقولون : ﴿ إِنَّا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ﴾^(٨) ، وكانوا يقولون عن القرآن : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾^(٩) ، ﴿ إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قومٌ

(١) الأثرُج : معروف ، واحِدَةٌ تُرْجَعُ (لسان العرب : ج ٤٢٥/١) .

(٢) المستدرک (ج ٦٣٤/٢) .

(٣) الصواب : لاها الله ذا ؛ مجذف الهمزة ، ومعناه : لا والله لا يكون ذا ، ولا والله الأمر ذا ، فحذف تخفيفاً (لسان العرب : ج ٤٥٩/٦) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٦/٢) .

(٥) ضغمة : عضة عَضاً شديداً بلاء الفم (الوسيط : ج ٥٤٢/١) .

(٦) فضخ رأسه : كسره وشقه (الوسيط : ج ٦٩٩/٢) .

(٧) انظر : دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٥٨٥/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٨/٨) .

(٨) النحل : ١٠٣ .

(٩) الفرقان : ٥ .

آخِرُونَ ﴿١﴾ ، وكانوا يقولون عن رسول الله ﷺ : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (١) .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر ، عبد لابن الحضرمي ، وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام ابن الحضرمي ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قومه : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّا نَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢) .

- ومن أساليبهم أيضاً : معارضة القرآن بأساطير الأولين لإشغال الناس بها عنه ، فقد ذكر أن النضر بن الحارث - وكان من شياطين قريش ، ومن يؤدي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة - ذكر أنه ذهب إلى الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها ، فهلم إلي فانا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحدثنا مني ؟

قال ابن هشام : وهو الذي قال - فيما بلغني - سأنزل مثل ما أنزل الله ، وروي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه نزل فيه ثمان آيات من القرآن الكريم : قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ (٤) ، وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن (٥) . ونزل فيه أيضاً : ﴿ وَيَلِكُلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرَهُ يَعْذَابِ الْأِيمِ ﴾ (٦) .

- ومن أساليبهم : السخرية والاستهزاء والتكذيب ، وقد لجأت قريش إلى هذا الأسلوب لتخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي ﷺ بالجنون : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٧) ، ووصوه بالسحر والكذب وقول الشعر : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٨) ، ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتِرَاءُ بَلِّ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (٩) .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ إذا تلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، قالوا يهزؤون به : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ ﴾ (١٠) . فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قومه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ أي كيف فهموا توحيدك ربك إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً وبينك وبينهم حجاباً بزعمهم ، أي : إني لم أفعل ذلك ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ أي : ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثك به إليهم ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي أخطؤوا المثل الذي ضربوا لك فلا يصيبون به هدى ، ولا يعتدل لهم فيه قول ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي : قد جئت نخبرنا أنا سنبعث بعد موتنا إذا كنا عظاماً ورفاتاً ، وذلك ما لا يكون ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي

(١) الفرقان : ٤ .

(٢) الفرقان : ٧ .

(٣) النحل : ١٠٣ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١ / ٤٢٠) .

(٤) القلم : ١٥ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١ / ٣٢٠) .

(٦) الجاثية : ٧ - ٨ .

(٧) الحجر : ٦ .

(٨) ص : ٤ .

(٩) الأنبياء : ٥٠ .

(١٠) فصلت : ٥٠ .

صَدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿١﴾ أي : الذي خلقكم مما تعرفون فليس خلقكم من تراب بأعز من ذلك عليه (٢).

وكان إذا جلس النبي ﷺ وحوله المستضعفون من أصحابه استهزؤوا بهم وكانوا يحلّ تنذرم ولزمهم ، وكانوا كما حكى الله عنهم في القرآن : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ (٣).

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث وصهيب وأشباههم من المسلمين هزأت بهم قريش فقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترؤن ، هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ماجاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤).

وروى مسلم بسنده عن سعد ، رضي الله عنه ، قال : كنّا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميها ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدثت نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٥) .
وقد حاول المشركون مساومة النبي ﷺ حول دينه في سبيل أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه .

قال ابن إسحاق : اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة - الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وأمّية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم ، فقالوا : يا محمد ! هلّم فلنعبد ما تعبد ، فنشرك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنّا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٦) .

وفي رواية : أن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، ويطؤوا عقبه ، مقابل أن يكف عن شتم آلهتهم فلا يذكرها بسوء ، ثم عرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلهه سنة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ السورة ، وأنزل : ﴿ قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٧) .

- (١) الإسراء : ٤٥ - ٥١ .
- (٢) سيرة ابن هشام (ج ١/٢٢٨) . روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ ما الذي أراد الله به ؟ فقال : الموت (سيرة ابن هشام : ج ١/٢٣٩) .
- (٣) المطففين : ٢٩ - ٣٣ .
- (٤) الأنعام : ٥٢ - ٥٤ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١/٤٢٠) .
- (٥) صحيح مسلم (ج ٤/١٨٧٨) كتاب فضائل الصحابة - باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ح ٤٦ .
- (٦) الكافرون : ١ - ٢ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١/٢٨٦) .
- (٧) الزمر : ٦٤ - ٦٦ ، وانظر الخبر في تاريخ الطبري (ج ٢/٣٣٧) .

تعذيب قريش للمسلمين :

ثبت رسول الله ﷺ في طريقه يدعو إلى الله ، ويؤت قريش منه ، وأدركت ألا جدوى من تلك الأساليب التي سلكتها معه في كفا الدعوة الإسلامية والقضاء عليها ، فاجتمع رؤوس المشركين منها وقرروا اللجوء إلى العنف والقوة في محاربة الإسلام والمنتبين إليه ، وأصدروا أوامهم إلى القبائل ليصّبوا العذاب والأذى على كل من أتبع النبي ﷺ .

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر . وكانت فتنة شديدة الزلزال على من أتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله منهم من شاء ، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب (١) .

وكان المهاجرون بالظلم لرسول الله ﷺ ولكل من آمن به : عمه أبا لهب ، وابن عمه أبا سفيان بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وعتبة بن أبي معيط ، وأبا سفيان بن حرب ، وابنه حنظلة ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، ومعاوية بن العاص بن أمية ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن المطلب ، وابنه زمعة ، وأبا البختري العاصي بن هشام ، والأسود بن عبد يغوث الزهري ، وأبا جهل بن هشام ، وأخاه العاص بن هشام ، وعمها الوليد بن المغيرة ، وابنه أبا قيس بن الوليد ، وابن عمه قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة أبا أم سلمة ، وأخاه عبد الله بن أبي أمية ، والأسود بن عبد الأسد أبا سلمة ، وصفي بن السائب ، والعاص بن وائل ، وابنه عمرو بن العاص ، وابن عمه الحارث بن قيس بن عدي ، ومبها وتبها ابني الحجاج ، وأميمة وأبيها ابني خلف بن وهب ، وأنيس بن معير أبا أبي مخذولة ، والحارث بن الطلائفة الخزاعي ، وعدي بن الحمراء الثقفي .

فهؤلاء كانوا أشد على المؤمنين مشابة بالأذى ، ومعهم سائر قريش ، فمنهم من يعذبون من لا منعة له ولا جوار من قومه ، ومنهم من يؤذون (٢) .

قال ابن إسحاق : وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيين رأيك (٣) ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قال : والله لنكسبن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغزى به (٤) ، لا يعصمه من الهوان والقتل شيء ، بل يحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياه .

صور من التعذيب والإيذاء :

روي أن نوفل بن خوئيد ، وهو من شياطين قريش ، كان يقرب بين أبي بكر وطلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنهما ، في حبل واحد يشدهما به ، ولم تمنعهما بنو تيم . فبذلك كانا يستيان القرينين (٥) .

وقيل : إن عثمان أخطا طلحة قرن طلحة مع أبي بكر ليحبسه عن الصلاة ويرده عن دينه (٦) .

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه ، يأخذ عمه الحكم بن أبي العاص فيوثقه رباطاً ويقول له : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لأحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين ، فيقول عثمان رضي الله عنه : والله لأدعه أبداً ولا أفارقه (٧) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨١/١ ، ٢٣٩) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٢٨/٢) .

(٢) انظر : الدرر لابن عبد البر (ص : ٢٧) .

(٣) قيل رأية : ضعفه وخطأه (الوسيط : ج ٧١٥/٢) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/١) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٩/١) ، والمستدرک (ج ٣٦٩/٣) .

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦٧/٢) .

(٧) طبقات ابن سعد (ج ٥٥/٣) .

وكان عم الزبير يلقه في حصار ويدخن عليه بالنار ويقول : ارجع إلى الكفر ، فيقول الزبير رضي الله عنه : لا أكفر أبداً^(١) .
ولما علمت أم مضعب بن عمير بإسلامه حبسته وأجاعته ، وكان من أنعم الناس عيشاً ، فلم يزل محبوساً حتى هاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا ، فرجع متغيّر الحال قد خرج - يعني غلظ - فكفّت أمه عنه من العذل^(٢) .
وكان عمر - قبل أن يسلم - يوثق سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ويعذبه على إسلامه^(٣) .

وكان بلال بن رباح ، رضي الله عنه ، مولى بعض بني جمح ، يخرج به سيده أمية بن خلف - إذا حميت الشمس وقت الظهيرة - فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك الهلاء : أحد أحد . ويقال إنهم كانوا يقولون له وهو في شدة العذاب : قل كما نقول ، فيقول : إن لساني لا يحسنه^(٤) .

ويروى أن أمية بن خلف كان يضع في عنق بلال ، رضي الله عنه ، حبلاً ، ثم يدفعه إلى الصبيان ، فيطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد ، حتى مر به أبو بكر ، رضي الله عنه ، يوماً وهو ملقى في البطحاء يعذبونه فقال : علام تعذبون هذا الإنسان ؟ ثم انطلق إلى أمية بن خلف فقال له : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه ، وأقوى على دينك ، أعطيكه به ، قال : قد قبلت ، فقال : هو لك ، فأعطاه أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، غلامه ذلك ، وأخذ بلالاً فأعتقه . ويقال : إنه اشتراه بسبع أواق فأعتقه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « الشُّركَةُ يا أبا بكرٍ ! » ، قال : قد أعتقته يا رسول الله^(٥) . فكان عمر ، رضي الله عنه ، يقول : أبو بكر سيّدنا وأعتق سيّدنا ؛ يعني بلالاً^(٦) .

وكان عمار بن ياسر وأمه وأبوه ، رضي الله عنهم ، من المستضعفين الذين يعذبون بكفة ليرجعوا عن دينهم ، فكانت بنو مخزوم - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرّها ، فرّمهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فقال : « صَبْرًا آلِ يَاسِرٍ مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّةُ »^(٧) . ويروى أن أبا عمار قال للنبي ﷺ وهو يعذب : يا رسول الله ! الدهرُ هكذا ؟ فقال له النبي ﷺ : « اصْبِرْ » ، ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ » . فمات ياسر في العذاب .

وأما سمية أم عمار فطعنها أبو جهل بحربة في قلبها فماتت وهي تأبى إلا الإسلام ، فكانت أول شهيدة في الإسلام . فلما قتل أبو جهل يوم بدر قال رسول الله ﷺ لعمار : « قد قتل الله قاتل أمك » .

وأما عمار فشددوا عليه العذاب بالحرق تارة ، وبالغريق تارة أخرى ، فكان رسول الله ﷺ إذا مرّ به أمرّ يده على رأسه وقال : « يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى عَمَارٍ كَمَا كُنْتِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ »^(٨) .

ولم يزل المشركون يعذبونه حتى سب النبي ﷺ وذكر أهنتهم بخير فتركوه ، فأثنى النبي ﷺ وهو يبكي ، فجعل يمسح عن عينيه

(١) انظر : مجمع الزوائد (ج ١٥١/٩) .

(٢) العذلُ : اللؤمُ (لسان العرب : ج ٢٨٦٢/٤) ، والخبر في طبقات ابن سعد (ج ١١٦/٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٠/٥) كتاب المناقب - باب إسلام سعيد بن زيد رضي الله عنه .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٩/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٣) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٣ ، ٢٢٣) ، وسيرة ابن هشام (ج ٢٣٩/١) ، وسنن ابن ماجه (ج ٥٢/١) المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٣٣/٥) كتاب المناقب - باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر رضي الله عنه .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/١) .

(٨) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٦٢/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٨/٣ ، ٢٤٩) و (ج ٢٦٤/٨ ، ٢٦٥) .

وهو يقول : « مَا وَرَاءَكَ ؟ » قال : شَرَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا تَرَكْتُ حَتَّى نَلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ أَلْتَهُمْ بِخَيْرٍ ، قال : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبِكَ ؟ » قال : مَطْمَئِنًا بِالْإِيمَانِ ، قال : « إِنَّ عَادُوا فَعَدُّ » ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (١) .

وكان خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِّ ، رضي الله عنه ، من المستضعفين الذين يعدَّبون بمكة ليرجع عن دينه ، يقول خَبَابُ عن نفسه : لقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدري ، فما اتَّقيت الأرض - أو قال بَرَدَ الأرض - إلا بظهري ، قال : ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد بَرَصَ (٢) . وفي رواية : أنهم كانوا يوقدون له ناراً فما يطفئها إلا ودك ظهره (٣) .

وكان أَبُو فُكَيْهَةَ ، رضي الله عنه ، مولى بني عبد الدار يخرجونه نصف النهار في حرٍّ شديد وهو مقيَّد بالحديد ، فيبطحونه في الرَّمضاء ، ويضعون الصخرة على ظهره حتى لا يعقل ، فلم يزل كذلك حتى هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية (٤) .

وكان خالد بن سعيد بن العاص ، رضي الله عنه ، يلزم رسول الله ﷺ ويصلي في نواحي مكة خالياً ، فبلغ ذلك أبا أحيحة فدعاه فكلَّمه أن يدع ما هو عليه ، فقال خالد : لأدع دين محمد حتى أموت عليه ، فضربه أبو أحيحة بقراعة في يده حتى كسرها على رأسه ، ثم أمر به إلى الحبس ، وضيَّق عليه وأجاعه وأعطشه ، حتى لقد مكث في حرِّ مكة ثلاثاً ما يذوق ماء ، فرأى خالد فُرْجَةَ فخرج ، فتغيَّب عن أبيه في نواحي مكة حتى هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية (٥) .

وروي أن أمَّ سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، حلفت أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه وقالت له : زعمت أن الله وصاك بوالديك ، وأنا أمك وأنا أمرك بهذا ، لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال : يا قاتل أمه ! فقال سعد رضي الله عنه : لا تفعل يا أمه ! فإني لأدع ديني هذا لشيء . فمكثت ثلاثاً لم تأكل حتى عُشي عليها من الجهد ، فلما رأى ذلك سعد ، رضي الله عنه ، قال : يا أمه ! تعلمين لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلّي ، وإن شئت لا تأكلي . فأكلت . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَصَيَّنَّا الْإِنْسَانَ بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشريك بي مآلئس لك به علم فلا تطعهما ﴾ (٦) ، ﴿ وصابحها في الدنيا معروفاً ﴾ (٧) .

وفي رواية عن سعد ، رضي الله عنه ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها (٨) بَعْصاً ، ثم أوجروها (٩) .

أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ :

ومع كلِّ هذا الابتلاء كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يقومون بالدعوة إلى الله بكل الوسائل المتاحة لديهم ، لكنهم لم يكونوا يجرؤون على الجهر بالقرآن أمام قريش .

وأول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، وكان رجلاً ضعيفاً رقيقاً ، ولكنه في ميزان الله كان أثقل من جبل أحد .

(١) النحل : ١٠٦ ، وانظر الخبر في السنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٠٨/٨ ، ٢٠٩) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٣) .

(٣) حلية الأولياء / لأبي نعيم (ج ١٤٤/١) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٣/٤) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٩٥/٤) .

(٦) العنكبوت : ٨ .

(٧) لقمان : ١٥ ، وانظر الخبر في صحيح مسلم (ج ١٨٧٧/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ح ٤٣ ، وتفسير القرآن العظيم / لابن كثير (ج ٤٤٥/٣) .

(٨) شجروا فاهها : أي أدخلوا في شجره عوداً حتى يفتخوه ، والشجر : مفرج الفم ، وقيل : مؤخره (لسان العرب : ج ٢١٩٧/٣) .

(٩) يقال : أوجر الغليل صبَّ الوجور في خلقيه ، والوجور : الدواء (الوسيط ج ١٠٢٥/٢) ، والخبر في صحيح مسلم (ج ١٨٧٨/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ح ٤٤ .

رُوي عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْر قال : اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لمابه قط ، فمن رجل يُسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعوني فإن الله سميع ، قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أُنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ رافعاً بها صوته : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ (١) ، قال : ثم استقبلها يقرؤها ، قال : وتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ قال : ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد - ﷺ - فقاموا إليه ، فجعلوا يضرِبون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن ، ولكن شئت لأغادينهم بثلها غداً ، قالوا : لا ، حسبك قد أسمعهم ما يكرهون (٢) .

اشتداد أذى قريش :

واشتدت ضراوة المشركين بالمستضعفين ، حتى ساموهم من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ، فكانوا يأخذونهم ويلبسونهم أدرع الحديد ثم يصبونهم في الشمس (٣) .

روى ابن إسحاق بسنده عن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يلبسون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أدهم ويبيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوهم من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والغزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، حتى إن الجعل (٤) ليمر بهم فيقولون له : هذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداء منهم مما يبلغون من جهده (٥) .

ولما طال ذلك على المسلمين ذهب خباب بن الأرت ، رضي الله عنه ، إلى رسول الله ﷺ يستجد به ، قال خباب : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ قال : « كان الرجل فين قبلكم يُحترقه في الأرض ، فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك عن دينه ، ويُمشط بأمشاط الحديد ، ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » (٦) .

وفي رواية : أن خباباً ، رضي الله عنه ، قال للنبي ﷺ : ألا تدعو الله على هؤلاء القوم الذين قد خشينا أن يردونا عن ديننا ؟ فكرر قوله ثلاث مرات ، كل ذلك يصرف النبي ﷺ وجهه عن خباب ، ثم قال : « أيها الناس ! اتقوا الله واصبروا ، فوالله إن كان الرجل من المؤمنين قبلكم ليوضع المنشار على رأسه فيشق باثنتين ، وما يرتد عن دينه . اتقوا الله فإن الله فاتح لكم وصانع » (٧) .

وقد دفع الله الأذى عن جماعة من المسلمين كما روى ابن إسحاق عن الزبير بن عكاشة أنه حدث أن رجلاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد - حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة - وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا ، منهم سلمة بن هشام ، وعبيد بن أبي ربيعة ، قال : فقالوا له وخشوا شراً : إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي

(١) الرحمن : ١ - ٢ .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١ / ٣٣٦) .

(٣) انظر : سان ابن ماجه (ج ١ / ٥٢٨) المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ح ١٥٠ .

(٤) الجعل : حيوان كالثفتاء يكثر في المواضع النديّة (الوسيط : ج ١ / ١٢٦) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ١ / ٣٤٢) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٤ / ٢٤٤) كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام .

(٧) الخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٣ / ٢٨٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

أحدثوا ، فإننا نأمن بذلك في غيرهم ، قال : هذا فعلكم به فعاتبوه ، وإيتاكم ونفسه ، ثم قال :

أَلَا لَا يَقْتَلَنَّ أَخِي عَيْشُ فَبِقِي بَيْنَنَا أَبَدًا تَلَا حِي

احذروا على نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلنَّ أشرفكم رجلاً ، قال : فقالوا : اللَّهُمَّ أَلْعَنهُ ، مَنْ يَغْرُرَ بِهَذَا الْحَدِيثِ (١) ، فوالله لو أصيب في أيدينا لقتلنا أشرفنا رجلاً . فتركوه ونزعوا عنه ، قال : وكان ذلك مما دفع الله به عنهم (٢) .

كما كان أبو بكر ، رضي الله عنه ، يبتاع العبيد والجواري من المستضعفين المؤمنين فيستنقذهم من أيدي الكفار ويعتقهم لوجه الله تعالى حتى قال له أبوه أبو قحافة : يَا بُنَيَّ ! إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجلاً جُلداً ، يمنعونك ويقومون دونك ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يَا أَبَتِ ! إني إنما أريد ما أريد الله . فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا لَأَخِي عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتْبَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (٣) .

روي أنه أعتق لوحده قبل أن يهاجر إلى المدينة ثمان رقاب ، منهم بلال بن رباح وأمه حَمَامَةَ ، وعامر بن فُهَيْرَةَ ، وأمَّ عُبَيْسٍ ، وزَيْنَةَ وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت كذبوا وبينت الله ، ماتت اللات والعزى ، وما تنفعان ، فردَّ الله بصرها .

ومنها النهديَّة وبناتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فرَّ أبو بكر ، رضي الله عنه ، بها وقد بعثتها سيدها بطحين لها وهي تقول : والله لا أعتقكما أبداً ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : حِلٌّ يَا أُمَّ فُلانٍ (٤) ، فقالت : حِلٌّ ، أنت أفسدتها فأعتقها ، قال : قد ابتعتها وما حَزَّتَانِ .

وابتاع أيضاً جارية لبني مؤمِّل - وهم حيٌّ من بني عدي بن كعب - فأعتقها . وكان عمر بن الخطاب يضرها لترجع عن الإسلام - وهو يومئذ مشرك - حتى إذا كلَّ قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا كلاله ، فتقول : كذلك فعل الله بك (٥) .

استهزاء المشركين بالنبي ﷺ :

كانت تلك الاعتداءات بالنسبة للمسلمين - ولا سيما المستضعفين منهم - أما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهياً وقوراً ، ذا شخصية فذة تتعاضده نفوس الأعداء والأصدقاء بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجلال والتشريف من قبل الخاصة والعامة ، وكان مع ذلك في منعة عمَّ أبي طالب . لذلك لم تستطع قريش - بادية الأمر - أن تبطش بالنبي ﷺ وتعسدي عليه كما فعلت بالمسلمين ، فجعلوا يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه ، وكان على رأس المستهزئين أبو لهب عمّه ، وعقبة بن أبي معيط ، والحكم بن أبي العاص ، والأسود بن المطلب أبو زمعة ، والأسود بن عبد يَعُوث (٦) ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والحارث بن الطلائية ، ويقال : الحارث بن عَيْطَل أو ابن عَيْطَلَة ينسب إلى أمه ، وأبوه اسمه قيس (٧) .

روي أن أبا لهب كان يقول في بعض ما يقول : يَعدني محمدٌ أشياء لا أراها ، يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فإذا وضع في يدي بعد

(١) في الروض الأنف (ج ١٩/٢) : « من يغرر بهذا الحديث » . وَيَغْرُرُ : أي يُخَدِّع ، وَيَغْرُرُ بنفسه : عَرَضَهَا لِلتَّهْلُكَةِ (لسان العرب : ج ٢٢٣٢/٤) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/١) .

(٣) الليل : ٥ - ٢١ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٤١/١) ، وفي المستدرک (ج ٥٢٥/٢) .

(٤) حِلٌّ يَا أُمَّ فُلانٍ : أي تحللي من يمينك (لسان العرب : ج ٨٧٥/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٠/١) .

(٦) وهو ابن خال النبي ﷺ (السيرة الحلبية : ج ٣١٨/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٥٢/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٨٧/٩) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٥٤/١) والدرر لابن عبد البر (ص : ٣٠) .

ذلك ؟ ثم ينفخ في يديه ويقول : تَبًا لَكَا مَا أَرَى فَيْكَا شَيْئًا مِمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ السورة (١) .

وكانت امرأة أبي لهب ، وهي أم جميل ، أروى بنت حَرْب بن أمية ، أخت أبي سفيان ، لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر (٢) . وحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وفي يدها فِهْر (٣) من حجارة ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ! إنها امرأة بذيئة وأخاف أن تؤذيك فلو قت ، قال : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » ، وقرأ قرآنًا فاعتصم به كما قال وقرأ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (٤) فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني - وفي لفظ : أنه ينشيد في الشعر ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إني لشاعرة ثم قالت :

مُذِمَّةٌ عَصِيْبَةٌ وَأَمْرَةٌ أُبَيْدِيَّةٌ
وَدِينَهُ قَلْبِيْنَا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ! أما تراها رأتك ؟ فقال : « مَا رَأَيْتِي ، لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بِبَصَرِهَا عَنِّي » ، وفي لفظ : « مَا زَالَ مَلِكٌ يَسْتُرُنِي مِنْهَا بِجَنَاحَيْهِ » (٥) .

ورويت هذه القصة من وجه آخر وفيه : أنها لما وقفت على أبي بكر قالت : إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، فقال : لا ورب هذا البيت ما هجاك وما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، قالت : أنت عندي مُصَدِّقٌ ، فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها (٦) .

وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مُذِمَّةً ثم يسبونه ، فكان رسول الله ﷺ يقول : « أَلَا تَتَعَجَّبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَأَعْنَهُمْ ، يَشْتِمُونَ مُذِمَّةً وَيَلْعَنُونَ مُذِمَّةً وَأَنَا مُحَمَّدٌ » (٧) .

روي عن زيد بن أرقم ، رضي الله عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى : ﴿ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جَيْدِهَا حِجْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ ، قال : فقيل لامرأة أبي لهب : إن محمداً قد هجاك ، فأنت رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو جالس في الملأ ، فقالت : يا محمد ! غلام تهجوني ؟ قال : فقال : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا هَجَوْتُكَ ، مَا هَجَاكَ إِلَّا اللَّهُ » ، قال : فقالت : هل رأيتني أحبل حطباً ، أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد ؟ ثم انطلقت . فكث رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، أياماً لا ينزل عليه ، فأتته فقالت : يا محمد ! ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٨) .

وروي البخاري بسنده عن جندب بن سفيان البجلي قال : اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً ، فجاءت امرأة

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/١) .

(٢) انظر : مجمع الزوائد (ج ١٤٤/٧) .

(٣) الفهر : هو الحجر ملء الكف ، وقيل : هو الحجر مطلقاً (لسان العرب : ج ٢٤٧٩/٥) .

(٤) الإسراء : ٤٥ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/١) ، والمستدرک (ج ٣٦١/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ١٤٤/٧) .

(٦) انظر : المستدرک (ج ٣٦١/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ١٤٤/٧) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/١) ، وصحيح البخاري (ج ٢٢٥/٤) كتاب المناقب - باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ .

(٨) سورة الضحى : ١ - ٣ ، والحيز رواه الحاكم في المستدرک (ج ٥٢٦/٢) وقال : هنا إسناد صحيح إلا أني وجدت له علة .

فقلت : يا محمد ! إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قريبك منذ ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ وما قلتي ﴿ (١) .

- وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه ، ففيه نزل قوله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لَمْزَةٍ ﴾ إلى آخر السورة (٢) .

- أما أخوه أبي بن خلف فمشى إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد ارفقت (٣) فقال : يا محمد ! أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ، ثم فته بيده ، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وَإِيَّاكَ بَعْدَ مَا تَكُونَانِ هَكَذَا ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ اللَّهُ النَّارَ » ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ ﴾ (٤) . وروي أن هذه الآيات نزلت في العاص بن وائل (٥) .

- وكان عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ قد غلب عليه الشقاء ، وكان هو وأبي بن خلف مُتَصَافِيَيْنِ ، وجلس عقبه مرة إلى النبي ﷺ وسع منه ، فلما بلغ ذلك أياً أنه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل ذلك عدو الله فأنزل الله تعالى فيها : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (٦) .

وفي رواية : أنه قدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ، ثم دعا إليه رسول الله ﷺ فقال : « مَا أَنَا بِالَّذِي أَكَلُ مِنْ طَعَامِكَ حَتَّى تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ » ، فقال عقبه : اطعم يا ابن أخي ، قال : « مَا أَنَا بِالَّذِي أَفْعَلُ حَتَّى تَقُولَ » ، فَتَشْهَدَ عَقْبَةَ ، فَطِيعَ مِنْ طَعَامِهِ . فبلغ ذلك أبي بن خلف - وكان خليله - فأتاه فقال : صبوت يا عقبه ؟ قال : لا والله ما صبوت . ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم ، فشهدت له فطعم ، فقال أبي : ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ على عنقه ، ففعل به ذلك ، وأخذ رجم دابة فألقاه بين كتفيه ، فقال له رسول الله ﷺ : « لَا أَلْفَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عُلُوتُ رَأْسِكَ بِالسَّيْفِ » . فأسر عقبه يوم بدر فقتل صبراً (٧) .

- وكان الأحنس بن شريق من يؤدي رسول الله ﷺ ويصيب منه ويرد عليه ، ونزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِتَمِيمٍ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ زَيْنِمٍ ﴾ (٨) .

- وكان الوليد بن المغيرة يقول : أُتِنَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَتَرَكَ وَأَنَا كَبِيرُ قَرِيشٍ وَسَيِّدُهَا ؟ وَيَتَرَكَ أَبُو مَسْعُودٍ عَمْرُو بْنُ عَمِيرِ الثَّقَفِيِّ سَيِّدَ ثَقِيفٍ ، فَنَحْنُ عَظِيمَا الْقَرِيْبَيْنِ ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٩) .

- ولما مات عبد الله - الابن الثاني لرسول الله ﷺ - قال العاص بن وائل السهمي : لقد انقطع نسله ، وكان إذا ذكر رسول الله

(١) صحيح البخاري (ج ٢١٣/٦) كتاب التفسير - سورة والضحى .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/١) .

(٣) رَفَتْ : انكسرت وتحتطم وصارت زفاناً (الوسيط : ج ٢٥٩/١) .

(٤) يس : ٧٨ - ٨٠ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٥/١) .

(٥) انظر : المستدرک (ج ٤٢٩/٢) .

(٦) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٣٨٥/١) .

(٧) دلائل النبوة / لأبي نعيم (ج ٦٠٦/٢) .

(٨) القلم : ١٠ - ١٣ ، قال ابن إسحاق : ولم يقل (زَيْنِم) لعيب في نسبه ، لأن الله لا يعيب أحداً بنسب ، ولكنه حقق بذلك نعمته ليُعرف ، والزَيْنِم :

العديد للقوم ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/١) .

(٩) الزخرف : ٣١ - ٣٢ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٣٨٥/١) .

ﷺ قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبترا لا عقب له ، لو قد مات لقد انتقطع ذكره واسترحم منه ، ففي ذلك نزل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ، إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأُبْتَرُ ﴾ (١) .

وفيه أيضاً نزل : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا أَطْلَعَ الْغَيْبَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (٢) . روي عن ابن إسحاق في سبب نزول هذه الآيات أن خبّاب بن الأرت ، وكان قتيلاً (٣) بمكة ، يعمل السيوف ، كان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له ، حتى إذا كان له عليه مال ، فجاء يتقاضاه ، فقال له : يا خبّاب ! أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟ قال خبّاب : بلى ، قال : فأنظرنني إلى يوم القيامة يا خبّاب ، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك ، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خبّاب أثر عند الله مني ولا أعظم حظاً في ذلك (٤) .

وفي رواية البخاري عن خبّاب ، رضي الله عنه ، قال : جئت العاصي بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده ، فقال : لأعطيكم حتى تكفروا بمحمد ﷺ ، فقلت : لاحتى تموت ، ثم تبعث ، قال : وإني لميت ثم مبعوث ؟ قلت : نعم ، قال : إن لي هناك مالا وولداً فأقضيك ، فنزلت هذه الآية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ (٥) .

- وكان النضر بن الحارث وعبد الله بن الزبير ممن نصب العداوة لرسول الله ﷺ ، وما روي عن كيدهما للإسلام ما رواه ابن إسحاق قال : جلس رسول الله ﷺ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زُرْفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٦) ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفاً وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله بن الزبير : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسألوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزبير ، فقال : « كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ ، إِنَّهُمْ إِنَّا يَعْْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَمَنْ أَمَرْتَهُمْ بِعِبَادَتِهِ » . فأنزل الله تعالى عليه في ذلك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُعَبَّدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٧) - أي عيسى ابن مريم وعزير ومن عبدوا من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله .

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٨) .

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى ابن مريم أنه يعبد من دون الله وعجّب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ

(١) الكوثر : ١ - ٣ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٤٢١/١) .

(٢) مريم : ٧٧ - ٨٠ .

(٣) القَيْن : الحَذَاذ (لسان العرب : ج ٣٧٩٨/٥) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٠/١) .

(٥) صحيح البخاري (ج ١١٨/٦) كتاب التفسير - سورة كهيعص .

(٦) الأنبياء : ٩٨ - ١٠٠ .

(٧) الأنبياء : ١٠١ - ١٠٢ .

(٨) الأنبياء : ٢٦ - ٢٩ .

مُرِّيْمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿١﴾ - أي : يَصِدُّونَ عن أمرك بذلك من قولهم ، ثم ذكر عيسى ابن مريم فقال : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ وَإِنَّهُ لَعَلِمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُتْرُنَّ بِهَا ﴾ أي : ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلاً على علم الساعة ، يقول : ﴿ فَلَا تَمُتْرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

- وكان أبو جهل يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق ، ويؤذيه بالقول ، روي أنه قال يوماً : يامعشر قريش ! يَخُونُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الرَّقُومِ ، يزعم أنها شجرة في النار يقال لها شجرة الرقوم والنار تأكل الشجر ، إنما الرقوم التمر والزبد ، هاتوا تمراً وزبداً وترقوموا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (٣) ، وأنزل : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الرَّقُومِ طَعَامٌ لِأَئِيمٍ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ (٤) .

ولقي أبو جهل مرة رسول الله ﷺ فقال له : والله يا محمد لتتركن سب أهلكنا أولسنن إهلك الذي تعبد ، فأنزل الله تعالى عليه فيه : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٥) . فكف عندئذ رسول الله ﷺ عن سب أهلكهم وجعل يدعوهم إلى الله تعالى (٦) .

وكان أبو جهل يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم ، روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : كان النبي ﷺ يصلي ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنك عن هذا ؟ ألم أنك عن هذا ؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره ، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني ، فأنزل الله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ، سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ (٧) . فقال ابن عباس : فوالله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله (٨) .

قال ابن إسحاق : وقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام ، لعنه الله ، مع عداوته لرسول الله ﷺ وبغضه إياه وشدة عليه ، يدلّه الله له إذا رآه .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعية ، قال : قدم رجل من أراش بإبل له من مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ، فطله بأثمانها ، فأقبل الأراشي (٩) حتى وقف على ناد من قريش ورسول الله ﷺ في ناحية المجلس جالس ، فقال : يامعشر قريش ! من رجل يؤديني (١٠) على أبي الحكم بن هشام فإني رجل غريب ابن سبيل ، وقد غلبني على حقي ، قال : فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس ، لرسول الله ﷺ - وهم يهزؤون به لما يعمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤدبك عليه ، قال : فأقبل الأراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال : يا عبد الله ! إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قبله ، وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لي حقي منه فأشاروا لي إليك ، فخذ لي حقي منه يرحمك الله ، قال : « أَنْطَلِقُ إِلَيْهِ » ، فقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل من معهم : اتبعه انظر ماذا يصنع ؟ قال : وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ فقال : « مُحَمَّدٌ فَأَخْرَجُ إِلَيَّ » ،

- (١) الزخرف : ٥٧ .
- (٢) الزخرف : ٥٩ - ٦١ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/١) .
- (٣) الصافات : ٦٤ .
- (٤) الدخان : ٤٣ - ٤٦ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٨٦/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٧٤/١) .
- (٥) الأنعام : ١٠٨ .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٠/١) .
- (٧) العلق : ١٨ .
- (٨) سنن الترمذي (ج ٤٤٤/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ح ٣٣٤٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .
- (٩) ويقال بكسر الهمزة نسبة إلى إراشة بطن من خثعم (السيرة الحلبية : ج ٢١٥/١) .
- (١٠) يؤديني : أي يبعثني على أخذ حقي منه (الروض الأنف : ج ١٣٧/٢) .

فخرج إليه وما في وجهه من رائحة ، قد انتقع لونه ، فقال : « أعط هذا الرجل حقّه » ، فقال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيته الذي له ، قال : فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للأراشي : « الحقُّ بشأنك » ، فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاء الله خيراً فقد والله أخذ لي حقّي ، قال : وجاء الرجل الذي بعثوا معه فقالوا : ويحك !! ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وماعه روحه ، فقال له : أعط هذا حقّه ، فقال : نعم ، لا تبرح حتى أخرج إليه حقّه ، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه ، قال : ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا : ويحك ! مالك ! والله ما رأينا مثل ما صنعت قطّ ، قال : ويحك !! والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي وسمعت صوته فمئنت منه رغباً ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته^(١) ولا أنيباه لفعل قطّ ، والله لو أبيت لأكلي^(٢) .

وفي رواية : فقالوا لأبي جهل : فرقت من محمد كل هذا ؟ قال : والذي نفسي بيده لقد رأيت معه رجالاً معهم حراب تلاًلاً - وفي لفظ : تلمح - ولو لم أعطه لحقت أن يبعج بها بطني^(٣) .

وشبيهه قصة الأراشي هذه حديث الزبيديّ ، فقد روي عن يزيد بن رومان قال : بينا رسول الله ﷺ جالساً في المسجد معه رجال من أصحابه أقبل رجل من بني زبيد يقول : يامعشر قريش ! كيف تدخل عليكم المادة أو يجلب إليكم جلب أو يحلّ تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم ؟ يقف على الحلق حلقه حلقه ، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في صبحه ، فقال رسول الله ﷺ : « ومن ظلمك ؟ » فذكر أنه قدّم بثلاثة أجمال كانت خيرة إبله فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها ، ثم لم يسمه بها لأجله سأم ، قال : فأكد عليّ سيّمتي وظلمي ، قال رسول الله ﷺ : « وأين أجمالك ؟ » قال : هي هذه بالحزوة ، فقام رسول الله ﷺ معه وقام أصحابه فنظر إلى الجمال فرأى جبالاً قرها^(٤) ، فسام الزبيديّ حتى أحقه برضاه ، فأخذها رسول الله ﷺ فباع جملين منها بالثن ، وأفضل بغيراً باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه ، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم ، ثم أقبل رسول الله ﷺ فقال : « ياعمرو ! إياك أن تعود لي مثل ما صنعت بهذا الأعرابيّ ، فترى مني ما تكره » ، فجعل يقول : لأعود يا محمد ، لأعود يا محمد ، فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليه أمية بن خلف ومن حضر من القوم ، فقالوا : ذلكت في يدي محمد ؟ فإما أن تكون تريد أن تتبعه ، وإما رغب دخلك منه ، قال : لا أتبعه أبداً ، إن الذي رأيتم مني لما رأيت معه ، لقد رأيت رجالاً عن يمينه وشماله معهم رماح يشرعونها إليّ لو خالفته لكانت إياها ، أي لأتوا على نفسي^(٥) .

ومن استهزاء أبي جهل أيضاً أنه قال يوماً : يامعشر قريش ! يزعم محمد أن جنود الله الذين يعدونكم في النار ويحسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة ، فيعجز كلّ مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ فأنزل الله في ذلك من قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(٦) إلى آخر القصة^(٧) .

يروى أن رجلاً من قريش ، وكان شديداً قويّ البأس ، بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه - قال لأبي جهل : أنا أكفيك سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين . ويقال : إن هذا دعا النبي ﷺ إلى المصارعة ، فصرعه النبي ﷺ مراراً فأسلم ، وفي رواية أنه لم يسلم واسمه زكّانة^(٨) .

(١) الهامة : الرأس ، والقصرّة : أصل العنق . (لسان العرب : ج ٤٧٢٢/٦ ، ج ٣٦٤٨/٥) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٤١٦/١) .

(٣) دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٢٧٤/١) .

(٤) القرّة : جمّ فاربه ، ودابة فاربه : أي نشيطة حادة قويّة (لسان العرب : ج ٣٤٠٦/٥) .

(٥) عيون الأثر (ج ١١٢/١) .

(٦) المدثر : ٣١ .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٣٦/١) .

(٨) انظر : السنن الكبرى للبيهقي (ج ١٨/١٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٢/٦) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢١/١) .

قال ابن إسحاق : حدثني إسحاق بن يسار قال : كان رُكَّانَةَ بن عبد يزيد بن .. أشدَّ قريش ، فخلا يوماً برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله ﷺ : « يارُكَّانَةَ ! ألا تتقي الله وتقبل ما أَدْعُوكَ إليه » ، قال : إني لو أعلم أن الذي تقول حق لا تبعثك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أفرأيت إن صرغتك أتعلَّم أن ما أقول حق ؟ » قال : نعم ، قال : « فقم حتى أصارعك » ، قال : فقام رُكَّانَةَ إليه فصارعه ، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجمه وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عدُّ يا محمد ، فعاد فصارعه ، ثم قال : يا محمد ! والله إن هذا للعجب ، أنصرعني ؟ ! قال رسول الله ﷺ : « فأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري » ، قال : ما هو ؟ قال : « أدعو هذه الشجرة التي ترى فتأتيني » ، قال : ادعها ، فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ ، قال : فقال لها : « ارجعي إلى مكانك » ، قال : فرجعت إلى مكانها ، قال : فذهب رُكَّانَةَ إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ! ساحروا^(١) بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أسحر منه قط ، ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع^(٢) .

تلك صور من استهزاء المشركين بالنبي ﷺ ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يحزنه ما يلقي منهم كغيره من الأنبياء ، قال ابن إسحاق : مرَّ رسول الله ﷺ بالوليد بن المغيرة وأميمة بن خلف وبأبي جهل بن هشام فغمزوه وهمزوه واستهزؤوا به ، فغاضبه ذلك ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾^(٣) . ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألقى نفسه مكذباً مهجوراً ، إلا أن الله واساه فأبان له بواطن أولئك المكذبين المستهزين : فقال : ﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾^(٤) .

رَوَى أَنْ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : قَدْ نَعَلِمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصَدُقُ الْحَدِيثَ ، وَلَا تَكْذِبُكَ ، وَلَكِنْ نَكْذِبُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ﴾ الآية^(٥) .

ومضى رسول الله ﷺ في رسالة الدعوة والبلاغ صابراً محتسباً مؤذياً إلى قومه النصيحة ، فلما تهادوا في الشر وأكثروا الاستهزاء بكفاء الله المستهزين به فأنزل عليه : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾^(٦) . والمستهزون المرادون بالآية الكريمة هم عطاؤهم ، وهم خمسة ، كلهم أصيب بداء عظيم مهلك ، وقيل : كانوا ثمانية ، كلهم قتل يوم بدر أو مرض فهلك^(٧) .

روى ابن إسحاق بسنده عن عروة بن الزبير ، أو غيره من العلماء ، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ ، وهم يطوفون بالببيت ، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي ، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبناً ، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجز سبته^(٨) ، وذلك أنه مرَّ برجل من خزاعة وهو يرش نبلًا^(٩) له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش في رجله ذلك الخدش ، وليس بشيء ، فانتفض به فقتله ، ومر به العاص بن وإيل فأشار إلى أخص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف

(١) ساحروا : أي بازوا به السخرة ، فإنه يتفوق عليهم بسحره .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٤١٨/١) .

(٣) الأنعام : ١٠ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٤٢٣/١) .

(٤) الأنعام : ٣٣ .

(٥) الخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٣١٥/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : ما خرَّجنا لناحية شيئاً .

(٦) الحجر : ٩٥ - ٩٦ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ١٥/٢) .

(٧) انظر : السنن الكبرى للبيهقي (ج ٨/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٣٥٤/١) .

(٨) السبيل : الثياب المسبلة (لسان العرب : ج ١٩٣٠/٣) .

(٩) يرش نبلًا : أي يتجنها ويعمل لها ريشاً (النهاية : ج ٢٨٩/٢) .

فَرَبَضَ^(١) به على شِبْرِيَّةَ^(٢) فدخلت في أخص رجله شوكة فقتلته ، ومر به الحارث بن الطلائية فأشار إلى رأسه فامتخصص^(٣) قبيحا فقتله .

ويقال : إن رسول الله ﷺ دعا على الأسود بن المطلب لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال : « اللَّهُمَّ أَشْرَ بَصَرَةٍ وَأَثْمَلَةَ وِلْدَةٍ »^(٤) ، فمَجَّلَ له العمى وفقد أولاده ببدر .

وروي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن هؤلاء الخمسة أهلكوا في يوم واحد وليلة^(٥) . وعنه أيضاً قال : مر رسول الله ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ، ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي ، ومعه جبريل ، فغمز جبريل بأصبعه ، فوقع مثل الظفر في أجسادهم ، فصارت قروحا حتى تتنوا فلم يستطع أحد أن يدنو منهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾^(٦) .

رسل قريش إلى أحبار يهود وامتحانهم النبي ﷺ :

روي أن النضر بن الحارث اجتمع مع نفر من أشرف قريش يبحثون في أمر النبي ﷺ ، فقام فيهم النضر فقال : يا معشر قريش ! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ ، وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثاً ، وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بمجنونه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش ! فانظروا في شأنكم ؛ فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم^(٧) .

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لها : سلام عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبرهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجنا حتى قدمنا المدينة ، فسألنا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره ، وأخبرهم ببعض قوله ، وقالوا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا - وفي رواية : قالوا لهم : أتيناكم لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم حقيق يقول قولاً عظيماً يزعم أنه رسول الرحمن ، قالوا : صِفُوا لِنَاصِفَتِهِ ، فوصفوا لهم ، قالوا : فمن تبعه منكم ؟ قالوا : سألنا ، فضحك خبر منهم ، وقالوا : هذا النبي الذي نحمد نتمه ونجد قومه أشد الناس له عدواة - فقالت لهم أحبار يهود : سألوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرُوا فِيهِ رَأْيَكُمْ ، سألوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسألوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسألوه عن الروح ما هي ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش ، فقالا : يا معشر قريش ! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد - ﷺ - قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرُوا فِيهِ رَأْيَكُمْ .

(١) رَبَضَ فِي الْمَكَانِ : إِذَا لَصِقَ بِهِ وَأَقَامَ مُلَازِمًا لَهُ (النهاية : ج ١٨٤/٢) .

(٢) الشْبْرِيَّةُ : وَاحِدَةُ الشَّبْرِيقِ ، وَهِيَ نَبْتٌ حِجَازِيٌّ يُؤْكَلُ وَلَهُ شَوْكٌ ، وَإِذَا تَبَسَّ سَمِّيَ الصَّرْبِيْعَ (لسان العرب : ج ٢١٨٥/٣) .

(٣) امْتَخَصَّصَ : تَحَرَّكَ (لسان العرب : ج ٤١٥٤/٦) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١٥٢) .

(٥) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٣٥٤/١) .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٤٦٧) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والبخاري بنحوه ، وفيه يزيد بن درهم ضعفه ابن معين ووثقه الفلاس .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٣١٧/١) .

فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ! أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عَجَب ، وعن رجل كان طَوَافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ماهي ؟ قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : « أُخْبِرْكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا » ، ولم يستثن (١) ، فانصرفوا عنه ، فكث رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة لا يُحَدِّثُ اللهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحِيَاءً ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أُرْجِفَ أَهْلَ مَكَّةَ ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يجبرنا بشيء مما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مَكَّتُ الْوَحْيِ عَنْهُ ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله ، عز وجل ، بسورة أصحاب الكهف (٢) ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطَّوَّافِ وَالرُّوحِ (٣) . فقال تعالى في شأن الفتية : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٤) ، وقال فيما سأله عنه من أمر الرجل الطَّوَّافِ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ، إِنَّا مَكْنَأُ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَاتَّبِعْ سَبَبًا ﴾ (٥) إلى آخر القصة . وقال تعالى فيما سأله عنه من أمر الروح : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦) .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه : « لَقَدْ احْتَبَسْتُ عَنِّي يَا جِبْرِيلُ حَتَّى سَوْتُ ظَنًّا » ، فقال له جبريل : ﴿ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٧) .

رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رضي الله عنهما ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالت أحبار يهود : يا محمد ! رأيت قولك ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟ قال : « كَلَّا » ، قالوا : فإنك تتلو فيما جاءك آناً قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ وَعِنْدَكُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَكْفِيكُمْ لَوْ أَقْسَمْتُمْ » ، قال : فأُنزِلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فَمَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفِثَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٨) .

عناد كفار قريش وموقفهم من القرآن الكريم :

قال ابن إسحاق : فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب - حين سأله عما سأله عنه - حال الحسد منهم له بينهم وبين أتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما

(١) أي لم يقل : إن شاء الله تعالى .

(٢) قال الشيخ صفى الرحمن المباركفوري في الرحيق المختوم (ص : ١٠٥) : « نزلت سورة الكهف ردوداً على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص ، فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، وقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين ، متوكلاً على الله ﴿ وَإِذْ اعْتزَلْتُمْهُمَ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْدِيءَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ - الكهف : ١٦ - وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائماً . بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر ، ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستعكس تماماً ، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون - إن لم يؤمنوا - أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين ، وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء . وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر ، وأن الله لا يزال يبعث من عباده - بين أونة وأخرى - من يقوم بإجلاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان وماجوجه ، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هو عباد الله الصالحون » .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٥/١) .

(٤) الكهف : ٩ .

(٥) الكهف : ٨٢ - ٨٥ .

(٦) الإسراء : ٨٥ ، وانظر سيرة ابن هشام (ج ٢٢٤/١ - ٢٢٣) .

(٧) مريم : ٦٤ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/١) ، وانظر نحوه في صحيح البخاري (ج ١١٨/٦) كتاب التفسير - سورة كهيعص .

(٨) لقمان : ٢٧ والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٣٠/١) .

هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (١) أي : اجعلوه لغوا وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتوه أو خاصتموه يوماً غلبكم .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ، ويبون أن يستمعوا له ، وكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم ، فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته وسمع هو شيئاً دونهم أصاح له يستمع منه (٢) .

روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عباس ، رضي الله عنها ، قال : إنما أنزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٣) من أجل أولئك النفر ، يقول : لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يجب أن يسمعها من يسترق ذلك دونهم لعله يزغوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به (٤) .

أما البخاري فقد روى بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، في سبب نزول هذه الآية قال : نزلت ورسول الله ﷺ مختم بمكة ، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي : بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ﴿ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا ﴾ عن أصحابك ، فلا تسمعهم ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٥) .

وكان أشرف قريش يشعرون بحلاوة القرآن في قلوبهم ، ولكنهم يكابرون في الإنكار والإصرار ، بل إن بعضهم كانوا يصغون بأسماعهم إلى القرآن ، لما يلسون من حلاوته وطلاوته وذلك في غفلة من أشياهم وأتباعهم من السفهاء .

روي أن ثلاثة من زعماء قريش ، وهم أبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى تتعاهدوا ألا تعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال : يا أبا ثعلبة ! والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد منها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد منها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ! ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحلوا فحملنا ،

(١) فصلت : ٢٦ .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١ / ٢٣٥ - ٢٣٦) .

(٣) الإسراء : ١١٠ .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١ / ٢٣٦) .

(٥) صحيح البخاري (ج ١٠ / ١٠٧٦) كتاب التفسير - سورة بني إسرائيل .

وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الرُكْب وكنا كَفَرْتِي رِهَان ^(١) ، قالوا : مِنَّا نبيُّ يأتيه الوحي من السماء ، فتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقك فقام عنه الأخنس وتركه ^(٢) .

وروى البيهقي بسنده عن المغيرة بن شعبه ، رضي الله عنه ، قال : إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أرقعة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل : « يا أبا الحكم ! هلم إلى الله ، عز وجل ، وإلى رسوله أدعوك إلى الله » ، قال أبو جهل : يا محمد ! هل أنت مُتَنِّتٌ عن سبِّ ألهتنا ، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما أتبعتك . فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليّ فقال : فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق ، ولكن بني قُصَيٍّ قالوا : فينا الحِجَابِيَّة ، فقلنا : نعم ، فقالوا : فينا النُدُوَّة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللُؤَاء ، فقلنا : نعم ، قالوا : فينا السَّقَايَةَ ، فقلنا : نعم ، ثم أطمعوا وأطمعنا ، حتى إذا تحاكت الرُكْب ، قالوا : مِنَّا نبيُّ ، والله لا أفعل ^(٣) .

الهجرة الأولى إلى الحبشة :

استمر المشركون في تعصبهم وقسوتهم على المسلمين ، وتفننوا في إيذائهم وذهبوا فيه كل مذهب ، فلم يرعوا فيهم قرابة ومخطوفا حدود الإنسانية ، وكان اضطهادهم لهم يزداد ضراوة يوماً بعد يوم حتى نباهم المقام في مكة ، وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من العذاب الأليم . وفي هذه الظروف الصعبة كانت سورة الكهف قد نزلت وفيها إشارة إلى الهجرة من أرض الكفر عند خشية الفتنة ، ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة أيضاً وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنات وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ^(٤) ، وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحابه النجاشي ملك الحبشة ملك عادل ، لا يظلم أحداً ، فقال لأصحابه وقد رأى ما ينزل بهم من البلاء ، وما يصيبهم من القهر والأذى ، وهو لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه ، قال لهم : « تفرقوا في الأرض » ، فقالوا : أين نذهب يا رسول الله ؟ قال : « ههنا » وأشار بيده إلى جهة أرض الحبشة ، وفي رواية : قال لهم : « لو خر جنتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عند أحد ، وهي أرض صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

فخرج عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدِينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام وذلك في رجب من السنة الخامسة للبعثة ^(٥) .

وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة وهم : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وامراته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، والزبير بن لعوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وامراته أم سلمة بنت أبي أمية ، وعثمان بن مظعون وهو أميرهم ، وعامر بن ربيعة ، وامراته ليلى بنت أبي حنيفة ، وأبو سبرة بن أبي رهم ، وسهيل بن بيضاء ، وحاطب بن عمرو ، وعثمان بن عفان ، وامراته رقية ابنة النبي ﷺ ^(٦) ، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيها : « إنها لأول من هاجر بعد لوط وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام » ^(٧) .

وكان رحيلهم تسلاً في الخفاء ، وقد خرجوا متجهين إلى البحر ، منهم الراكب والماشي ، حتى انتهوا إلى ميناء الشَّعْبِيَّة - وهو كان مرفأ مكة ومُرْتَبِي سفنها قبل جدّة - وقبض الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف

(١) أي : تساوينا في الشرف والمنزلة . يُقال في اللَّئِلِ : هُما كَفَرْتِي رِهَانِ ، يُضْرَبُ لِأَثْنَيْنِ يَسْتَبِقَانِ إِلَى غَايَةِ فَيْسْتَوِيَانِ . انظر : (الوسيط : ج ٦٨٧٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٣٧/١) .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٧/٢) .

(٤) الزمر : ١٠ ، وانظر : الرحيق المختوم (ص : ١٠٥ - ١٠٦) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٣/١) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٤/١) ، وقيل : كانوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة (عيون الأثر : ج ١١٥/١) .

(٧) المستدرک (ج ٤٦/٤) .

دينار . وفطنت لهم قريش ، فخرجت في آثارهم ، لكن عندما بلغت الساحل كان المسلمون قد انطلقوا آمنين^(١) .
وأقام المسلمون في الحبشة بخير دار عند خير جار بقية رجب وشعبان إلى رمضان ، ثم عادوا إلى مكة^(٢) كما سيأتي .

قصة الغرانيق :

وفي رمضان من السنة الخامسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى الحرم ، فقرأ سورة النجم في مجلس يضم المسلمين والمشركين حتى إذا بلغ السجدة سجد وسجد معه القوم جميعاً ، المسلمون والمشركون ، إلا رجلاً أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فقتل بعد ذلك كافراً ، وهو أمية بن خلف^(٣) . وقيل : الوليد بن المغيرة أو أبو أخينة سعيد بن العاص^(٤) .

وخبر السجود هذا ثابت في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد ، وليس فيه قصة الغرانيق^(٥) ، فهي قصة افتراها بعض الزنادقة وزعموا فيها أن النبي ﷺ تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم وأنه قال عنها بعد أن تلا قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾^(٦) قال : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، وزعموا أن المشركين أعلنوا رضاهم عما تلا النبي ﷺ فسجدوا معه حين سجد^(٧) .

واستناداً إلى القرآن والسنة فإن القصة باطلة وموضوعة . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾^(٨) ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَا يَنْطُرُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾^(٩) . وصح أن النبي ﷺ لم يتقرب لصنم قط حتى أكرمه الله بالنبوة ، وأنه ما هم بعمل من أعمال الجاهلية قبل النبوة إلا عصمه الله ، فكيف به في الإسلام ؟

وقد طعن في صحة القصة جمع من العلماء ، منهم القاضي البيضاوي والقاضي عياض ، وقال البيهقي : رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم ، وقال الإمام النووي نقلاً عنه : وأما ما يرويه الإخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله ﷺ ما جرى على لسانه من الشفاء على ألسنتهم فباطل لا يصح منه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل ، لأن مدح إله غير الله كفر ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ ، ولأن يقوله الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك وإلا يلزم عدم الوثوق بالوحي^(١٠) .

وقد علل الشيخ صفي الرحمن المباركفوري حادث سجود المشركين مع النبي ﷺ بقوله : « إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك ، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضاً ، من قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(١١) ، فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة - أي النجم - وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلّاب - لا يحيط بروعته وجلاله البيان - تفانوا عما هم فيه ، وبقي كل واحد مصغياً إليه ، لا يخطر بباليه شيء سواه ، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها

(١) طبقات ابن سعد (ج ٢٠٤/١) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٠٦/١) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٥٠/٢) أبواب سجود القرآن - باب سجدة النجم ، و (ج ١٧٧/٦) كتاب التفسير - سورة النجم ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٦/١) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٠٥/١) .

(٥) الغرانيق في الأصل الذكور من طير الماء ، وأحدّها غرثوق وغرثيق ، سمي به لتباضه وقيل : هو الكري . وكانوا يزعمون أن الأصنام تُقرَّبهم إلى الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تغلو في السماء وترتفع (السيرة الحلبية : ج ٣٢٤/١) .

(٦) النجم : ١٩ - ٢٠ .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٠٥/١) ، ومجمع الزوائد (ج ٣٢/٦) .

(٨) الحاقة : ٤٤ - ٤٦ .

(٩) النجم : ٣ - ٤ .

(١٠) السيرة الحلبية (ج ٣٢٦/١) ، وانظر محاسن التأويل للقاسمي (ج ٤٣٦٠/١٢) .

(١١) فصلت : ٢٦ .

القلوب - ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ، هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ، أُرْقِتِ الْأَرْفَةَ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ، أَقْمِنُ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ ، وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ ! - ثم قرأ : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعُْبِدُوا ﴾ (١) ثم سجد ، لم يتالك أحد نفسه حتى خر ساجداً . وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تالكوا أن يخزوا لله ساجدين .

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفائه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قال عنها « تلك الغرانيقة العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » جاؤوا بهذا الإفك المبين ، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب ، ويطيلون الدسّ والافتراء (٢) .

عودة مهاجري الحبشة :

وترامت هذه الأخبار إلى مهاجرة الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورتها الحقيقية ، بلغهم أن أهل مكة أسلموا وقد سجدوا مع النبي ﷺ حتى الوليد بن المغيرة وسعيد بن العاص ، فقال للمهاجرون : فن بقي بمكة إذا أسلم هؤلاء ؟ وقالوا : عشائرتنا أحب إلينا ، فخرجوا راجعين في شوال من السنة الخامسة للبعثة (٣) ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار تبينت لهم الحقيقة وعرفوا أن المشركين أشد ما يكونون خصاماً لله ورسوله والمسلمين ، فائتم القوم في الرجوع إلى أرض الحبشة ، ثم قالوا : قد بلغنا . فدخلوا مكة ، ولم يدخل أحد منهم إلا مستخفياً ، أو في جوار رجل من قريش ، وقيل : إنه عاد بعضهم إلى الحبشة (٤) .

ومن دخل بجوار عثمان بن مظعون ، رضي الله عنه ، دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، ولما رأى ما يفعل بالمسلمين من الأذى قال : والله إن غدوي ورواحي أمنأ بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلتون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي ، فشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ! وقت دمتك ، وقد رددت إليك جوارك ، قال له : لم يا ابن أخي ؟ لعل أذاك أحد من قومي وأنت في ذمتي ؟ قال : لا ، ولكنني أرضى بجوار الله ، ولأأريد أن أستجير بغيره ، قال : فانطلق إلى المسجد فارد عليّ جوارى علانية كما أجرتك علانية ، فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جوارى ، قال : صدق ، قد وجدته وفيأ كريم الجوار ، ولكنني قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ، فقال الوليد : أشهدكم أي بريء من جواره . ثم انصرف عثمان ، وليد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم - قبل إسلامه - فجلس عثمان معهم فقال لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، فقال عثمان : صدقت ، فقال لبيد : وكل نعيم لاحالة زائل ، قال عثمان : كذبت نعيم الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يا معشر قريش ! والله ما كان يؤذى جليسم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن هذا سفينة في سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله ، فردّ عليه عثمان حتى شري (٥) أمرهما ، فقسام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنيّة ، لقد كنت في ذمة متبعة فخرجت منها وكنت عن الذي لقيت غنيّاً ، ثم ضحكوا ، فقال عثمان : بل كنت إلى الذي لقيت فقيراً ، والله إن عيني الصحيحة التي لم تلم لم تلمم لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله ، عز وجل ، ولي فين هو أحب إليّ منكم أسوة ، وإني والله لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال له الوليد : إن شئت أجرتك الثانية ، قال : لا أرب لي في جوارك (٦) .

(١) النجم : ٥٣ - ٦٢ .

(٢) الرحيق الختموم (ص : ١٠٦ - ١٠٧) .

(٣) ويقال إن للمهاجرين عادوا في السنة السادسة لما سمعوا بإسلام عمر بن الخطاب وحمة رضي الله عنها - كما هو عند ابن إسحاق - فلما بلغوا مكة وجدوا المشركين قد اتهموا على مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامة ، فأمرهم النبي ﷺ بالمهجرة إلى الحبشة مرة ثانية .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٠٦/١) ، وسيرة ابن هشام (ج ٢٨٨/١) .

(٥) شري الأمر بينهما : عظم وتفاقم (النهاية : ج ٤٦٨/٢) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٩١/١) ، وجمع الزوائد (ج ٣٤/٦) .

مفاوضة قريش أبا طالب في أمر النبي ﷺ :

وعندما أيقنت قريش أن بطشها بالمستضعفين ، ونيلها من غيرهم ، لم يصرف الناس عن الاستجابة لداعي الله ، وأن طرق الاستهزاء أو تشويه معالم الدين لم تغلق في الصد عن سبيل الله ، لجأت إلى أسلوب المفاوضات مرة أخرى^(١) .

فشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ! إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإن ابن أخيك يؤذينا في نادينا وفي مجلسنا ، وإننا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وغيب آهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإيّاك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

فقطم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه ، فبعث عقيلاً ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فلما جاء قال له : يا ابن أخي ! إن قومك قد جاؤوني فزعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم وفي مجلسهم فانتبه عن ذلك ، وأبق على وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام ، فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبيل يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لأسلمك لشيء أبداً . وقال :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
فاصدع بأمرك ما عليك غصاصة
حتى أوسد في التراب ذفيناً
وأبشر وقرّ بذاك منك عيوناً^(٢)

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال لقومه وحلق بصره إلى السماء : « ماترؤن هذه الشمس ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلةً » ، فقال أبو طالب : ما كذبنا ابن أخي قط فارجعوا^(٣) .

طلب قريش تسليم النبي ﷺ :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في دعوته ، وأن أبا طالب قد أبقى خذلان ابن أخيه وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب ! قد جئناك بفتى قريش جالاً ونسباً ونهاده^(٤) وشعراً ، فخذ فلك نصره وعقله^(٥) وميراثه ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ، ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مقببةً ، وإننا هو رجل برجل . فقال أبو طالب : والله ما أنصفتوني ، أتعطونني ابنكم أخذوه لكم ، وأعطيتكم ابني تقتلونه ؟؟ ما هذا بالنصف ، تسومونني^(٦) سؤم الغرير^(٧) الذليل ، هذا والله لا يكون أبداً . فقال المطمئ بن عدي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال أبو طالب : « والله ما أنصفتوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك^(٨) .

(١) لا تذكر المصادر زمن هذه المفاوضات لكن يبدو بعد التأمل في القرائن والشواهد - كما قال الشيخ صفي الرحمن المباركفوري - أنها كانت في أواسط

السنة السادسة من النبوة (الرحيق المختوم / ص : ١١٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٧/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٤٨/١) .

(٣) انظر : المستدرک (ج ٥٧٧/٣) ، ودلائل النبوة لليبهي (ج ١٨٦/٢) .

(٤) النهْدُ : القوي الضخم (الوسيط : ج ٩٦٦/٢) .

(٥) العقل : الدية (لسان العرب : ج ٣٠٤٧/٤) .

(٦) المساومة : المجاذبة بين البائع والمشتري على السلعة وفصل ثمنها (النهاية : ج ٤٢٥/٢) .

(٧) الغرير : الغريب (الوسيط : ج ٥٩٨/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠١/١) .

محاولة قريش اغتيال النبي ﷺ :

وبعد فشل مفاوضات قريش مع أبي طالب في المرتين ، اشتد مكر زعمائها وأجمعوا على قتل النبي ﷺ وقالوا : ماخير من أن يُقتل محمد ، فلما كان مساء الليلة التي عرضوا فيها غارة بن الوليد على أبي طالب ، قُعد رسول الله ﷺ ، وجاء أبو طالب وعمومه إلى منزله فلم يجدوه ، فجمع أبو طالب فتيناً من بني هاشم وبني المطلب ثم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد ، فلينظر كل فتى فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظليّة ، يعني أبا جهل ، فإنه لم يغيب عن شرّ إن كان محمد قد قُتل ، فقال الفتيان : نفعل ، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال ، فقال : يا زيد ! أحسست ابن أخي ؟ قال : نعم كنت معه آنفاً ، فقال أبو طالب : لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه ، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ ، وهو في دار الأرقم ومعه أصحابه يتحدثون ، فأخبره الخبر ، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ! أين كنت ؟ أكنت في خير ؟ قال : « نعم » ، قال : ادخل بيتك ، فدخل رسول الله ﷺ ، فلما أصبح أبو طالب غداً على النبي ﷺ فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ، ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون ، فقال : يا معشر قريش ! هل تدرّون ما همتم به ؟ قالوا : لا ، فأخبرهم الخبر ، وقال للفتيان : اكشفوا عما في أيديكم ، فكشفوا ، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة ، فقال : والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفاني نحن وأنتم ، فانكسر القوم وكان أشدّهم انكساراً أبو جهل (١) .

وفي رواية : أن كفار قريش تواعدوا للنبي ﷺ ليقتلوه ، فلما أتوا المسجد ليأخذوه وهو في صلاته سمعوا صوتاً شديداً ، فساظنوا أنه بقي بتهامة جبل إلا تفتت ، وغشي عليهم ، ولم يستفيقوا حتى قضى صلاته ، ثم تواعدوا له ليلة أخرى ، فحال الله ، عز وجل ، بينهم وبينه (٢) .

وروي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن أناساً من بني مخزوم تواصوا بالنبي ﷺ ليقتلوه ، منهم أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، فبينما النبي ﷺ قائم يصلي ، فلما سمعوا قراءته أرسلوا الوليد ليقتله ، فانطلق حتى انتهى إلى المكان الذي كان يصلي النبي ﷺ فيه ، فجعل يسمع قراءته ولا يراه ، فانصرف إليهم فأعلمهم ذلك ، فاتاه أبو جهل والوليد ونفر منهم ، فلما انتهوا إلى المكان الذي يصلي فيه سمعوا قراءته ، فيذهبون إلى الصوت فإذا الصوت من خلفهم ، فينتهون إليه فيسمعونه أيضاً من خلفهم ، فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلاً ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٣) .

ومما يؤكد أيضاً أن طغاة قريش كانوا يريدون قتل النبي ﷺ ما روي عن عروة بن الزبير قال : كان النضر بن الحارث ممن يؤذي رسول الله ﷺ ويتعرض له ، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريد حاجته نصف النهار ، في حرّ شديد ، فيبلغ أسفل ثنبيه الحجون ، وكان يبعد إذا ذهب لحاجته ، فرآه النضر بن الحارث فقال : لا أجده أبداً أخلّ منه الساعة فأغتاله ، قال : فدنا إلى رسول الله ﷺ ، ثم انصرف راجعاً مرعوباً إلى منزله ، فلتيه أبو جهل ، فقال : من أين الآن ؟ فقال النضر : اتبعت محمداً رجاء أن أغتاله ، وهو وحده ليس معه أحد ، فإذا أسود تضرب بأنياها على رأسه فاتحة أفواهاها ، فهالتي فدعرت منها ووليت راجعاً ، فقال أبو جهل : هذا بعض سحره (٤) .

ولم تزل فكرة اغتيال النبي ﷺ تنضج في قلوب المشركين يوماً بعد يوم ، روى ابن إسحاق في حديث طويل قال : قال أبو جهل لعنه الله : يا معشر قريش ! إن محمداً قد أتى إلّا ماترون من عيب ديننا ، وشم أبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشم أهلتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بججر ما أطبق حمله ، أو كما قال ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو أمنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله ما نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

(١) طبقات ابن سعد (ج ٢٠٢/١) .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٧٧٠/٢) .

(٣) يس : ٩ ، والخبر في دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٦/٢) .

(٤) دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٢٦٢/١) .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبيلته إلى الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام رسول الله ﷺ يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً مُنتقماً لونه مرعوباً ، قد يبست يدها على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قَصْرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال : « ذلك جبريل عليه السلام لودنا لأخذة » (١) .

وهكذا فشلت مفاوضات قريش ومحاولاتها في القضاء على الدعوة وصاحبها ، فراح تصب جام غضبها على المسلمين وتبذل ما في وسعها للتنكيل بهم ومحاوله فتنتهم عن دينهم .

إيذاء المشركين لأبي بكر رضي الله عنه :

روي أن أبا بكر ، رضي الله عنه ، ألح يوماً على رسول الله ﷺ في الخروج من دار الأرقم ، فقال : « يا أبا بكر ! إنا قليل » ، فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يلح حتى خرج رسول الله ﷺ وتفرق للمسلمون في نواحي المسجد ، كل رجل في عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ، ورسول الله ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ، ووطئ أبو بكر ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين (٢) ويحرفها لوجهه حتى صار ما يعرف أنفه من وجهه . ولما سمع بنو تيم بذلك أسرعوا إلى المسجد ، فأجلوا المشركين عن أبي بكر وقالوا لهم : والله لمن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، ثم حملوه في ثوب ، وهم لا يشكون في موته ، حتى أدخلوه منزله ، وجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار ، فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فسؤا منه بالسنتهم وعدلوه (٣) ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما حلت به ألح عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله ما لي علم بصاحبك ، فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسألها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت ، قالت : نعم ، فضمت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً (٤) ذنباً (٥) ، فصاحت وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال أبو بكر : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، قال : أين هو ؟ قالت : في دار الأرقم ، قال : فإن الله علي أن لأذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو أتى رسول الله ﷺ ، فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس ، خرجت به يتكىء عليها ، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله ورق له رقة شديدة ، فقال أبو بكر : بأبي وأمي يا رسول الله ! ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، وأنت مبارك ، فادعها إلى الله ، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعا إلى الله فأسلمت (٦) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٣١٨/١) .

(٢) خَصَفَ النَّعْلَ : خَرَزَهَا بِالْمِخْصَفِ وَهُوَ الْمِخْرَزُ (الوسيط : ج ٢٣٧/١) .

(٣) عَذَلَهُ يَعْذِلُهُ عَذَلًا : لَأَمَةٍ فَقِيلَ مِنْهُ وَأَعْتَبَ (لسان العرب : ج ٤ / ٢٨٦٢) .

(٤) الصَّرِيعُ : الْمَطْرُوحُ عَلَى الْأَرْضِ (الوسيط : ج ٥١٥/١) .

(٥) أَي بَرَاءَ الرَّضْحِ حَتَّى أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ (لسان العرب : ج ١٤٣٢/٢) .

(٦) انظر : البداية والنهاية (ج ٣٠/٣) .

إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه :

خلال هذا الجو المشحون بالظلم والطغيان أسلم حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، وهو عم رسول الله ﷺ ، وأخوه من الرضاعة ، وكان رضي الله عنه أسن من رسول الله ﷺ بأربع سنين .

وسبب إسلامه أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ عند الصفا فأذاه وشمته ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، وقيل : إنه صبّ التراب على رأسه ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه ، ثم انصرف عنه إلى نادٍ من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا تسمع ذلك ، فلما أقبل حمزة راجعاً من قنص^(١) له متوشحاً قوسه ، رآته المولاة فقالت له : يا أبا عمار ! لو رأيت مالمقي ابن أخيك محمد أنفأ من أبي الحكم بن هشام !! وجده ههنا جالساً فأذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه رسول الله ﷺ . فاحتل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته - وكان أعزفتي في قريش وأشدّ شكية^(٢) - فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، مُعنداً لأبي جهل - إذا لقيه - أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه وقال : أنتستهم ابن أخي وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ ثم ضربه بالقوس فشجّه شجة منكورة في رأسه وقال : ردّ عليّ ذلك إن استطعت ، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقالوا : ما نراك إلا قد صبات ، فقال حمزة : وما يعني وقد استبان لي منه ، أنا أشهد أنه رسول الله ، فوالله لا أنثني عن ذلك فامنعوني إن كنتم صادقين ، فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمار ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وتم حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله ، وذلك بعد أن وسوس له الشيطان فقال له لما رجع إلى بيته : أنت سيّد قريش ، اتبعت هذا الصابي وتركت دين آبائك ؟ لعمرك خير لك مما صنعت ، فشبهه على حمزة الأمر ثم قال : اللهم ! إن كان رُشداً فاجعل تصديقه في قلبي ، وإلا فاجعل لي ما وقعت فيه مخرجاً . فبات ليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي ! إني وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلي على ما لا أدري أرشد هو أم غي ، شديد ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فذكره ووعظه وخوفه وبشّره ، فألقى الله تعالى في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ ، فقال : أشهد أنك لصادق ، فأظهر يا ابن أخي دينك ، فوالله ما أحب أن لي ما ألمت الشمس وأني على ديني الأول .

وقد روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن هذه الحادثة سبب لنزول قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مُتِيناً فَأَحْبَبْنَا وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ يعني حمزة ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِمُخْرِجٍ مِنْهَا ﴾^(٣) يعني أبا جهل .

وسر رسول الله ﷺ بإسلام حمزة أيما سرور ، وعرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة سيمعه ، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه^(٤) .

وكان إسلام حمزة ، رضي الله عنه ، في السنة السادسة من النبوة^(٥) .

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

ثم أيد الله سبحانه الإسلام والمسلمين بإسلام عمر بن الخطاب القديوي ، وكان رجلاً معروفاً بمجدة الطبع وقوة الشكينة وكان من أشدّ الناس عداوة للمسلمين ، وطالما لقوا منه ألوان الأذى حتى يؤسوا من إسلامه .

(١) القنص : الصيد (لسان العرب : ج ٢٧٥٢/٥) .

(٢) الشكينة : الأنفة ، الانتصار من الظلم (الوسيط : ج ٤٩٤/١) .

(٣) الأنعام : ١٢٢ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٢/١) ، والمستدرک (ج ١٩٢/٣) ، وجمع الزوائد (ج ٢٦٧/٩) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٩٧/١) .

(٥) المستدرک (ج ١٩٢/٣) .

روي عن ليلي بنت أبي حثمة أن عمر بن الخطاب مرّ بها ، وهي تتجهز للرحيل مع زوجها عامر إلى الحبشة ، فقال لها : إنه الانطلاق يا أم عبد الله ، قالت : نعم ، والله لنخرجن في أرض الله ، أذيتونا وقهرتونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجاً ، فقال : صحيحك الله ، قالت أم عبد الله : ورأيت له رقعة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا ، قالت : فجاء عامر ، فقلت له : يا أبا عبد الله ! لو رأيت عمر أنفأ ورقته وحزنه علينا ، قال : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : قلت : نعم ، قال : فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت : يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام^(١) .

وقد كان النبي ﷺ حريصاً على إسلامه ويدعو الله لذلك ، فقد روي عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك ، بأبي جهل أو بعمّر بن الخطّاب » وكان أحبهما إليه عمّر^(٢) . وفي رواية قال : « اللهم أشدّد دينك بأحبهما إليك »^(٣) ، وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بعمّر بن الخطّاب خاصّة »^(٤) . وروي أنه لما دعا له النبي ﷺ أصبح عمر من الغد بكرة فأسلم^(٥) .

وأما الروايات التي جاءت في كيفية إسلامه فمختلفة ، وسبيل الجمع بينها هو أن تمكّن الإسلام في قلبه لم يقع دفعة واحدة وإنما كان تدريجياً .

وخلاصة تلك الروايات بعد الجمع بينها أن عمر ، رضي الله عنه ، قال يحدث عن نفسه : كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة^(٦) عند دور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي ، قال : فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك ، فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت : لو أني جئت فلاناً الخمار ، وكان يبيع الخمر ، لعلي أجد عنده خمرأ فأشرب منها ، فخرجت فجئته فلم أجد ، قال : لو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ، قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي ، وكان مصلاه بين الركنين الأسود والبياني ، فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت من محمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، فقلت : لأن دنوت منه أستع منه لأروعه ، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثياب الكعبة ، فجعلت أمشي رويداً ، حتى قمت في قبلته ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة ، والنبي ﷺ قائم يصلي وقد استفتح سورة الحاقة ، فجعلت أستمع إلى القرآن وأعجب من تأليفه ، قال : فقلت في نفسي : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ ، قال : قلت : كاهن ، قال : ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، تنزِيلٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾^(٧) إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع^(٨) .

فكان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه ، ومضى عمر بعدها جاهداً في عمله ضد المسلمين حتى ساق الله إليه الإسلام وشرح له

صدره .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٣٦٥/١) .

(٢) سنن الترمذي (ج ٦١٧/٥) كتاب المناقب - باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ح ٣٦٨١ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٢٦٧/٣) .

(٤) سنن ابن ماجه (ج ٢٩١/١) المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ح ١٠٥ .

(٥) انظر : مجمع الزوائد (ج ٦٢/٩) ، والمستدرک (ج ٥٠٢/٣) .

(٦) الحزورة في اللغة : الرابية الصغيرة ، وكانت الحزورة سوق مكة ، وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه (معجم البلدان : ج ٢٧١/٣) .

(٧) الحاقة : ٤٠ - ٤٧ .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٨/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٧/١) ، ومجمع الزوائد (ج ٦٢/٩) .

وكان سبب إسلامه على ما جاءت به الروايات أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين من بين رجال ونساء ، فلقية نعيم بن عبد الله النخام العدوي ، أو رجل من بني زهرة أو من بني مخزوم ، وكان يخفي إسلامه فرقاً من قومه ، فقال له : أين تعبد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابي ، الذي فرق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب أهلتها ، فأقتله ، قال : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني عبد مناف وبني زهرة تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب يا عمر ! إن أختك فاطمة^(١) وختنك^(٢) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، وتركا دينك الذي أنت عليه ، فارجع إلى أهل بيتك ، فأقم أمرهم .

فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئها القرآن - وفي رواية : وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما من لاشيء لها عند الرجل الذي في يده السعة يكونان معه يصيبان من طعامه ، وقد ضم إلى زوج أخت عمر رجلين ممن أسلما أحدهما خباب - فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع^(٣) لهم ، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب ، فلما دخل عليها قال : ما هذه الهيممة^(٤) التي سمعتها عنكم ؟ فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : رأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها^(٥) بيده نفحة فدمى وجهها ، وفي رواية : أنه ضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلما وأمنأ بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك . فلما يبس عمر ورأى ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارغوى^(٦) ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي عنكم فأقرأها وأنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر يقرأ الكتب ، فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، وحلف لها بألته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا أخي ! إنك نجس على شركك ، وإنه لا يسها إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فقال : أما ظاهره طيب ، ثم قرأ : ﴿ طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ قال : فتعظمت في صدري وبكيت وقلت : من هذا أقرت قريش ؟ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ إِنْني أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾^(٧) فرق قلبه وقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ ذلوني على محمد ، فقالت أخته : عليك عهد الله وميثاقه أن لا تجهه بشيء يكرهه ، قال : نعم ، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال : أبشر يا عمر ، فإني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ ، فإني سمعته أمس وهو يقول : « اللَّهُمَّ اعِزَّ الْإِسْلَامَ بَعْمَرَ بْنِ الْحَطَّابِ أَوْ بَعْمُرِ بْنِ هِشَامٍ » ، فالله الله يا عمر ، قال عمر : فذلني يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم ، قال خباب : هو في دار أرقم بن الأرقم بأسفل الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم انطلق حتى أتى الدار ف ضرب الباب ، فقام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرأه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فأخبره ، ووجل القوم ، فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا : عمر بن الخطاب ، فقال : افتحوا له الباب ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فأذن له رسول الله ﷺ ، ففتحوا له ، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحائل

(١) وقيل : اسمها أمية ، وقيل زينب .

(٢) الحتن : زوج الأخت (الوسيط : ج ٢١٧/١) .

(٣) المخدع : التبيت الصغير داخل البيت الكبير (الوسيط : ج ٢٢٠/١) .

(٤) الهيممة : هي الكلام الحفي لا يفهم (النهاية : ج ٢٩٠/٥) .

(٥) نفح الشيء : دفعه عنه أو ضربته (الوسيط : ج ٩٤٦/٢) .

(٦) ارغوى : كف وأرتدع (الوسيط : ج ٣٥٦/١) .

(٧) طه : ١ - ١٤ .

السيف ، ثم جِذَهُ (١) جِذَّةً شديدة ، فما تمالك أن وقع على ركبتيه على الأرض ، فقال : « أما أنتَ بِمَنْتِهِ يا عُمَرُ حتى يُنزلَ اللهُ بِكَ مِنَ الخِزْيِ والنِّكَالِ ما نزلَ بالوَلِيدِ بنِ المُغيرةِ ؟ » - وفي رواية : قال : « فوالله ما أرى أن تُنتَهِيَ حتى يُنزلَ اللهُ بِكَ قارعةً » - فقال عمر : يا رسول الله ! جئتُكَ لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم هذا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ ، اللهم أعزِّ الدَّينَ بعُمَرَ بنِ الخطَّابِ ، اللهم اهْدِهِ » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فكبَّرَ رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم ، وكبَّرَ أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد (٢) .

وفي بعض الروايات أن عمر أخذ الصحيفة فقرأ فيها ماشاء الله أن يقرأ ، فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ (٣) ، قال : أشهد أن لا إله إلا اللهُ ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ثم أتى رسول الله ﷺ ، فحمّد الله رسول الله ﷺ وقال : « قد هدّك اللهُ يا عُمَرُ » ، ثم مسح على صدره ، ودعا له بالثبات (٤) .

وفي رواية عند الحاكم والطبراني : أن رسول الله ﷺ ضرب عمر بن الخطاب بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول : « اللهم أخرج ما في صدره من غلٍّ ، وأبدله إيماناً » يقول ذلك ثلاثاً (٥) .

وكان إسلام عمر ، رضي الله عنه ، في ذي الحجة من السنة السادسة للنبوّة ، وكان في السادسة والعشرين من عمره بعد أن دخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ، وبعد أربعين أو نيف وأربعين بين رجال ونساء قد أسلموا قبله (٦) .

وأظهر عمر ، رضي الله عنه ، إسلامه وشاع ذلك في قريش ، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يترام ، فقاتله المشركون وقاتلهم حتى يسوا منه ، وعزّ به المسلمون وامتنعوا .

روي عن عمر ، رضي الله عنه ، أنه قال : لَمَّا أسامت تلك الليلة ، تذكّرت أيّ أهل مكّة ، أشدّ لرسول الله ﷺ عدواة حتى آتته فأخبره أنّي قد أسامت ، قال : قلت : أبو جهل ، وكان عمر لحنّمة بنت هشام بن المغيرة ، قال : فأقبلت حين أصبحت ، حتى ضربت عليه بابيه ، قال : فخرج إليّ أبو جهل ، فقال : مرحباً وأهلاً بآبائنا ، ما جاء بك ؟ قال : قلت : جئت لأخبرك أنّي قد أسامت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به ، قال : فضرب الباب في وجهي وقال : قَبْحَكَ اللهُ ، وقَبِحَ ما جئتُ به (٧) .

وروى البيهقي في دلائله قصة إسلام عمر ، وفيها قال عمر رضي الله عنه : وكانوا مستخفين ، فلم أشأ أن أرى رجلاً يُضرب فيضرب إلا رأيت ، ولا يصيبني من ذلك شيء ، فخرجت حتى جئت خالي ، وكان شريفاً ، ففرغت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : ابن الخطّاب ، قال : فخرج إليّ ، فقلت : علمت أنّي قد صَبَوْتُ ؟ قال : أو فعلت ؟ قلت : نعم ، قال : لا تفعل ، فقلت : قد فعلت ، فدخل وأجاف الباب دوني ، فقلت : ما هذا بشيء ، فذهبت إلى رجل من عظماء قريش فناديته ، فخرج إليّ فقلت مثل مقالتي لخالي ، وقال مثل ما قال ، ودخل وأجاف الباب دوني ، فقلت في نفسي : ما هذا شيء ، إن المسلمين يُضربون وأنا لا أُضرب ، فقال لي رجل : أحب أن يُعلم بإسلامك ؟ فقلت : نعم ، قال : فإذا جلس النَّاسُ في الحِجْرِ فأنت فلاناً - لرجل لم يكن يكتُم السِّرَّ - فقل له فيما بينك وبينه : إنّني قد صَبَوْتُ ، فإتته قلّ ما يكتُم السِّرَّ ، قال : فجئت وقد اجتمع النَّاسُ في الحِجْرِ ، فقلت فيما بيني وبينه : إنّني قد صَبَوْتُ ، قال : أو فعلت ؟ قلت : نعم ، قال : فنادى بأعلى صوته إن ابن الخطّاب قد صبأ ، فبادر إليّ أولئك النَّاسُ فإزلت أضرِبهم

(١) الجِذُّ : لُغَةٌ في الجِذْبِ ، وقيل : هو مَقْلُوبٌ (النهاية : ج ١/٢٣٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١/٣٦٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٢٦٧) ، ودلائل النبوّة لأبي نعيم (ج ١/٣١٥) .

(٣) طه : ١٦ .

(٤) انظر : عيون الأثر (ج ١/١٢٤) ، وسيرة ابن هشام (ج ١/٣٧٠) .

(٥) انظر : المستدرک (ج ٣/٨٤) ، وجمع الزوائد (ج ٩/٦٥) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣/٢٦٩) .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ١/٣٧١) .

ويضربونني ، فاجتمع علي الناس ، فقال خالي : ماهذه الجماعة ؟ قيل : عمر قد صبأ ، فقام على الحجر فأشار بكمه هكذا ألا إني قد أجهرت ابن أخي ، فتكشفوا عني ، فكننت لأشياء أن أرى رجلاً من المسلمين يضرب ويضرب إلا رأيته ، فقلت : ماهذا بشيء حتى يصيبني ، فأتيت خالي فقلت : جوارك عليك رد فقل ماشئت ، فازلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام^(١) .

وروي ابن إسحاق بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : لما أسلم أبي عمر قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ قال : قيل له : جميل بن مَعْمَر الجُمَحِيّ ، قال : فغدا عليه ، قال عبد الله بن عمر : وغدوت أتبع أثره ، وأنظر ما يفعل ، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه ، فقال له : أعلمت يا جميل أنني قد أسلمت ، ودخلت في دين محمد ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، وأتبعه عمر ، وأتبعته أبي ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ! وهم في أنديتهم حول باب الكعبة ، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ، قال : ويقول عمر من خلفه : كذب ، ولكنني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونهم ، حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال : وطلّح^(٢) فقعده وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لتركناها لكم ، أو لتركتموها لنا ، قال : فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حَبْرَة^(٣) وقميص مَوْشِيّ^(٤) حتى وقف عليهم ، فقال : ماشأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، قال : فمَنه ؟ رجل اختار لنفسه أمراً فإذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلّوا عن الرجل ، قال : فوالله لكأننا كانوا ثوباً كُشِطَ عنه ، قال : فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت ! من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ فقال : ذلك أي بني العاص بن وائل السهمي .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أنه قال : يا أبت ! من الرجل الذي زجر القوم عنك يوم أسلمت وهم يقاتلونك جزاه الله خيراً ؟ قال : يا بني ! ذاك العاص بن وائل ، لاجزاه الله خيراً^(٥) .

وروي عن عمر ، رضي الله عنه ، أنه أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إني لأدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام ، فأني المجلس وفيه بطون قريش متحلّقه ، فجعل يعلن الإسلام ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فثار المشركون فجهلوا يضربونه ويضربهم^(٦) ، وذكر الحديث بنحو ما تقدم .

ثم زحف المشركون بعد ذلك إلى بيت عمر يريدون قتله ، فمقد روي عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : بينا هو في التار خائفاً (قد اجتمع الناس عند داره) إذ جاء العاص بن وائل السهمي أبو عمرو ، وهو من بني سهيم ، وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : ما باللك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوني أن أسلمت ، قال : لاسبيل إليك ، فخرج العاص ، فلقى الناس قد سأل بهم الوادي ، فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ ، قال : فأنا له جار ، لاسبيل إليه ، قال : فكّر الناس وتصدّوا عنه^(٧) .

هذا بالنسبة للمشركين ، أما المسلمون فقد عزّوا في أنفسهم حينما أسلم عمر ، رضي الله عنه ، وقد أسلم حمزة ، رضي الله عنه ، من قبل ، وعرفوا أنها سيمعان رسول الله ﷺ وينتصفون بها من عدوّهم .

وروي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لما أسلم عمر ، رضي الله عنه ، قال المشركون : اليوم أنتصف^(٨) القوم منا^(٩) . وعنه

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢/٢١٨) .

(٢) طلّح : أغيثاً (لسان العرب : ج ٤/٢٦٨٦) .

(٣) الحَبْرَة والحَبْرَة : ضَرْبٌ مِنَ بُرُودِ الْيَمَنِ مُمَرَّرٌ لِسَانَ الْعَرَبِ : ج ١/٧٤٩٧) .

(٤) وَشَى النَّوْبُ : حَسَنَةٌ وَنَقْشَةٌ ، وَالْوَشْيُ يَكُونُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ (لسان العرب : ج ٦/٤٨٤٦٦) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ١/٢٧٠) .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٩/٦٥) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات .

(٧) انظر : صحيح البخاري (ج ٥/٦٠ ، ج ٦١) كتاب المناقب .. باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٨) أنتصف من فلان : استوفى حقه كاملاً ، أو انتقم منه (الوسيط : ج ٢/٩٢٤) .

(٩) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢/٨٥) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

أيضاً سألت عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لأي شيء سُميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ، ثم قصّ عليه قصة إسلامه إلى أن قال - حين أسلم - : يا رسول الله ! ألسنا على الحقّ إن متنا وإن حيّينا ؟ قال : « بلى والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّكُمْ لَعَلَى الْحَقِّ إِنْ مِتُّمْ وَإِنْ حَيَّيْتُمْ » ، قال : فقلت : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحقّ لتخرجنّ ، فأخرجناه في صفّين ، حمزة في أحدهما ، وأنا في الآخر ، له كديد^(١) ككديد الطّحين ، حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرتُ إليّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يُصِبهم مثلها ، فسماقي رسول الله ﷺ الفاروق^(٢) . وقال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِ عَمَرَ وَقَلْبِهِ ، وَهُوَ الْفَارُوقُ فَوَرَّقَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ »^(٣) .

وكان عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، يقول : ما كنّا نقدير على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه^(٤) ، وقال أيضاً : مازلنا أعزّة منذ أسلم عمر^(٥) .
وعن صهيب بن سنان ، رضي الله عنه ، قال : لمّا أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودُعِيَ إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا من غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتي به^(٦) .

إغراءات قريش للنبي ﷺ :

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون يوماً بعد يوم - وذلك بعد إسلام حمزة وعمر ، رضي الله عنهما - وأن كل محاولاتها المستمرة في الصد عن سبيل الله وصراف الناس عن الاستجابة لداعي الله قد فشلت ، رأت أن تجرّب أسلوباً آخر من المفاوضة والإغراء ، تعرض فيه على النبي ﷺ من الدنيا ما يشاء لتكفّه عن دعوته ، ولم تكن تدري أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دعوته ، فخابوا وفسلوا فيما أرادوا .

روى ابن إسحاق بسنده عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث بن كلدة أخو بني عبد الدار ، وأبو البختريّ بن هشام ، والأسود بن المطّلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام لعنه الله ، وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، وتبّيه ومُنَبّه ابنا الحجاج السهميان ، وأمّية بن خلف ، أو من اجتمع منهم ، قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تَعذروا^(٧) فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظنّ أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بناء ، وكان عليهم حريصاً ، يحبّ رشدهم ، ويعزّ عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدّين ، وشتمت الآلهة ، وسفّقت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلّا قد جثته فيما بيننا وبينك ، أو كما قالوا له ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيعاً قد غلب عليك - وكانوا يسمّون التابعين من الجن ربيعاً - فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطّبّ لك حتى نُبرّك منه ، أو نُعذّر فيك ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بي ما تقولون ، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالكم ولا الشرفَ فيكم ، ولا الملكَ عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسّولاً ، وأنزل عليّ

(١) الكديد : التراب الناعم فإذا وطئ ناز غباراً ، أراد أنهم كانوا في جماعة وأنّ الغبار كان يتورّ من مشيهم (النهاية : ج ٤ / ١٥٥) .

(٢) انظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢١٦/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٢٧٠/٣) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٣٦٤/١) .

(٥) صحيح البخاري (ج ٦٠/٥) كتاب المناقب - باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٦) طبقات ابن سعد (ج ٢٦٩/٣) .

(٧) يُقال : أعذّر الرّجل إذا بلغ أقصى الغاية من العذّر (النهاية : ج ١٩٧/٣) .

كِتَابًا ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَبَلَّغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَإِنْ تَقَبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرَدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى يَحْكَمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . « أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ (١) .

وروي أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً مطاعاً في قومه ، وكان قد جاوز الثمانين من عمره ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ! ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي ! إنك منا حيث قد علمت من السطة (٢) في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به أهنتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمِعْ » ، قال : يا ابن أخي ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا تقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّاً نراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدأوى منه ، فلما فرغ من قوله ورسول الله ﷺ يستمع منه قال ﷺ : « أَقْبُدْ فَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ » قال : نعم ، قال : « فَاسْتَمِعْ مِنِّي » ، قال : أفعل ، فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، حَم ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمَّ لَا يُسْمِعُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ (٣) ، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسبح منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ فَأَنْتَ وَذَلِكَ » - وفي رواية أن عتبة استمع حتى وصل رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٤) فقام مدعوراً ، فوضع يده على فم رسول الله ﷺ يناشده الله والرحم أن يكف عنه ، وذلك مخافة أن يقع النذير - وقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال لهم : ورائي أئي سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قطّ ، وما دريت ما أردّ عليه ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني واجعلوها بي - وفي رواية : أطيعوني في هذا اليوم واعصوني فيما بعده - وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فيان تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلنكنه ملككم ، وعزّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (٥) .

قال ابن إسحاق : وأنزل الله تعالى عليه فيما عرضوا عليه من أموالهم : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٦) .

هذه رواية ابن إسحاق ، وفي رواية غيره أن قريشاً اجتمعت يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلّمه فلينظر ماذا يرده عليه ، فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : أنت يا أبا الوليد ، فاتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت ، ثم قال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ثم قال : أنت خير أم هاشم ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢١٤/١) .

(٢) وَسَطٌ فَلَانَ فِي حَسَبِهِ سِطَةٌ : أَي كَانَ مِنْ خِيَارِ قَوْمِهِ نَسَبًا وَأَرْقَعَهُمْ مَجْدًا انظر (لسان العرب : ج ٤٨٢٣/٦) .

(٣) فصلت : ١ - ٥ .

(٤) فصلت : ١٣ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٢/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٣/٢ ، ٢٠٥) ،

(٦) سبأ : ٤٧ ، انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٥/١) .

التي عبتها ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، مارأينا سخلة^(١) قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الخيل ، أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل ! إن كان إنما بك الباءة ، فاختر أي نساء قريش فلنزوجك عشراً ، وإن كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « فرغت ؟ » قال : نعم ، فتلا عليه رسول الله ﷺ صدر سورة فصلت حتى قرأ : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ، فقال له عتبة : حسبك ، ما عندك غير هذا ؟ قال : « لا » ، فرجع إلى قريش ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا وقد كلمته ، قالوا : فهل أجابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والذي نصبها نبياً^(٢) ما فهمت شيئاً مما قال ، غير أنه قال : ﴿ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ، قالوا : ويلك ، يكلمك رجل بالعربية لا تدري ما قال !! قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذلك الصاعقة^(٣) .

تعنت قريش وطلبهم الآيات المعجزات :

وهكذا لم تفلح طرق الإغراء ولا الإرهاب في كف النبي ﷺ عن دعوته ، وأدرت قريش أن ماتصو إليه بعيد المنال ، وبدلاً من أن تراجع نفسها في أمر النبي ﷺ أصرت على عنادها واستكبارها وراحت تطلب من النبي ﷺ الخوارق والمعجزات المادية الحسية ، ولذلك لم يستجب الله تعالى لمطالبهم لسقم البواعث التي توحى بها مطالبهم ، وردمهم إلى أفئدتهم وأبصارهم وعقولهم يتعرفون بها الحق ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾^(٤) .

قال ابن إسحاق بعد أن ذكر حديث زعماء قريش مع النبي ﷺ وإغراءاتهم له : قالوا : يا محمد ! فإن كنت غير قابل منا شيئاً ، مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيع بلداً ولا أقل ماءً ولا أشد عيشاً منا ، فسئل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قضي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول ، فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : « ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم » ، قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما نراك تبغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلتمس المعاش كما تلتمسه ، حتى تعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً » - أو كما قال - « فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً^(٥) ، كازعت أن ربك لو شاء فعل ، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله إن شاء أن يفعل بكم فعل » ، قالوا : يا محمد ! أفأعلم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أصدرنا إليك يا محمد ! وإنا والله لا نترك وما بلغت منا حتى تهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله

(١) السخلة : ولد الشاة من المعز والضأن ، ذكراً كان أو أنثى (لسان العرب : ج ١٩٤/٣) .

(٢) النبيئة : الكعبة ، وهي أشرف مبني ، كانت تدعى نبيئة إبراهيم ، عليه السلام لأنه بناها (لسان العرب : ج ٣٣٦/١) .

(٣) انظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٩٩/١) .

(٤) آل عمران : ١٩٠ .

(٥) قال ابن هشام : الكسف : القطع من العناب ، وواحدته كسفة (سيرة ابن هشام : ج ٣٣٢/١) .

والملائكة قبلاً ، فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن .. وهو ابن عتته ، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : يا محمد ! عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدفوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، أو كما قال له ، فوالله لأومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وإيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصرتك ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفاً مما فاته ، مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوهُ ولما رأى من مباحثتهم إياه (١) .

قال ابن إسحاق : فدعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له زُفْعَةُ بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن عبد يَعُوْث ، وأبي بن خَلْف ، والعاص بن وائل : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفِضِي الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ، وَلَوْ جَعَلْنَا مَلَكَ لَجَعَلْنَا رِجَالًا ، وَالْمَبْسُوتَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (٢) .

قال ابن إسحاق : وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض ويَعُث من مضى من آبائهم من الموتى : ﴿ وَلَوْ أَنْ قَرَأْنَا سِيرَتَ بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قَطَعْتَ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلَّمْ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لَئِي الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (٣) أي لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

وأنزل عليه في قولهم : خذ لنفسك ، ما سألوه أن يأخذ لنفسه أن يجعل له جناحاً وقصوراً وكنوزاً ويبيع معه ملكاً يصدقه بما يقول ويرى عنه : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ، أَنْظَرُ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ، تَمَارِكُ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ أي : من أن تمشي في الأسواق وتلمس المعاش ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ (٤) .

وأنزل عليه في ذلك من قولهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَافِئِينَ فَنَسُوا مَا وَعُوبُوا وَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ وَحَيَّاكَ الْأَعْيُنَ وَجَعَلْنَا لَكَ الْبَيْتَ الْمَكِينُ وَجَعَلْنَا لَكَ فِي الْأَرْضِ حَقْلًا مَنزُورًا ﴾ (٥) . أي : جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفوا لفعلت .

وأنزل الله عليه فيما قال عبد الله بن أبي أمية : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَعِيمٍ وَعَيْنٌ وَقَنْبُورٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كَيْفَ نَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ﴾ (٦) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿ (٧) .

وأنزل عليه في قولهم : إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل بالهامة يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبداً : ﴿ كَذَلِكَ أُرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلْتَؤَنَّ عَلَيْهِمُ الَّذِي أُوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ (٨) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢١٦/١) .

(٢) الأنعام : ٨ - ٩ ، والحجر في سيرة ابن هشام (ج ٤٢٣/١) .

(٣) الرعد : ٣١ .

(٤) الفرقان : ٧ - ١٠ .

(٥) الفرقان : ٢٠ .

(٦) قال ابن هشام : القبيل يكون مقابلةً ومعاينةً (سيرة ابن هشام : ج ٢٢٢/١) .

(٧) الإسراء : ٩٠ - ٩٣ .

(٨) الرعد : ٢٠ والحجر في سيرة ابن هشام (ج ٢٣٠/١ - ٢٣٣) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ، قال : « وتفعلون ؟ » قالوا : نعم ، قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك ، عز وجل ، يقرأ عليك السلام ويقول : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ، قال : « بلُ بابُ التوبة والرحمة » (١) .

وفي رواية أخرى عنه : فقيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن تؤتيمهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم ، قال : « لا ، بلُ أستأني بهم » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ (٢) .

وعن ابن عباس أيضاً ، رضي الله عنها ، قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى ﷺ ؟ قالوا : بعصاه ، ويسده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ﷺ ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمة والأبرص ، ويحيي الموتى ، فأتوا النبي ﷺ فقالوا : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ فليتفكروا فيها (٣) .

انشقاق القمر :

ثم اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ ، منهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن وائل ، والعباس بن هشام ، والأسود بن عبد يعوث ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، فقالوا : يا محمد ! إن كنت صادقاً فأرنا آية ، وهي أن تشق لنا القمر فرقتين ، نصفاً على أبي قبيس ، ونصفاً على قعيقعان ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن فَعَلْتُ تَوَمَّنُوا ؟ » قالوا : نعم . وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله ﷺ الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا ، فصار القمر فرقتين ، فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليها ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » ، ثم غاب القمر ، فقال المشركون : هذا سحر مستتر ، سحرنا محمد ، ثم قالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فإن أخبروكم أنهم رأوه مثل ما رأيتم فقد صدق ، فما قدم عليهم أحد من وجه من الوجوه إلا أخبروهم بأنهم رأوه (٤) . فما زادهم ذلك إلا عناداً واستكباراً .

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

ثم عادت قريش إلى ما كانت عليه من التنكيل والاضطهاد كأشد ما كانت ، وأغرت سائر القبائل بمضاغفة الأذى للمسلمين ، فسقطت بهم عشائرم ولقوا منهم أذى شديداً ، حتى بلغ الجهد واشتد عليهم البلاء ، وأجمعت قريش أن يحاصروا بني هاشم في الشعب ، فلم ير رسول الله ﷺ بدأ من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة ، وذلك في مطلع السنة السابعة من البعثة .

وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، ولقي المسلمون من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى ، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن جواره لهم ، وكان عز على المسلمين مفارقة نبيهم ﷺ وشق عليهم ذلك فقال عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، بلسان المسلمين : يا رسول الله ! فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَنْتُمْ مَهَاجِرُونَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيَّ ، لَكُمْ هَاتَانِ الْهِجْرَتَانِ جَمِيعاً » ، قال عثمان : فحسبنا يا رسول الله .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (ج ٢٤٢/١) ، والحاكم في المستدرک (ج ٢١٤/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٢) الإسراء : ٥٩ ، والخبر في مسند الإمام أحمد (ج ٢٥٨/١) ، ورواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٦٢/٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٢٩/٦) وقال : رواه الطبراني وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٢/٥) كتاب المناقب - باب انشقاق القمر ، وصحيح مسلم (ج ٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين - باب انشقاق القمر ح ٤٥ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٨١/٤) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٣٦٨/١ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠) .

وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً - إن كان فيهم عمار بن ياسر ، رضي الله عنه ، فإنه يشك فيه - ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب ، وكان فيهم من رجع من المهاجرين الذين خرجوا في المرة الأولى ، وكان أميرهم في هذه المرة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه^(١) . روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لما وجه رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة شيعة وزوده هؤلاء الكلمات : « اللهم الطف بي في تسيير كل عسير ، فإن تيسير كل عسير عليك يسير ، وأسألك اليسر والمعافاة في الدنيا والآخرة »^(٢) .

تعقب قريش لمهاجرة الحبشة :

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فيهم وفدأ منهم فيردم عليهم ، ليفتنوهم في دينهم . فاختراروا رجلين جلدتين^(٣) وهما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأرسلوا معها الهدايا للنجاشي ولبطارقتة مما يستطرف من متاع مكة . ولما رأى أبو طالب ما أجمع عليه قومه بعث أياًتاً للنجاشي يحضه فيها على حسن جوار المسلمين والدفع عنهم .

واستعان عبد الله وعمرو على تنفيذ مكيدتهم باستالة البطارقة ، فقالوا لكل بطريق منهم بعد أن دفعا إليه هديته - قبل أن يكلما النجاشي - : إنه قد ضوى^(٤) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليرددهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا^(٥) ، وأعلم بما عابوا عليهم .

ثم إنهما حضرا إلى النجاشي ، وقدما له الهدايا ، وكان فيها آدم كثير وقريس وجبة ديباج ، ثم كلمها فقالا له : أيها الملك ! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لترددهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه - ولم يكن شيء أبيض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي - فقالت بطارقتة حوله : صدقنا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي وأبى أن يقبل كلامهم ، وحلف بالله ألا يسلم من لجأ إليه وإلى بلاده حتى يدعوم فيسلمهم عما يقول هذان في أمرهم . فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ودعاهم ، وحضروا ، وكانوا قد أجمعوا على صدقه فيما ساءه وسره كأنما في ذلك ما هو كائن ، فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

فقام جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فقال له : أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسبي الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وأماناً به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٥/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٧/١ ، ٢٠٨) و (ج ٣٤٤/٤) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٢٥٨/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٣٧/١) .

(٢) رواه الهيثبي في مجمع الزوائد (ج ١٨٢/١٠) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم .

(٣) الجلد : القوي (الوسيط : ج ١٢٩/١) .

(٤) ضوى إليه : انضم ولجأ (لسان العرب : ج ٢٦٢٢/٤) .

(٥) أعلى بهم عينا : أبصر بهم وأعلم بحالهم (النهاية : ج ٢٩٥/٣) .

فعدا علينا قومنا فعدبونا وقتنونا عن ديننا ، لِيَرَدُونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَائِثِ ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا ، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نَظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ ، فقرأ عليه صدىً من (كَهَيْعَصَ) ، فبكى النجاشي حتى اخضلت^(١) لحيته ، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم أقبل على رسولِي قريش فقال : انطلقا ؛ فلا والله لأُسَلِّمَهُم إِلَيْكُمَا ، وَلَا يُكَادُونِ .

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لأتبيته غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم^(٢) ، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : لا تفعل ؛ فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، ولكنّ عمراً أصرّ على رأيه ، فلما كان الغد غداً على النجاشي وقال له : أيها الملك ! إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسألهم عمّا يقولون فيه ، فأرسل إليهم النجاشي ليسألمهم عنه ، ففزع المسلمون وقال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : تقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا عليه قال لهم . ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ ؛ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشي بيده الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت^(٣) بطارقتة حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله . ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشّيوم : الأمنون بلسان الحبشة - من سبكم غريم ، من سبكم غريم ، من سبكم غريم ، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني أذيت رجلاً منكم - والدّبر : الجبل بلسان الحبشة - ثم قال لبطارقتة : ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرّشوة حين ردّ عليّ ملكي فأخذ الرّشوة فيه ، وما أطاع النّاس في فأطيعهم فيه^(٤) ، فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به ، وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار^(٥) .

هذه رواية ابن إسحاق ، وفي رواية أن الذي كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٦) .

وجاء في بعض الروايات أن عمرو بن العاص وفد إلى النجاشي مع عمارة بن الوليد الخزومي ، فمن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : بعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجداً له ، ثم ابشدراه عن يمينه

(١) اخضلت : ائبلت (الوسيط : ج ٢٤١/١) .

(٢) الخضراء : سواد القوم ومعظمهم (الوسيط : ج ٢٤٠/١) .

(٣) تناخرت : أي تكلمت ، وكأنه كلام مع غضب ونفور ، والنخير : صوت الأنف (لسان العرب : ج ٤٢٧٥/٦ ، ٤٢٧٦) .

(٤) وقد بينت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، السبب في قول النجاشي : ما أخذ الله مني الرّشوة حين ردّ عليّ ملكي ، وهو أن والده النجاشي كان ملكاً للحبشة ، فقتلوه وولّوا أخاه الذي هو عمّ النجاشي ، فنشأ النجاشي في حجر عمّه ، وكان لبيباً حازماً ، فغلب على أمر عمّه ، وكان لعمّه اثنا عشر ولداً لا يصلح واحد منهم للملك ، فلما رأت الحبشة نجابة النجاشي خافوا أن يتولّى عليهم فيقتلهم بقتلهم لأبيه ، فشوا إلى عمّه في قتله ، فأبى ، وأخرجه وباعه ، ثم لما كان عشاء تلك الليلة أصابت عمّه صاعقة فمات . فلما رأت الحبشة أنه لا يصلح أمرها إلا النجاشي ذهبوا وجاءوا به من عند التاجر الذي اشتراه وعقدوا له التاج وملكوه عليهم ، فجاءه التاجر وقال : أيها الملك ! ابتعت غلاماً من قوم بستائة درهم ، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني وأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي ، فقال النجاشي لهم : لتعطينه دراهمه أو ليضعن غلامه يده في يده فليذهبن به حيث شاء ، فأعطوه ما أراد ، فذلك قوله : ما أخذ الله مني الرّشوة حين ردّ عليّ ملكي فأخذ الرّشوة فيه ، وما أطاع النّاس في فأطيعهم فيه . انظر سيرة ابن هشام (ج ٣٦٢/١) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٥٦/١) فما بعدها .

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٠٦/٢) .

وعن شماله ، ثم قال له : إن نقرأ من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا ، قال : فأين هم ؟ قال : هم في أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم^(١) .

وفي رواية : وقال عمرو : وهم لا يسجدون لك إذا دخلوا عليك^(٢) ، وفي لفظ وهم يخالفونك ولا يحيونك كما يحبيك الناس ، فلما جاؤوا قال لهم جعفر : أنا خطيبكم اليوم ، فسلم ولم يسجد ، فقالوا له : مالك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لانسجد إلا لله عز وجل ، قال : وما ذلك ؟ قال : إن الله عز وجل ، بعث إلينا رسوله ﷺ ، وأمرنا أن لانسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة . قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم ، قال : ماتقولون في عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول ، وذكر الحديث بنحو ما ذكرناه من رواية ابن إسحاق إلى أن قال : فقال النجاشي لجعفر وأصحابه : مرحباً بكم وبين جثم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، فإنه الذي نجد في الإنجيل ، وإنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمر بهدية الآخرين فرذت إليهما^(٣) .

وجاء في بعض الروايات أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد وقعة بدر ، فعن عروة بن الزبير قال : لما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن تارك بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشي وأبعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم ، لعله يعطيكم من عنده من قريش ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ، فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وأهدوا للنجاشي ولعظماء الحبشة هدايا ، وذكر الحديث بنحو رواية ابن إسحاق (وفيه الأسئلة والأجوبة التي دارت بين جعفر والنجاشي) إلى أن قال : وسمع رسول الله ﷺ يبعث قريش عمرو بن العاص إلى النجاشي ، فبعث عمرو بن أمية الضمري وكتب معه إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الزهبران والقيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفراً يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم (كهيعص) وقاموا تفيض أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾^(٤) .

وقد جمع بعضهم بين الروايات بأن الوفاة كانت مرتين ، ففي الأولى منها كان الرسول مع عمرو بن العاص غارة بن الوليد قبل بدر ، وفي الثانية كان مع عمرو بن العاص عبد الله بن أبي ربيعة بعد بدر^(٥) .

التحكين للنجاشي في ملكه :

روي أن أهل الحبشة اجتمعوا وقالوا للنجاشي : إنك قد فارقت ديننا وخرجت علينا ، وعزموا على حربه ، فأرسل النجاشي إلى جعفر وأصحابه ، وهياً لهم سفناً وقال لهم : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا ، ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه يشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله في ثوبه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى الحبشة ووصفوا له ، فقال : يامعشر الحبشة ! ألسن أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال : فما لكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت أن عيسى عبد ، قال : فما تقولون أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول : هو ابن الله ، فوضع النجاشي يده على صدره على موضع الكتاب وقال :

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٤٦١/١) .

(٢) انظر : دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٢١٧/١) .

(٣) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٤٦١/١) ، والمستدرک (ج ٣٠٧/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٣١/٦) .

(٤) المائة ٨٢ - ٨٣ ، والخبر رواه ابن عبد البر في كتابه الدرر في اختصار المغازي والسير (ص : ١٢٥) . وانظر سيرة ابن هشام (ج ٤١٧/١) .

(٥) ذكر ذلك ابن عبد البر في كتابه الدرر (ص : ١٤٣) وذكره أيضاً الشيخ صفى الرحمن المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم (ص : ١١٠) ثم قال : « لكن الأسئلة والأجوبة التي دارت بين النجاشي وجعفر في الوفاة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحاق تقريباً ، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت في أول مُرافعة قُدمت للنجاشي » .

هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا شيئاً ، وإنما يعني ما كتب ، فرضوا وانصرفوا ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فلما مات صلى عليه واستغفر له (١) .

وجاء في رواية أن النجاشي نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ، فحزن المسلمون حزناً شديداً تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فبأتي رجل لا يعرف من حقهم ما كان النجاشي يعرف منه ، فتصّرعوا إلى الله للنجاشي بالظهور على عدوّه والتكفين له في ملكه ، وأجاب الله دعاهم ؛ فظفر النجاشي وأهلك الله عدوّه ومكّن له في بلاده . قالت أمّ سلمة ، رضي الله عنها ، وكانت بأرض الحبشة : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قطّ مثلها (٢) .

أول وفد قدم على النبي ﷺ :

ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، ويقال إنهم من أهل نجران ، فوجدوا رسول الله ﷺ في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وأمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يُوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركّب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترثأدون (٣) لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً أحق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم ؛ لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً . ويقال : نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ إِذَا لَبِثُوا كَثُورًا قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْكَلِمَاتُ وَأُولَئِكَ يَنْتَظِرُونَ ﴾ (٤) .

مقاطعة قريش بني هاشم وحصار الشعب :

ولما رأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو ، وأن أساليبها الأولى في محاربتة لم تمنع من انتشاره ، وأن مساومتها لأبي طالب وللنبي ﷺ من بعده قد قوبلت بالرفض ، وأن محاولتها في استرداد المهاجرين إلى الحبشة قد باءت بالفشل ، أجمعوا مكرهم وأمرهم مرة أخرى على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية - وإلى هذا الإجماع إشارة في قوله تعالى : ﴿ أَمْ أُكْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ (٥) - وقالوا : قد أفسد أبناءنا ونساءنا ، فقالوا لقومه : خذوا منا دينته مضاعفة ، ويقتله رجل من غير قريش ، وتريجوننا وتريجون أنفسكم ، فأبى قومه بنو هاشم .

فلما رأى أبو طالب تألب قريش على ابن أخيه ﷺ قام في أهل بيته من بني هاشم وبني المطلب ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه وحياطته والقيام دونه ، فأجابوه إلى ذلك ، وأجمعوا أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ويمنعوه ممن أراد قتله ، فانحازت بنو هاشم وبني المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه ، سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم - فالمسلم منهم فعله إيماناً والكافر حيّة - إلا ما كان من أبي لهب ؛ فإنه فارقه وكان مع قريش .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١ / ٣٦٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١ / ٣٦١) .

(٣) اِرْتَادَ يَرْتَادُ : أَي يَنْطَرُ وَيَطْلُبُ وَيَخْتَارُ الْأَفْضَلَ مِنَ الرَّائِدِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْقَوْمَ يُبْصِرُ لَهُمُ الْكَلَاءَ وَمَسَاطِطَ الْغَيْثِ (لسان العرب : ج ١٧٧ / ٣) .

(٤) القصص : ٥٢ - ٥٥ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١ / ٤١٨) .

(٥) الزخرف : ٧٩ .

فلما عرفت قريش أن القوم قد اجتمعوا ومنعوا رسول الله ﷺ ، اجتمع المشركون منها في خيف بني كنانة من وادي الحصب ، فائتروا بينهم على مُنابذة^(١) بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف بالتضييق عليهم ، وتحالفوا على أن لا يُجالسوه ، ولا يُخالطوهم ، ولا يُبايعوهم ، ولا يَدْخلوا بيوتهم ، ولا يُسألكوهم ، ولا يُسألوا إليهم رسول الله ﷺ للقتل . وكتبوا بكمهم صحيفة فيها عهود ومواثيق أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ، ولا تأخذهم بهم رافة ولا رحمة ولا هُوادة حتى يُسألوا رسول الله ﷺ للقتل . وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدي ، ويقال : النَّضر بن الحارث أو بغيض بن عامر بن هاشم ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده .

ثم علّقوا الصحيفة في سقف الكعبة ، توكيداً لنصوصها ، وحصروا بني هاشم ومن انحاز إليهم في الشَّعب ليلة هلال الحرم سنة سبع من البعثة ، وقيل : سنة ثمان^(٢) .

روي أن أبا لُهب حين فارق قومه بني هاشم وظاهر عليهم قريشاً لقي هند بنت عتبة بن ربيعة فقال : يا بنت عتبة ! هل نصرت اللات والعزى ، وفارقت من فارقتها وظاهر عليها ؟ قالت : نعم ، فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة^(٣) .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ ، فكان إذا أخذ النَّاس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فأتى فراشه حتى يراه من أراد به مكرراً أو غائلة ، فإذا نام النَّاس ، أخذ أحد بنيهِ أو إخوته أو بني عمه فأضجعه على فراش رسول الله ﷺ وأمره أن يأتي بعض قُرُشهم فيرقُد عليها^(٤) .

- شدة الحصار :

لبث رسول الله ﷺ والمسلمون في الشَّعب سنتين أو ثلاثاً ، اشتدَّ عليهم فيهن البلاء والجُهد ، فقد قطعت عنهم قريش الميرة والمادة ، وقطعت عليهم الأسواق ، فكانوا لا يتركون طعاماً يدنو من مكة ولا يبيعاً إلا بادروا إليه فاشتروه دونهم ليقتلهم الجوع ، وكان أبو لُهب يدور بين التِّجار ويقول لهم : غالوا على أصحاب محمد ، حتى لا يُدركوا معكم شيئاً ، وأنا أدفع لكم أضعافاً مضاعفة ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع الرجل إلى أطفاله ، وهم يتضاغون من الجوع ، وليس في يديه شيء يطعمهم به ، ويغدو التِّجار على أبي لُهب فيربحهم ، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وغزياً ، وحتى سَمع أصوات صبيانهم من وراء الشَّعب ، واضطروا إلى أكل الأوراق والجلود ، وهلك منهم من هلك^(٥) .

قال السهيلي : روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : لقد جمتُ حتى أُنِي وَطِئت ذات ليلة على شيء رطب ، فوضعت في في وبلعته ، وما أدري ما هو إلى الآن .

وفي رواية أن سعداً قال : خرجت ذات ليلة لأبول ، فسمعت قَعَقَةً تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ، ثم رضَّتها وسفَّتها بالماء ، فقويت بها ثلاثاً^(٦) .

(١) المتأبذة والانتبأذ : تحيُّر كلِّ واحدٍ من الفريقين في الحرب ، وتأبذة الحرب : كاشفة (لسان العرب : ج ٤٣٢٢/٦) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٧١/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٨/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٣٥٨/١ ، ٣٥٩) ، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر (ص ٢٨) ، وعيون الأثر (ج ١٢٨/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني (ج ٢٧٨/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٣٧٢/١) .

(٤) انظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٥٩/١) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٧٥/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٩/١ ، ٢١٠) ، والدرر لابن عبد البر (ص : ٢٨) ، والروض الأنف للسهيلي (ج ١٢٧/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٣٥٩/١) .

(٦) الروض الأنف : (ج ١٢٧/٢) .

وقد سرّ هذا الموضوع كفاً قريش ، وأحزن آخرين منهم وقالوا : انظروا ما أصاب منصور بن عكرمة^(١) ، ولكن كان لا يقدر أحد أن يبعث إلى المحصورين طعاماً ولا أدماً إلا سراً ، يحمله مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش ، حتى إن أبا جهل لقي حكيم بن حزام ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهي عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب ، فتعلّق به ، وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بكّة ، فجاءه أبو البختريّ بن هشام فقال : مالك وله ؟ فقال يحمل الطعام إلى بني هاشم ، فقال أبو البختريّ : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه ، أفتنعمه أن يأتيها بطعامها ؟ خلّ سبيل الرّجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختريّ لحي^(٢) بعير فضربه به فشجّه ، ووطئه وطئاً شديداً ، وحنة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشتوا بهم^(٣) .

وكان هشام بن عمرو العامريّ من يصل بني هاشم بالطعام ، فكان يأتي بالبعير ليلاً فيؤقره^(٤) طعاماً ، ثم يضربه باتجاه الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين ، روي أنه أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعاماً ، فعلمت بذلك قريش ، فشوا إليه حين أصبح فكلموه في ذلك ، فقال : إني غير عائد لشيء خالفكم ، فانصرفوا عنه ، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم ليلاً حملاً أو حمليتين فغالطته قريش وهمت به ، فقال أبو سفيان بن حرب : دعوه ، رجل وصل أهل رحمة^(٥) ، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا^(٦) .

قال ابن إسحاق : ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، مبادياً بأمر الله لا يتقي فيه أحداً من الناس^(٧) . وكان يخرج والمسلمون معه في أيام موسم الحج ، فيلقون الناس ويدعونهم إلى الإسلام ، ولم تشغلهم الآمهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل من يلقون^(٨) .

- نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة :

انقسم المشركون على أنفسهم ، فكانوا بين راض بهذه المقاطعة وكاره لها ، وسعى فريق من حكائهم وعقلائهم على إبطالها ونقض الصحيفة التي تضمنتها .

وكان أول من أبلى في ذلك بلاء حسناً هشام بن عمرو ، الذي اتصله ببني هاشم صلة من قرابة ، وكان ذا شرف في قومه ، وكان قد بذل جهده أيام الحصار ، فقد مشى إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - فقال : يا زهير ! أقدر رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث عدت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ، ولا يَنكحون ولا يَنكح إليهم ، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم ، ما أجابك إليه أبداً ، قال : ويحك يا هشام !! فإذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله أن لو كان معي رجل آخر لقمّت في نقضها حتى أنقضها ، قال : قد وجدت رجلاً ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال له زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عديّ ، فقال : يا مطعم ! أقدر رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك ، موافق لقريش فيه ، أما والله لن أمكنتهم من هذه لتجدتهم إلى مثلها منكم أسرع ، قال : ويحك !! فإذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، قال :

(١) طبقات ابن سعد (ج ٢٠٦/١) .

(٢) اللحيّان : هما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذي لحي (لسان العرب : ج ٤٠١٦/٥) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٥/١) .

(٤) أوقر راحية : حملها (النهاية : ج ٢١٢/٥) .

(٥) وذلك أن هشام بن عمرو كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، وكان هشام لبني هاشم وإصلاً ، وكان ذا شرف في قومه . (سيرة ابن هشام : ج ٢٩٧/١) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٩٧/١) ، وعيون الأثر (ج ١٢٨/١) .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٦/١) .

(٨) انظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٩/١) .

قد وجدت ثانياً ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال : أبغنا ثالثاً ، قال : قد فعلت ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، قال : أبغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً مما قال لطيم بن عدي ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأنا معك ، قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود فكلّمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سئى له القوم ، فاتعدوا خطم الحجون^(١) ليلاً بأعلى مكة .

فاجتمعوا هنالك ، فأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير : أنا أبدوكم فأكون أول من يتكلّم ، فلما أصبحوا غدّوا إلى أدينتهم ، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة فطاف بالبيت سعباً ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ! أنا أكل الطعام ولبس الثياب ، وبنو هاشم هلكت لا يبتاعون ولا يبيّئون منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، قال أبو جهل ، وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا تشقّ ، قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البختري : صدق زمعة ؛ لا نرضى ما كتب والله فيها ، ولا تقرّ به ، قال المطعم بن عدي : صدقتا وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك ، قال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل ، تشوّر فيه بغير هذا المكان^(٢) .

وكان أبو طالب أخبره النبي ﷺ أن الله قد أطلعه على أمر الصحيفة ، وأنه سلط عليها الأرضة^(٣) فلحست كل ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم أو بهتان ، ولم تدع فيها اسماً لله تعالى إلا أثبتته فيها - وفي رواية : ولم تترك الأرضة اسماً لله عز وجل ، إلا لحسته ، وبقي ما فيها من شرك أو ظلم أو بغي ، والرواية الأولى أثبت - فلما ذكر ذلك لعنه قال له : أرّبك أخبرك بهذا ؟ قال : « نعم » ، فقال أبو طالب : لا والتّواقب^(٤) ما كذبتني ، فانطلق عيشي في جماعة من قومه بني عبد المطلب ، حتى أتوا المسجد ، فلما رأتهم قريش ظنّوا أنهم خرجوا من شدّة البلاء ليسلموهم رسول الله ﷺ ، فتكلّم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بيننا وبينكم ، فأتوا بصحيفتكم التي فيها موثيقكم ، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح - وإنما قال أبو طالب ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها - فأتوا بصحيفتهم معجبين بها ، لا يشكّون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم ، فوضعوا بينهم ، وقالوا : قد أن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم ، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم ، فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً فيه نصّ^(٥) بيني وبينكم ، إن ابن أخي قد أخبرني ، ولم يكذبني قطّ ، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبت الأرضة فأكلت جميع ما فيها إلا باسمك اللهم - وفي رواية : لم تترك فيها اسماً لله إلا لحسته وتركت فيها غدرك وتظاهركم علينا بالظلم - قال أبو طالب : فإن كان الحديث كما يقول فأيقنوا ، فوالله لا تسلمه حتى نموت عن آخرنا ، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم ، فقالوا : قد أنصفتنا ، رضينا بالذي تقول ، ففتحو الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ ، فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب سقط في أيديهم ونكسوا على رؤوسهم ، ثم قالوا : هذا سحر ابن أخيك ، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً ، فقال أبو طالب : يا معشر قريش ! علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر وتبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة ؟ ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة ، فقال اللهم ! انصرننا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا ، ثم انصرفوا إلى الشعب .

(١) خطم الحجون : مَوْضِعٌ بِمَكَّةَ ، انظر : (معجم البلدان : ج ٤٥٠/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٩٧/١) .

(٣) الأرضة : دَوَابٌّ تَأْكُلُ الْحَشَبَ وَنَحْوَهُ (الوسيط : ج ١٤/١) .

(٤) التّواقب : النَّجْمُ الْمُضِيئَةُ ، انظر : (لسان العرب : ج ٤٩٢/١) .

(٥) أي أمر وسط لا حثيف فيه علينا ولا عليكم ، والنصّ : الإنصاف ، ويقال : انصفت من فلان : أخذت حقي كمالاً حتى صرّنا أنا وهو على النصف سواء . انظر : (لسان العرب : ج ٤٤٤/٦) .

وعند ذلك قام المطعم بن عديّ إلى الصحيفة فزقها ، ثم مشى مع أولئك الرهط من قريش الذين أجمعوا أمرهم على تقض الصحيفة ، فلبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا . وكان خروجهم من الشعب في أول السنة العاشرة من البعثة (١) .

آخر مفاوضات قريش لأبي طالب :

خرج رسول الله ﷺ من الشعب يدعو إلى الله ، وعادت قريش لشراً ما كانت عليه من الكفر والصدّة عن سبيل الله والشدة على رسول الله ﷺ وأصحابه ، وظلّ أبو طالب يحوط ابن أخيه ويمنعه إلى أن لاحته المرض واشتدّ به ، وحينئذ حاول المشركون مرة أخرى أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يدي أبي طالب ، لخوفهم أن تعيرهم العرب إن أتوا بعد وفاته بئس على ابن أخيه فيقولون : تركوه حتى إذا مات عمّه تناولوه (٢) .

روى ابن إسحاق وغيره قالوا : لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلف ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلّها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه منّا ، والله ما نأمن أن يبتزونا (٣) أمرنا ، فمشى إليه أشرفهم ، وهم خمسة وعشرون تقريباً ، منهم عتبّة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يعوث ، فقدموا رجلاً منهم فاستأذن لهم على أبي طالب ، فأذن لهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب ! أنت كبيرنا وسيّدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمّره فليكفّ عن شتم أهلتنا وندعه وإلهه - وفي لفظ : قالوا : يا أبا طالب ! إنك منّا حيث قد علمت ، وقد حضرك ماترى ، وتخوّفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعّه فخذ له منّا ، وخذ لنا منه ، ليكفّ عنا ، ونكفّ عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب ، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت ، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ، ولم يجد النبي ﷺ مجلساً قرب عمّه ، فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : يا ابن أخي ! هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك - وفي لفظ : هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم ، وقد سألوك أن تكفّ عن شتم أهلتهم ويدعوك وإلهك ؛ فاقبل منهم فقد أنصفوك ، فقال رسول الله ﷺ : « أرايتم إن أعطيتكم هذه ، هل أنتم معطيّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ؟ » - وفي لفظ : فقال أبو طالب : يا ابن أخي ! ما تريد من قومك ؟ قال : « إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدّي إليهم العجم الجزية » ، قال : كلمة واحدة ؟ قال : « كلمة واحدة » ، فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات - وفي لفظ : فقال أبو جهل من بين القوم : إن هذه لكلمة مرجحة ، لنعطينهاك وعشراً معها فما هي ؟ - قال : « تقولون لآله إلا الله ، وتخلعون ما تعبّدون من دونه » ، فقال أبو طالب : والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً (٤) ، أما زعماء المشركين فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب - وفي لفظ : فاشمأزوا ونفروا منها وقالوا : سلنا غير هذه ، فقال : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها ! » ، فغضبوا - وقال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم قاموا من عنده وهم يقولون : والله لنشتتك وإلهك الذي يأمرك بهذا .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ ص . وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا وَاَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ ، وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٩٧/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٩/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٢/٢) .

(٢) انظر : تاريخ الطبري (ج ٢٢٢/٢) .

(٣) البزّة : غلبته وسلبته (الوسيط : ج ١٥٤/١) .

(٤) أي : ما ظلمتهم بسؤالك ، يقال : شطّ عليه في حكمه شططاً : جاز ، انظر (الوسيط : ج ٤٨٥/١) .

عَجَابٌ ، وَأَنْطَلَقَ لِلَّامِنِهِمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْهَيْتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿١﴾ .

وفاة أبي طالب :

ولم يلبث أبو طالب أن وافته المنية ، وكانت وفاته في رمضان أو في شوال من السنة العاشرة للبعثة ، وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة (٢) ، وقيل : كانت وفاته في رجب بعد ستة أشهر من خروجهم من الشعب ، وذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين (٣) .

ولما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية في نفر من قريش ، فقال النبي ﷺ : « خَلُّوا عَنِّي » ، فقالوا : ما نحن بفاعلين ، وما أنت بأحقَّ به منا ، إن كنت لك قرابة ، فإن لنا قرابة مثل قرابتك ، فجلس إليه ، فقال : « يا عمُّ ! جَزَيْتَ خَيْرًا ، كَفَلْتَنِي صَغِيرًا وَحَضَنْتَنِي كَبِيرًا ، فَجَزَيْتَ عَنِّي خَيْرًا يَا عَمَّاهُ ، أَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ أَشْفَعُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » - وفي رواية : قال : « أَيُّ عَمٍّ ! إِنَّكَ أَعْظَمُهُمْ عَلَيَّ حَقًّا ، وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي يَدًا ، وَلَا أَنْتَ أَعْظَمُ حَقًّا عَلَيَّ مِنْ وَالِدِي ، فَقُلْ لِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ ، كَلِمَةً أَسْتَحِلُّ لَكَ بِهَا الشَّفَاعَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » - وفي رواية : « أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ » - فقال أبو طالب : يا ابن أخي ! والله لولا مخافة السُّبَّةِ (٤) عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظنَّ قريش أي إنما قتلها جَزَعًا من الموت لقتلتها ، لا أقولها إلا لأشركٍ بها - وفي رواية : لأقررت بها عينك لما أرى من شركك وَوَجْدِكَ بِي وَنَصِيحَتِكَ لِي - فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية من بين القوم : يا أبا طالب ! أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وأنت رأس الحنيفة ! فسكت ، ولم يزل أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : « رَحِمَكَ اللَّهُ وَغَفَرَ لَكَ يَا عَمُّ ، لِأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْهُ » . فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون ، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٥) ، وَأَنْزَلَ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٦) .

ولما توفي أبو طالب جاء عليٌّ ، رضي الله عنه ، إلى النبي ﷺ فقال : إن عمك الشيخ قد مات ، فقال : « أَذْهَبُ قَوَارِيهِ ، ثُمَّ لَا تُحَدِّثُ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي » ، فقال عليٌّ : إنه مات مشركًا ، قال : « أَذْهَبُ قَوَارِيهِ » ، فوراه ، ثم أتاه ، فقال له : « أَذْهَبُ فَاغْتَسِلُ ، ثُمَّ لَا تُحَدِّثُ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي » ، فاعتسل ثم أتاه ، قال عليٌّ : فدعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بها حُمْرُ النَّعْمِ وَسُودَهَا (٧) .

وقد روي أن النبي ﷺ خرج في جنازة أبي طالب ، فجعل يمشي مجانبا لها وهو يقول : « بَرُّتُكَ رَحِمٌ ، وَجَزَيْتَ خَيْرًا » ، ولم يَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ (٨) .

وجاء في رواية عند ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، ما يفيد أن أبا طالب أسلم عند الموت ، قال ابن عباس : فلما تقارب من أبي طالب الموت ، نظر العباس إليه يجرى شفثيه ، قال : فأصغى إليه بأذنه ، قال : فقال : يا ابن أخي !

(١) ص ١ - ٧ ، انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦/٢) ، وسنن الترمذي (ج ٣٦٥/٥) كتاب تفسير القرآن - باب سورة ص ح ٣٢٢٢ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٢/١) ، وتاريخ الطبري (ج ٣٢٣/٢ ، ٢٢٥) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٥/١) .

(٣) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٩١/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٢/٢) .

(٤) السُّبَّةُ : العَارُ (الوسيط : ج ٤١٢/١) .

(٥) التوبة : ١١٣ .

(٦) القصص : ٥٦ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٦٥/٥) كتاب المناقب - باب قصة أبي طالب ، وصحيح مسلم (ج ٥٥/١) كتاب الإيمان - باب الدليل على صحة الإسلام ح ٤٢ ، وللمستدرک (ج ٣٣٥/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٢/١) ، والوفاء بأحوال المصطفى (ج ٢٠٩/١) .

(٧) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٩٧/١ ، ١٠٣) .

(٨) السنن الكبرى للبيهقي (ج ٣٩٨/٣) .

والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ أَسْمَعْ »^(١) . ولكن رواية الصحيح أثبتت لأبي طالب الوفاة على مِلة عبد المطلب^(٢) ، فلم يفلح كلّ الفلاح رغم كلّ ما كان عليه من الحياطة والنصر لرسول الله ﷺ ، وقد روي في الصحيح أيضاً أن العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك ، قال : « هو في ضَحْضَاحٍ^(٣) مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ^(٤) الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »^(٥) ، وفي لفظ : كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك ؟ قال : « نَعَمْ ، وَجَدْتُهُ فِي عَمْرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَحْضَاحٍ »^(٦) .

وعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمه فقال : « لَعَلَّه تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيئِهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاعُهُ »^(٧) ، وفي رواية عنه ﷺ أنه « أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً »^(٨) .

وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها :

وبعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام أو بشهر وخمسة أيام ، وقيل بشهرين على الاختلاف الوارد في الروايات^(٩) ، توفيت السيدة خديجة رضي الله عنها ، في رمضان من السنة العاشرة للبعثة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين على الصحيح . وتوفيت بالحجون في مقابر أهل مكة ، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها ، ولم تكن سنة الصلاة على الجنائز شرعت ، وكانت مدة إقامة النبي ﷺ معها خساً وعشرين سنة ، فقد توفيت ولها من العمر خمس وستون سنة ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره^(١٠) .

وقد وجد رسول الله ﷺ لفقد خديجة ، رضي الله عنها ، ولزم بيته وأقلّ الخروج ، فقد روي أنه وجد عليها حتى خشي عليه حتى تزوج عائشة ، رضي الله عنها ، وروي أن خولة بنت حكيم قالت له : يا رسول الله ! كأي أراك قد دخلتك خلة^(١١) لفقد خديجة ؟ قال : « أَجَلٌ ، كَانَتْ أُمُّ الْعِيَالِ وَرَبَّةَ الْبَيْتِ »^(١٢) .

وعن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ سئل عن خديجة ، رضي الله عنها ، أنها ماتت قبل أن تنزل الفرائض والأحكام ، قال : « أَبْصَرْتُهَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، فِي بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا لَعْوُ فِيهِ وَلَا نَصَبٌ »^(١٣) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢٧/٢) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٥/٥) كتاب المناقب - باب قصة أبي طالب .

(٣) الضَحْضَاحُ : مَارِقٌ مِنَ الْمَاءِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ ، وَهَذَا شَبَّهَ قِلَّةَ النَّارِ بِالضَحْضَاحِ مِنَ الْمَاءِ (لسان العرب ج ٢٥٥٧/٤) .

(٤) الدَّرَكُ وَالذَّرَكُ : وَاحِدُ الْأَذْرَاكِ وَهِيَ مَتَارِزٌ فِي النَّارِ (النهاية : ج ١١٤/٢) .

(٥) صحيح البخاري (ج ٦٥/٥) باب قصة أبي طالب .

(٦) صحيح مسلم (ج ١٩٥/١) كتاب الإيمان - باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ح ٣٥٨ .

(٧) صحيح البخاري (ج ٦٦/٥) باب قصة أبي طالب .

(٨) صحيح مسلم (ج ١٩٦/١) كتاب الإيمان - باب أهون أهل النار عذاباً ح ٣٦٢ .

(٩) اختلفت الروايات في الوقت الذي ماتت فيه رضي الله عنها ، وهل كان ذلك قبل وفاة أبي طالب أو بعده فقد قيل إنها ماتت قبله بخمس وثلاثين ليلة . انظر دلائل البيهقي (ج ٣٥٢/٢) .

(١٠) انظر : صحيح البخاري (ج ٧١/٥) كتاب المناقب - باب تزويج النبي ﷺ عائشة ، والمستدرک (ج ١٨٢/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٥/١) و (ج ١٨/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٢/٢) .

(١١) الخَلَّةُ : الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ ، وَالثُّلْمَةُ الَّتِي يَتْرَكُهَا الْمَيِّتُ بَعْدَهُ ، انظر (النهاية : ج ٧٢/٢ - ٧٣) .

(١٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢١٦/١) و (ج ٥٧/٨) ، وشرح الزرقاني على اللوالب اللدنية (ج ٢٩٦/١) .

(١٣) رواه المهيثي في مجمع الزوائد (ج ٢٢٢/٩) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار ورجالها رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق وخاصة في أحاديث جابر .

وكان رسول الله ﷺ يقول عنها : « أمنتُ بي إذ كفرَ بي الناسُ ، وصدقتُني إذ كذبتني الناسُ ، وواستني بماها إذ حرمني الناسُ ، ورزقني الله ، عز وجل ، ولدها إذ حرمني أولاد النساء » (١) .

زواج النبي ﷺ بسودة بنت زمعة رضي الله عنها :

وبعد أيام من وفاة خديجة ، رضي الله عنها ، تزوج النبي ﷺ بسودة بنت زمعة ، رضي الله عنها ، في رمضان ، وقيل في شوال من السنة العاشرة للبعثة ، وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو ، أخي سهيل بن عمرو ، وكان قد أسلم معها قديماً ، وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ثم رجع بها إلى مكة ، فمات عنها ، وقيل إنه مات بالحبشة (٢) .

وقد كانت سودة ، رضي الله عنها ، رأت في المنام كأن النبي ﷺ أقبل يمشي حتى وطىء على عنقها ، فأخبرت زوجها بذلك ، فقال : لئن صدقت رؤياك لأموتن وليتزوجنك رسول الله ﷺ ، ثم رأت في المنام ليلة أخرى أن قرأ انقض عليها من السماء وهي مضطجعة ، فأخبرت زوجها ، فقال : لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت وتزوجين من بعدي . فاشتكى السكران من يومه ذلك ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات ، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها . فكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها (٣) .

روي أن خولة بنت حكيم السلمية امرأة عثمان بن مظعون ، رضي الله عنها ، جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ! كأي أراك قد دخلتك خلّة لفقد خديجة ، فقال : « أجل ، كانت أم العيال وربّة البيت » ، قالت : أفلا أخطب عليك ؟ قال : « بلى ، فإنك من مشر النساء أرفق بذلك » ، فخطبت عليه سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبي بكر ، رضي الله عنهم ، فتزوجها ، فبنى سودة بمكة ، وعائشة بعد الهجرة إلى المدينة (٤) .

وفي رواية : قالت خولة : يا رسول الله ! ألا تزوج ؟ قال : « من ؟ » قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ، أما البكر فابنة أحب الخلق إليك عائشة ، وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد أمنت بك وأتبعتك على ما تقول ، قال : « فأذهبي فأذكريهما علي » ... قالت : فذهبت إلى سودة فقلت لها : ماذا أدخل الله ، عز وجل ، عليك من الخير والبركة ، قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه ، قالت : وددت ذلك ، ولكن ادخلي على أبي فاذكري ذلك له ، وكان شيخاً كبيراً قد تخلف عن الحج ، قالت : فدخلت عليه فحيته بتحية أهل الجاهلية وقلت : أنعم صباحاً ، قال : من أنت ؟ فقلت : خولة بنت حكيم ، فرحب بي وقال : فما شأنك ؟ قالت : أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة ، قال : كفاء كريم ، فما تقول صاحبتك ؟ قالت : تحب ذلك ، قال : ادعيه لي ، فجاء رسول الله ﷺ إليه فزوجها إياه . وقدم أخوها عبد الله بن زمعة من الحج ، فوجد أخته قد تزوجها رسول الله ﷺ فحنا التراب على رأسه . فلما أسلم كان يجد في نفسه من ذلك شيئاً ويقول : إني لسفيه يوم أحتو التراب على رأسي أن تزوج رسول الله ﷺ أختي (٥) .

ويقال : إن النبي ﷺ لما أرسل إليها ليخطبها قالت : أمري إليك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « مري رجلاً من قومك يزوجك » فأمرت حاطب بن عمرو (٦) فزوجها ، ويقال سليل بن عمرو (٧) .

(١) مسند الإمام أحمد (ج ١١٨/٦) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٠٤/٤) و (ج ٥٢/٨) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٩٦/١) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٢/٨ ، ٥٦) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٢/٨ ، ٥٧) ، وسيأتي خبر زواجه ﷺ من عائشة ، رضي الله عنها ، في أحداث السنة الأولى للهجرة .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢١٠/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤١٢/٢) .

(٦) في سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٤) : أبو حاطب بن عمرو .

(٧) ذكره ابن هشام في السيرة (ج ٢٢٢/٤) عن ابن إسحاق ، ثم تعقب ذلك بأن ابن إسحاق نفسه يخالف هذا لأنه ذكر أنها كانا غائبين في الحبشة في ذلك الوقت .

ولما كبرت سودة ، رضي الله عنها ، أراد النبي ﷺ طلاقها ، فسألته أن لا يفعل وتجعل يومها لعائشة ، رضي الله عنها ، فأمسكها .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ ، فقالت : لا تطلقني وأمسكني ، واجعل يومي لعائشة ، ففعل ، فنزلت : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (١) .

وعن عبد الرحمن بن سابط قال : أراد النبي ﷺ فراق سودة ، فدعا أبا بكر وعمر ليشهدا على طلاقها ، فقالت : يا رسول الله ! مالي رغبة في الدنيا إلا لأحشر يوم القيامة في أزواجك ، فيكون لي من الثواب ما لهن (٢) .

وفي رواية أنها قالت : مالي في الرجال من حاجة ، ولكنني أحب أن أبعث في نسائك يوم القيامة ، وإني قد جعلت يومي وليلي لعائشة ، فقبل منها ، فكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة (٣) .

ومكثت عنده ﷺ حتى توفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وقيل توفيت في زمن عمر رضي الله عنهم (٤) .

اشتداد إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب :

وهكذا تتابعت على رسول الله ﷺ المصائب ، فلم يلبث أن خرج من الشعب في العام العاشر من البعثة حتى توفي أبو طالب وخديجة ، رضي الله عنها ، في العام نفسه ، وهما من نعرف من حسن الصحبة والوفاء والنصر والتأييد ، ثم لم تزل تتوالى عليه ﷺ المصائب من قومه ، فقد اجترأوا عليه ، ونالوه بالنكال والأذى بالقول والفعل ، بعد أن كان مقتصرًا على الكلام والاستهزاء قبل وفاة عمه ، ولأجل وقوع هذه الحوادث في ذلك العام سماه رسول الله ﷺ عام الحزن .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « مَا زَالَتْ قُرَيْشٌ كَاعَةً (٥) حَتَّى تُوْفِيَ أَبُو طَالِبٍ » (٦) ، وعن عروة أن رسول الله ﷺ قال : « مَا نَأَلْتُ مِنْ قُرَيْشٍ شَيْئًا أَكْرَهْتُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ » (٧) .

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا ، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : « لَا تَبْكِي يَا بِنْتِي ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعٌ أَبَاكَ » (٨) .

(١) النساء : ١٢٨ ، والحبر في سنن الترمذي (ج ٢٤٩/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة النساء ح ٣٠٤٠ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٤٦/٩) وقال : رواه الطبراني مرسلًا وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٤٣/٧) كتاب النكاح - باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٧٥/٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٤/٨) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٧/٨) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ق ١٦٤/١) .

(٥) كاعة : جمع كاع وهو الجبان ، أراد أنهم كانوا يجبنون عن أذى النبي ﷺ في حياة أبي طالب ، فلما مات اجترأوا عليه (النهاية : ج ١٨٠/٤) .

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٢٢/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٥/٦) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو بلال الأشعري وهو ضعيف .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٢) .

قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً ، فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وأذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله ﷺ فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾^(١) .

وقد كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن رأى تهجم قريش عليه : « مَا أَسْرَعَ مَا وَجَدْتُ فَقُدْكَ يَا عَمَّ »^(٢) .

وعندما بلغ أبا لهب ذلك جاءه فقال : يا محمد ! امض لما أردت ، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه ، لا والألات لا يؤصل إليك حتى أموت !

وسب ابن الغيظلة النبي ﷺ فأقبل عليه أبو لهب فنال منه ، فولى وهو يصيح : يامعشر قريش ! صبأ أبو عتبة ، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب ، فقال : ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام^(٣) ، حتى يمضي لما يريد ، قالوا : قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم . فكث رسول الله ﷺ كذلك أياماً يذهب ويأتي لا يعترض له أحد من قريش ، وهابوا أبا لهب ، إلى أن جاء عتبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام إلى أبي لهب ، فقالا له : أخيرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فقال له أبو لهب : يا محمد ! أين مدخل عبد المطلب ؟ قال : « مع قومه » ، فخرج أبو لهب إليهما فقال : قد سألتك فقال : مع قومه ، فقالا ، يزعم أنه في النار ، فقال : يا محمد ؟ أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، ومن مات على مثل مآمات عليه عبداً المطلب دخل النار » ، فقال أبو لهب : والله لا برحت لك عدواً أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار^(٤) ! فاشتد عليه هو وسائر قريش^(٥) .

قال ابن إسحاق : وكان نفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته : أبو لهب ، والحكم بن العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حمران الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ، وكانوا جيرانه ، لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص . وكان أحدهم فيما ذكر لي يطرح عليه ﷺ رجم الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في بزمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً يستتر به منهم إذا صلى ؛ فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى - كما حدثني عمر بن عبد الله بن عمرو بن الزبير عن عمرو بن الزبير - يخرج به رسول الله ﷺ على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : « يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ! أَيُّ جَوَارٍ هَذَا ؟ » ثم يلقيه في الطريق^(٦) .

وروي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قالت : قال رسول الله ﷺ : « كُنْتُ بَيْنَ شَرِّ جَارَيْنِ ، بَيْنَ أَبِي لَهَبٍ وَعَقْبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ ، إِنْ كَانَا لِيَأْتِيَانِ بِالْفُرُوتِ^(٧) فَيَطْرَحَانِيَا عَلَى بَابِي حَتَّى إِتْنَهُمْ لِيَأْتُونَ بَعْضُ مَا يَطْرَحُونَ مِنَ الْأَذَى فَيَطْرَحُونَهُ عَلَى بَابِي » ، فيخرج به رسول الله ﷺ فيقول : « يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ! أَيُّ جَوَارٍ هَذَا ؟ » ثم يلقيه بالطريق^(٨) .

وأما الذين كانت تنتهي عدواة رسول الله ﷺ إليهم بالإضافة إلى من ذكرهم ابن إسحاق فهم أبو جهل بن هشام ، والأسود بن عبد يعوث ، والحارث بن قيس بن عدي وهو ابن الغيظلة ، والوليد بن المغيرة ، وأميمة وأبي ابن خلف ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ، ومنبّه بن الحجاج ، وزهير بن أبي أمية ، والسائب بن صيفي بن عابد ، والأسود بن

(١) المدثر : ١ - ٢ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٣١١/١) .

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٥/٦) وقال : رواه الطبراني في الأوسط عن شخص لقي ابن سعيد الرازي ، قال السدراطني : ليس بذلك ، وعيسى بن عبد السلام لم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) يضام : يظلم أو يذل (الوسيط) ج ٥٥٠/١ .

(٤) لا يخفى أن عبد المطلب من أهل الفترة كما ذكرنا من قبل .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢١١/١) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٥/٢) .

(٧) الفُرُوت : جمع فُرْتٍ ، والفُرْتُ بقايا الطعام في الكرش (الوسيط) ج ٦٨٥/٢ .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ٢٠١/١) .

عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هشام . وكان عُنْبَةَ وشَيْبَةَ ابنا رَيْبَعَةَ ، وأبو سُفْيَانِ بن حَرْبِ أهل عداوة ولكنهم لم يُشْخِصُوا^(١) بالنبي ﷺ كانوا كنعو قريش ، ولم يسلم منهم أحد إلا أبو سفیان بن حَرْبِ^(٢) .

وكان من أشدّ النَّاسِ سفهاً وإيذاءً للنبي ﷺ عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ وأبو جهل بن هشام ، فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة ، وجمع قريش في مجالسهم ، إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرأئي ، أيكم يقوم إلى جَزُورِ آلِ فلان فيعمد إلى فَرْثِها ودمها وسلأها^(٣) فيجيء به ، ثم يمهلها حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه ، فانبعث أشقاهم ، - وهو عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ كما في رواية أخرى في الصحيح - فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه ، وثبت النبي ﷺ ساجداً ، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك ، فانطلق منطلق إلى فاطمة ، عليها السلام ، وهي جَوَيْرِيَّةُ^(٤) ، فأقبلت تسعى ، وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : « اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقَرِيشٍ ، اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقَرِيشٍ ، اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقَرِيشٍ » - وفي رواية أخرى له : فشق عليهم إذ دعا عليهم ، قال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة - ثم سَمَى : « اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِعَمْرٍو بنِ هِشَامٍ ، وَعُنْبَةَ بنِ رَيْبَعَةَ ، وشَيْبَةَ بنِ رَيْبَعَةَ ، والوَلِيدِ بنِ عُنْبَةَ ، وأمِّيَّة بنِ خَلْفٍ ، وَعُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وعَمَارَةَ بنِ الوَلِيدِ » . قال عبد الله : فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ، ثم سحّبوا إلى القليب^(٥) ، قليب بدر ، ثم قال رسول الله ﷺ : « وَأَتَّبِعْ أَصْحَابَ القَلِيبِ لَعْنَةُ »^(٦) .

وروى أبو نعيم في دلائله نحو رواية البخاري عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، وزاد : ثم خرج رسول الله ﷺ من المسجد ولقيه أبو البَخْتَرِيِّ ومع أبي البَخْتَرِيِّ سَوْطٌ يتخضر به^(٧) ، فلما لقيه النبي ﷺ أنكر وجهه ، فأخذه ، فقال : تعال مالك ؟ قال النبي ﷺ : « خَلَّ عَنِّي » ، قال : عليّ الله أن لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك ؛ فلقد أصابك شيء ، فلما علم النبي ﷺ أنه غير مخلّ عنه أخبره فقال : « إن أبا جهل أمر أن يطرح عليّ فَرْثٌ » ، فقال أبو البَخْتَرِيُّ : هلمّ إلى المسجد ، فأبى ، فأخذه أبو البَخْتَرِيُّ فأدخله إلى المسجد ، ثم أقبل على أبي جهل فقال : يا أبا الحكم ! أنت الذي أمرت بمحمد فطرح عليه الفَرْثُ ؟ قال : نعم ، فرفع السوط فضرب رأسه ، فثارت الرجال بعضها إلى بعض ، فصاح أبو جهل فقال : ويحك !! من له ؟ إنما أراد محمد أن يلقي بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه^(٨) .

ومما لقيه النبي ﷺ من عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ أيضاً أنه لما كان عليه الصلاة والسلام يصلي في حجر الكعبة أقبل عُقْبَةُ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾^(٩) .

وروى ابن إسحاق بسنده عن عروة بن الزبير أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ؛ سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب أمتنا ؛ لقد

(١) شَخِصَ بِهِ : أتى إليه أمر يُقْلَعُهُ وَيُزْعَجُهُ (لسان العرب : ج ٢٢١٢/٢) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٠٠/١) .

(٣) السَّلَى : غشاء رقيق يحيط بالجنين ويخرج معة من بطن أمه (الوسيط : ج ٤٤٩/١) .

(٤) جَوَيْرِيَّةُ : تصغير جارية .

(٥) القَلِيبُ : البئر التي لم تَطْوُ (النهاية : ج ٩٨/٤) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٢٨/١) كتاب الصلاة - باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى ، و (ج ٦٩٧/١) كتاب الوضوء - باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة ... ، و (ج ١٢٧/٤) كتاب الجهاد والسير - باب طرح جيف المشركين في البئر .

(٧) اخْتَصَرَ الرَّجُلُ : أَمْسَكَ الْخِصْرَةَ ، وهي كالسوط (لسان العرب : ج ١١٧٢/٢) .

(٨) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٥٠/١) .

(٩) غافر : ٢٨ ، وانظر الخبر في صحيح البخاري (ج ٥٨/٥) كتاب المناقب - باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا ، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه^(١) ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ، قال : ثم مضى ، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بثلاث ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ، ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بثلاث ، فوقف ، ثم قال : « أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قَرَيْشٍ ؛ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ » ، قال : فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة^(٢) قبل ذلك لَيْرْفُوهُ^(٣) بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ؛ فوالله ما كنت جهولاً - وفي رواية عند غير ابن إسحاق : فقال له أبو جهل : يا محمد ! ما كنت جهولاً ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنْتَ مِنْهُمْ »^(٤) - قال : فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرت ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادام بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب أهنتهم ودينهم ، فيقول رسول الله ﷺ : « نَعَمْ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ » ، قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بجمع رداءه ، قال : فقام أبو بكر ، رضي الله عنه ، ودونه وهو يبكي ويقول : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ؟ ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط^(٥) .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض آل أم كلثوم ابنة أبي بكر أنها قالت : رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جندوه بلحيته ، وكان رجلاً كثير الشعر^(٦) .

وفي رواية : أنه لما قال لهم أبو بكر ، رضي الله عنه ، ما قال : أقبلوا عليه بالضرب ولهاو عن رسول الله ﷺ ، ولما رجع إلى بيته جعل لا يمس شيئاً من غدائره - وكان له غدائر أربع - إلا قال : تباركت يا ذا الجلال والإكرام^(٧) .

وعن أنس رضي الله عنه ، قال : لقد ضربوا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى غشي عليه ، فقام أبو بكر ، رضي الله عنه ، فجعل ينادي ويقول : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ؟ قالوا : من هذا ؟ قالوا : هذا ابن أبي قحافة المجنون^(٨) .

وروي أن علياً ، رضي الله عنه ، خطب الناس فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا نخاة وهذا يتلله^(٩) ، وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً ، قال : فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويحاز^(١٠) هذا ويتلله هذا ، وهو يقول : ويلكم ! ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ؟ ثم رفع علي بردة كانت عليه ثم بكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم الله أؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبوني ؛ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل كتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه^(١١) .

(١) غَمَزَوْهُ : أَي طَعَنُوا فِيهِ (الوسيط : ج ٦٦٨/٢) .

(٢) الْوَصَاةُ : الْوَصِيَّةُ (الوسيط : ج ١٠٥٠/٢) ، يَعْنِي بِقَوْلِهِ : أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةٌ ؛ الَّذِينَ كَانُوا يُحَرِّضُونَ عَلَيْهِ وَيُوصُونَ بِإِيْدَائِهِ .

(٣) لَيْرْفُوهُ : يُسَكِّنُهُ وَيُرْفِقُ بِهِ وَيَدْعُو لَهُ (النهاية : ج ٢٤١/٢) .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٦٦/١) وقال : رواه أبو يعلى والطبراني ، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن ، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٣٠٩/١) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٣١١/١) .

(٧) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٦٦/١) وقال : رواه أبو يعلى وفيه تدرؤس جد أبي الزبير ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

(٨) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٧/٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٩) يَتَلَلُهُ : يَسْوِقُهُ بَعْفٍ (النهاية : ج ١٩٤/١) .

(١٠) يَحَاذُ : يَجْمَلُهُ مَسْخَرًا لَا يَهْتَدِي لِسَبِيلِهِ وَلَا يَنْجِي لِنَفْسِهِ . انظر (لسان العرب : ج ١٠٦٧/٢) .

(١١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٤٧/٩) وقال : رواه البزار وفيه من لم أعرفه .

ومما لقيه النبي ﷺ من أبي جهل أنه قال يوماً : هل يُعفّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ، فقال : واللأت والعزى ! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، أو لأعقرن وجهه في التراب ، قال أبو هريرة : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، قال : فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجندحة ، فقال رسول الله ﷺ : « لؤدنا مني لأختطفنهُ الملائكةُ عُضواً عُضواً » ، قال : فأُنزل الله عز وجل : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَبِيرٌ ، أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى ... ﴾ إلى قوله : ﴿ كَلَّا لَا تَطِعُهُ ﴾ (١) .

فكان عليه الصلاة والسلام يقول من شدة ما لقي من قومه ، وهو مظهر لأمر الله ، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عيب أهتهم واعتزال أوثانهم - : « لَقَدْ أَحْضَتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذِي أَحَدًا ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلَا لِبَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ » (٢) .

روي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم ، وهو جالس حزيناً قد خُصِبَ بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة ، قال : فقال له : مالك ؟ قال : فقال له : « فَعَلَّ بِي هَوْلَاءُ وَقَعَلُوا » ، قال : فقال له جبريل عليه السلام : أتحب أن أريك آية ؟ قال : « نعم » ، قال : فنظر إلى شجرة من وراء الوادي ، فقال : ادع بتلك الشجرة ، فدعاها ، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه ، فقال : مرها فلترجع ، فأمرها ، فرجعت إلى مكانها ، فقال رسول الله ﷺ : « حَسْبِي » (٣) .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ خرج إلى بعض شعاب مكة ، وقد دخله من الغم والكآبة ماشاء الله ، لما آذاه المشركون وكذبوه ، فقال : « رَبِّ أَرِنِي مَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَيُذْهِبْ عَنِّي هَذَا الْغَمَّ » (٤) ، وفي لفظ : « اللَّهُمَّ أَرِنِي الْيَوْمَ آيَةً لِأَبَائِي مَنْ كَذَّبَنِي بَعْدَهَا » (٥) ، فأراه الله تعالى آية الشجرة فحمد الله وطابت نفسه .

استئذان أبي بكر رضي الله عنه النبي ﷺ في الهجرة :

ولما رأى أبو بكر ، رضي الله عنه ، من تظاهر قريش على النبي ﷺ وعلى أصحابه ما رأى استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة (٦) ، فأذن له ، فخرج من مكة حتى بلغ برك الغماد (٧) ، يريد الحبشة ، فلقبه ابن الدُّعْنَةَ وهو سيّد القارة (٨) ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال : أخرجني قومي ، وأدوني ، وضيّقوا عليّ ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبّد ربّي ، قال ابن الدُّعْنَةَ : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ؛ إنك تكسب المعدم ، وتصل الرّحم ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحقّ ، فأنا لك جار ، ارجع وابعّد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدُّعْنَةَ ، فطاف ابن الدُّعْنَةَ عشية في أشرف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدم ، ويصل الرّحم ، ويحمل الكلّ ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحقّ . فلم تكذب قريش بجوار ابن الدُّعْنَةَ ، وقالوا له : مرّ أبا بكر فليعبّد ربّه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ماشاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلم به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال ذلك ابن الدُّعْنَةَ لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربّه في داره ولا يستعلم بصلاته ، ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً ببناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فتزدهم عليه

- (١) العلق : ٦ - ١٩ ، وانظر الخبر في صحيح البخاري (ج ٢١٢/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ٢١٥٤/٤) كتاب صفات المنافقين - باب قوله ﴿ إن الإنسان ليطغى ... ﴾ ح ٢٨ .
- (٢) رواه الترمذي في سننه (ج ٦٤٥/٤) كتاب صفة القيامة - باب ٣٤ ح ٢٤٧٢ وقال : هذا حديث حسن غريب .
- (٣) مسند الإمام أحمد (ج ١١٢/٢) .
- (٤) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤/٦) .
- (٥) رواه البيهقي في دلائله (ج ١٢/٦) ، والمهيني في جمع الزوائد (ج ١٠/١) وقال : رواه البزار وأبو يعلى وإسناد أبي يعلى حسن .
- (٦) ذكر ابن هشام هذه الحادثة بعد حصر قريش بني هاشم في الشعب وقبل خروجهم منه ، وتابعه على ذلك ابن حجر في فتح الباري (ج ٢٢٢/٧) .
- (٧) برك الغماد : موضع وراء مكة بمس ليل مما يلي البحر .
- (٨) القارة : قبيلة مشهورة من بني الهون ، وكانوا خلفاء بني زهرة من قريش (فتح الباري : ج ٢٢٢/٧) .

نساء المشركين وأبنائهم ، وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، رجلاً رقيقاً بكاءً ؛ لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفرغ ذلك أشرف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدُّعْنَةَ فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجزنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً ببناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فإنّه ، فإن أحبّ أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك ، فسألته أن يردّ إليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخفرك^(١) ، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان ، فأتى ابن الدُّعْنَةَ إلى أبي بكر فقال له : يا أبا بكر ! إني لم أجرك لتؤذي قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك ، وقد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إليّ دمتي ؛ فإنني لأحبّ أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له ، قال أبو بكر : فإنني أردّ إليك جوارك وأرضى بجوار الله عزّ وجلّ . فقام ابن الدُّعْنَةَ فقال : يا معشر قريش ! إن ابن أبي قحافة قد ردّ عليّ جوارِي ، فشأنكم بصاحبكم^(٢) .

فعمد أبو بكر ، رضي الله عنه ، يوماً إلى الكعبة ، فلقى سفيّه من سفهاء قريش فحشا على رأسه تراباً ، فرّ بأبي بكر الوليد بن المغيرة ، أو العاص بن وائل ، فقال أبو بكر : ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيّه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أي ربّ ! أي ربّ ! ما أحلمك ، أي ربّ ما أحلمك ، أي ربّ ما أحلمك^(٣) .

☆ ☆ ☆

(١) أخفرت الرجل : إذا نقضت عهدته وبنامته ، والهزمة فيه للإزالة ؛ أي : أزلت خيفارته (النهاية : ج ٥٢٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٤/١) ، وصحيح البخاري (ج ٧٣/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٦/١) .

الخروج إلى الطائف

ولما ازدادت وطأة قريش على النبي ﷺ واشتدَّ أذاها له بعد أن صار وحيداً بلا نصير يحميه ويؤويه ، ولما زهدت في الإسلام وانصرفت عنه ، رأى رسول الله ﷺ أن الدعوة في قريش لم تعد مجدبة ، وبدأ يفكر بالخروج من مكة إلى بلد آخر لعله يجد فيه نصيراً وقبولاً واستجابة لما جاء به من الله عزَّ وجلَّ .

فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف حيث تقطن ثقيف ، يلتمس نصرتهم ، والمنعة بهم من قومه ، لأنهم كانوا أخواله - فإنه قد رضع في بني سعد وهم بمقربة من الطائف - ولأنه لم يكن بينه وبينهم عداوة ، فكان يرجو أن يهديهم الله فيستجيبوا لدعوته .

والطائف بلدة بينها وبين مكة نحو الحسين ميلاً ، قطعها النبي ﷺ وحده ، وهو ماشٍ على قدميه جيئةً وذهاباً ، وقيل : كان معه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه . وكان خروجه إليها ثلاث بقين من شوال سنة عشر من البعثة (١) .

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وخبيب بن عمرو بن عمير ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يَمْرُطُ (٢) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ؛ لأن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك . فقام رسول الله ﷺ من عندهم ، وقد لقي عليه الصلاة والسلام - فيما ذكر - المرأة التي من بني جمح فقال لها : « ماذا لقيتينا من أحمائك ؟ » .

وأقام رسول الله ﷺ بالطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرفهم إلا جاءه وكلمه ، وتلا عليه القرآن ، فلم يجيبوه لا إلى الإسلام ولا إلى النصرة والمعونة .

فلما رئس ﷺ من خيرهم قال لهم : « إِذْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَأَكْتُمُوا عَنِّي » ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه خبر قدومه على الطائف فيذئبرهم ذلك عليه (٣) وتزداد عداوتهم وشائنتهم ، ولكن القوم لم يفعلوا وقالوا له : اخرج من بلدنا ، وأغزوا به سفهاءم وعبيدهم ، فجعلوا يَسْتُونُه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه النَّاسُ ، وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما مرَّ رسول الله ﷺ بين صفيهما ، أخذوا لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة حتى أدموها ، وهم في ذلك يستهزئون ويسخرون ، وكان ﷺ إذا أزلقتة الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيونه ، فإذا مشى رجوه وهم يضحكون ، وكان زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، يقيه بنفسه حتى لقد أصابه شجاج في رأسه ، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجؤوه إلى حائط (٤) لعُتْبَةَ وشَيْبَةَ ابني ربيعة ، فلما دخل الحائط

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١١/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤٧٠/٢) .

(٢) يَمْرُطُ : يَنْتِفُ (لسان العرب : ج ٤١٨٢/٦) .

(٣) ذَبَّرَ عَلَيْهِ : اجْتَرَأَ (الوسيط : ج ٣٠٨/١) .

(٤) الْحَائِطُ هُنَا : الْبُسْتَانُ مِنَ النَّخِيلِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ حَائِطٌ وَهُوَ الْجِدَارُ (النهاية : ج ٤٦٢/١) .

رجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف ، وعمد إلى ظلّ حَبَلَةَ^(١) من عنب فجلس فيه ، فلما اطمان دعا دعاءه المشهور - وفي رواية : فأتى ظلّ شجرة فصلّى ركعتين ثم دعا - فقال : « اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وهواني على النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكَلَّمِي ؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي^(٢) ، أم إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أُمْرِي ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ يَجِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُنْتَبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » .

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ، وكانا في الحائط ، وقد رأيا ما لقي من سفهاء أهل الطائف ، تحركت له رحمها ، فدعوا غلاماً لها نصرانياً ، يقال له عدّاس ، فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال : « بِسْمِ اللَّهِ » ، ثم أكل ، فنظر عدّاس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : « مِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟ » قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نَيْنَوَى^(٣) ، فقال له رسول الله ﷺ : « مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ؟ » فقال عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ - وكان لا يخفى أحداً أن يبلغه رسالة ربه - : « ذَاكَ أَخِي ، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَنِي خَبَرَ يُونُسَ بْنِ مَتَّى » ، فأكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءها عدّاس قال له : ويلك يا عدّاس !! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدي ! ما في الأرض خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعمله إلا نبي ، قال له : ويجك يا عدّاس !! لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه . وفي رواية : قال له : ماشأنك سجدت لمحمد وقبّلت قدميه ، ولم نرك فعلته بأحد منا ؟ قال : هذا رجل صالح ، أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى ، فضحكا به ، وقالوا : لا يفتنك عن نصرانيتك ؛ فإنه رجل خداع .

وانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة^(٤) ، فلما بلغ قرنة الثعالب^(٥) بعث الله تعالى إليه جبريل ، عليه السلام ، وقال له : إن الله أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك ، فقال : « أَوْخَرُ عَنْ أُمَّتِي لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ^(٦) » .

روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أخذ ؟ قال : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ^(٧) مَا لَقِيتُ ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يَجِئَنِي إِلَّا مَا أَرَدْتُ ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثُّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَطْلَسَنِي ، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيْلُ فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ،

(١) الحَبَلَةُ : الكُرْمُ (الوسيط : ج ١٥٢/١) .

(٢) يَتَجَهَّمُنِي : أَي يَلْقَانِي بِالْعِلْطَةِ وَالْوَجْهِ الْكَرِيمِ (النهاية : ج ٢٢٢/١) .

(٣) نَيْنَوَى : قَرْيَةٌ يُونُسَ بْنِ مَتَّى بِالْمَوْصِلِ (معجم البلدان : ج ٢٦٨/٨) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١١/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٣٥/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٢٥/٦) ، ودلائل النبوة

لأبي نعيم (ج ٢٩٠/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤١٥/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٩٧/١) .

(٥) قَرْنُ الثُّعَالِبِ : مِيقَاتُ أَهْلِ نَجْدٍ تَلْقَاءُ مَكَّةَ (معجم البلدان : ج ٦٥/٧) .

(٦) انظر : عيون الأثر (ج ٢٣٢/٢) .

(٧) قال صاحب السيرة الحلبية : « أَي أَهْلِ ثَقِيفٍ كَمَا هُوَ التَّبَادُرُ ، قَالَ : ثُمَّ رَأَيْتُ الْحَافِظَ ابْنَ حَجْرٍ قَالَ : الْمُرَادُ بِقَوْمِ عَائِشَةَ فِي قَوْلِهِ : لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ ، قَرِيشٌ لِأَهْلِ الطَّائِفِ الَّذِينَ هُمُ ثَقِيفٌ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا السَّبَبَ الْحَامِلَ عَلَى ذَهَابِهِ ﷺ لِثَقِيفٍ ، وَلِأَنَّ ثَقِيفًا لَيْسُوا قَوْمَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا »

انظر : (السيرة الحلبية : ج ٢٥٧/١) .

فَنَاتَانِي مَلِكُ الْجَبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! فَقَالَ : ذَلِكَ فِيمَا شِئْتُمْ ، إِنَّ شِئْتُمْ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ (١) ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : بَلْ أُرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُعْبُدُ اللَّهَ وَخَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً (٢) . فعند ذلك قال له ملك الجبال : أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم (٣) .

وفد الجن وإسلامهم :

تابع النبي ﷺ طريقه إلى مكة حتى بلغ وادي نخلة ، وهو موضع بين مكة والطائف ، فنزل فيه وأقام أياماً ، وخلال إقامته هناك مر به نفر من الجن - الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في القرآن - وهو قائم يصلي من جوف الليل ، وهم سبعة أو تسعة نفر من جن نصيبين - وهي مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام - فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى قص الله تعالى عليه خبرهم في قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَجْرُكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٤) .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ (٥) إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة (٦) .

وفي رواية البخاري في الصحيح أن الذي أذنه - أي أعلمه - ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن شجرة (٧) .

ثم وفد الجن على رسول الله ﷺ بعد ذلك مراراً بكفة والمدينة ، كما تفيد الروايات (٨) ، فوافوه ﷺ مرة بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ يصلي بأصحابه الفجر ، فسمعوا القرآن وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا ، إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ ... ﴾ وما قرأ عليهم ولا رآهم ، ووافوه مرة أخرى بنخلة وهو عائد من الطائف ، وأخرى بالحجون ، وفي لفظ : بأعلى مكة بالجبال لما أتاه داعي الجن ، فذهب معه وقرأ عليهم القرآن ورجع إلى أصحابه من جهة حراء ، وسأله فيها الزاد ، فقال النبي ﷺ : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَّ مَا يَكُونُ لَحْمًا ، وَكُلُّ بُعْرَةٍ عَلَفَتْ لِذَوَابِكُمْ » ، وأخرى ببقيع العرقند بالمدينة ، وفي هاتين المرتين حضر ابن مسعود ، رضي الله عنه ، وخطب عليه خطأً بأمر النبي ﷺ ، ووفدوا مرة أخرى خارج المدينة وحضرها الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، وأخرى في بعض أسفاره ﷺ وحضرها بلال بن الحارث رضي الله عنه .

- دخول النبي ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي :

ثم قدم رسول الله ﷺ مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، وكان قدومه يوم الثلاثاء لبضع وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة .

روي أنه لما أراد ﷺ دخول مكة قال له زيد بن حارثة رضي الله عنه : كيف تدخل عليهم ، يعني قريشاً ، وهم أخرجوك ؟

(١) الأخشبان : جبلان يضافان تارة إلى مكة وتارة إلى مينة ، أحدهما أبو قبيس والآخر قعيقان (معجم البلدان : ج ١٥٠/١) .

(٢) صحيح البخاري (ج ١٣٩/٤) كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ...

(٣) السيرة الحلبية (ج ٣٥٧/١) .

(٤) الأحقاف : ٢٩ - ٣١ .

(٥) الجن : ١ .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١/٢) ، والمستدرک (ج ٤٥٦/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٢/١) .

(٧) انظر : صحيح البخاري (ج ٥٨/٥) كتاب المناقب - باب ذكر الجن .

(٨) انظر : صحيح البخاري (ج ٥٩/٥) كتاب المناقب - باب ذكر الجن ، وصحيح مسلم (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - باب الجهر بالقراءة .. ح ١٥٠ ،

والترمذي (ج ٢٩٩/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الرحمن ح ٣٢٩١ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٥٨/١) ، وجمع الزوائد (ج ٢٠٧/١)

و (ج ٢١٤/٨) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١٣٤/١ ، ٢٤٥) و (ج ٤٧٠/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٣١/٢) .

- أي كانوا سبباً لخروجك - فقال : « يا زَيْدُ ! إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَى فَرْجاً وَمَخْرَجاً ، وَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ ، وَمُظَهِّرٌ نَبِيِّنَهُ » . ثم انتهى إلى حراء ، فبعث رجلاً من خزاعة - يقال : هو عبد الله بن الأريظيط - إلى الأخنس بن شريق ليخبره ، فقال الأخنس : أنا حليف ، والحليف لا يجير على الصريح^(١) ، فأق النبي ﷺ فأخبره ، قال : « تَعُودُ ؟ » قال : نعم . قال : « أَنتِ سُهَيْلُ بِنِ عَمْرٍو ، فَقُلْ لَهُ : إِنَّ مُحَمَّدًا يَقُولُ لَكَ هَلْ أَنْتَ مُجِيرِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي ؟ » فأتاه ، فقال له ذلك ، فقال : إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب ، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، قال : « تَعُودُ ؟ » قال : نعم ، قال : « أَنتِ الْمُطْعِمُ بِنِ عَدِيٍّ ، فَقُلْ لَهُ : إِنَّ مُحَمَّدًا يَقُولُ لَكَ هَلْ أَنْتَ مُجِيرِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي ؟ » ، قال : نعم ، فليدخل ، ثم تسلح المطعم ودعا بنيه وقومه فقال : البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ؛ فإنني قد أجزت محمداً ، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى : يا معشر قريش ! إني قد أجزت محمداً فلا يهجه أحد منكم ، فقال أبو جهل للطعم : أمجير أم متابع - أي مسلم - ؟ قال : بل مجير ، فقال : قد أجزنا من أجزت . وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وطاف بالبيت وصلى عنده ركعتين ، ثم انصرف إلى بيته ، والمطعم بن عدي وولده محديقون به بالسلاح حتى دخل بيته^(٢) .

ولهذا الصنيع الذي فعله المطعم قال رسول الله ﷺ في أسارى بدر : « لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بِنِ عَدِيٍّ حَيًّا ، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ كَهْ »^(٣) .

وقد أراد أبو جهل أن يتهكم بنبي يحتاج إلى جوار ! وكأنه يتساءل لِمَ لم تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه ؟ فقال لما رآه يوماً دخل المسجد الحرام ، والمشركون عند الكعبة ، : هذا نبيكم يا بني عبد مناف ! فردّ عليه عتبة بن ربيعة وقال : وما تنكر أن يكون منّا نبي أو ملك ؟ فلما أخبر النبي ﷺ بذلك أو سمعه أتهم فقال : « أَمَا أَنْتَ يَا عُتْبَةَ بِنِ رَبِيعَةَ ؟ فَوَاللَّهِ مَا حَمَيْتَ اللَّهَ وَلَا لِرَسُولِهِ ، وَلَكِنْ حَمَيْتَ لَأَنْفِكَ ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا جَهْلُ بِنِ هِشَامٍ ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِي عَلَيْكَ غَيْرُ كَبِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى تَضْحَكَ قَلِيلاً وَتَبْكِي كَثِيراً ، وَأَمَّا أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمَلَأِ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ غَيْرُ كَبِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى تَدْخُلُوا فِيهَا تُنْكِرُونَ وَأَنْتُمْ لَهُ كَارِهُونَ » .

وفي هذا التعليق ما يدل على ثقة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، من المستقبل مهما اكتنفه في الحاضر من الآلام^(٤) .

(١) الصريح : المحض الخالص من كل شيء (لسان العرب : ج ٢٤٢٤/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٠٦/١) و (ج ٣١/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٢/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤٧٠/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٤٧/٢) .

(٣) صحيح البخاري (ج ١١٠/٥) كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بدرأ .

(٤) انظر : تاريخ الطبري (ج ٢٤٧/٢) ، وفقه السيرة/للشيخ الغزالي (ص ١٣٤) .

عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل والأفراد

دخل رسول الله ﷺ مكة في أواخر ذي القعدة من السنة العاشرة للبعثة ، في جوار الطعيم بن عدي ، وكان موسم الحج في ذلك العام قد اقترب ، فأخذ النبي ﷺ يتهدى لدعوة قبائل العرب إلى الإسلام ، كما كان شأنه كل عام منذ أن جهر بالدعوة في السنة الرابعة للبعثة ، واستمر على ذلك الأمر حتى آخر موسم للحج قبل هجرته ﷺ إلى المدينة ، فكان كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به (١) .

روى أصحاب السنن وأهل السير أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة يوافق الموسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذو المجاز ، وكانت العرب إذا حجّت تقيم بعكاظ في شهر شوال ، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً ، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج ، وكان ﷺ يدعوهم إلى أن يمنعه حتى يبلغ رسالات ربه ، وكان يسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويعود إليهم سنة بعد سنة ويقول : « يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به » - وفي رواية : يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذلل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة » - حتى قال له بعض القبائل : ما أن لك أن تياس منا ؟! من طول ما يعرض نفسه عليهم .

وكان رسول الله ﷺ كلما مر على قوم يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام تبعه عنه أبو لهب وراءه يرميه بالحجارة ويقول : يا بني فلان ! إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه ، فإنه صابئ كذاب ، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه ويشتمونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ، ويكلمونه ويمجادلونه ، ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول : « اللهم! لو شئت لم يكوّنوا هكذا » .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ كان يقول للناس في منازلهم يعني : « من يؤوييني ، من ينصرتني حتى أبلغ رسالات ربي ، عز وجل ، ولة الجنة ؟ » فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه ، حتى إن الرجل يرحل من مضراً أو من البين فيأتيه قومه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشي بين رحالمهم يدعوهم إلى الله ، عز وجل ، يشيرون إليه بالأصابع ، وأبو جهل خلفه يحثي عليه التراب ويقول : أيها الناس لا يعزركم هذا عن دينكم ، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم ولتتركوا اللات والعزى ، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ (٢) .

روي عن منبث الأزدي قال : رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول : « يا أيها الناس ! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٣١ ، ٣٤) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٣٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١/٢١٧ ، ٢١٧) ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٢/٣٣٧) و (ج ٢/٢٧٧) ، والمستدرک

(ج ١/٣٦١) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ١/٣٦١) .

فمنهم من تَقَلَّ في وجهه ، ومنهم من حثا عليه التراب ، ومنهم من سبَّه حتى انتصف النهار ، فأقبلت جارية بعَسٍّ^(١) من ماء ، فغسل وجهه ويديه وقال : « يَا بَنِيَّةُ ! لَا تَحْشِيْ عَلَيَّ أَيْبِكِ غَيْلَةً^(٢) وَلَا ذِلَّةً » ، فقلت : مَنْ هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ وهي جارية وضيئة^(٣) .

وعن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ قال : لما أفسد الله ، عزَّ وجلَّ ، صحيفة مكرهم خرج النبي ﷺ وأصحابه فعاشوا وخالطوا الناس ، ورسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ، ويكلِّم كلَّ شريف ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يُؤووه ويمنعوه ، ويقول : « لَا أَكْرَهُ مِنْكُمْ أَحَدًا عَلَى شَيْءٍ ، مَنْ رَضِيَ الَّذِي أَدْعُوهُ إِلَيْهِ قَبْلَهُ ، وَمَنْ كَرِهَهُ لَمْ أَكْرَهُهُ ، إِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ تَحْوِزُونِي^(٤) مِمَّا يَرَادُ بِي مِنَ الْقَتْلِ ، فَتَحْوِزُونِي حَتَّى أَبْلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَيَقْضِيَ اللَّهُ لِي وَلِمَنْ صَحَّحْتَنِي بِمَا شَاءَ » . فلم يقبله أحد منهم ، ولا أتى على أحد من تلك القبائل إلا قالوا : قوم الرجل أعلم به ، أفترى رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ؟ وذلك لما آذخ الله ، عزَّ وجلَّ ، للأَنْصَارِ من البركة^(٥) .

القبائل التي عرَّض عليها الإسلام :

قال ابن سعد بأسانيده عن جماعة قالوا : فكان من سبَّي لنا من القبائل الذين اتَّاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم : بنو عامر بن صعصعة ، ومُحَارِبِ بن خَصَفَةَ ، وفَزَارَةَ ، وَعَسَّانَ ، ومُرَّةَ ، وَحَنَيْفَةَ ، وسَلِيمَ ، وَعَبْسَ ، وبنو نَضْرَ ، وبنو البَكَاءِ ، وَكِنْدَةَ ، وِكَلْبَ ، والحَارِثِ بن كَعْبٍ ، وَعُدْزَةَ ، والحَضَارِمَةَ ، فلم يستجب منهم أحد^(٦) . وذكر بعضهم فيهم هَمْدَانَ وثَقِيفَ^(٧) .

وقد ذكرت مصادر السيرة والسنة الشريفة كيفية العرض وردودهم نسوقها هنا .

- كِنْدَةَ : روى أبو نعيم بسنده عن ابن رُوْمَانَ وعبد الله بن أبي بكر وغيرهما قالوا : جاء رسول الله ﷺ كِنْدَةَ في منازلهم بَعَاظَ ، فلم يأت حياً من العرب كان ألين منهم ، فلما رأى لينهم وقوة جبههم له ، جعل يكلهم ويقول : « أدعوكم إلى الله وَحَدَّهَ لا شريك له ، وأن تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ فَإِنْ أَظْهَرْتُمْ بِالْخِيَارِ » ، فقال عامتهم : ما أحسن هذا القول ، ولكننا نعبد ما كان يعبد آبائنا ، قال أصغر القوم : يا قوم ! اسبقوا إلى هذا الرجل قبل أن تَسْبِقُوا إِلَيْهِ ، فوالله إن أهل الكتاب ليحدثون أن نبياً يخرج من الحرم قد أظلم زمانه ، وكان في القوم إنسان أعور فقال : امسكوا عليَّ ، أخرجته عشيرته وتؤوونه انتم ؟ تحملون حرب العرب قاطبة ، لا ثم لا ، فانصرف عنهم حزينا ، فانصرف القوم إلى قومهم فخبروهم ، فقال رجل من اليهود : والله إنكم مخطئون بخطئكم لو سبقتم إلى هذا الرجل لسدتم العرب ، ونحن نجد صفته في كتابنا ، فوصفه للقوم الذين رأوه ، كل ذلك يصدقونه بما يصف من صفته ، ثم قال : نجد مخرجه بمكة ودار هجرته يثرب ، فأجمع القوم ليوافوه في الموسم القابل ، فحبسهم سيدهم عن تلك السنة فلم يوافق أحد منهم ، فمات اليهودي فسمع عند موته يصدق بمحمد ﷺ ويؤمن به^(٨) .

وفي رواية أخرى عند أبي نعيم أيضاً أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أنه ينصره أهل مَدَنَ^(٩) ونخل ، فأتى كِنْدَةَ فقال : « إني

(١) العَسُّ : القَدْحُ الكَبِيرُ (الوسيط : ج ٦٠٧٢) .

(٢) الغَيْلَةُ : الحَدِيْمَةُ وَالْإِغْتِيَالُ (لسان العرب : ج ٣٢٢٩/٥) .

(٣) رواه المهيبي في جمع الزوائد (ج ٢١٦) وقال المهيبي : رواه الطبراني وفيه منبت بن مدرك ولم أعرفه ، وبقيته رجاله ثقات .

(٤) يُقَالُ : هُوَ فِي حَيْزٍ فَلَانٍ : أَي فِي كَنْفِهِ (الوسيط : ج ٢٠٥/١) .

(٥) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٩/١) .

(٦) طبقات ابن سعد (ج ٢١٦/١) .

(٧) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٩٠/٣) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٩٩/١) .

(٨) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٩٢/١) .

(٩) أهل المَدَنِ : سَكَّانُ البَيْتِ الْمَبْنِيِّ خِلافَ البَدْوِ سَكَّانِ الحِيَامِ (الوسيط : ج ٨٦٥/٢) .

فَدَرَأْتُ فِي مَنَامِي أَنَّهُ يُصْرَبِي أَهْلُ مَدْرٍ وَنَحْلٍ ، فَأَنْتُمْ أَهْلُ مَدْرٍ وَنَحْلٍ ، فَهَلْ لَكُمْ فِي ذَلِكَ ؟ » قالوا : نعم ؛ إن جعلت لنا الولاية بعدك ، فقال رسول الله ﷺ : « لَسْتُ فَاعِلَهُ » ، وأدبروا عنه ، فقال رسول الله ﷺ : « وَجُوهٌ مُلُوكٍ وَأَعْقَابٌ عَدْرَةٍ » (١) .

- بنو عامر بن صعصعة : قال ابن إسحاق : حدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له : بَيْحَرَةُ بن فراس : والله لو أتني أخذت هذا الفتي من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيتكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : « الأمر لله يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ، قال : فقال له : أفنُهَيْفُ نُحُورِنَا (٢) للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه ، فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن ، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحد بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعوننا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، قال : فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذنا بها من مطلب (٣) ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط ، وإنما الحق ، فأين رأيكم كان عنكم (٤) .

وروى أبو نعيم بسنده عن عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا : أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ ، فقال : « مِمَّنِ الْقَوْمُ ؟ » قلنا : من بني عامر بن صعصعة ، قال : « من أي بني عامر ؟ » قلنا : بنو كعب بن ربيعة ، قال : « كَيْفَ الْمَنَمَةُ فِيكُمْ ؟ » قلنا : لا يرَامُ ما قَبَلْنَا ، ولا يُصْطَلَى بنا رِئَانًا (٥) ، قال : فقال لهم : « إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؛ فَإِنْ أَتَيْتُكُمْ تَمْنَعُونِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ، وَلَمْ أُكْرِهْ أَحَدًا مِنْكُمْ عَلَى شَيْءٍ ؟ » قالوا : ومن أي قريش أنت ؟ قال : « مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » ، قالوا : فأين أنت من بني عبد مناف ؟ قال : « هُمُ أَوْلُ مَنْ كَذَّبَنِي وَطَرَدَنِي » ، قالوا : ولكننا لانطردك ولا نؤمن بك ، ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك ، قال : فنزل إليهم والقوم يتسوقون (٦) ، إذ أتاهم بَجْرَةَ بن قَيْسِ الشَّيْبَرِيِّ فقال : مَنْ هَذَا الَّذِي أَرَاهُ عِنْدَكُمْ أَنْكِرُهُ ؟ قالوا : مُحَمَّدُ بن عبد الله الْقُرَشِيُّ ، قال : ما لكم وله ؟ قالوا : زعم لنا أنه رسول الله يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ، قال : فإذا رددتم عليه ؟ قالوا : قلنا في الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ، ونخرجك إلى بلادنا ، ونمنعك مما تمنع به أنفسنا ، قال : بَجْرَةَ : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به ، ثم بدأت لتنايذ الناس وترميكم العرب عن قوس واحد ، قومه أعلم به ، لو أنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، تعمدون إلى رَهِيْقٍ (٧) قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيتم ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : قَمِ فَالْحَقِّ بِقَوْمِكَ ، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك ، قال : فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته ، فركبها ، فغمر (٨) الحبيث بَجْرَةَ شَاكِلتها (٩) فَمَقَمَصَتْ (١٠) برسول الله ﷺ فألقته ، وعند بني عامر يومئذ ضَبَاعَةُ بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله ﷺ بمكة ، جاءت زائرة إلى بني عمها ، فقالت : يا آل عامر ! ولا عامر لي ، أيصنع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ؟ فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بَجْرَةَ ، واثنان أعاناه ، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجَلَدَ به الأرض (١١) ، ثم جلس على

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٤/١) .

(٢) أي نصيحتها هدفاً لسهامهم انظر : (الروض الأنف : ج ١٨١/٢) .

(٣) هذا مثل يضرب لما فات ، وأصله من ذنابى الطائر إذا أفلت من الحباله ، فطلبت الأخذ بذناباه . انظر : (الروض الأنف : ج ١٨١/٢) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٣٢/٢) .

(٥) لا يصطلى بنا رياناً : يقال فلان لا يصطلى بنا رياناً ؛ إذا كان شجاعاً لا يطاق (النهاية : ج ٥١/٣) .

(٦) تسوق : باع واشترى (الوسيط : ج ٤٦٧/١) .

(٧) رهيق فلان : سفة وجهل وحمق (الوسيط : ج ٢٧٩/١) .

(٨) غمر : بمعنى طعن . انظر : (الوسيط : ج ٦٦٧/٢) .

(٩) الشاكلة : الحاضرة (الوسيط : ج ٤٩٣/١) .

(١٠) قَمَصَتْ : تَفَرَّتْ وَصَرَبَتْ بِرَجْلَيْهَا (الوسيط : ج ٧٦٥/٢) .

(١١) جَلَدَ به الأرض : صَرَبَ به الأرض (الوسيط : ج ١٢٩/١) .

صدره ، ثم علّوا وجوههم لطمياً ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَالْعَنُ هَؤُلَاءِ » ، قال : فأسلم الثلاثة الذين نصره فقتلوا شهداء ، وهلك الآخرون لعناً .

واسم الثلاثة نَعْر الذين نصره بَجْرَة : فِرَاس ، وَحَزَن بن عبد الله ، وَمَعَاوِيَة بن عَبَادَة . وأما الثلاثة الذين نصره رسول الله ﷺ فَعَطْرِيف وَعَطْفَان ابنا سَهْل ، وَعُرْوَة بن عبد الله (١) .

وفي رواية : أنه ﷺ لم يلق من أحد من الأذى قط ما لقي منهم ، حتى خرج من عندهم وإيهم ليرمونه من ورائه (٢) .

وروي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه أتى النبي ﷺ رجل من بني عامر بن صعصعة ، وكان يداوي ويُعالج ، فقال : يا رسول الله ! أُرِي الخاتم الذي بين كَتِفَيْكَ : فإني من أطب الناس - وفي لفظ : فإن كان بك جنون داويتك ؛ فقال له رسول الله ﷺ : « أَلَا أُرِيكَ آيَةً ؟ » قال : بلى ، قال : فنظر إلى غلته فقال : ادع ذلك العَدُوَّ (٣) ، قال : فدعاه رسول الله ﷺ فجاء يَنْقُزُ (٤) حتى قام بين يديه - وفي لفظ : فأقبل إليه وهو يسجد ويرفع رأسه ، فقال له رسول الله ﷺ : « ارْجِعْ إِلَى مَكَانِكَ » ، فرجع إلى مكانه ، فقال العامري : يا آل بني عامر ! ما رأيت كالأيوم رجلاً أسحر - وفي لفظ : فقال العامري : والله لا أكذبك بقول أبداً ، ثم قال : يا بني صعصعة ! والله لا أكذبك بشيء يقوله أبداً (٥) .

- بنو حنيفة : قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رذاً منهم (٦) .

- عُبَيْس : روى أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن إبيصة العبسي عن أبيه عن جده قال : جاءنا رسول الله ﷺ في منازلنا بمكة ، ونحن نازلون بالجُمرة الأولى التي تلي مسجد الحَيْف ، وهو على راحلته ، مُرِدْفاً خلفه زيد بن حارثة ، فدعانا ، فوالله ما استجينا له ، ولا خير لنا ، قال : وقد كنّا سمعنا به وبدعائه في الموسم ، فوقف علينا يدعونا ، فلم نستجب له ، وكان معنا مَيْسِرَة بن مَسْرُوق العبسي فقال : أحلف بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحلّ به وسط رحالنا لكان الرّأي ، فأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ ، فقال له القوم : دعنا عنك لا تعرّضنا لما لا يقبل لنا به ، فطمع رسول الله ﷺ في مَيْسِرَة ، فكلمه ، فقال مَيْسِرَة : ما أحسن كلامك وأنوره ، ولكنّ قومي يخالفوني ، وإنما الرّجل بقومه ، فإن لم يعضدوه (٧) فالعداء أبعد ، فانصرف رسول الله ﷺ وخرج القوم صادرين إلى أهلهم ، فقال لهم مَيْسِرَة : ميلوا بنا إلى فدك ، فإن بها يهود نسائلهم عن هذا الرّجل ، فالوا إلى يهود ، فأخرجوا سفيراً لهم ، فوضوه ، ثم درسوا ذكّر رسول الله ﷺ النبي الأمي العربيّ ، يركب الجمل ، ويجتريء بالكثرة ، وليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالجعد ولا بالسبط ، في عينيه حُمْرَة ، مُشْرَب اللّون ، فإن كان هو الذي دعاهم فأجيبوه ، وادخلوا في دينه ، فإننا نجسده فلا تتبعه ، ولنا منه في مواطن بلاد عظيم ، ولا يبقى أحد من العرب إلا أتبعه أو قاتله ، فكونوا بمن يتبعه ، فقال مَيْسِرَة : يا قوم ! إن هذا الأمر بين ، قال القوم : نرجع إلى الموسم فنلقاه ، فرجعوا إلى بلادهم وأبى ذلك عليهم رجالهم ، فلم يتبعه أحد منهم . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وحجّ حجّة الوداع لقيه مَيْسِرَة (٨) .

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٠/١) .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٦/١) .

(٣) العَدُوّ : كُلُّ غَضْنٍ لَهُ شَعَبٌ (لسان العرب : ج ٢٨٦١/٤) .

(٤) نَقَزَ : وَتَبَّ (النهاية : ج ١٠٥/٥) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٢/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٥٠٦/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٥/٦) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٢/٢) .

(٧) يَغْضُدُ : يَنْضُرُ وَيَعِينُ (الوسيط : ج ٦١٢/٢) .

(٨) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٧/١) .

- كُتِبَ : قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين أنه أتى كُلباً في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : « يَا بَنِي عَبْدِ اللَّهِ ! إِنَّ اللَّهَ ، عزَّ وجلَّ ، قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيكُمْ » فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم (١) .

- بنو شيبان : وكان ممن عرض عليهم رسول الله ﷺ نفسه في ذلك العام - أي العاشر من البعثة - جماعة من بني شيبان فيهم مَفْرُوق بن عمرو ، وهانيء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فاستحسنوا قوله وأعجبهم ما يدعو إليه ، ولكنهم اعتذروا عن نصرته لكون كسرى قد أخذ عليهم عهداً ألا يُحَدِّثُوا حَدِيثاً ولا يُؤْوُوا مُحَدِّثاً - وكانت أرضهم مما يلي بلاد فارس - فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا أَسَأْتُمْ الرَّدَّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ ، إِنَّهُ لَا يَقُومُ بِدِينِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ أَحَاطَ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ » ، ثم وعدوا رسول الله ﷺ إن نصرهم الله على فارس أن يعودوا إليه ، فلما التقوا يوم ذي قار هم والفارس قال شيخهم : ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى الله ؟ قالوا : محمد ، قال : هو شعاركم ، فنصروا على القوم ، فقال رسول الله ﷺ : « بِي نَصْرُوا » (٢) .

ثم قدم وفد على رسول الله ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة فبايعوه على الإسلام (٣) .

- بنو مُحَارِبٍ : روي عن عبد الله بن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ انتهى إلى بني مُحَارِبٍ بن خَصَفَةَ ، فوجد فيهم شيخاً ابن مائة سنة وعشرين سنة ، فكلّمه رسول الله ﷺ ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربّه ، فقال الشيخ : أيها الرجل ! قومك أعلم بنبيك ، والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا أب بشر ما يؤوب به أهل الموسم ، فأغن عتاً نفسك ، وإن أبا هب لقاتم يسمع كلام المُحَارِبِيِّ ، ثم وقف أبو هب على المُحَارِبِيِّ فقال : لو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه ؛ إنه صابئ كذاب ، قال المُحَارِبِيُّ : أنت والله أعرف به ، هو ابن أخيك ؛ لِحُمْتِكَ (٤) ، ثم قال المُحَارِبِيُّ : لعلّ به يا أبا عتبة لَمّاً ؛ فإن معنا رجل من الحيّ يهتدي لعلاجه ، فلم يرجع أبو هب بشيء ، غير أنه إذا رآه وقف على حيّ من أحياء العرب صاح به أبو هب : إنه صابئ كذاب (٥) .

- من الأفراد الذين عُرِضَ عليهم الإسلام :

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل عرضه على الأفراد ، فكان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدّى له فدعاه إلى الله (٦) ، فاستجاب عدة رجال ، منهم :

- سُوَيْدُ بن الصّامِتِ : وكان شاعراً من أهل يثرب من بني عمرو بن عوف ، يسميه قومه الكامل لجلده وشرفه ونسبه ، قديم مكة حاجاً أو معترراً ، فتصدّى له رسول الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيْدُ : فلعلّ الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله ﷺ : « وَمَا الَّذِي مَعَكَ ؟ » قال : مَجَلَّةٌ لِقَمَانِ (٧) ، يعني حِكْمَةٌ لِقَمَانِ ، فقال له رسول الله ﷺ : « اغْرِضْهَا عَلَيَّ » ، فعرضها عليه ، فقال له : « إِنَّ هَذَا لِكَلَامٍ حَسَنٍ ، وَالَّذِي مَعِيَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ، قَرَأَنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ ؛ هُوَ هَدْيٌ وَتَوْرٌ » ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إِنَّ هَذَا لِقَوْلٍ حَسَنٍ ، ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢٢/٢) .

(٢) انظر : دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٧٢/١) ، وجمع الزوائد (ج ٢١١/٦) .

(٣) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٤٨١/٣) .

(٤) اللُّحْمَةُ : القرابة ، يُقَالُ بَيْنَهُمْ لِحْمَةٌ نَسَبٍ (الوسيط : ج ٨٢٦/٢) .

(٥) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٦/١) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤/٢) .

(٧) يُرِيدُ كِتَاباً فِيهِ حِكْمَةٌ لِقَمَانِ ، وَكُلُّ كِتَابٍ عِنْدَ الْعَرَبِ مَجَلَّةٌ (النهاية : ج ٢٨٩/١) .

قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم ، وكان قتله قبل يوم بُعث (١) .

- إياس بن معاذ : وكان غلاماً حدثاً من أهل يثرب أيضاً من بني عبد الأشهل ، قديم مكة في وفد من الأوس يلتسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وذلك قبيل حرب بعاث ، فزلوا على عتبة بن ربيعة فأكرمهم وطلبوا إليه وإلى قريش أن يحالفهم على قتال الخزرج ، فقالت قريش : بعثت دارك منا ، متى يجيب داعينا صريحكم ومتى يجيب داعيكم صريحنا ؟ فلما سمع رسول الله ﷺ أنهم فجلس إليهم ، وقال : « هل لكم في خير مما جئتم له ؟ » فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : « أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل علي الكتاب » ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أي قوم ! هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، ما قدم وفد إذا على قوم بشر مما قدمنا به على قومنا ، إنا خرجنا نطلب حلف قريش على عدونا فنرجع بعداوة قريش مع عداوة الخزرج ، فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، وكان يهمل الله تعالى ويكبره ويمجده ويسبحه عند موته ، فلا يشك قومه أنه مات مسلماً (٢) .

- ضيماد بن ثعلبة : وهو رجل من أزد شنوءة من الين ، كان صديقاً للنبي ﷺ في الجاهلية ، وكان يرقي (٣) من هذه الرياح (٤) ، قديم مكة معتزاً ، فجلس مجلساً فيه أبو جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وأمّية بن خلف ، فقال أبو جهل : هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وسفه أحلامنا ، وأضل من مات منا ، وعاب أمتنا ، فقال أمّية : الرجل مجنون غير شك ، قال ضيماد : فوقع في نفسي كلمته ، فقلت : لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، فلقيه فقال : يا محمد ! إني أرقي من هذه الرياح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء ، فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد » ، فقال : أعد علي كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر (٥) ، ثم قال : إلام تدعو ؟ قال : « إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، وتخلع الأوثان من رقبتيك ، وتشهد أنني رسول الله » ، فقال : فإذا لي إن فعلت ؟ قال : « لك الجنة » ، فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه ، فقال له رسول الله ﷺ : « وعلى قومك » ، قال : وعلى قومي (٦) .

- الطمئيل بن عزيرو الدؤيبي : وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ، رئيس قبيلة دؤس بالين ، قديم مكة ، وذلك بعد عودة النبي ﷺ من الطائف ، فثنى إليه رجال من قريش - وكانوا لا يسمعون بقدوم أحد من العرب عليهم إلا استقبلوه وخذروه من رسول الله ﷺ ووصفوه بكل نقيصة خشية أن يسلم - فقالوا له : يا طمئيل ! إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أغضل (٧) بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ، ولا تسمع منه شيئاً .

قال الطمئيل : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٣٤) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٣٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣/٤٣٧) .

(٣) رقى المريضة وغوة يرقي رقية : عوذة (الوسيط : ج ١/٣٦٨) .

(٤) المراد بالرياح هنا : الجنون (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١/١٥٦) .

(٥) هكذا في صحيح مسلم ، وفي غيره : قاموس البحر ، وهو وسطة ولجئة . انظر : (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١/١٥٧) .

(٦) انظر : صحيح مسلم (ج ٢/٥٩٢) كتاب الجمعة - باب تحفيف الصلاة والخطبة ج ٤٦ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ١/٢٠٧) .

(٧) أغضل الأمر : اشتد واستغلق (الوسيط : ج ٢/٦١٢) .

كُرْسُفًا^(١) ، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ ، قَالَ : فَغَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، قَالَ : فَصَمْتُ مِنْهُ قَرِيبًا ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ ، قَالَ : فَسَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا ، قَالَ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَأَتَكَلَّمُ أُمِّي ؛ وَاللَّهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيَّ الْحَسَنُ مِنَ الْقَبِيحِ ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ ؟ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبْلَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتَهُ ، قَالَ : فَكُنْتُ حَتَّى انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ ، فَأَتَبَعْتَهُ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنْ قَوْمِكَ قَدَ قَالُوا لِي كَذَا وَكُنَّا ، لِلَّذِي قَالُوا ، فَوَاللَّهِ مَا بَرِحُوا يُخَوِّفُونَنِي أَمْرَكَ حَتَّى سَدَدْتُ أذُنِي بِكَرْسُفٍ لئَلَّا أَسْمَعَ قَوْلَكَ ، ثُمَّ أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَسْمِعَنِي قَوْلِكَ ، فَسَمِعْتَهُ قَوْلًا حَسَنًا ، فَأَعْرَضَ عَلَيَّ أَمْرَكَ ، قَالَ : فَعَرَضَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامَ ، وَتَلَا عَلَيَّ الْقُرْآنَ ، فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَلَا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ ، قَالَ : فَأَسَأَلْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، وَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! إِنِّي أَمْرٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي ، وَأَنَا رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ ، وَدَاعِيَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَادْعِ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً ، تَكُونَ لِي عَوْنًا عَلَيْهِمْ فَيَا أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ ! اجْعَلْ لِي آيَةً » .

قال : فخرجت إلى قومي ، حتى إذا كنت بثنية تطليعي على الحاضر^(٢) ، وقع نور بين عيني مثل المصباح ، قال : قلت : اللهم في غير وجهي ، إني أخشى أن يظنوا أنها مثلثة^(٣) وقعت في وجهي لفرأني دينهم ، قال : فتحول فوق في رأس سوطي ، قال : فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط لهم من الثنية ، قال : حتى جئتهم فأصبحت فيهم ، قال : فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخاً كبيراً - قال : فقلت : إليك عني يا أبت ، فلست منك ولست مني ، قال : لم يابني ؟ قال : قلت : أسألت وتابعت دين محمد ﷺ ، قال : أي بني ! فديني دينك ، قال : فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما علمت ، قال : فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ، قال : ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتتني صاحبتني ، فقلت : إليك عني فلست منك ولست مني ، قالت : لم بأبي أنت وأمي ؟ قال : فرق بيني وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ﷺ ، قالت : فديني دينك ، قال : قلت : فإذ هي إلى حمي ذي الشرى فتطهري منه ، وكان ذو الشرى صنأ ليدؤس ، وكان الحمي حمي حموه له ، به وشل^(٤) من ماء يهبط من جبل ، قال : قالت : بأبي أنت وأمي ! أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً ؟ قال : قلت : لا ، أنا ضامن لذلك ، فذهبت فاغتسلت ، ثم جاءت فعرض عليهما الإسلام فأسلمت . وأبطأ عليه قومه في الإسلام ، لكن لم يزل بهم حتى أسلموا وهاجر إلى المدينة ، ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه ، فقدمها ورسول الله ﷺ بخيبر^(٥) .

وأقام الطَّفِيلُ بالمدينة مع رسول الله ﷺ حتى قبض الله رسوله ﷺ ، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين ، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة ، ومن أرض نجد كلها ، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو ، فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة ، فقال لأصحابه : إني قد رأيت رؤيا فاعبروها لي ؛ رأيت أن رأسي حلق ، وأنه خرج من في طائر ، وأنه لفتيتي امرأة فأدخلتني في فرجها ، وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً ، ثم رأيت حيس عني ، قالوا : خيراً ، قال : أما أنا والله فقد أولتها ، قالوا : ماذا ؟ قال : أما حلق رأسي فوضعه ، وأما الطائر الذي خرج من في فروحي ، وأما المرأة التي أدخلتني فرجها فالأرض تحفر لي فأغيب فيها ، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني . فقُتِلَ ، رحمه الله ، شهيداً باليمامة ، وجرح ابنه جراحة شديدة ثم استُبْتِلَ^(٦) منها ثم قُتِلَ عام اليرموك في زمن عمر رضي الله عنه شهيداً^(٧) .

(١) الكُرْسُفُ : القطنُ (الوسيط : ج ٧٨٩/٢) .

(٢) الحَاضِرُ : الحَيُّ ، القومُ النَّزُولُ على ماءٍ يَقِيمُونَ بِهِ وَلَا يَزُحَلُونَ عَنْهُ (لسان العرب : ج ٩٠٧/٢) .

(٣) المثلثةُ : العقوبةُ والتَّنْكِيلُ (الوسيط : ج ٨٦٠/٢) .

(٤) الوَشَلُ : الماءُ القليلُ يَتَحَلَّبُ مِنْ صَخْرَةٍ أَوْ جَبَلٍ وَلَا يَتَّصِلُ قَطْرَةً (الوسيط : ج ١٠٤٧/٢) .

(٥) سياتي خبر هجرته في وفد دوس في أحداث غزوة خيبر إن شاء الله تعالى .

(٦) بَلُّ مِنْ مَرَضِهِ : بَرَأَ وَصَحَّ (الوسيط : ج ٦٩١/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٠٧/١) ، والدرر في اختصار المغازي والسير (ص : ٥٢) .

- إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه :

كان أبو ذر، واسمه جندب بن جنادة، رجلاً يتأله في الجاهلية ولا يعبد الأصنام، فبلغه خبر مبعث النبي ﷺ فقال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم اتني، فانطلق أنيس حتى قدم مكة وسمع من قول النبي ﷺ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر - وكان أنيس شاعراً - فقال أبو ذر: ما شفيتني مما أردت، فترود لسفريه ثم أقبل إلى مكة، فأتى المسجد، فالتبس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فراه عليّ، رضي الله عنه، فقال له: كأن الرجل غريب؟ قال أبو ذر: نعم، فقال: انطلق إلى المنزل، فتبعه أبو ذر، لا يسأل واحد منها صاحبه عن شيء، فلما أصبح غداً إلى المسجد، وظلّ فيه ذلك اليوم، ولا يراه النبي ﷺ، حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليّ، رضي الله عنه، فقال: أما نال للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منها صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثالث فعاد عليّ، رضي الله عنه، مثل ذلك، فأقام معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني ففعلت، ففعل، فأخبره، فقال عليّ رضي الله عنه: فيأذنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني فيأني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قت كأي أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يتفقوه، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيتك أمري »، قال: والذي نفسي بيده لأصريحنّ بها بين ظهرائيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكبّ عليه، ثم قال: ويلكم! أستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلى الشام؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبّ العباس عليه وقال مثل مقالته بالأمس.

ثم خرج أبو ذر، رضي الله عنه، إلى قومه غفار فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فوفد بهم مهاجراً إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد، ولما سمعت بهم قبيلة أسلم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا أيضاً^(١).

روى مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الله بن الصامت فذكر الحديث عن أبي ذر، رضي الله عنه، وفيه قال أبو ذر: فأتيته مكة فتضعفت^(٢) رجلاً منهم فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابى؟ فأشار إليّ فقال: الصابى، فقال عليّ أهل الوادي بكل مدرة^(٣) وعظم، حتى خزرت مغشياً عليّ، فارتفعت حين ارتفعت كأي نصب أحر^(٤)، قال: فأتيته زمزم، ففسلت عني الدماء، وشربت من مائها، ولقد لبثت يا ابن أخي ثلاثين، بين ليلة ويوم، ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسميت حتى تكسرت عكّن بطني^(٥)، وما وجدت على كبدي سخفة جوع^(٦)، قال: فبينما أهل مكة في ليلة قمرأ إضحيان^(٧)، إذ ضرب على أسيختهم^(٨)، فما يطرف بالبيت

(١) انظر: صحيح البخاري (ج ٢٢١/٤) كتاب المناقب - باب قصة زمزم، و (ج ٥٩/٥) كتاب المناقب - باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه، وصحيح مسلم (ج ١٩١٩/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه ح ١٣٢، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٤).

(٢) تضعفت: أي نظرت إلى أضعفهم فسألته، لأن الضعيف مأمور الغائلة غالباً (صحيح مسلم بشرح النووي: ج ٢٨/١٦).

(٣) المدرة: قطع الطين اليابس، واجدته مدرة (لسان العرب: ج ٤١٥٩/٦).

(٤) أي من كثرة الدماء التي سالت منه بصرهم، والنصب: الصنم والحجر، كانت الجاهلية تصبّه وتدّبح عنده فيخمر بالدم. انظر المصدر السابق (صحيح مسلم بشرح النووي).

(٥) يعني اثنتان لكثرة الثمن وانطوت. والعكّن: الأطواء في البطن من الثمن. انظر: (صحيح مسلم بشرح النووي: ج ٢٨/١٦)، و (لسان العرب: ج ٣٠٦٢/٤).

(٦) سخفة جوع: رقتة وهزألة. والسخف: رقة العيش، وبالضم رقة العقل. وقيل: هي الحفة التي تغتري الإنسان إذا جاع، من السخف وهي الحفة في العقل وغيره (النهاية: ج ٣٥٠/٢).

(٧) ليلة إضحيان: أي مضية مقمرة (النهاية: ج ٧٨٣).

(٨) الأسيخة: جمع سبخ، وهو الخرق الذي في الأذن يفضي إلى الرأس، والمراد بأسيختهم هنا: آذانهم، أي: ناموا (للمصدر السابق: صحيح مسلم بشرح النووي).

أحد ، وامرأتين منهم تَدْعُونَ إِسَافًا وَنَائِلَةً ، قال : فأتنا عليّ في طوافها ، فقلت أنكِحَا أحدهما الأخرى ، قال : فا تناهتا عن قولها ... ثم قال : فانطلقنا تَوَلُّوْا لَانَ وَتَقُولَانَ : لو كان ههنا أحد من أنفارنا ، قال : فاستقبلها رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطان ، قال : « مَا لَكُمَا ؟ » قالتا : الصَّابِيءُ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا ، قال : « مَا قَالَا لَكُمَا ؟ » قالتا : إنه قال لنا كلمة تملأ الفم ، وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر ، وطاف بالبيت هو وصاحبه ، ثم صلى ، فلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ - قال أبو ذرّ : فكنت أنا أوّل مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ - قال : فقلت : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقال : « وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ » ، ثم قال : « مَنْ أَنْتَ ؟ » قال : قلت : من غِفَارٍ ، قال : فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته ، فقلت في نفسي : كره أن انتهيت إلى غِفَارٍ ، فذهبت أخذ بيده ، فقَدَعَنِي^(١) صاحبه ، وكان أعلم به مِنِّي ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : « مَتَى كُنْتَ هَهُنَا ؟ » قال : قلت : كنت ههنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم ، قال : « فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ ؟ » قال : قلت : ما كان لي طعام إلا ماء زمزم ، فسَمِنْتُ حتى تكسرت عُنْكَ بطني ، وما أجد على كِبْدِي سُخْفَةَ جُوعٍ ، قال : « إِنَّهَا مَبَارَكَةٌ ، إِنَّهَا طَعَامٌ طَعْمٌ^(٢) » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ! ائذن لي في طعامه الليلة ، فانطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر وانطلقت معها ، ففتح أبو بكر باباً ، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف ، وكان ذلك أوّل طعام أكلته بها ، ثم غَبَرْتُ^(٣) ما غبرت ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّهُ قَدْ وَجَّهْتُ لِي أَرْضَ ذَاتِ نَخْلٍ لِأَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ ، فَهَلْ أَنْتَ مَبْلُغٌ عَنِّي قَوْمَكَ ؟ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجِزَكَ فِيهِمْ » . فأتيت أنيساً ، فقال : ما صنعت ؟ قلت : صنعت أني قد أسلمت وصدقت ، قال : ما بي رغبة عن دينك ، فإني قد أسلمت وصدقت ، فأتينا أمنا فقالت : ما بي رغبة عن دينكما ، فإني قد أسلمت وصدقت ، فاحتلنا حتى أتينا قومنا غِفَاراً ، فأسلم نصفهم ، وكان يؤمهم إِيْمَاءُ بِنِ رَحْصَةَ الْغِفَارِيَّةِ ، وكان سيدهم ، وقال نصفهم : إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي ، وجاءت أسلم ، فقالوا : يا رسول الله ! إخواننا ؛ نُسَلُّ عَلَى النَّبِيِّ أَسْلَمُوا عَلَيْهِ ، فَأَسْلَمُوا ، فقال رسول الله ﷺ : « غِفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا ، وَأَسْلَمٌ سَأَلَهَا اللَّهُ »^(٤) .

بدء إسلام الأنصار :

دخلت السنة الحادية عشرة من البعثة ، ورسول الله ﷺ يقوم بالدعوة إلى الله لا يفتر عن ذلك رغم ازدياد تضيق قريش عليه وإثارته حوله الشائعات والأكاذيب ليصدوا الناس عن الاستجابة له ، ولما اقترب موسم الحج من هذه السنة راح رسول الله ﷺ يستعد لدعوة الوفود والقبائل ، كما كان يفعل في كل موسم ، فالتقى بجماعة من أهل يثرب ، فعرض عليهم الإسلام ، فسارعوا إلى الإيمان به وصدقوه .

روى ابن إسحاق وأبو نعيم وغيرهما أنه لما اشتد المشركون على رسول الله ﷺ قال لعنه العباس بن عبد المطلب : « يَا عَمَّ ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، ناصِرٌ دِينَهُ بِقَوْمٍ يَهُونُ عَلَيْهِمْ رَغْمُ قَرِيْشٍ ، عَزَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فامض بي إلى عكاظ ، فأرني منازل أحياء العرب حتى أدعَوْهُمْ إِلَى اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنْ يَمْنَعُونِي وَيُؤْوُونِي حَتَّى أُبَلِّغَ عَنِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، مَا أُرْسَلُنِي بِهِ » ، فقال العباس : يا ابن أخي ! امض إلى عكاظ ، فأنا ماض معك حتى أدلك على منازل الأحياء ، فبدأ رسول الله ﷺ بثقيف ، ثم استقرأ القبائل في سنته .

فلما كان موسم حج السنة الحادية عشرة من البعثة ، وأراد الله ، عَزَّ وَجَلَّ ، إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ وإنجاز مواعده له ،

(١) أَفْدَعَهُ : كَفَّهُ وَمَنَعَهُ (الوسيط : ج ٧٢٦/٢) .

(٢) أَي تَشِيْعٌ شَارِبًا كَمَا يُشِيْعَةُ الطَّعَامُ (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢٠١/٦) .

(٣) غَبَرْتُ : مَكَّثْتُ وَبَقِيْتُ (الوسيط : ج ٦٤٨/٢) .

(٤) صحيح مسلم (ج ١١٩٩/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي ذرّ رضي الله عنه ح ١٢٢ .

خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر ، رضي الله عنه ، إلى مِثْي فأتى على قبائل من قبائل العرب فكلمهم في الإسلام ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : « مَنْ أَنْتُمْ ؟ » قالوا : نفر من الخزرج ، قال : « آمِنُ مَوَالِي يَهُودَ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أَفَلَا تَجْلِسُونَ أَكَلَمَتِكُمْ ؟ » قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عَزَوْهم^(١) ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن قد أطلّ زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله اطمانت قلوبهم إلى ما سمعوا منه ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته . فقال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرا ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسندم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، وكانوا من أسباب الخير الذي سبب له ﷺ^(٢) .

وفي رواية عند ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال لهم بعد أن عرض عليهم الإسلام : « تَمْتَعُونَ لِي ظَهْرِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ » فقالوا : يا رسول الله ! نحن مجتهدون لله ولرسوله ، نحن - فاعلم - أعداء متباغضون ، وإنما كانت وقعة بُعثت عام الأول ، يوم من أيامنا اقتتلنا فيه ، فإن تقدم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع ، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرننا لعل الله يصلح ذات بيننا ، وموعدك الموسم العام المقبل^(٣) . فرضي بذلك رسول الله ﷺ .

وكان هؤلاء الرهط ستة نفر من الخزرج ، كما ذكر ابن إسحاق ، منهم من بني النجار : أسعد بن زُرارة أبو أمامة ، وعوف بن الحارث وهو ابن عفرأ ، ومن بني زُرَيْق : رافع بن مالك ، ومن بني سَلَمَةَ : قُطَيْبَةُ بن عامر ، ومن بني حرام بن كعب : عَقْبَةُ بن عامر ، ومن بني عَبِيد بن عَدِي : جابر بن عبد الله بن رِثَاب رضي الله عنهم^(٤) .

ويقال كانوا ثمانية نفر ، وهم : معاذ بن عَفْرَاء ، وأَسْعَدُ بن زُرارة ، ورافع بن مالك ، ودُكْوَانُ بن عبد قيس ، وعَبَادَةُ بن الصَّامِت ، وأبو عبد الرحمن يَزِيدُ بن ثَعْلَبَةَ ، وأبو الهيثم بن التَّيْهَان ، وَعَوَيْمُ بن سَاعِدَةَ^(٥) . والجمع عليه هو القول الأول أنهم كانوا ستة نفر .

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات أنه اختلف في أول الأنصار إسلاماً ، فقيل إنه لم يكن أحد أول من السنة ، وقيل إن أول من أسلم ثمانية نفر ، وقيل إن أول من أسلم من الأنصار أسعد بن زُرارة ودُكْوَانُ بن عبد قيس خرجا إلى مكة يتناقران^(٦) إلى عُنْبَةَ بن ربيعة فقال لهما : قد شغلنا هذا المصلي عن كل شيء يزعم أنه رسول الله - وكان أسعد بن زُرارة^(٧) وأبو الهيثم بن التَّيْهَان يتكلمان بالتوحيد بيثرب - فقال دُكْوَانُ بن عبد قيس لأسعد بن زُرارة حين سمع كلام عُنْبَةَ : دونك هذا دينك ، فقاما إلى رسول الله ﷺ فعرض عليهما

(١) عَزَوْه : غَلَبَهُ وَفَهَّرَهُ (الوسيط : ج ٦٠٤/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧/٢ ، ٢٨) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٧٢/١ ، ٢٩٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٣٠/٢) ، والرحيق المختوم (ص : ١٥٢) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٢١٧/١) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٨/٢) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢١٨/١) .

(٦) تَنَاقَرُ الرَّجُلَانِ : تَفَاخَرَا وَتَحَاوَصَا ثُمَّ حَكَّمَا بَيْنَهُمَا وَاحِدًا .

(٧) روى ابن سعد في الطبقات (ج ١٦٥/١) أن أسعد بن زُرارة قديم من الشام تاجراً في أربعين رجلاً من قومه ، فرأى رؤيا أن أتياً أتاه فقال : إن نبياً يخرج بمكة يا أبا أمامة فأتبعه ، وأية ذلك أنك تنزلون منزلاً فيصاب أصحابك فتتنجو أنت وفلان يطعن في عينه ، فزولوا منزلاً فيبيتهم الطاعون ، فأصيبوا جميعاً غير أبي أمامة وصاحب له طعن في عينه .

الإسلام ، فأسما ثم رجعا إلى المدينة ، فلقي أسعد أبا الهيثم بن التيهان فأخبره بإسلامه وذكر له قول رسول الله ﷺ وما دعا إليه ، فقال أبو الهيثم : فأنا أشهد معك أنه رسول الله وأسلم^(١) . فلما كان العام المقبل أسلم منهم ستة وقيل ثمانية^(٢) كما ذكرنا آنفاً .

ويقال إن رافع بن مالك الزرقني أو رفاعه بن رافع وابن خالته معاذ بن عفراء خرجا إلى مكة معترين ، فلما هبطا من الثنية رأيا رجلاً تحت شجرة ، قال رفاعه : وهذا قبل خروج الستة الأنصاريين ، قال : فلما رأيناه كلفناه فقلنا نأتى هذا الرجل نستودعه حتى نطوف بالبيت ، فسلمنا عليه تسليم الجاهلية ، فرد علينا بسلام أهل الإسلام ، وقد سمعنا بالنبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنكرنا ، فقلنا : من أنت ؟ قال : « أنزلوا » ، فنزلنا ، فقلنا : أين الرجل الذي يدعي ويقول ما يقول ؟ فقال : « أنا » ، قال رفاعه : فاعرض عليّ ، فعرض عليهم الإسلام وقال : « مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ ؟ » قال رفاعه : خلقهن الله ، قال : « فَمَنْ خَلَقَكُمْ ؟ » قلنا : الله ، قال : « فَمَنْ عَمِلَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا ؟ » قلنا : نحن ، قال : « فَالْخَالِقُ أَحَقُّ بِالْعِبَادَةِ أَمْ الْمَخْلُوقُ ؟ فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَعْبُدَكُمْ وَأَنْتُمْ عَمِلْتُمُوهَا ، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْتُمُوهُ ، وَأَنَا أَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ ، وَتَرْكَ الْعَدْوَانِ بِغَضَبِ النَّاسِ » ، قلنا : لا والله لو كان الذي تدعو إليه باطلاً لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق ، فامسك راحلتنا حتى نأتى البيت ، فجلس عنده معاذ بن عفراء ، قال رفاعه : فجئت البيت فطقت ، وأخرجت سبعة أقداح ، فجعلت له منها قِدْحاً ، فاستقبلت البيت فقلت : اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قَدْحَهُ سبع مرات ، فضربت بها فخرج سبع مرات ، فصاحت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فاجتمع الناس عليّ وقالوا : مجنون ، رجل صبا ، قلت : بل رجل مؤمن ، ثم جئت إلى أعلى مكة ، فلما رأني معاذ قال : لقد جاء رفاعه بوجه ما ذهب بمثله ، فجئت وأمنت ، وعلمنا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، سورة يونس ﴿ أَقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، ثم خرجنا راجعين إلى المدينة .

فكان رفاعه ومعاذ أول من أسلم من الأنصار ، وأول مسجد قرىء فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق^(٣) .

☆ ☆ ☆

(١) طبقات ابن سعد (ج ٢١٧/١) .

(٢) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للسقطاني (ج ٣١١/١ - ٣١٢) .

(٣) انظر : المستدرک (ج ١٤٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٧/١) .

الإسراء والمعراج

جاءت حادثة الإسراء والمعراج تشبيهاً لرسول الله ﷺ على طريق الدعوة ، وتكريماً له في أعقاب سنين طويلة من العمل والصبر على أذى المشركين واضطهادهم ونكرانهم وجفائهم .

ويقصد بالإسراء الرحلة التي أكرم الله بها نبيه ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ، أما المعراج فهو ما أعقب هذه الرحلة من العروج به إلى السموات العلا حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ، ثم العودة بعد ذلك إلى المسجد الحرام بمكة ، وذلك كله في ليلة واحدة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الحادثة في سورتين مختلفتين ، فذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) ، وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٢) .

واختلف في زمن وقوع هذه الحادثة ، ف قيل إنها كانت في السابع والعشرين من شهر رجب من السنة العاشرة من البعثة ، وقيل إنها كانت قبل ذلك ، ويُرَدُّ هذين القولين بأن السيدة خديجة ، رضي الله عنها ، توفيت في رمضان من السنة العاشرة ولم تكن الصلوات الخمس قد فرضت ، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء .

وقيل كانت في السابع عشر من شهر ربيع الأول قبل الهجرة النبوية بسنة ، وقيل قبل الهجرة بستة عشر شهراً ؛ أي في ذي القعدة من السنة الثانية عشرة من البعثة ، وقيل كانت في شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً .

والراجح أنها كانت بعد عودة النبي ﷺ من الطائف ، ولكن لم يتعين بالضبط السنة التي وقعت فيها ، وجزم ابن حزم أنها كانت قبل الهجرة بسنة فالله أعلم (٣) .

وكما اختلف في تاريخ هذه الحادثة اختلف العلماء في كونها بالروح وحده ، أم بالروح والجسد جميعاً ، وجهور المسلمين على أنها كانت بالجسد والروح معاً ، ولذلك فهي من معجزات النبي ﷺ الباهرة التي أكرم الله بها . وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وأبي هريرة وجمع كبير غيرهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ (٤) ، قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس (٥) .

(١) الإسراء : ١ .

(٢) النجم : ١٢ - ١٨ .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢١٢/١ ، ٢١٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٥/٢) ، وعيون الأثر (ج ١٤٨/١) .

(٤) الإسراء : ٦٠ .

(٥) صحيح البخاري (ج ٦٩/٥) كتاب المناقب - باب المعراج .

أما قصة حادثة الإسراء والمعراج فقد رواها البخاري ومسلم في صحيحهما ، كما رواها غيرها من أئمة الحديث وعلماء السير ، وسنسوق تفاصيل هذه الحادثة من تلك الروايات مع الجمع بينها فيما يلي .

روي في هذه الحادثة أن رسول الله ﷺ كان ليلة أسري به نائماً في بيت أم هانئ ، رضي الله عنها ، وبيتها عند شعب أبي طالب ، فاتاه جبريل ، عليه السلام ، فأخرجه إلى المسجد الحرام ، وكان به أثر النعاس ، فاضطجع فيه عند الحجر ، ثم احتله جبريل ، عليه السلام ، وملكان معه ، فوضعه عند بئر زمزم ، ثم تولاه منهم جبريل فشق ما بين نحره إلى لُبته^(١) . وفي رواية : فشق من النحر إلى مِراق البطن^(٢) . حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أتقى جوفه ، ثم أتى بطبست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغها في صدره ، ثم أطبقه . وفي رواية : أنه استخرج قلبه فغسله ثم حشي إيماناً وحكمة وعلماً ونوراً . ثم ذهب به ﷺ إلى باب المسجد .

قال رسول الله ﷺ : بينا أنا نائم في الحجر إذ جاء جبريل ، فهمزني^(٣) بقدمه فجلست ، فلم أر شيئاً ، فعدت إلى مضجعي ، فجاءني الثانية ، فهمزني بقدمه ، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت إلى مضجعي ، فجاءني الثالثة ، فهمزني بقدمه ، فجلست فأخذ بعَضدي ، فقامت معه فخرج إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض دون البغل وفوق الحمار ، طويلة الظهر ، طويلة الأذنين ، يقال لها البراق ، وكان مُسرجاً مُلججاً^(٤) ، في فخذيه جناحان يحُفِر^(٥) بها رجله ، يضع خطوه عند أقصى طرفه ، قال ﷺ : فلما دنوت منه لأركبه شمس^(٦) ، فوضع جبريل يده على معرفته^(٧) ، ثم قال : ألا تستحي يا براق مما تصنع ؟ فوالله يا براق ما ركبك عبد الله قبل محمد أكرم على الله منه . وكانت الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، تركبه قبلي . فاستحيا حتى أرفض عرقاً ، ثم قر^(٨) ، فحملني عليه ، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته . وفي رواية : فركبت خلف جبريل ، عليه السلام ، فسار بنا يضع حافره حيث أدرك طرفه ، فإذا بلغ مكاناً مطاطئاً طالت يده وقصرت رجلاه ، وإذا بلغ مكاناً مرتفعاً قصرت يده وطالت رجلاه حتى انتهينا إلى موضع فقال لي جبريل : انزل فصل ، ففعلت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بطيبة وإليها المهاجر ، ثم قال : انزل فصل ، فصليت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بطور سيناء ، حيث كلم الله ، عز وجل ، موسى عليه السلام ، ثم قال : انزل فصل ، فنزلت فصليت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام ، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فربطت البراق بحلقة باب المسجد التي يربط بها الأنبياء . وفي رواية أن جبريل ، عليه السلام ، أتى الصخرة التي في بيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها ، فشد بها البراق ، وقيل إنه أتى قبلة المسجد فربط به دابته . قال : ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين^(٩) .

- (١) اللبّة : وَسَطُ الصُّدْرِ .
- (٢) مِراق البطن : ماسَقَلْ مِنَ البَطْنِ عِنْدَ الصَّفَاقِ أُسْفَلَ مِنَ السُّرَّةِ مِمَّا رَقَّ جِلْدُهُ (لسان العرب : ج ١٧٠٦/٣) .
- (٣) هَمَزَهُ : صَرَبَهُ (الوسيط : ج ١٠٠٤/٢) .
- (٤) أُسْرَجَ الدَّابَّةُ : شَدَّ عَلَيْهَا السُّرْجَ (الوسيط : ج ٤٢٧/١) ، وَالْجَمْعُ : اللَّجَامُ (الوسيط : ج ٨٢٢/٢) .
- (٥) الْخُنْفَرُ : الْحَثُّ وَالْإِعْجَالُ (النهاية : ج ٤٠٧/١) .
- (٦) شَمَسَتْ الدَّابَّةُ : تَفَرَّتْ وَجَمَحَتْ (الوسيط : ج ٤٩٦/١) .
- (٧) الْمَعْرِفَةُ : مَوْضِعُ الْعُرْفِ مِنَ الطَّيْرِ وَالْخَيْلِ ، وَالْعُرْفُ : شَعْرٌ عُنُقِ الْفَرَسِ (الوسيط : ج ٦٠٢/٢) .
- (٨) أَرْفَضَ عَرَقًا ثُمَّ قَرَّ : أَي جَرَى عَرَقُهُ وَسَالَ ثُمَّ سَكَنَ وَأُنْقَادَ (النهاية : ج ٢٤٣/٢) .
- (٩) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٢٤/١) كتاب الصلاة - باب أين فرضت الصلاة ، و (ج ١٣٢/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ١٦٤/٤) كتاب الأنبياء - باب ذكر إدريس عليه السلام ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - باب المعراج ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٥/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ .. ح ٢٥٩ ، وسنن الترمذي (ج ٣٠١/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة بني إسرائيل ح ٣١٣١ وح ٣١٣٢ ، وسنن النسائي (ج ٢١١/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، وسيرة ابن هشام (ج ٢/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٧٧/١) و (ج ٢٢٣/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧/٢ ، ٣٥٥ ، ٣٩١) .

الآيات التي رآها النبي ﷺ في طريقه إلى بيت المقدس :

وقد رأى رسول الله ﷺ في طريقه إلى بيت المقدس آيات كثيرة ، منها ما رواه أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت أو مررت على موسى ليلة أُسري بي عند الكئيب الأحمر ، وهو قائم يصلي في قبره » (١) .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « فسار بنا في أرض عمّة (٢) مُتَنِينَ ، ثم أفضينا إلى أرض فيحاء طيبة ، قال : تلك أرض النّار ، وهذه أرض الجنّة ، قال : فأتيت على رجل قائم يصلي ، فقال : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك مُحَمَّدٌ ، فَرَحَّبَ بي ودعا لي بالبركة وقال : سلْ لأمتك اليسر ، فقلت : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا أخوك عيسى بن مريم ، عليه الصلاة والسلام ، قال : فسارنا صوّتاً وتندمراً (٣) ، فأتينا على رجل فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك مُحَمَّدٌ ، فَرَحَّبَ بي ، ودعا لي بالبركة ، وقال : سلْ لأمتك اليسر ، فقلت : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا أخوك موسى ، قلت : على من كان تندمراً وصوته ؟ قال : على ربه ، قلت : على ربه ؟ قال : نعم ؛ قد عرف ذلك من حديثه ، قال : ثم سارنا قرأينا مصابيح وضوءاً ، قال : قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه شجرة أهلك إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، أتدنون منها ؟ قلت : نعم ، فدثونا ، فَرَحَّبَ بي ودعا لي بالبركة ، ثم مضينا حتى أتينا بيت المقدس » (٤) .

وعن عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت ليلة أُسري بي عموداً أبيض ، كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة ، قلت : ما تخمّلون ؟ فقالوا : عمود الكتاب ، أمرنا أن نضعه بالشام » (٥) .

- ووجد ﷺ في طريقه ريح قبر ماشطة ابنة فرعون ، قال رسول الله ﷺ : « لما كانت الليلة التي أُسري بي فيها أتت عليّ رائحة طيبة ، فقلت : يا جبريل ! ما هذه الرائحة الطيبة ؟ فقال : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها - وفي رواية : هذه ريح قبر الماشطة وابنتها وزوجها - قال : قلت : وما شأنها ؟ قال : بيننا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المذرى (٦) من يديها فقالت : بسم الله ، فقالت لها ابنة فرعون : أبي ؟ قالت : لا ، ولكن ربي وربّ أهلك الله ، قالت : أخبره بذلك ؟ قالت : نعم ، فأخبرته فدعاها ، فقال : يا فلانة ! وإن لك ربّاً غيري ؟ قالت : نعم ، ربي وربك الله ، فأمر بنقرة (٧) من نحاس فأحيمت ، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها - وفي رواية : قرأوا المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما ، فأبينا ، فقال : إنني قاتلكما - قالت : إن لي إليك حاجة ، قال : وما حاجتك ؟ قالت : أحب أن تجمّع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا ، قال : ذلك لك عليّنا من الحق ، قال : فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً إلى أن انتهت ذلك إلى صبي لها مريض ، وكأنها تفاعت من أجله ، قال : يا أمّة ! افتحيمي ؛ فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فأفتحمت » . قال ابن عباس رضي الله عنهما : تكلم أربعة صغار ، عيسى بن مريم عليه السلام ، وصاحب جريج ، وشاهد يوسف ، وابن ماشطة ابنة فرعون (٨) .

- ورأى ﷺ حال الدنيا وتعرض له داعي اليهود والنصارى . قال رسول الله ﷺ : « فبينما أنا أسير على البراق إذ دعاني داع عن يميني : يا مُحَمَّدُ ! أنظرني أسألك ، يا مُحَمَّدُ ! أنظرني أسألك ، فلم أجبه ولم أقم عليه ، قال جبريل : ذلك داعي اليهود ، أمّا إنك

- (١) صحيح مسلم (ج ١٨٤٥/٤) كتاب الفضائل - باب من فضائل موسى ﷺ ح ١٦٤ .
- (٢) عمّة : صيغة (النهاية : ج ٢٨٨/٢) .
- (٣) جاء في النهاية أن موسى ، عليه السلام ، كان يتندمّر على ربه ، أي يجترىء عليه ويرفع صوته في عتابه (النهاية : ج ١٦٧/٢) .
- (٤) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٠٦/٤) وقال : هذا حديث تفرد به أبو حمزة مهون الأعور ، وقد اختلفت أقاويل أئمتنا فيه ، وقد أتت بزيادات لم يخرجها الشيخان ، رضي الله عنهما ، في ذكر المعراج . وقال الذهبي : ضعفه أحمد وغيره .
- (٥) رواه الميثقي في جمع الزوائد (ج ٥٨/١٠) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير صالح بن رستم وهو ثقة .
- (٦) المذرى : ما يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط يسرح به الشعر المتكبد (الوسيط : ج ٢٨٢/١) .
- (٧) النقرة : هي القدر الواسع (النهاية : ج ١٤٥/١) .
- (٨) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٣٠٦/١) ، وسنن ابن ماجه (ج ١٣٢٧/٢) كتاب الفتن - باب الصبر على البلاء ح ٤٠٣٠ .

لَوَاجِبَتَهُ أَوْ وَقَفَتَ عَلَيْهِ لَتَهَوَّدَتْ أُمَّتُكَ ، قَالَ : فَبَيَّنَّا أَنَا أَسِيرٌ عَلَيْهِ إِذْ دَعَانِي دَاعٍ عَنِ يَسَارِي : يَا مُحَمَّدُ ! أَنْظِرْنِي أَسْأَلُكَ ، يَا مُحَمَّدُ ! أَنْظِرْنِي أَسْأَلُكَ ، فَلَمْ أَجِبْهُ وَلَمْ أَقِمْ عَلَيْهِ ، قَالَ جَبْرِيلُ : ذَلِكَ دَاعِي النَّصَارَى ، أَمَا إِنَّكَ لَوَاجِبَتَهُ لَتَنصَّرَتْ أُمَّتُكَ ، قَالَ : وَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرٌ عَلَيْهِ إِذَا أَنَا بَامْرَأَةٍ حَاسِرَةٍ عَنِ ذِرَاعَيْهَا ، وَعَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ خَلَقَهَا اللَّهُ ، فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّدُ ! أَنْظِرْنِي أَسْأَلُكَ ، فَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَلَمْ أَقِمْ عَلَيْهَا ، قَالَ جَبْرِيلُ : تِلْكَ الدُّنْيَا ، أَمَا إِنَّكَ لَوَاجِبَتَهَا لِاخْتَارَتْ أُمَّتُكَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ « (١) .

وروي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال في حديث الإسراء : وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال : « مَا هَذِهِ يَا جَبْرِيلُ ؟ » قَالَ : سِرٌّ يَا مُحَمَّدُ ، فَسَارَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسِيرَ ، فَإِذَا شَيْءٌ يَدْعُوهُ مَتَنَحِّيًّا عَنِ الطَّرِيقِ يَقُولُ : هَلُمَّ يَا مُحَمَّدُ ! فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : سِرٌّ يَا مُحَمَّدُ ، فَسَارَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسِيرَ ، قَالَ : فَلَقِيَهُ خَلْقٌ مِنَ الْخَلْقِ ، فَقَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَوَّلَ ! السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا آخِرَ ! السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا حَاشَرَ ! فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : ارْجِعْ السَّلَامَ يَا مُحَمَّدُ ! فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ لَقِيَهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الْأُولَى ، ثُمَّ الثَّلَاثَةَ كَذَلِكَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ : ثُمَّ قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ : أَمَّا الْعَجُوزُ الَّتِي رَأَيْتَ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِ تِلْكَ الْعَجُوزِ ، وَأَمَّا الَّذِي أَرَادَ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ فَذَلِكَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ أَرَادَ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ سَأَلُوا عَلَيْكَ فَيَبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (٢) .

وقد روي عن يحيى بن سعيد أنه لما أسرى برسول الله ﷺ رأى غفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله ﷺ رآه ، فقال له جبريل : أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهم طمئنت شعلته وخر لفيه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بلى » ، فقال جبريل : فقل : أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شئ ما ينزل من السماء ، وشئ ما يعرج فيها ، وشئ ما ذرأ في الأرض ، وشئ ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن (٣) .

- ورأى رسول الله ﷺ الدجال شبيهاً بقطن بن عبد العزى (٤) ، ويروي عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ سئل عن الدجال فقال : « رَأَيْتُهُ فَيَلْبَانِيًّا (٥) ، أَمْرٌ هِجَانًا (٦) ، إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ ذُرِّيٌّ ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ » (٧) .

- ورأى النبي ﷺ حال المجاهدين في سبيل الله ؛ أي كشف له عن حالهم في دار الجزاء بضرب مثاله ، فرأى قوماً يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : « يَا جَبْرِيلُ ! مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ » قَالَ : هَؤُلَاءِ الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَضَاعَفَ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

- وكشف له ﷺ عن حال من يترك الصلاة والزكاة ، وحال الزناة وقطاع الطرق ، فأتى في طريقه إلى بيت المقدس على قوم تُرَضِّخُ رُؤُوسَهُمْ بِالصَّخْرِ ، كُلَّمَا رُضِّخَتْ عَادَتُ كَمَا كَانَتْ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَقَالَ ﷺ : « يَا جَبْرِيلُ ! مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ » قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَشَاوَلُ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أديبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام ، ويأكلون الضريع (٨) والرزقوم (٩) ورصف (١٠)

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢ / ٣٩٠) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢ / ٣٦٢) .

(٣) الموطأ (ص : ٦٧٨) ما يؤمر به من التَّعَوُّدِ .

(٤) انظر : مجمع الزوائد (ج ١ / ٧٥) .

(٥) الذَّيْلُ : الْعَظِيمُ الْجَنَّةِ (النِّهَايَةُ : ج ٣ / ٤٧٤) .

(٦) الْهَيْجَانُ : الْأَبْيَضُ (النِّهَايَةُ : ج ٥ / ٢٤٨) .

(٧) مسند الإمام أحمد (ج ٣ / ٢٧٤) .

(٨) الضَّرِيْعُ : نَبْتٌ يُقَالُ لَهُ الشُّبْرِيُّ ، وَأَهْلُ الْحِجَازِ يُسَمُّونَهُ الضَّرِيْعَ إِذَا بَيْسَ ، وَهُوَ مَرْعَى سَوِيٍّ لَا تَعْقِبُهُ عَلَيْهِ السَّائِمَةُ شَحْبًا وَلَا لِحَابًا (لسان العرب : ج ٤ / ٢٥٨١) .

(٩) الرَّزْقُومُ : كُلُّ طَعَامٍ يُقْتَلُ ، وَهُوَ مَا وَصَفَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، وَهُوَ قَعُولٌ مِنَ الرَّقْمِ : اللَّقْمُ الشَّدِيدُ وَالشُّرْبُ الْمُفْرِطُ (لسان العرب : ج ٣ / ١٨٤٦) .

(١٠) الرَّصْفُ : الْحِجَارَةُ الْمُحْتَمَةُ عَلَى النَّارِ (النِّهَايَةُ : ج ٢ / ٢٣١) .

جهنم ، فقال ﷺ : « مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ » قال : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤَدُّونَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نَضِيج طَيِّب في قِدْر ، ولحم آخر نيء خبيث ، فجعلوا يأكلون من ذلك النيء الخبيث ويدعون النَضِيج الطَيِّب ، فقال ﷺ : « مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ ؟ » قال : هذا الذي يقوم وعنده امرأة حلالاً طَيِّباً فيأتي المرأة الخبيثة فيبيت معها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طَيِّباً فتأتي الرجل الخبيث فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها شيء إلا قصفته ، فقال ﷺ : « مَا هَذِهِ يَا جَبْرِيلُ ؟ » قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ (١) .

- وكشف له ﷺ عن حال من يقبل الأمانة مع عجزه عن حفظها ، وحال من يعظ ولا يتعظ ، ومن يتكلم بالفحش ، فقد روي أنه ﷺ مر في طريقه إلى بيت المقدس على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها ، فقال : « مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ ؟ » قال : هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تَقْرَضُ ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قُرِضت عادت كما كانت ، ولا يُفْتَر عنهم من ذلك شيء ، فقال ﷺ : « يَا جَبْرِيلُ ! مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ » قال : هَؤُلَاءِ خُطباء الفتنه ، خُطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب .

ثم أتى على جُحْر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع ، فقال ﷺ : « مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ ؟ » قال : هذا الرجل يتكلم بكلمة عظيمة ، ثم يندم عليها فيريد أن يردّها ولا يستطيع .

- وكشف له ﷺ عن حال أكل الرِّبَا في دار الجزاء بضرب مثال ، فرأى رجلاً يسبح في نهر من دم ويلقم الحجاره ، فقال ﷺ : « مَنْ هَذَا ؟ » قال : أَكَلِ الرِّبَا .

وكشف له ﷺ عن حال من أحوال الجنة فسمع صوتها وهو في طريقه إلى بيت المقدس ، روي أنه أتى على واد فوجد ريحاً باردة طَيِّبَةً ، ووجد ريح المسك وسمع صوتاً ، فقال : « يَا جَبْرِيلُ ! مَا هَذِهِ الرِّيحُ البَارِدَةُ الطَيِّبَةُ وريح المسك ؟ وَمَا هَذَا الصَّوْتُ ؟ » قال : هذا صوت الجنة تقول : يارب ! ائتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثر عَزْفِي (٢) ، وحريري ، وسُنْسُنِي ، وإسْبَرْقِي ، وعَبْقَرِي (٣) ، ولؤلؤي ، ومرجاني ، وفِضِّي ، وذَهَبِي ، وأباريقي ، وفواكهي ، وعَسَلِي ، وخَمْرِي ، ولَبَنِي ، فائتني بما وعدتني ، فقال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، ومن خشيتي آمنته ، ومن سألتني أعطيتته ، ومن أقرضني جزيتته ، ومن توكل عليّ كَفَيْتَهُ ، وأنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ... قالت : قد رضيت .

- وكشف له ﷺ أيضاً عن حال من أحوال النار قبل وصوله إلى بيت المقدس ، فأتى على واد فسمع صوتاً مُنْكَراً ، ووجد ريحاً خبيثة ، فقال : « يَا جَبْرِيلُ ! مَا هَذَا الصَّوْتُ ؟ » قال : هذا صوت جهنم تقول : ائتني بأهلي وما وعدتني ، فقد كثر سَلَسَلِي ، وأغلالِي ، وسعيري ، وزقومي ، وحميمي ، وحجارتي ، وغسّاقِي ، وغسْلِينِي ، وقد بعد قعري ، واشتدّ حرّي ، فائتني بما وعدتني ، فقال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكلّ خبيث وخبيثة ، وكلّ جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت (٤) .

صلاة النبي ﷺ بالأنبياء عليهم السلام :

ولمّا دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى وجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، عليهم السلام ، قد جمّعوا له ، فقدمه جبريل ، عليه السلام ، حتى صلى بهم ركعتين .

(١) الأعراف : ٨٦ .

(٢) عَزْفُ الجَنَّةِ : ريحها الطَيِّبَةُ (النهاية : ج ٢١٧/٣) .

(٣) العَبْقَرِيُّ : قَيْلٌ : الدَّبَّاجُ ، وقَيْلٌ : البَسْطُ المَوْشِيَّةُ ، وقَيْلٌ : الطَّنَافِسُ النُّحَانُ (النهاية : ج ١٧٢/٣) .

(٤) انظر : دلائل النبوة للمبهيقي (ج ٣٩٨-٣٩٩) ، ومجّع الزوائد (ج ٦٧/١-٦٨) ، ومسنّد الإمام أحمد (ج ٢٣٩/٣) ، و (ج ١٠/٥) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٨٧/١-٢٨٩) .

ويقال : بُعث له الأنبياء كلهم ؛ آدم فمن دونه ، عليهم السلام ، ثم أقيمت الصلاة ، فتدافعوا حتى قدموه ﷺ (١) .

وفي رواية : أنه دخل مسجد بيت المقدس فصلّى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة قالوا : يا جبريل ! من هذا معك ؟ قال : محمد رسول الله وخاتم النبيين ، قالوا : وقد أرسل الله إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حيّاه الله من أخ وخليفة ، فينعم الأخ ، ونعم الخليفة ، ونعم المحيي جاء . ثم أتى أرواح الأنبياء ، فأثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذي اتخذ إبراهيم خليلاً ، وأعطاني ملكاً عظيماً ، وجعلني أمة قانتاً لله يؤتم بي ، وأتقني من النار ، وجعلها عليّ بزداً وسلاماً . ثم إن موسى ، عليه السلام ، أثنى على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي كلمني تكليماً ، واصطفاني برسالته وكلماته ، وقرّبي إليه نجياً ، وأنزل عليّ التوراة ، وجعل هلاك آل فرعون على يدي ، ونجّى بني إسرائيل على يدي . ثم إن داود ، عليه السلام ، أثنى على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي خولني ملكاً ، وأنزل عليّ الزبور ، والآن لي الحديد ، وسخر لي الطير والجبال ، وأتاني الحكمة وقصّل الحطاب . ثم إن سليمان ، عليه السلام ، أثنى على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي سخر لي الرياح والجن والإنس ، وسخر لي الشياطين يعملون ماشئت من بحاريب وتمائيل ... ، وعلمني منطبق الطير وكل شيء ، وأسأل لي عين القطر (٢) ، وأعطاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي . ثم إن عيسى ، عليه السلام ، أثنى على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي علمني التوراة والإنجيل ، وجعلني أبريء الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذنه ، ورفعني ، وطهرني من الدين كفرها ، وأعادني وأمي من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان عليها سبيل . ثم إن محمداً ﷺ أثنى على ربّه ، فقال : « كلكم قد أثنى على ربّه وإنّي مثن على ربّي ، فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء ، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتي وسطاً ، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون ، وشرح صدري ، ووضع عني وزري ، ورفق لي ذكري ، وجعلني فاتحاً وخاتماً » ، فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمد - ﷺ (٣) .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : لمّا أسري ليلة أسري بالنبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، لقي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ، ثم موسى فلم يكن عنده منها علم ، فتراجعوا الحديث إلى عيسى ، فقال عيسى : عهد الله إليّ فيما دون وجبتها فلا نعلمها ، قال : فذكر من خروج الدجال ، فأهبط فأقتله ، ويرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم بأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فلا يبرون بماء إلا شربوه ، ولا يبرون بشيء إلا أفسدوه ، فيجأرون (٤) إلى الله فيدعون الله فيميتهم ، فتجأر الأرض إلى الله من ريجهم ويجأرون إليّ فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقذفها في البحر ، ثم ينسف الجبال ، وتمد الأرض مدّ الأديم (٥) ، فعهد الله إليّ إذا كان ذلك ؛ فإن الساعة من الناس كالحامل المتيّم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً . قال عبد الله بن مسعود : فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، واقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ (٦) الآية . قال : وجميع الناس من كل مكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب (٧) .

وقد اختلف العلماء في اجتماعه ﷺ بالأنبياء وصلاته بهم أكان قبل عروجه إلى السماء كما دلّت عليه الأحاديث ، أو بعد نزوله منها كما جاء في بعض السياقات ، والراجح أن النبي ﷺ صلى بهم قبل صعوده دون أن يتعرّف على كل واحد منهم على حدة ، ثم عرفه جبريل ، عليه السلام ، بن رآه في السماء - كما سيأتي - ويجوز أن يكونوا في السماء على صور لم يكونوا عليها ببيت المقدس (٨) .

- (١) انظر : سنن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، وصحيح مسلم (ج ١٤٥/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ ... ح ٢٥٩ ، ومجمع الزوائد (ج ٧٧/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٢٢/٢) .
- (٢) القطر : النحاس الذائب ، والحديد الذائب (الوسيط : ج ٧٥٠/٢) .
- (٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٩/٢) .
- (٤) جأز : رفع الصوت واستغاث (النهاية : ج ٢٣٢/١) .
- (٥) الأديم : الجلد ما كان (لسان العرب : ج ٤٥/١) .
- (٦) الأنبياء - ٩٦ - ٩٧ .
- (٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٨٤/٢) وقال : هنا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .
- (٨) انظر : البداية والنهاية (ج ١١١/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٧٤/١ - ٣٧٥) .

عرض الآنية في بيت المقدس :

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من صلاته بالأنبياء ، عليهم السلام ، أتى بقدرين من خمر ولبن ، فنظر إليهما ، ثم أخذ اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذي هدانا لهذا لفطرة ، ولو أخذت الخمر غوت أمتك (١) . وفي رواية : أما إنها ستجرم على أمتك ، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليلاً (٢) .

وفي رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : ثم أتى بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، فقال رسول الله ﷺ : « فسمعت قائلاً يقول حين عرضت عليّ : إن أخذ الماء غرق ، وغرقت أمتك ، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمتك ، وإن أخذ اللبن هدي وهديت أمتك » ، قال : « فأخذت إناء اللبن فشربت منه ، فقال لي جبريل عليه السلام : هديت وهديت أمتك يا محمداً ! » (٣) .

وروى البيهقي بسنده عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « فصليت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذني من العطش أشد ما أخذني ، فأتيت بإناءين ؛ في أحدهما لبن ، وفي الآخر غسل ، أرسل إليّ بهما جميعاً ، فعدلت بينهما ، ثم هداني الله ، عز وجل ، فأخذت اللبن فشربت حتى قرعت به جبيني (٤) ، وبين يدي شيخ منكمي على مشاة لة ، فقال : أخذ صاحبك الفطرة ؛ إن شاء ليهدى » (٥) .

صعود النبي ﷺ في المعراج إلى السماء :

قال النبي ﷺ : لَمَا فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج ، ولم أر شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضر ، فأصعدني صاحبي فيه ، حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء الدنيا ، يقال له باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة ، يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يدي كل ملك اثنا عشر ألف ملك - وكان رسول الله ﷺ يقول حين يحدث بهذا الحديث : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٦) - قال : فقال جبريل لحازن السماء : افتح ، قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد - ﷺ - فقال : وقد أرسل إليه (٧) ؟ قال : نعم ، فقال : مرحباً به وأهلاً ، فنعيم الأخ ونعم الخليفة ونعم المحيي جاء ، فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فإذا فيها رجل قاعد على يمينه أسودة (٨) وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل يساره بكى ، قال : فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فردة السلام ثم قال : مرحباً وأهلاً بالابن الصالح والنبي الصالح ، نعم الابن أنت ، ثم قال جبريل : وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسّم (٩) بنيه تُعرض عليه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سرّ بها وضحك وقال : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، وإذا مرت به روح الكافر منهم أقف منها وكرهها وساء ذلك وبكى وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث (١٠) .

(١) صحيح البخاري (ج ١٢٥/٧) كتاب الأشربة وقول الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ وَالْمَيْسِرُ .. ﴾ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠١/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢/٢) .

(٤) قرع القُدْحُ جبينة : أي ضربته ، يعني أنه شرب جميع ما فيه (النهاية : ج ٤٢/٤) .

(٥) رواه البيهقي في دلائله (ج ٣٥٦/٢) ، والهبي في مجمع الزوائد (ج ٧٢/١) وقال : رواه البزار والطبراني في الكبير إلا أن الطبراني قال فيه : « قد أخذ صاحبك الفطرة وإنه لمهدى » وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي . وقد كان إتيانه ﷺ بالأواني مرتين : مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس وسببه ما وقع له من العطش ، ومرة عند وصوله إلى سدره المنتهى ورؤيته الأنهار الأربعة كما سيأتي . انظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٤٨/٦) . (٦) المدثر : ٣١ .

(٧) أي قد بحث إليه للإسراء وصعود السموات . انظر (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢١٢/٢) .

(٨) الأسودة : جمع قلة لسواد ، والسواد : الشخص ، والسواد والأسودات والأساود : جماعة من الناس (لسان العرب : ج ٢١٤١/٢) .

(٩) نسّم : الواحدة نسمة ، والمراد بها أرواح بني آدم . انظر (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢١٨/٢) .

(١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١/٢ ، ١٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٧/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلاة ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - =

ويقال : بُعث له الأنبياء كلهم ؛ آدم فن دونه ، عليهم السّلام ، ثم أقيمت الصلاة ، فتدافعوا حتى قدموه ﷺ (١) .

وفي رواية : أنه دخل مسجد بيت المقدس فصلّى مع الملائكة ، فلما قضيت الصلاة قالوا : يا جبريل ! من هذا معك ؟ قال : محمد رسول الله وخاتم النبيّين ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حيّاه الله من أخ وخليفة ، فينعم الأخ ، ونعم الخليفة ، ونعم الهجاء جاء . ثم أتى أرواح الأنبياء ، فأثّنوا على ربّهم ، فقال إبراهيم عليه السّلام : الحمد لله الذي اتخذ إبراهيم خليلاً ، وأعطاني ملكاً عظيماً ، وجعلني أمة قانتاً لله يؤتم بي ، وأتقذني من النار ، وجعلها عليّ برّداً وسلاماً . ثم إن موسى ، عليه السّلام ، أثّني على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي كلّمني تكليماً ، واصطفاني برسالته وكلماته ، وقرّبني إليه نجياً ، وأنزل عليّ التّوراة ، وجعل هلاك آل فرعون على يدي ، ونجّى بني إسرائيل على يدي . ثم إن داود ، عليه السّلام ، أثّني على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي خولني ملكاً ، وأنزل عليّ الزّبور ، وألّان لي الحديد ، وسخر لي الطّير والجبال ، وآتاني الحكمة وفصل الحطّاب . ثم إن سليمان ، عليه السّلام ، أثّني على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي سخر لي الرّياح والجنّ والإنس ، وسخر لي الشّياطين يعملون ماشئت من محاريب وتمائيل ... وعلمني منطبق الطّير وكلّ شيء ، وأسأل لي عين القطر (٢) ، وأعطاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي . ثم إن عيسى ، عليه السّلام ، أثّني على ربّه ، فقال : الحمد لله الذي علمني التّوراة والإنجيل ، وجعلني أبرّء الأكمه والأبرص ، وأحبي الموتى بإذنه ، ورفعني ، وطهرني من الذين كفروا ، وأعادني وأمّي من الشّيطان الرّجيم ، فلم يكن للشّيطان عليها سبيل . ثم إن محمداً ﷺ أثّني على ربّه ، فقال : « كلّكم قد أثّنتي على ربّي وإنّي مثنّ على ربّي ، فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين ، وكافةً للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كلّ شيء ، وجعل أمّي خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمّي وسطاً ، وجعل أمّي همّ الأوّلون وهمّ الآخرون ، وشرح صدري ، ووضع عني وزري ، ورفّع لي ذكري ، وجعلني فاتحاً وخاتماً » ، فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمد - ﷺ (٣) .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : لمّا أسري ليلة أسري بالنبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، لقي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ، ثم موسى فلم يكن عنده منها علم ، فتراجعوا الحديث إلى عيسى ، فقال عيسى : عهد الله إليّ فيما دون وحبّتها فلا نعلمها ، قال : فذكر من خروج الدّجال ، فأهبط فأقتله ، ويرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم بأجوج ومأجوج ، وهم من كلّ حدب ينسلون ، فلا يبرون بماء إلا شربوه ، ولا يبرون بشيء إلا أفسدوه ، فيجأرون (٤) إلى الله فيدعون الله فيميتهم ، فتجأر الأرض إلى الله من ربههم ويجأرون إليّ فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقتذفها في البحر ، ثم ينسف الجبال ، وتمدّ الأرض مدّ الأديم (٥) ، فعهد الله إليّ إذا كان ذلك ؛ فإن الساعة من الناس كالحامل المتمدّن لا يدري أهلها متى تنجوهم بولادتها ليلاً أو نهاراً . قال عبد الله بن مسعود : فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ (٦) الآية . قال : وجميع الناس من كلّ مكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب (٧) .

وقد اختلف العلماء في اجتماعه ﷺ بالأنبياء وصلاته بهم أكان قبل عروجه إلى السماء كما دلّت عليه الأحاديث ، أو بعد نزوله منها كما جاء في بعض السياقات ، والراجح أن النبي ﷺ صلى بهم قبل صعوده دون أن يتعرّف على كل واحد منهم على حدة ، ثم عرفه جبريل ، عليه السّلام ، بمن رآه في السماء - كما سيأتي - ويجوز أن يكونوا في السماء على صور لم يكونوا عليها ببيت المقدس (٨) .

- (١) انظر : سنن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، وصحيح مسلم (ج ١٤٥/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ ... ح ٢٥٩ ، وجمع الزوائد (ج ٧٧/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦٢/٢) .
- (٢) القطر : النخاس الذائب ، والحديد الذائب (الوسيط : ج ٧٥٠/٢) .
- (٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٧/٢) .
- (٤) جأر : رفّع الصوت واستغاث (النهاية : ج ٢٣٢/١) .
- (٥) الأديم : الجلد ما كان (لسان العرب : ج ٤٥/١) .
- (٦) الأنبياء : ٩٦ - ٩٧ .
- (٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٨٤/٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .
- (٨) انظر : البداية والنهاية (ج ١١١/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٧٤-٣٧٥) .

عرض الآنية في بيت المقدس :

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من صلواته بالأنبياء ، عليهم السلام ، أتى بقدرين من خمر ولبن ، فنظر إليهما ، ثم أخذ اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولو أخذت الخمر غوت أمتك^(١) . وفي رواية : أما إنها ستجرم على أمتك ، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليلاً^(٢) .

وفي رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : ثم أتى بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، فقال رسول الله ﷺ : « فسمعت قائلاً يقول حين عرضت عليّ : إن أخذ الماء غرق ، وغرقت أمتك ، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمتك ، وإن أخذ اللبن هدي وهديت أمتك » ، قال : « فأخذت إناء اللبن فشربت منه ، فقال لي جبريل عليه السلام : هديت وهديت أمتك يا محمداً ! »^(٣) .

وروى البيهقي بسنده عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « فصليت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذني من العطش أشد ما أخذني ، فأثيت إناءين ؛ في أحدهما لبن ، وفي الآخر عسل ، وأرسل إليّ بها جميعاً ، فعدلت بينهما ، ثم هداني الله ، عز وجل ، فأخذت اللبن فشربت حتى قرغت به جيبيني^(٤) ، وبين يدي شيخ متكىء على مثرأة له ، فقال : أخذ صاحبك الفطرة ؛ إنّه ليهدى »^(٥) .

صعود النبي ﷺ في المعراج إلى السماء :

قال النبي ﷺ : لمتا فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج ، ولم أر شيئاً قط أحسن منه ، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيها إذا حُصر ، فأصعدني صاحبي فيه ، حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء الدنيا ، يقال له باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة ، يقال له إسمايل ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يدي كل ملك اثنا عشر ألف ملك - وكان رسول الله ﷺ يقول حين يحدث بهذا الحديث : ﴿ وَمَا يَتْلُمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾^(٦) - قال : فقال جبريل لحازن السماء : افتح ، قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد - ﷺ - فقال : وقد أرسل إليه^(٧) ؟ قال : نعم ، فقال : مرحباً به وأهلاً ، فنعيم الأخ ونعم الخليفة ونعم الحجيء جاء ، فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فإذا فيها رجل قاعد على يمينه أسودة^(٨) وعلى يساره أسودة ، وإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل يساره بكى ، قال : فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد السلام ثم قال : مرحباً وأهلاً بالابن الصالح والنبي الصالح ، نعم الابن أنت ، ثم قال جبريل : وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسَم^(٩) بنيه تُعرض عليه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سرّ بها وضحك وقال : روح طيبة خرجت من جسد طيب ، وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها وكرهها وساء ذلك وبكى وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث^(١٠) .

- (١) صحيح البخاري (ج ١٣٥/٧) كتاب الأشربة وقول الله تعالى ﴿ إِنَّا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... ﴾ .
- (٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٧/٢) .
- (٣) سيرة ابن هشام (ج ٢/٢) .
- (٤) قرع القدح جيبته : أي صرّبه ، يعني أنه شرب جميع ما فيه (النهاية : ج ٤٢/٤) .
- (٥) رواه البيهقي في دلائله (ج ٣٥٦/٢) ، والهيشي في مجمع الزوائد (ج ٧٢/١) وقال : رواه البراز والطبراني في الكبير إلا أن الطبراني قال فيه : « قد أخذ صاحبك الفطرة وإنه لمهدى » وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي . وقد كان إتيانه ﷺ بالأواني مرتين : مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس وسببه ما وقع له من العطش ، ومرة عند وصوله إلى سدة المنتهى ورؤيته الأناهار الأربعة كما سيأتي . انظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٤٨/٦) . (٦) المدثر : ٣١ .
- (٧) أي قد بحث إليه للإسراء وصعود السموات . انظر (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢١٢/٢) .
- (٨) الأسودة : جمع قلة لسواد ، والسواد : الشخص ، والسواد والأسودات والأساود : جماعة من الناس (لسان العرب : ج ٢١٤١/٣) .
- (٩) نسَم : الواحدة نسمة ، والمراد بها أرواح بني آدم . انظر (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢١٨/٢) .
- (١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١/٢ ، ١٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٧/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلاة ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - =

ويقال: بُعِثَ له الأنبياء كلهم؛ آدم فمن دونه، عليهم السلام، ثم أقيمت الصلاة، فتدافعوا حتى قدموه ﷺ^(١).

وفي رواية: أنه دخل مسجد بيت المقدس فصلّى مع الملائكة، فلما قُضيت الصلاة قالوا: يا جبريل! من هذا معك؟ قال: محمد رسول الله وخاتم النبيين، قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حيّاه الله من أخ وخليفة، فنعمم الأخ، ونعم الخليفة، ونعم الحجيء جاء. ثم أتى أرواح الأنبياء، فأثنوا على ربهم، فقال إبراهيم عليه السلام: الحمد لله الذي اتخذ إبراهيم خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً لله يُؤتمُّ بي، وأتقذني من النار، وجعلها عليّ بَرْداً وسلاماً. ثم إن موسى، عليه السلام، أثنى على ربّه، فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، واصطفاني برسالته وكلماته، وقربني إليه نجياً، وأنزل عليّ التوراة، وجعل هلاك آل فرعون على يدي، ونجّى بني إسرائيل على يدي. ثم إن داود، عليه السلام، أثنى على ربّه، فقال: الحمد لله الذي خولني ملكاً، وأنزل عليّ الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الطير والجمال، وآتاني الحكمة وفصل الخطاب. ثم إن سليمان، عليه السلام، أثنى على ربّه، فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح والجن والإنس، وسخر لي الشياطين يعملون ماشئت من بحاريب وتمائيل...، وعلمني منطبق الطير وكل شيء، وأسأل لي عين القطر^(٢)، وأعطاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي. ثم إن عيسى، عليه السلام، أثنى على ربّه، فقال: الحمد لله الذي علمني التوراة والإنجيل، وجعلني أبريء الأكمة والأبرص، وأحبي الموتى بإذنه، ورفعني، وطهرني من الذين كفروا، وأعادني وأمّي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليها سبيل. ثم إن محمداً ﷺ أثنى على ربّه، فقال: «كُلُّكُمْ قَدْ أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ وَإِنِّي مُثْنٍ عَلَى رَبِّي، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، وَكَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقَانَ فِيهِ نَبِيَّانَ كُلُّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ أُمَّتِي خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَجَعَلَ أُمَّتِي وَسَطًا، وَجَعَلَ أُمَّتِي هُمُ الْأَوْلَىونَ وَهُمْ الْآخِرُونَ، وَشَرَحَ صَدْرِي، وَوَضَعَ عَنِّي وَزْرِي، وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي قَاتِحًا وَخَاتِبًا»، فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد - ﷺ^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: لَمَّا أُسْرِي ليلة أُسْرِي بالنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لقي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم موسى فلم يكن عنده منها علم، فتراجعوا الحديث إلى عيسى، فقال عيسى: عهد الله إليّ فيما دون وجبتّها فلا نعلمها، قال: فذكر من خروج الدجال، فأهبط فأقتله، ويرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم بأجوج ومأجوج، وهم من كلّ حدب ينسلون، فلا يبرون بقاء إلا شربوه، ولا يبرون بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون^(٤) إلى الله فيدعون الله فيميتهم، فتجأر الأرض إلى الله من ريحهم ويجأرون إليّ فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقذفها في البحر، ثم ينسف الجبال، وتمد الأرض مدّ الأديم^(٥)، فعهد الله إليّ إذا كان ذلك؛ فإن الساعة من الناس كالحامل المئتم لا يدري أهلها متى تنجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً. قال عبد الله بن مسعود: فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾^(٦) الآية. قال: وجميع الناس من كلّ مكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب^(٧).

وقد اختلف العلماء في اجتماعه ﷺ بالأنبياء وصلاته بهم أكان قبل عروجه إلى السماء كما دلّت عليه الأحاديث، أو بعد نزوله منها كما جاء في بعض السياقات، والراجح أن النبي ﷺ صلى بهم قبل صعوده دون أن يتعرّف على كل واحد منهم على حدة، ثم عرفه جبريل، عليه السلام، بمن رآه في السماء - كما سيأتي - ويجوز أن يكونوا في السماء على صور لم يكونوا عليها ببيت المقدس^(٨).

- (١) انظر: سنن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة، وصحيح مسلم (ج ١٤٥/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ ... ح ٢٥٩، وجمع الزوائد (ج ٧٧/١)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦٢/٢).
- (٢) القطر: النحاس الذائب، والحديد الذائب (الوسيط: ج ٧٥٠/٢).
- (٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٩/٢).
- (٤) جأر: رفع الصوت واستغاث (النهاية: ج ٢٣٢/١).
- (٥) الأديم: الجلد ما كان (لسان العرب: ج ٤٥/١).
- (٦) الأنبياء: ٩٦ - ٩٧.
- (٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٨٤/٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه، وأقره الذهبي.
- (٨) انظر: البداية والنهاية (ج ١١١/٣)، والسيرة الحلبية (ج ٣٧٤-٣٧٥).

عرض الآنية في بيت المقدس :

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من صلواته بالأنبياء ، عليهم السلام ، أتى بقدرين من خمر ولبن ، فنظر إليهما ، ثم أخذ اللبن ، فقال جبريل : الحمد لله الذي هدك للفطرة ، ولو أخذت الخمر غوت أمتك^(١) . وفي رواية : أما إنها ستجرم على أمتك ، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليلاً^(٢) .

وفي رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : ثم أتى بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، فقال رسول الله ﷺ : « فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ حِينَ عَرَضْتُ عَلَيَّ : إِنَّ أَخَذَ الْمَاءَ غَرَقَ ، وَغَرِقَتْ أُمَّتُهُ ، وَإِنْ أَخَذَ الْخَمْرَ غَوَى وَغَوَتْ أُمَّتُهُ ، وَإِنْ أَخَذَ اللَّبْنَ هَدَيْتُ وَهَدَيْتُ أُمَّتُهُ » ، قال : « فَأَخَذْتُ إِنَاءَ اللَّبَنِ فَشَرِبْتُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هُدَيْتَ وَهَدَيْتَ أُمَّتَكَ يَا مُحَمَّدُ ! »^(٣) .

وروى البيهقي بسنده عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « فَصَلَّيْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَخَذَنِي مِنَ الْعَطَشِ أَشَدَّ مَا أَخَذَنِي ، فَأَتَيْتُ بِإِنَاءَيْنِ ؛ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ ، وَفِي الْآخَرَ عَسَلٌ ، أُرْسِلَ إِلَيَّ بِهُمَا جَمِيعًا ، فَعَدَلْتُ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ هَدَانِي اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَخَذْتُ اللَّبْنَ فَشَرِبْتُ حَتَّى قَرَعْتُ بِهِ جَبِينِي^(٤) ، وَبَيْنَ يَدَيَّ شَيْخٌ مُتَكِيٌّ عَلَى مِثْرَاةٍ لَهُ ، فَقَالَ : أَخَذَ صَاحِبُكَ الْفِطْرَةَ ؛ إِنَّهُ لِيَهْدِي »^(٥) .

صعود النبي ﷺ في المعراج إلى السماء :

قال النبي ﷺ : لَمَّا فَرَضْتُ مِمَّا كَانَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَتَى بِالْمَعْرَاجِ ، وَلَمْ أَرِ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَمُدُّ إِلَيْهِ مَيْتَكُمْ عَيْنِيهِ إِذَا حَضَرَ ، فَأَصْعَدُنِي صَاحِبِي فِيهِ ، حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، يُقَالُ لَهُ بَابُ الْحِفْظَةِ ، عَلَيْهِ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، يُقَالُ لَهُ إِسْمَاعِيلُ ، تَحْتَ يَدَيْهِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَلَكٍ ، تَحْتَ يَدَيَّ كُلِّ مَلَكٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَلَكٍ - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ يَحْدُثُ بِهَذَا الْحَدِيثِ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾^(٦) - قال : فقال جبريل لحازن السماء : افتح ، قال : مَنْ هَذَا ؟ قال : هذا جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد - ﷺ - فقال : وقد أرسل إليه^(٧) ؟ قال : نعم ، فقال : مرحباً به وأهلاً ، فَنِعِمَّ الْأَخُ وَنِعِمَّ الْخَلِيفَةُ وَنِعِمَّ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ^(٨) وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكٌ ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَسَارِهِ بَكَى ، قَالَ : قَفَلْتُ : مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلِّمْتَ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِالْأَبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، نِعِمَّ الْإِبْنُ أَنْتَ ، ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ : وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمٌ^(٩) بِنِيهِ تُعْرَضُ عَلَيْهِ ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَإِذَا مَرَّتْ بِهِ رُوحُ الْمُؤْمِنِ مِنْهُمْ سَرَّ بِهَا وَضَحَكَ وَقَالَ : رُوحٌ طَيِّبَةٌ خَرَجَتْ مِنْ جَسَدِ طَيِّبٍ ، وَإِذَا مَرَّتْ بِهِ رُوحُ الْكَافِرِ مِنْهُمْ أَقْفَ مِنْهَا وَكْرِهَهَا وَسَاءَ ذَلِكَ وَبَكَى وَقَالَ : رُوحٌ خَبِيثَةٌ خَرَجَتْ مِنْ جَسَدِ خَبِيثٍ^(١٠) .

(١) صحيح البخاري (ج ١٣٥/٧) كتاب الأشربة وقول الله تعالى ﴿ إِنَّا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ .. ﴾ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠١/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٣/٢) .

(٤) قرع القَدَحِ جَبِينَهُ : أَي ضَرَبَهُ ، يَعْنِي أَنَّهُ شَرِبَ جَمِيعَ مَا فِيهِ (النهاية : ج ٤٢/٤) .

(٥) رواه البيهقي في دلائله (ج ٣٥٦/٢) ، والهبتني في مجمع الزوائد (ج ٧٢/١) وقال : رواه البزار والطبراني في الكبير إلا أن الطبراني قال فيه : « قد

أخذ صاحبك الفطرة وإنه لمهدى » وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي . وقد كان إتيانه ﷺ بالأواني مرتين : مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس وسببه ما وقع له من العطش ، ومرة عند وصوله إلى سدره المنتهى ورؤيته الأنهار الأربعة كما سيأتي . انظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٤٨/٦) .

(٦) المدثر : ٣١ .

(٧) أي قد بُعثَ إليه للإسراء وصعود السموات . انظر (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢١٢/٢) .

(٨) الأَسْوَدَةُ : جَمِيعُ قَلَّةِ لِسَوَادٍ ، وَالسَّوَادُ : الشَّخْصُ ، وَالسَّوَادُ وَالْأَسْوَدَاتُ وَالْأَسَاوِدُ : جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ (لسان العرب : ج ٢١٤١/٣) .

(٩) نَسَمٌ : الْوَاحِدَةُ نَسَمَةٌ ، وَالرَّاءُ بِهَا أُرْوَاحُ بَنِي آدَمَ . انظر (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٢١٨/٢) .

(١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١/٢ ، ١٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٧/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلاة ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - =

- رؤية النبي ﷺ النار وفماذج من عذاب أهلها :

ثم عرضت النار على النبي ﷺ في السماء الدنيا ، قال : « فإذا فيها غضب الله ورجزة ونفثته ، لو طرح فيها الحجارة والحديد لا كئتها ، ثم أغلقت ذوني » (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم عن حدثه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يلقني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعو به ، حتى لقيتني ملك من الملائكة ، فقال : مثل ما قالوا ، ودعا بمثل ما دعوا به ، إلا أنه لم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره ، فقلت لجبريل : يا جبريل ! من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيت منهم ؟ قال : فقال لي جبريل : أما إنه لو كان ضحك إلى أحد كان قبلك ، أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك خازن النار ، فقال رسول الله ﷺ : فقلت لجبريل - وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم ﴿ مطاع ثم أمين ﴾ (٢) - : ألا تأمره أن يريتي النار ، فقال : بلى ، يا مالك ! أن محمداً النار ، قال : فكشفت عنها غطاءها ، ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى ، قال : فقلت لجبريل : يا جبريل ! مره فليزدها إلى مكانها ، قال : فأمره ، فقال لها : اخبي (٣) ، فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه ، فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت ردت عليها غطاءها » (٤) .

وقد رأى رسول الله ﷺ صوراً لرجال ونساء يعدون ، فعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لما دخلت السماء الدنيا ... رأيت رجالاً لهم مشافر (٥) كمشافر الإبل ، في أيديهم قطع من نار كالأفهار (٦) يقدفونها في أفواههم فتخرج من أذبارهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً .

قال : ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلاً قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة (٧) حين يعرضون على النار يطؤونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك ، قال : قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا - وفي لفظ : أنه أتى على أقوام بطونهم أمثال البيوت فيها الحيات ترى من خارج البطون ، كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة ، وهم على سائبة آل فرعون ، فتجيء السائبة فتطوهم ، فسمعتهم يضحون إلى الله ، قلت : يا جبريل ! من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أممك الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .

قال : ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث (٨) ممتين ، يأكلون من الغث الممتين ويتركون السمين الطيب ، قال : قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

قال : ثم رأيت نساء معلقات بشديهن ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من

= باب المعراج ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ، وجمع الزوائد (ج ٦٩/١) .

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٤/٢) .

(٢) التكوير : ٢١ .

(٣) حيت النار تحبو : سكتت وحمدت لها (الوسيط : ج ٢١٦/١) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١١٢) .

(٥) المشافر : جمع مشفر ، والمشفر للبعير كالشفة للإنسان (لسان العرب : ج ٢٢٨٨/٢) .

(٦) الأفهار : جمع فهر ، وهو الحجر ملاء الكف ، وقيل : هو الحجر مطلقاً . وقد تقدم .

(٧) الهيام : داء يشبه الحمى يأخذ الإبل فيكسبها العطش الشديد ، فتهم في الأرض لا تزوي ولا ترعى حتى تهلك . انظر : (لسان العرب : ج ٤٧٤٠/١) .

(٨) غث اللحم : فسدت (الوسيط : ج ٦٥٠/٢) .

أولادهم» (١). قال رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فأكل حرائبهم (٢) وأطلع على عوراتهم » (٣).

وروي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي ربي ، عز وجل ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » (٤).

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ نظر في السار فإذا قوم يأكلون الجيف ، فقال : « من هؤلاء يا جبريل ؟ » قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلاً أحمر أزرق جعداً شعثاً إذا رأته ، قال : « من هذا يا جبريل ؟ » قال : هذا عاقرة الناقة (٥).

وفي رواية أن النبي ﷺ رأى أقواماً تقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ، فيقال لأحدهم : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، فقال : « يا جبريل ! من هؤلاء ؟ » قال : هؤلاء الهمازون من أمتك الهمازون .

ورأى أخوته (٦) عليها لحم طيب مشرح ليس يقر بها أحد ، وأخوته أخرى عليها لحم قد أروح (٧) وتئن ، عندها أناس يأكلون منها ، فقال ﷺ : « يا جبريل ! من هؤلاء ؟ » قال : هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام (٨).

- صعود النبي ﷺ في السماوات السبع :

ثم عرج بالنبي ﷺ إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، عليه السلام ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : من معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولينعم الهيء جاء ، قال النبي ﷺ : « ففتح لنا ، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ، فقابلا : مرحباً بك من أخ ونبى » . وفي بعض الروايات التي حكم عليها بالشدوذ أنها في السماء الثالثة .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قيل : جبريل ، قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولينعم الهيء جاء ، قال ﷺ : « ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف صورته كصورة القمر ليلة البدر ، فسلمت عليه ، قال : مرحباً بك من أخ ونبى » .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ، قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولينعم الهيء جاء ، قال ﷺ : « ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من أخ ونبى » ، قال ﷺ : ﴿ وَرَفَعْنَا مَكَاناً عَلِيًّا ﴾ (٩) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٥٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٢/٢) .

(٢) الحرائب : جمع حربية ، وهو مال الرجل الذي يقوم به امرأة (النهاية : ج ٣٥٩/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢) .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٤/٢) .

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٢٥٧/١) .

(٦) الأخوته : جمع خوان ، وهو ما يؤكل عليه (لسان العرب : ج ٢٦٢/٢) .

(٧) أروح اللحم : تعيرت رائحته ، وكذلك الماء (لسان العرب : ج ١٧٦٥/٣) .

(٨) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٢/٢) .

(٩) مريم : ٥٧ .

- رُؤْيَةُ النَّبِيِّ ﷺ النَّارِ وَمَآذِجَ مِنْ عَذَابِ أَهْلِهَا :

ثمَّ عَرَضَتِ النَّارَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، قَالَ : « فَإِذَا فِيهَا غَضَبُ اللَّهِ وَرِجْزُهُ وَنِقْمَتُهُ ، لَوَطَّرِحَ فِيهَا الْحِجَارَةَ وَالْحَدِيدَ لِأَكْلَتِهَا ، ثُمَّ أَعْلَقْتُ دُونِي » (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم عن حدثه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تَلَقَّتْنِي الْمَلَائِكَةُ حِينَ دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَلْقَنِي مَلَكٌ إِلَّا ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا ، يَقُولُ خَيْرًا وَيَدْعُو بِهِ ، حَتَّى لَقِيَنِي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ : مِثْلَ مَا قَالُوا ، وَدَعَا بِمِثْلِ مَا دَعَوْا بِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَضْحَكْ ، وَلَمْ أَرِ مِنْهُ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلَ مَا رَأَيْتُ مِنْ غَيْرِهِ ، فَقُلْتُ لِجَبْرِئِيلَ : يَا جَبْرِئِيلُ ! مَنْ هَذَا الْمَلَكُ الَّذِي قَالَ لِي كَمَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ وَلَمْ يَضْحَكْ وَلَمْ أَرِ مِنْهُ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : فَقَالَ لِي جَبْرِئِيلُ : أَمَّا إِنَّهُ لَوْ كَانَ ضَحِكَ إِلَى أَحَدٍ كَانَ قَبْلَكَ ، أَوْ كَانَ ضَاحِكًا إِلَى أَحَدٍ بَعْدَكَ لَضَحِكَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَضْحَكُ ، هَذَا مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَقُلْتُ لِجَبْرِئِيلَ - وَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَكَانِ الَّذِي وَصَفَ لَكُمْ : ﴿ مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ ﴾ (٢) - : أَلَا تَأْمُرُهُ أَنْ يَرِيَنِي النَّارَ ، فَقَالَ : بَلَى ، يَا مَالِكُ ! أَرِ مُحَمَّدًا النَّارَ ، قَالَ : فَكَشَفَ عَنْهَا غِطَاءَهَا ، فَفَارَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَأْخُذَنِّي مَا أَرَى ، قَالَ : فَقُلْتُ لِجَبْرِئِيلَ : يَا جَبْرِئِيلُ ! مَرَّةً فَلْيُرِدْهَا إِلَيَّ مَكَانِهَا ، قَالَ : فَأَمَرَهُ ، فَقَالَ لَهَا : اخْبِي (٣) ، فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ ، فَمَا شَبِهَتْ رُجُوعَهَا إِلَّا وَقُوعَ الظِّلِّ ، حَتَّى إِذَا دَخَلْتُ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتُ رَدَّ عَلَيْهَا غِطَاءَهَا » (٤) .

وقد رأى رسول الله ﷺ صوراً لرجال ونساء يعذبون ، فعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لَمَّا دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ... رَأَيْتُ رِجَالًا لَهُمْ مَشَافِرُ (٥) كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ ، فِي أَيْدِيهِمْ قِطْعٌ مِنْ نَارٍ كَالْأَفْهَارِ (٦) يَقْدِفُونَهَا فِي أَفْوَاهِهِمْ فَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ أَكَلَتْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا .

قال : ثُمَّ رَأَيْتُ رِجَالًا لَهُمْ بَطُونَ لَمْ أَرِ مِثْلَهَا قَطُّ بِسَبِيلِ آلِ فِرْعَوْنَ يَمْرُونَ عَلَيْهِمْ كَالْإِبِلِ الْمَهْيُومَةِ (٧) حِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ يَطْوُونَ وَنَهْمٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْ مَكَانِهِمْ ذَلِكَ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ أَكَلَتْ الرَّبَا - وَفِي لَفْظٍ : أَنَّهُ أَتَى عَلَى أَقْوَامٍ بَطُونُهُمْ أَمْثَالُ الْبُيُوتِ فِيهَا الْحَيَاتُ تَرَى مِنْ خَارِجِ الْبَطُونِ ، كَمَا نَهَضَ أَحَدُهُمْ خَرَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ ، وَهُمْ عَلَى سَابِلَةِ آلِ فِرْعَوْنَ ، فَتَجِيءُ السَّابِلَةُ فَتَطْوُهُمْ ، فَسَمِعْتُهُمْ يَضْجُونَ إِلَى اللَّهِ ، قُلْتُ : يَا جَبْرِئِيلُ ! مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرَّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .

قال : ثُمَّ رَأَيْتُ رِجَالًا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ سَبِينٌ طَيِّبٌ إِلَى جَنْبِهِ لَحْمٌ غَثٌ (٨) مُثْنِينَ ، يَأْكُلُونَ مِنَ الْغَثِّ الْمُثْنِينَ وَيَتْرَكُونَ السَّبِينِ الطَّيِّبِ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتْرَكُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّسَاءِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْهُنَّ .

قال : ثُمَّ رَأَيْتُ نِسَاءً مَعْلَقَاتٍ بِشُدِيِّهِنَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ اللَّائِي أَدْخَلْنَ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ لَيْسَ مِنْ

= باب المعراج ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، وجمع الزوائد (ج ٦٩/١) .

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٤/٢) .

(٢) التكوير : ٢١ .

(٣) حَبَّتِ النَّارُ تَخْبُو : سَكَنَتْ وَخَمَدَ لَهَا (الوسيط : ج ٢١٦/١) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١١٢) .

(٥) الْمَشَافِرُ : جُمُوعُ مَشْفَرٍ ، وَالْمَشْفَرُ اللَّعْبُورُ كَالشَّفَةِ لِلْإِنْسَانِ (لسان العرب : ج ٢٢٨٨/٢) .

(٦) الْأَفْهَارُ : جَمْعُ فَهْرٍ ، وَهُوَ الْحَجَرُ مِلءَ الْكَفِّ ، وَقِيلَ : هُوَ الْحَجَرُ مُطْلَقًا . وقد تقدم .

(٧) الْهَيَامُ : دَاءٌ يُشْبِهُ الْحُمَّى يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَيَكْسِبُهَا الْعَطَشَ الشَّدِيدَ ، فَتَهْمُ فِي الْأَرْضِ لَا تَرُؤَى وَلَا تَرَعَى حَتَّى تَهْلِكَ . انظر : (لسان العرب :

ج ٤٧٤٠/١) .

(٨) غَثٌ اللَّحْمُ : فَسَدٌ (الوسيط : ج ٦٥٠/٢) .

أولادهم» (١). قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فأكل خرايبهم» (٢) وأطلع على غوراتهم» (٣).

وروي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي ربي، عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» (٤).

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ نظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، فقال: «من هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى رجلاً أحمر أزرق جعداً شعناً إذا رأته، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: هذا عاقرة الناقة» (٥).

وفي رواية أن النبي ﷺ رأى أقواماً تقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون، فيقال لأحدهم: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك، فقال: «يا جبريل! من هؤلاء؟» قال: هؤلاء الهمازون من أمتك الهمازون.

ورأى أخوثة (٦) عليها لحم طيب مشرح ليس يقر بها أحد، وأخوثة أخرى عليها لحم قد أروح (٧) وتتن، عندها أناس يأكلون منها، فقال ﷺ: «يا جبريل! من هؤلاء؟» قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام» (٨).

- صعود النبي ﷺ في السماوات السبع :

ثم عرج بالنبي ﷺ إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المحييء جاء، قال النبي ﷺ: «ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، فقالا: مرحباً بك من أخ ونبى». وفي بعض الروايات التي حكم عليها بالشذوذ أنها في السماء الثالثة.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المحييء جاء، قال ﷺ: «ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صورته كصورة القمر ليلة البدر، فسلمت عليه، قال: مرحباً بك من أخ ونبى».

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المحييء جاء، قال ﷺ: «ففتح لنا، فإذا أنا بياذريس، فسلمت عليه، فقال: مرحباً بك من أخ ونبى»، قال ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا مَكَاناً عَلِيًّا﴾ (٩).

(١) سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢)، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٥٢/٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٢/٢).

(٢) الخرايب: جمع خريبة، وهو مال الرجل الذي يقوم به امرأة (النهاية: ج ٣٥٩/١).

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢).

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٤/٣).

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٢٥٧/١).

(٦) الأخوثة: جمع خوان، وهو ما يؤكل عليه (لسان العرب: ج ٢٦٢/٢).

(٧) أروح اللحم: تغيرت رائحته، وكذلك الماء (لسان العرب: ج ١٧٦٥/٣).

(٨) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٢/٢).

(٩) مريم: ٥٧.

- رؤية النبي ﷺ النار وماذج من عذاب أهلها :

ثم عرضت النار على النبي ﷺ في السماء الدنيا ، قال : « فإذا فيها غضب الله ورجزه ونقمة ، لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أغلقت دُوني » (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم عن حديثه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تَلَقَّنِي الْمَلَائِكَةُ حِينَ دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَلْقَنِي مَلَكٌ إِلَّا ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا ، يَقُولُ خَيْرًا وَيَدْعُو بِهِ ، حَتَّى لَقِيَنِي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ : مِثْلَ مَا قَالُوا ، وَدَعَا بِمِثْلِ مَا دَعَوْا بِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَضْحَكْ ، وَلَمْ أَرِ مِنْهُ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلَ مَا رَأَيْتُ مِنْ غَيْرِهِ ، فَقُلْتُ لِجَبْرِئِيلَ : يَا جَبْرِئِيلُ ! مَنْ هَذَا الْمَلَكُ الَّذِي قَالَ لِي كَمَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ وَلَمْ يَضْحَكْ وَلَمْ أَرِ مِنْهُ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : فَقَالَ لِي جَبْرِئِيلُ : أَمَّا إِنَّهُ لَوْ كَانَ ضَحِكَ إِلَى أَحَدٍ كَانَ قَبْلَكَ ، أَوْ كَانَ ضَاحِكًا إِلَى أَحَدٍ بَعْدَكَ لَضَحِكَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَضْحَكُ ، هَذَا مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَقُلْتُ لِجَبْرِئِيلَ - وَهُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَكَانِ الَّذِي وَصَفَ لَكُمْ ﴿ مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ ﴾ (٢) - : أَلَا تَأْمُرُهُ أَنْ يُرِيَنِي النَّارَ ، فَقَالَ : بَلَى ، يَا مَالِكُ ! أَرِ مُحَمَّدًا النَّارَ ، قَالَ : فَكَشَفَ عَنْهَا غِطَاءَهَا ، فَسَارَتْ وَارْتَمَعَتْ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَأْخُذَنِّي مَا أَرَى ، قَالَ : فَقُلْتُ لِجَبْرِئِيلَ : يَا جَبْرِئِيلُ ! مَرَّةً فَلْيُرِدْهَا إِلَيَّ مَكَانَهَا ، قَالَ : فَأَمَرَهُ ، فَقَالَ لَهَا : اخْبِي (٣) ، فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ ، فَمَا شَبَّهَتْ رُجُوعَهَا إِلَّا وَقُوعَ الظِّلِّ ، حَتَّى إِذَا دَخَلْتُ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتُ رَدَّ عَلَيْهَا غِطَاءَهَا » (٤) .

وقد رأى رسول الله ﷺ صوراً لرجال ونساء يعذبون ، فعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لَمَّا دَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ... رَأَيْتُ رِجَالًا لَهُمْ مَشَافِرُ (٥) كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ ، فِي أَيْدِيهِمْ قِطْعٌ مِنْ نَارٍ كَالْأَفْهَارِ (٦) يَقْدِفُونَهَا فِي أَفْوَاهِهِمْ فَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا .

قال : ثُمَّ رَأَيْتُ رِجَالًا لَهُمْ بَطُونَ لَمْ أَرِ مِثْلَهَا قَطُّ بِسَبِيلِ آلِ فِرْعَوْنَ يَمْرُونَ عَلَيْهِمْ كَالْإِبِلِ الْمُهَيَّوْمَةِ (٧) حِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ يَطْوُونَ نَهْمًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْ مَكَانِهِمْ ذَلِكَ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرَّبَا - وَفِي لَفْظٍ : أَنَّهُ أُنِيَ عَلَى أَقْوَامٍ بَطُونُهُمْ أَمْثَالُ الْبُيُوتِ فِيهَا الْحَيَاتُ تَرَى مِنْ خَارِجِ الْبَطُونِ ، كَمَا نَهَضَ أَحَدُهُمْ خَرَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ ، وَهِيَ عَلَى سَابِلَةِ آلِ فِرْعَوْنَ ، فَتَجِيءُ السَّابِلَةُ فَتَطْوِيهِمْ ، فَسَمِعْتُهُمْ يَضْحَكُونَ إِلَى اللَّهِ ، قُلْتُ : يَا جَبْرِئِيلُ ! مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرَّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .

قال : ثُمَّ رَأَيْتُ رِجَالًا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ سَبِينٌ طَيِّبٌ إِلَى جَنِبِهِ لَحْمٌ غَثٌ (٨) مُنْتِنٌ ، يَأْكُلُونَ مِنَ الْغَثِّ الْمُنْتِنِ وَيَتْرَكُونَ السَّبِينِ الطَّيِّبِ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتْرَكُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّسَاءِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْهُنَّ .

قال : ثُمَّ رَأَيْتُ نِسَاءً مُعَلَّقَاتٍ بِشُدِيِّهِنَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ اللَّائِي أَدْخَلَنَ عَلَى الرِّجَالِ مَنْ لَيْسَ مِنْ

= باب المراج ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، ومجمع الزوائد (ج ٦٩/١) .

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٤/٢) .

(٢) التكوير : ٢١ .

(٣) حَبَّتِ النَّارُ تَخْبُو : سَكَنَتْ وَخَفَتْ لَهَا بِهَا (الوسيط : ج ٢١٦/١) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١١٢) .

(٥) الْمَشَافِرُ : جَمْعُ مَشْفَرٍ ، وَالْمَشْفَرُ اللَّبْعِيرُ كَالشَّفَةِ لِلْإِنْسَانِ (لسان العرب : ج ٢٢٨٨/٢) .

(٦) الْأَفْهَارُ : جَمْعُ فَهْرٍ ، وَهُوَ الْحَجَرُ مِثْلُ الْكَفِّ ، وَقِيلَ : هُوَ الْحَجَرُ مُطْلَقًا . وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٧) الْمِيَامُ : دَاءٌ يُشْبِهُ الْحُمَى يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَيَكْسِبُهَا الْعَطَشَ الشَّدِيدَ ، فَتَمِيءُ فِي الْأَرْضِ لَا تُرَوَى وَلَا تُرْعَى حَتَّى تَهْلِكَ . انظر : (لسان العرب :

ج ٤٧٤٠/٦) .

(٨) غَثُّ اللَّحْمِ : فَسَدٌ (الوسيط : ج ٦٥٠/٢) .

أولادهم» (١). قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فأكل حرائبهم» (٢) واطلغ على عوراتهم» (٣).

وروي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي ربي، عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» (٤).

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ نظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، فقال: «من هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ورأى رجلاً أحمر أزرق جعداً شعناً إذا رأته، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: هذا عاقرة الناقة» (٥).

وفي رواية أن النبي ﷺ رأى أقواماً تقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون، فيقال لأحدهم: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك، فقال: «يا جبريل! من هؤلاء؟» قال: هؤلاء الممازون من أمتك اللمازون.

ورأى أخوته (٦) عليها لحم طيب مشرح ليس يقربها أحد، وأخوته أخرى عليها لحم قد أروح (٧) وتتن، عندها أناس يأكلون منها، فقال ﷺ: «يا جبريل! من هؤلاء؟» قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام» (٨).

- صعود النبي ﷺ في السموات السبع:

ثم عرج بالنبي ﷺ إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم الحجيء جاء، قال النبي ﷺ: «ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، فقالا: مرحباً بك من أخ ونبى». وفي بعض الروايات التي حكم عليها بالشذوذ أنها في السماء الثالثة.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم الحجيء جاء، قال ﷺ: «ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صورته كصورة القمر ليلة البدر، فسلمت عليه، قال: مرحباً بك من أخ ونبى».

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم الحجيء جاء، قال ﷺ: «ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فسلمت عليه، فقال: مرحباً بك من أخ ونبى، قال ﷺ: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾» (٩).

(١) سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢)، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٥٢/٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٢/٢).

(٢) الحرائب: جمع حريبة، وهو مال الرجل الذي يقوم به امرأة (النهاية: ج ٣٥٩/١).

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢).

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٤/٣).

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٢٥٧/١).

(٦) الأخوة: جمع خوان، وهو ما يؤكل عليه (لسان العرب: ج ٢٦٢/٢).

(٧) أروح اللحم: تغيرت رائحته، وكذلك الماء (لسان العرب: ج ١٧٦٥/٣).

(٨) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٢/٢).

(٩) مريم: ٥٧.

ثمَّ عَرَّجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيْلَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيْلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلِنِعْمِ الْحَمِيءِ جَاءَ ، قَالَ ﷺ : « فَفَتَحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخِي وَنَبِيِّ » . وَفِي لَفْظٍ : « فَإِذَا فِيهَا كَهْلُ أَبِيضِ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ ، عَظِيمِ الْعُثُونِ ^(١) ، لَمْ أَرَ كَهْلًا أَجْمَلَ مِنْهُ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْمُحَبَّبُ ^(٢) فِي قَوْمِهِ هَارُونَ بْنُ عِمْرَانَ » .

ثمَّ عَرَّجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيْلَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيْلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ ﷺ : « فَفَتَحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ، فَسَلَّمْتُ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخِي وَنَبِيِّ » - وَفِي لَفْظٍ : « فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ آدَمٌ طَوِيلٌ أَفْنَى ، كَأَنَّ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ » - فَلَمَّا جَاوَزَهُ بَنِي ، فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : تَرَعَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَفْضَلُ الْخَلْقِ ، وَهَذَا قَدْ خَلَفَنِي ، فَلَوْ أَنَّهُ وَحْدَهُ وَلَكِنْ مَعَهُ كُلُّ أُمَّتِهِ ^(٣) .

رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ جَعَلَ يَمُرُّ بِالنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّينَ وَمَعَهُمُ الْقَوْمُ ، وَالنَّبِيُّ وَالنَّبِيِّينَ وَمَعَهُمُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ وَالنَّبِيِّينَ وَلَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ ، حَتَّى مَرَّ بِسَوَادٍ عَظِيمٍ ، فَقُلْتُ : « مَنْ هَذَا ؟ » قِيلَ : مُوسَى وَقَوْمُهُ ؛ وَلَكِنْ أَرْفَعُ رَأْسَكَ فَانظُرْ ، قَالَ : فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ مِنْ ذَا الْجَانِبِ وَمِنْ ذَا الْجَانِبِ ، فَقِيلَ : هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَسِوَى هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِكَ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ . فَدَخَلَ وَلَمْ يَسْأَلُوهُ وَلَمْ يَفْسَرْ لَهُمْ ، فَقَالُوا : نَحْنُ هُمْ ، وَقَالَ قَائِلُونَ : هُمْ أَبْنَاؤُنَا الَّذِينَ وَلِدُوا عَلَى الْفِطْرَةِ وَالْإِسْلَامِ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ ^(٤) وَلَا يَسْتَرْقُونَ ^(٥) وَلَا يَتَطَبَّرُونَ ^(٦) وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » . فَخَامَ عَكَاشَةَ بْنِ مُحْصِنٍ فَقَالَ : أَنَا مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، ثُمَّ قَامَ آخِرَ فَقَالَ : أَنَا مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ : « سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ » ^(٧) .

ثمَّ عَرَّجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيْلَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيْلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَنِعْمِ الْحَمِيءِ جَاءَ ، قَالَ ﷺ : « فَفَتَحَ لَنَا ، فَإِذَا بِإِبْرَاهِيمَ رَجُلٍ أَشْمَطٍ ^(٨) - وَفِي لَفْظٍ : كَهْلٌ - جَالِسٍ عَلَى كُرْسِيِّ إِلَى بَابِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، لَمْ أَرَ رَجُلًا أَشْبَهَ بِصَاحِبِكُمْ وَلَا صَاحِبِكُمْ أَشْبَهَ بِهِ مِنْهُ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِكَ مِنْ ابْنِ وَنَبِيِّ » ^(٩) .

رَوَى أَنَّ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَرَّ أُمَّتُكَ فَلْيَكْثُرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ ؛ فَإِنَّ تَرْتِبَهَا طَيِّبَةٌ ، وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ ، فَقَالَ : « وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ ؟ » قَالَ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ^(١٠) .

(١) الْعُثُونُ : اللَّحْيَةُ (النِّهَايَةُ : ج ١٨٢/٣) .

(٢) فِي رِوَايَةٍ : الْمُحَبَّبُ .

(٣) انظُر : سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ (ج ١٢/٢ ، ١٤) ، وَصَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (ج ١٣٢/٤) كِتَابُ بَدَأِ الْخَلْقِ - بَابُ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ ، وَ (ج ٦٧/٥) كِتَابُ الْمَنَاقِبِ - بَابُ الْمِعْرَاجِ ، وَجَمْعُ الزَّوَائِدِ (ج ٧٠/١) .

(٤) يَكْتُمُونَ : مِنَ الْكَيِّْ بِالنَّارِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ النَّهْيُ عَنِ الْكَيِّْ ، فَقِيلَ : إِنَّمَا نَهَى عَنْهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُعْظَمُونَ أَمْرَهُ ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ يَحْضِمُ النَّارَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ عَنْهُ مِنْ قَبْلِ التَّوَكُّلِ كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ (النِّهَايَةُ : ج ٢١٢/٤) .

(٥) الرُّقِيَّةُ : الْعَوْدَةُ الَّتِي يُرْفَعُ بِهَا صَاحِبُ الْأَفَقِ كَالْحُمَى وَالصَّرْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَفَاتِ (النِّهَايَةُ : ج ٢٥٤/٢) .

(٦) الطَّيْرَةُ : التَّشَاؤُمُ بِالشَّيْءِ (النِّهَايَةُ : ج ١٥٢/٣) .

(٧) سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ (ج ٦٣١/٤) كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ - بَابُ ١٦ ح ٢٤٤٦ ، وَقَالَ أَبُو عِيْسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٨) الشَّطُّ : الشُّبُّ (النِّهَايَةُ : ج ٥٠١/٢) .

(٩) انظُر : سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ (ج ١٤/٢) ، وَصَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (ج ١٣٢/٤) كِتَابُ بَدَأِ الْخَلْقِ - بَابُ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ ، وَ (ج ٦٧/٥) كِتَابُ الْمَنَاقِبِ - بَابُ الْمِعْرَاجِ ، وَجَمْعُ الزَّوَائِدِ (ج ٧٠/١) .

(١٠) مَسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ (ج ٤١٨/٥) .

وفي رواية أخرى : قال له : أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان^(١) ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر^(٢) .

- دخول النبي ﷺ الجنة وما رآه فيها :

قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّوْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ ، وَإِذَا أَنَا بِأَنْهَارٍ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَإِذَا رُمَاتُهَا كَأَنَّ الدَّلَاءَ عَطْفًا ، وَإِذَا أَنَا بِطَيْرٍ كَالْبَحَائِبِ^(٣) هَذِهِ » فقال عندها ﷺ وهو يحدث أصحابه : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »^(٤) .

روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه لما صعد إلى السماء السابعة استفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حياها الله من أخ وخليفة ، فنعيم الأخ ، ونعيم الخليفة ، ونعيم الهجيء جاء ، فدخل فإذا برجل أشمط جالس على كرسي عند باب الجنة ، وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه ، وفي ألوانهم شيء ، فأتوا نهراً فاغتسلوا فيه ، فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم إنهم أتوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا وقد خلصت من ألوانهم مثل ألوان أصحابهم ، فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : « يا جبريل ! مَنْ هَؤُلَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، وَهَؤُلَاءِ السُّودُ فِي الْوُجُوهِ شَيْءٌ فَدَخَلُوا النَّهْرَ فَخَرَجُوا وَقَدْ خَلَصَتْ أَلْوَانُهُمْ ؟ » فقال : هذا أبوك إبراهيم هو أول رجل شمط على وجه الأرض ، وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم تلبسوا إيمانهم بظلم ، قال : وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء : خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم ، فأما النهر الأول فرحمة الله ، وأما النهر الثاني فنعمة الله ، وأما النهر الثالث فسقام ربهم شراباً طهوراً^(٥) .

- رؤيته ﷺ نهر الكوثر : قال رسول الله ﷺ : « بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ وَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَأْقُوتِ ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ التَّلْجِ »^(٦) .

وفي رواية عنه ﷺ قال : « أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَّتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ مَجْوُفًا »^(٧) - وفي رواية أخرى : « عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبْرُجِدٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جَبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكُوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ »^(٨) .

وقد روي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وقيل له : يا رسول الله ! ما الكوثر الذي أعطاك الله ؟ قال : « نَهْرٌ كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى أَيْلَةَ ، أَنْبَسَةُ كَعْدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ ، تَرِدُهُ طَيْرٌ لَهَا أَعْنَاقٌ كَأَعْنَاقِ الْإِبِلِ » ، قال : يقول عمر بن الخطاب : إنها يا رسول الله لناعمة ، قال : « أَكَلَهَا أَنْعَمُ مِنْهَا »^(٩) .

(١) قيعان : جمع قاع ، وهو المكان المستوي في وطاء من الأرض يعملوه ماء السماء فيمسيكه ويستوي نباته (النهاية : ج ١٣٢/٤) .

(٢) انظر : سنن الترمذي (ج ٥١٠/٥) كتاب الدعوات - باب ٥٩ ح ٣٤٦٢ .

(٣) البَحَائِبُ وَالْبَحْتُ : جَمَالٌ طَوَالَ الْأَعْنَاقِ ، وَاحِدَتُهَا : الْبَحْتِيَّةُ (النهاية : ج ١٠١/٨) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٨/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٤/٢) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠١/٢) .

(٦) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٨٩/٢) ، وسنن الترمذي (ج ٤٥٠/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الكوثر ح ٣٣٦١ .

(٧) صحيح البخاري (ج ٢١٩/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ ﴾ .

(٨) انظر صحيح البخاري (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ .

(٩) سيرة ابن هشام (ج ٤٢٢/١) .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم الحجيء جاء ، قال ﷺ : « ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون ، فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من أخٍ ونبي » . وفي لفظ : « فإذا فيها كهلٌ أبيض الرأس واللحية ، عظيم العنقون^(١) ، لم أر كهلاً أجمل منه ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا المحبب^(٢) في قومه هارون بن عمران » .

ثم عرج به إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال ﷺ : « ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى ، فسلمت ، فقال : مرحباً بك من أخٍ ونبي » - وفي لفظ : « فإذا فيها رجلٌ آدمٌ طويلٌ أفتى ، كأنه من رجالِ سنوءة ، فقلت له : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران » - فلكمًا جاوزه بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : تزعم بنو إسرائيل أنني أفضل الخلق ، وهذا قد خلفني ، فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته^(٣) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لما أري بالذي جعل ﷺ جعل يمر بالنبي والنبيين ومعهم القوم ، والنبي والنبيين ومعهم الرهط ، والنبي والنبيين وليس معهم أحد ، حتى مر بسواد عظيم ، فقلت : « من هذا ؟ » قيل : موسى وقومه ؛ ولكن ارفع رأسك فانظر ، قال : فإذا سواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب ، فقيل : هؤلاء أمتك وسوى هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب . فدخل ولم يسألوه ولم يسألهم ، فقالوا : نحن هم ، وقال قائلون : هم أبناؤنا الذين ولدوا على الفطرة والإسلام ، فخرج النبي ﷺ فقال : « هم الذين لا يكتنون^(٤) ولا يسترقون^(٥) ولا يتطبرون^(٦) وعلى ربهم يتسكنون » . فقام عكاشة بن محصن فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، ثم قام آخر فقال : أنا منهم ؟ فقال : « سبقك بها عكاشة »^(٧) .

ثم عرج به ﷺ إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ونعم الحجيء جاء ، قال ﷺ : « ففتح لنا ، فإذا بإبراهيم رجلٌ أشط^(٨) - وفي لفظ : كهل - جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه حتى تقوم الساعة ، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه ، فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من ابنٍ ونبي »^(٩) .

روي أن سيدنا إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، قال للنبي ﷺ : مر أمتك فليكثرُوا من غراس الجنة ؛ فإن تربتها طيبة ، وأرضها واسعة ، فقال : « وما غراس الجنة ؟ » قال : لا حول ولا قوة إلا بالله^(١٠) .

(١) العنقون : اللحية (النهاية : ج ١٨٣/٣) .

(٢) في رواية : المحبب .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢ ، ١٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٢/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - باب المعراج ، وجمع الزوائد (ج ٧٠/١) .

(٤) يكتنون : من الكي بالنار ، وقد جاء في أحاديث كثيرة النهي عن الكي ، فقيل : إنما نهى عنه من أجل أنهم كانوا يعظمون أمره ، ويرون أنه يخشى الماء ، ويجوز أن يكون النهي عنه من قبيل التوكيل كما في هذا الحديث (النهاية : ج ٢١٢/٤) .

(٥) الرقية : العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمي والصرع وغير ذلك من الآفات (النهاية : ج ٢٥٤/٢) .

(٦) الطيرة : التشاؤم بالشيء (النهاية : ج ١٥٢/٣) .

(٧) سنن الترمذي (ج ٦٣١/٤) كتاب صفة القيامة - باب ١٦ ح ٢٤٤٦ ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٨) الشط : الشيب (النهاية : ج ٥٠١/٢) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٢/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - باب المعراج ، وجمع الزوائد (ج ٧٠/١) .

(١٠) مسند الإمام أحمد (ج ٤١٨/٥) .

وفي رواية أخرى : قال له : أقرىء أمتك منِّي السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان^(١) ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر^(٢) .

- دخول النبي ﷺ الجنة وما رآه فيها :

قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تَرَاهَا الْمِسْكُ ، وَإِذَا أَنَا بِأَنْهَارٍ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَإِذَا رُمَاتُهَا كَأَنَّهُ الدَّلَاءُ عَظْمًا ، وَإِذَا أَنَا بِطَيْرٍ كَالْبَحَاتِي^(٣) هَذِهِ » فقال عندها ﷺ وهو يحدث أصحابه : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »^(٤) .

روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه لما صعد إلى السماء السابعة استفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حياها الله من أخ وخليفة ، فينعم الأخ ، وينعم الخليفة ، وينعم الهجيء جاء ، فدخل فإذا برجل أشمط جالس على كرسي عند باب الجنة ، وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه ، وفي ألوانهم شيء ، فأتوا نهراً فاغتسلوا فيه ، فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم إنهم أتوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا وقد خلصت من ألوانهم مثل ألوان أصحابهم ، فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : « يا جبريل ! مَنْ هَؤُلَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، وَهَؤُلَاءِ السُّودُ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ فَدَخَلُوا النَّهْرَ فَخَرَجُوا وَقَدْ خَلَصَتْ أَلْوَانُهُمْ ؟ » فقال : هذا أبوك إبراهيم هو أول رجل شمس على وجه الأرض ، وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، قال : وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء : خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم ، فأما النهر الأول فرحمة الله ، وأما النهر الثاني فنعمة الله ، وأما النهر الثالث فسقام ربهم شراباً طهوراً^(٥) .

- رؤيته ﷺ نهر الكوثر : قال رسول الله ﷺ : « نَبِيئًا أَنَا أَسِيرٌ فِي الْجَنَّةِ وَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، تَرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ التَّلْحِجِ »^(٦) .

وفي رواية عنه ﷺ قال : « أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَّتَاهُ قِيَابُ اللَّؤْلُؤِ مَجْوُفًا »^(٧) - وفي رواية أخرى : « عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لؤلؤٍ وَرَبْرَجِدٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جبريلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكُوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ »^(٨) .

وقد روي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وقيل له : يا رسول الله ! ما الكوثر الذي أعطاك الله ؟ قال : « نَهْرٌ كَمَا بَيْنَ صَعَاءَ إِلَى أَيْلَةَ ، أَنْبَيْتُهُ كَعَدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ ، تَرْدُهُ طَيْرٌ لَهَا أَغْنَاقٌ كَأَغْنَاقِ الْإِبِلِ » ، قال : يقول عمر بن الخطاب : إنها يا رسول الله لناعمة ، قال : « أَكَلَهَا أَنْعَمَ مِنْهَا »^(٩) .

(١) قيعان : جمع قاع ، وهو المكان المُسْتَوِي فِي وَطْأَةِ مِنَ الْأَرْضِ يِعْلُوهُ مَاءُ السَّمَاءِ فَيُمْسِكُهُ وَيَسْتَوِي تِبَاتُهُ (النهاية : ج ١٣٢/٤) .

(٢) انظر : سنن الترمذي (ج ٥١٠/٥) كتاب الدعوات - باب ٥٩ ح ٣٤٦٢ .

(٣) البَحَاتِي وَالْبَحْتُ : جِمَالٌ طَوَالُ الْأَعْنَاقِ ، وَاحِدَتُهَا : الْبَحْتِيَّةُ (النهاية : ج ١٠٧/١) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٨/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٤/٢) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠١/٢) .

(٦) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٨٩/٣) ، وسنن الترمذي (ج ٤٥٠/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الكوثر ح ٣٣٦١ .

(٧) صحيح البخاري (ج ٢١٩/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ إِنَّا أَغْطِينَاكَ الْكُوْثَرَ ﴾ .

(٨) انظر صحيح البخاري (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ .

(٩) سيرة ابن هشام (ج ٤٢٢/١) .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ولنعم المحييء جاء ، قال ﷺ : « ففتّح لنا ، فإذا أنا بهارون ، فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من أخٍ ونبيٍّ » . وفي لفظ : « فإذا فيها كهلٌ أبيض الرأس واللحية ، عظيم العُثنون^(١) ، لم أر كهلاً أجمل منه ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا المُحبَّب^(٢) في قومه هارون بن عمران » .

ثم عرج به إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال ﷺ : « ففتّح لنا ، فإذا أنا بموسى ، فسلمت ، فقال : مرحباً بك من أخٍ ونبيٍّ » - وفي لفظ : « فإذا فيها رجلٌ آدم طويل أفتى ، كأنه من رجال شنوءة ، فقلت له : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران » - فلما جاوزه بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : تزعم بنو إسرائيل أنني أفضل الخلق ، وهذا قد خلفني ، فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته^(٣) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لما أسري بالنبي ﷺ جعل يمرّ بالنبيّ والنبيّين ومعهم القوم ، والنبي والنبيّين ومعهم الرّهط ، والنبي والنبيّين وليس معهم أحد ، حتى مرّ بسواد عظيم ، فقلت : « من هذا ؟ » قيل : موسى وقومه ؛ ولكن ارفع رأسك فانظر ، قال : فإذا سواد عظيم قد سدّ الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب ، فقيل : هؤلاء أمّتك وسوى هؤلاء من أمّتك سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب . فدخل ولم يسألوه ولم يُفسّر لهم ، فقالوا : نحن هم ، وقال قائلون : هم أبناؤنا الذين ولدوا على الفطرة والإسلام ، فخرج النبي ﷺ فقال : « هم الذين لا يكتنون^(٤) ولا يسترقون^(٥) ولا يتطيّرون^(٦) وعلى ربهم يتسوّكون » . فقام عكاشة بن محصن فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، ثم قام آخر فقال : أنا منهم ؟ فقال : « سبّك بها عكاشة »^(٧) .

ثم عرج به ﷺ إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به ونعم المحييء جاء ، قال ﷺ : « ففتّح لنا ، فإذا بإبراهيم رجلٍ أشط^(٨) » - وفي لفظ : كهلٌ - جالس على كرسيٍّ إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه حتى تقوم الساعة ، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه ، فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من ابنٍ ونبيٍّ »^(٩) .

روي أن سيدنا إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، قال للنبي ﷺ : مرّ أمّتك فليكثرُوا من غراس الجنة ؛ فإن تربتها طيبة ، وأرضها واسعة ، فقال : « وما غراس الجنة ؟ » قال : لا حول ولا قوة إلا بالله^(١٠) .

(١) العُثنون : اللّحية (النهاية : ج ١٨٢/٢) .

(٢) في رواية : المُحبَّب .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢ ، ١٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٢/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - باب المعراج ، وجمع الزوائد (ج ٧٠/١) .

(٤) يكتنون : من الكي بالنار ، وقد جاء في أحاديث كثيرة النهي عن الكي ، فقيل : إنما نهى عنه من أجل أنهم كانوا يعظمون أمره ، ويرون أنه يحسّم الناء ، ويجوز أن يكون النهي عنه من قبيل التوكّل كما في هذا الحديث (النهاية : ج ٢١٢/٤) .

(٥) الرُقبة : العود التي يُرقى بها صاحب الآفة كالحُمى والصرع وغير ذلك من الآفات (النهاية : ج ٢٥٤/٢) .

(٦) الطيّرة : التّشاؤم بالشيء (النهاية : ج ١٥٢/٣) .

(٧) سنن الترمذي (ج ٦٣١/٤) كتاب صفة القيامة - باب ١٦ ح ٢٤٤٦ ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٨) الشط : الشيب (النهاية : ج ٥٠١/٢) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٢/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ٦٧/٥) كتاب المناقب - باب المعراج ، وجمع الزوائد (ج ٧٠/١) .

(١٠) مسند الإمام أحمد (ج ٤١٨/٥) .

وفي رواية أخرى : قال له : أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان^(١) ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر^(٢) .

- دخول النبي ﷺ الجنة وما رآه فيها :

قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تَرَانِهَا الْمِسْكُ ، وَإِذَا أَنَا بِأَنْهَارٍ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَإِذَا رَمَانُهَا كَأَنَّهَا الدَّلَاءُ عِظْمًا ، وَإِذَا أَنَا بِطَيْرٍ كَالْبَحَاتِي^(٣) هَذِهِ » فقال عندها ﷺ وهو يحدث أصحابه : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »^(٤) .

روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه لما صعد إلى السماء السابعة استفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : محمد ، قالوا : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : حياها الله من أخ وخليفة ، فنعيم الأخ ، ونعيم الخليفة ، ونعيم الحبيب جاء ، فدخل فإذا برجل أشمط جالس على كرسي عند باب الجنة ، وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه ، وفي ألوانهم شيء ، فأتوا نهراً فاغتسلوا فيه ، فخرجوا منه وقد خلع من ألوانهم شيء ، ثم إنهم أتوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلع من ألوانهم شيء ، ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا وقد خلعت من ألوانهم مثل ألوان أصحابهم ، فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : « يا جبريل ! مَنْ هَؤُلَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، وَهَؤُلَاءِ السُّودُ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ فَدَخَلُوا النَّهْرَ فَخَرَجُوا وَقَدْ خَلَعَتْ أَلْوَانُهُمْ ؟ » فقال : هذا أبوك إبراهيم هو أول رجل شمس على وجه الأرض ، وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، قال : وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء : خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم ، فأما النهر الأول فرحمة الله ، وأما النهر الثاني فنعمة الله ، وأما النهر الثالث فسقام ربهم شراباً طهوراً^(٥) .

- رؤيته ﷺ نهر الكوثر : قال رسول الله ﷺ : « يُنِيمَانَا أَسِيرٌ فِي الْجَنَّةِ وَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، تَرْتَبَةٌ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَبْيَضُ مِنَ التَّلْجِ »^(٦) .

وفي رواية عنه ﷺ قال : « أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّؤْلُؤِ مَجْوُفًا »^(٧) - وفي رواية أخرى : « عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لَوْلُؤٍ وَرَبْرَجِدٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جَبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكُوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ »^(٨) .

وقد روي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وقيل له : يا رسول الله ! ما الكوثر الذي أعطاك الله ؟ قال : « نَهْرٌ كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى أُيْلَةَ ، أُنْيَسَةُ كَعَدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ ، تَرِدُهُ طَيْرٌ لَهَا أَعْنَاقٌ كَأَعْنَاقِ الْإِبِلِ » ، قال : يقول عمر بن الخطاب : إنها يا رسول الله لنعمة ، قال : « أَكَلَهَا أَنْعَمَ مِنْهَا »^(٩) .

(١) قيعان : جمع قاع ، وهو المكان المُستوي في وَطْأَةِ مِنَ الْأَرْضِ يَمْلُؤُهُ مَاءُ السَّمَاءِ فَيُمْسِكُهُ وَيَسْتَوِي نِبَاتُهُ (النهاية : ج ١٣٢/٤) .

(٢) انظر : سنن الترمذي (ج ٥١٠/٥) كتاب الدعوات - باب ٥٩ ح ٣٤٦٢ .

(٣) البَحَاتِي والبَحْتُ : جَمَالٌ طَوَالٌ الْأَعْنَاقِ ، وَاحِدَتُهَا : الْبَحْتِيَّةُ (النهاية : ج ١٠١/٨) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٨/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٤/٢) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠١/٢) .

(٦) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٨٩/٣) ، وسنن الترمذي (ج ٤٥٠/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الكوثر ح ٣٣٦١ .

(٧) صحيح البخاري (ج ٢١٩/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ ﴾ .

(٨) انظر صحيح البخاري (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ .

(٩) سيرة ابن هشام (ج ٤٢٢/٨) .

وجاء في رواية عنه عليه السلام أنه قال : « أَوْلُ النَّاسِ وَرُوداً عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ؛ الشُّعْتُ رُؤُوساً ، الدُّسُّ (١) ثِيَاباً ، الَّذِينَ لَا يَتَكُونُونَ الْمُنْعَمَاتِ ، وَلَا تَفْتَحُ لَهُمُ السُّدَّةُ (٢) » (٣) .

- ورأى النبي عليه السلام في الجنة جارية لعساء (٤) ، قال : « فَسَأَلْتُهَا لِمَنْ أَنْتِ ؟ وَقَدْ أُعْجِبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُهَا ، فَقَالَتْ : لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ » ، فَبَشَّرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام زَيْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٥) .

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « لَمَّا أُسْرِيَ بِي فِي الْجَنَّةِ سَمِعْتُ خَشْخَشَةً ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ ! مَا هَذِهِ الْخَشْخَشَةُ ؟ قَالَ : هَذَا بِلَالٌ » ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْتَ أُمُّ بِلَالٍ وَلَدَتْنِي وَأَبُو بِلَالٍ وَأَنَا مِثْلُ بِلَالٍ (٦) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله عليه السلام قال : « يَا بِلَالُ ! حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمَلْتَهُ ، عِنْدَكَ ، فِي الْإِسْلَامِ مَنَفَعَةٌ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشَفَ (٧) نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ » ، قَالَ بِلَالٌ : مَا عَمَلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مِنْفَعَةً مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طَهْوَرًا تَامًا ، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهْوَرِ ، مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ (٨) .

وروي عن علي أن عمر بن الخطاب قال : يا رسول الله ! أخبرني بما رأيت في الجنة ليلة أسري بك ، فقال : « يا ابن الخطاب ! لَوِ كُنْتُ فِيكُمْ مَا لَبِثْتُ نُوْحَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ أَحَدْتُكُمْ عَمَّا رَأَيْتُ فِي الْجَنَّةِ ، لَمَّا فَرَعْتُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ يَا عَمْرُؤُ ! إِذَا قُلْتُ لِي حَدِّثْنِي ، فَسَأَحَدْتُكَ عَمَّا لَمْ أَحَدِّثْ بِهِ غَيْرَكَ ، رَأَيْتُ فِيهَا قُصُورًا أَصْلَحُهَا فِي أَرْضِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا فِي جَوْفِ الْعَرْشِ ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ ! هِيَ فِي جَوْفِ الْعَرْشِ وَأَرْكَانُهَا فِي أَرْضِ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : لَا أَذْرِي ، قُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ ! أَخْبِرْنِي مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهَا وَمَنْ يَسْكُنُهَا - وَإِذَا ضَوْوُهَا كَضَوْءِ الشَّمْسِ فِي الدُّنْيَا - قَالَ : يَسْكُنُهَا وَيَصِيرُ إِلَيْهَا مَنْ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ الْحَقُّ لَمْ يَغْضَبْ ، وَمَاتَ عَلَى الْحَقِّ ، قُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ ! هَلْ تَسْمِي أَحَدًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ رَجُلًا وَاحِدًا ، قُلْتُ : مَنْ ذَلِكَ الْوَاحِدُ ؟ قَالَ : عَمْرُؤُ بْنُ الْخَطَّابِ . فَشَقِيقُ عَمْرٍ شَهْقَةً ، فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ إِلَى الْغَدِّ مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ (٩) .

وقد عرَّضَ عَلَى النَّبِيِّ عليه السلام فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ أَوْ فَوْقَهَا أَنْوَاعَ مِنَ الْأَشْرِبَةِ فَاخْتَارَ اللَّبْنَ ، فَعَنْهُ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ : « رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ » - وَفِي لَفْظٍ - : « رُفِعْتُ إِلَى السُّدْرَةِ فَأَتَيْتُ بِثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ : قَدَحٍ فِيهِ لَبَنٌ ، وَقَدَحٍ فِيهِ عَسَلٌ ، وَقَدَحٍ فِيهِ خَمْرٌ ، فَأَخَذْتُ الَّذِي فِيهِ اللَّبَنُ فَشَرِبْتُ ، فَقِيلَ لِي : أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ أَنْتِ وَأُمَّتُكَ » (١٠) .

- انتهاه النبي عليه السلام إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى : ثُمَّ انْطَلَقَ جَبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ عليه السلام فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيَقْبِضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنَ فَوْقِهَا فَيَقْبِضُ مِنْهَا ، وَقِيلَ : إِلَيْهَا يَنْتَهِي عِلْمُ الْخَلْقِ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ - فَرَأَى عِنْدَهَا نُورًا عَظِيمًا . قَالَ النَّبِيُّ عليه السلام : « فَإِذَا نَبَقَهَا (١١) كَأَنَّهُ قِلَالٌ هَجْرٌ (١٢) ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفَيْكَلَةِ ، يَسِيرٌ

(١) دَسَنٌ نَوْبَةٌ : تَوَسَّخَ وَتَلَطَّخَ (الوسيط : ج ٢٩٨/١) .

(٢) السُّدَّةُ : جَمْعُ سُدَّةٍ ، وَهِيَ بَابُ النَّارِ (الوسيط : ج ٤٢٤/١) .

(٣) المستدرک (ج ١٨٤/٤) .

(٤) يُقَالُ جَارِيَةٌ لِعَسَاءٍ : إِذَا كَانَ فِي لَوْنِهَا أَذْنَى سَوَادٍ وَشُرْبَةٌ مِنَ الْحُمْرَةِ (النهاية : ج ٢٥٣/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٩٩/٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٧) الْخَشْفَةُ : الْحِسُّ وَالْحَرَكََةُ ، وَقِيلَ : هُوَ الصَّوْتُ (النهاية : ج ٣٤/٢) .

(٨) صحيح مسلم (ج ١٩١٠/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل بلال رضي الله عنه ح ١٠٨ .

(٩) أخرجه صاحب كنز العمال في (ج ٥٩٠/١٢) من مصنفه وقال : رواه ابن مردويه .

(١٠) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤١/٧) كتاب الأشربة - باب شرب اللبن ، وصحيح مسلم (ج ١٥٠/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله عليه السلام

ح ٢٦٤ .

(١١) النَّبِقُ : هُوَ ثَمَرُ السُّدْرِ ، وَاحِدَتُهُ نَبَقَةٌ ، وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِهِ الْعُنَابُ قَبْلَ أَنْ تَشْتَدَّ حُمْرَتُهُ (النهاية : ج ١٠/٥) .

(١٢) هَجْرٌ : قَرْيَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَلَيْسَتْ هَجْرَ الْبَحْرَيْنِ . وَكَانَتْ تَعْمَلُ بِهَا الْقِلَالُ (النهاية : ج ١٠٤/٤) . والمراد أن ثمرها في الكبر مثل القلال .

الرَّاكِبُ فِي الْقَنْبِ (١) مِنْهَا مِائَةٌ سَنَةٍ ، يَسْتَظِلُّ بِالْقَنْبِ مِنْهَا مِائَةٌ رَاكِبٍ ، فِيهَا فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ، تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرِ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى - وفي رواية : فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةٌ أَنْهَارٌ ؛ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَسَأَلْتُ جَبْرِيلَ فَقَالَ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَبِئْسَ الْجَنَّةُ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النَّيْلُ وَالْفَرَاتُ - وَإِذَا فِيهَا عَيْنٌ تَجْرِي يُسَالُّ لَهَا سُلَيْبٌ ؛ فَيَنْشَقُّ مِنْهَا نَهْرَانِ أَحَدُهُمَا الْكَوْثَرُ وَالْآخَرُ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الرَّحْمَةِ ، فَاغْتَسَلْتُ فِيهِ ، فَغَفَرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ . فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَحَوَّلَتْ يَاقُوتًا أَوْ زُمْرَدًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ (٢) لَا أُدرِي مَا هِيَ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَمَ مِنْ حُسْنِهَا (٣) .

- رُؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام : ورأى النبي ﷺ جبريل ، عليه السلام ، عند سدره المنتهى على الصورة التي خلقه الله ، عز وجل ، عليها ، في حلة من زُفَرَفٍ (٤) أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض ، له ستائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يتناثر من أجنحته التهاويل (٥) والدُّرُّ والياقوت . وكان لا يراه قبل ذلك إلا على صور مختلفة ، وأكثر ما كان يراه ﷺ على صورة دحية الكلبي رضي الله عنه (٦) .

روي عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، أنه قال : إن محمداً لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما مرة فإنه سأله أن يريه نفسه في صورته ، فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به ، وقوله : ﴿ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (٧) ، قال : فلما أحس جبريل ربه عاد في صورته وسجد ، فقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٨) ، قال : خلق جبريل عليه السلام (٩) .

افتراض الصَّلوات الخمس :

ثم غشيت تلك السدرة سحابة فتأخر جبريل ، عليه السلام (١٠) ، وخرج بالنبي ﷺ حتى وصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقدام (١١) ، فكلّمه ربه عند ذلك وفرضت عليه الصَّلوات الخمس (١٢) .

- (١) القَنْبُ : العُضُنُ الْمُسْتَقِيمُ مِنَ الشَّجَرَةِ (الوسيط : ج ٧١٠/٢) .
- (٢) غَشِيَهَا أَلْوَانٌ : أَي تَلَوَّحَهَا (النهاية : ج ٣٦٩/٣) .
- (٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٨/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، و (ج ١٣٤/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٦/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء ح ٢٥٩ ، و (ج ١٥٧/١) كتاب الإيمان - باب في ذكر سدره المنتهى ح ٢٧٩ ، وسان الترمذي (ج ٤٤٩/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الكوثر ح ٣٣٦ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٨٢/٣) ، والمستدرک (ج ٤٦٩/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٤/٢ ، ٤٠٢) .
- (٤) الزُّفَرَفُ : البِساطُ ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنَ الدِّيبَاجِ وَغَيْرِهِ رَقِيقًا حَسَنَ الصَّنْعَةِ (النهاية : ج ٢٤٣/٢) .
- (٥) التَّهَاقِيلُ : قَزَائِبٌ رِيْشُهُ وَمَا فِيهِ مِنْ صَفَرَةٍ وَخُمْرَةٍ وَبَيَاضٍ وَخُمْرَةٍ مِثْلُ تَهَاقِيلِ الرِّيَاضِ (لسان العرب : ج ٤٧٢/٦) .
- (٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٠/٤) كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ، وصحيح مسلم (ج ١٥٨/١) كتاب الإيمان - باب معنى قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ح ٢٨٢ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٩٤/١ ، ٤١٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٢٨٨/١) .
- (٧) النُّجْمُ : ٧ - ١٠ .
- (٨) النُّجْمُ : ١٣ - ١٨ .
- (٩) مسند الإمام أحمد (ج ٤٠٧/١) .
- (١٠) روي عن النبي ﷺ أنه قال : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَجَبْرِيلُ كَالْحُلِيِّ الْبَالِي مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ » انظر : جمع الزوائد (ج ٧٨/١) ، ويروي أن جبريل لما وصل إلى مقامه ، وهو سدره المنتهى ، فوق السماء السابعة قال للنبي ﷺ : ها أنت وربك ، هذا مقامي لا أتعدها ، فزجَّ بالنبي ﷺ في النور (السيرة الحلبية : ج ٤٠٢/١) .
- (١١) أي صوت ما تكتبه الملائكة من أفضية الله تعالى ووحيه .
- (١٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٥/٤) كتاب الأنبياء - باب ذكر إدريس عليه السلام ، وسان النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، والسيرة الحلبية (ج ٤٠١/١) .

وجاء في رواية عنه عليه السلام أنه قال : « أَوْلُ النَّاسِ رُوداً عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ : الشُّعْثُ رُؤُوساً ، الدُّسُ (١) ثِيَاباً ، الَّذِينَ لَا يَتَكَبَّرُونَ الْمُتَعَبَاتِ ، وَلَا تَفْتَحُ لَهُمُ السُّدُودُ (٢) » . (٣)

- ورأى النبي عليه السلام في الجنة جارية لعساء (٤) ، قال : « فَسَأَلْتُهَا لِمَنْ أَنْتِ ؟ وَقَدْ أُعْجِبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُهَا ، فَسَالَتْ : لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ » ، فبشّر بها رسول الله عليه السلام زيداً رضي الله عنه (٥) .

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « لَمَّا أُسْرِيَ بِي فِي الْجَنَّةِ سَمِعْتُ خَشْخَشَةً ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرَيْلُ ! مَا هَذِهِ الْخَشْخَشَةُ ؟ قَالَ : هَذَا بِلَالٌ » ، قال أبو بكر : ليت أم بلال ولدتني وأبو بلال وأنا مثل بلال (٦) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله عليه السلام قال : « يَا بِلَالُ ! حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمَلْتَهُ ، عِنْدَكَ ، فِي الْإِسْلَامِ مَنَفَعَةٌ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشَفَ (٧) نَفْلِيكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ » ، قال بلال : مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مَنَفَعَةً مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طَهُورًا تَامًا ، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ ، مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ (٨) .

وروي عن عليّ أن عمر بن الخطاب قال : يارسول الله ! أخبرني بما رأيت في الجنة ليلة أسري بك ، فقال : « يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ! لَوْلَيْتُ فِيكُمْ مَا لَيْتَ نُوْحٌ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ أَحَدْتُكُمْ عَمَّا رَأَيْتُ فِي الْجَنَّةِ ، لَمَّا فَرَعْتُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ يَا عَمْرُؤُ ! إِذَا قُلْتَ لِي حَدِيثِي ، فَسَأَلْتُكَ عَمَّا لَمْ أَحَدِّثْ بِهِ غَيْرَكَ ، رَأَيْتُ فِيهَا قُصُورًا أَصْلُهَا فِي أَرْضِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا فِي جَوْفِ الْعَرْشِ ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرَيْلُ ! هِيَ فِي جَوْفِ الْعَرْشِ وَأَرْكَانُهَا فِي أَرْضِ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : لَا أُدْرِي ، قُلْتُ : يَا جَبْرَيْلُ ! أَخْبِرْنِي مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهَا وَمَنْ يَسْكُنُهَا - وَإِذَا صَوَّوْهَا كَصُورِهِ الشَّمْسِ فِي الدُّنْيَا - قَالَ : يَسْكُنُهَا وَيَصِيرُ إِلَيْهَا مَنْ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ الْحَقُّ لَمْ يَغْضَبْ ، وَمَاتَ عَلَى الْحَقِّ ، قُلْتُ : يَا جَبْرَيْلُ ! هَلْ تَسْمِي أَحَدًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ رَجُلًا وَاحِدًا ، قُلْتُ : مَنْ ذَلِكَ الْوَاحِدُ ؟ قَالَ : عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ » . فَشَقِيقُ عَمْرِو شَهْمَةَ ، فَخَرَّ مَعْشِيًا عَلَيْهِ إِلَى الْغَدِّ مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ (٩) .

وقد عرّض على النبي عليه السلام في السماء السابعة أو فوقها أنواع من الأشربة فاختر اللبّن ، فعنه عليه السلام أنه قال : « رُفِعَ لِي التَّيْتُ الْمَعْمُورُ » - وفي لفظ - : « رُفِعَتْ إِلَى السُّدُورَةِ فَأَتَيْتُ بِثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ : قَدَحٌ فِيهِ لَبْنٌ ، وَقَدَحٌ فِيهِ عَسَلٌ ، وَقَدَحٌ فِيهِ خَمْرٌ ، فَأَخَذْتُ اللَّبْنِي فِيهِ اللَّبْنُ فَشَرِبْتُ ، فَقِيلَ لِي : أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ أَنْتِ وَأَمْتُكَ » (١٠) .

- انتهاه النبي عليه السلام إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى : ثم انطلق جبريل بالنبي عليه السلام فوق السماوات السبع حتى انتهى به إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - وإليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، وقيل : إليها ينتهي علم الخلق لا علم لهم بما فوق ذلك - فرأى عندها نوراً عظيماً . قال النبي عليه السلام : « فَإِذَا نَبَّهَ (١١) كَأَنَّهُ قِلَالٌ هَجْرٌ (١٢) ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفَيْلَةِ ، يَسِيرُ

(١) دَنْسٌ تَوْبَةٌ : تَوَسَّخَ وَتَلَطَّخَ (الوسيط : ج ٢٩٨/١) .

(٢) السُّدُودُ : جَمْعُ سُدَّةٍ ، وَهِيَ بَابُ النَّارِ (الوسيط : ج ٤٢٤/١) .

(٣) الْمُسْتَدْرِكُ (ج ١٨٤/٤) .

(٤) يُقَالُ جَارِيَةٌ لِعَسَاءٍ : إِذَا كَانَ فِي لَوْنِهَا أَذْيُ سَوَادٍ وَشَرِبَتْهُ مِنَ الْخُمْرَةِ (النهاية : ج ٢٥٢/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٩٩/٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٧) الْخَشْفَةُ : الْحِسُّ وَالْحَزَكَةُ ، وَقِيلَ : هُوَ الصَّوْتُ (النهاية : ج ٢٤/٢) .

(٨) صحيح مسلم (ج ١٩١٠/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل بلال رضي الله عنه ح ١٠٨ .

(٩) أخرجه صاحب كنز العمال في (ج ٥٩٠/١٢) من مصنفه وقال : رواه ابن مردويه .

(١٠) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤١/٧) كتاب الأشربة - باب شرب اللبن ، وصحيح مسلم (ج ١٥٠/٨) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله عليه السلام

ح ٢٦٤ .

(١١) النَّبِيُّ : هُوَ تَمْرُ السُّدْرِ ، وَاحِدَتُهُ نَبْقَةٌ ، وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِهِ الْعَنَابُ قَبْلَ أَنْ تَشْتَدَّ حُمْرَتُهُ (النهاية : ج ١٠/٥) .

(١٢) هَجْرٌ : قَرْيَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَكَيْسَتْ هَجَرَ الْبَحْرَيْنِ . وَكَانَتْ تَعْمَلُ بِهَا الْقِلَالُ (النهاية : ج ١٠٤/٤) . والمراد أن ثمرها في الكبر مثل القلال .

الرَّاكِبُ فِي الْفَنَنِ (١) مِنْهَا مِائَةٌ سَنَةً ، يَسْتَظِلُّ بِالْفَنَنِ مِنْهَا مِائَةٌ رَاكِبٍ ، فِيهَا فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ، تَخْرُجُ مِنْ أَضْلَاهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمِيرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى - وَفِي رِوَايَةٍ : فِي أَضْلَاهَا أَرْبَعَةٌ أَنْهَارٌ : نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَسَأَلَتْ جِبْرِيلَ فَقَالَ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَبِئْسَ الْجَنَّةُ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النَّبِيلُ وَالْفُرَاتُ - وَإِذَا فِيهَا عَيْنٌ تَجْرِي يُسَالُّ لَهَا سَلْسَبِيلٌ ؛ فَيَنْشَقُّ مِنْهَا نَهْرَانِ أَحَدُهُمَا الْكَوْثَرُ وَالْآخَرُ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الرَّحْمَةِ ، فَاغْتَسَلْتُ فِيهِ ، فَعَفَّرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ . فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَحَوَّلَتْ يَابِقُوتًا أَوْ زُمُرَدًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ (٢) لَا أَدْرِي مَا هِيَ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْتَعِمَ مِنْ حُسْنِهَا (٣) .

- رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَرَأَى النَّبِيَّ ﷺ جِبْرِيلَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، عَلَيْهَا ، فِي حَلَّةٍ مِنْ زَرْقَفٍ (٤) أَخْضَرَ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَهُ سِتَائَةٌ جَنَاحٌ ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ ، يَتَنَاقَرُ مِنْ أَجْنَحَتِهِ التَّهَاقُوتُ (٥) وَالذَّرُّ وَالْيَاقُوتُ . وَكَانَ لَا يَرَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يَرَاهُ ﷺ عَلَى صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٦) .

روي عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، أنه قال : إن محمداً لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما مرة فإنه سأله أن يريه نفسه في صورته ، فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به ، وقوله : ﴿ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (٧) ، قال : فلما أحسن جبريل ربه عاد في صورته وسجد ، فقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٨) ، قال : خلق جبريل عليه السلام (٩) .

اهتراض الصلوات الخمس :

ثم غشيت تلك السدرة سحابة فتأخر جبريل ، عليه السلام (١٠) ، وخرج بالنبي ﷺ حتى وصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقدام (١١) ، فكلّمه ربه عند ذلك وفرضت عليه الصلوات الخمس (١٢) .

- (١) الْفَنَنْ : الْفُضُنُ الْمُسْتَقِيمُ مِنَ الشَّجَرَةِ (الوسيط : ج ٧١٠/٢) .
- (٢) غَشِيَهَا أَلْوَانٌ : أَي تَغَلُّوْهَا (النهاية : ج ٣٦٩/٣) .
- (٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٨/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، و (ج ١٣٤/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ١٨٣/٩) كتاب التوحيد - باب قوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٦/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء ح ٢٥٩ ، و (ج ١٥٧/١) كتاب الإيمان - باب في ذكر سدره المنتهى ح ٢٧٩ ، وسنن الترمذي (ج ٤٤٩/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الكوثر ح ٣٢٢ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٨٢/٣) ، والمستدرک (ج ٤٦٩/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٤/٢ ، ٤٠٢) .
- (٤) الزَّرْقَفُ : الْبِسَاطُ ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنَ الدِّيَابِجِ وَغَيْرِهِ رَقِيقًا حَسَنَ الصَّنْعَةِ (النهاية : ج ٢٤٣/٢) .
- (٥) التَّهَاقُوتُ : تَزَايُنُ رِيْشِهِ وَمَا فِيهِ مِنْ صُفْرَةٍ وَخُمْرَةٍ وَبَيَاضٍ وَخُمْرَةٍ مِثْلُ تَهَاقُوتِ الرِّيَاضِ (لسان العرب : ج ٤٧٢/٦) .
- (٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٠/٤) كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ، وصحيح مسلم (ج ١٥٨/١) كتاب الإيمان - باب معنى قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ح ٢٨٣ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٩٤/١ ، ٤١٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٨/١) .
- (٧) النُّجْمُ : ٧ - ١٠ .
- (٨) النُّجْمُ : ١٣ - ١٨ .
- (٩) مسند الإمام أحمد (ج ٤٠٧/١) .
- (١٠) روي عن النبي ﷺ أنه قال : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَاقِي مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ » انظر : مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) ، ويروى أن جبريل لما وصل إلى مقامه ، وهو سدره المنتهى ، فوق السماء السابعة قال للنبي ﷺ : ها أنت وربك ، هذا مقامى لا أتمتعده ، فزج بالنبي ﷺ في النور (السيرة الحلبية : ج ٤٠٢/١) .
- (١١) أي صورت ما كتبه الملائكة من أفضية الله تعالى ووحيه .
- (١٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٥/٤) كتاب الأنبياء - باب ذكر إدريس عليه السلام ، وسنن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، والسيرة الحلبية (ج ٤٠١/١) .

وجاء في رواية عنه عليه السلام أنه قال : « أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين : الشعث رؤوساً ، الدُّس (١) ثياباً ، الذين لا يتكحون المنعمات ، ولا تفتح لهم السدود (٢) » . (٣) .

- ورأى النبي عليه السلام في الجنة جارية لعساء (٤) ، قال : « فسألتها لمن أنت ؟ وقد أعجبتني حين رأيتهما ، فقالت : لزيد بن حارثة » ، فبشر بها رسول الله عليه السلام زيداً رضي الله عنه (٥) .

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « لما أُسري بي في الجنة سمعتُ خشخشةً ، فقلتُ : يا جبريل ! ماهذه الخشخشة ؟ قال : هذا بلال » ، قال أبو بكر : ليت أم بلال ولدتني وأبو بلال وأنا مثل بلال (٦) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله عليه السلام قال : « يا بلال ! حدّثني بأرجى عملٍ عملته ، عندك ، في الإسلام منفعةً ؛ فإنني سمعتُ اللبنة خشفت (٧) نعليك بين يدي في الجنة » ، قال بلال : ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً ، في ساعة من ليل ولا نهار ، إلا صليت بذلك الطهور ، ما كتب الله لي أن أصلي (٨) .

وروي عن علي أن عمر بن الخطاب قال : يا رسول الله ! أخبرني بما رأيت في الجنة ليلة أسري بك ، فقال : « يا ابن الخطاب ! لو لبثت فيكم ما لبثت نوح في قومه ألف سنةٍ أحذثكم عما رأيت في الجنة ، لما فرغت منه ، ولكن يا عمر ! إذا قلت لي حدّثني ، فسأحدّثك عما لم أحدث به غيرك ، رأيت فيها قصوراً أصلها في أرض الجنة وأغلاها في جوف العرش ، فقلت : يا جبريل ! هي في جوف العرش وأركانها في أرض الجنة ؟ قال : لا أدري ، قلت : يا جبريل ! أخبرني من يصير إليها ومن يسكنها - وإذا صوّوها كضوء الشمس في الدنيا - قال : يسكنها ويصير إليها من يقول الحق ، ويهدي إلى الحق ، وإذا قيل له الحق لم يغضب ، ومات على الحق ، قلت : يا جبريل ! هل تسمي أحداً ؟ قال : نعم ؛ رجلاً واحداً ، قلت : من ذلك الواحد ؟ قال : عمر بن الخطاب . فشهِقَ عمر شهقةً ، فخر مغشياً عليه إلى الغد من تلك الساعة (٩) .

وقد عرّض على النبي عليه السلام في السماء السابعة أو فوقها أنواع من الأشربة فاختر اللبنة ، فعنه عليه السلام أنه قال : « رُفِع لي البيت المعمور » - وفي لفظ - : « رُفِعَت إلى السدرة فأتيت بثلاثة أقداح : قدح فيه لبن ، وقدح فيه عسل ، وقدح فيه خمر ، فأخذت الذي فيه اللبن فشربت ، فقيل لي : أصبت الفطرة أنت وأمتك (١٠) .

- انتهاه النبي عليه السلام إلى سدرة المنتهى : ثم انطلق جبريل بالنبي عليه السلام فوق السماوات السبع حتى انتهى به إلى سدرة المنتهى - وإليها ينتهي ما يجرح به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، وقيل : إليها ينتهي علم الخلق لا علم لهم بما فوق ذلك - فرأى عندها نوراً عظيماً . قال النبي عليه السلام : « فإذا نبقها (١١) كأنه قلال هجر (١٢) ، وورقها كأنه أذان الفيلة ، يسير

(١) دَسَّ ثَوْبُهُ : تَوَسَّخَ وَتَلَطَّخَ (الوسيط : ج ٢٩٨/١) .

(٢) السُدُّ : جَمْعُ سُدَّةٍ ، وَهِيَ بَابُ النَّارِ (الوسيط : ج ٤٢٤/١) .

(٣) المستدرک (ج ١٨٤/٤) .

(٤) يُقَالُ جَارِيَةٌ لِعَسَاءٍ : إِذَا كَانَ فِي لَوْنِهَا أَدْنَى سَوَادٍ وَشُرْبِيَّةٌ مِنَ الْحُمْرَةِ (النهاية : ج ٢٥٢/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) .

(٦) رواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ٢٩٩/٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٧) الخَشْفَةُ : الحِسُّ وَالْحَرَكََةُ ، وَقِيلَ : هُوَ الصَّوْتُ (النهاية : ج ٢٤/٢) .

(٨) صحيح مسلم (ج ١٩١٠/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل بلال رضي الله عنه ج ١٠٨ .

(٩) أخرجه صاحب كنز العمال في (ج ٥٩٠/١٢) من مصنفه وقال : رواه ابن مردويه .

(١٠) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤١/٧) كتاب الأشربة - باب شرب اللبن ، وصحيح مسلم (ج ١٥٠/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله عليه السلام

ج ٢٦٤ .

(١١) النَبْقُ : هُوَ ثَمَرُ السُّدْرِ ، وَاحِدَتُهُ نَبْقَةٌ ، وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِهِ الْعَنَابُ قَبْلَ أَنْ تُشْتَدَّ حُمْرَتُهُ (النهاية : ج ١٠/٥) .

(١٢) هَجْرٌ : قَرْيَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَلَيْسَتْ هَجْرَ الْبَحْرَيْنِ . وَكَانَتْ تَعْمَلُ بِهَا الْقِلَالُ (النهاية : ج ١٠٤/٤) . والمراد أن ثمرها في الكبر مثل القلال .

الرَّاكِبُ فِي الْفَتَنِ (١) مِنْهَا مِائَةٌ سَنَةً ، يَسْتَبِيلُ بِالْفَتَنِ مِنْهَا مِائَةٌ رَاكِبٍ ، فِيهَا فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ، تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرِ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى - وفي رواية : فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةٌ أَنْهَارٌ : نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَسَأَلْتُ جَبْرِيلَ فَقَالَ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النَّيْلُ وَالْفِرَاتُ - وَإِذَا فِيهَا عَيْنٌ تَجْرِي يُقَالُ لَهَا سُلَيْمِيَّةٌ ؛ فَيَنْشَقُّ مِنْهَا نَهْرَانِ أَحَدُهُمَا الْكَوْثَرُ وَالْآخَرُ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الرَّحْمَةِ ، فَاغْتَسَلْتُ فِيهِ ، فَغَفَرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ . فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَحَوَّلَتْ يَأْقُوتاً أَوْ زَمْرُداً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَغَشِيَهَا الْوَانُ (٢) لَا أَدْرِي مَا هِيَ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَمَهَا مِنْ حُسْنِهَا (٣) .

- رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ جَبْرِيلَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، عَلَيْهَا ، فِي حَلَّةٍ مِنْ زَرْفٍ (٤) أَخْضَرَ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَهُ سِتَّائَةُ جَنَاحٍ ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ ، يَتَنَاوَرُ مِنْ أَجْنَحَتِهِ التَّهَاقُوتُ (٥) وَالذَّرُّ وَالْيَاقُوتُ . وَكَانَ لَا يَرَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يَرَاهُ ﷺ عَلَى صُورَةِ دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٦) .

روي عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، أنه قال : إن محمداً لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما مرة فإنه سأله أن يريه نفسه في صورته ، فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به ، وقوله : ﴿ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (٧) ، قال : فلما أحسن جبريل ربّه عاد في صورته وسجد ، فقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٨) ، قال : خلق جبريل عليه السلام (٩) .

افتراض الصلوات الخمس :

ثم غشيت تلك السدرة سحابة فتأخر جبريل ، عليه السلام (١٠) ، وخرج بالنبي ﷺ حتى وصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقدام (١١) ، فكلّمه ربّه عند ذلك وفرضت عليه الصلوات الخمس (١٢) .

- (١) الْفَتْنُ : الْغُضُنُ الْمُسْتَقِيمُ مِنَ الشَّجَرَةِ (الوسيط : ج ٧١٠/٢) .
- (٢) غَشِيَهَا الْوَانُ : أَي تَعَلَّوْهَا (النهاية : ج ٣٦٩/٣) .
- (٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٨/١) كتاب الصلاة - باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ، و (ج ١٣٤/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٦/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء ح ٢٥٩ ، و (ج ١٥٧/١) كتاب الإيمان - باب في ذكر سدرة المنتهى ح ٢٧٩ ، وسنن الترمذي (ج ٤٤٩/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الكوثر ح ٣٣٦٠ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٨٢/٣) ، والمستدرک (ج ٤٦٩/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٤/٢ ، ٤٠٢) .
- (٤) الزَّرْفُ : الْبَسَاطُ ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنَ الذَّبِيحِ وَغَيْرِهِ رَقِيقًا حَسَنَ الصَّنْعَةِ (النهاية : ج ٢٤٣/٢) .
- (٥) التَّهَاقُوتُ : تَزَايِينُ رَيْشِهِ وَمَا فِيهِ مِنْ صَفْرَةٍ وَحُمْرَةٍ وَبَيَاضٍ وَخَضْرَاءٍ مِثْلُ تَهَاقُوتِ الرِّيَاضِ (لسان العرب : ج ٤٧٢/٦) .
- (٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٠/٤) كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ، وصحيح مسلم (ج ١٥٨/١) كتاب الإيمان - باب معنى قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَى ﴾ ح ٢٨٣ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٩٤/١ ، ٤١٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٨٨/١) .
- (٧) النُّجْمُ : ٧ - ١٠ .
- (٨) النُّجْمُ : ١٣ - ١٨ .
- (٩) مسند الإمام أحمد (ج ٤٠٧/١) .
- (١٠) روي عن النبي ﷺ أنه قال : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَجَبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ » انظر : مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) ، ويروى أن جبريل لما وصل إلى مقامه ، وهو سدرة المنتهى ، فوق السماء السابعة قال للنبي ﷺ : هَأَنْتَ وَرَبِّكَ ، هَذَا مَقَامِي لِأَنْعَمَدَاهُ ، فَزَجَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي النَّوْرِ (السيرة الحلبية : ج ٤٠٢/١) .
- (١١) أي صوت ما تكتبه الملائكة من أفضية الله تعالى ووحيه .
- (١٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٥/٤) كتاب الأنبياء - باب ذكر إدريس عليه السلام ، وسنن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، والسيرة الحلبية (ج ٤٠١/١) .

قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ صَعِدَ بِي فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ فَاتَيْنَا سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيَنِي ضَبَابَةٌ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا ، فَقِيلَ لِي : إِنَّ يَوْمَ خَلَقْتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَقُمَّ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ ، فَرَجَعْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ : كَمْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً ، قَالَ : فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهَا أَنْتَ وَلَا أُمَّتُكَ - وَفِي لَفْظٍ : أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ ، عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالَجَةِ وَإِنَّ أُمَّتَكَ ضَعِيفَةٌ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ - فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ » ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جَبْرِيلُ : أَن نَعْمَ إِنْ شِئْتَ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي وَقُلْتُ : يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فَإِنَّ أُمَّي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا (١) ، ثُمَّ أَتَيْتُ مُوسَى فَأَمَرَنِي بِالرُّجُوعِ ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى أَنْ وَضَعَ ذَلِكَ عَنِّي إِلَّا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي وَسَأَلْتُهُ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ، فَمَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ » - وَقَدِيفَ فِي قَلْبِهِ أَلَّا يَرْجِعَ - فَنُودِيَ إِنَّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي وَأَجَزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا - وَفِي لَفْظٍ : إِنَّهُنَّ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ، وَمِنْ هُنَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تَكْتَبْ شَيْئًا ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً - وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، احْتَبَسَهُ عِنْدَ الْحَمْسِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعَفُوا فَتَرَكُوهُ - وَفِي لَفْظٍ : فَإِنَّهُ فَرَضَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ صَلَاتَيْنِ فَمَا قَامُوا بِهَا - فَأَمَّتْكَ أَعْضَفُ أَجْسَادًا وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْبَاعًا ، فَارْجِعْ فَلْيَخَفَّفْ عَنْكَ رَبِّكَ ، كَلَّ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَبْرِيلَ لِيَشِيرَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَكْرَهُ ذَلِكَ جَبْرِيلُ ، قَالَ ﷺ : « فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي (٢) ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَسَأَلْتُهُ التَّخْفِيفَ ، فَقَالَ : إِنَّ يَوْمَ خَلَقْتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً - وَفِي لَفْظٍ : إِنَّهُ لَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْكَ كَمَا فَرَضْتُ عَلَيْكَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَفْعَلُ بِمِثْلِهَا فِي خَمْسِينَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ وَهِيَ خَمْسُونَ عَلَيْكَ ، فَقُمَّ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى صَرَى - أَيْ خَتَمَ - فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : كَيْفَ فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : خَفَّفَ عَنَّا أَغْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، فَقَالَ مُوسَى : قَدْ وَاللَّهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ؛ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَلْيَخَفَّفْ عَنْكَ أَيْضًا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ صَرَى فَلَمْ أَرْجِعْ » (٣) .

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « كَانَ مُوسَى ﷺ أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ أَوْلَا وَخَيْرَهُمْ آخِرًا » (٤) .

- مَا خَصَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأُمَّتَهُ : وَكَانَ مِنْ جَمَلَةِ مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ مِنَ السَّمَاءِ وَخَصَّ بِهِ وَأُمَّتَهُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغَيْرَ لِمَنْ لَمْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُتَّحِقَاتِ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٥) .

وقد خَصَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأُمُورٍ أُخْرَى لَيْلَةَ عُرْجِ بِهِ ، فَقَدْ رَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أُعْطِيتُ ثَلَاثًا ؛ إِنَّكَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَائِدُ الْعُرِّ الْمُحَجَّلِينَ » (٦) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أنه لما انتهى النبي ﷺ إلى السدرة وكلّمه ربه قال له : سل : فقال : « إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكَلِيمًا ، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَأَلْنْتَ لَهُ الْحَدِيدَ ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ ، وَأَعْطَيْتَ

(١) في صحيح مسلم (ج ١٤٦/١) ح ٢٥٩ : أنه وضع عنه خمساً .

(٢) رجوع النبي ﷺ بعد تقرير الحس لطلب التخفيف من تفرقات بعض الرواة ، والمحمفوظ أن النبي ﷺ قال لموسى ، عليه السلام ، في المرة الأخيرة : « استحيت من ربي » . انظر : فتح الباري (ج ٤٨٦/١٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٤/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكَلِيمًا ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٦/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ .. ح ٢٥٩ ، وسنن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، وتاريخ الطبري (ج ٢٠٩/٢) .

(٤) مجمع الزوائد (ج ٧٢/١) .

(٥) انظر : صحيح مسلم (ج ١٥٧/١) كتاب الإيمان - باب في ذكر سدرة المنتهى ح ٢٧٩ .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) وقال : رواه البزار وفيه هلال الصيرفي عن أبي كثير الأنصاري لم أر من ذكرها .

سَلِيمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الشَّيَاطِينَ وَالرِّيَّاحَ ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَّمْتَ عَيْسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى يَا ذَنْكَ ، وَأَعَدْتَهُ وَأُمَّةً مِنَ الشَّيَاطِينِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلٌ ، « فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ : قَدْ اتَّخَذْتِكَ خَلِيلًا - قَالَ : وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ - وَأَرْسَلْتِكَ إِلَى النَّاسِ كَاقْتَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَشَرَحْتَ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْتَ عَنْكَ وَزْرَكَ ، وَرَفَعْتَ لَكَ ذِكْرَكَ ، فَلَا أَذْكَرَ إِلَّا ذَكَرْتَهُ مَعِيَ - يَعْنِي بِذَلِكَ الْأَذَانَ - وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ أُمَّةً وَسَطًا ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ هُمِ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ الْآخِرُونَ ، وَجَعَلْتَ مِنْ أُمَّتِكَ أَقْوَامًا قُلُوبُهُمْ أَنَاغِيلُهُمْ ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ لَا تَحْجُزُ عَلَيْهِمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، وَجَعَلْتَكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا وَآخِرَهُمْ مَبْعَاً ، وَأَتَيْتَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ ، وَأَعْطَيْتَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ ، وَجَعَلْتَكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا .

قال : وقال النبي ﷺ : « فَضَّلَنِي رَبِّي : أُرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَأَلْقَى فِي قَلْبِ عَدُوِّي الرُّعْبَ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأَجَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجَعَلْتَ الْأَرْضَ كُلَّهَا لِي مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأَعْطَيْتُ فَوَاتِحَ الْكَلَامِ وَخَوَاتِمَةَ وَجْهَامِعَهُ ، وَعَرَّضْتَ عَلَيَّ أُمَّتِي فَلَمْ يَخْفَ عَلَيَّ التَّابِعُ وَالْمَتَّبِعُ .. » (١) .

- رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

واختلف في رؤية النبي ﷺ لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليلة الإسراء والمعراج ، والراجح عند أكثر العلماء أنه رآه بعيني رأسه في تلك الليلة . ومن القائلين بالرؤية ابن عباس وابن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم (٢) ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » (٣) ، وعنه أيضاً قال : إن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين : مرة ببصره ، ومرة بفؤاده (٤) ، كما روي عنه أنه قال : نظر محمد ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى ، قال عكرمة : فقلت لابن عباس : نظر محمد إلى ربه ؟ قال : نعم ؛ جعل الكلام لموسى ، والأخلة لإبراهيم ، والنظر لمحمد ﷺ (٥) .

وقد أنكرت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، تلك الرؤية وقالت : من زعم أن محمداً رأى ربه بعين رأسه فقد أعظم على الله ، عز وجل ، الفرية ، محتجة بقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (٦) .

روى مسلم في صحيحه بسنده عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة ! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست ، فقلت : يا أم المؤمنين ! أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَأَى بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ (٧) ، ﴿ وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ ، سَادَاً عَظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » ، فقالت : أولم تسمع أن الله يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ، أولم تسمع أن الله

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٢/٢) .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٠٨/١) .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٩/١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح ، خلا جهور بن منصور الكوفي ، وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات .

(٥) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٩/١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه حفص بن عمر العدني ، روى ابن أبي حاتم توثيقه عن أبي عبد الله الطبراني وقد ضعفه النسائي وغيره .

(٦) الأنعام : ١٠٣ .

(٧) التكوين : ٢٣ .

قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ صَعِدَ بِي فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ فَأَتَيْتُنَا سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيْتُنِي ضَبَابَةً فَخَرَرْتُ سَاجِدًا ، فَقِيلَ لِي : إِنَّ يَوْمَ خَلَقْتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَقُمَّ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ ، فَرَجَعْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ : كَمْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً ، قَالَ : فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهَا أَنْتَ وَلَا أُمَّتُكَ - وَفِي لَفْظٍ : أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ ، عَالَجَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ وَإِنَّ أُمَّتَكَ ضَعِيفَةٌ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ - فَأَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ » ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جَبْرِيلُ : أَن نَعَمْ إِنْ شِئْتَ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي وَقُلْتُ : يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ^(١) ، ثُمَّ أَتَيْتُ مُوسَى فَسَأَلْتُهُ بِالرُّجُوعِ ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى أَنْ وَضَعَ ذَلِكَ عَنِّي إِلَّا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي وَسَأَلْتُهُ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ، فَمَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ - وَقُدِيفَ فِي قَلْبِهِ الْأَرْجِحُ - فَنُودِيَ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي وَأَجَزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا - وَفِي لَفْظٍ : إِنَّهُمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرَ ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ، وَمِنْهُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَمْلِكْهَا كَتَبْتُ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُ لَهُ عَشْرًا ، وَمِنْهُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَمْلِكْهَا لَمْ تَكْتُبْ شَيْئًا ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً - وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، احْتَبَسَهُ عِنْدَ الْحَمْسِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَمُّنُوا فَتَرَكُوهُ - وَفِي لَفْظٍ : فَإِنَّهُ فَرَضَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ صَلَاتَيْنِ فَمَا قَامُوا بِهَا - فَأَمَّتْكَ أَعْضَفُ أَجْسَادًا وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا ، فَارْجِعْ فَلِيخَفَّفْ عَنْكَ رَبِّكَ ، كُلَّ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَبْرِيلَ لِيُشِيرَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَكْرَهُ ذَلِكَ جَبْرِيلُ ، قَالَ ﷺ : « فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي ^(٢) ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَسَأَلْتُهُ التَّخْفِيفَ ، فَقَالَ : إِنَّ يَوْمَ خَلَقْتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً - وَفِي لَفْظٍ : إِنَّهُ لَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْكَ كَمَا فَرَضْتُ عَلَيْكَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرٍ أَمْثَالِهَا فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ وَهِيَ خَمْسِينَ عَلَيْكَ ، فَقَمَّ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى صِرَى - أَيْ خَتَمَ - فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : كَيْفَ فَعَلْتُ ؟ فَقُلْتُ : خَفَّفَ عَنَّا أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، فَقَالَ مُوسَى : قَدْ وَاللَّهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ؛ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَلِيخَفَّفْ عَنْكَ أَيْضًا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ صِرَى فَلَمْ أَرْجِعْ ^(٣) .

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « كَانَ مُوسَى ﷺ أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ أَوْلَا وَخَيْرَهُمْ آخِرًا » ^(٤) .

- مِمَّا خُصَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأُمَّتُهُ : وَكَانَ مِنْ جَمَلَةِ مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ مِنَ السَّمَاءِ وَخُصَّ بِهِ وَأُمَّتُهُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغَيْرِ لِمَنْ لَمْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُفْجَحَاتِ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ^(٥) .

وقد خُصَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأُمُورٍ أُخْرَى لَيْلَةَ عُرْجٍ بِهِ ، فَقَدْ رَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أُعْطِيتُ ثَلَاثًا : إِنَّكَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامُ الْمُتَمِّينَ ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَائِدُ الْعَرِّ الْمُحْجَلِينَ » ^(٦) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أنه لما انتهى النبي ﷺ إلى السدرة وكلمه ربه قال له : سل : فقال : « إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكَلِيمًا ، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَأَلَنْتَ لَهُ الْحَدِيدَ ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ ، وَأَعْطَيْتَ

- (١) في صحيح مسلم (ج ١٤٦/١) ح ٢٥٩ : أنه وضع عنه خمسًا .
- (٢) رجوع النبي ﷺ بعد تقرير الحمس لطلب التخفيف من تفرقات بعض الرواة ، والمحموظ أن النبي ﷺ قال لموسى ، عليه السلام ، في المرة الأخيرة : « استحييت من ربِّي » . انظر : فتح الباري (ج ٤٨٦/١٣) .
- (٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٤/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكَلِيمًا ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٦/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ .. ح ٢٥٩ ، وسانن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، وتاريخ الطبري (ج ٢٠٩/٢) .
- (٤) مجمع الزوائد (ج ٧٢/١) .
- (٥) انظر : صحيح مسلم (ج ١٥٧/١) كتاب الإيمان - باب في ذكر سدرة المنتهى ح ٢٧٩ .
- (٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) وقال : رواه البزار وفيه هلال الصيرفي عن أبي كثير الأنصاري لم أر من ذكرها .

سَلَّمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الشَّيَاطِينَ وَالرِّيَّاحَ ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَّمْتَ عَيْسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِكَ ، وَأَعَدْتَهُ وَأُمَّةً مِنَ الشَّيَاطِينِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلٌ » ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ : قَدْ اتَّخَذْتِكَ خَلِيلًا - قَالَ : وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ - وَأَرْسَلْتَنِي إِلَى النَّاسِ كَأَقَمَّةٍ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَشَرَحْتَ لَكَ صَدْرِي ، وَوَضَعْتَ عِنْدَكَ وَزْرِي ، وَرَفَعْتَ لَكَ ذِكْرِي ، فَلَا أَذْكَرُ إِلَّا ذَكَرْتَهُ مَعِيَ - يَعْنِي بِذَلِكَ الْأَذَانَ - وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتَ لِلنَّاسِ ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ أُمَّةً وَسَطًا ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ الْآخِرُونَ ، وَجَعَلْتَ مِنْ أُمَّتِكَ أَقْوَامًا قُلُوبُهُمْ أَنَا جِيلُهُمْ ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ لَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، وَجَعَلْتَكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْفًا وَآخِرَهُمْ مَبْعُوثًا ، وَأَتَيْتَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ ، وَأَعْطَيْتَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ ، وَجَعَلْتَكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا .

قال : وقال النبي ﷺ : « فَضَّلَنِي رَبِّي ؛ أُرْسَلْتَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَأَلْقَى فِي قَلْبِ عَدُوِّي الرُّعْبَ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأَحْلَتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجَعَلْتَ الْأَرْضَ كُلَّهَا لِي مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأَعْطَيْتَ قُضَايَا الْكَلَامِ وَخَوَاتِيمَ الْجَوَامِعِ ، وَعَرَضْتَ عَلَيَّ أُمَّتِي فَلَمْ يَخْفَ عَلَيَّ التَّابِعُ وَالْمَتَّبِعُ .. » (١) .

• رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

واختلفت في رؤية النبي ﷺ لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ ، وَالرَّاجِحُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ رَأَى بِعَيْنِي رَأْسَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِالرُّؤْيَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٢) ، فَمَنْ ابْنُ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » (٣) ، وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : إِنْ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً بِبَصَرِهِ ، وَمَرَّةً بِفُؤَادِهِ (٤) ، كَمَا رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : نَظَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، قَالَ عِكْرِمَةُ : فَفَلَقْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : نَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى رَبِّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ جَعَلَ الْكَلَامَ لِمُوسَى ، وَالْخَلَّةَ لِإِبْرَاهِيمَ ، وَالنَّظَرَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ (٥) .

وقد أنكرت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، تلك الرؤية وقالت : من زعم أن محمدًا رأى ربه بعين رأسه فقد أعظم على الله ، عز وجل ، الفرية ، محتجة بقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (٦) .

روى مسلم في صحيحه بسنده عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة ! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست ، فقلت : يا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ! أَنْظِرِيَنِي وَلَا تَعْجَلِيَنِي ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ رَأَى بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ (٧) ، ﴿ وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ ، سَادًا عِظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » ، فقالت : أولم تسمع أن الله يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ، أولم تسمع أن الله

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٢/٢) .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٠٨/١) .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٩/١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح ، خلا جهور بن منصور الكوفي ، وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات .

(٥) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٩/١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه حفص بن عمر العدني ، روى ابن أبي حاتم توثيقه عن أبي عبد الله الطهراني وقد ضعفه النسائي وغيره .

(٦) الأنعام : ١٠٣ .

(٧) التكوير : ٢٣ .

قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ صَعِدَ بِي فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ فَاتَيْتُنَا سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، فَغَشِيْتَنِي صَبَابَةً فَخَرَّرْتُ سَاجِدًا ، فَقِيلَ لِي : إِنَّ يَوْمَ خَلَقْتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً ، فَقُمَّ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ ، فَرَجَعْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ : كَمْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلَاةً ، قَالَ : فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهَا أَنْتَ وَلَا أُمَّتُكَ - وَفِي لَفْظٍ : أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ ، غَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ وَإِنَّ أُمَّتَكَ ضَعِيفَةٌ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ - فَأَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ » ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جَبْرِيلُ : أَنْ نَعْمَ إِنْ شِئْتَ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي وَقُلْتُ : يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ^(١) ، ثُمَّ أَتَيْتُ مُوسَى فَأَمَرَنِي بِالرُّجُوعِ ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى أَنْ وَضَعَ ذَلِكَ عَنِّي إِلَّا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي وَسَأَلْتُهُ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ، فَمَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ - وَوَقَيْتُ فِي قَلْبِيهِ أَلَّا يَرْجِعَ - فَنُودِيَ إِنَّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي وَأَجَزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا - وَفِي لَفْظٍ : إِنَّهُمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرَ ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ، وَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تَكْتَبْ شَيْئًا ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً - وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، احْتَبَسَهُ عِنْدَ الْحَمْسِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ - وَفِي لَفْظٍ : فَإِنَّهُ فَرَضَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ صَلَاتَيْنِ فَمَا قَامُوا بِهَا - فَأَمَّتْكَ أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسباعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل ، قال ﷺ : « فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي ^(٢) ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَسَأَلْتُهُ التَّخْفِيفَ ، فَقَالَ : إِنَّ يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً - وَفِي لَفْظٍ : إِنَّهُ لَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ كَمَا فَرَضْتُ عَلَيْكَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرٍ أَمْثَالِهَا فِيهِ خَمْسُونَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ ، فَقُمَّ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى صِرَى - أَيْ خَتَمَ - فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : كَيْفَ فَعَلْتُ ؟ فَقُلْتُ : خَفَّفَ عَنَّا أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، فَقَالَ مُوسَى : قَدْ وَاللَّهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ؛ ارجع إلى رَبِّكَ فَلْيَخَفِّفْ عَنكَ أَيْضًا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ صِرَى فَلَمْ أَرْجِعْ ^(٣) .

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « كَانَ مُوسَى ﷺ أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ أَوْلَى وَخَيْرَهُمْ آخِرًا » ^(٤) .

- مَا خَصَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأُمَّتَهُ : وَكَانَ مِنْ جَمَلَةِ مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ مِنَ السَّمَاءِ وَخَصَّ بِهِ وَأُمَّتَهُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغَيْرَ لِمَنْ لَمْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُتَّحِبَاتِ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ^(٥) .

وقد خصَّ النبي ﷺ بأمور أخرى ليلة عرج به ، فقد روي عنه ﷺ أنه قال : « أُعْطِيتُ ثَلَاثًا ؛ إِنَّكَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَإِسَامُ الْمُتَّقِينَ ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَائِدُ الْعَرِّ الْمُحْجَلِينَ » ^(٦) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أنه لما انتهى النبي ﷺ إلى السدرة وكممه ربه قال له : سل : فقال : « إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَكَلَّمْتَهُ مُوسَى تَكَلِيمًا ، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَأَلْنْتَ لَهُ الْحَدِيدَ ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ ، وَأَعْطَيْتَ

(١) في صحيح مسلم (ج ١٤٦/١) ح ٢٥٩ : أنه وضع عنه خمساً .

(٢) رجوع النبي ﷺ بعد تقرير الحس لطلب التخفيف من تقربات بعض الرواة ، والمخفوظ أن النبي ﷺ قال لموسى ، عليه السلام ، في المرة الأخيرة : « استحبيبت من ربي » . انظر : فتح الباري (ج ٤٨٦/١٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٤/٤) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، و (ج ١٨٢/٩) كتاب التوحيد - باب قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكَلِيمًا ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٦/١) كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ .. ح ٢٥٩ ، وسنن النسائي (ج ٢٢٢/١) كتاب الصلاة - فرض الصلاة ، وتاريخ الطبري (ج ٢٠٩/٢) .

(٤) مجمع الزوائد (ج ٧٢/١) .

(٥) انظر : صحيح مسلم (ج ١٥٧/١) كتاب الإيمان - باب في ذكر سدرة المنتهى ح ٢٧٩ .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) وقال : رواه البزار وفيه هلال الصيرفي عن أبي كثير الأنصاري لم أر من ذكرها .

سَلِيمَانَ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِبَالَ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسَ ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الشَّيَاطِينَ وَالرِّيَّاحَ ، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِكَ ، وَأَعَدْتَهُ وَأُمَّةً مِنَ الشَّيَاطِينِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ » ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ : قَدْ أَخَذْتُكَ خَلِيلًا - قَالَ : وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ - وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى النَّاسِ كَلْفَةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَشَرَحْتَ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْتَ عَنْكَ وَزْرَكَ ، وَرَفَعْتَ لَكَ ذِكْرَكَ ، فَلَا أَذْكَرُ إِلَّا ذَكَرْتَ مَعِيَ - يَعْنِي بِذَلِكَ الْأَذَانَ - وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ أُمَّةً وَسَطًا ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ هُمِ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ الْآخِرُونَ ، وَجَعَلْتَ مِنْ أُمَّتِكَ أَقْوَامًا قُلُوبُهُمْ أَنَاجِيلُهُمْ ، وَجَعَلْتَ أُمَّتَكَ لَا تَجُوزُ عَلَيْهِمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، وَجَعَلْتَكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا وَآخِرَهُمْ مَبْعَاً ، وَأَتَيْتَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ ، وَأَعْطَيْتَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ ، وَجَعَلْتَكَ فَاتِحًا وَخَاتِمًا .

قال : وقال النبي ﷺ : « فَضَّلَنِي رَبِّي ؛ أُرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَكَافَّةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَأَلْقَى فِي قَلْبِ عَدُوِّي الرُّعْبَ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأَحْلَتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَجِلْ لِأَخَدٍ قَبْلِي ، وَجَعَلْتَ الْأَرْضَ كُلَّهَا لِي مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأَعْطَيْتُ فَوَاتِحَ الْكَلَامِ وَخَوَاتِمَةَ وَجْوَاعِمَهُ ، وَعَرَّضْتَ عَلَيَّ أُمَّتِي فَلَمْ يَخَفْ عَلَيَّ التَّابِعُ وَالْمَتَّبِعُ .. » (١) .

• رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

واختلفت في رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة الإسراء والمعراج ، والراجح عند أكثر العلماء أنه رآه بعيني رأسه في تلك الليلة . ومن القائلين بالرؤية ابن عباس وابن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم (٢) ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنها ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » (٣) ، وعنه أيضاً قال : إن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين : مرة ببصره ، ومرة بفؤاده (٤) ، كما روي عنه أنه قال : نظر محمد ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى ، قال عكرمة : فقلت لابن عباس : نظر محمد إلى ربه ؟ قال : نعم ؛ جعل الكلام لموسى ، والأخلة لإبراهيم ، والنظر لمحمد ﷺ (٥) .

وقد أنكرت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، تلك الرؤية وقالت : من زعم أن محمداً رأى ربه بعين رأسه فقد أعظم على الله ، عز وجل ، الفرية ، محتجة بقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (٦) .

روى مسلم في صحيحه بسنده عن مشروق قال : كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة ! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست ، فقلت : يا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ! أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَأَى بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ (٧) ، ﴿ وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيْلٌ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ ، سَادَاً عَظِيمًا خَلَقَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » ، فقالت : أولم تسمع أن الله يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ، أولم تسمع أن الله

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٢/٢) .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٠٨/١) .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٨/١) وقال : رواه أخذ ورجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٩/١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح ، خلا جهور بن منصور الكوفي ، وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات .

(٥) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٩/١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه حفص بن عمر العدني ، روى ابن أبي حاتم توثيقه عن أبي عبد الله الطبراني وقد ضعفه النسائي وغيره .

(٦) الأنعام : ١٠٣ .

(٧) التكوين : ٢٣ .

يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ (١) .
 وقد سئل الإمام أحمد ، رحمه الله ، بأي معنى تدفع قول عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية ؟ فقال : يدفع بقول النبي ﷺ : « رَأَيْتُ رَبِّي » ، وقول النبي ﷺ أكبر من قولها (٢) .

عودة النبي ﷺ إلى مكة وإخباره الناس بمسراه :

وهبط جبريل ، عليه السلام ، بالنبي ﷺ من السماوات ، قال ﷺ : « لَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا نَظَرْتُ أَسْفَلَ مِنِّي ، فَإِذَا أَنَا بِرَهْجٍ (٣) وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جَبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَحْوُمُونَ عَلَى أُغْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ » (٤) .

ثم ركب النبي ﷺ البُرَاقَ منصرفاً إلى مكة بصحبة جبريل ، عليه السلام ، فر بعير لتريش فسلم عليهم ، ثم أتى مكة قبل الصبح (٥) .

فلَمَّا صَلَّى رسول الله ﷺ الصبح بأصحابه غدا على قريش في المسجد ، فأخبرهم بمسراه ، فقال المشركون : هذا والله الإمر (٦) البين وكذبوه ، وقال ناس ممن أسلم : نحن نصدق محمداً بما يقول ! فارتدوا كفاراً ، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل . وأنزل الله تعالى فبين ارتد عن إسلامه لذلك : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٧) .

وذهب الناس إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة !! فقال : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس ، فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فقالوا : أوتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، فما يعجبكم من ذلك ؟ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ؛ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه - وفي لفظ : أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فهذا أبعد مما تعجبون منه . فلذلك سمي أبو بكر الصديق (٨) .

ويروى أنه لما رجع النبي ﷺ إلى مكة من ليلته أخبر أم هانئ بنت أبي طالب ، رضي الله عنها ، بمسراه فقال لها : « يَا أُمَّ هَانِيَّةِ ! لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمْ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتُ بِهَذَا الْوَادِي ، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ ، ثُمَّ قَدُ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْعَدَاةِ مَعَكُمْ الْآنَ كَمَا تَرَيْنَ » ، ثم قام ليخرج إلى قريش ليحدثهم بما رأى ، قالت أم هانئ : فتعلقت بردائه وقلت : أنشدك الله ابن عم أن تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك - وفي لفظ : يا نبي الله ! لا تحدث هذا الحديث الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : « وَاللَّهِ لَأُحَدِّثَهُمْ هُوَ » . قالت أم هانئ : وضرب بيده على رداءه فانزعته من يدي ، فارتفع عن بطنه ، فنظرت إلى عكته فوق رداءه وكأنه طي القراطيس ، وإذا نور ساطع عند فؤاده كاد يخطف بصري فخررت ساجدة ، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج ، فقلت لجاريتي نُبعة وكانت حبشية : ويحك ! أتبعيه فانظري ماذا يقول وماذا يقال له . قالت : فلما رجعت نبعة أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر

(١) الشورى : ٥١ ، والخبر في صحيح مسلم (ج ١٥٩/١) كتاب الإيمان - باب معنى قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةَ أُخْرَى ﴾ ح ٢٨٧ .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٠٩/١) .

(٣) الرهج : الغبار ، والسحاب الرقيق كأنه غبار (الوسيط) ج ٣٧٨/١ .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٢٥٢/٢) .

(٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٦/٢) .

(٦) الإمر : الأمر العظيم الشنيع ، وقيل : العجيب (لسان العرب) ج ١٢٩/١ .

(٧) الإسراء : ٦٠ ، انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢ ، ٥) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٧٤/١) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢) ، والمستدرک (ج ٦٢/٣) .

من قريش في الحطيم ، فيهم المَطْعِم بن عدي ، وأبو جهل بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، فقال : « إني صليتُ اللَّيْلَةَ العِشَاءَ في هذا المَسْجِدِ وصَلَّيْتُ بِهِ العِدَّةَ ، وأتَيْتُ فِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ بَيْتَ المَقْدِسِ » (١) .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ عَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكْذِبِي ، فَفَعَدْتُ مُتَعَزِّلاً حَرِينَا ، فَمَرَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيَّ ، فَقَالَ كَالْمُسْتَهْزِيءِ : هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : إِنَّهُ أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ ، قَالَ : إِلَى أَيْنَ ؟ قُلْتُ : إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ ، قَالَ : ثُمَّ أَصْبَحْتُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَلَمْ يَرَ أَنَّ يَكْذِبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجِدَهُ الحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَحَدَهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ » ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ! فَانْفَضَّتْ إِلَيْهِ المَجَالِسُ وَجَاؤُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا ، قَالَ : حَدَّثْتُ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إني أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ » ، قَالُوا : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ : « إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ » ، قَالُوا : ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » (٢) .

وفي رواية أخرى : أن النبي ﷺ فُقد تلك اللَّيْلَةَ ، فَتَفَرَّقَتْ بَنُو عَبْدِ المَطْلَبِ يَطْلُبُونَهُ وَيَلْتَمِسُونَهُ ، وَخَرَجَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المَطْلَبِ حَتَّى بَلَغَ ذَا طَوًى (٣) فَجَعَلَ يَصْرُخُ : يَا مُحَمَّدُ ! يَا مُحَمَّدُ ! فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَبَّيْكَ ! » قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ! عَنَيْتُ (٤) قَوْمَكَ مِنْذُ اللَّيْلَةِ فَأَيْنَ كُنْتَ ؟ قَالَ : « أَتَيْتُ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ » ، قَالَ : فِي لَيْلَتِكَ ! قَالَ : « نَعَمْ » ، قَالَ : هَلْ أَصَابَكَ إِلَّا خَيْرٌ ؟ قَالَ : « مَا أَصَابَنِي إِلَّا خَيْرٌ » (٥) .

ثم طفق النبي ﷺ يحدث قومه بما رآه فقال : « فَنَشَرْتُ لِي رَهْطًا مِنَ الأنبياءِ ، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَصَلَّيْتُ بِهِمْ وَكَلَّمْتُهُمْ » ، فقال أبو جهل كالمستهزئ : صِفْهُ لِي ، فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَلَمْ أَرِ رَجُلًا أَشْبَهَ بِصَاحِبِكُمْ وَلَا صَاحِبِكُمْ أَشْبَهَ بِهِ مِنْهُ ، وَأَمَّا مُوسَى فَرَجُلٌ أَدَمٌ طَوِيلٌ ، ضَرْبُ (٦) جَعْدٍ أَقْنَى ، كَأَنَّ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، وَأَمَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَرَجُلٌ أَحْمَرٌ ، بَيْنَ القَصِيرِ وَالتَّوِيلِ ، عَرِيضُ الصَّدْرِ ، سَبُطُ الشَّعْرِ ، كَثِيرُ خِيَلَانِ الوَجْهِ ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ (٧) ، تَخَالَ رَأْسَهُ يَقْطُرُ مَاءٌ وَلَيْسَ بِهِ مَاءٌ ، أَشْبَهَ رِجَالِكُمْ بِهِ عُرْوَةَ بَنِ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ » .

فضحَّ المشركون وأعظموا ذلك ، وصار بعضهم يصفقُ وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً ، وقال المَطْعِم بن عدي : كلَّ أمرِك قبل اليوم كان أمماً (٨) غير قولك اليوم ، أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مُصْعِداً شهراً ومُنْحَدِراً شهراً ، تزعم أنك آتيتني في ليلة ! واللآت والعزرى لا أصدقك ، وما كان هذا الذي تقول قط . ويقال : إن صاحب هذا القول هو أبو جهل . وكان للمَطْعِم بن عدي حوض على زمزم أعطاه إياه عبد المطلب ، فهدمه ، فأقسم باللآت والعزرى لا يسقي منه قطرة أبداً . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا مَطْعِم ! بئس ما قلت لابن أخيك جَهْتَهُ (٩) وكذبتَه ، أنا أشهد أنه صادق ، ثم سأل النبي ﷺ أن يصف له بيت المقدس فقال : يا نبي الله ! فصفه لي فياني قد جئته (١٠) ، فقال رسول الله ﷺ : « فَرَفَعَ لِي حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ » . وفي لفظ : « فَفَتَحَ لِي

(١) سيرة ابن هشام (ج ١/٢) ، وعيون الأثر (ج ١/١٤١) .

(٢) مسند الإمام أحمد (ج ٣٠٩/١) .

(٣) ذُو طَوًى : وادٍ بمكة (معجم البلدان ج ٦/٦٤٦) .

(٤) عَنَاءٌ : كَلْفَةٌ مَا يَشْقُ عَلَيْهِ (الوسيط ج ٦/٦٢٩٧) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١/٢١٤) .

(٦) الضَّرْبُ مِنَ الرُّجَالِ : الخَفِيفُ اللَّحْمِ ، المَشْشُوقُ المَسْتَدِقُّ (النهاية ج ٧/٧٨٣) .

(٧) الدِّيمَاسُ : الحَمَامُ (النهاية ج ٢/١٣٢٢) .

(٨) الأَمَمُ : التَّسْبِيْرُ (النهاية ج ١/٦٩١) .

(٩) جَبَّةُ الرُّجُلِ : رَدَّةٌ عَنْ حَاجَتَيْهِ وَاسْتِقْبَالُهُ بِمَا يَكْتَرُهُ (لسان العرب ج ١/٥٤٠) .

(١٠) قال القسطلاني في شرحه على المواهب اللدنية (ج ١/١٢٧) : « وقول أبي بكر : صفة لي لم يكن عن شك ؛ فإنه صدقه من أول وهلة ، ولكنه أراد إظهار صدقه ، عليه الصلاة والسلام ، لقومه فإنهم كانوا يثقون بأبي بكر ، فإذا طابقت خبره عليه السلام ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم » .

يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخْبًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ (١) .
وقد سئل الإمام أحمد ، رحمه الله ، بأي معنى تدفع قول عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمداً رأى ربّه فقد أعظم على الله تعالى الفيزية ؟ فقال : يدفع بقول النبي ﷺ : « رَأَيْتُ رَبِّي » ، وقول النبي ﷺ أكبر من قولها (٢) .

عودة النبي ﷺ إلى مكة وإخباره الناس بمسراه :

وهبط جبريل ، عليه السلام ، بالنبي ﷺ من السموات ، قال ﷺ : « لَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا نَظَرْتُ أَسْفَلَ مِنِّي ، فَإِذَا أَنَا بِرَهْجٍ (٣) وَدَخَانٍ وَأَصْوَاتٍ فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جَبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَخْوُمُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ » (٤) .

ثم ركب النبي ﷺ البُرَاقَ منصرفاً إلى مكة بصحبة جبريل ، عليه السلام ، فرّ بعير لقريش فسلم عليهم ، ثم أتى مكة قبل الصبح (٥) .

فلَمَّا صَلَّى رسول الله ﷺ الصُّبْحَ بأصحابه غدا على قریش في المسجد ، فأخبرهم بمسراه ، فقال المشركون : هذا والله الإمر (٦) البين وكذبوه ، وقال ناس ممن أسلم : نحن نصدّق محمداً بما يقول ! فارتدوا كفاراً ، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل . وأنزل الله تعالى فبين ارتد عن إسلامه لذلك : ﴿ وَمَا نَجَعْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٧) .

وذهب النَّاسُ إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه أُسري به اللَّيْلَةَ إلى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة !! فقال : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، ها هوذا في المسجد يحدث به النَّاسُ ، فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فقالوا : أوتصدقه أنه ذهب اللَّيْلَةَ إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، فما يعجبكم من ذلك ؟ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ؛ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه - وفي لفظ : أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روضة فهذا أبعد مما تعجبون منه . فلذلك سمّي أبو بكر الصّدّيق (٨) .

ويروى أنه لما رجع النبي ﷺ إلى مكة من ليلته أخبر أم هانئ بنت أبي طالب ، رضي الله عنها ، بمسراه فقال لها : « يَا أُمَّ هَانِئِ ! لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمْ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتُ بِهَذَا الْوَادِي ، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ ، ثُمَّ قَدُ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْغَدَاةِ مَعَكُمْ الْآنَ كَمَا تَرَيْنَ » ، ثم قام ليخرج إلى قریش ليحدثهم بما رأى ، قالت أم هانئ : فتعلقت بردائه وقلت : أنشدك الله ابن عمّ أن تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك - وفي لفظ : يا نبي الله ! لا تحدث هذا الحديث النَّاسُ فيكذبوك ويؤذوك ، قال : « والله لأحدثهموه » . قالت أم هانئ : وضرب بيده على رداءه فانزعه من يدي ، فارتفع عن بطنه ، فنظرت إلى عكته فوق رداءه وكأنه طير القراطيس ، وإذا نور ساطع عند فؤاده كاد يخطف بصري فخررت ساجدة ، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج ، فقلت لجاريتي نُبعة وكانت حبشية : ويحك ! أتبعيه فانظري ماذا يقول وماذا يقال له . قالت : فلما رجعت نُبعة أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر

(١) الشُّورى : ٥١ ، والخبر في صحيح مسلم (ج ١٥٩/١) كتاب الإيمان - باب معنى قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى ﴾ ح ٢٨٧ .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٠٩/١) .

(٣) الرَّهْجُ : الغبار ، والسحاب الرقيق كأنه غبار (الوسيط : ج ٢٧٨/١) .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٣٥٢/٢) .

(٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٦/٢) .

(٦) الإمر : الأمر العظيم الشنيع ، وقيل : العجيب (لسان العرب : ج ١٢٩/١) .

(٧) الإسراء : ٦٠ ، انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢ ، ٥) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٧٤/١) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢) ، والمستدرک (ج ٦٢/٢) .

من قريش في الحطيم ، فيهم المَطْعِم بن عدي ، وأبو جهل بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، فقال : « إِنِّي صَلَّيْتُ اللَّيْلَةَ الْعِشَاءَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ وَصَلَّيْتُ بِهِ الْغَدَاةَ ، وَأَتَيْتُ فِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ » (١) .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ عَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مَكْذِبِي ، فَفَعَدْتُ مُعْتَزِلًا حَزِينًا ، فَمَرَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيَّ ، فَقَالَ كَالْمُسْتَهْزِئِ : هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : إِنَّهُ أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ ، قَالَ : إِلَى أَيْنَ ؟ قُلْتُ : إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، قَالَ : ثُمَّ أَصْبَحْتُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَلَمْ يَرَ أَنَّ يَكْذِبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعِدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَحَدْتَهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ » ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ! فَانْفَضَّتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ وَجَاؤُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهَا ، قَالَ : حَدَّثْتُ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ » ، قَالُوا : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ : « إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ » ، قَالُوا : ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » (٢) .

وفي رواية أخرى : أن النبي ﷺ فُقد تلك الليلة ، فتفرقت بنو عبد المطلب يطلبونه ويلتسونه ، وخرج العباس بن عبد المطلب حتى بلغ ذا طوى (٣) فجعل يصرخ : يا محمد ! يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ : « أَبَيْتُكَ ! » قال : يا ابن أخي ! عَنَيْتُ (٤) قَوْمَكَ مِنْذُ اللَّيْلَةِ فَأَيْنَ كُنْتَ ؟ قَالَ : « أَتَيْتُ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ » ، قَالَ : فِي لَيْلَتِكَ ! قَالَ : « نَعَمْ » ، قَالَ : هَلْ أَصَابَكَ إِلَّا خَيْرٌ ؟ قَالَ : « مَا أَصَابَنِي إِلَّا خَيْرٌ » (٥) .

ثم طفق النبي ﷺ يحدث قومه بما رآه فقال : « فَنَشَرَ لِي رَهْطًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَصَلَّيْتُ بِهِمْ وَكَلَّمْتُهُمْ » ، فقال أبو جهل كالمستهزئ : صفيه لي ، فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَلَمْ أَرِ رَجُلًا أَشْبَهَ بِصَاحِبِكُمْ وَلَا صَاحِبِكُمْ أَشْبَهَ بِهِ مِنْهُ ، وَأَمَّا مُوسَى فَرَجُلٌ أَتَمُّ طَوِيلٌ ، ضَرْبُ (٦) جَعْدٍ أَقْنَى ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، وَأَمَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَرَجُلٌ أَحْمَرٌ ، بَيْنَ الْقَصِيرِ وَالطَّوِيلِ ، عَرِيضُ الصَّدْرِ ، سَبَطُ الشَّعْرِ ، كَثِيرٌ خِيْلَانِ الْوَجْهِ ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيَّاسٍ (٧) ، تَخَالَ رَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً ، وَلَيْسَ بِهِ مَاءٌ ، أَشْبَهَ رِجَالَكُمْ بِهِ عُرْوَةَ بَنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ » .

فضج المشركون وأعظموا ذلك ، وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً ، وقال المَطْعِم بن عدي : كل أمرك قبل اليوم كان أمناً (٨) غير قولك اليوم ، أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مُصْعِدًا شهراً ومُنْحَدِرًا شهراً ، تزعم أنك آتيت في ليلة ! واللآت والعزى لا أصدقك ، وما كان هذا الذي تقول قط . ويقال : إن صاحب هذا القول هو أبو جهل . وكان للمَطْعِم بن عدي حوض على زمزم أعطاه إياه عبد المطلب ، فهدمه ، فأقسم باللآت والعزى لا يسقي منه قطرة أبداً . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا مَطْعِم ! بئس ما قلت لابن أخيك جَهْتَهُ (٩) وكذبتته ، أنا أشهد أنه صادق ، ثم سأل النبي ﷺ أن يصف له بيت المقدس فقال : يا نبي الله ! فصِّفه لي فإني قد جئته (١٠) ، فقال رسول الله ﷺ : « فَرَفَعَ لِي حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ » - وفي لفظ : « فَفَتَحَ لِي

(١) سيرة ابن هشام (ج ٩٧٢) ، وعيون الأثر (ج ١٤١/١) .

(٢) مسند الإمام أحمد (ج ٣٠٩/١) .

(٣) ذو طوى : واد بمكة (معجم البلدان : ج ٦٤/١) .

(٤) عناء : كلفة ما يشق عليه (الوسيط : ج ٦٣٩/٢) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ٢١٤/١) .

(٦) الضرب من الرجال : الخفيف اللحم ، الممشوق المستدق (النهاية : ج ٧٨/٢) .

(٧) الدياس : الحمام (النهاية : ج ١٣٢/٢) .

(٨) الأتم : اليسير (النهاية : ج ٦٩/١) .

(٩) حبة الرجل : ردة عن حاجته واستقبلة بما يكره (لسان العرب : ج ٥٤٠/١) .

(١٠) قال القسطلاني في شرحه على المواهب اللدنية (ج ١٢٧/٦) : « وقول أبي بكر : صفة لي لم يكن عن شك ؛ فإنه صدقه من أول وهلة ، ولكنه أراد إظهار صدقه ، عليه الصلاة والسلام ، لقومه فإنهم كانوا يتقون بأبي بكر ، فإذا طابق خبره عليه السلام ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم » .

يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِحَكِيمٍ ﴾ (١) .
وقد سئل الإمام أحمد ، رحمه الله ، بأي معنى تدفع قول عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية ؟ فقال : يدفع بقول النبي ﷺ : « رَأَيْتَ رَبِّي » ، وقول النبي ﷺ أكبر من قولها (٢) .

عودة النبي ﷺ إلى مكة وإخباره الناس بمسراه :

وهبط جبريل ، عليه السلام ، بالنبي ﷺ من السموات ، قال ﷺ : « لَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا نَظَرْتُ أَسْفَلَ مِنِّي ، فَإِذَا أَنَا بِرَهْجٍ (٣) وَدَخَانٍ وَأَصْوَاتٍ فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جَبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَحْوِمُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ » (٤) .

ثم ركب النبي ﷺ البراق منصرفاً إلى مكة بصحبة جبريل ، عليه السلام ، فر بعير لقريش فسلم عليهم ، ثم أتى مكة قبل الصبح (٥) .

فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح بأصحابه غدا على قريش في المسجد ، فأخبرهم بمسراه ، فقال المشركون : هذا والله الإمر (٦) البين وكذبوه ، وقال ناس ممن أسلم : نحن نصدق محمداً بما يقول ! فارتدوا كفاراً ، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل . وأنزل الله تعالى فبين ارتد عن إسلامه لذلك : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٧) .

وذهب الناس إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس وصلّى فيه ورجع إلى مكة !! فقال : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، ها هوذا في المسجد يحدث به الناس ، فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فقالوا : أو تصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، فما يعجبكم من ذلك ؟ إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك ؛ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه - وفي لفظ : أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فهذا أبعد مما تعجبون منه . فلذلك سمّي أبو بكر الصديق (٨) .

ويروى أنه لما رجع النبي ﷺ إلى مكة من ليلته أخبر أم هانئ بنت أبي طالب ، رضي الله عنها ، بمسراه فقال لها : « يَا أُمَّ هَانِئِ ! لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمْ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ كَمَا رَأَيْتِ هَذَا الْوَادِي ، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ ، ثُمَّ قَدْ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْغَدَاةِ مَعَكُمْ الْآنَ كَمَا تَرَيْنَ » ، ثم قام ليخرج إلى قريش ليحدثهم بما رأى ، قالت أم هانئ : فتعلقت بردائه وقلت : أنشدك الله ابن عم أن تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك - وفي لفظ : يا نبي الله ! لا تحدث هذا الحديث الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : « وَاللَّهِ لَا أَحَدًا تَهْتَمُّهُ » . قالت أم هانئ : وضرب بيده على رداءه فانزعته من يدي ، فارتفع عن بطنه ، فنظرت إلى عنقه فوق رداءه وكأنه طي القراطيس ، وإذا نور ساطع عند فؤاده كاد يخطف بصري فخررت ساجدة ، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج ، فقلت لجاريقي نُبعة وكانت حبشيّة : ويحك ! أتبعيه فانظري ماذا يقول وماذا يقال له . قالت : فلما رجعت نُبعة أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر

(١) الشورى : ٥١ ، والخبر في صحيح مسلم (ج ١٥٩/١) كتاب الإيمان - باب معنى قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةَ أُخْرَى ﴾ ح ٢٨٧ .

(٢) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٠٩/١) .

(٣) الرّهج : الغبار ، والسحاب الرقيق كأنه غبار (الوسيط : ج ٢٧٨/١) .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٣٥٢/٢) .

(٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٦/٢) .

(٦) الإمر : الأمر العظيم الشنيع ، وقيل : العجيب (لسان العرب : ج ١٢٩/١) .

(٧) الإسراء : ٦٠ ، انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢ ، ٥) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٧٤/١) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢) ، وللمستدرک (ج ٦٢/٣) .

من قريش في الحطم ، فيهم الْمُطْعِمُ بن عدي ، وأبو جهل بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، فقال : « إِنِّي صَلَّيْتُ اللَّيْلَةَ الْعِشَاءَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ وَصَلَّيْتُ بِهِ الْعِدَّةَ ، وَأَتَيْتُ فِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ » (١) .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ عَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مَكْذِبِي ، فَقَعَدْتُ مُعْتَزِلًا حَزِينًا ، فَمَرَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيَّ ، فَقَالَ كَالْمُسْتَهْزِئِ : هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : إِنَّهُ أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ ، قَالَ : إِلَى أَيْنَ ؟ قُلْتُ : إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، قَالَ : ثُمَّ أَصْبَحْتُ بَيْنَ ظَهْرَانِنَا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَلَمْ يَرَ أَنَّ يَكْذِبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعِدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَمَحَدْتَهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ » ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ! فَانْفَضْتُ إِلَيْهِ الْمَجَالِسَ وَجَاؤُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهَا ، قَالَ : حَدَّثْتُ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ » ، قَالُوا : إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ : « إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ » ، قَالُوا : ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » (٢) .

وفي رواية أخرى : أن النبي ﷺ فُقد تلك الليلة ، فتفرقت بنو عبد المطلب يطلبونه ويلتمسونه ، وخرج العباس بن عبد المطلب حتى بلغ ذا طوى (٣) فجعل يصرخ : يا محمد ! يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ : « لَبَّيْكَ ! » قال : يا ابن أخي ! عُنَيْتَ (٤) قَوْمَكَ مِنْذُ اللَّيْلَةِ فَأَيْنَ كُنْتَ ؟ قَالَ : « أَتَيْتُ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ » ، قَالَ : فِي لَيْلَتِكَ ! قَالَ : « نَعَمْ » ، قَالَ : هَلْ أَصَابَكَ إِلَّا خَيْرٌ ؟ قَالَ : « مَا أَصَابَنِي إِلَّا خَيْرٌ » (٥) .

ثم طفق النبي ﷺ يحدث قومه بما رآه فقال : « فَنَشَرْتُ لِي رَهْطًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَصَلَّيْتُ بِهِمْ وَكَلَّمْتُهُمْ » ، فقال أبو جهل كالمستهزئ : صفهم لي ، فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَلَمْ أَرِ رَجُلًا أَشْبَهَ بِصَاحِبِكُمْ وَلَا صَاحِبِكُمْ أَشْبَهَ بِهِ مِنْهُ ، وَأَمَّا مُوسَى فَرَجُلٌ أَتَمَّ طَوِيلٌ ، ضَرْبُ (٦) جَعْدُ أَقْنَى ، كَأَنَّ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، وَأَمَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَرَجُلٌ أَحْمَرٌ ، بَيْنَ الْقَصِيرِ وَالطَّوِيلِ ، عَرِيضُ الصَّدْرِ ، سَبَطُ الشَّعْرِ ، كَثِيرُ خَيْلَانِ الْوَجْهِ ، كَأَنَّ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ (٧) ، تَخَالَ رَأْسَهُ يَقَطُرُ مَاءٌ وَلَيْسَ بِهِ مَاءٌ ، أَشْبَهَ رِجَالِكُمْ بِهِ عُرْوَةَ بِنْتُ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ » .

فضج المشركون وأعظموا ذلك ، وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً ، وقال الْمُطْعِمُ بن عدي : كل أمرك قبل اليوم كان أمياً (٨) غير قولك اليوم ، أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مُصْعِدًا شهراً ومُنْحَدِرًا شهراً ، تزعم أنك أتيتني في ليلة ! واللآت والعزرى لأصدقك ، وما كان هذا الذي تقول قط . ويقال : إن صاحب هذا القول هو أبو جهل . وكان لِلْمُطْعِمِ بن عدي حوض على زمزم أعطاه إياه عبد المطلب ، فهدمه ، فأقسم باللآت والعزرى لا يسقي منه قطرة أبداً . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا مُطْعِمُ ! بئس ما قلت لابن أخيك جِبْهَتَهُ (٩) وكذبتته ، أنا أشهد أنه صادق ، ثم سأل النبي ﷺ أن يصف له بيت المقدس فقال : يا نبي الله ! فصِّفه لي فياني قد جئتته (١٠) ، فقال رسول الله ﷺ : « فَرَفَعَ لِي حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ » - وفي لفظ : « فَفَتَحَ لِي

(١) سيرة ابن هشام (ج ١/٧٢) ، وعبون الأثر (ج ١/١٤١) .

(٢) مسند الإمام أحمد (ج ٣٠٩/١) .

(٣) دُو طَوَى : وادٍ بمكة (معجم البلدان : ج ٦/٦٤) .

(٤) عَنَاءٌ : كَلْفَةٌ مَا يَشْقُ عَلَيْهِ (الوسيط : ج ٢/٦٣٩) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١/٢١٤) .

(٦) الضَّرْبُ مِنَ الرِّجَالِ : الْخَفِيفُ اللَّحْمِ ، الْمَشْشُوقُ الْمُسْتَدِيقُ (النهاية : ج ٧/٧٨٣) .

(٧) الدِّيمَاسُ : الْحَمَامُ (النهاية : ج ٢/١٣٣) .

(٨) الْأَمُّ : التَّيْسِيرُ (النهاية : ج ١/٦٩) .

(٩) جِبَّةُ الرَّجُلِ : رَدَّةٌ عَنْ حَاجَتِهِ وَاسْتِقْبَالُهُ بِمَا يَكْرَهُ (لسان العرب : ج ١/٥٤٠) .

(١٠) قال القسطلاني في شرحه على المواهب اللدنية (ج ١/١٢٧) : « وقول أبي بكر : صفة لي لم يكن عن شك ؛ فإنه صدقه من أول وهلة ، ولكنه أراد إظهار صدقه ، عليه الصلاة والسلام ، لقومه فإنهم كانوا يتقون بأبي بكر ، فإذا طابق خبره عليه السلام ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم » .

صراطٌ كَانِي أَنْظُرَ فِيهِ « - فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كما وصف له شيئاً قال : صدقت أشهد أنك رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر لما انتهى من وصفه : « أنت يا أبا بكر الصديق » ، فيومئذ سماه الصديق .

وفي رواية : أن المشركين قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد . وفي رواية أخرى : فقال رجل من المشركين - يقال إنه المظع بن عدي - أنا أعلم الناس ببيت المقدس وكيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، فإن يكن محمد صادقاً فسأخبركم ، وإن يكن كاذباً فسأخبركم ، فجاء ذلك المشرك فقال : يا محمد ! أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرني كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فذهبت أنت ، فما رأيت أنت حتى التبت علي بعض النعت ، قال : فجلا الله لي بيت المقدس - وفي لفظ : فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عقيل أو عقيل - فطقت أخبارهم عن آياته وأنا أنظر إليه ، فقال بعضهم : كم للمسجد من باب ؟ ولم أكن عددت أبوابه ، فجعلت أنظر إليها وأعدتها باباً باباً وأعلمهم » . وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مشاري ، فسألني عن أشياء من بيت المقدس لم أنبئها ، فكربت كربة ما كربت مثله قط ، قال : فرفعه الله لي أنظر إليه ، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به » . فلما فرغ ﷺ من نعته قال المشركون : أما النعت فوالله لقد أصاب (١) .

ثم طلبوا من رسول الله ﷺ دليلاً آخر على صدقه ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا - وكانت لهم عير قادمة من الشام ، وفي لفظ قالوا : ما آية ذلك يا محمد ! فإننا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال : « آية ذلك أنني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرتهم (٢) حس الدابة ، فندد لهم بعير ، فسألتم عليهم وذللتهم عليه ، فقال بعضهم : هذا صوت محمد ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بصحنان (٣) مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت مافيه ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب (٤) من البيضاء ثنية التميمي فقدمها جمل أوزق (٥) عليه غراتان (٦) ؛ إحداهما سوداء والأخرى برقاء (٧) ، فقالوا : أخبرنا ما عدتها ، وما فيها من الرعاة ، قال : « قد كنت عن عدتها مشغولاً » ، ثم قيل له ذلك ، فأخبرهم بكل رجل وبغيره ومتاعه ، قالوا : ومتى تجيء ؟ قال : « يوم الأربعاء » ، فقال الوليد بن المغيرة : ساحر ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولّى النهار ولم تجيء ، فدعا النبي ﷺ فزيد له في النهار ساعة ، وحسبت عليه الشمس (٨) ، ولما كان آخر النهار استقبلوا العير يتقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ ، وسألوه عن الإناء ، فأخبروه أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء ، وسألوه : هل ضل لكم بعير ؟ قالوا : نعم ، ند لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢ ، ٧) ، وصحيح البخاري (ج ٦٦٥) كتاب المناقب - باب حديث الإسراء ، وصحيح مسلم (ج ١٥٦/١) كتاب الإيمان - باب ذكر المسيح ... ح ٢٧٨ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٣٠٧/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٤/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٥/٢) ، وعيون الأثر (ج ١٤١/١) .

(٢) أنفرتهم : فرقتهم (النهاية : ج ٩٣/٥) .

(٣) صحنان : بسكون الجيم وفتحها ، جبل بناحية تهامة ، وقيل : جبل على بريد من مكة . (معجم البلدان : ج ٤٢٧/٥) .

(٤) تصوب : تنحدر (لسان العرب : ج ٢٥١٩/٤) .

(٥) الأوزق من الإبل : الذي في لونه بياض إلى سواد . والورقة : سواد في غبرة (لسان العرب : ج ٤٨١٦/٦) .

(٦) الغرارة : وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه (الوسيط : ج ٦٥٤/٢) .

(٧) يقال لكل شيء اجتمع فيه سواد وبياض أبرق ، ومؤنثه برقاء (لسان العرب : ج ٢٦٢/٢) .

(٨) يروى أنه لم تزد الشمس على أحد إلا على رسول الله ﷺ يومئذ وعلى يوشع بن نون حين قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم ويدخل السبت فلا يجل له قتالهم فيه ، فدعا الله فرد عليه الشمس حتى فرغ من قتالهم . انظر دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٤/٢) .

فمجب المشركون لما وجدوا الأمر كما أخبرهم رسول الله ﷺ ، وما زادهم ذلك إلا نفوراً وطغياناً كبيراً ، وقالوا : صدق الوليد بن المغيرة فيما قال : هذا سحر مبین^(١) ، وأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾^(٢) . والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الرُّقُوم كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما^(٣) .

ويروي دليل آخر على صدق النبي ﷺ فيما أخبر به قومه ، فقد جاء في حديث أبي سفيان بن حرب مع هرقل أنه لما سأله عن النبي ﷺ ، قال أبو سفيان : أيها الملك ! ألا أخبرك عنه خيراً تعرفه به أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قال أبو سفيان : إنه زعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحَرَم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصُّباح . فقال بطريقٍ إيلياء ، وكان عند رأس هرقل : صدق ، قال هرقل : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لأنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلّبتني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرنني فلم نستطع أن نحركه ، كأننا نزاول جبلًا ، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا : هذا باب سقط عليه النُّجاف^(٤) والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى ، فرجعت وتركت الباب مفتوحاً ، فلما أصبحت غدوت ، فإذا الحجر الذي من زاوية الباب منقوب ، وإذا فيه أثر مَرِبِط الدَّابَّة ، ولم أجد بالباب ما يمنع من الإغلاق ، فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبيٍّ ، وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا - وفي لفظ : قال : فعلت أنه إنما امتنع لأجل ما كنت أجده في العلم القديم أن نبياً يصعد من بيت المقدس إلى السماء ، وعند ذلك قلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا هذا الأمر - فقال هرقل لقومه : يامعشر الرُّوم ! أستم تعملون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن الله قد جعله في غيركم ، في أقل منكم عدداً ، وأضيق منكم بلداً ، وهي رحمة الله ، عز وجل ، يضعها حيث يشاء^(٥) .

وقد أخبر النبي ﷺ قومه بالإسراء أولاً ، فلما ظهرت لهم أمارات صدقه على تلك الآية الحارقة أخبرهم بما هو أعظم منها ، وهو المعراج ، بعد ذلك . وقد قيل إنهم لم يسألوه عن علامات تدل على صدقه في ذلك لعدم علمهم ومعرفتهم بشيء في السماء^(٦) .

مواقيت الصلّاة :

ولما أصبح النبي ﷺ من الليلة التي أسري به ، لم يرعه إلا جبريل نزل حين زاغت الشمس ، فأمر فنأدى بأصحابه : الصلّاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصلّى بالنبي ﷺ جبريل ، وصلّى النبي ﷺ بالناس ، وسميت تلك الصلّاة الظُّهر لأنها أوّل صلاة ظهرت ، أو لأنها فعلت عند قيام الظُّهيرة^(٧) .

روي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، أن جبريل أتى النبي ﷺ يعلمه مواقيت الصلّاة ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ ، فصلّى الظهر حين زالت الشمس ، وأتاه حين كان الظلّ مثل شخصه فصنع كما صنع ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى العصر ، ثم أتاه حين وجبت الشمس^(٨) ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى المغرب ، ثم أتاه حين غاب الشفق ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٧٥/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٦/٢ ، ٢٩٥) ، وعيون الأثر (ج ١٤٢/١) .

(٢) الإسراء : ٦٠ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٩/٥) كتاب المناقب - باب المعراج .

(٤) النُّجاف : هو الذي يستقبل الباب من أعلى الأُسْكُفَةِ (أي العتبة) ، وقال بعضهم : العتبة هي العليا والأُسْكُفَةُ هي السُّفلى (لسان العرب :

ج ٤٣٥٤/١) .

(٥) انظر : عيون الأثر (ج ٢٦٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٧١/١) .

(٦) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤١٢/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٣/١) ، وعيون الأثر (ج ١٤٨/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١٥/١) ، وفتح الباري (ج ٤/٢) .

(٨) وَجِبَتِ الشَّمْسُ : سَقَطَتْ مَعَ التَّغَيُّبِ . انظر (النهاية : ج ١٥٤/٥) .

صراطٌ كأنِّي أنظرُ فيه - فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كما وصف له شيئاً قال: صدقت أشهد أنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر لما انتهى من وصفه: «أنت يا أبا بكر الصديق»، فيومئذ سماه الصديق.

وفي رواية: أن المشركين قالوا: وهل تستطيع أن نتعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد. وفي رواية أخرى: فقال رجل من المشركين - يقال إنه المظلم بن عدي - أنا أعلم الناس ببيت المقدس وكيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل، فإن يكن محمد صادقاً فسأخبركم، وإن يكن كاذباً فسأخبركم، فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد! أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرني كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل؟ فقال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنت، فما زلت أنت حتى التبتس علي بعض النعت، قال: فجلا الله لي بيت المقدس - وفي لفظ: فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وُضع دُونَ دار عقيل أو عقيل - فطفتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه، فقال بعضهم: كم للمسجد من باب؟ ولم أكن عددت أبوابه، فجعلت أنظر إليها وأعدّها باباً باباً وأعلمهم». وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مشراي، فسألني عن أشياء من بيت المقدس لم أتبها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال: فرقة الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به». فلما فرغ ﷺ من نعتة قال المشركون: أما نتعت فوالله لقد أصاب (١).

ثم طلبوا من رسول الله ﷺ دليلاً آخر على صدقه، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا - وكانت لهم عير قادمة من الشام، وفي لفظ قالوا: ما آية ذلك يا محمد! فإننا لم نسمع بمثل هذا قط؟ قال: «آية ذلك أنني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرتهم (٢) حس الدابة، فندد لهم بعير، فسلمت عليهم ودلتهم عليه، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضحنان (٣) مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب (٤) من البياض ثنية التميمي يقدمها جمل أروق (٥) عليه غراتان (٦)؛ إحداهما سوداء والأخرى برقاء (٧)، فقالوا: أخبرنا ما عدتها، وما فيها من الرعاة، قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً»، ثم قيل له ذلك، فأخبرهم بكل رجل وبغيره ومتاعه، قالوا: ومتى تجيء؟ قال: «يوم الأربعاء»، فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولّى النهار ولم تجيء، فدعا النبي ﷺ فزيد له في النهار ساعة، وحسبت عليه الشمس (٨)، ولما كان آخر النهار استقبلوا العير يتقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ، وسألوه عن الإناء، فأخبروه أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء، وسألوه: هل ضل لك بعير؟ قالوا: نعم، ند لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٤/٢، ٧)، وصحيح البخاري (ج ٦٦٥) كتاب المناقب - باب حديث الإسراء، وصحيح مسلم (ج ١٥٦/١) كتاب الإيمان - باب ذكر المسيح ... ح ٢٧٨، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠٩/١)، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٤/١)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٥/٢)، وعيون الأثر (ج ١٤١/١).

(٢) أنفرتهم: فرقتهم (النهاية: ج ٩٣/٥).

(٣) ضحنان: بسكون الجيم وفتحها، جبل بناحية تهامة، وقيل: جبيل على بريد من مكة. (معجم البلدان: ج ٤٢٧/٥).

(٤) تصوب: تنحدر (لسان العرب: ج ٢٥١٩/٤).

(٥) الأروق: من الإبل: الذي في لونه بياض إلى سواد. والورقة: سواد في غبرة (لسان العرب: ج ٤٨١٦/٦).

(٦) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه (الوسيط: ج ٦٥٤/٢).

(٧) يقال لكل شيء اجتمع فيه سواد وبياض أترق، ومؤنثه برقاء (لسان العرب: ج ٢٦٢/٢).

(٨) يروى أنه لم ترد الشمس على أحد إلا على رسول الله ﷺ فيومئذ وعلى يوشع بن نون حين قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم ويدخل السبت فلا يجل له قتالهم فيه، فدعا الله فرد عليه الشمس حتى فرغ من قتالهم. انظر دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٤/٢).

فعجب المشركون لما وجدوا الأمر كما أخبرهم رسول الله ﷺ ، وما زادهم ذلك إلا نفوراً وطغياناً كبيراً ، وقالوا : صدق الوليد بن المغيرة فيما قال : هذا سحر مبین^(١) ، وأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾^(٢) . والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما^(٣) .

ويروي دليل آخر على صدق النبي ﷺ فيما أخبر به قومه ، فقد جاء في حديث أبي سفيان بن حرب مع هرقل أنه لما سأله عن النبي ﷺ ، قال أبو سفيان : أيها الملك ! ألا أخبرك عنه خيراً تعرفه به أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قال أبو سفيان : إنه زعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصبح . فقال بطريق إيلياء ، وكان عند رأس هرقل : صدق ، قال هرقل : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لأنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلّبتني فاستعنت عليه بعمّالي ومن يحضرنني فلم نستطع أن نحركه ، كأنما نزلوا جبلاً ، فدعوت التجارين فنظروا إليه فقالوا : هذا باب سقط عليه النجاف^(٤) والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى ، فرجعت وتركت الباب مفتوحاً ، فلما أصبحت غدوت ، فإذا الحجر الذي من زاوية الباب منقوب ، وإذا فيه أثر مربيّ الدابة ، ولم أجد بالباب ما يمنع من الإغلاق ، فقلت لأصحابي : ما حيس هذا الباب الليلة إلا على نبيّ ، وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا - وفي لفظ : قال : فعلت أنه إنما امتنع لأجل ما كنت أجده في العلم القديم أن نبياً يصعد من بيت المقدس إلى السماء ، وعند ذلك قلت لأصحابي : ما حيس هذا الباب الليلة إلا هذا الأمر - فقال هرقل لقومه : يامعشر الروم ! أستم تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن الله قد جعله في غيركم ، في أقلّ منكم عدداً ، وأضيق منكم بلداً ، وهي رحمة الله ، عز وجلّ ، يضعها حيث يشاء^(٥) .

وقد أخبر النبي ﷺ قومه بالإسراء أولاً ، فلما ظهرت لهم أمارات صدقه على تلك الآية الحارقة أخبرهم بما هو أعظم منها ، وهو المعراج ، بعد ذلك . وقد قيل إنهم لم يسألوه عن علامات تدل على صدقه في ذلك لعدم علمهم ومعرفتهم بشيء في السماء^(٦) .

مواقيت الصلاة :

ولما أصبح النبي ﷺ من الليلة التي أسري به ، لم يرعه إلا جبريل نزل حين زاغت الشمس ، فأمر فنادى بأصحابه : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصلّى بالنبي ﷺ جبريل ، وصلّى النبي ﷺ بالناس ، وسميت تلك الصلاة الظهر لأنها أول صلاة ظهرت ، أو لأنها فعلت عند قيام الظهر^(٧) .

روي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، أن جبريل أتى النبي ﷺ يعلمه مواقيت الصلاة ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ ، فصلّى الظهر حين زالت الشمس ، وأتاه حين كان الظلّ مثل شخصه فصنع كما صنع ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى العصر ، ثم أتاه حين وجبت الشمس^(٨) ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى المغرب ، ثم أتاه حين غاب الشفق ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٧٥/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٦٢ ، ٣٩٥) ، وعيون الأثر (ج ١٤٢/١) .

(٢) الإسراء : ٦٠ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٩/٥) كتاب المناقب - باب المعراج .

(٤) النجاف : هو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسكفة (أي العتبة) ، وقال بعضهم : العتبة هي العليا والأسكفة هي السفلى (لسان العرب :

ج ٤٣٥٤/٦) .

(٥) انظر : عيون الأثر (ج ٢٦٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٧١/١) .

(٦) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤١٢/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٣/١) ، وعيون الأثر (ج ١٤٨/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١٥/١) ، وفتح الباري (ج ٤/٢) .

(٨) وَجِبَتِ الشَّمْسُ : سَقَطَتْ مَعَ الْمَغِيبِ . انظر (النهاية : ج ١٥٤/٥) .

صراطٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ فِيهِ - فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له شيئاً قال : صدقت أشهد أنك رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر لما انتهى من وصفه : « أنت يا أبا بكرٍ الصديق » ، فيومئذ سماه الصديق .

وفي رواية : أن المشركين قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد . وفي رواية أخرى : فقال رجل من المشركين - يقال إنه المظيم بن عدي - أنا أعلم الناس ببيت المقدس وكيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، فإن يكن محمد صادقاً فسأخبركم ، وإن يكن كاذباً فسأخبركم ، فجاء ذلك المشرك فقال : يا محمد ! أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرني كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ ، فَمَا زِلْتُ أَنْعْتُ حَتَّى اتَّبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ ، قَالَ : فَجَلَّا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ - وفي لفظ : فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقَالٍ أَوْ عَقِيلٍ - فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَمْ لِلْمَسْجِدِ مِنْ بَابٍ ؟ وَلَمْ أَكُنْ عَدَدْتُ أَبْوَابَهُ ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا وَأَعْدُهَا بَاباً بَاباً وَأَعْلَمُهُمْ » . وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « لَسَدُ رَأْيَتِي فِي الْحِجْرِ وَقَرِيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَشْرَايَ ، فَسَأَلْتَنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَمْ أَثْبِتْهَا ، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، قَالَ : فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَثْبَتْتُهُمْ بِهِ » . فلما فرغ ﷺ من نعته قال المشركون : أما النعت فوالله لقد أصاب (١) .

ثم طلبوا من رسول الله ﷺ دليلاً آخر على صدقه ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا - وكانت لهم عير قادمة من الشام ، وفي لفظ قالوا : ما آية ذلك يا محمد ! فإننا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال : « آية ذلك أنني مررتُ بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرتهم (٢) حسُّ الدابة ، فندَّ لهم بعيرٌ ، فسلمتُ عليهم ودللتهم عليه ، فقال بعضهم : هذا صوتُ محمدٍ ، ثم أقبلتُ حتى إذا كنتُ بصحنان (٣) مررتُ بعير بني فلان فوجدتُ القومَ نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيءٍ ، فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه ثم غطيتُ عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب (٤) من البيضاء نية التنعيم يقدّمها جمل أوزق (٥) عليه غرارتان (٦) ؛ إحداهما سوداء والأخرى برقاء (٧) ، فقالوا : أخبرنا ما عديتها ، وما فيها من الرعاة ، قال : « قد كنتُ عن عديتها مشغولاً » ، ثم قيل له ذلك ، فأخبرهم بكل رجل وبغيره ومتاعه ، قالوا : ومتى تجيء ؟ قال : « يوم الأربعاء » ، فقال الوليد بن المغيرة : ساحر ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولّى النهار ولم تجيء ، فدعا النبي ﷺ فزيد له في النهار ساعة ، وحسبت عليه الشمس (٨) ، ولما كان آخر النهار استقبلوا العير يتقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء ، وسألوهم : هل ضل لكم بعير ؟ قالوا : نعم ، ندنا لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢ ، ٧) ، وصحيح البخاري (ج ٦٦٥) كتاب المناقب - باب حديث الإسراء ، وصحيح مسلم (ج ١٥٦/١) كتاب الإيمان - باب ذكر المسيح ... ج ٢٧٨ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠٩/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٤/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٥/٢) ، وعيون الأثر (ج ١٤١/١) .

(٢) أنفرتهم : فرقتهم (النهاية : ج ٩٣/٥) .

(٣) صحنان : بسكون الحيم وفتحها ، جبل بناحية تهامة ، وقيل : جبل على بريد من مكة . (معجم البلدان : ج ٤٢٧٥) .

(٤) تصوب : تنخدر (لسان العرب : ج ٢٥١٩/٤) .

(٥) الأوزق من الإبل : الذي في لونه بياض إلى سواد . والورقة : سواد في غبرة (لسان العرب : ج ٤٨١٦/٦) .

(٦) الغرارة : وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه (الوسيط : ج ٦٥٤/٢) .

(٧) يقال لكل شيء اجتمع فيه سواد وبياض أبرق ، ومؤنثه برقاء (لسان العرب : ج ٢٦٢/٢) .

(٨) يروى أنه لم تزد الشمس على أحد إلا على رسول الله ﷺ يومئذ وعلى يوشع بن نون حين قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم ويدخل السبت فلا يجل له قتالهم فيه ، فدعا الله فرد عليه الشمس حتى فرغ من قتالهم . انظر دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٤/٢) .

فعجب المشركون لما وجدوا الأمر كما أخبرهم رسول الله ﷺ ، وما زادهم ذلك إلا نفوراً وطغياناً كبيراً ، وقالوا : صدق الوليد بن المغيرة فيما قال : هذا سحر مبین^(١) ، وأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾^(٢) . والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما^(٣) .

ويروى دليل آخر على صدق النبي ﷺ فيما أخبر به قومه ، فقد جاء في حديث أبي سفيان بن حرب مع هرقل أنه لما سأله عن النبي ﷺ ، قال أبو سفيان : أيها الملك ! ألا أخبرك عنه خيراً تعرفه به أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قال أبو سفيان : إنه زعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحزم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح . فقال بطريق إيلياء ، وكان عند رأس هرقل : صدق ، قال هرقل : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لأنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلّبتني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرنني فلم نستطيع أن نحركه ، كأننا نزاويل جبلاً ، فدعوت التجارين فنظروا إليه فقالوا : هذا باب سقط عليه النجاف^(٤) والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى ، فرجعت وتركت الباب مفتوحاً ، فلما أصبحت غدوت ، فإذا الحجر الذي من زاوية الباب منقوب ، وإذا فيه أثر مريب الدابة ، ولم أجد بالباب ما يمنع من الإغلاق ، فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا - وفي لفظ : قال : فعلمت أنه إنما امتنع لأجل ما كنت أجد في العلم القديم أن نبياً يصعد من بيت المقدس إلى السماء ، وعند ذلك قلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا هذا الأمر - فقال هرقل لقومه : يامعشر الروم ! أستم تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن الله قد جعله في غيركم ، في أقل منكم عدداً ، وأضيق منكم بلداً ، وهي رحمة الله ، عز وجل ، يضعها حيث يشاء^(٥) .

وقد أخبر النبي ﷺ قومه بالإسراء أولاً ، فلما ظهرت لهم أمارات صدقه على تلك الآية الخارقة أخبرهم بما هو أعظم منها ، وهو المعراج ، بعد ذلك . وقد قيل إنهم لم يسألوه عن علامات تدل على صدقه في ذلك لعدم علمهم ومعرفتهم بشيء في السماء^(٦) .

مواقيت الصلاة :

ولما أصبح النبي ﷺ من الليلة التي أسري به ، لم يرعه إلا جبريل نزل حين زاغت الشمس ، فأمر فنادى بأصحابه : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصلّى بالنبي ﷺ جبريل ، وصلّى النبي ﷺ بالناس ، وسُميت تلك الصلاة الظهر لأنها أول صلاة ظهرت ، أو لأنها فُعِلت عند قيام الظهر^(٧) .

روي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، أن جبريل أتى النبي ﷺ يعلمه مواقيت الصلاة ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ ، فصلّى الظهر حين زالت الشمس ، وأتاه حين كان الظلّ مثل شخصه فصنع كما صنع ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى العصر ، ثم أتاه حين وجبت الشمس^(٨) ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى المغرب ، ثم أتاه حين غاب الشفق ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٧٥/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٦/٢ ، ٣٩٥) ، وعيون الأثر (ج ١٤٢/١) .

(٢) الإسراء : ٦٠ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٩/٥) كتاب المناقب - باب المعراج .

(٤) النجاف : هو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسكفة (أي العتبة) ، وقال بعضهم : العتبة هي العليا والأسكفة هي السفلى (لسان العرب : ج ٤٣٥٤/٦) .

(٥) انظر : عيون الأثر (ج ٢٦٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٧١/١) .

(٦) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤١٢/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٣/١) ، وعيون الأثر (ج ١٤٨/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١٥/١) ، وفتح الباري (ج ٤/٢) .

(٨) وَجِبَتِ الشَّمْسُ : سَقَطَتْ مَعَ التَّغَيُّبِ . انظر (النهاية : ج ١٥٤/٥) .

خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى العشاء ، ثم أتاه حين انشقّ الفجر ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى الغداة . ثم أتاه اليوم الثاني حين كان ظلّ الرجل مثل شخصه ، فصنع مثل ما صنع بالأمس ، فصلّى الظهر ، ثم أتاه حين كان ظلّ الرجل مثل شخصه ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى العصر ، ثم أتاه حين وجبت الشمس ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى المغرب ، فبمنا ثم قمنا ، ثم نمنا ثم قمنا ، فأتاه فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى العشاء - وفي رواية : ثم صلى به العشاء لثلاث الليال الأولى^(١) - ثم أتاه حين امتدّ الفجر وأصبح والنجوم بادية مشتبكة ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى الغداة ، ثم قال : ما بين هاتين الصلاتين وقت^(٢) - وفي رواية : ثم صلى به الفجر حين أسفر ، ثم قال : يا محمد ! هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين^(٣) .

وكانت الصلاة افترضت على رسول الله ﷺ ليلة أسري به ركعتين ركعتين ؛ الظهر والعصر والعشاء والغداة ، والمغرب ثلاثاً ، ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعاً ، وذلك بعد مقدمه المدينة بشهر أو بأربعين يوماً ، وتركت صلاة السفر على الأولى^(٤) .

روى ابن إسحاق بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كلّ صلاة ، ثم إن الله تعالى أتمها في الحضر أربعاً ، وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين^(٥) .

وقد كان رسول الله ﷺ يصلي إلى الكعبة ووجهه إلى بيت المقدس حتى هاجر ونزل تحويل القبلة كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

☆ ☆ ☆

(١) المستدرک (ج ١٩٢/١) .

(٢) سنن النسائي (ج ٢٥٥/١) كتاب المواقيت - آخر وقت العصر .

(٣) المستدرک (ج ١٩٢/١) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٨٧/٥) كتاب المناقب - باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ ، وعيون الأثر (ج ٢٢٢/١) ، وفتوح البلدان

(ص : ٢٠) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١٧/١) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٢/١) .

بيعة العقبة الأولى

ذكرنا فيما مضى أن رسول الله ﷺ كان قد التقى بنفر من أهل يثرب في موسم الحج سنة إحدى عشرة من البعثة ، وأنه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا وواعدوه في الموسم القادم .

فلما رجع هؤلاء النفر - وكانوا ستة - إلى المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعواهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل ، وذلك سنة اثنتي عشرة من البعثة وافى موسم الحج اثنا عشر رجلاً ؛ اثنان من الأوس ، وعشرة من الخزرج ، فيهم خمسة من الستة الذين اجتمعوا برسول الله ﷺ في العام السابق . وهم :

من الخزرج ثم من بني النجار : أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، وعُوف ومُعَاذ ابنا الحارث وهما ابنا عفراء . ومن بني زُرَيْق بن عامر : رافع بن مالك ، ودُكْوَان بن عبد القيس . ومن بني عُوف بن الخزرج : عَبَادَة بن الصَّامِت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة من بني عُصَيْنَة من بلي حليف لهم . ومن بني سالم بن عوف : العباس بن عَبَادَة بن نَضْلَة . ومن بني سَلَمَة : عُقْبَة بن عامر . ومن بني سَوَاد : قُطَيْبَة بن عامر .

ومن الأوس ثم من بني عبد الأشهل : أبو الهيثم بن التَّيْهَان واسمه مالك . ومن بني عمرو بن عوف : عَوْثِم بن ساعدة^(١) .

وقيل : كانوا أحد عشر رجلاً^(٢) .

وقد لقي هؤلاء رسول الله ﷺ عند العقبة بنى ، فبايعوه بيعة النساء ؛ أي كبايعة النساء التي كانت يوم فتح مكة المكرمة^(٣) ، وذلك قبيل أن تفترض عليهم الحرب^(٤) .

فمن عَبَادَة بن الصَّامِت ، رضي الله عنه ، قال : بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وقيتم فلکم الجنة ، وإن غشيتم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩/٢ - ٤٠) .

(٢) انظر : المستدرك (ج ٢٤٤/٢) .

(٣) وهي البيعة التي ورد ذكرها في سورة المتحنة ونزلت عام الحديبية . انظر : البداية والنهاية (ج ١٥١/٣) . وقد رجح بعض العلماء أن المبايعة ليلة العقبة إنما كانت على الإيواء والنصر وما يتعلق بذلك ، وأما التي كانت على صفة بيعة النساء فإنما هي بعد فتح مكة وبعد نزول آية المتحنة ، فقد جاء في حديث عَبَادَة عند البخاري أنه لما بايعهم النبي ﷺ قرأ عليهم آية النساء وكذلك عند مسلم ، ومعلوم أن الآية نزلت متأخرة . انظر : شرح الزرقاني على اللواهب اللدنية : (ج ٢١٤/١ - ٢١٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٧/٢) .

خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى العشاء ، ثم أتاه حين انشقّ الفجر ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلّى الغداة . ثم أتاه اليوم الثاني حين كان ظلّ الرجل مثل شخصه ، فصنع مثل ما صنع بالأمس ، فصلّى الظهر ، ثم أتاه حين كان ظلّ الرجل مثل شخصه ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى العصر ، ثم أتاه حين وجبت الشمس ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى المغرب ، فمئنا ثم قمنا ، ثم نمئنا ثم قمنا ، فأتاه فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى العشاء - وفي رواية : ثم صلى به العشاء لثلاث الليال الأولى^(١) - ثم أتاه حين امتدّ الفجر وأصبح والنجوم بادية مشتبكة ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى الغداة ، ثم قال : ما بين هاتين الصلاتين وقت^(٢) - وفي رواية : ثم صلى به الفجر حين أسفر ، ثم قال : يا محمد ! هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين^(٣) .

وكانت الصلاة افترضت على رسول الله ﷺ ليلة أسري به ركعتين ركعتين ؛ الظهر والعصر والعشاء والغداة ، والمغرب ثلاثاً ، ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعاً ، وذلك بعد مقدمه المدينة بشهر أو بأربعين يوماً ، وتركت صلاة السفر على الأولى^(٤) .

روى ابن إسحاق بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله تعالى أتمها في الحضر أربعاً ، وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين^(٥) .

وقد كان رسول الله ﷺ يصلي إلى الكعبة ووجهه إلى بيت المقدس حتى هاجر ونزل تحويل القبلة كما سيأتي إن شاء الله تعالى .



(١) المستدرك (ج ١٩٢/١) .

(٢) سنن النسائي (ج ٢٥٥/١) كتاب المواقيت - آخر وقت العصر .

(٣) المستدرك (ج ١٩٢/١) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٨٧/٥) كتاب المناقب - باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ ، وعيون الأثر (ج ٢٢٢/١) ، وفتوح البلدان

(ص : ٢٠) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١٧/١) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٢/١) .

بيعة العقبة الأولى

ذكرنا فيما مضى أن رسول الله ﷺ كان قد التقى بنفر من أهل يثرب في موسم الحج سنة إحدى عشرة من البعثة ، وأنه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا وواعدوه في الموسم القادم .

فلما رجع هؤلاء النفر - وكانوا ستة - إلى المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل ، وذلك سنة اثنتي عشرة من البعثة وفي موسم الحج اثنا عشر رجلاً ؛ اثنان من الأوس ، وعشرة من الخزرج ، فيهم خمسة من الستة الذين اجتمعوا برسول الله ﷺ في العام السابق . وهم :

من الخزرج ثم من بني النجار : أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، وعوف ومُعَاذ ابنا الحارث وهما ابنا عفرأ . ومن بني زُرَيْق بن عامر : رافع بن مالك ، ودُكْوَان بن عبد القيس . ومن بني عَوْف بن الخزرج : عَبَادَة بن الصَّامِت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة من بني غَصِيْنَة من بلي حليف لهم . ومن بني سالم بن عوف : العباس بن عَبَادَة بن نَضْلَة . ومن بني سَلَمَة : عَقْبَة بن عامر . ومن بني سَوَاد : قُطَيْبَة بن عامر .

ومن الأوس ثم من بني عبد الأشهل : أبو الهيثم بن التَّيْهَان واسمه مالك . ومن بني عمرو بن عوف : عَوْثِم بن ساعدة^(١) .

وقيل : كانوا أحد عشر رجلاً^(٢) .

وقد لقي هؤلاء رسول الله ﷺ عند العقبة بنى ، فبايعوه ببيعة النساء ؛ أي كبايعة النساء التي كانت يوم فتح مكة المكرمة^(٣) ، وذلك قبيل أن تفترض عليهم الحرب^(٤) .

فمن عَبَادَة بن الصَّامِت ، رضي الله عنه ، قال : بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا تقتل أولادنا ، ولا نأتي بهتان نفترقه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وقَّيتم فلکم الجنة ، وإن غَشَّيتم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢ - ٤٠) .

(٢) انظر : المستدرک (ج ٦٢٤/٢) .

(٣) وهي البيعة التي ورد ذكرها في سورة المتحنة ونزلت عام الحديبية . انظر : البداية والنهاية (ج ١٥١/٣) . وقد رجح بعض العلماء أن المبايعة ليلة العقبة إنما كانت على الإيواء والنصر وما يتعلق بذلك ، وأما التي كانت على صفة بيعة النساء فإنما هي بعد فتح مكة وبعد نزول آية المتحنة ، فقد جاء في حديث عَبَادَة عند البخاري أنه لما بايعهم النبي ﷺ قرأ عليهم آية النساء وكذلك عند مسلم ، ومعلوم أن الآية نزلت متأخرة . انظر : شرح الزرقاني على الواهب اللدنية : (ج ٣١٤/١ - ٣١٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٧/٢) .

خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى العشاء ، ثم أتاه حين انشقّ الفجر ، فتقدّم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه والناس خلف رسول الله ﷺ فصلى الغداة . ثم أتاه اليوم الثاني حين كان ظلّ الرجل مثل شخصه ، فصنع مثل ما صنع بالأمس ، فصلّى الظهر ، ثم أتاه حين كان ظلّ الرجل مثل شخصه ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى العصر ، ثم أتاه حين وجبت الشمس ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى المغرب ، فبنينا ثم قمنا ، ثم نمنا ثم قمنا ، فأتاه فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى العشاء - وفي رواية : ثم صلى به العشاء لثلاث الليال الأولى^(١) - ثم أتاه حين امتدّ الفجر وأصبح والنجوم بادية مشتبكة ، فصنع كما صنع بالأمس ، فصلّى الغداة ، ثم قال : ما بين هاتين الصلاتين وقت^(٢) - وفي رواية : ثم صلى به الفجر حين أسفر ، ثم قال : يا محمد ! هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين^(٣) .

وكانت الصلاة افترضت على رسول الله ﷺ ليلة أسري به ركعتين ركعتين ؛ الظهر والعصر والعشاء والغداة ، والمغرب ثلاثاً ، ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعاً ، وذلك بعد مقدمه المدينة بشهر أو بأربعين يوماً ، وتركت صلاة السفر على الأولى^(٤) .

روى ابن إسحاق بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كلّ صلاة ، ثم إن الله تعالى أمّتها في الحضر أربعاً ، وأقرّها في السفر على فرضها الأول ركعتين^(٥) .

وقد كان رسول الله ﷺ يصلي إلى الكعبة ووجهه إلى بيت المقدس حتى هاجر ونزل تحويل القبلة كما سيأتي إن شاء الله تعالى .



(١) المستدرک (ج ١٩٢/١) .

(٢) سنن النسائي (ج ٢٥٥/١) كتاب المواقيت - آخر وقت العصر .

(٣) المستدرک (ج ١٩٢/١) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٨٧/٥) كتاب المناقب - باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ ، وعيون الأثر (ج ٢٣٢/١) ، وفتوح البلدان

(ص : ٢٠) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١٧/١) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٢/١) .

بيعة العقبة الأولى

ذكرنا فيما مضى أن رسول الله ﷺ كان قد التقى بنفر من أهل يثرب في موسم الحج سنة إحدى عشرة من البعثة ، وأنه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا وواعدوه في الموسم القادم .

فلما رجع هؤلاء النفر - وكانوا ستة - إلى المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل ، وذلك سنة اثنتي عشرة من البعثة وفي موسم الحج اثنا عشر رجلاً ؛ اثنان من الأوس ، وعشرة من الخزرج ، فيهم خمسة من الستة الذين اجتمعوا برسول الله ﷺ في العام السابق . وهم :

من الخزرج ثم من بني النجار : أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث وهما ابنا عفراء . ومن بني زُرَيْق بن عامر : رافع بن مالك ، ودكوان بن عبد القيس . ومن بني عوف بن الخزرج : عبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة من بني غصينة من بلي حليف لهم . ومن بني سالم بن عوف : العباس بن عبادة بن نضلة . ومن بني سلمة : عقبة بن عامر . ومن بني سواد : قطبة بن عامر .

ومن الأوس ثم من بني عبد الأشهل : أبو الهيثم بن التيهان واسمه مالك . ومن بني عمرو بن عوف : عويم بن ساعدة^(١) .

وقيل : كانوا أحد عشر رجلاً^(٢) .

وقد لقي هؤلاء رسول الله ﷺ عند العقبة بمبى ، فبايعوه ببيعة النساء ؛ أي كبايعة النساء التي كانت يوم فتح مكة المكرمة^(٣) ، وذلك قبيل أن تفترض عليهم الحرب^(٤) .

فمن عبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، قال : بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزي ، ولا تقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفترقه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وقَّيم فلکم الجنة ، وإن غَشَّيم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٧ - ٤٠) .

(٢) انظر : المستدرک (ج ٦٢٤/٢) .

(٣) وهي البيعة التي ورد ذكرها في سورة المتحنة ونزلت عام الحديبية . انظر : البداية والنهاية (ج ١٥١/٣) . وقد رجح بعض العلماء أن المبايعة ليلة العقبة إنما كانت على الإيواء والنصر وما يتعلق بذلك ، وأما التي كانت على صفة بيعة النساء فإنما هي بعد فتح مكة وبعد نزول آية المتحنة ، فقد جاء في حديث عبادة عند البخاري أنه لما بايعهم النبي ﷺ قرأ عليهم آية النساء وكذلك عند مسلم ، ومعلوم أن الآية نزلت متأخرة . انظر : شرح الزرقاني على اللواهب اللدنية : (ج ٣١٤/١ - ٣١٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٩٧) ، والسيرة الحلبية (ج ٧٢) .

من ذلك شيئاً فأخذتم بحجته في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله ، عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر (١) .

وزاد البخاري في روايته عنه : ولا تقتل النفس التي حرم الله ، ولا تنتهب (٢) .

بعث مُصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة ودعوته إلى الإسلام فيها :

فلما انتهى الموسم وانصرف القوم راجعين إلى بلادهم ، بعث رسول الله ﷺ معهم شاباً من شباب المسابن السابقين إلى الإسلام وهو مُصعب بن عمير رضي الله عنه ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، وأن يعلم من أسلم منهم شرائع الإسلام ويفقههم في الدين ، ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام . فكان مصعب يُسمى بالمدينة المقرئ .

ويقال : إنه لما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر وفسح الإسلام في دور الأنصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك وكتبوا إليه كتاباً : أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن ، ويدعو الناس بكتاب الله ؛ فإنه حين أن يتبع . فبعث إليهم رسول الله ﷺ مُصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، ويقال : بعث معه ابن أم مكتوم رضي الله عنه .

فزل مصعب ، رضي الله عنه ، على أبي أمامة أسعد بن زُرارة ، رضي الله عنه ، فجعل يدعو الناس إلى الإسلام سراً ، وكان يأتيهم في دورهم فيقرأ عليهم القرآن ، فيسلم الرجل والرجلان حتى أسلم على يديه خلق كثير من الأنصار (٣) .

- إسلام سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر رضي الله عنهما :

وكان ممن أسلم على يدي مصعب ، رضي الله عنه ، سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر ، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد - إلا ما كان من الأصيرم وهو عمرو بن ثابت ؛ فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد - فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها .

روي أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ، فدخل به حائطاً (٤) من حوائط بني ظفر ، على بكر يقال لها بكر مرق ، فجلسا في الحائط ، واجتمع إليهما رجال من أسلم - وسعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر يومئذ سيّد قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه - فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيّد بن حُضَيْر : لا أبا لك ؛ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفها ضعفاءنا فازجرهما وأنههما عن أن يأتيا دارينا ؛ فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك ؛ هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً . فأخذ أسيّد بن حُضَيْر حُرْبته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمُصعب بن عمير : هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . وجاء أسيّد فوقف عليهما متشتماً وقال : ما جاء بكما إلينا تُسفهان ضعفاءنا ؟ اعزّلانا إن كنت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُف عنك ماتكره ، فقال : أنصفت ، ثم ركز حُرْبته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، قال : والله لعرفنا في وجه الإسلام قبل أن يتكلم به في إشراقه وتسهله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله !! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قال له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ؛ سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيّد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال :

(١) سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) .

(٢) صحيح البخاري (ج ٧٠/٥) كتاب المناقب - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بكة وبيعة العقبة .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٨/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٣١/٢) ، والدرر في اختصار المغازي والسير

(ص : ٥٩) .

(٤) الحائط : الخديقة ، أو البستان .

كَلَّمَتِ الرَّجُلِينَ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ بِهَا بَأْسًا ، وَقَدْ نَهَيْتُهَا فَقَالَا : نَفَعَلْنَا مَا أَحْبَبْنَا ، وَقَدْ حَدَّثْتَ أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ لِيَقْتُلُوهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ لِيُخْفِرُوكَ . فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضِبًا مُبَادِرًا تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذَكَرَ لَهُ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ ، فَأَخَذَ الْحَرَبَةَ مِنْ يَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا رَأَاهَا سَعْدٌ مَطْمَئِنِّينَ عَرَفَ أَنَّ أَسِيدًا إِنَّمَا أَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهَا ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا مَشْتَتِبًا ، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ : يَا أَبَا أَمَامَةَ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتُ هَذَا مِنِّي ، أَتَفْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ ؟ وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ : لِمَصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ : أَيُّ مَصْعَبٍ ! جَاءَكَ وَاللَّهُ سَيِّدٌ مِنْ وِرَاءِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، إِنْ يَتَّبِعُكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ مِنْهُمْ اثْنَانِ ، فَقَالَ لَهُ مَصْعَبٌ : أَوْتَقَعْدُ فَتَسْمَعُ ؛ فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا وَرَغِبْتَ فِيهِ قَبْلَتَهُ ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ ، قَالَ سَعْدٌ : أَنْصَفْتَ ، ثُمَّ رَكَزَ الْحَرَبَةَ وَجَلَسَ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ : ﴿ هُوَ حَمٌ ، وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) . قَالَا : فَعَرَفْنَا وَاللَّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِإِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ ، فَقَالَ لَهَا : مَا أَسْمَعُ إِلَّا مَا أَعْرِفُ ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسَلْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ ؟ قَالَا : تَغْتَسِلُ فَتَطَهَّرُ وَتَطَهَّرُ ثَوْبِيكَ ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، ثُمَّ تَصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ . فَفَعَلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَخَذَ حَرَبَتَهُ فَأَقْبَلَ عَامِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ ، وَمَعَهُ أَسِيدُ بْنُ حَضِيرٍ ، فَلَمَّا رَأَى قَوْمَهُ مَقْبَلًا قَالُوا : نَخْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكَ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ! كَيْفَ تَعْمَلُونَ أَمْرِي فِيكُمْ ؟ قَالُوا : سَيِّدُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا ، وَأَيُّمْنَا تَقِييبَةً (٢) ، قَالَ : فَإِنْ كَلَّمَ رِجَالَكُمْ وَنَسَأْتِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تَتُومِنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ . - وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : مَنْ شَكَّ مِنْكُمْ فِيهِ فَلْيَأْتِ بِأَهْدَى مِنْهُ ؛ فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ أَمْرٌ لِنَحْرِنَ (٣) فِيهِ الرِّقَابُ ، فَمَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسَلِّمًا أَوْ مُسَلِّمَةً إِلَّا الْأَصْطِيمَ .

وَأَقَامَ مَصْعَبٌ فِي مَنْزِلِ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيُقَالُ : إِنْ بَنِي النَّجَارِ أَخْرَجُوا مَصْعَبًا وَاشْتَدُّوا عَلَى أَسْعَدِ ، فَانْتَقَلَ مَصْعَبٌ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ ، فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَدْعُو أَمَانًا وَيَهْدِي اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ ، وَأَسْلَمَ أَشْرَافُهَا ، وَكَسِرَتْ أَوْسَانُهُمْ ، إِلَّا دُورًا مِنْ أَوْسِ اللَّهِ ، وَهِيَ أُمَيَّةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَخَطْمَةُ ، وَوَائِلٌ ، وَوَأَقِيفٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ صَيْفِيُّ أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ ، وَكَانَ شَاعِرًا لَهُمْ قَائِدًا ، يَسْمَعُونَ مِنْهُ وَيَطِيعُونَهُ ، فَوَقَفَ بِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَانَ عَامَ الْخَنْدَقِ (٤) .

أول جمعة أقيمت في الإسلام :

وَكَانَ مَصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَصَلِّيُ بِالْأَنْصَارِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ وَالخَزْرَجَ كَرِهَ بَعْضُهُمْ أَنْ يُؤَمَّهُ بَعْضٌ ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَهَاجِرَ مَعَهُ صَلَّى بِهِمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

كَأَنَّ مَصْعَبَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَجْمَعُ بِهِمُ الْجُمُعَاتِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ أَنْ يَجْمَعُ بِهِمْ ، فَأَذِنَ لَهُ وَكَتَبَ إِلَيْهِ : « أَنْظِرْ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي يَجْهَرُ فِيهِ الْيَهُودُ لِسَبِّهِمْ ؛ فَإِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ فَارْذَلِفْ إِلَى اللَّهِ فِيهِ بِرَكَعَتَيْنِ وَاخْطُبْ فِيهِمْ » ، فَجَمَعَ بِهِمْ مَصْعَبٌ فِي دَارِ سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، فَكَانَتْ أَوَّلُ جُمُعَةٍ أُقِيمَتْ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَقَبْلَ نَزُولِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ الْأَمْرَةَ بِهَا ، فَإِنَّهَا مَدِينَةٌ (٥) .

وَيُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَمَعَ بِالْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ أَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا (٦) . فَقَدْ رَوَى

- (١) الزُّخْرَفُ : ١ - ٢ .
- (٢) مَيِّمُونَ النَّقِيبَةِ : أَيُّ مَنْجَحِ الْفِعَالِ ، مَطْفَرُ الْمُطَالِبِ ، وَالنَّقِيبَةُ : النَّفْسُ ، وَقِيلَ : الطَّبِيعَةُ وَالْحَقِيقَةُ (النِّهَايَةُ : ج ١٠٢/٥) .
- (٣) الْخَزْرَجُ : الْقَطْعُ (لِسَانُ الْعَرَبِ : ج ٨٥٦/٢) .
- (٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٢٠/٢ ، ٦٠٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٣١/٢) ، والدرر في اختصار في المغازي والسِّيَر / لابن عبد البر (ص : ٦٠) .
- (٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٨/٣ ، ٦٠٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٩/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٩٧/٢) .
- (٦) رَوَى أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا : إِنْ لِلْيَهُودِ يَوْمًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ، وَلِلنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ ، فَهَلُمَّ فَلْنَجْعَلْ لَنَا يَوْمًا نَجْتَمِعُ فِيهِ فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَنُصَلِّيَ وَنُشْكِرُهُ ، فَجَعَلُوا يَوْمَ الْعُرُوبَةِ - أَيُّ يَوْمِ الْجُمُعَةِ - وَاجْتَمَعُوا إِلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ فَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ إِذَا نُودِيَ =

من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله ، عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر (١) .

وزاد البخاري في روايته عنه : ولا تقتل النفس التي حرم الله ، ولا تنتهب (٢) .

بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة ودعوته إلى الإسلام فيها :

فلما انتهى الموسم وانصرف القوم راجعين إلى بلادهم ، بعث رسول الله ﷺ معهم شاباً من شباب المساهمين السابقين إلى الإسلام وهو مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، وأن يعلم من أسلم منهم شرائع الإسلام ويفقههم في الدين ، ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام . فكان مصعب يُسَمَّى بالمدينة المقرئ .

ويقال : إنه لما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر وفسح الإسلام في دور الأنصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك وكتبوا إليه كتاباً : أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن ، ويدعو الناس بكتاب الله ؛ فإنه قمين أن يتبع . فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، ويقال : بعث معه ابن أم مكتوم رضي الله عنه .

فنزله مصعب ، رضي الله عنه ، على أبي أمامة أسعد بن زرارة ، رضي الله عنه ، فجعل يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً ، وكان يأتيهم في دورهم فيقرأ عليهم القرآن ، فيسلم الرجل والرجلان حتى أسلم على يديه خلق كثير من الأنصار (٣) .

- إسلام سعد بن معاذ وأسيّد بن حضير رضي الله عنهما :

وكان من أسلم على يدي مصعب ، رضي الله عنه ، سعد بن معاذ وأسيّد بن حضير ، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد - إلا ما كان من الأضيّرم وهو عمرو بن ثابت ؛ فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد - فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها .

روي أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ، فدخل به حائطاً (٤) من حوائط بني ظفر ، على بئر يقال لها بئر مرق ، فجلسا في الحائط ، واجتمع إليهما رجال من أسلم - وسعد بن معاذ وأسيّد بن حضير يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه - فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيّد بن حضير : لا أبا لك ؛ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فاجرهما وأثبها عن أن يأتيا دارينا ؛ فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفتيك ذلك ؛ هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً . فأخذ أسيّد بن حضير حربته ثم أقبل إليها ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . وجاء أسيّد فوقف عليها متشتماً وقال : ما جاء بكما إلينا تُسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ماتكركه ، فقال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليها ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، قال : والله لعرّفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم به في إشرافه وتسهله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله !! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قال له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لها : إن ورائي رجلاً إن أتبعك لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليك الآن : سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيّد بغير الوجه الذي ذهب به من عندهم ، فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال :

(١) سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) .

(٢) صحيح البخاري (ج ٧٠/٥) كتاب المناقب - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بكة وبيعة العقبة .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٨٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٣١/٢) ، والدرر في اختصار المغازي والسّير

(ص : ٥٩) .

(٤) الحائط : الحديقة ، أو البستان .

كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : ففعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك . فقام سعد مُغضباً مبادراً تخوّفاً للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة من يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتماً ، ثم قال لأسعد بن زُرارة : يا أبا أمامة ! أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، أتغشانا في دارينا بما نكره ؟ وقد قال أسعد بن زُرارة لمصعب بن عمير : أي مصعب ! جاءك والله سيّد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ، فقال له مصعب : أوتقعد فتسمع ؛ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه من القرآن : ﴿ هُوَ حَمٌ ، وَالكِتَابُ الْمُبِينُ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) . قالوا : فعرّفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهّله ، فقال لها : ما أسمع إلا ما أعرف ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالوا : تغتسل فتطهّر وتطهّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحقّ ، ثم تصلّي ركعتين . ففعل ذلك ، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ، ومعه أسيد بن خضير ، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نخلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندهم ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ! كيف تعملون أمري فيكم ؟ قالوا : سيّدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة (٢) ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله . - ويروي أنه قال لهم : من شكّ منكم فيه فليأت بأهدى منه ؛ فوالله لقد جاء أمر لتحرّز (٣) فيه الرّقاب ، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة إلا الأضيّرم .

وأقام مصعب في منزل أسعد بن زُرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، ويقال : إن بني النجار أخرجوا مصعباً واشتدوا على أسعد ، فانتقل مصعب إلى سعد بن معاذ ، فلم يزل عنده يدعو آمناً ويهدي الله على يديه حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس ، وأسلم أشرافها ، وكسرت أضنامهم ، إلا دوراً من أوس الله ، وهي أميّة بن زيد ، وخطمة ، ووائل ، وواقف ، وذلك أنه كان فيهم صيفي أبو قيس بن الأسلت ، وكان شاعراً لهم قائداً ، يسمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق (٤) .

أول جمعة أقيمت في الإسلام :

وكان مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، يصلّي بالأنصار ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمّه بعض ، فلما رجع إلى النبي ﷺ ليهاجر معه صلى بهم أسعد بن زُرارة رضي الله عنه .

كما كان مصعب ، رضي الله عنه ، يجمع بهم الجُمُعات بأمر رسول الله ﷺ ، ويقال إنه رضي الله عنه كتب إلى النبي ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم ، فأذن له وكتب إليه : « انظر من اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسبّتهم ؛ فإذا زالت الشمس فازدلف إلى الله فيه برّكعتين واخطب فيهم » ، فجمع بهم مصعب في دار سعد بن خيثمة ، رضي الله عنه ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، فكانت أول جمعة أقيمت في الإسلام قبل قدوم النبي ﷺ المدينة وقبل نزول سورة الجمعة الأمرة بها ، فإنها مدنية (٥) .

ويقال إن أول من جمع بالأنصار بالمدينة أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، رضي الله عنه ، وكانوا أربعين رجلاً (٦) . فقد روى

(١) الزُخرف : ١ - ٣ .

(٢) مَبْمُونُ النَّبِيَّةِ : أي مَنبَجُ الْفَعَالِ ، مُطْفَرُّ الْمَطَالِبِ ، وَالنَّبِيَّةُ : النَّفْسُ ، وَقِيلَ : الطَّبِيعَةُ وَالْخَلِيقَةُ (النهاية : ج ١٠٢/٥) .

(٣) الْحَزْ : الْقَطْعُ (لسان العرب : ج ٨٥٦/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٢٠/٢ ، ٦٠٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٢١/٢) ، والدرر في اختصار في المغازي والسّير / لابن عبد البر (ص : ٦٠) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٨/٢ ، ٦٠٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٩/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٩/٢) .

(٦) روي أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهكّم فلنجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونصلي ونشكره ، ففعلوه يوم العروبة - أي يوم الجمعة - واجتمعوا إلى أسعد بن زُرارة فصلّى بهم يومئذ ، وأنزل الله بعد ذلك : ﴿ إِذَا نُودِيَ =

من ذلك شيئاً فأخذتم مجده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله ، عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر (١) .

وزاد البخاري في روايته عنه : ولا تقتل النفس التي حرم الله ، ولا تنتهب (٢) .

بعث مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه إلى المدينة ودعوته إلى الإسلام فيها :

فلما انتهى الموسم وانصرف القوم راجعين إلى بلادهم ، بعث رسول الله ﷺ معهم شاباً من شباب المسلمين السابقين إلى الإسلام وهو مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، وأن يعلم من أسلم منهم شرائع الإسلام ويفقههم في الدين ، ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام . فكان مصعب يُسَمِّي بالمدينة المقرء .

ويقال : إنه لما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر وفسح الإسلام في دور الأنصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك وكتبوا إليه كتاباً : أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن ، ويدعو الناس بكتاب الله ؛ فإنه قين أن يتبع . فبعث إليهم رسول الله ﷺ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، رضي الله عنه ، ويقال : بعث معه ابن أم مكتوم رضي الله عنه .

فنزله مصعب ، رضي الله عنه ، على أبي أمامة أسعد بن زُرارة ، رضي الله عنه ، فجعل يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً ، وكان يأتيهم في دورهم فيقرأ عليهم القرآن ، فيسلم الرجل والرجلان حتى أسلم على يديه خلق كثير من الأنصار (٣) .

- إسلام سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْرٍ رضي الله عنهما :

وكان ممن أسلم على يدي مصعب ، رضي الله عنه ، سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْرٍ ، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد - إلا ما كان من الأصيرم وهو عمرو بن ثابت ؛ فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد - فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها .

روي أن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عُمَيْرٍ يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ، فدخل به حائطاً (٤) من حوائط بني ظفر ، على بئر يقال لها بئر مرق ، فجلسا في الحائط ، واجتمع إليهما رجال من أسلم - وسعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْرٍ يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه - فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيّد بن حُضَيْرٍ : لأبأ لك ؛ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسْفِها ضعفاءنا فاجرهما وأنههما عن أن يأتيا دارينا ؛ فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة مني حيث قد علمت كفتيك ذلك ؛ هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً . فأخذ أسيّد بن حُضَيْرٍ حُرْبَتَهُ ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب بن عُمَيْرٍ : هذا سيّد قومه قد جاءك فأصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . وجاء أسيّد فوقف عليهما متشتماً وقال : ما جاء بكما إلينا تُسْفِهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفّ عنك ماتكراه ، فقال : أنصفت ، ثم ركز حُرْبَتَهُ وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، قال : والله لعرفنا في وجه الإسلام قبل أن يتكلم به في إشرافه وتسهله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله !! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قال له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ؛ سعد بن معاذ ، ثم أخذ حُرْبَتَهُ وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس في ناديتهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيّد بغير الوجه الذي ذهب به من عندهم ، فلما وقف على النّادي قال له سعد : ما فعلت ؟ فقال :

(١) سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) .

(٢) صحيح البخاري (ج ٧٠/٥) كتاب المناقب - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٨/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٣١/٢) ، والدرر في اختصار المغازي والسير

(ص : ٥٩) .

(٤) الحائط : الحديقة ، أو البستان .

كَلَّمَتِ الرَّجُلِينَ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ بِهَا بَأْسًا ، وَقَدْ نَهَيْتُهَا فَقَالَا : نَفَعَلْنَا مَا أَحْبَبْنَا ، وَقَدْ حَدَّثْتَ أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ لِيَقْتُلُوهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ لِيُخْفِرُوكَ . فَمَقَامُ سَعْدٍ مُغْضَبًا مُبَادِرًا تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذَكَرْ لَهُ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ ، فَأَخَذَ الْحَرْبَةَ مِنْ يَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا رَأَاهَا سَعْدٌ مَطْمَئِنِّينَ عَرَفَ أَنَّ أَسِيدًا إِنَّمَا أَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهَا ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا مَتَشَتِّيًا ، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ : يَا أَبَا أَمَامَةَ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتُ هَذَا مِنِّي ، أَتَفْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ ؟ وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ : لِمَصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ : أَيُّ مَصْعَبٍ ! جَاءَكَ وَاللَّهُ سَيِّدٌ مِنْ وِرَاءِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، إِنْ يَتَّبِعُكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ مِنْهُمْ اثْنَانِ ، فَقَالَ لَهُ مَصْعَبٌ : أَوْتَقَعْدُ فَتَسْمَعُ ؛ فَإِنْ رَضِيْتَ أَمْرًا وَرَغِبْتَ فِيهِ قَبْلَتَهُ ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ ، قَالَ سَعْدٌ : أَنْصَفْتَ ، ثُمَّ رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ : ﴿ هُوَ حَمٌ ، وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) . قَالَا : فَعَرَفْنَا وَاللَّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِإِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ ، فَقَالَ لَهَا : مَا أَسْمَعُ إِلَّا مَا أَعْرِفُ ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسَلِمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ ؟ قَالَا : تَغْتَسِلُ فَتَطَهَّرُ وَتَطَهَّرُ ثَوْبِيكَ ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ ، ثُمَّ تَصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ . فَفَعَلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ فَأَقْبَلَ عَامِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ ، وَمَعَهُ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ ، فَلَمَّا رَأَى قَوْمَهُ مَقْبَلًا قَالُوا : نَخْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكَ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ! كَيْفَ تَعْمَلُونَ أَمْرِي فِيكُمْ ؟ قَالُوا : سَيِّدُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا ، وَأَيُّمْنَا نَقِيبَةً (٢) ، قَالَ : فَإِنْ كَلَّمَكَ رَجَالُكُمْ وَنَسَأَتْكَ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تَتُومِنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ . - وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : مَنْ شَكَّ مِنْكُمْ فِيهِ فَلْيَأْتِ بِأَهْدَى مِنْهُ ؛ فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ أَمْرٌ لَتُحْرَزَنَّ (٣) فِيهِ الرَّقَابُ ، فَمَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسَلِّمًا أَوْ مُسَلِّمَةً إِلَّا الْأَصْغِيرَ .

وَأَقَامَ مَصْعَبٌ فِي مَنْزِلِ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيُقَالُ : إِنْ بَنِي النَّجَارِ أَخْرَجُوا مَصْعَبًا وَاشْتَدُّوا عَلَى أَسْعَدِ ، فَانْتَقَلَ مَصْعَبٌ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ ، فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَدْعُو آمِنًا وَيَهْدِي اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ ، وَأَسْلَمَ أَشْرَافُهَا ، وَكُتِبَتْ أَسْوَاقُهُمْ ، إِلَّا دُورًا مِنْ أَوْسِ اللَّهِ ، وَهِيَ أُمَيَّةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَخَطْمَةُ ، وَوَائِلٌ ، وَوَأَقِيفٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ صَيْفِيُّ أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ ، وَكَانَ شَاعِرًا لَهُمْ قَائِدًا ، يَسْمَعُونَ مِنْهُ وَيَطِيعُونَهُ ، فَوَقَفَ بِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَانَ عَامَ الْخَنْدَقِ (٤) .

أول جمعة أقيمت في الإسلام :

وَكَانَ مَصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَصَلِّيُ بِالْأَنْصَارِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ وَالخَزْرَجَ كَرِهَ بَعْضُهُمْ أَنْ يُؤَمَّهُ بَعْضٌ ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَهَاجِرَ مَعَهُ صَلَّى بِهِمْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

كَأَنَّ مَصْعَبَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَجْمَعُ بِهِمُ الْجُمُعَاتِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ أَنْ يَجْمَعُ بِهِمْ ، فَأَذِنَ لَهُ وَكَتَبَ إِلَيْهِ : « أَنْظِرْ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي يَجْهَرُ فِيهِ الْيَهُودُ لِسَبْتِهِمْ ؛ فَإِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ فَازْدَلْفُ إِلَى اللَّهِ فِيهِ بِرَكَعَتَيْنِ وَاخْطُبْ فِيهِمْ » ، فَجَمَعَ بِهِمْ مَصْعَبٌ فِي دَارِ سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، فَكَانَتْ أَوَّلُ جُمُعَةٍ أُقِيمَتْ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَقَبْلَ نَزُولِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ الْأَمْرَةَ بِهَا ، فَإِنَّهَا مَدِينَةٌ (٥) .

وَيُقَالُ إِنْ أَوَّلَ مَنْ جَمَعَ بِالْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ أَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا (٦) . فَقَدْ رَوَى

(١) الزُّخْرَفُ : ١ - ٣ .

(٢) مُؤْمِنُونَ النَّقِيبَةِ : أَيُّ مَنْجَعِ الْفِعَالِ ، مُطْفَرُّ الْمَطَالِبِ ، وَالنَّقِيبَةُ : النَّفْسُ ، وَقِيلَ : الطَّبِيعَةُ وَالْخَلِيقَةُ (النِّهَايَةُ : ج ١٠٢/٥) .

(٣) الْخَزْرَجُ : الْقَطْعُ (لِسَانُ الْعَرَبِ : ج ٨٥٦/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٢٠/٢ ، ٦٠٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٢١/٢) ، والدرر في اختصار في المغازي والسير / لابن عبد البر (ص : ٦٠) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٨/٣ ، ٦٠٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٩/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٩/٢) .

(٦) روي أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهُلِّمَ فَلْنَجْعَلْ لَنَا يَوْمًا يَجْتَمِعُ فِيهِ فَتَذَكُرُ اللَّهُ تَعَالَى وَنُصَلِّيَ وَنُشْكِرُهُ ، فَجَعَلُوا يَوْمَ الْعُرُوبَةِ - أَيُّ يَوْمِ الْجُمُعَةِ - وَاجْتَمَعُوا إِلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ فَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ إِذَا نُودِيَ =

ابن إسحاق بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبي ، كعب بن مالك ، حين ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبي أمانة أسعد بن زرارة ، قال : فكثت حيناً على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلى عليه ، واستغفر له ، قال : فقلت في نفسي : والله إن هذا بي لَعَجَزَ ألا أسأله ماله إذا سمع الأذان بالجمعة صلى على أبي أمانة أسعد بن زرارة ، قال : فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج ، فلما سمع الأذان بالجمعة صلى عليه واستغفر له ، قال : فقلت له : يا أبت ! مالك إذا سمعت الأذان بالجمعة صليت على أبي أمانة ؟ قال : أي بني ! كان أول من جمع بنا بالمدينة في هَزمِ النَّبِيِّتِ^(١) من حرّة بني يياضة يقال له نَمِيعُ الخَضِياتِ^(٢) ، قال : قلت : وم كم أنت يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً^(٣) .

- وكان رسول الله ﷺ يتابع دعوته إلى الله لكل وافد إلى مكة في ثقة وطهائنية ، وكان يتصل بأصحابه في المدينة باستمرار ويتلقى أخبار الدعوة فيها .

يروى أنه كانت حواء بنت يزيد بن السكن ، رضي الله عنها ، عند قيس بن الخطيم بالمدينة ، وكانت أمها عقرب بنت معاذ أخت سعد بن معاذ ، فأسلمت حواء ، فحسن إسلامها ، وبقي زوجها قيس على كفره ، فكان يدخل عليها وهي تصلي فيؤذنها ، وكان لا يخفى على رسول الله ﷺ بمكة أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأخبر به ، فقدم قيس مكة في رهط من مشركي قومه ، فبينما هم في ذي المجاز إذ جاء رسول الله ﷺ يسأل عنه ، فدل عليه فاتاه ، فدعاه إلى الإسلام وحرص عليه ، فقال قيس : ما أحسن ما تدعو إليه ! وإن الذي تدعو إليه لحسن ، ولكن الحرب شغلتنني عن هذا الحديث ، وجعل رسول الله ﷺ يلح عليه ويكنيه ويقول : « يا أبا يزيد ! أدعوك إلى الله » ، ويردّ عليه قيس كلامه الأول ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا يزيد ! إن صاحبك حواء قد بلغتني أنك تسيء صحبتها منذ فارقت دينك ، فاتق الله واحفظني فيها ، ولا تعرض لها » ، قال : نعم وكرامة ، أفعل ما أحببت لا أعرض لها إلا بخير . فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامراته وقال : فشأنك بدينك ؛ فوالله ما رأيته إلا حسن الوجه حسن الهيئة^(٤) .

= للصلوة ﴿ الآية ، فهذا يدل على أنهم اختاروه بالاجتهاد . وقال السهيلي : جميع الصحابة الجمعة وتسميتهم إياها بهذا الاسم هداية من الله لهم قبل أن يؤمروا بها ، ثم نزلت سورة الجمعة بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فاستقر فرضها واسترحكها ، ولذا قال ﷺ : « أضلته اليهود والنصارى وهداكم الله له » . وقيل : لا يبعد أنه ﷺ علم بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها ، ولذا جمع بهم أول ما قدم المدينة ، وعلى هذا فقد حصلت الهداية للجمعة بجهد النبي والبيان والتوقيف أي لما اجتهدوا فيه وأجمعوا على فعله يوم الجمعة قدم عليهم الكتاب النبوي إلى مصعب ، رضي الله عنه ، بالجمع بهم ، فوافق اجتهادهم النص ، فلذا قال ﷺ : « هدام الله له » . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٢/٢) ، والروض الأنف (ج ١٩٦/٢) .

(١) هَزمِ النَّبِيِّتِ : جَبَلٌ على بَرِيدٍ من المدينة (معجم البلدان : ج ٤٦٣/٨) .

(٢) نَمِيعُ الخَضِياتِ : موضعٌ بالمدينة ، وهو من أودية الحِجَاز (معجم البلدان : ج ٢١٢/٨) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٣/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٥٥/٢) .

بيعة العقبة الثانية

ولما اقترب موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة اجتمع بضعة وسبعون رجلاً من الأنصار فقالوا : حتى متى نذر رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ؟ فتواعدوا المسير إلى الحج وموافاة رسول الله ﷺ ، فخرجوا مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، وهم خمسمائة ، حتى قدموا مكة فزلوا مع الحجيج في منازلهم مستخفين بإسلامهم .

وكان معهم مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، فلما قدم مكة جاء منزل رسول الله ﷺ أولاً ولم يقرب منزله^(١) ، فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب ومالها من قوة ومنعة ، فسر رسول الله ﷺ بذلك ودعا له .

ثم اجتمع الأنصار بالنبي ﷺ وواعدوه العقبة من أوسط أيام التشريق^(٢) ، فعن عويم بن ساعدة ، رضي الله عنه ، قال : لما قدمنا مكة قال لي سعد بن خيثمة ومعن بن عدي وعبد الله بن جبير : يا عويم ! انطلق بنا حتى نأتي رسول الله ﷺ فنسلم عليه ؛ فإننا لم نره قط وقد آمننا به ، فخرجت معهم ، فقيل لي : هو في منزل العباس بن عبد المطلب ، فرحلنا إليه ، فسلمنا وقلنا له : متى نلتقي ؟ فقال العباس بن عبد المطلب : إن معكم من قومكم من هو مخالف لكم فأخفوا أمركم حتى ينصدع هذا الحاج وتلتقي نحن وأنتم فنوضح لكم الأمر فتدخلون على أمر بين ، فوعدهم رسول الله ﷺ الليلة التي في صباحها النفر الآخر أن يوافيهم أسفل العقبة ، حيث المسجد اليوم ، وأمرهم أن لا ينيبوا نائماً ولا ينتظروا غائباً^(٣) .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ! إنك سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطيباً للنار غداً ، ثم دعوانه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان تقيياً .

قال كعب : فمننا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، وهدأت الرّجُل ، خرجنا من رحالنا لميعاد

(١) روي أن أمه لما علمت بقدمه أرسلت إليه : يا عاق ! أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي ؟ فقال مصعب رضي الله عنه : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ ، فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت : إنك لعلي ماأنت عليه من الصبأة بعد ! قال : أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولسوله ، قالت : ماشرتك ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب ، فقال : أفرّ بديني أن تفتنوني ، فأرادت حبسه ، فقال : لئن أنت حبستني لأخريصن على قتل من يتعرّض لي ، قالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكي ، فقال مصعب : يا أمه ! إني لك ناصح ، عليك شفيق ، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قالت : والثواب ؛ لأدخل في دينك فيزري برأيي ويضعف عقلي ، ولكنني أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني . انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٨/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٧/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٢٩/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢١/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٧/٤) .

ابن إسحاق بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبي ، كعب بن مالك ، حين ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة ، قال : فكث حيناً على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة إلا صلى عليه ، واستغفر له ، قال : فقلت في نفسي : والله إن هذا بي لعجز ألا أسأله ماله إذا سمع الأذان بالجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة ، قال : فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج ، فلما سمع الأذان بالجمعة صلى عليه واستغفر له ، قال : فقلت له : يا أبت ! مالك إذا سمعت الأذان بالجمعة صليت على أبي أمامة ؟ قال : أي بُني ! كان أول من جمع بنا بالمدينة في هزم النبي^(١) من حرّة بني بياضة يقال له نقيع الخضات^(٢) ، قال : قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً^(٣) .

- وكان رسول الله ﷺ يتابع دعوته إلى الله لكل وافد إلى مكة في ثقة وطهانية ، وكان يتصل بأصحابه في المدينة باستمرار ويتلقى أخبار الدعوة فيها .

يروى أنه كانت حواء بنت يزيد بن السكن ، رضي الله عنها ، عند قيس بن الخطيم بالمدينة ، وكانت أمها عقرب بنت معاذ أخت سعد بن معاذ ، فأسلمت حواء ، فحسن إسلامها ، وبقي زوجها قيس على كفره ، فكان يدخل عليها وهي تصلي فيؤذيها ، وكان لا يخفى على رسول الله ﷺ بمكة أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأخبر به ، فقدم قيس مكة في رهط من مشركي قومه ، فبينما هم في ذي المجاز إذ جاء رسول الله ﷺ يسأل عنه ، فدل عليه فاتاه ، فدعاه إلى الإسلام وحرص عليه ، فقال قيس : ما أحسن ما تدعو إليه ! وإن الذي تدعو إليه لحسن ، ولكن الحرب شغلني عن هذا الحديث ، وجعل رسول الله ﷺ يلح عليه ويكنيه ويقول : « يا أبا يزيد ! أدعوك إلى الله » ، ويردّ عليه قيس كلامه الأول ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا يزيد ! إن صاحبك حواء قد بلغتني أنك تسيء صحبتها منذ فارقت دينك ، فاتق الله واحفظني فيها ، ولا تعرض لها » ، قال : نعم وكرامة ، أفعل ما أحببت لا أعرض لها إلا بخير . فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامرأته وقال : فشأنك بدينك ؛ فوالله ما رأيتك إلا حسن الوجه حسن الهيئة^(٤) .

للصلاة ﴿ الآية ، فهذا يدل على أنهم اختاروه بالاجتهاد . وقال السهيلي : جميع الصحابة الجمعة وتسميتهم إياها بهذا الاسم هداية من الله لهم قبل أن يؤمروا بها ، ثم نزلت سورة الجمعة بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فاستقر فرضها واستمر حكمها ، ولذا قال ﷺ : « أضلته اليهود والنصارى وهداكم الله له » . وقيل : لا يبعد أنه علم بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها ، ولذا جمع بهم أول ما قدم المدينة ، وعلى هذا فقد حصلت الهداية للجمعة بجهدتي البيان والتوقيف أي لما اجتهدوا فيه وأجمعوا على فعله يوم الجمعة قدم عليهم الكتاب النبوي إلى مصعب ، رضي الله عنه ، بالجمع بهم ، فوافق اجتهادهم النص ، فلذا قال ﷺ : « هدام الله له » . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٢/٢) ، والروض الأنف (ج ١٩٦٢) .

(١) هزم النبي : جَبَل على تَريد من المدينة (معجم البلدان : ج ٤٦٣/٨) .

(٢) نقيع الخضات : موضع بالمدينة ، وهو من أودية الحجاز (معجم البلدان : ج ٣١٢/٨) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٥٥/٢) .

بيعة العقبة الثانية

ولما اقترب موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة اجتمع بضعة وسبعون رجلاً من الأنصار فقالوا : حتى متى نذر رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ؟ فتواعدوا المسير إلى الحج وموافاة رسول الله ﷺ ، فخرجوا مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، وهم خمسمائة ، حتى قدموا مكة فزلوا مع الحجيج في منازلهم مستخفين بإسلامهم .

وكان معهم مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، فلما قدم مكة جاء منزل رسول الله ﷺ أولاً ولم يقرب منزله^(١) ، فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب ومالها من قوة ومنعة ، فسّر رسول الله ﷺ بذلك ودعا له .

ثم اجتمع الأنصار بالنبي ﷺ وواعدوه العقبة من أوسط أيام التشريق^(٢) ، فعن عويم بن ساعدة ، رضي الله عنه ، قال : لما قدمنا مكة قال لي سعد بن خنيفة ومعن بن عدي وعبد الله بن جبير : يا عويم ! انطلق بنا حتى نأتي رسول الله ﷺ فنسلم عليه ؛ فإننا لم نره قطّ وقد آمننا به ، فخرجت معهم ، فقيل لي : هو في منزل العباس بن عبد المطلب ، فرحلنا إليه ، فسلمنا وقلنا له : متى نلتقي ؟ فقال العباس بن عبد المطلب : إن معكم من قومكم من هو مخالف لكم فأخفوا أمركم حتى ينصدع هذا الحاج وتلتقي نحن وأنتم فنوضح لكم الأمر فتدخلون على أمرين ، فوعدهم رسول الله ﷺ الليلة التي في صباحها النفر الآخر أن يوافيهم أسفل العقبة ، حيث المسجد اليوم ، وأمرهم أن لا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً^(٣) .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ! إنك سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطيباً للنار غداً ، ثم دعوانا إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان تقيياً .

قال كعب : فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، وهدأت الرّجُل ، خرجنا من رحالنا لميعاد

(١) روي أن أمه لما علمت بقدمه أرسلت إليه : يا عاق ! أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي ؟ فقال مصعب رضي الله عنه : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ ، فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت : إنك لعلّ ما أنت عليه من الصبأة بعد ! قال : أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولرسوله ، قالت : ما شكرت ما رثيتك مرّة بأرض الحبشة ومرّة بيثرب ، فقال : أفّر بديني أن تفتنوني ، فأرادت حبسه ، فقال : لئن أنت حبستني لأخرضنّ على قتل من يتعرّض لي ، قالت : فإذهب لشأنك ، وجعلت تبكي ، فقال مصعب : يا أمه ! إني لك ناصح ، عليك شفيق ، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، قالت : والثواب ؛ لا أدخل في دينك فيزير برأيي ويضعف عقلي ، ولكنني أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني . انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٨/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٧/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٣٩/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢١/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٧/٤) .

ابن إسحاق بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبي ، كعب بن مالك ، حين ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجُمُعة فسبح الأذان بها صلى على أبي أمانة أسعد بن زُرارة ، قال : فكثت حيناً على ذلك لا يسبح الأذان للجمعة إلا صلى عليه ، واستغفر له ، قال : فقلت في نفسي : والله إن هذا بي لَعَجَزَ ألا أسأله ماله إذا سمع الأذان بالجمعة صلى على أبي أمانة أسعد بن زُرارة ، قال : فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج ، فلما سمع الأذان بالجمعة صلى عليه واستغفر له ، قال : فقلت له : يا أبت ! مالك إذا سمعت الأذان بالجمعة صليت على أبي أمانة ؟ قال : أي بُني ! كان أول من جمع بنا بالمدينة في هَزمِ النَّبِيِّتِ^(١) من حرّة بني تَيْيَاضَةَ يقال له نَقِيعُ الخَضَمَاتِ^(٢) ، قال : قلت : وم كم أنت يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً^(٣) .

- وكان رسول الله ﷺ يتابع دعوته إلى الله لكل وافد إلى مكة في ثقة وطبائنية ، وكان يتصل بأصحابه في المدينة باستمرار ويتلقى أخبار الدعوة فيها .

يروى أنه كانت حواء بنت يزيد بن السكن ، رضي الله عنها ، عند قيس بن الخطيم بالمدينة ، وكانت أمها عقرب بنت معاذ أخت سعد بن معاذ ، فأسلمت حواء ، فحسن إسلامها ، وبقي زوجها قيس على كفره ، فكان يدخل عليها وهي تصلي فيؤذها ، وكان لا ينفى على رسول الله ﷺ بمكة أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأخبر به ، فقدم قيس مكة في رهط من مشركي قومه ، فبينما هم في ذي المجاز إذ جاء رسول الله ﷺ يسأل عنه ، فدلّ عليه فاتاه ، فدعاه إلى الإسلام وحرص عليه ، فقال قيس : ما أحسن ما تدعو إليه ! وإن الذي تدعو إليه لحسن ، ولكن الحرب شغلتنني عن هذا الحديث ، وجعل رسول الله ﷺ يلحّ عليه ويكنيه ويقول : « يا أبا يزيد ! أدعوك إلى الله » ، ويردّ عليه قيس كلامه الأول ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا يزيد ! إن صاحبك حواء قد بلغني أنك تُسيءُ صُحبتَها منذُ فارقتُ دينك ، فاتقِ الله واحفظني فيها ، ولا تعرّض لها » ، قال : نعم وكرامة ، أفعل ما أحببت لا أعرض لها إلا بخير . فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامرأته وقال : فشأنك بدينك ؛ فوالله ما رأيته إلا حسن الوجه حسن الهيئة^(٤) .

للصلاة ﴿ الآية ، فهذا يدل على أنهم اختاروه بالاجتهاد . وقال السهيلي : جميع الصحابة الجمعة وتسميتهم إياها بهذا الاسم هداية من الله لهم قبل أن يؤمروا بها ، ثم نزلت سورة الجمعة بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فاستقر فرضها واستمر حكمها ، ولذا قال ﷺ : « أصلته اليهود والنصارى وهداكم الله له » . وقيل : لا يبعد أنه ﷺ علم بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها ، ولذا جمع بهم أول ما قدم المدينة ، وعلى هذا فقد حصلت الهداية للجمعة بجهدتي البيان والتوقيف أي لما اجتهدوا فيه وأجمعوا على فعله يوم الجمعة قدم عليهم الكتاب النبوي إلى مصعب ، رضي الله عنه ، بالجمع بهم ، فوافق اجتهادهم النص ، فلذا قال ﷺ : « هداكم الله له » . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٢/٢) ، والروض الأنتف (ج ١٩٦٢) .

(١) هَزمِ النَّبِيِّتِ : جَبَلٌ على تَريدٍ من المدينة (معجم البلدان : ج ٤٦٣/٨) .

(٢) نَقِيعُ الخَضَمَاتِ : موضعٌ بالمدينة ، وهو من أودية الحِجَاز (معجم البلدان : ج ٢١٢/٨) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٤٢/٢) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٣/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٥٥/٢) .

بيعة العقبة الثانية

ولما اقترب موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة اجتمع بضعة وسبعون رجلاً من الأنصار فقالوا : حتى متى نذر رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ؟ فتواعدوا المسير إلى الحج وموافاة رسول الله ﷺ ، فخرجوا مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، وهم خمسمائة ، حتى قدموا مكة فزلوا مع الحجيج في منازلهم مستخفين بإسلامهم .

وكان معهم مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، فلما قدم مكة جاء منزل رسول الله ﷺ أولاً ولم يقرب منزله^(١) ، فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب وما لها من قوة ومنعة ، فسر رسول الله ﷺ بذلك ودعا له .

ثم اجتمع الأنصار بالنبي ﷺ وواعدوه العقبة من أوسط أيام التشريق^(٢) ، فعن عويم بن ساعدة ، رضي الله عنه ، قال : لما قدمنا مكة قال لي سعد بن خنيفة ومغن بن عدي وعبد الله بن جبير : يا عويم ! انطلق بنا حتى نأتي رسول الله ﷺ فنسلم عليه ؛ فإننا لم نره قط وقد آمننا به ، فخرجت معهم ، فقيل لي : هو في منزل العباس بن عبد المطلب ، فرحلنا إليه ، فسلمنا وقلنا له : متى نلتقي ؟ فقال العباس بن عبد المطلب : إن معكم من قومكم من هو مخالف لكم فأخفوا أمركم حتى ينصدع هذا الحاج وتلتقي نحن وأنتم فنوضح لكم الأمر فتدخلون على أمر بين ، فوعدهم رسول الله ﷺ الليلة التي في صباحها النفر الآخر أن يوافيهم أسفل العقبة ، حيث المسجد اليوم ، وأمرهم أن لا يبنهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً^(٣) .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ! إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطيباً للنار غداً ، ثم دعوانا إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان تقيياً .

قال كعب : فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، وهدأت الرّجُل ، خرجنا من رحالنا لميعاد

(١) روي أن أمه لما علمت بقدمه أرسلت إليه : يا عاق ! أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي ؟ فقال مصعب رضي الله عنه : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ ، فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت : إنك لعلي ماأنت عليه من الصبأة بعد ! قال : أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولرسوله ، قالت : ماشكرت ما ريثتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب ، فقال : أفر بديني أن تفتنوني ، فأرادت حبسه ، فقال : لكن أنت حبستني لأخرصن على قتل من يتعرض لي ، قالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكي ، فقال مصعب : يا أمه ! إني لك ناصح ، عليك شفيق ، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قالت : والثواقب ؛ لأدخل في دينك فيزري برأيي ويضعف عقلي ، ولكني أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني . انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٨/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٧/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٣٩/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢١/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٧/٤) .

رسول الله ﷺ تسَلَّلَ تسَلَّلَ القَطَا^(١) مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً - وفي رواية أنهم كانوا سبعين رجلاً ، منهم أربعون رجلاً من ذوي أسنانهم وأشرفهم ، وثلاثون شاباً ، أصغرهم عقبة بن عمرو أبو مسعود ، وجابر بن عبد الله - ويقال : أصغرهم أسعد بن زرارة - قال : ومعنا امرأتان من نساءنا : نُسَيْبَةُ بنت كعب أم عُمَارَةَ ، إحدى نساء بني مازن بن النجار ، وأسَاء بنت عمرو أم منيع إحدى نساء بني سَلَمَةَ^(٢) .

وكان كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، يفخر بشهودة العقبة فيقول : ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . وكذلك كان رافع بن مالك الزُرَيْقِيُّ يقول^(٣) .

استيثار العباس للنبي ﷺ وعزم الأنصار على البيعة :

واجتمعت الأنصار في الشعب ينتظرون رسول الله ﷺ حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، وكان ذا معرفة بأهل يثرب - وفي رواية أن رسول الله ﷺ كان قد سبقهم إلى ذلك الموضع ومعه عمه العباس ، وكان أول من طلع على رسول الله ﷺ رافع بن مالك - فلما نظر العباس في وجوههم قال : هؤلاء قوم لأعرفهم ، هؤلاء أحداث .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج ! قال : وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومتنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومتمعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فن الآن فدعوه ؛ فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور رضي الله عنه : قد سمعنا ما قلت : وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما نتطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

وفي رواية : فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله ، عز وجل ، إذا فعلنا ذلك .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « تبايعوني على الشُّعْبِ والطَّاعَةِ في الشَّاطِئِ والكَسَلِ ، والنَّفَقَةِ في العُسْرِ واليُسْرِ ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا الحق لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن لا تنازعوا الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « أسألكم لربي ، عز وجل ، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » - وفي لفظ : « وأموالكم » .

فأخذ البراء بن معرور ، رضي الله عنه ، بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزربنا^(٤) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الخلقة ورثناها كابراً عن كابر .

(١) تسَلَّلَ : انطلق في استخفاء (لسان العرب : ج ٢٠٧٤/٣) ، والقَطَا : طائر معروف ، سمي بذلك لثقل مشيه (لسان العرب : ج ٣٨٤/٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢١/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤٠٩/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٤٠/٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٩/٥ ، ١٠٣) كتاب المناقب - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بكرة بيعة العقبة ، باب شهود الملائكة بدرأ .

(٤) أي نساءنا وأهلنا ، كنى عنهم بالأزرب . وقيل : أراد أنفسنا ، وقد يكتنى عن النفس بالإزار (النهاية : ج ٤٥/١) .

فقاطعهُ أبو الهيثم بن التَّيْهَانِ رضي اللهُ عنه - ويقال إنه كان أول من تكلم - فقال : يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرِّجال - يعني اليهود - جبالاً^(١) ، وإننا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهركَ اللهُ أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال : « بَلِ الدِّمُ الدِّمُ ، وَالدِّمُ الدِّمُ^(٢) ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أَحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأَسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ » .

فلما رضي أبو الهيثم بما رجع إليه رسول الله ﷺ من قوله ، أُقبل على قومه فقال : يا قوم ! هذا رسول الله حقاً ، أشهد بالله أنه لصادق ، وإنه اليوم في حرم الله وأمنه ، بين ظهري قومه وعشيرته ، فاعلموا أنكم إن تخرجوه ترميكم العرب عن قوس واحدة ، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم ؛ فإنه رسول الله حقاً ، وإن خفتم خذلانه فن الآن ، فقلوا : قبلنا عن الله وعن رسول الله ، فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو أخذ بيد رسول الله ﷺ : أخفوا جُرُوسَكُمْ^(٣) ؛ فإن علينا عيوناً ، وقدّموا ذوي أسنانكم ، فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإننا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم واكتوا أمركم ، فإن طويتم هذا الأمر حتى ينصدع هذا الموسم فأنتم الرجال وأنتم لما بعد اليوم .

فقام البراء بن معرور ، رضي الله عنه ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ، فقال : لك والله عندنا كتمان ما تحب أن نكتم ، وإظهار ما تحب أن نظهر ، وبذل مهج أنفسنا ، ورضا ربنا عنا ، ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله .

فلما رأى العباس بن عبد المطلب أن القوم طابت أنفسهم بما اشترط عليهم رسول الله ﷺ أخذ عليهم المواثيق ، وعظم النبي بينهم وبين رسول الله ﷺ فقال : عليكم بما ذكرتم ذمّة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم ، في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم لتجدن في نصرته ولتشدن من أزره ؟ قالوا جميعاً : نعم ، قال العباس : اللهم ! إنك سامع شاهد ، وإن ابن أخي قد استرعاه ذمته ، واستحفظهم نفسه ، اللهم ! كن لابن أخي عليهم شهيداً . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول بعد : « أُيِّدَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ بِعَمِّي الْعَبَّاسِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ عَلَى الْقَوْمِ وَيُعْطِيهِمْ » .

انتخاب النقباء وعقد البيعة :

ثم قال رسول الله ﷺ : « أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ » . فانتخبوا منهم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وهم :

من الخزرج : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو .

ومن الأوس : أسيد بن حضير ، وسعد بن خنيمه ، ورفاعة بن عبد المنذر . وبعض أهل العلم يعدّ فيهم أبا الهيثم بن التَّيْهَانِ ولا يعدّ رفاعة .

وكان كل واحد منهم على قبيلته ، فكان نقيب بني النجار : أسعد بن زرارة ، وكان نقيب بني سلّمة : البراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وكان نقيب بني ساعدة : سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، وكان نقيب بني زريق : رافع بن مالك بن العجلان ، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج : عبد الله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، وكان نقيب القواقل بني عوف بن الخزرج : عبادة بن الصامت .

(١) أي عبوداً ومواثيق (النهاية : ج ٢٢٢/١) .

(٢) الهدم : يروى بسكون الدال وفتحها ، فالهدم بالتحريك : القبر . يعني إني أقبر حيث تفترون . وقيل : هو المنزل : أي منزلكم منزلي ، لأفارقكم . والهدم بالسكون وبالفتح أيضاً : هو إهدار دم القتيل . والمعنى إن طلب دمكم فقد طلب دمي ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي ، لاستحكام الألفة بيننا ، وهو قول معروف للعرب ، يقولون : دمي دمك وهدي هدمك ، وذلك عند المعاهدة والنصرة (النهاية : ج ٢٥١/٥) .

(٣) الجزس : الصوت (النهاية : ج ٢٦٠/١) .

رسول الله ﷺ تسَلَّلَ تسَلَّلَ القَطَا^(١) مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً - وفي رواية أنهم كانوا سبعين رجلاً ، منهم أربعون رجلاً من ذوي أسنانهم وأشرافهم ، وثلاثون شاباً ، أصغرهم عقبة بن عمرو أبو مسعود ، وجابر بن عبد الله - ويقال : أصغرهم أسعد بن زرارة - قال : ومعنا امرأتان من نساءنا : نُسَيْبَةُ بنت كعب أم عُمَارَةَ ، إحدى نساء بني مازن بن النجار ، وأسَاء بنت عمرو أم منيع إحدى نساء بني سَلَمَةَ^(٢) .

وكان كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، يفخر بشهودة العقبة فيقول : ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . وكذلك كان رافع بن مالك الزُرَيْقِيُّ يقول^(٣) .

استيثار العباس للنبى ﷺ وعزم الأنصار على البيعة :

واجتمعت الأنصار في الشعب ينتظرون رسول الله ﷺ حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، وكان ذا معرفة بأهل يثرب - وفي رواية أن رسول الله ﷺ كان قد سبقهم إلى ذلك الموضع ومعه عمه العباس ، وكان أول من طلع على رسول الله ﷺ رافع بن مالك - فلما نظر العباس في وجوههم قال : هؤلاء قوم لأعرفهم ، هؤلاء أحداث .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج ! قال : وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها ، إن محمداً مينا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومتمعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فن الآن فدعوه ؛ فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن مخرور رضي الله عنه : قد سمعنا ما قلت : وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

وفي رواية : فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله ، عز وجل ، إذا فعلنا ذلك .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا الحق لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن لا تنازعوا الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن تنصروني فتنصروني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ، ولكم الجنة » .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « أسألكم لربي ، عز وجل ، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » - وفي لفظ : « وأموالكم » .

فأخذ البراء بن معرور ، رضي الله عنه ، بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا^(٤) ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الخلقة ورثناها كابراً عن كابر .

(١) تسَلَّلَ : انطلق في استخفاء (لسان العرب : ج ٢٠٧٤/٣) ، والقَطَا : طائر معروف ، سمي بذلك لثقل مشيه (لسان العرب : ج ٣٦٨٤/٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢١/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤٠٩/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٤٠/٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٩/٥ ، ١٠٣) كتاب المناقب - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة ، باب شهود اللاتكة بدرأ .

(٤) أي نساءنا وأهلنا ، كنى عنهم بالأزير . وقيل : أراد أنفسنا ، وقد كنى عن النفس بالازار (النهاية : ج ٤٥/١) .

فقاطعهُ أبو الهيثم بن التَّيْهَانِ رضي اللهُ عنه - ويقال إنه كان أول من تكلم - فقال : يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرجال - يعني اليهود - جبالاً^(١) ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بَلِ الدِّمُ الدِّمُ ، وَالدِّمُّ الدِّمُّ^(٢) ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أَحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأَسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ » .

فلما رضي أبو الهيثم بما رجع إليه رسول الله ﷺ من قوله ، أقبل على قومه فقال : يا قوم ! هذا رسول الله حقاً ، أشهد بالله أنه لصادق ، وإنه اليوم في حرم الله وأمنه ، بين ظهري قومه وعشيرته ، فاعلموا أنكم إن تخرجوه ترمكم العرب عن قوس واحدة ، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم ؛ فإنه رسول الله حقاً ، وإن خفتم خذلانه فن الآن ، فقالوا : قبلنا عن الله وعن رسول الله ، فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو أخذ بيد رسول الله ﷺ : أخفوا جرسكم^(٣) ؛ فإن علينا عيوناً ، وقدّموا ذوي أسنانكم ، فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإننا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم واكتبوا أمركم ، فإن طويتم هذا الأمر حتى ينصدع هذا الموسم فأنتم الرجال وأنتم لما بعد اليوم .

فقام البراء بن معرور ، رضي الله عنه ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ، فقال : لك والله عندنا كتمان ما تحب أن نكتم ، وإظهار ما تحب أن نظهر ، وبذل مهج أنفسنا ، ورضا ربنا عنا ، ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله .

فلما رأى العباس بن عبد المطلب أن القوم طابت أنفسهم بما اشترط عليهم رسول الله ﷺ أخذ عليهم المواثيق ، وعظم الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ فقال : عليكم بما ذكرتم ذمّة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم ، في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم لتجدن في نصرته ولتشدن من أزره ؟ قالوا جميعاً : نعم ، قال العباس : اللهم ! إنك سامع شاهد ، وإن ابن أخي قد استرعاه ذمته ، واستحفظهم نفسه ، اللهم ! كن لابن أخي عليهم شهيداً . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول بعد : « أُيِّدَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ بِعَمِّي الْعَبَّاسِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ عَلَى الْقَوْمِ وَيُعْطِيهِمْ » .

انتساب النقباء وعقد البيعة :

ثم قال رسول الله ﷺ : « أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ » . فانتخبوا منهم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وهم :

من الخزرج : أبو أمّة أسعد بن زُرارة ، وسعد بن الرِّبِيع ، وعبد الله بن رَوَاحَةَ ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حَرَام ، وعبادة بن الصَّامِت ، وسعد بن عَبَّادَةَ ، والمُنذر بن عمرو .

ومن الأوس : أسيد بن حَضِير ، وسعد بن خَيْثَمَةَ ، ورفاعة بن عبد المُنْذِر . وبعض أهل العلم يعدّ فيهم أبا الهيثم بن التَّيْهَانِ ولا يعدّ رفاعة .

وكان كل واحد منهم على قبيلته ، فكان نقيب بني النَّجَّار : أسعد بن زُرارة ، وكان نقيب بني سَلَمَةَ : البراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وكان نقيب بني سَاعِدَةَ : سعد بن عبادة ، والمُنذر بن عمرو ، وكان نقيب بني زُرَيْق : رافع بن مالك بن العَجَلان ، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج : عبد الله بن رَوَاحَةَ ، وسعد بن الرِّبِيع ، وكان نقيب القواقل بني عوف بن الخزرج : عبادة بن الصَّامِت .

(١) أي عُوداً ومواثيق (النهاية : ج ٣٣٢/١) .

(٢) الهدم : يروى بسكون الدالِ وفتحها ، فالهدم بالتحريك : القبر . يُعْنِي إِلَيَّ أَقْبَرَ حَيْثُ يُقْبَرُونَ . وقيل : هو المنزلة : أي منزلكم منزلي ، لأفارقكم . والهدم بالسكون وبالفتح أيضاً : هو إهدار دم القليل . والمعنى إن طلب دمكم فقد طلب دمي ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي ، لاستحكام الألفة بيننا ، وهو قول معروف للعرب ، يقولون : دمي دمك وهدمي هدمك ، وذلك عند المعاهدة والنصرة (النهاية : ج ٢٥١/٥) .

(٣) الجرس : الصوت (النهاية : ج ٢٦٠/١) .

رسول الله ﷺ تسلك تسلك القطا^(١) مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً - وفي رواية أنهم كانوا سبعين رجلاً ، منهم أربعون رجلاً من ذوي أسنانهم وأشرافهم ، وثلاثون شاباً ، أصغرهم عقبة بن عمرو أبو مسعود ، وجابر بن عبد الله - ويقال : أصغرهم أسعد بن زرارة - قال : ومعنا امرأتان من نساءنا : نسيبة بنت كعب أم عمارة ، إحدى نساء بني مازن بن النجار ، وأساء بنت عمرو أم منيع إحدى نساء بني سلمة^(٢) .

وكان كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، يفخر بشهوده العقبة فيقول : ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . وكذلك كان رافع بن مالك الزُرقي يقول^(٣) .

استيثار العباس للنبي ﷺ وعزم الأنصار على البيعة :

واجتمعت الأنصار في الشعب ينتظرون رسول الله ﷺ حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، وكان ذا معرفة بأهل يثرب - وفي رواية أن رسول الله ﷺ كان قد سبقهم إلى ذلك الموضع ومعه عمه العباس ، وكان أول من طلع على رسول الله ﷺ رافع بن مالك - فلما نظر العباس في وجوههم قال : هؤلاء قوم لأعرفهم ، هؤلاء أحداث .

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج ! قال : وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها ، إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ؛ فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور رضي الله عنه : قد سمعنا ما قلت : وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

وفي رواية : فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله ، عز وجل ، إذا فعلنا ذلك .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا الحق لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن لا تنازعوا الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ، ولكم الجنة » .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « أسألكم لربي ، عز وجل ، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لِنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » - وفي لفظ : « وأموالكم » .

فأخذ البراء بن معرور ، رضي الله عنه ، بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا^(٤) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلفة وراثها كبيراً عن كبير .

(١) تسلك : انطلق في استخفاء (لسان العرب : ج ٢٠٧٤/٣) ، والقطا : طائر معروف ، سمي بذلك لثقل مشيه (لسان العرب : ج ٣١٨٤/٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢١/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤٠٩/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٤٠/٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٩/٥ ، ١٠٢) كتاب المناقب - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة ببيعة العقبة ، باب شهود اللائكة بدرأ .

(٤) أي نساءنا وأهلنا ، كنى عنهم بالأزير . وقيل : أراد أنفسنا ، وقد يكتنى عن النفس بالإزار (النهاية : ج ٤٥/١) .

فقاطعهُ أبو الهيثم بن التَّيْهَانِ رضي اللهُ عنه - ويقال إنه كان أول من تكلم - فقال : يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرِّجال - يعني اليهود - حِبَالاً^(١) ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرَكَ اللهُ أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال : « بَلِ الدِّمُ الدِّمُ ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ^(٢) ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أَحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأَسْأَلُ مَنْ سَأَلْتُمْ » .

فلما رضي أبو الهيثم بما رجع إليه رسول الله ﷺ من قوله ، أُقْبِلَ على قومه فقال : يا قوم ! هذا رسول الله حقاً ، أشهد بالله أنه لصادق ، وإنه اليوم في حرم الله وأمنه ، بين ظهري قومه وعشيرته ، فاعلموا أنكم إن تخرجوه ترميكم العرب عن قوس واحدة ، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم ؛ فإنه رسول الله حقاً ، وإن خفتم خذلانه فن الآن ، فقالوا : قَبِلْنَا عن الله وعن رسول الله ، فخلَّ بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه .

فقال العَبَّاسُ بن عبد المطلب وهو أخذ بيد رسول الله ﷺ : أخفوا جُرْسَكُمْ^(٣) ؛ فإن علينا عيوناً ، وقدّموا ذوي أسنانكم ، فيكونون هم الذين يلدون كلامنا منكم ، فإننا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم واكتموا أمركم ، فإن طويتم هذا الأمر حتى ينصدع هذا الموسم فأنتم الرِّجال وأنتم لما بعد اليوم .

فقام البراء بن معرور ، رضي اللهُ عنه ، فأجاب العَبَّاسُ بن عبد المطلب ، فقال : لك والله عندنا كتمان ما تحب أن نكتم ، وإظهار ما تحب أن نظهر ، وبذل مهج أنفسنا ، ورضا ربنا عنا ، ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله .

فلما رأى العَبَّاسُ بن عبد المطلب أن القوم طابت أنفسهم بما اشترط عليهم رسول الله ﷺ أخذ عليهم المواثيق ، وعظم النبي بينهم وبين رسول الله ﷺ فقال : عليكم بما ذكرتُم ذمّة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم ، في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم لتجدن في نصرته ولتشدن من أزره ؟ قالوا جميعاً : نعم ، قال العَبَّاسُ : اللهم ! إنك سامع شاهد ، وإن ابن أخي قد استرعاه ذمته ، واستحفظهم نفسه ، اللهم ! كن لابن أخي عليهم شهيداً . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول بعد : « أُيِّدْتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِقَمِي الْعَبَّاسِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ عَلَى الْقَوْمِ وَيُعْطِيهِمْ » .

انتخاب النقباء وعقد البيعة :

ثم قال رسول الله ﷺ : « أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ » . فانتخبوا منهم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وهم :

من الخزرج : أبو أمّة أسعد بن زُرارة ، وسعد بن الرِّبيع ، وعبد الله بن رَوَاحَةَ ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حَرَامِ ، وعبادة بن الصَّامِتِ ، وسعد بن عَبَّادَةَ ، والمنذر بن عمرو .

ومن الأوس : أُسَيْدُ بن حَضْرٍ ، وسعد بن خَيْثَمَةَ ، ورفاعة بن عبد المُنْذِرِ . وبعض أهل العلم يعدّ فيهم أبا الهيثم بن التَّيْهَانِ ولا يعدّ رفاعة .

وكان كل واحد منهم على قبيلته ، فكان نقيب بني النُّجَاجِ : أسعد بن زُرارة ، وكان نقيب بني سَلَمَةَ : البراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حَرَامِ ، وكان نقيب بني سَاعِدَةَ : سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، وكان نقيب بني زُرَيْقِ : رافع بن مالك بن العَجَلَانِ ، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج : عبد الله بن رَوَاحَةَ ، وسعد بن الرِّبيع ، وكان نقيب القواقل بني عوف بن الخزرج : عبادة بن الصَّامِتِ .

(١) أي عهوداً ومواثيق (النهاية : ج ٢٢٢/١) .

(٢) الهدم : يروى بسكون الدالِ وفتحها ، فالهدم بالتحريك : القبر . يعني إني أقبّر حيث تقبرون . وقيل : هو المنزل : أي منزلكم منزلي ، لأفارقكم . والهدم بالسكون وبالفتح أيضاً : هو إهدار دم القَتِيلِ . والمعنى إن طلب دمكم فقد طلب دمي ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي ، لاستحكام الألفة بيننا ، وهو قول معروف للعرب ، يقولون : دمي دمك وهدمي هدمك ، وذلك عند المعاهدة والنصرة (النهاية : ج ٢٥١/٥) .

(٣) الجزن : الصوت (النهاية : ج ٢٦٠/١) .

وفي الأوس من بني عبد الأشهل : أسيد بن حضير ، وأبو الهيثم التيهان ، وكان نقيب بني عمرو بن عوف : سعد بن خيثمة . وكان رأس النقباء أسعد بن زرارة رضي الله عنهم .

ويقال إن رسول الله ﷺ هو الذي تخير النقباء بإشارة جبريل ، عليه السلام ، فيروى عنه أنه قال : « إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً فلا يجدن منكم أحداً في نفسه أن يؤخذ غيره فإننا يختار لي جبريل » .

ثم قال رسول الله ﷺ للنقباء : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين ليعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي » - يعني المسلمين - قالوا : نعم .

فلما اجتمع القوم لبيعة رسول الله ﷺ أراد العباس بن عبادة بن نضلة ، رضي الله عنه ، أن يشد العقد لرسول الله ﷺ فقال : يا معشر الخزرج ! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت^(١) أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : « الجنة » ، قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

وقيل إن الذي تولى الكلام من الأنصار وشد العقد لرسول الله ﷺ أسعد بن زرارة ، رضي الله عنه ، فإنه أخذ بيد النبي ﷺ وقال : رويداً يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله^(٢) ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف^(٣) ، فإما أنتم قوم تصهرون على السيوف إذا مستكم ، وعلى قتل خياركم ، وعلى مفارقة العرب كافة ، فخذوه وأجرم على الله ، عز وجل ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر عند الله . فقالوا : يا أسعد ! أميط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها^(٤) .

فقاموا إلى رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً يأخذ عليهم بشرطه العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - ويعطيهم على ذلك الجنة ، وكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ أسعد بن زرارة ، وقيل : البراء بن معرور ، وقيل : أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنهم^(٥) .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايع المرتين المذكورتين قولاً من غير مصافحة لأنه ﷺ كان لا يوافق النساء إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : « أذهبن فقد بايعنكن »^(٦) .

روي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال : قالت أم عمارة : كانت الرجال تصفق على يد رسول الله ﷺ ليلة بيعة العقبة ، والعباس بن عبد المطلب أخذ بيد رسول الله ﷺ ، فلما بقيت أنا وأم متبوع نادى زوجي عرفة بن عمرو : يا رسول الله ! هاتان امرأتان حضرتنا معنا تبايعانك ، فقال رسول الله ﷺ : « قد بايعتكما على ما بايعتكم عليه ، إني لأصافح النساء »^(٧) .

- (١) النهك : التنقص .
- (٢) يقال : فلان تضرب إليه أكباد الإبل ؛ أي يرخل إليه في طلب العلم وغيره (لسان العرب : ج ٢٨٠٧/٥) ، والمراد أنه لم يجهد مطايانا في المسير إليه إلا لعلمنا أنه رسول الله .
- (٣) أغضضته سيفي : ضربته به (لسان العرب : ج ٢٩٨٦/٤) .
- (٤) استقال العهد : طلب أن يفسخ (الوسيط : ج ٧٧٦/٢) .
- (٥) أخذنا تفاصيل خبر بيعة العقبة الثانية من سيرة ابن هشام (ج ٤٩٦/٢ ، ٥٦ ، ٦٣) ، وصحيح البخاري (ج ٥٩٧/٩) كتاب الفتن - باب قول النبي ﷺ « سترون بعدي أموراً تنكرونها » ، و (ج ٩٦٧/٩) كتاب الأحكام - باب كيف يبايع الإمام الناس ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٣٩٧/٣ ، ٢٤٠) و (ج ١١٩٧/٤) و (ج ٢٢٥/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢١/١ - ٢٢٢) ، و (ج ٦٠٢/٣) ، و (ج ٨/٤ ، ٣١) ، و (ج ١٠٨/٨) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤٠٩/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٤٨/٢ ، ٤٥٣) ، والسيرة الحلبية (ج ١٧٢/٢) .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٤/٢) .
- (٧) طبقات ابن سعد (ج ١٠٨/٨) .

بلوغ قريش خبر البيعة واحتجاجها لدى رؤساء يثرب :

فلما تمت البيعة صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمع قطاً : يا أهل الجباية (١) ! هل لكم في مُدْمَمِ والصُّبَاءِ معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم - ويروى أنه قال : يا معشر قريش ! هذه بنو الأوس والخزرج تحالف على قتالكم . ففزع المسلمون عند ذلك وراهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يَرَعُكُمْ هذا الصَّوْتُ ، هذا أَرَبُ العَقَبَةِ ، هذا ابنُ أَرَبِ ، اسْتَمِعْ أَيَّ عَدُوِّ اللَّهِ ؛ أَمَا وَاللَّهِ لَأَفْرَعَنَّ لَكَ » .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اِرْقُضُوا (٢) إِلَى رِحَالِكُمْ » ، فقال له العباس بن عبادَةَ بن نَضَلَةَ : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لكيلنَّ على أهل مني غداً بأسيا فنا ، فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ ، وَلَكِنْ اِرْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ » . فرجعوا إلى مضاجعهم فناموا حتى أصبحوا (٣) .

فلما أصبحوا غدت عليهم جِلَّةٌ (٤) قريش حتى جاؤهم في منازلهم ، فقالوا : يا معشر الخزرج ! إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هناك من مشركي الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه . وقد صدقوا لم يعلموه ، ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض ولاذوا بالصمت .

ثم إنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول فقالوا له مثل ما قالوا لقومه ، فجعل يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ، وما كان قومي ليفتاتوا علي (٥) بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني . فانصرف القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة الخزومي وعليه نعلان له جديدان ، فقال كعب بن مالك كلمة أراد أن يشترك القوم بها فيما قالوا : يا أبا جابر ! أما تستطيع أن تتخذ ، وأنت سيّد من ساداتنا ، مثل نعلني هذا الفتى من قريش ؟ فسمعها الحارث ، ففعلها من رجليه ، ثم رمى بها إلى كعب وقال : والله كنتمليئها ، فقال أبو جابر : مة ! أحفظت (٦) والله الفتى ، فاردد إليه نعليه ، قال كعب : لا والله لا أردّها ، قال والله صالح ، والله لئن صدق الفأل لأسلبنّه (٧) .

تأكّد قريش من صحّة الخبر وملاحقتها المبايعين :

ونفر النَّاسُ من منى ، فتنطّست (٨) قريش الخبر ، فوجدوه قد كان ، فخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخير ، والمندر بن عمرو ، وكلاهما كان تقيباً ، فأما المندر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج (٩) رخله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضيرونه ويحذون بهجمته (١٠) ، وكان ذا شعر كثير . قال سعد : فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفر من قريش فيهم

(١) أهل الجباية : يعني منازل منى (الروض الأنف : ج ٢٠٢/٢) .

(٢) اِرْقُضُ : تَفَرَّقَ (الوسيط : ج ٣٦١/١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٦/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤١٠/١) .

(٤) جِلَّةٌ : جنحٌ جليل ، وهو المسن . وقومٌ جِلَّةٌ : أي ذوو أخطار (لسان العرب : ج ٦٦٣/١) . والمراد هنا : أشرف قريش وكبرائها .

(٥) يُقَالُ : أَفْتَاتَ عَلَيْهِ : إِذَا انْفَرَدَ بِرَأْيِهِ ذُوْنَهُ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ . وقد تقدّم .

(٦) أَحْفَظْتُهُ : أَعْضَيْتُهُ (النهاية : ج ٤٠٨/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٧/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٣/١) .

(٨) تَنْطَسَتْ عَنِ الْأَخْبَارِ : بَحَثَ ، وَتَنْطَسَتْ الْأَخْبَارُ : تَجَسَّسَتْهَا (لسان العرب : ج ٤٤٦٠/٦) .

(٩) النِّسْجُ : سَبِيْرٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ تُشَدُّ بِهِ الرَّحَالُ (الوسيط : ج ٩٢٦/٢) .

(١٠) الْحِجْمَةُ مِنَ الْإِنْسَانِ : مُجْتَمَعٌ شَعْرٍ نَاصِيَتِهِ (الوسيط : ج ١٣٧/١) .

رجل وضيء أبيض شعشاع^(١) حلو من الرجال ، قال : قلت في نفسي : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا ، قال : فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة ، قال : قلت في نفسي : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير ، قال : فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى^(٢) لي رجل ممن كان معهم ، فقال : ويحك !! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قال سعد : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي تجارة^(٣) ، وأمنهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية ، فقال له : ويحك !! فاهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما ، قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ليهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً ، قالوا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عباد ، قالوا : صدق والله إن كان لجبير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده ، قال : فجاء فخلصا سعداً من بين أيديهم ، فانطلق . وكان الذي لكم سعداً سهيل بن عمرو ، والرجل الذي أوى له أبا البختري بن هشام .

وكانت الأنصار اثمرت حين فقدوا سعداً ، رضي الله عنه ، أن يكرؤا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فرحل القوم جميعاً إلى المدينة^(٤) .

إسلام عمرو بن الجموح رضي الله عنه :

لما قدم المبايعون من الأنصار المدينة أظهروا الإسلام بها ودعوا أهاليهم إليه ، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك ؛ منهم عمرو بن الجموح ، وكان ابنه معاذ شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها ، وكان عمرو بن الجموح سيّداً من سادات بني سلمة ، وشريفاً من أشرافهم ، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له مناة ، كما كانت الأشراف يصنعون ، تتخذ إلهاً تعظمه وتظهره ، فلما أسلم فتيان بني سلمة ؛ معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو في فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كانوا يُذَلِّجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفرة بني سلمة ، وفيها عذر^(٥) الناس ، مُنكساً على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم !! من عدا على آلتنا هذه الأيلة ؟ ثم يغدو يلتسه ، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيتك ، فإذا أمسى ونام عمرو عدواً عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى ، فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعُدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله ويطهره ويطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال له : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ؛ فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك ، فلما أمسى ونام عمرو عدواً عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً مئيتاً فقرنوه به بجبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس ، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به ، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر مُنكساً مقروراً بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه ، فأسلم برحمة الله وحسن إسلامه .

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف ، وهو يذكر صنه ذلك ، وما أبصر من أمره ، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلب وشيطان بر في قرن^(٦)
أف للملأك إلهاً مُستندن^(٧) الآن فتشناك عن سوء الغبن

- (١) الشعشاع : المُستَلخ الخفيف الروح (الوسيط : ج ٤٨٧/١) .
- (٢) أوى : رَقاً لَه ورَبَى ورَجِم (لسان العرب : ج ١٨٠/١) .
- (٣) التجار : جمع تاجر (الوسيط : ج ٨٢/١) .
- (٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٧/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/١) .
- (٥) العذرة : الغائط الذي يُلقيه الإنسان (النهاية : ج ١٩٩/٣) .
- (٦) القرن : الحبل (النهاية : ج ٥٣/٤) .
- (٧) المُستندن : الدبِّي الحسيس (لسان العرب : ج ١٤٣٦/٢) .

الحمد لله العليّ ذي المنّ الوهاب الرزاق ديّان الدّين
هو الذي أنقذني من قبل أن أكُون في ظلّمة قبر مرثهن
بأحد المهديّ النّبّيّ المؤتمن^(١)

وروي في إسلامه قصة أخرى ، فعن إسحاق بن يسار عن رجل من بني سلّمة قال : لمّا أسلم فتيان بني سلّمة وأسلمت امرأة عمرو بن الجّموح وولده ، قال لامرأته : لا تدعي أحداً من عيالك في أهلك حتى ننظر ما يصنع هؤلاء ، قالت : أفعل ، ولكن هل لك أن تسمع من ابنك فلان ما روى عنه ، قال : فلعلّه صبا ، قالت : لا ، ولكن كان مع القوم ، فأرسل إليه فقال : أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرّجل ، فقرأ عليه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(٢) ، فقال : ما أحسن هذا وأجمله ، وكلّ كلامه مثل هذا ؟ فقال : يا أبتاه ! وأحسن من هذا ، قال : فهل لك أن تُبايعه ، وقد صنع ذلك عامّة قومك ، قال : لست فاعلاً حتى أوامر مناة فأنظر ما يقول ؟ قال : وكانوا إذا أرادوا كلام مناة جاءت عجوز فقامت خلفه فأجابته عنه ، قال : فأتاه ، وغيّبت العجوز ، وأقام عنده فتشكّر له وقال : يا مناة ! تشعر أنه قد سيل^(٣) بك وأنت غافل ؟ جاء رجل ينهانا عن عبادتك ويأمرنا بتعطيلك ، فكبرهت أن أبايعه حتى أوامرك ، وخاطبه طويلاً ، فلم يرّد عليه ، فقال : أظنّك قد غضبت ولم أصنع بعد شيئاً ، فقام إليه فكسره^(٤) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦١/٢) ، وسنن سعيد بن منصور (ج ٧٤/٢) .

(٢) الفاتحة : ١ - ٦ .

(٣) يُقال : سالّ بهم السّيلُ ، أي وقَعوا في أمرٍ شديدٍ (لسان العرب : ج ٢١٧٢/٣) .

(٤) دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٤١٢/١) .

الهجرة إلى المدينة

الإذن بالهجرة :

لما صدر رجال العقبة الثانية من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه وقد جعل الله له مَنَعَةً وقوماً أهل حرب وعُدَّةً ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من خروجهم إلى المدينة ، فضيقوا عليهم وتعبثوا بهم^(١) ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنه في الهجرة ، فقال : « قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ، أُرِيتُ سُبْحَةَ^(٢) ذاتِ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ - وهما الْحَرَّتَانِ - ولو كانت السَّراةُ أرضَ نَخْلٍ وَسِبَاخٍ لَقُلْتُ هيَ هيَ » ، ثم مكث أياماً ، ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال : « قَدْ أُخْبِرْتُ بِدَارِ هِجْرَتِكُمْ وهيَ يَثْرِبُ ، فَمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ فَلْيَخْرُجْ إِلَيْهَا » .

ثم إنه ﷺ أمر جميع المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار فقال لهم : « إِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا وَدَارًا تَأْمَنُونَ بِهَا » . فخرجوا أرسالاً^(٣) ، مستخفين ، مشاة وركباناً ، أما أهل القوة فركبان ويَعْتَقِبُونَ^(٤) ، وأما من لم يجد ظهراً فمشون .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة^(٥) .

وحين سمع من بالحِشَّة من المسلمين هجرة إخوانهم إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانٍ نساء ، فات منهم رجلان بمكة ، وحسب بمكة سبعة نفر ؛ منهم هشام بن العاص بن وائل ، وسلمة بن هشام بن المغيرة ، وهاجر الباقون إلى المدينة .

وبقي بأرض الحِشَّة جعفر بن أبي طالب ، وحاطب بن الحارث ، ومعمر بن عبد الله العدوي ، رضي الله عنهم ، ورجال ذوو عدد من المهاجرين من قريش حالت بينهم وبين رسول الله ﷺ الحرب التي وقعت بين النجاشي ومن خرجوا عليه ، ثم قدموا على النبي ﷺ عام خيبر سنة سبع كما سيأتي^(٦) .

(١) أي إن المشركين اتخذوا من تعذيب المسلمين والتضييق عليهم لعبة لهم .

(٢) السُّبْحَةُ : الأرض المالحَّة . وقد تقدَّم .

(٣) خَرَجُوا أَرْسَالًا : أي جماعات ، بعضهم في إثر بعض (الوسيط : ج ٢٤٥/١) .

(٤) يَتَعَقِبُونَ في الرُّكُوبِ وحيناً بعد وحيناً (النهاية : ج ٢٦٨/٣) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٦/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٥/١) و (ج ٢٧١/٣) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٥/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٧/١) ، والمستدرک

(ج ٢٤٠٣ ، ٢٥١) ، والدرر / لابن عبد البر (ص : ١٢٥) .

أوائل المهاجرين وصور من المصاعب التي لاقوها :

اختلف في أول من هاجر من مكة إلى المدينة ، ففي الصحيح عن البراء ، رضي الله عنه ، قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلنا يقرئنا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين^(١) .

ويقال إن مصعباً ، رضي الله عنه ، أقام مع النبي ﷺ بمكة بقية ذي الحجة والمحرّم وصقراً ، وقدم قبل رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً لهُلال شهر ربيع الأول قبل مقدم رسول الله ﷺ بآثنتي عشرة ليلة ، وكان منزله على سعد بن معاذ رضي الله عنه^(٢) .

وقال ابن إسحاق : كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ، واسمه عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة^(٣) ، وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما أدته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً .

ولنترك أم سلمة تروي لنا قصة هجرتها مع زوجها وابنها رضي الله عنهم ، تقول أم سلمة رضي الله عنها : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعبيره^(٤) ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجرني ، ثم خرج بي يقود بي بعبيره ، فلما رآته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه ، فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، رأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة فقللوا : لا والله لا نترك ابناً عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، قالت : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم ، حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، قالت : ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني ، قالت : فكنت أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريباً منها ، حتى مرّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون^(٥) من هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها ، قالت : فقالوا لي : الحقني بزوجك إن شئت ، قالت : ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني ، قالت : فارتحلت بعبيري ، ثم أخذت ابني فوضعتة في حجرني ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، قالت : وما معي أحد من خلق الله ، قالت : فقلت : أتبلغ^(٦) بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أبا بني عبد الدار ، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله إلا الله وبني هذا ، قال : والله مالك من متّرك ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخرني ، حتى إذا نزلت عنه استأخر بعبيري ، فحط عنه ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرّواح قام إلى بعبيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني فقال : اركبي ، فإذا ركبت فاستوييت على بعبيري أتى فأخذ بخطامه ، فقاد بي حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك في هذه القرية ، وكان أبو سلمة بها نازلاً ، فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

(١) صحيح البخاري (ج ٢٠٨/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ سَمِيعَ اسْمِ رَبِّكَ ﴾ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩١/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٩/٢) .

(٣) في رواية عند ابن سعد أنه قدم المدينة لعشر خلون من المحرم ، فكان بين أول من قدم من المهاجرين وبين آخرهم شهران (طبقات ابن سعد : ج ٢٣٩/٢) .

(٤) رَحَلَ البَعِيرُ : جَعَلَ عَلَيْهِ الرَّحْلَ ، والرَّحْلُ : ما يُوضَعُ على ظَهْرِهِ للركوب (الوسيط : ج ٢٣٤/١ ، ٢٣٥) .

(٥) تَحَرَّجَ فُلَانٌ : إذا فَعَلَ فِعْلاً يَتَحَرَّجُ بِهِ ، مِنْ الحَرَجِ : الإثْمُ والضُّيقُ (لسان العرب : ج ٨٢١/٢) .

(٦) تَبَلَّغَ بِالشَّيْءِ : اكْتَفَى بِهِ (الوسيط : ج ٦٩/١) .

فكانت تقول أم سلمة : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة^(١) .

ثم كان أول من قدم المدينة من المهاجرين بعد أبي سلمة : عامر بن ربيعة حليف بني عدي بن كعب ، معه امرأته ليلى بنت أبي حنثة - وهي أول ظعينة قدمت المدينة^(٢) - ثم عبد الله بن جحش حليف بني أمية بن عبد شمس ، احتل بأهله وأخيه عبد بن جحش ، وهو أبو أحمد ، وكان أبو أحمد رجلاً ضريب البصر ، وكان يطوف بمكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعراً ، وكانت عنده الفارعة ابنة أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب ، فعُلقت دار بني جحش هجرة ، فز بها عنتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام ، وهم مضعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عنتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً^(٣) ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء وذرقت عيناه ، ثم قال :

وكلّ دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدرِكها النكباء والخوب^(٤)

ثم قال عنتبة : أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل : وما تبكي عليه من قل بن قل^(٥) ، ثم قال : هذا عمل ابن أخي هذا ، فرق جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وقطع بيننا .

ثم عدا أبو سفيان بن حرب على تلك النار فباعها من عمرو بن علقمة أخي بني عامر بن لؤي ، فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة ؟ » قال : بلى ، قال : « فذلك لك » . فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلمه أبو أحمد في دارهم ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال الناس لأبي أحمد : يا أبا أحمد ! إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله ، عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ .

وكان منزل أبي سلمة بن عبد الأسد وعامر بن ربيعة وعبد الله بن جحش وأخيه أبي أحمد بن جحش على مبشر بن عبد المنذر بقاء في بني عمرو بن عوف^(٦) .

قال ابن إسحاق : ولم يوجب^(٧) أهل هجرة من مكة بأهلهم وأموالهم إلى الله ، تبارك وتعالى ، وإلى رسول الله ﷺ إلا أهل دور مسنون : بنو مظعون من بني جمح ، وبنو جحش بن رئاب حلفاء بني أمية ، وبنو البكير من بني سعد بن ليث حلفاء بني عدي بن كعب ، فإن دورهم علقت بمكة هجرة ليس فيها ساكن^(٨) .

ثم تتابع المهاجرون أرسالاً ، ثم خرج عمر بن الخطاب وعيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي في عشرين راكباً من أهله وقومه - كما تقدم في رواية الصحيح عن البراء رضي الله عنه - سمي ابن إسحاق منهم : زيد بن الخطاب ، وعمراً وعبد الله ابني سراقبة بن المعتير ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٧/٢-٧٨) . روي عن أم سلمة أنها قالت : يارسول الله ! لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أني لأضيق عقلَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ - آل عمران : ١٦٥ - رواه الترمذي في سننه (ج ٢٣٧/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة النساء ح ٣٠٢٣ .

(٢) كما رواه الحاكم في المستدرک (ج ٥٨/٤) ، وقيل : وأوطن هجرة أم سلمة رضي الله عنها كما رواه الحاكم أيضاً في المستدرک (ج ١٦/٤) . ويمكن الجمع بين الروایتين بأن ليلى أول ظعينة قدمت مع زوجها ، وأم سلمة قدمت وحدها . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٣١٧/١) .

(٣) اليتاب : الخراب ، والخالي لاشيء فيه (الوسيط : ج ١٠٧٥/٢) .

(٤) قال ابن هشام : الخوب : التوجع .

(٥) هو الذي لا يعرف أبوه (الوسيط : ج ٧٦٢/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٨/٢-٨٠ ، ١١٧) ، ومجمع الزوائد (ج ٦٢/٦) .

(٧) أوعب القوم : لم يبق بينهم منهم أحد (الوسيط : ج ١٠٥٤/٢) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ١١٦/٢) .

وَحَنَيْسُ بْنُ حُدَاقَةَ السُّهْمِيِّ - وكان صهره على ابنته حفصة - وسعيد بن زيد ، وواقِد بن عبد الله اللَّيْثِيُّ ، وحوَلي بن أبي حَوَلي ، ومالك بن أبي حَوَلي ، وإياس وعاقِل وعامر وخالد بنِي البَكْرِيرِ . فنزلوا على رِفاعَةَ بن عبد المُنْذِرِ بَقْباءَ في بني عمرو بن عوف ، وقيل نزلوا في العوالي على بني أمية بن زيد^(١) .

وكان يومَ المهاجرين الأولين بَقْباءَ سالم مولى أبي حُدَاقَةَ ، لأنه كان أكثرهم قرآناً^(٢) .

وكانت قريش كلِّها علمت بأحد يريد الهجرة أذته وحاولت فتنته أو حبسه ، ولذلك لم يكن أحدٌ يجرؤُ على الخروج إلا خفية ، فعن علي ، رضي الله عنه ، قال : ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً ، إلا عمر بن الخطاب ؛ فإنه لما هجره تقاعد سيفه ، وتكَبَّ قوسه^(٣) ، وانتضى في يديه أسهماً^(٤) ، واختَصَرَ عَنزَتَه^(٥) ، ومضى قِبَلَ الكعبة ، والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلَّى ركعتين ، ثم وقف على الحَلَقِ واحدة واحدة ، فقال لهم : شأهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطيس^(٦) ؛ من أراد أن تشكله أمه أو يؤتم ولده أو ترمَل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي ، فما تبعه أحد ، إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم إليه ، ثم مضى لوجهه^(٧) .

ويروي عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قصة هجرته مع أصحابه فيقول : أتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السُّهْمِيُّ التَّنَاضِبُ من أضاة بني غِفَارِ^(٨) فوق سِرف^(٩) ، وقلنا : أيُّنا لم يُصبح عندها فقد حبس فليض صاحباه ، قال : فأصبحت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّنَاضِبِ وحبس عنها هشام وفَتِنَ فافتتن . فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بَقْباءَ ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمِّها وأخاها لأُمِّها - حتى قدما علينا المدينة ، ورسول الله ﷺ بكَّة ، فكلماه ، وقال : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مُشَطٌّ حتى تراك ، ولا تستظيل من شمس حتى تراك ، ففرق لها ، فقلت له : يا عيَّاش ! إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد أذى أمك القمَلُ لامتشطت ، ولو قد اشتدَّ عليها حرٌّ مكَّة لاستظلت ، قال : أبرِّ قسم أمي ، ولي هنالك مال فأخذه ، قال : فقلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالي ولا تذهب معها ، قال : فأبى عليّ إلا أن يخرج معها ، فلما أبى إلا ذلك قلت : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه ؛ فإنها ناقة نجبية ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم رُبُّب فانجُ عليها . فخرج عليها معها ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى ، قال : فأناخ وأناخا ليتحوَّلَ عليها ، فلما استوا بالارض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكَّة وفتناه فافتتن^(١٠) .

وقيل : إنه أبى أن يتبعها حتى عقد له الحارث بن هشام عقداً ، فلما خرج معها أوثقاه ، ثم دخلا به مكَّة نهاراً موثقاً وقالوا : يا أهل مكَّة ! هكذا فافعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفيهننا هذا ، وكنا يعذبانه . فلم يزل هناك موثقاً حتى خرج مع من خرج قبل فتح مكَّة ، وقيل : بعد بدر ، وكان رسول الله ﷺ دعا له بالخلاص والحفظ^(١١) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨٨/٢) ، والدرر / لابن عبد البر (ص : ٧٠) .

(٢) صحيح البخاري (ج ١٧٨/١) كتاب الصلاة - باب إمامة العبد والمولى .

(٣) تَنَكَّبَ قَوْسَهُ : ألقاه على منكبيه (الوسيط : ج ٩٥٩/٢) .

(٤) أي أخرج أسهماً من كِنَانَتِهِ وجعلها في يَدَيْهِ مُعَدَّةً للرمي بها انظر (النهاية : ج ٧٢/٥) .

(٥) أي أسكَّ بها يَدَيْهِ ، والعَنزَةُ : شِبْهُ العُكَّازَةِ (لسان العرب : ج ١١٧٢/٢) .

(٦) شأهت الوجوه : قَبِحَتْ (النهاية : ج ٥١١/٢) ، والمَعَاطِيسُ : الأثُوفُ (الوسيط : ج ٦١٤/٢) .

(٧) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢١٩/١) .

(٨) أضاة بني غِفَارِ : مَوْضِعٌ قُرْبَ مكَّةَ فوق سِرفِ قُرْبِ التَّنَاضِبِ (معجم البلدان : ج ٢٨٠/١) .

(٩) سِرفٌ : مَوْضِعٌ على سِتَّةِ أميالٍ من مكَّةَ (معجم البلدان : ج ٧١/٥) .

(١٠) سيرة ابن هشام (ج ٨٤/٢) .

(١١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨٦/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٤/٩) ، وجمع الزوائد (ج ٦٢/٦) .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو في دُبر صلاة الظهر - وهو بالمدينة - : « اللَّهُمَّ ! خَلِّصِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَضَعْفَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا » (١) .

ورواه البخاري عنه أيضاً بنحوه لكن ذكر أنه قنت في صلاة العشاء فدعا لهم وزاد : « اللَّهُمَّ ! اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَّ ، اللَّهُمَّ ! اجْعَلْهَا سِينًا كِسْفِي يَوْمَئِذٍ » (٢) .

وكان سلمة بن هشام المذكور في الحديث قد حبسه أبو جهل ومنعه من الهجرة إلى المدينة ، لما عاد من أرض الحبشة إلى مكة ، وكان يضربه ويحججه ويعطشه ، فكان رسول الله ﷺ يدعو له في القنوت ، حتى أفلت ولحق برسول الله ﷺ في المدينة وذلك بعد الخندق (٣) . وقيل غير ذلك .

أما الوليد بن الوليد المذكور في الحديث أيضاً ، فإنه أسير بيد مع المشركين ، ثم افتداه أخواه خالد وهشام ابنا الوليد بن المغيرة وذهبوا به إلى مكة ، فأسلم وأراد الهجرة ، فحبسه بمكة مع عيَّاش وسلمة ، فكان النبي ﷺ يدعو له بالنجاة ، فأفلت من أسرهم ، وقدم المدينة ، فسأله رسول الله ﷺ عنها فقال : تركتها في ضيق وشدة ، وهما في وثاق رجل أحدهما مع رجل صاحبه ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَنْطَلِقْ حَتَّى تَنْزِلَ بِمَكَّةَ عَلَى الْقَيْنِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ ، فَتَعَبَّ عِنْدَهُ واطْلُبِ الْوُصُولَ إِلَى عِيَّاشِ وَسَلْمَةَ فَأَخْبِرْهُمَا أَنَّكَ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ بِأَنْ تَأْمُرَهُمَا أَنْ يَنْطَلِقَا حَتَّى يَخْرُجَا » . ففعل الوليد ، وبلغ الخبر قريشاً ، فخرج خالد بن الوليد معه نفر من قومه حتى بلغوا عُسْفَانَ (٤) ، فلم يصيبوا أثراً ولا خبراً عنهم ، حتى انتهوا إلى ظهر حرة المدينة (٥) .

وروى ابن هشام عن يثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة : « مَنْ لِي بِعِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَهَشَامِ بْنِ الْعَاصِي ؟ » فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بها ، فخرج إلى مكة ، فقدمها مستخفياً ، فلقي امرأة تحمِلُ طعاماً ، فقال لها : أين تريد يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين ، تعنيهما ، فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ مَرَوَةَ (٦) فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربها بسيفه ، فقطعها ، فكان يقال لسيفه : ذو المَرَوَةَ لذلك ، ثم حملها على بعيره وساق بها ، فعثر فدميت إصبعه ، فقال :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِبْصَعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَسَالِقِيَّتْ

ثم قدم بها على رسول الله ﷺ بالمدينة (٧) .

وروى ابن إسحاق بسنده عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال : فكنا نقول : ما الله بقابل من افتتن صرفاً ولا عدلاً (٨) ولا توبة ؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ، قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٩) . قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدي في صحيفة ، وبعثت بها إلى

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٤٠٧/٢) .

(٢) صحيح البخاري (ج ٦١/٦) كتاب التفسير - سورة النساء .

(٣) انظر : المستدرک (ج ٢٤٠/٣ ، ٢٥١) .

(٤) عُسْفَانَ : منهلّة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة ، وهي من مكة على مرحلتين (معجم البلدان : ج ١٧٤/٦) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٢/٤) .

(٦) المَرَوَةُ : واحدة المَرُو ؛ وهي حجارة بيض رفاق براقّة تُقَدِّحُ منها النَّارُ (الوسيط : ج ٨٧٢/٢) .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٨٧/٢) .

(٨) الصُّرْفُ : التَّوْبَةُ ، وَقِيلَ : النَّافِلَةُ . وَالْعَدْلُ : الْفِدْيَةُ ، وَقِيلَ : الْفَرِيضَةُ (النهاية : ج ٢٤/٣) .

(٩) الزُّمَرُ : ٥٣ - ٥٥ .

هشام بن العاصي . قال : فقال هشام : فَلَمَّا أَتَيْتَنِي جَعَلْتُ أَقْرُوها بذي طَوِي أضعَدُ بها فيه وَأصُوبُ (١) ولا أفهمها ، حتى قلت : اللَّهُمَّ ! فَهَمْنِيها ، قال : فَألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويُقال فينا ، قال : فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ (٢) .

- ولما أراد صُهَيْبُ بن سِنان الرُّومِيُّ ، رضي الله عنه ، الهجرة صدّه ناس من كفّار قريش ، قالوا له : أتيتنا ضُلعوكا حقيراً ، فكثُر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك !! والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « رِيحَ صُهَيْبٍ ، رِيحَ صُهَيْبٍ » (٣) . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ (٤) .

ويروى عن عكرمة أنه لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة ، فنزل كنانته (٥) ، فأخرج منها أربعين سهماً ، فقال : لا تصلون إليّ حتى أضع في كلّ رجل منكم سهماً ، ثم أصير بعد إلى السيف ، فتعلمون أي رجل ، وقد خلفت بمكة فينتين (٦) فهما لكم (٧) .

وقيل : تأخرت هجرة صُهَيْبٍ ، رضي الله عنه ، إلى ما بعد هجرة النبي ﷺ ، فقد روي عن صُهَيْبٍ ، رضي الله عنه ، قال : وخرج رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، إلى المدينة ، وخرج معه أبو بكر ، رضي الله عنه ، وكنت قد هممت بالخروج معه ، فصدني فتيان من قريش ، فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا أقعد فقالوا : قد شغلنا الله عنكم ببطنه ، ولم أكن شاكياً ، فقاموا ، فلحقتني منهم ناس بعد ما سرت بريداً (٨) ليبردوني ، فقلت لهم : هل لكم أن أعطيكم أواني من ذهب وتخلّون سبيلي وتفون لي ؟ فتبعهم إلى مكة فقلت لهم : احفروا تحت أسكفة الباب ؛ فإن تحتها الأوراق ، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين ، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، قبل أن يتحول منها ، يعني قباء ، فلما رأيته قال : « يا أبا يحيى ! رِيحَ البَيْعِ » ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله ! ما سبقني إليك أحد ، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام (٩) .

وعن عمر بن الحَكَم قال : قدم صُهَيْبُ على رسول الله ﷺ وهو بقباء ومعه أبو بكر وعمر ، وبين أيديهم رطب قد جاءهم به كَثُومُ بن الهيثم أمهات خرازين (١٠) ، وصُهَيْبُ قد رمد بالطريق ، وأصابته مجاعة شديدة ، فوقع في الرطب فقال عمر : يا رسول الله ! ألا ترى إلى صهيب يأكل الرطب وهو رمد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تَأْكُلُ الرُّطْبَ وَأَنْتَ رَمِدٌ ؟ » فقال صُهَيْبُ : وإنما أكله بشق عيني الصحيحة ، فتبسّم رسول الله ﷺ (١١) .

وهكذا تتابع المسلمون في الخروج إلى المدينة ، فنزل طلحة بن عبيد الله (١٢) وصُهَيْبُ بن سنان على خبيث بن إساف (١٣) ،

(١) يُقال : صَعَدَ فِيهِ النَّظَرُ وَصَوَّبَهُ : أي نَظَرَ إلى أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ يَتَأَمَّلُهُ . انظر : (لسان العرب : ج ٢٤٤٥/٣) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٨٦/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٨٩/٢) .

(٤) البقرة : ٢٠٧ ، وانظر الخبر في المستدرک (ج ٤٠٠/٣) .

(٥) نَزَلَ كِنَانَتَهُ : استَخْرَجَ ما فِيها مِنَ النَّبْلِ وَالسَّهَامِ (لسان العرب : ج ٤٣٤١/٦) .

(٦) التَّقِينَةُ : الأُمَّةُ صَانِعَةٌ أو غير صَانِعَةٍ ، وَعَلَبَ على الْمُعَنَّيَةِ (الوسيط : ج ٧٧٦/٢) .

(٧) للمستدرک (ج ٣٩٨/٣) .

(٨) البريد : مُسَافَةٌ فَرَسَتَيْنِ . انظر : (لسان العرب : ج ٢٥٠/١) .

(٩) للمستدرک (ج ٤٠٠/٣) .

(١٠) أمهات خرازين : نَوْعٌ مِنَ الثَّمْرِ كِبَارٌ ، قيل : إنْ تَخَلَّه يَجْتَمِعُ تَحْتَهُ الْفَأْرُ (لسان العرب : ج ٥٩١/١) .

(١١) طبقات ابن سعد (ج ٢٢٨/٢) .

(١٢) يروى أن طلحة ، رضي الله عنه ، خرج إلى الشام ثم رجع إلى مكة ، وتأخرت هجرته حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة . انظر : دلائل النبوة

للبيهقي (ج ٤٥٩/٢) .

(١٣) ويقال إنه لم يكن حين نزول المهاجرين عليه مسلماً ، فقد تأخر إسلامه حتى خرج رسول الله ﷺ إلى بدر كما سيأتي . انظر : الروض الأنف

(ج ٢٢٧/٢) .

أو يساف ، ويقال : بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زُرارة ، ونزل صهيب على سعد بن خَيْثَمَة ، ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن خارثة وأبو مرثد كَنَاز بن حَصِين وابنه مرثد ، حليفا حمزة بن عبد المطلب ، وأنسَة وأبو كَيْشَة مؤيِّبا رسول الله ﷺ على كَلْثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف بَقَاء ، ويقال : بل نزلوا على سعد بن خَيْثَمَة ، ويقال : بل نزل حمزة على أسعد بن زُرارة . ونزل عُبَيْدَة بن الحارث وأخوه الطُّفَيْل بن الحارث والأَحْصَيْن بن الحارث ومِسْطَح بن أَنَاثَة وسُوَيْبِط بن سعد وطَلَيْب بن عَمِير وَخَبَّاب مولى عَتْبَة بن غَزْوَان على عبد الله بن سَلَمَة أخي بني العَجْلَان بَقَاء . ونزل عبد الرَّحْمَن بن عَوْف في رجال من المهاجرين على سعد بن الرَّبِيع في دار بني الحارث بن الخزرج . ونزل الزُّبَيْر بن العَوَام وأبو سَبْرَة بن أَبِي رَهْم على مُنْذِر بن مُحَمَّد بالعَصْبَة (١) دار بني حَجَّجَبِي . ونزل أبو حُدَيْفَة بن عَتْبَة وسالم مولاة وعَتْبَة بن غَزْوَان (٢) على عَبَّاد بن بَشْر في دار عبد الأشْهَل . ونزل عُثْمَان بن عَفَّان على أَوْس بن ثابت أخي حَسَّان بن ثابت في دار بني النَّجَّار .

وكان يقال : نزل العُزَاب من المهاجرين على سعد بن خَيْثَمَة ، وذلك أنه كان عَرَبًا ، فالله أعلم أي ذلك كان (٣) .

أنصار يَون مهاجرون :

وكان نفر من الأنصار بايعوا النبي ﷺ في العقبة الثانية ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة ، حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة ، فهم مهاجرون أنصار يَون ، وهم ذَكْوَان بن عبد قيس ، وعَقْبَة بن وهب بن كَلْدَة ، والعبَّاس بن عَبَّادَة بن نَضْلَة ، وزِيَاد بن لَيْبِد رضي الله عنهم (٤) .

ويقال : كان من الأنصار مهاجرون ، لأن المدينة كانت دار شرك ، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليلة العقبة (٥) .

انتظار النبي ﷺ الإذن له بالهجرة :

وهكذا لم يمض شهران أو أكثر على تبعة العقبة الثانية حتى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي ، رضي الله عنها ، أو مفتون محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج .

وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ : « لا تَعْجَلْ لَعَلَّ الله يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا » ، فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه (٦) .

روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : ... فهاجر من هاجر قَبْل المدينة ، ورجع عامّة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهّز أبو بكر قَبْل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « عَلَى رِسْلِكَ (٧) » ، فإني أرجو أن يُؤذَنَ لي ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصبحه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر ، وهو الخَبْطُ ، أربعة أشهر (٨) .

(١) العَصْبَة : مَوْضِع بَقَاء (معجم البلدان) ج ١٨٢/٦ .

(٢) تأخرت هجرة عتبة بن غزوان حتى فرّ من المشركين مع المقداد بن عمرو ، رضي الله عنها ، كما سيأتي في سرية عبيدة بن الحارث ، رضي الله عنه ، في أحداث السنة الأولى للهجرة .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٠/٢ - ٩٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٩/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٦/١) .

(٥) انظر : سنن النسائي (ج ١٤٤/٧) كتاب البيعة - تفسير الهجرة .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٢/٢ ، ٩٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٦/١) .

(٧) يُقَالُ : أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا عَلَى رِسْلِكَ ؛ أَي اتَّئِدُ فِيهِ (لسان العرب : ج ١٦٤٤/٣) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٧٥/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة . وقوله : أربعة أشهر ، بيان للمدة التي كانت بين مبايعة الأنصار للنبي ﷺ وبين هجرته عليه الصلاة والسلام .

ويروى أن أبا بكر، رضي الله عنه، استأذن النبي ﷺ في الخروج حين اشتد عليه الأذى، فلما أمره بالقيام اتباع الزاحلتين فاحتبسها في داره يعلفها إعداداً لذلك^(١).

اجتماع قريش في دار الندوة وائتمارها على قتل النبي ﷺ :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة^(٢) وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، وبلغهم إسلام من أسلم من أهل المدينة، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين بذرائعهم ونسائهم وأموالهم إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأنهم أصابوا منهم منعة، لأن الأنصار قوم أهل حَلَقَة وبأس، فشعروا بخطورة الأمر، وخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم وأن يجمع لحربهم، فأتعدوا أن يجتمعوا في دار الندوة - وهي دار قُصَيِّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون في شأن رسول الله ﷺ، وسُمِّي ذلك اليوم الذي أتعدوا له يوم الزُحْمَة، لأنه اجتمع فيه أشرف قريش وغيرهم ممن لا يعد منهم.

ولم يتخلف عن هذا الاجتماع أحد من أهل الرأى والحِجَا^(٣)، وهم :

من بني مَخْزُوم : أبو جهل بن هشام . ومن بني عبد شمس : عُنْبَة وشَيْبَة ابنا رَبِيعَة ، وأبو سفيان بن حَرْب . ومن بني نوفل بن عبد مناف : طُعَيْمَة بن عدِيّ ، وجُبَيْر بن مَطْعِم ، والحارث بن عامر . ومن بني عبد الدار : النُّضْر بن الحارث . ومن بني أسد بن عبد العزى : أبو البَخْتَرِيّ بن هشام ، وزَمْعَة بن الأسود ، وحكيم بن حزام . ومن بني سَهْم : نُبَيْهَة ومُنْبَه ابنا الحَجَّاج . ومن بني جَمَح : أمية بن خَلَف .

ويروى أنه كان معهم من الأشراف : الحَكَم بن أبي العاص ، وابن الغَيْطَلَة ، وأبو لَهَب ، وأبِي بن خَلَف ، وسُهَيْل بن عمرو ، وعُنْبَة بن أبي مُعَيْط^(٤).

فلما غدوا في اليوم الذي أتعدوا له - وكان ذلك في صفر بعد ثلاثة أشهر من بيعة العقبة الثانية - اعترضهم إبليس، لعنه الله، في هيئة شيخ جليل^(٥) عليه بَت^(٦) له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذي أتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعَدِمَكُم منه رأياً ونُصْحاً، قالوا : أجل، فادخل، فدخل معهم لعنه الله.

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فين قد أتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم وهو أبو البَخْتَرِيّ بن هشام : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشراء، الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي : لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستوه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلاوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوك على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألقتنا كما كانت. قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٢/٣) .

(٢) الشيعة : الأتباع والأنصار (الوسيط : ج ٥٠٦/١) .

(٣) الحِجَا : العقل (الوسيط : ج ١٥٩/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٢-٩٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٧-٢٢٨) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥/٢) ، والمستدرک (ج ٣٢٢/٢) .

(٥) أي مُسِن (النهاية : ج ٢٨٨/١) .

(٦) البَت : كِسَاءٌ غَلِيظٌ مَرَبَعٌ . وقيل : طَيْلَسْتَانٌ مِنْ خَزْر (النهاية : ج ٩٢/١) .

قلوب الرجال بما يأتي به ؟! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل^(١) على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، دبّروا فيه رأياً غير هذا . فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعت عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتى جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم . فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي ، لا رأي غيره . فتفرق القوم على ذلك وهم يجمعون له^(٢) .

هجرة النبي ﷺ

وأذن الله تعالى لنبيه ﷺ عند ذلك في الهجرة فأنزل عليه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾^(٣) .

وأطلع الله عز وجل على تبييت المشركين قتله ، فقد روي أنه أتاه جبريل ، عليه السلام ، فقال له : لا تبيت هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيت عليه ، وأخبره بكرمه . وأنزل عليه فيما بعد قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(٤) .

ولمّا أذن له ﷺ بالهجرة قال لجبريل عليه السلام : « مَنْ يُهَاجِرُ مَعِيَ ؟ » قال : أبو بكر الصديق^(٥) ، فذهب النبي ﷺ إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، ليخبره بالأمر ويبرم معه خطة الهجرة .

قالت عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها : كان لا يخطيء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار : إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان ذلك اليوم الذي أذن الله فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه ، أتانا رسول الله ﷺ بالهجرة^(٦) ، متقنعا ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، قالت : فلما رآه أبو بكر مقبلا ، قال : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ، قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله ﷺ عليه ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : « أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ » ، فقال أبو بكر : إنما هما ابنتاي ، وما ذاك فداك أبي وأمي ؟ - وفي لفظ : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله - فقال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدْنَى لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ » ، قالت : فقال أبو بكر : الصُّحْبَةُ بِأبي أنت يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ .

ثم قال أبو بكر : ياني الله ! إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتها لذلك ، فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحداهما ، فقال رسول الله ﷺ : « بِالسُّمْنِ »^(٧) . وكان أبو بكر اشتراها بثمانمائة درهم ، فأخذ رسول الله ﷺ منه إحداهما بأربعمائة درهم ، وهي القُصُوءُ ، فكانت عنده حتى نفقت^(٨) .

(١) يَحُلُّ : يَنْزِلُ . انظر : (لسان العرب : ج ١٧٢/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٢/٢ - ٩٥) ، ودلائل النبوة للمبهي (ج ٤٦٧٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥/٢ - ٢٦) .

(٣) الإسراء : ٤٠ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٩٧/٢) ، وسنن الترمذي (ج ٣٠٤/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة بني إسرائيل ح ٣١٣٩ ، قال زيد بن أسلم : جعل الله عز وجل مدخل صدق المدينة ، ومخرج صدق مكة ، وسلطاناً نصيراً الأنصار (السيرة الحلبية : ج ٢٨٧/٢) ، وانظر : المستدرک (ج ٢/٣) .

(٤) الأنفال : ٣٠ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٩٥/٢ ، ٩٦) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٤٨/١) .

(٥) روى الخبر الحاكم في المستدرک (ج ٥/٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح غريب .

(٦) المَاجِرَةُ : نَصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٧/٢ ، ١٠٠) ، وصحيح البخاري (ج ٧٥/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٨) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٨/١ ، ٤٩٢) . ومعنى نَفَقَتْ : ماتت (الوسيط : ج ٩٥٠/٢) .

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر، رضي الله عنه، عبد الله بن أريقط رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر، وهو من بني عبد بن عدي، وأمه امرأة من بني سَهْم بن عمرو، هادياً خريّتا - والخريّيت الماهر بالهداية - قد غس حُلْفاً في آل العاص بن وائل السهمي^(١)، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعدها غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث^(٢).

تطويق المشركين منزل النبي ﷺ :

وعاد رسول الله ﷺ إلى منزله ينتظر مجيء الليل، وهو على علم بما اثمرت به قريش من المكر، فلما كانت عتمة من الليل، اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب: «نم على فراشي، وتَسَجَّ بِبُرْدِي^(٣) هذا الحَضْرَمِيّ الأَخْضَرِ قَتْمٌ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ» - وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرْدِهِ ذلك إذا نام - ثم أخبر النبي ﷺ عليّاً بمخروجه مع أبي بكر، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس. فقد كان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ صَدَقِهِ وَأَمَانَتِهِ ﷺ.

فلما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام قال لأصحابه في سخريته واستهزاء: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتوه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأزدن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذئب، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك، أنت أخذتهم»، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يروونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات: ﴿يس . وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ فِيهِمْ لَأَيُّبِرُونَ﴾^(٤) حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم مضى إلى بيت أبي بكر، رضي الله عنه، فأتاهم أت آمن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خبيكم الله!! قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب. ثم جعلوا يتطلعون من صير الباب^(٥) فيرون عليّاً على الفراش مسجياً ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ، رضي الله عنه، عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا، فسألوه أين صاحبك؟ قال عليّ: لا أدري، أوزقياً كنت عليه؟ أمرتوه بالخروج فخرج، فانتهره وضربوه وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثم تركوه، ونجى الله رسوله من مكرهم^(٦).

وأَنْزَلَ اللهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمَا كَانُوا أَجْمَعُوا لَهُ : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ، وَقَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾^(٧) ، قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿﴾^(٨).

(١) غَسَّ حِلْفاً : أَي أَخَذَ بِنَصِيبٍ مِنْ عَقْدِهِمْ وَجِلْفِهِمْ يَأْمَنُ بِهِ ، كَانَتْ عَادَتُهُمْ أَنْ يُخْضِرُوا فِي جَفْنَةٍ طَيْباً أَوْ ذِماً أَوْ زَماداً ، فَيُدْخِلُونَ فِيهِ أَيْدِيَهُمْ عِنْدَ التَّحَالُفِ لِيَتَبَيَّنَ عَقْدُهُمْ عَلَيْهِ بِاشْتِرَاكِهِمْ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ (النهاية : ج ٢٨٦/٣).

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٧٧/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

(٣) البُرْدُ : كِسَاءٌ مَخْطُوطٌ يُلْتَحَفُ بِهِ (الوسيط : ج ٤٧/١) .

(٤) يس : ١ - ٩ .

(٥) صير الباب : شَقَّةٌ (لسان العرب : ج ٢٥٣٧/٤) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٥/٢ ، ٩٨) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٤٨/١) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٧٤/٢) .

(٧) قال ابن هشام : الْمُنُونُ : الْمَوْتُ ، وَرَيْبُ الْمُنُونِ : مَا يَرِيبُ وَيَعْرِضُ مِنْهَا .

(٨) الطور : ٢٠ - ٣١ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٩٧/٢) .

روي عن علي بن الحسين قال : إن أول من شرى نفسه ابتغاء رضوان الله علي بن أبي طالب . وقال علي عند مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا
رسول إله خاف أن يكرؤا به
وبات رسول الله في الغار أمنأ
وبت أراعهم ومما يتهمونني
ومَن طاف بالبيت العتيق وبالحيجر
فنجأه ذو الطُّول الإله من المكر
مُوقٍ وفي حفظ الإله وفي ستر
وقد وطنت نفسي على القتل والأسر^(١)

خروج النبي ﷺ وصاحبه إلى غار ثور :

غادر رسول الله ﷺ بيته إلى منزل أبي بكر ، رضي الله عنه ، فكان فيه إلى الليل ، ثم خرجا من حَوْخَة^(٢) لأبي بكر في ظهر بيته ، ففضيا إلى غار ثور ، وهو جبل بأسفل مكة في اتجاه اليمن ، اختار رسول الله ﷺ أن يأوي إليه لتضليل المطاردين ، وذلك لأنه كان يعلم أن قريشاً ستجد في طلبه ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً ، فسلك الطريق الذي يضاها تماماً وهو الطريق الواقع جنوب مكة والمتجه نحو اليمن . (انظر : مصور طريق الهجرة) .

وأمر أبو بكر ، رضي الله عنه ، ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسع لها ما يقول الناس فيها نهاره ، ثم يأتيها إذا أمسى بما يكون في ذلك من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليها إذا أمسى في الغار . وكانت أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنها ، تأتيها من الطعام إذا أمسى بما يصلحها^(٣) .

وكان الطريق إلى الغار وعراً ، ذا أحجار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله ﷺ ، روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قال أبو بكر : لورأيتني ورسول الله ﷺ إذ صعدنا الغار ، فأما قدما رسول الله ﷺ فتقطرتا دماً ، وأما قدماي فعادت كأنها صفوان^(٤) . قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ لم يتعود الحفية^(٥) .

وروي أن رجالاً تحدتوا فيما بينهم على عهد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر ، رضي الله عنها ، فبلغ ذلك عمر فقال : والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلاً لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر ، فجعل يمشي مرّة أمامه ، ومرّة خلفه ، ومرّة عن يمينه ، ومرّة عن يساره ، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من فعلك » ، فقال : أذكر الرصد فأمشي أمامك ، وأذكر الطلب فأمشي خلفك ، ومرّة عن يمينك ومرّة عن يسارك لا آمن عليك ، فقال : « يا أبا بكر ! لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟ » قال : نعم ، والذي بعثك بالحق ، ما كانت لتكون من ملمة^(٦) إلا أردت أن تكون بي دونك . فشئ رسول الله ﷺ ليلة على أطراف أصابعه - كي يخفي أثره - حتى حفيت رجلاه ، فلما رأى أبو بكر ، رضي الله عنه ، أنها قد حفيت حمله على كاهله ، وجعل يشتد به حتى أتى به فم الغار فأنزله . وكان ذلك مع الصبح .

(١) المستدرک (ج ٤/٢) .

(٢) الحَوْخَة : بابٌ صغيرٌ وسطَ بابٍ كبيرٍ ، أو كوةٌ في البيتِ تُؤدِّي إليه الصَّوَاء (الوسيط : ج ٢٦٠/١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٨/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٧٥/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٨/١) .

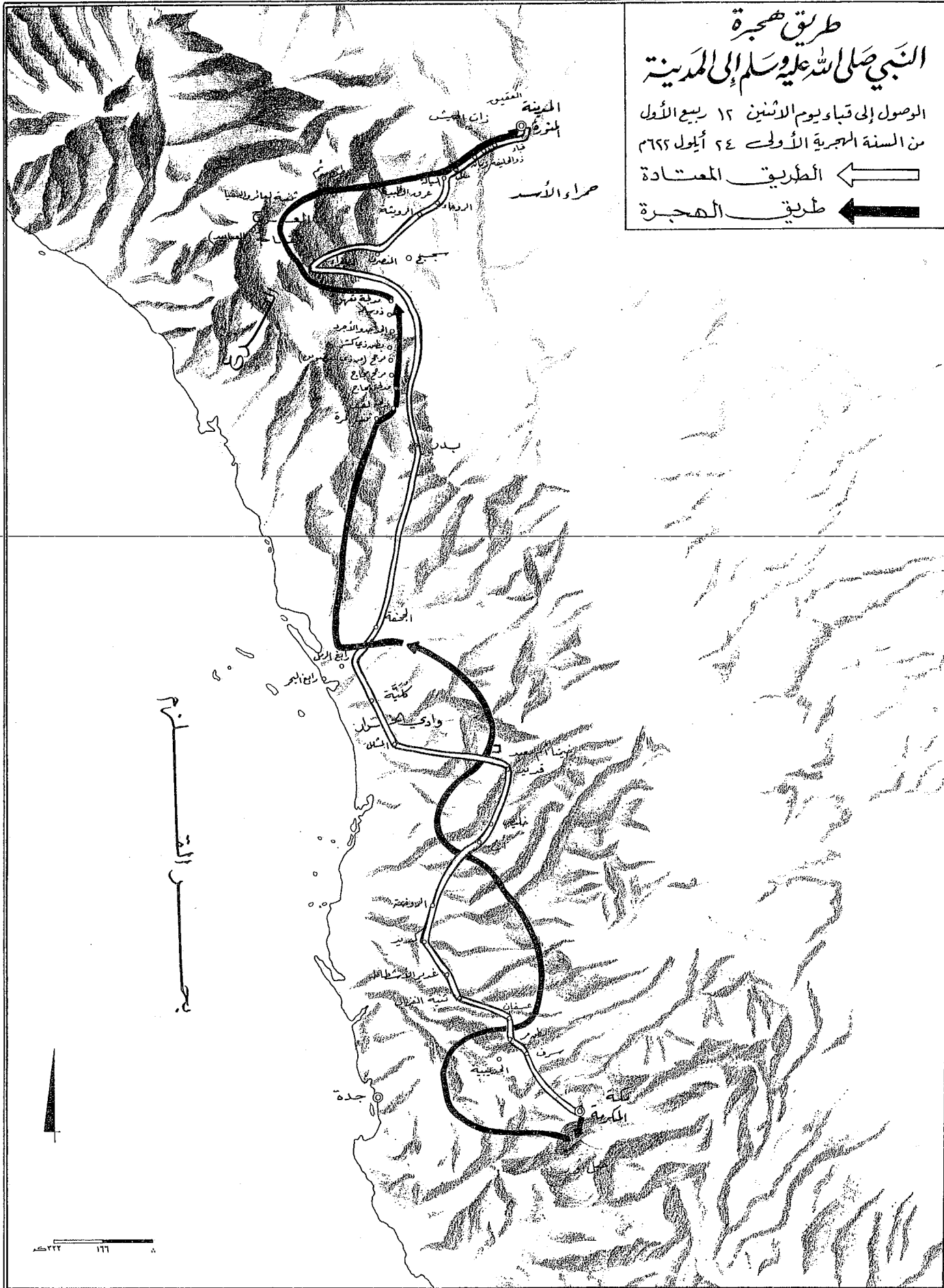
(٤) الصفوان : الصخرُ الأملس (الوسيط : ج ٥٢٠/١) .

(٥) كنز العمال (ج ٦٦٢/١٦) وقال المصنّف : رواه ابن مردويه .

(٦) المِلْمَة : النَّازِلَة الشَّدِيدَة مِن شِدَائِدِ الدَّهْرِ (الوسيط : ج ٨٤٦/٢) .

طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

الوصول إلى قبا يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول
 من السنة الهجرية الأولى ٢٤ أيلول ٣٦٢٢ م
 ← الطريق المعتادة
 ← طريق الهجرة



ثم قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فأستبرئه لك . قال عمر : والذي نفسي بيده ، لتلك الليلة خير من آل عمر^(١) .

فدخل أبو بكر الغار واستبرأه ، فلم يترك فيه جُحراً إلا أدخل فيه أصبعه مخافة أن يكون فيه سبع أو حية ، بقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فكلمها رأى جُحراً شقَّ ثوبه ثم ألقمه الجُحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، وبقي جُحر وكان فيه حية فوضع نفسه عليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام ، فلدغ أبو بكر في قدمه من الجُحر ، ولم يتحرك مخافة أن تخرج الحية من مسكنها وحتى لا ينتبه رسول الله ﷺ ، فجعلت دموعه تنخدر على الرِّغم منه ، فسابتل وجهه رسول الله ﷺ فقال : « مالك يا أبا بكر ؟ » قال : لدغت فذاك أبي وأمي ، فتفل رسول الله ﷺ على مكان اللدغة ، فذهب ما يجده من الألم . ثم لما أصبح النهار قال النبي ﷺ : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟ » فأخبره بالذي صنع ، فرفع النبي ﷺ يده فقال : « اللهم ! اجعل أبا بكرٍ معي في درجتي يوم القيامة »^(٢) .

خروج قريش في طلب النبي ﷺ وصاحبه :

أما المشركون فإنهم بعد أن ضربوا علياً ، رضي الله عنه ، وحبسوه ساعة في المسجد ، مضوا إلى دار أبي بكر لعلمهم يظلمون بنجر النبي ﷺ .

قال ابن إسحاق : فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ، رضي الله عنه ، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي ، قالت : فرجع أبو جهل ، لعنه الله ، يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدي لطمة فطرح منها قرطبي ، قالت : ثم انصرفوا^(٣) .

وخرجت قريش عندئذ في بغائها ، وجعلت في النبي ﷺ وصاحبه مكافأة ضخمة ، قال سراقبة بن مالك بن جعشم : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ، لكل واحد منهما ، مائة ناقة ، لمن قتلها أو أسرها^(٤) .

وركب الفرسان وقصاص الأثر في كل وجه يطلبونها أشد الطلب ، حتى انتهوا إلى الجبل الذي فيه الغار وطمعوا فوقه ، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم ، فأشفق أبو بكر ، رضي الله عنه ، وأقبل عليه الهَم والخوف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تتعزَّن إنَّ الله مَعَنَا » ، ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه سكينه من الله ، ثم رفع أبو بكر رأسه فإذا هو بأقدام القوم ، فقال : يانبي الله ! لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا ، قال : « ما ظنك يا أبا بكرٍ بأثنين الله ثالثهما !! »^(٥) .

ويقال إن كُرُز بن علقمة هو الذي قفا أثر النبي ﷺ وصاحبه ، فلما انتهى إلى باب الغار الذي هما فيه ، قال : ها هنا انقطع

(١) للحديث تمة هي : « وأما يومه ؛ فلما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلي ولا نركي ، وقال بعضهم : لانصلي ولا نركي ، فأتيته ولا آله نصحاً ، فقلت : يا خليفة رسول الله ! تألف الناس وأرفق بهم ، فقال : جبار في الجاهلية خوار في الإسلام ، فإذا تألفهم ؟ أشعر مفتعل أم بشعر مفتري ؟ قبض النبي ﷺ وارتفع الوحي ، فوالله لومنعوني عقلاً مما كانوا يعطون رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، قال : فقاتلنا معه ، فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه » دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٧٧/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٨/٢) ، والمستدرک (ج ٦٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٧٧/٢) ، وحلية الأولياء (ج ٢٢/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٠٠/٢) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٦/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، والمستدرک (ج ٦٢) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ٤٠/٥ ، ٨٢) كتاب المناقب - باب مناقب المهاجرين ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٧٨/٢) .

الأثر ، فخلط عليهم الأمر ، فلما رأوا نسج العنكبوت على باب الغار قالوا : لودخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فانصرفوا^(١) .

ويروى أن أبا بكر ، رضي الله عنه ، قال لرجل مواجه الغار : يارسول الله ! إنه ليرانا ، فقال : « كلاً ؛ إن ملائكة تسترنا بأجنحتها » ، فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار ، فقال رسول الله ﷺ : « لورأنا لم يستقبلنا بعورته »^(٢) .

وروى البيهقي بسنده عن أبي مضعب المكي قال : أدركت أنس بن مالك ، وزيد بن أرقم ، والمغيرة بن شعبة ، فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله ، عز وجل ، بشجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته ، وأمر الله حمامتين وحشييتين فوقفتا بغم الغار ، وأقبل قتيان قريش ؛ من كل بطن رجل ، بعصيهم وهراوهم^(٣) وسيوفهم ، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ بقدر أربعين ذراعاً ، فجعل رجل منهم لينظر في الغار فرأى حمامتين بغم الغار ، فرجع إلى أصحابه فقالوا له : مالك لم تنظر في الغار ؟ فقال : رأيت حمامتين بغم الغار ، فعلمت أنه ليس فيه أحد ، فسمع النبي ﷺ ما قال ، فعرف أن الله ، عز وجل ، قد درأ عنه بهما ، فدعاهن النبي ﷺ ، فسمت^(٤) عليهن ، وفرض جزاءهن ، وانحدرن في الحرم^(٥) .

مغادرة النبي ﷺ الغار وتوديعه مكة :

أقام رسول الله ﷺ وأبو بكر ، رضي الله عنه ، في الغار ثلاث ليال ، يبست عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو غلام شاب ثقف^(٦) لقين^(٧) ، فيدليج^(٨) من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبنات ، فلا يسمع أمراً يكتادان^(٩) به إلا وعاه حتى يأتيها بخير ذلك حين يختلط الظلام . وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرضى في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غم أبي بكر فاحتلبا ، وكان عامر أميناً مؤتمناً حسن الإسلام ، فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفني^(١٠) عليه ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنها الناس أتاها صاحبها الذي استأجره بيعيرها وبعير له ، وأتتها أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنها ، بسفرتها^(١١) ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً^(١٢) ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام ، فشقت نطاقتها باثنين ، فعلمت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر ، فبذلك سميت ذات النطاقين^(١٣) .

وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، لما خرج مع رسول الله ﷺ من بيته احتمل ماله كله معه ، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم .

(١) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٣٤٨/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٥٨/٥) .

(٢) انظر : مجمع الزوائد (ج ٥٢/٦ ، ٥٤) .

(٣) الهراوى : جمع هراوة ، وهي العصا الضخمة (النهاية : ج ٢٦١/٥) .

(٤) التسميت : ذكر الله على الشيء ، وقيل : الدعاء بالبركة ، يقول : بارك الله فيه (لسان العرب : ج ٢٠٨٧/٢) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٨٢/٢) .

(٦) ثقف : حاذق ذو فطنة (الوسيط : ج ٩٨/١) .

(٧) لقين : فهم ، حسن التلقن لنا يسمعه (الوسيط : ج ٨٤٢/٢) .

(٨) أدليج القوم : ساروا من أول الليل (الوسيط : ج ٢٩٢/١) .

(٩) كاذلة : أرادة بسوء (الوسيط : ج ٨١٣/٢) .

(١٠) تعفنى الشيء : زال وامحى (الوسيط : ج ٦١٨/٢) .

(١١) السفرة : طعام يتخذ المسافر (النهاية : ج ٢٧٢/٢) .

(١٢) العصام : حبل تشد به القربة وتحمّل (الوسيط : ج ٦١١/٢) .

(١٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٦/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٦٦/٤) كتاب الجهاد والسير - باب حمل الزاد في الغزو ، و (ج ٧٥/٥) كتاب المناقب -

باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٧٩/٢) .

قالت أسماء : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، فقالت أسماء : كلاً يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ! ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ؛ إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنني أردت أن أسكن الشيخ بذلك^(١) .

ويروى أنه لما خرج رسول الله ﷺ من الغار ونظر إلى مكة قال : « مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ ، وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنْ قُومِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ » ، ثم ابتهل إلى الله تعالى بالدعاء فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَلَمْ أَكْ شَيْئاً ، اللَّهُمَّ ! أَعْنِي عَلَى هَوْلِ الدُّنْيَا ، وَبَوَائِقِ الدُّهْرِ^(٢) ، وَمَصَائِبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، اللَّهُمَّ ! اصْحَبْنِي فِي سَفَرِي ، وَاخْلُقْنِي فِي أَهْلِي ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي ، وَلَكَ فَدَلِّلْنِي ، وَعَلَى صَالِحِ خَلْقِي فَقُومْنِي ، وَإِلَيْكَ رَبِّي فَحَبِّبْنِي ، وَإِلَى النَّاسِ فَلَا تَكْلُنِي ، رَبِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلِّحْ عَلَيَّ أَمْرَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ أَنْ تُجِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ ، وَتُنزَلَ بِي سَخَطُكَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَفَجْأَةِ نِقْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ ، لَكَ الْعَقْبَى عِنْدِي خَيْرٌ مَا اسْتَطَعْتُ ، لِأَحْوَالٍ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ »^(٣) .

وكان خروج رسول الله ﷺ من الغار في آخر ليلة الاثنين في السحر لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول^(٤) .

الطريق إلى المدينة :

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر ، رضي الله عنه ، وارتحل معهما عامر بن فهيرة ؛ أردفه أبو بكر خلفه ليخدمهما في الطريق ، ليس معهما أحد من الناس غيره وغير الدليل عبد الله بن أريقط يهديهم الطريق^(٥) .

قال ابن إسحاق : فلما خرج بها دليلها عبد الله بن أريقط سلك بها على أسفل أمج ، ثم استجاز بها حتى عارض بها الطريق بعد أن أجاز^(٦) قديداً ، ثم أجاز بها من مكانه ذلك فسلك بها الخرار ، ثم سلك بها ثنية المرة ، ثم سلك بها لقساً ، ثم أجاز بها مدلجة لقف ، ثم استبطن^(٧) بها مدلجة مجاج ، ثم سلك بها مروج مجاج ، ثم تبطن بها مروج من ذي الغضوين ، ثم من ذي كشر ، ثم أخذ بها على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بها ذا سلم من بطن أغدا مدلجة تعهن ، ثم على العبايد ، ثم أجاز بها الفاجة .

قال ابن هشام : ثم هبط بها العرج وقد أبطأ عليها بعض ظهرها ، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم ، يقال له أوس بن حجر ، على جمل له ، يقال له ابن الرداء ، إلى المدينة ، وبعث معه غلاماً له يقال له مسعود بن هنيئة ، ثم خرج بها دليلها من العرج فسلك بها ثنية العائر ، ويقال ثنية الغائر ، عن يمين ركوبة ، حتى هبط بها بطن رهم ، ثم قدم بها قباء^(٨) . (انظر : مصور طريق الهجرة) .

وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، يسير أمام النبي ﷺ ، فإذا خشي أن يؤتى من خلفه سار خلفه ، فلم يزل كذلك مسيره ، وكان أبو بكر شيخ يعرف في الناس ، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف ، فإذا لقيه رجل سأله : يا أبا بكر ! من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير^(٩) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ١٠٢/٢) .

(٢) بوائق الدهر : غوائله وقوره (لسان العرب : ج ٢٨٨/١) .

(٣) انظر : سنن الترمذي (ج ٧٢٢/٥) كتاب المناقب - باب في فضل مكة ح ٢٩٢٦ ، والبداية والنهاية (ج ١٧٨٨/٣) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/١) و (ج ٢٨٨/٨) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ١٠٠/٢ ، ١٠٢) .

(٦) أجاز فلاناً الموضع : قاده حتى قطعه (الوسيط : ج ١٤٧/١) .

(٧) استبطن الوادي ونحوه : دخله (الوسيط : ج ٦١/١) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ١٠٤/٢) .

(٩) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٩/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وجمع الزوائد (ج ٥٤/٦) .

أحداث جرت في الطريق :

- سَمِعَ اللَّيْلَانَ وَإِسْلَامَ الرَّاعِي : روي عن أبي بكر، رضي الله عنه ، أنه قال : ارتحلنا من مكة ، فأخْبِينَا أو سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرينا ، وقام قائم الظَّهيرة ، فرميت ببصري هل أرى من ظلِّ فأوي إليه ، فإذا صخرة أتيتها ، فنظرت بقية ظلِّ لها فسويته ، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه ، ثم قلت له : اضطجع يانبي الله ، فاضطجع النبي ﷺ ، ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحداً ، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصَّخرة ، يريد منها الذي أردنا ، فسألته فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ قال : لرجل من قريش سمّاه فعرفته ، فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم ، قلت : فهل أنت حالب لنا ؟ قال : نعم ، فأمرته فاعتقل شاة^(١) من غنمه ، ثم أمرته أن ينفض صرْعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيّه ، فحلب لي كُثْبَةً^(٢) من لبن ، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فيها خِرْفَةٌ فصببت على اللَّيْلان حتى برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت^(٣) .

وفي رواية عن قيس بن النُّعمان قال : لما انطلق النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وأبو بكر مستخفين ، مرّا بعبد يري غنماً ، فاستسقىها من اللَّيْلان ، فقال : ما عندي شاة تحلب ، غير أن هاهنا عناقاً^(٤) حملت أول الشتاء ، وقد أخذت^(٥) وما بقي لها لبن ، فقال : ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلها النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ومسح صرْعها ودعا حتى أنزلت ، قال : وجاء أبو بكر ، رضي الله عنه ، بمِجَنٍّ^(٦) ، فحلب ، فسقى أبا بكر ، ثم حلب فسقى الراعي ، ثم حلب فشرِب ، فقال الراعي : بالله من أنت ؟ فوالله ما رأيت مثلك قط !! قال : « أوتراك تكتم عليّ حتى أخبرك ؟ » قال : نعم ، قال : « فأني مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » ، فقال : أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ ؟ قال : « إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ ذَلِكَ » ، قال : فأشهد أنك نبي ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي ، وأنا متبعك ، قال : « إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ ، فَإِذَا بَلَغَكَ أَنِّي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنَا »^(٧) .

ثم قال أبو بكر رضي الله عنه : قد آن الرَّحِيلُ يا رسول الله ؟ قال : « بلى » . فارتحلوا بعدما مالَت الشمس ، والقوم يطلبونهم ، وقد كانت قريش جعلت في كلِّ واحد منهما مائة ناقة لمن يردهما عليهم ، فلم يدرهم إلا سُرَاقَةَ بن مالك^(٨) .

- شأن سُرَاقَةَ بن مالك : قال سُرَاقَةَ : بينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدَلِج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : يا سُرَاقَةَ ! إني قد رأيت أنفاً أسوداً بالسَّاحل أراها محمداً وأصحابه ، قال سُرَاقَةَ : فعرفت أنهم هم ، فأومأت إليه بعيني أن اسكت ، ثم قلت : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالّة لهم ، قال : لعله ، ثم سكت .

قال سُرَاقَةَ : ثم لبثت في المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريّتي أن تخرج بفريسي وهي من وراء أكمة^(٩) فتحمسها عليّ ، وأخذت رُمحِي فخرجت به من ظهر البيت ، فحططت بزَجْه^(١٠) الأرض ، وخفضت عاليته حتى أتيت فريسي فركبتها ، فرفعتها تقرب^(١١) بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فريسي ، فخررت عنها ، فقممت فأهويت يدي إلى كِنَانَتِي فاستخرجت منها الأزلام ،

(١) اعْتَقَلَ شَاتَهُ : وَضَعَ رِجْلَهُا بَيْنَ سَاقِهِ وَفَخَذَهُ فَحَلَبَهَا (لسان العرب : ج ٣٠٤/٤) .

(٢) الكُثْبَةُ : كُلُّ قَلِيلٍ مُجْتَمِعٍ مِنْ طَعَامٍ أَوْ لَبَنٍ (الوسيط : ج ٧٨٣/٢) .

(٣) صحيح البخاري (ج ٢/٥) كتاب المناقب - باب مناقب المهاجرين وفضلهم .

(٤) العنَاقُ : الأُنثَى مِنْ أَوْلَادِ الْمَعَزِ وَالْعَمَزِ مِنْ حِينَ الْوِلَادَةِ إِلَى تِمَامِ حَوْلِ (الوسيط : ج ٦٣٨/٢) .

(٥) أَخَذَتِ النَّائِبَةَ : أَلْقَتْ وَلَدَهَا قَبْلَ تِمَامِ أَيَّامِهِ (الوسيط : ج ٢١٨/١) .

(٦) المِجَنُّ : التُّرْسُ (الوسيط : ج ١٤١/١) .

(٧) المستدرک (ج ٨٢) وقال الحاکم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٨) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٤٥/٤) كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢/١) .

(٩) الأكمة : التَّلُّ (الوسيط : ج ٢٣/١) .

(١٠) الرُّجُّ : السَّيْدِيَّةُ الَّتِي تَرْتَكِبُ فِي أَسْفَلِ الرُّمْحِ ، وَالرُّجُّ تَرْتَكِبُ بِهِ الرُّمْحُ فِي الْأَرْضِ (لسان العرب : ج ١٨١/٣) .

(١١) قَرَّبَ تَقْرِيباً : إِذَا عَدَا عَدُوًّا مَوْنِ الْإِشْرَاعِ ، وَهِيَ تَقْرِيبَانِ أَذْنَى وَأَعْلَى (النهاية : ج ٢٥/٤) .

(١٢) أسود : صحیح رِیْلَةَ الْبَلْبَلِ وَأَوَّلِ الشَّخْمِ لِأَنَّهُ يُرَكَّبُ مِنْ رِیْدِ أَسْوَدِ (لسان العرب)

فاستقسمت بها أصرهم أم لا ، فخرج الذي أكره ، قال : وكنت أرجو أن أردّه على قريش فأخذ المائة الناقّة ، فركبت فرسي وعصيت الأزلام ، تقرب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثّر الالتفات ، ساخت^(١) يدا فرسي في الأرض حتى بلغنا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكذب تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان - وفي رواية : فقلت : أنا سراقّة ؛ أنظروني أكلّمكم ، فوالله لأربيكم ، ولا يأتينكم مني شيء تكروهه - فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أنه قد منع مني وأن أمره سيظهر ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الذّيّة ، وأخبرتكم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الرّزاد والمتاع فلم يرزاني^(٢) ، ولم يسألاني ، إلا أن قال : « أخف عني » ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن يكون آية بيني وبينه ، فأمر عامر بن قهيرة ، فكتب لي في رقعة من أدب^(٣) - وفي رواية : قال : « اكتب له يا أبا بكر » ، فكتب لي كتاباً ثم ألقاه إليّ ، فأخذته فجعلته في كيناتي ، ثم مضى رسول الله ﷺ^(٤) .

ورود في روايات أخرى أن أبا بكر ، رضي الله عنه ، قال : وأتبعنا سراقّة بن مالك ، فقلت : أتينا يا رسول الله ، هذا فارس قد لحق بنا ، فقال : « لا تحزن إن الله معنا » ، حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قدر رُمح أو رُمحين أو ثلاثة ، قلت : يا رسول الله ! هذا الطلب قد لحقنا وبكيت ، فقال لي : « لم تبكي ؟ » فقلت : أما والله ما على نفسي أبكي ، ولكن أبكي عليك ، قال : فدعا عليه رسول الله ﷺ ، فقال : « اللهم ! اصرعه » - وفي لفظ : « اللهم ! اكفناه بما شئت » - فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلد ، ووثب عنها وقال : يا محمد ! قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن يخلفني ما أنا فيه ، ولك عليّ لأعنين على من ورائي ، وهذه كيناتي ، فخذ سهماً منها ، فإنك ستر على إبلي وغلامي بكان كذا وكذا ، فخذ منها حاجتك ، قال : « لأحاجة لي في إيلك » ، فدعا له النبي ﷺ فنجا - وفي لفظ : قال سراقّة : ياني الله ! مرني بما شئت ، قال : « فقف مكانك لا تتحركن أحداً يلحق بنا » - فجعل سراقّة لا يلقى أحداً من الناس يلتصق به رسول الله ﷺ إلا ردّه وقال : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيتم ما ههنا ، وقد عرفتم بصري بالأثر ، فارجعوا عنه . فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ ، وكان آخر النهار مسلحة^(٥) له^(٦) .

ويروى أنه لما سمع أبو جهل بسراقّة بن مالك وما يذكر من أمر رسول الله ﷺ ، وما رأى من أمر الفرس حين أصابه ما أصابه ، تخوّف أن يسلم سراقّة حين رأى ما رأى ، فقال شعراً يحذّر فيه بني مدلج من إسلامه ، فأجابه سراقّة فقال فيما قال :

أبا حاكم والله لو كنت شاهداً	لأمر جوادى إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً	نبي وبرهان فمن ذا يكاتممه
عليك بكف القوم عنه فإنني	أرى أن يوماً ما ستبدو معالمه ^(٧)

(١) ساخت : رَسَخَتْ (لسان العرب : ج ٢١٦٨/٢) .

(٢) أي لم يأخذ مني شيئاً (النهاية : ج ٢١٨/٢) .

(٣) الأدب : الجلد .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠٢/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٧٦/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٥) أي سلاحاً ، المسلحة : قوم ذوو سلاح يحفظون الثغر من العدو ، واحدهم مسلح (لسان العرب : ج ٢٠٦١/٣) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٤٥/٤) كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام ، و (ج ٧٦/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وصحيح مسلم (ج ٢٣١٠/٤) كتاب الزهد والرقائق - باب في حديث الهجرة ح ٧٥ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٢/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/١) .

(٧) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٤٣٤/٢) .

شأن أمّ مَعْبُدٍ : ومضى رسول الله ﷺ في مسيره برفقة صاحبه حتى مرّ على أمّ مَعْبُدِ الخَزَاعِيَّةِ ، واسمها عاتِكَة بنت خالد ، ويقال : بنت كعب ، وكان منزلها بَقْدِيدٍ ، وكانت امرأة بُرْزَة^(١) جَلْدَة تَحْتَبِي^(٢) بفساء الخيمة ، ثم تَسْقِي وتَطْعَم من مرّ بها ، فسألاها لها وقرأ ليشترى منها ، فلم يجدا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرْمِلِينَ^(٣) مُسْتَبِينَ^(٤) ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كِشْرِ الخيمة^(٥) ، فقال : « ما هذه الشاة يا أمّ مَعْبُدٍ ؟ » قالت : شاة خلفها الجَهُدُ^(٦) عن الغنم ، قال : « هلّ بها من لبنٍ ؟ » قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : « أتأذنين لي أن أحلبها ؟ » قالت : بأبي أنت وأمي ! إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فدعا بها رسول الله ﷺ ، فمسح بيده ضرعها ، وسمى الله تعالى ، ودعا لها في شاتها فتفاجت^(٧) عليه ودّرت فاجترت^(٨) ، فدعا بإناء يَرِيضُ الرّهط^(٩) ، فحلب فيه نَجْماً^(١٠) حتى علاه البهاء^(١١) ، ثم سقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا ، وشرب آخرهم ، حتى أراضوا^(١٢) ، ثم حلب فيه الثانية على هدّة^(١٣) حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها ، وارتحلوا عنها .

فقلّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو مَعْبُدٍ ، وهو ابن عمّها ويقال له تميم بن عبد المزى من خزاعة ، يسوق أغنراً عجاجاً^(١٤) يتساوكن^(١٥) هزالاً ، مُحَصَّنٌ قليل ، فلما رأى أبو مَعْبُدِ اللبّن عجب فقال : من أين لك هذا يا أمّ مَعْبُدٍ ؟ والشاة عازب حائل^(١٦) ، ولا حلوب في البيت ؟ قالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا ، قال : صفيه لي يا أمّ مَعْبُدٍ ، فوصفته له ، فقال أبو مَعْبُدٍ : هذا والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً^(١٧) .

وأصبح صوت بمكة عالياً ، يسمعونه ولا يدرون من صاحبه وهو يقول :

جزى الله ربّ النَّاس خيراً جزائهم	رفيقين حلالاً خيتي أمّ مَعْبُدٍ
هنا نزلاً بالبرّ ثم تروّحاً	فأفلاح من أمسى رفيق محمد
ليهنّ بني كعب مكان فتواتهم	ومقعدها للمؤمنين بمصر صد

- (١) يُقال : امرأة بُرْزَة إذا كانت كَهْلَة لا تَحْتَجِبُ احتجاب الشوابّ ، وهي مع ذلك عَفِيفَة عاقلة تجلس للنّاس وتحدّثهم ، من البروز وهو الظهور والخروج (النهاية : ج ١١٧/١) .
- (٢) الاختباء : هو أن يَضُمّ الإنسان رِجْلَيْهِ إلى بَطْنِهِ بَنُوبٍ يَجْمَعُهَا بِهِ مع ظهريه ، وَيَشُدُّه عليها . وقد يكون الاختباء بالتدبير عوض التوب (النهاية : ج ٣٥٠/١) .
- (٣) أي : نَفِدَ زادهم . وأصله من الرَّمْلِ ، كأنهم لَصِقُوا بالرَّمْلِ (النهاية : ج ٢٦٥/٢) .
- (٤) أي : مُجْدِبِينَ ، أصابَتْهُمُ السَّنةُ ، وهي القحطُ والجَدْبُ ، يُقال : أسنت فهو مُسْتَبٍ إذا أُجْدِبَ (النهاية : ج ٤٠٧/٢) .
- (٥) أي : جانِبها (النهاية : ج ١٧٢/٤) .
- (٦) الجَهُدُ : المُشَقَّةُ (النهاية : ج ٣٢٠/١) .
- (٧) التَّفَاجُّ : المُبالِغَةُ في تَفْرِيجِ ما بين الرُّجْلَيْنِ (النهاية : ج ٤١٢/٣) .
- (٨) الحِرَّةُ : ما يُخْرِجُهُ البعير من بَطْنِهِ لِيَمْتَصَّهُ ثم يَبْلَعُهُ . يُقال : اجترّ البعيرُ يَجْتَرُّ (النهاية : ج ٢٥٩/١) .
- (٩) أي يَرِيضُهُمْ وَيُقَلِّمُهُمْ حتى يَنَامُوا وَيَمْتَدُّوا على الأرض . من رِيضٍ في المَكَانِ يَرِيضُ إذا لَصِقَ بِهِ وأقام مَلَازِمًا لَهُ (النهاية : ج ١٨٤/٢) .
- (١٠) أي كَبِناً سائلاً كثيراً (النهاية : ج ٢٠٧/١) .
- (١١) أي يَهَاءُ اللَّبَنِ ، وهو وَبِيسٌ رَعْوَتِي (النهاية : ج ١٦٩/١) .
- (١٢) أراضوا : أي شربوا غللاً بعد نَهَلٍ ، وقيل معنى أراضوا : صَبُوا اللَّبْنَ على اللَّبَنِ (النهاية : ج ٢٧٧/٢) .
- (١٣) الهدّة : الصَّوْتُ الشَّدِيدُ (لسان العرب : ج ٤٦٣/١/٦) .
- (١٤) العجاج : جَمْعُ عَجْفَاء ، وهي المَهْرُولَةُ مِنَ الغنم وغيرها (النهاية : ج ١٨٦/٢) .
- (١٥) يُقال : تَساوكت الإبل إذا اضطررت أعضائها من الهزال ، أَرَادَ أَنَّها تَتَنَازَلُ من ضَعْفِها (النهاية : ج ٤٢٥/٢) .
- (١٦) أي : غير حوامل . حالّت تحوّل حَيْثَلاً ، وهي شاء حَيْثَالٌ ، والواحدة : حَيْثَلٌ (النهاية : ج ٤٦٣/١) .
- (١٧) ويقال إن أبا مَعْبُدٍ وأمّ مَعْبُدٍ هاجرا بعد ذلك وأسلما وبايعا . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٣٠/١) ، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ق ٢٧٦/١) .

قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها : مكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات ، والناس يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة . قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ ، وأن وجهه إلى المدينة^(١) .

إسلام بريدة بن الحصيب رضي الله عنه : وفي الطريق لقي النبي ﷺ بريدة بن الحصيب بالغميم^(٢) ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فأسلم هو ومن معه ، وصلوا خلفه ﷺ العشاء الآخرة ، وعلمه رسول الله ﷺ ليلئذ صدراً من سورة مريم^(٣) .

روي عن بريدة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان لا يتطير ، وكان يتفأل ، وكانت قريش جعلت مائة من الإبل فيمن يأخذ نبي الله ﷺ فيردّه عليهم حين توجه إلى المدينة ، فركب بريدة في سبعين راكباً من أهل بيته من بني سهّم ، فتلقى نبي الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « من أنت ؟ » فقال : أنا بريدة ، فالتفت إلى أبي بكر الصديق فقال : « يا أبا بكر ! بريدة أمرنا وصلح » ، ثم قال : « ممن أنت ؟ » قال : من أسلم ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « سلمنا » ، قال : « ممن ؟ » قال : من بني سهّم ، قال : « خرج سهّمك يا أبا بكر » ، فقال بريدة للنبي ﷺ : من أنت ؟ قال : « أنا محمد بن عبد الله ورسول الله » ، فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فأسلم بريدة ، وأسلم من كان معه جميعاً . فلما أصبح قال للنبي ﷺ : لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحل عمامته ثم شدّها في رُمح ، ثم مشى بين يديه ، فقال : يا نبي الله ! تنزل عليّ ، فقال النبي ﷺ : « إن ناقتي هذه مأمورة » ، فقال بريدة : الحمد لله الذي أسلمت بنو سهّم طائعين غير مكرهين^(٤) .

- وقبل قدوم النبي ﷺ المدينة لقي الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً^(٥) . وقيل : لقيهما طلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنه ، فأهدى لهما ثياباً بيضاً من ثياب الشام ، فقد روى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن سعد عن أبيه قال : لما ارتحل رسول الله ﷺ من الخزار في هجرته إلى المدينة ، فكان الغد لقيه طلحة بن عبيد الله جائياً من الشام في عير ، فكسا رسول الله ﷺ وأبا بكر من ثياب الشام ، وخبر رسول الله ﷺ أن من بالمدينة من المسلمين قد استبطؤوا رسول الله ﷺ ، فعجل رسول الله ﷺ السير ، ومضى طلحة إلى مكة حتى فرغ من حاجته ، ثم خرج بعد ذلك مع آل أبي بكر^(٦) .

نزول النبي ﷺ في قباء :

وكان أهل المدينة يتوكلون^(٧) قدوم رسول الله ﷺ لما سمعوا بمخرجه من مكة ، فكانوا يغدون لذلك كلّ غداة إذا صلوا الصبح إلى ظاهر الحرة فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أوا إلى بيوتهم أوفى^(٨) رجل من يهود على أطم من أطامهم ، لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبّيضين^(٩) يزول بهم السراب^(١٠) ، وقد رأى ما كانوا يصنعون

(١) انظر : المستدرک (ج ٩/٣) ، وسيرة ابن هشام (ج ١٠/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٧/٨) ، وزاد المعاد (ج ٥٥/٣) .

(٢) الغميم : موضع بين مكة والمدينة (معجم البلدان : ج ٣٠٨/٦) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٢٤٢/٤) .

(٤) الوفا بأحوال المصطفى (ج ٢٤٧/١) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٧/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ .

(٦) طبقات ابن سعد (ج ٢١٥/٣) .

(٧) توكّفت الخَيْر : توقّعت وسأل عنه (الوسيط : ج ١٠٦٧/٢) .

(٨) أوفى : أشرف وأطلع (لسان العرب : ج ٤٨٨٥/٦) .

(٩) يبّض الرجل : ليس ثوباً أبيض فهو مبّيض (الوسيط : ج ٧٨/١) .

(١٠) أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له ، وقيل معناه ظهرت حركتهم للعين (فتح الباري : ج ٢٤٢/٧) .

وأهم ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ ، فلم يملك اليهودي أن صرخ بأعلى صوته : يا بني قَيْلَةَ^(١) ، هذا جدكم قد جاء ، فخرجوا ، فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه الثلاثة ، فسمعت الرّجّة في بني عمرو بن عوف والتكبير ، وتلبّس المسلمون السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه على أشهر الأقوال ، وقيل لليلتين أو لثلاث خلون منه . فقام أبو بكر ، رضي الله عنه ، للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً في ظلّ نخلة ، فطفيق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يُحْيِي أبا بكر ، حتى زال الظلّ وأصاب الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك^(٢) .

- منزل النبي ﷺ وصاحبه :

ونزل رسول الله ﷺ بقاء على كلثوم بن الهدم أحد بني عمرو بن عوف ، ويقال : بل نزل على سعد بن خَيْثَمَةَ . ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم : إنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم جلس للناس في بيت سعد بن خَيْثَمَةَ ، وذلك أنه كان عَرَبياً لأهل له ، وكان منزل العَرَب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين ، فن هنالك يقال : نزل على سعد بن خَيْثَمَةَ ، وكان يقال لبيت سعد بن خَيْثَمَةَ بيت العَرَب ، فالله أعلم أي ذلك كان^(٣) .

ويروى أنه لما وصل رسول الله ﷺ إلى قُباء وتلقاه بنو عمرو بن عوف قال : « أَيْنَ أَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ ؟ » ، ثم مضى حتى إذا طلع على النخل فإذا الشرب مملوء ، فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ ! هَذَا الْمَنْزِلُ ، رَأَيْتَنِي أَنْزِلُ عَلَى حِيَاضٍ كَحِيَاضِ بَنِي مُدَلِّجٍ »^(٤) .

أما أبو بكر ، رضي الله عنه ، فنزل على خَبِيبِ بْنِ إِسَافِ بْنِ أَحَدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ بِالسُّنْحِ ، ويقال : كان منزله على خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ^(٥) .

قدوم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

وأقام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أذى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن الهدم رضي الله عنه .

ويقال : إنما كانت إقامته بقاء ليلة أو ليلتين على امرأة لا زوج لها مسامة ، فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه ، فيعطيه شيئاً معه ، فتأخذه ، قال : فاسترّبتُ بشأنه ، فقلت لها : يا أمة الله ! من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سهّل بن حنيفة بن واهب قد عرف أنني امرأة لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها ، فقال : احتطبي بهذا ، فكان عليّ يأتُر^(٦) ذلك من أمر سهل بن حنيفة ، حين هلك عنده بالعراق^(٧) .

وقد كان لا يزال بالمدينة مقدم رسول الله ﷺ أوثان يعبدها رجال من أهل المدينة ، فأقبل قومهم على تلك الأوثان فهدموها^(٨) .

- (١) بنو قَيْلَةَ : هم الأوس والخزرج ، وقَيْلَةَ : اسم جدّة كانت لهم ، وهي قَيْلَةُ بنت كاهل بن عَدْرَةَ . انظر (فتح الباري : ج ٢٤٢/٧) .
- (٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠٨/٢ ، ١٠٩) ، وصحيح البخاري (ج ٧٧/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/١) ، والروض الأنف (ج ٢٤٥/٢) .
- (٣) سيرة ابن هشام (ج ١١٠/٢) .
- (٤) مسند الإمام أحمد (ج ٧٤/٥) .
- (٥) سيرة ابن هشام (ج ١١٠/٢) .
- (٦) يَأْتُرُ ذَلِكَ : أي يَرُوي ويَحْكِي . عَنْهُ ذَلِكَ (النهاية : ج ٢٣/١) .
- (٧) سيرة ابن هشام (ج ١١١/٢) .
- (٨) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٢٢/٢) .

إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه :

وقدم على رسول الله ﷺ وهو بقباء سلمان الفارسي ، رضي الله عنه ، وكان قد سمع ببعثته ﷺ وأنه يخرج بالحجاز ، فلما علم بقدمه المدينة أسرع إليه فأسلم ، ولنترك سلمان ، رضي الله عنه ، يحدثنا عن قصة إسلامه من فيه ، يقول سلمان رضي الله عنه : كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان ، من أهل قرية يقال لها جَيّ ، وكان أبي دَهْقَان^(١) قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حبه إيتاي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت في المحوسية حتى كنت قَطِينُ النَّارِ^(٢) الذي يُوقدها ، لا يتركها تجبو ساعة ، قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال : فشعل في بُنيان له يوماً ، فقال لي : يا بُنيّ ! إني قد شعلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لي : ولا تحبس عني ؛ فإنك إن احتبست عني كنت أمّ إليّ من ضيعتي ، وشغلّتي عن كل شيء من أمري ، قال : فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لأدري ما أمر الناس ؛ لحبس أبي إيتاي في بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتي صلاتهم ، ورغبت في أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الذين الذين نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي فلم أتها ، ثم قلت لهم : أين أصل هذا الذين ؟ قالوا : بالشام ، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي ، وشغلّته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أي بُنيّ ! أين كنت ؟ أولم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت : يا أبت ! مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيته من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أي بُنيّ ! ليس في ذلك الذين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، قال : قلت له : كلاً ، والله إنه لخير من ديننا ، قال : فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته ، قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم ، قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم ، فقلت لهم : إذا قضا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذنوني بهم ، قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة ، قال : فجئته ، فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك ، أخدمك في كنيستك ، فأتعلم منك ، وأصلي معك ، قال : ادخل ، فدخلت ، قال : وكان رجل سوء ؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، قال : فأبغضته بغضاً شديداً لينا رأيت به يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ؛ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ؛ فإذا جئتموها بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً ، قال : فقالوا لي : وما علمك بذلك ؟ قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه ، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، قال : فلما رأوها قالوا : والله لاندفننه أبداً ، قال : فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه . قال سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلّي الخمس أرى أنه كان أفضل منه ، وأزهدي في الدنيا ، ولا أرغب في الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه ، قال : فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله مثله ، قال : فأقمت معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ! إني قد كنت معك ، وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ماترى من أمر الله تعالى ، فيألي من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : أي بُنيّ ! والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس ، وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالمؤصل ، وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه ، فألحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب المؤصل ، فقلت له : يا فلان ! إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره ، قال : فقال لي : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان ! إن فلاناً أوصى بي إليك ، وأمرني باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ماترى ، فيألي من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : يا بُنيّ ! والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان ، فألحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين ، فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحباي ، فقال : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته

(١) دَهْقَانُ الْقَرْيَةِ : رَئِيسُهَا (النهاية : ج ١٤٥/٢) .

(٢) قَطِينُ النَّارِ : أَي خَازِنُهَا وَخَادِمُهَا ، أَرَادَ أَنَّهُ كَانَ لَازِمًا لَهَا لِأَنَّهَا قَطِينٌ فِي الْمَكَانِ إِذَا لَزِمَتْ (النهاية : ج ٨٥/٤) .

على أمر صاحبه ، فأقت مع خير رجل ، فوالله ماليث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يا فلان ! إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فيألى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : يا بني ! والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا أمرك أن تأتيه ، إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم ؛ فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فاتّه ، فإنه على أمرنا .

فلما مات وعيّب لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبري ، فقال : أمّ عندي ، فأقت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنمية ، قال : ثم نزل به أمر الله ، فلما حضر قلت له : يا فلان ! إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فيألى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : أيّ بني ! والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك به أن تأتيه ، ولكنه قد أظّل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم ، عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ؛ يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كنفه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

قال : ثم مات وعيّب ، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مرّ بي نفر من كلب تجار ، فقلت لهم : احمولوني إلى أرض العرب وأعطيتكم بقراتي هذه وغنميتي هذه ، قالوا : نعم ، فأعطيتهموها ، وحمولني معهم ، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني ، فباعوني من رجل يهودي عبداً ، فكنت عنده ، ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم ينجح^(١) في نفسي ، فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عمّ له من بني قريظة من المدينة ، فابتاعني منه ، فاحتلني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها ففرقتها بصفة صاحبي ، فأقت بها ، وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لأسمع له بذكر ، مع ما أتأ فيه من شغل الرّق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إني لفي رأس عدوّ^(٢) لسيدي أعمل له فيه بعض العمل ، وسيدي جالس تحتي ؛ إذ أقبل ابن عمّ له ، حتى وقف عليه ، فقال : يا فلان ! قاتل الله بني قريظة ، والله إنهم الآن لمجتعون بقاء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبي ، قال سلمان : فلما سمعتها أخذتني العرواء^(٣) حتى ظننت أني سأسقط على سيدي ، فنزلت من النخلة ، فجعلت أقول لابن عمّ ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدي ، فلكني لكمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عمك ، قال : قلت : لاشيء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال . وقد كان عندي شيء قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقاء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحقّ به من غيركم ، قال : فقربته إليه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « كلوا » وأمسك يده فلم يأكل ، قال : فقلت في نفسي : هذه واحدة ، قال : ثم انصرفت عنه ، فجمعت شيئاً ، وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت له : إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية أكرمتك بها ، قال : فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه ، فقلت في نفسي : هاتان نيتان ، قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببيع العرق قد تبع جنازة رجل من أصحابه عليّ شملتان لي ، وهو جالس في أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ، فلما رأني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء ووصف لي ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم ، ففرفته ، فأكبت عليه أقبله وأبكي ، فقال لي رسول الله ﷺ : « تحوّل » ، فتحوّلت ، فجلست بين يديه ، فقصصت عليه حديثي ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه . ثم شغل سلمان الرّق حتى فاتته مع رسول الله ﷺ بدر وأخذ . (انظر : مصور رحلات سلمان الفارسي رضي الله عنه) .

قال سلمان : ثم قال لي رسول الله ﷺ : « كاتب يا سلمان » ، فكاتبته صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير^(٤) وأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أعينوا أخاكم » ، فأعانوني بالنخل ؛ الرجل بثلاثين ودية^(٥) ، والرجل بعشرين ودية ،

(١) حقه يحقه ويحقه : أثبتة وصار عنده حقاً لا يشك فيه ، والمراد هنا أنه لم يكن من هذا الأمر على يقين . انظر (لسان العرب : ج ١٤٠/٢) .

(٢) العدوّ : النخلة .

(٣) العرواء : الرعدة من البرد والانتقاض ، فإن كان مع ذلك عرق فهي الرخصاء كما قال ابن هشام .

(٤) الفقير : اسم للحمرة التي تغرس فيها الفسيلة . انظر (النهاية : ج ٤٦٣/٢) .

(٥) الودي : صغار النخل ، الواحدة ودية (النهاية : ج ١٧٠/٥) .

والرَّجُلُ بِخَمْسِ عَشْرَةَ وَدِيَّةً ، وَالرَّجُلُ بَعَشْرَ ، يُعِينُ الرَّجُلَ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُمِائَةَ وَدِيَّةٍ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اذْهَبْ يَا سَلْمَانَ فَفَقِّرْ^(١) لَهَا ؛ فَإِذَا فَرَعْتَ فَأَتْنِي أَكُنْ أَنَا أَضْعُفُهَا بِيَدِي » . قَالَ : فَفَقَّرْتُ وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي ، حَتَّى إِذَا فَرَعْتُ جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا ، فَجَعَلْنَا نَقْرُبُ إِلَيْهِ الْوَدِيَّةَ وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ حَتَّى فَرَعْنَا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ ، فَأَدَيْتِ النَّخْلَ ، وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ بِيضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَعَادِنِ ، فَقَالَ : « مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمَكَاتِبُ ؟ » قَالَ : فَدُعِيتُ لَهُ ، فَقَالَ : « خُذْ هَذِهِ فَأَذِّهَا مِمَّا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ » قَالَ : قُلْتُ : وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَمَّا عَلَيَّ ؟ فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَلَّبَهَا عَلَى لِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ : « خُذْهَا فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ » ، قَالَ : فَأَخَذْتُهَا ، فَوَزَنْتُ لَهَا مِنْهَا ، وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً ، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ مِنْهَا ، وَعَتَقْتُ سَلْمَانَ ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَنْدَقَ حُرًّا ، ثُمَّ لَمْ يَفْتَنِي مَعَهُ مَشْهُدٌ .^(٢)

وفي رواية عن بُرَيْدَةَ قَالَتْ سَلِمَانَ : فَكَاتِبُونِي عَلَى كَذَا وَكَذَا نَخْلَةً أَعْرَسَهَا لَهَا ، وَيَقُومُ عَلَيْهَا سَلِمَانٌ حَتَّى تُطْعِمَ^(٣) ، قَالَ : فَفَعَلُوا : قَالَ : فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَعَرَسَ النَّخْلَ كُلَّهُ إِلَّا نَخْلَةً وَاحِدَةً عَرَسَهَا عَمْرٌ ، وَأَطْعَمَ نَخْلَهُ مِنْ سَنَتِهِ إِلَّا تِلْكَ النَّخْلَةَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ عَرَسَهَا ؟ » قَالُوا : عَمْرٌ ، فَعَرَسَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ، فَحَمَلَتْ مِنْ عَامِهَا^(٤) .

وفي رواية أخرى أن النَّبِيَّ ﷺ عَرَسَهَا كُلَّهَا إِلَّا وَاحِدَةً عَرَسَهَا سَلِمَانٌ فَعَلِقَنَ كُلَّهَا إِلَّا الْوَاحِدَةَ^(٥) .

مَدَّةُ إِقَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِقُبَاءَ :

أقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة . وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك^(٦) ، ففي رواية في صحيح البخاري أنه أقام فيهم أربع عشرة ليلة^(٧) ، وقيل غير ذلك .

تأسيس مسجد قباء وفضيلته :

وأسس النبي ﷺ في تلك المدة مسجد قباء وصلَّى فيه^(٨) . روي أنه لما نزل رسول الله ﷺ قباء وأتاه أهلها فسلموا عليه ، قال : « يَا أَهْلَ قُبَاءِ ! أَتُؤْنِسُونِي بِأَحْجَارٍ مِنْ هَذِهِ الْحَرَّةِ » ، فَجَمَعَتْ عِنْدَهُ أَحْجَارَ كَثِيرَةٍ ، وَكَانَ مَعَهُ عَنَزَةٌ لَهُ ، فَخَطَّ قِبَلَتَهُمْ ، فَأَخَذَ حَجْرًا فَوَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ النَّاسُ فِي الْبِنْيَانِ^(٩) .

وروي عن الشَّوْمُسِ بِنْتِ النَّعْمَانَ قَالَتْ : نَظَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ وَنَزَلَ وَأَسَّسَ هَذَا الْمَسْجِدَ مَسْجِدَ قُبَاءَ ، فَرَأَيْتُهُ يَأْخُذُ الْحِجْرَ أَوْ الصَّخْرَةَ حَتَّى يَهْضِرَهُ^(١٠) الْحِجْرَ ، وَأَنْظَرَ إِلَى بِيضِ التَّرَابِ عَلَى بَطْنِهِ أَوْ سَرْتِهِ ، فَيَأْتِي الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَيَقُولُ : يَا أُمَّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَعْطِنِي أَكْفِكَ ، فَيَقُولُ : « لَا ، خُذْ مِثْلَهُ » حَتَّى أُسِّسَهُ^(١١) .

(١) فَقَّرَ : أَي اخْتَارَ لَهَا مَوْضِعًا تَفَرَّسَ فِيهِ (النهاية : ج ٤٦٢/٣) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٣٤/١ - ٢٤١) ، وانظر ماورد في المستدرک (ج ٥٩٧/٣) في قصة إسلامه ففيها بعض الاختلاف .

(٣) يُقَالُ : أَطْعَمَتِ الشَّجَرَةَ تَطْعِمُهُ ؛ إِذَا أَثْمَرَتْ وَأَذْرَكَ ثَمَرُهَا (الوسيط : ج ٥٦٢/٢) .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٦٧/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، وأقره الذهبي .

(٥) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٤٦/٤) وقال : رواه أحمد وفيه علي بن زيد وفيه ضعف ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١١/٢) .

(٧) صحيح البخاري (ج ٨٦/٥) كتاب المناقب - باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١١/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٧٨/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ ..

(٩) انظر : المستدرک (ج ١٢٧/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ١٧٧/٥) .

(١٠) يَهْضِرُهُ : يُؤْمِلُهُ (النهاية : ج ٢٦٤/٥) .

(١١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١١٧/٤) وقال : رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .

وكان مسجد قباء أول مسجد بُني في الإسلام ، وهو المسجد الذي أُسس على التقوى^(١) ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾^(٢) .

يروى أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ لأهل قباء : « إِنَّ اللَّهَ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الشَّاءَ فِي الطُّهُورِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ ، فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي تَطَهَّرُونَ بِهِ ؟ » قالوا : والله يا رسول الله ، مانعنا شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا^(٣) .

وقد كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً ويصلي فيه ركعتين^(٤) ، وقد جاء عنه أنه قال : « مَنْ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ - يَعْنِي مَسْجِدَ قَبَاءَ - فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ كَانَ كَعَدْلِ عُمْرَةٍ »^(٥) .

ولما صُرِفَت القبلَة إلى الكعبة^(٦) أتى رسول الله ﷺ مسجد قباء ، فقَدَّم جدار المسجد إلى موضعه وأسسَه وقال : « جَبْرِيْلُ يَوْمَ بِيِ التَّيْتِ » ، ونقل رسول الله ﷺ وأصحابه الحجارة لبنائه^(٧) .

ثم وَسَّعَ المسجد فيما بعد وزيد فيه ، وكان عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، إذا دخله صلى إلى الأُسْطُوَانَةِ الْمُحَلَّفَةِ ، وكان ذلك مصلى رسول الله ﷺ^(٨) .

ارتحال النبي ﷺ من قباء وأول جُمُعَة صلاها :

فما كان يوم الجمعة ارتفاح النهار ركب رسول الله ﷺ راحلته ، وأبو بكر ردفه ، وأُرسِلَ إلى مَلَأَ من بني النُّجَارِ ، فجاءوا متقلدي سيوفهم ، فسار نحو المدينة وهم يمدقون به حتى قدم المدينة ليلاً^(٩) .

وفي رواية عن موسى بن عَبَّتَةَ قال : وكانت الأنصار قد اجتمعت فتلقوه قبل أن يركب من بني عمرو بن عوف ، فمشوا حول ناقته لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة شحاً على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيماً له^(١٠) .

فأدرسته صلاة الجُمُعَة في بني سالم بن عوف ، فصلاها في المسجد الذي في بطن وادي رأتوناء بمن معه من المسالمين ، وهم مائة ، واستقبل بيت المقدس ، فاما أبصرته اليهود صلى إلى قبلتهم تذاكروا بينهم أنه النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة^(١١) .

فكانت هذه الجمعة أول جمعة صلاها النبي ﷺ بالمدينة حين قدم ، وخطب فيها بأول خطبة له ، وقال فيها :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَحَمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُهُ ، وَأَسْتَهْدِيهِ ، وَأُؤْمِنُ بِهِ وَلَا أَكْفُرُهُ ، وَأُعَادِي مَنْ يَكْفُرُهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ أَرْسَلَهُ بِالْمُهْدَى وَالنُّورِ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَى فِتْرَةِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَقَلَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ ، وَضَلَالَةٍ مِنَ

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٨/٥) باب هجرة النبي ﷺ ..

(٢) التوبة : ١٠٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ٤٢٢/٣) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٧/٢) باب من أتى مسجد قباء كل سبت ، باب إتيان مسجد قباء ماشياً وراكباً .

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٤٨٧/٣) .

(٦) سيأتي خبر صرف القبلة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٤/١) .

(٨) انظر : فتوح البلدان / للبلاذري (ص : ١٩) .

(٩) انظر : صحيح البخاري (ج ٨٦/٥) كتاب المناقب - باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣٦/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٠٦/٢) .

(١٠) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٠١/٢) .

(١١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣٦/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٠٠/٢) .

الناس ، وانقطع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضلّ ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ؛ فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم ؛ أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً ؛ وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة .. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية ؛ لا ينوي بذلك إلا وجهه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك ؛ فإنه يقول عز وجل : ﴿ ما تبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (١) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وأجله ، في السر والعلانية ؛ فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تقوى الله يوفى مقتته ، ويوفى عقوبته ، ويوفى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضي الرب ، ويرفع الدرجة .

خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليملك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثرُوا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفبه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يفضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم» (٢) .

وروى ابن إسحاق بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ :

« أما بعد أيها الناس ! فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليضعن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي قبلك ، وأتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فليتنظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى شيئاً غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ؛ فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته» (٣) .

قال ابن إسحاق : ثم خطب رسول الله ﷺ الناس مرة أخرى ، فقال : « إن الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله ، تتبارك وتعالى ، قد أفلح من زينة الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على مساواة من أحاديث الناس ؛ إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحيوا ما أحب الله ، أحيوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عن قلوبكم ؛ فإنه من كل ما خلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، واصلحوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم» (٤) .

استقبال أهل المدينة النبي ﷺ وترحيبهم به وفرحهم :

ثم ركب رسول الله ﷺ ناقته من بني سالم بن عوف ، وأرخى لها الزمام ، فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة بن نضلة في رجال من بني سالم بن عوف ، فقالوا : يا رسول الله ! أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة ، فقال : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنت (٥) دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفرقة بن عمرو في رجال من بني بياضة ، فقالوا :

(١) سورة ق : ٢٩ .

(٢) تاريخ الطبري (ج ٢٩٤/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١١٨/٢) .

(٤) وزن الشيء بالشيء : قابله وحاذاه (الوسيط : ج ١٠٤١/٢) .

يارسول الله ! هلم إلينا إلى العدد والعدّة والمنعّة ، قال : « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، فخلُّوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمُنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة ، فقالوا : يارسول الله ! هلم إلينا ، إلى العدد والعدّة والمنعّة ، قال : « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، فخلُّوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رَوَاحَة في رجال من بني الحارث بن الخزرج ، فقالوا : يارسول الله ! هلم إلينا ، إلى العدد والعدّة والمنعّة ، قال : « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، فخلُّوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا مرّت بدار بني عدي بن النّجار - وهم أخواله^(١) - اعترضها سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن أبي خارجة في رجال من بني عدي بن النّجار ، فقالوا : يارسول الله ! هلم إلى أخوالك ، إلى العدد والعدّة والمنعّة ، قال : « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، فخلُّوا سبيلها ، فانطلقت^(٢) .

وفي رواية : أنه ﷺ كلما مرّ بدار من دور الأنصار دعّوه إلى المنزل ، فيقول رسول الله ﷺ : « دَعَّوْهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ، إِنَّا أَنْزَلْنَا حَيْثُ أَنْزَلْنِي اللَّهُ تَعَالَى »^(٣) .

وفي الصحيح أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، تنازع الأنصار أيهم ينزل عليه عليه ﷺ ، فقال : « أَنْزِلْ عَلَى بَنِي النَّجَّارِ ، أَخْوَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَكْرَمَهُمْ بِذَلِكَ »^(٤) .

ويروى أنه ﷺ مرّ بعبد الله بن أبي ابن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو في بيت ، فوقف عليه النبي ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيّد الخزرج في أنفسها ، فقال له عبد الله : انظر الذين دعّوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار وقوفه على عبد الله بن أبي والذي قال له ، فقال له سعد بن عبادة : إِنَّا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ كُنَّا قَبْلَ الَّذِي خَصَّنَا اللَّهُ بِهِ مِنْكَ ، وَمَنْ عَلَيْنَا بِقُدُومِكَ ، أَرَدْنَا أَنْ نَعْقِدَ عَلَى رَأْسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي النَّجَّارِ وَنَمْلِكَهُ عَلَيْنَا^(٥) .

ولم تنزل ناقته ﷺ سائرة به حتى إذا أتت دار بني مالك بن النّجار بركت عند موضع المسجد النبوي ، وهو يومئذ مرّيد^(٦) للتّمر لسهل وسهّل ابني عمرو غلامين يتيمين من بني مالك بن النّجار ، وهما في حجر أسعد بن زُرارة ، ويقال في حجر معاذ بن عفراء . (انظر : مصور المدينة المنورة / قبائل ومساجد) .

فلما بركت الناقة ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل ، وثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها ، لا يثنيها به ، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، ثم تحلّحت^(٧) ورزمت^(٨) ووضعت جرائنها^(٩) ، فنزل عنها رسول الله ﷺ ، وذلك في بني النّجار ، وقال : « هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ » ، وكان ذلك من توفيق الله للناقة ، فإنه ﷺ أحبّ أن ينزل على أخواله ، ثم قال : « أَيُّ بَيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ ؟ » فقال أبو أيوب : أنا يانبي الله ؛ هذه داري ، وهذا بابي ، قال : « فَأَنْطَلِقُ فَهَيْءَ لَنَا مَقِيلًا » ، فاحتل أبو أيوب ، رضي الله عنه ، رحل النبي ﷺ فوضعه في بيته ، فأقى رجل فقال : يارسول الله ! أين تحلّ ؟ قال : « الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ » ، وجاء أسعد بن زُرارة فأخذ بزمام راحلته ﷺ فكانت عنده^(١٠) .

(١) هم أخوال جدّه ، لأن سلمى بنت عمرو أم عبد المطّلب منهم كما ذكرنا فيما مضى .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١١٢/٢) .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٠٧/٢) .

(٤) صحيح مسلم (ج ٢٣١١/٤) كتاب الزهد والرقائق - باب في حديث الهجرة ح ٧٥ .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٩٦/٢) .

(٦) المزيّد : هو المؤضّع الذي يُجْعَلُ فِيهِ التَّمْرُ لِيَتَشَفَّ (النهاية : ج ١٨٢/٢) .

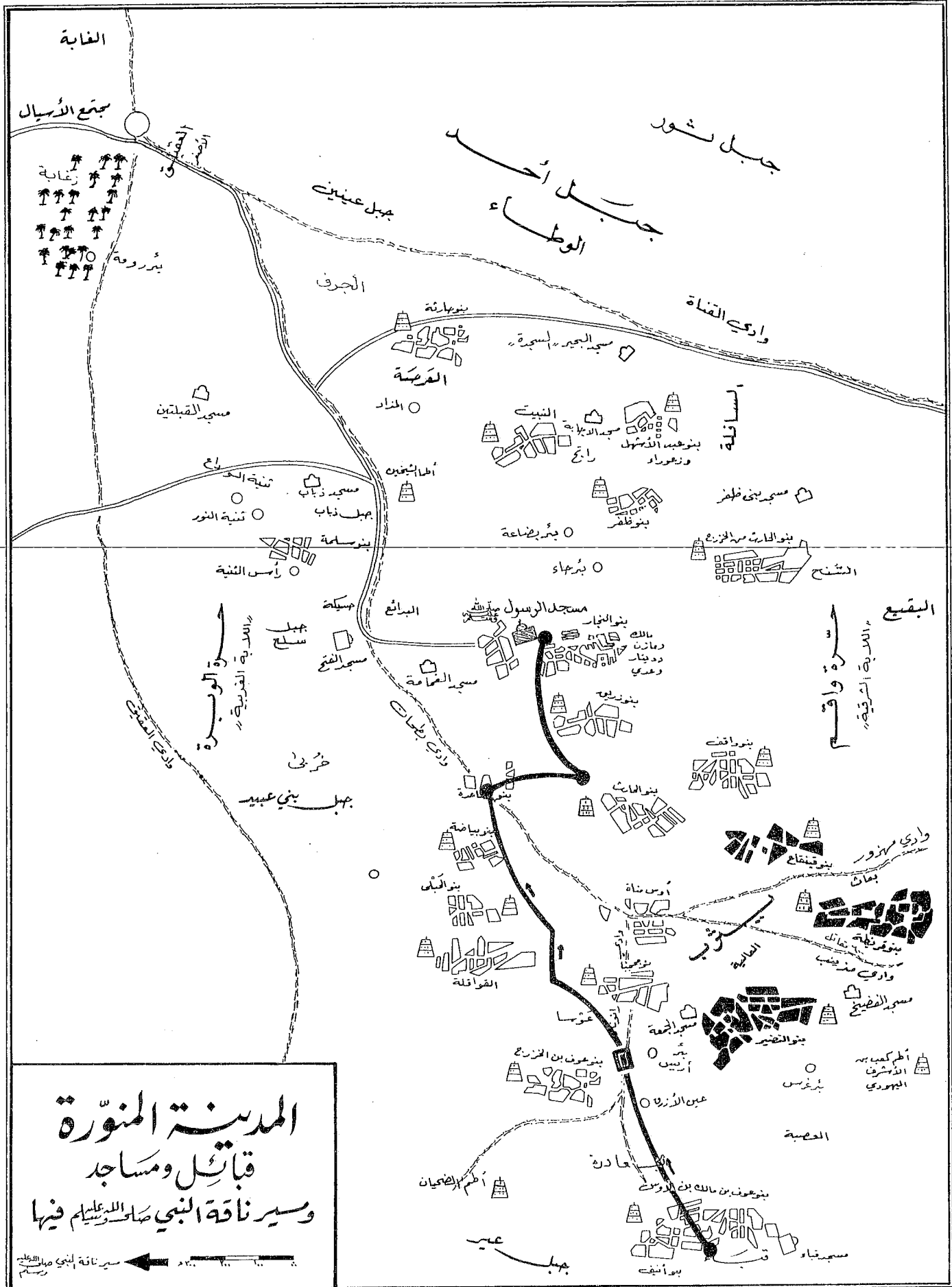
(٧) بَحَلَّحْتُ : تَحَرَّكَتُ (الوسيط : ج ١٩١/١) .

(٨) رَزَمْتُ : ثَبَّتْتُ عَلَى الْأَرْضِ (الوسيط : ج ٢٤٢/١) .

(٩) الْجِرَانُ : بَاطِنُ الْعَنْقِ (النهاية : ج ٢٦٢/١) .

(١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٢/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٧٨/٥ ، ٨٠) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ ، ... وطبقات ابن سعد

(ج ٢٣٧/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٠٧/٢) .



الغابة

سبع الأسيال

غابة
بيرومة

جبل شور
جبل أحماء
الوطاء

جبل عينين

الجرف

وادي القناة

بنو هارثة

مسجد الجير «أسيرة»

الفرصة

مسجد القبلتين

السناء

بنو عبيدة
بنو عكرمة
بنو زهير
بنو زهير

مسجد بني ظفر

مسجد ذياب
تنية النور

بنو رضاعة

بنو الحارث بن الخزرج

بنو سامة

بنو حارث

الدمشق

البقيع

مسجد الرسول ﷺ

«البلدية الغربية»
«وادي القبلتين»

«البلدية الشرقية»
«وادي البقيع»

مسجد الفتح

بنو النجار
بنو النجار
بنو النجار
بنو النجار

بنو قنفة

جبل بني عبيد

بنو سامة

بنو الأثري

بنو قنفة

وادي مزور

بنو النجار

بنو الأثري

بنو قنفة

بنو النجار

بنو الأثري

بنو قنفة

بنو النجار

بنو الأثري

بنو قنفة

بنو النجار

بنو الأثري

بنو قنفة

بنو النجار

بنو الأثري

بنو قنفة

بنو النجار

بنو الأثري

بنو قنفة

بنو النجار

بنو الأثري

بنو قنفة

وفرح أهل المدينة بقدم رسول الله ﷺ ، فاستقبله زهاء خمسمائة من الأنصار في الطريق بالابتهاج والشوق الشديد ، وبالحنو والبالغة ، وصعد الرجال والنساء على الأجاجير (١) ، واشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون : الله أكبر ، جاء رسول الله ، جاء محمد - ﷺ - ولعبت الحبشة بحرايهم سروراً بمقدمه ﷺ ، وجعل النساء والصبيان ينشدن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا الله داع (٢)

وخرجت حواري من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبيذا محمد من جبار

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : « أتحيوني ؟ » فقالوا : أي والله يا رسول الله ، قال : « أنا والله أحبكم ، أنا والله أحبكم » (٣)

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإمام يقلن : قدم رسول الله ﷺ (٤)

وأشرفت يثرب بمجلول النبي ﷺ فيها وسرى السرور إلى القلوب ، ومن ذلك اليوم سميت يثرب بالمدينة المنورة .

قال أنس رضي الله عنه : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء من المدينة كل شيء ، وقال أيضاً : شهدته عليه الصلاة والسلام يوم دخل علينا المدينة فلم أر يوماً أضوأ منه ولا أحسن منه (٥)

وفاة البراء بن معرور رضي الله عنه :

روي أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة سأل عن البراء بن معرور ، رضي الله عنه ، فقيل له : توفي ، وأوصى بثلث ماله لك يا رسول الله ، وأوصى أن يوجه إلى الكعبة لما احتضر ، فقال رسول الله ﷺ : « أصاب الفطرة ، وقد رددت ثلثه على ولديه » ، ثم ذهب فصلى عليه فقال : « اللهم ! اغفر له وارحمه ، وأدخله جنتك ، وقد فعلت » (٦)

وكانت وفاته رضي الله عنه قبل مقدم النبي ﷺ المدينة بشهر (٧)

وقد كان البراء بن معرور ، رضي الله عنه ، أول من استقبل الكعبة حياً وميتاً قبل أن يؤمر رسول الله ﷺ بالتوجه إليها ، فكان يصلّي إلى الكعبة ، فلما خرج مع أصحابه إلى مكة ليبيعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية أمره ﷺ أن يستقبل بيت المقدس ، فأطاعه البراء ، رضي الله عنه ، حتى إذا حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه إلى المسجد الحرام (٨)

روى ابن إسحاق بسنده عن كعب بن مالك ، وكان ممن شهد العقبة ، وبايع رسول الله ﷺ بها ، قال : خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا : يا هؤلاء ! إني قد رأيت رأياً ووالله ما أدري أتوافقوني عليه أم لا ؟ قال : قلنا : وما ذاك ؟ قال : قد رأيت ألا أدع هذه البيعة مني

(١) الأجاجير : جمع إجار ، وهو السطح الذي ليس حوله ما يرد الساقط عنه (لسان العرب : ج ٢٢/١) .

(٢) انظر : صحيح مسلم (ج ٢٣١١/٤) كتاب الزهد والرقائق - باب في حديث الهجرة ح ٧٥ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢/١) و (ج ١٦١/٣) ، والمستدرک (ج ١٢/٣) ، ودلائل البيهقي (ج ٥٠٦/٢) .

(٣) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٠٨/٢) .

(٤) صحيح البخاري (ج ٨٤/٥) كتاب المناقب - باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٢١/٣ ، ٢٤٠) .

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٥٢/١) وقال : هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٧) طبقات ابن سعد (ج ٦٢٠/٣) .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ٦١٩/٣) .

بظُهر (يعني الكعبة) وأن أصلي إليها ، قال : فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه ، قال : فقال : إني لمُصلِّ إليها ، قال : فقلنا له : لكننا لا نفعل ، قال : فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلّى إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة ، قال : وقد كنا عينا عليه ما صنع ، وأبي إلا الإقامة على ذلك ، فلما قدمنا إلى مكة قال لي : يا ابن أخي ! انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا ، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إيتاي فيه ، قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ ، وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله ﷺ ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا ، قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قال : قلنا : نعم ، قال : وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً ، قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال : فدخلنا المسجد ، فإذا العباس ، رضي الله عنه ، جالس ورسول الله ﷺ جالس معه ، فسألنا ، ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : « هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ » قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيّد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : « الشاعر ؟ » قال : نعم ، فقال البراء بن معرور : يا نبي الله ! إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله للإسلام فرأيت ألا أجعل هذه البنيّة منّي بظهر فصليت إليها ، وقد خالفني أصحابي في ذلك ، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء ، فإذا ترى يا رسول الله ؟ قال : « قد كنت على قبلة لو صبرت عليها »^(١) ، قال : فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلّى معنا إلى الشام ، قال : وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات ، وليس ذلك كما قالوا ؛ نحن أعلم به منهم^(٢) .

☆ ☆ ☆

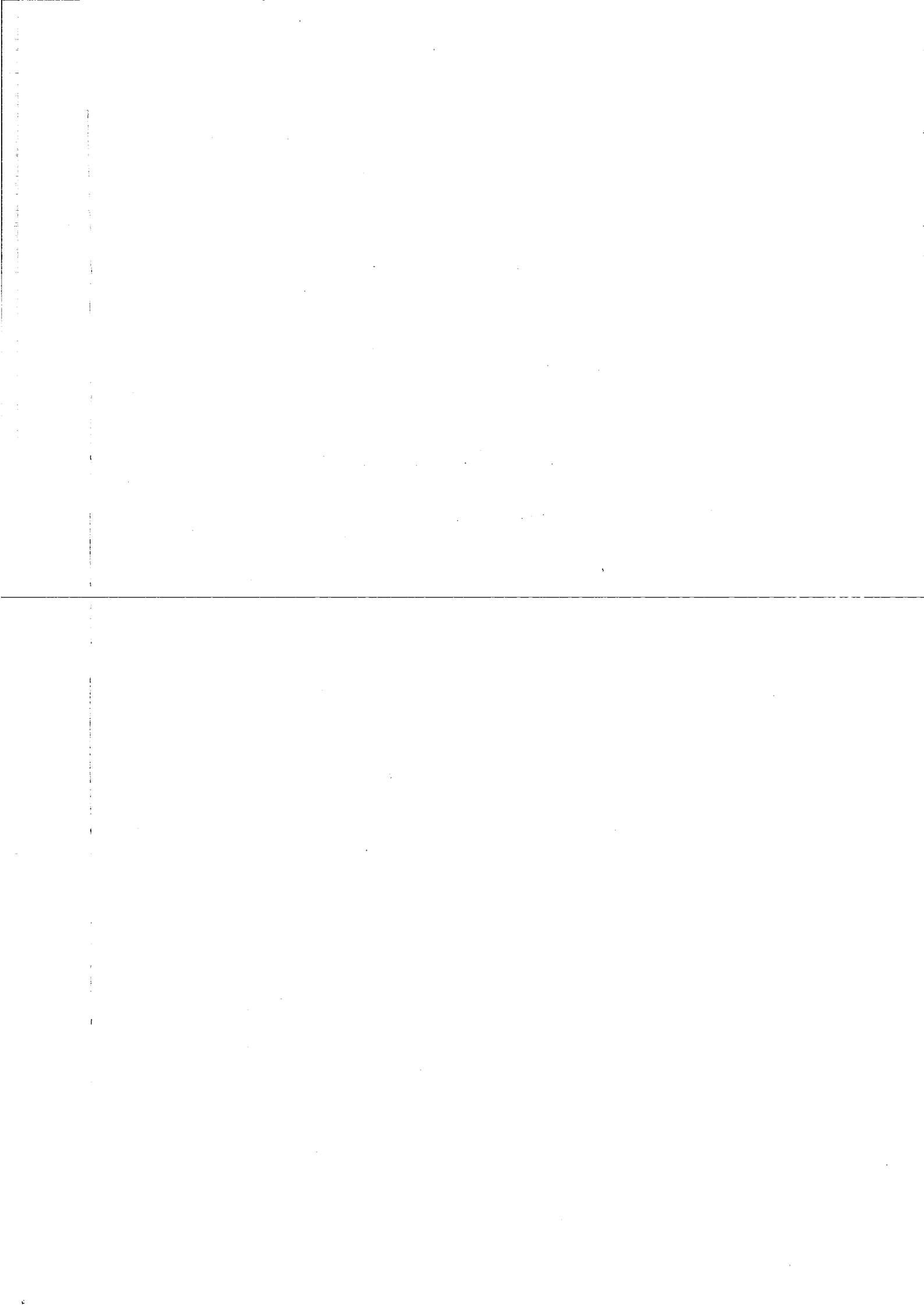
(١) قال السهيلي : لم يأمره بإعادة ما قد صلى ؛ لأنه كان متأولاً (الروض الأنف : ج ٢٠٠/٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٤٧/٢) .

القسم الثالث

« الدولة الإسلامية والدعوة في دورها المدني »

من السنة الأولى للهجرة حتى الوفاة



السنة الأولى للهجرة

ذكرنا أنه في الثاني عشر من شهر ربيع الأول^(١) دخل رسول الله ﷺ يثرب التي سميت منذ ذلك اليوم بمدينة الرسول أو المدينة المنورة ، وكان عمره آنذاك ثلاثة وخمسين عاماً^(٢) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، قال : بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين^(٣) .

وأعتبر يوم قدومه ﷺ يوماً أعزّ ، فقد كان نهاية دور من أدوار الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ، وبداية عهد جديد في الدعوة إلى الله وإقامة دعائم الدولة الإسلامية . ولذلك ابتدأ المسلمون تأريخهم من وقت قدومه ﷺ المدينة ، فكانوا يؤرخون بالشهر والشهرين من مقدمه إلى أن تمت السنة وهكذا^(٤) .

إقامة النبي ﷺ في دار أبي أيوب رضي الله عنه :

أسلفنا أن النبي ﷺ كان قد استقر به المقام في دار أبي أيوب ، رضي الله عنه ، فكث عنده سبعة أشهر أو نحواً من سنة حتى بُني له مسجده ومسكانه فانتقل إليها^(٥) .

وقد فرح أبو أيوب ، رضي الله عنه ، بنزول رسول الله ﷺ عنده ، فقام بخدمته ، وكان يستعذب له من برأبي أنس مالك بن النضر بنفسه^(٦) ، وكان شديد الحرص على راحته ، قال أبو أيوب رضي الله عنه : لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفْل ، وأنا وأمّ أيوب في العُلُو ، فانتبه أبو أيوب ليلة فقال : نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ ! فتنحوا فكانوا في جانب ، وبات أبو أيوب الليل ساهراً يكره أن يأتي النبي ﷺ في الليل فيستأمره في التحويل ، فلم يزل ساهراً حتى أصبح ، فأق النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ! بأبي أنت وأمّي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فإظهر أنت فكن في العُلُو ، ونزل نحن فنكون في السُّفْل ، فقال : « يا أبا أيوب ! السُّفْلُ أَرْفَقُ بِنَا وَيَمُنُّ يَفْشَانَا » ، قال أبو أيوب : فكان رسول الله ﷺ ، في سُفْلِهِ ، وكنا فوقه في المسكن ، فلقد انكسر حُبُّ^(٧) لنا فيه ماء ، فقممت أنا وأمّ أيوب بقطيفة^(٨) لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشّف بها الماء خوفاً أن يقطر على رسول الله

(١) وهذا أشهر الأقوال في زمن قدومه ﷺ المدينة .

(٢) انظر سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٢) .

(٣) صحيح البخاري (ج ٧٢/٥) كتاب المناقب ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٨٧/٥) كتاب المناقب ، والمستدرک (ج ١٤/٣) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٨٨/٢) . وقيل : لم يؤرخ التاريخ من وقت

قدومه ﷺ ، بل من أول تلك السنة كما قال الطبري في تاريخه (ج ٢٨٩/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٥/٢ ، ١١٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣٧/١) و (ج ٢٢٨/٨) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٠٤/١) .

(٧) الحُبُّ : وعاء الماء كالزير والحجرة (الوسيط) : ج (١٥١/١) .

(٨) القטיפئة : كساء له حَمَلٌ (النهاية) : ج (٨٤/٤) .

ﷺ منه شيء فيؤذيه ، فنزلت إلى رسول الله ﷺ ، وأنا مشفق قلقت : لأأعلو سقيفة أنت تحتها ، ولم يزل يتضرع إليه ، حتى أمر النبي ﷺ بمتاعه فنقل إلى العلو ومتاعه قليل (١) .

قال أبو أيوب رضي الله عنه : وكنا نضع له العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا ردة علينا فضله تيمت أنا وأم أيوب موضع أصابعه فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً ، فردّه رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثراً ، قال : فصعدت إليه فرعاً ، فقلت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا تيمت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة ، فما منعك منه ؟ قال : « إني وجدته فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجي » ، فقال أبو أيوب : أحرام هو ؟ قال : « لا ، ولكني أكرهه » - وفي لفظ : « أستحي من ملائكة الله تعالى ، وأما أنتم فكلوه » - فقلت : إني أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبي ﷺ يؤتى (٢) ، ثم لم نضع في طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد (٣) .

وعن أم أيوب ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ نزل عليهم ، فتكلموا له طعاماً فيه من بعض هذه البقول ، فكره أكله ، فقال لأصحابه : « كلوه ، فإنني لست كأحدكم ، إني أخاف أن أؤذي صاحبي » (٤) .

- وكان الأنصار ، رضوان الله عليهم ، يتناوبون إهداء الطعام كل ليلة إلى النبي ﷺ في منزل أبي أيوب رضي الله عنه . وكان النبي ﷺ إذا أهدى له طعام أهدى لأبي أيوب منه ، وقد روي أن أول هدية دخلت على رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب هدية دخل بها زيد بن ثابت ، إناء قصعة (٥) مثرودة (٦) فيها خبز وسمن ولبن ، فقال : أرسلت بهذه القصعة أُمي ، فقال : « تبارك الله فيك ! » ودعا أصحابه فأكلوا ، قال زيد : فلم أرم الساب (٧) حتى جاءت قصعة سعد بن عباد ، ثريد وغراق (٨) ، وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون ذلك ، حتى تحول رسول الله ﷺ من منزل أبي أيوب ، فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله ﷺ كل يوم أينما دار في بيوت أزواجه ، وهي جفنة فيها ثريد بلحم ، أو ثريد بلبن ، أو ثريد بخلّ وزيت ، أو بسمن ، وأكثر ذلك اللحم (٩) . وجاء عنه ﷺ أنه كان إذا خطب النساء يقول : « لك كذا وكذا ، وجفنة سعد تدور معي كلما دُرّت » (١٠) .

قدوم آل النبي ﷺ وعيال أبي بكر رضي الله عنه :

أرسل النبي ﷺ ، وهو في بيت أبي أيوب ، زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه ، رضي الله عنهما ، إلى مكة ، وأعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين ليأتياه بأهله ، والخمسمائة أخذها من أبي بكر ، رضي الله عنه ، ليشترى بها ما يحتاجان إليه ، فاشترى بها زيد بن حارثة ثلاثة أبعرة ، وبعث معها أبو بكر ، رضي الله عنه ، عبد الله بن أريقط دليلاً ومعه بعيران أو ثلاثة ، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر يأمره أن يحمل إليه أهله . فقدموا بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ﷺ ، وسودة بنت زمعة زوجة ﷺ ، وأم أيمن حاضنته ، زوج زيد بن

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٦/٢) ، وصحيح مسلم (ج ١١٢٢/٢) كتاب الأثرية - باب إباحة أكل الثوم ح ١٧١ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٢٠/٥) ، ودلائل البيهقي (ج ٥٠٧/٢) .

(٢) أي يأتيه الملك .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٦/٢) ، وصحيح مسلم (ج ١١٢٢/٢) كتاب الأثرية - باب إباحة أكل الثوم ح ١٧١ ، والمستدرک (ج ١٣٥/٤) .

(٤) سنن الترمذي (ج ٢٦٢/٤) كتاب الأطعمة - باب ما جاء في الرخصة في الثوم مطبوخاً ح ١٨١٠ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٥) القصعة : وعاء يؤكل فيه ويترد ، وكان يتخذ من الحشَب غالباً (الوسيط : ج ٧٤٦/٢) .

(٦) تَرَدَّتْ الحَبْرُ تُرْدًا : كَسَرَتْهُ فَهُوَ قَرِيدٌ وَمَثْرُودٌ (لسان العرب : ج ٤٧٦/١) .

(٧) يَقَالُ : لَمْ يَرْمِ مَكَانَهُ : لَمْ يَبْرَحْهُ ، لَمْ يَبْرُقْهُ . انظر : الوسيط (ج ٢٨٧/١) .

(٨) العَرَّاقُ : جَمْعُ عَرْقٍ ، وَهُوَ الْعَظْمُ الَّذِي قَدْ أُخِذَ أَكْثَرُ لَحْمِهِ ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ لَحْمٌ رَقِيقَةٌ طَيِّبَةٌ (لسان العرب : ج ٢٩٠/٦) .

(٩) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٧/١) ، و (ج ٦١٤/٢) .

(١٠) انظر : مجمع الزوائد (ج ٢٨٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٢/٨) .

حارثة ، وابنها أسامة بن زيد رضي الله عنهم ، وأما ابنته زينب ، رضي الله عنها ، فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع من الهجرة ، وأما ابنته رُقَيْة فهاجرت من قبل مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنها .

وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبيه ، وهم : أم رومان ، وأختاه عائشة وأسما ، حتى قدموا جميعاً المدينة فنزلوا في بني الحارث بن الخزرج بالسُّنح ، ونزل آل رسول الله ﷺ في بيت لحارثة بن النعمان ، رضي الله عنه ، وكان رسول الله ﷺ يبي المسجد^(١) .

وكانت أسماء حين هاجرت حاملاً بابنها عبد الله بن الزبير ، رضي الله عنهما ، فلما نزلت بقباء ولدته ، ثم أتت به النبي ﷺ ، فوضعت في حجره ، فدعا بتمر فضعها ، ثم تفل في فيه ، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ، ثم حنكه بتمر ، ثم دعا له ، وبرك عليه^(٢) . فلما صار ابن سبع سنين أو ثمان أمره الزبير ، رضي الله عنه ، أن يأتي رسول الله ﷺ لبيبايعه ، فتبسم ﷺ حين رآه مقبلاً إليه ثم بايعه^(٣) .

وكان عبد الله بن الزبير ، رضي الله عنها ، أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة من المهاجرين ، أما من الأنصار فكان أول مولود ولد لهم بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة فالنعمان بن بشير ، ولد بعد مقدمه ﷺ المدينة بسنة أو أقل ، وقيل مسلمة بن مخلد^(٤) . وقد روي عن عروة قال : وكانت اليهود تقول : قد أخذناهم^(٥) فلا يؤلد لهم بالمدينة ولد ذكر ، فكبر أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد عبد الله^(٦) ، أي سروراً منهم بتكذيب الله اليهود فيما قالوا من ذلك .

زواج النبي ﷺ من عائشة رضي الله عنها :

وفي شوال من السنة الأولى للهجرة بنى رسول الله ﷺ بعائشة ، رضي الله عنها ، وهي بنت تسع سنين ، وأصدقها أربعائة درهم ، وقيل خمسمائة^(٧) .

روي عن عروة قال : توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين ، فلبث سنتين أو قريباً من ذلك ، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين ، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين^(٨) . وقيل نكحها وهي بنت سبع^(٩) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، وبنى بي في شوال ، فأبى نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني ؟ وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال^(١٠) .

وكان رسول الله ﷺ أُرِيها في المنام ، قبل أن يخطبها ، يقال : هذه امرأتك عائشة ، فعن عائشة ، رضي الله عنها ، أن

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٢/٨ ، ١٦٥) .

(٢) بَرَكَ عَلَيْهِ : دَعَا لَهُ بِالْبَرَكَاتِ (النهاية) (ج ١٢٠/١) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٩/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وصحيح مسلم (ج ١٦٩٠/٣) كتاب الآداب - باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته .. ح ٢٥ .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٩/٥) ، والمستدرک (ج ٥٣١/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٢/٦) ، وفتح الباري (ج ٢٤٩/٧) .

(٥) أَخَذْنَاهُمْ : سَخَرْنَاهُمْ ، انظر : (لسان العرب : ج ٣٦/١) .

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٥٤٨/٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : عبد الله تركه أبو حاتم .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢١/٤) ، والمستدرک (ج ٤/٤ ، ٥) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٧١/٥) كتاب المناقب - باب تزويج النبي ﷺ عائشة .

(٩) انظر : صحيح مسلم (ج ١٠٣٩/٢) كتاب النكاح - باب تزويج الأب البكر الصغيرة ح ٧١ .

(١٠) صحيح مسلم (ج ١٠٣٩/٢) باب استحباب التزوج والتزويج في شوال ح ٧٣ .

النبي ﷺ قال لها : « أَرَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ ، أَرَى أَنَّكَ فِي سَرَقَةٍ ^(١) مِنْ حَرِيرٍ وَيَقُولُ : هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَاسْكُفِي عَنْهَا ، فَإِذَا هِيَ أَنْتِ فَأَقُولُ : إِنَّ نَيْكَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمُضِيهِ ^(٢) . وفي رواية أن جبريل عليه السلام قال له : إن هذه زوجتك في الدنيا والآخرة ^(٣) .

فخطب النبي ﷺ عائشة إلى أبي بكر ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ! قد كنت وعدت بها المطعم بن عدي لابنه جُبَيْر ، فدعني حتى أسألها منهم ، ففعل ، ثم تزوجها رسول الله ﷺ وكانت بكر ^(٤) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي سلمة ويحيى قالا : لما هلكت خديجة جاءت خَوْلَةَ بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون قالت : يا رسول الله ! ألا تزوج ؟ قال : « مَنْ ؟ » قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ، قال : « فَمَنْ الْبِكْرُ ؟ » قالت : ابنة أحب خلق الله ، عز وجل ، إليك ، عائشة بنت أبي بكر ، قال : « وَمَنْ الثَّيْبُ ؟ » قالت : سَوْدَةُ ابنة زَمْعَةَ ، قد آمنت بك وأتبعتك على ما تقول ، قال : « فاذْهَبِي ، فاذْكَرِيهَا عَلَيَّ » .

فدخلت بيت أبي بكر ، فقالت : يا أمَّ رومان ! ماذا أدخل الله ، عز وجل ، عليكم من الخير والبركة ، قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ، قالت : انتظري أبا بكر حتى يأتي ، فجاء أبو بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ، قال : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ، قال : وهل تصلح له ؟ إنما هي ابنة أخيه .

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك ، قال : « ارْجِعِي إِلَيْهِ فَقُولِي لَهُ : أَنَا أَخُوكَ وَأَنْتِ أَخِي فِي الْإِسْلَامِ ، وَابْتِنَاكَ تَصْلُحُ لِي » ، فرجعت فذكرت ذلك له ، قال : انتظري ، وخرج . قالت أم رومان : إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه ، فوالله ما وعدت وعداً قط فأخلفه ، لأبي بكر ، فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي ، وعنده امرأته أم الفقي ، فقالت : يا ابن أبي قحافة ! لعلك مصب صاحبنا مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك ، قال أبو بكر لمطعم بن عدي : أقول هذه تقول ؟ قال : إنها تقول ذلك ، فخرج من عنده وقد أذهب الله ، عز وجل ، ما كان في نفسه من عدته التي وعده ، فرجع ، فقال لخَوْلَةَ : ادعي لي رسول الله ﷺ ، فزوجه إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين ^(٥) .

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلف أهله وبناته ، ثم إنهم قدموا المدينة ، كما ذكرنا آنفاً ، فنزلت عائشة ، رضي الله عنها ، مع عيال أبي بكر بالسُّنْح ، فلم تلبث أن وَعِكَت - أي أصابتها الحمى - فكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، يدخل عليها فيقبل خديها ويقول : كيف أنت يا بنية ؟ قالت عائشة : فتمرق شعري ^(٦) ، فوقى جميمة ^(٧) ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ! ما يمنعك من أن تبني بأهلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الصِّدَاقُ » ، فأعطاه أبو بكر خمسمائة درهم .

قالت عائشة : فجاء رسول الله ﷺ ضحى فدخل بيتنا ، فأتني أمي أم رومان ، وإني لفي أُرْجُوحَةٍ ومعني صواحب لي ، فصرخت بي ، فأتيتها لأدري ما تريد بي ، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج ^(٨) حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن على الخير والبركة ، وعلى خير

(١) السَّرَقَةُ : قِطْعَةٌ مِنْ جَبَدِ الْحَرِيرِ ، وَجَمْعُهَا سَرَقٌ (النهاية : ج ٢/٣٦٢) .

(٢) صحيح البخاري (ج ٧١/٥) كتاب المناقب - باب تزويج النبي ﷺ عائشة .

(٣) انظر : سنن الترمذي (ج ٧٠٤/٥) كتاب المناقب - باب فضل عائشة رضي الله عنها ح ٣٣٨٠ .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٨/٨) .

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٢١٠/٦) .

(٦) تَمَرَّقَ الشَّعْرُ : انْتَشَرَ وَتَسَاقَطَ مِنْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِ (الوسيط : ج ٨٧١/٢) .

(٧) وَفَى جُمَيْمَةٌ : أَي كَثُرَ ، وَالْجُمَيْمَةُ : نَصْغِيرُ الْجُمَّةِ ، وَالْجُمَّةُ مِنْ شَعْرِ الرَّأْسِ : مَا سَقَطَ عَلَى الْمُتَكَبِّينِ (النهاية : ج ٣٠٠/٨) .

(٨) النَّهْجُ : الرَّبُوبُ وَتَوَاتَرَ النَّفْسُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرَكَةِ أَوْ فِعْلٍ مُتَّعِبٍ (النهاية : ج ١٣٤/٥) ، والمراد : أنها تتنفس تنفساً عالياً من الإعياء .

طائر^(١) ، فأسلمتني إليهن ، فأصلحن من شأني ، فلم يرعني^(٢) إلا رسول الله ﷺ فأسلمتني إليه . وهي يومئذ بنت تسع سنين ولعبها معها^(٣) .

وفي رواية : قالت عائشة رضي الله عنها : ثم أقبلت أمي بي تقودني ، ثم دخلت بي على رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله ﷺ جالس على سرير في بيتنا ، وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فاحتبستني في حجرة ، ثم قالت : هؤلاء أهللك يا رسول الله ، بارك الله لك فيهن وبارك لمن فيك ، فوثب الرجال والنساء ، قالت عائشة : وبني بي رسول الله ﷺ في بيتي هذا الذي أنا فيه ، وهو الذي توفي فيه ﷺ - قالت عائشة : ما نُجرت عليّ جزور^(٤) ، ولا دُبحت عليّ شاة ، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ إذا دار على نسائه^(٥) .

وكانت أسماء بنت يزيد بن السكن ، رضي الله عنها ، ممن هيأ عائشة ، رضي الله عنها ، وأدخلتها على رسول الله ﷺ في نسوة معها ، قالت أسماء : فوالله ما وجدنا عنده قري ، إلا قدحاً من لبن ، فشرب منه ثم ناوله عائشة ، فاستحيت الجارية وخفضت رأسها ، قالت أسماء : فانتهرتها وقلت لها : لا تردي يد رسول الله ﷺ ، خذي منه ، فأخذته على حياء فشربت منه ، ثم قال لها النبي ﷺ : « ناولي صواحيك » ، قالت أسماء : يا رسول الله ! بل خذه فاشرب منه ثم ناولنيه من يدك ، فأخذه فشرب منه ، ثم ناولنيه ، قالت : فجلست ثم وضعته على ركبتي ، ثم طفيقت أديره وأتبعه بشفتي لأصيب منه مشرب النبي ﷺ ، ثم قال لنسوة عندي : « ناوليهن » ، فقلن : لانشتهيه ، فقال النبي ﷺ : « لاتجمعن جوعاً وكذباً » ، فقلت : يا رسول الله ! إن قالت إحدانا لشيء تشتهييه لأشتهيه يعد ذلك كذباً ؟ قال : « إن الكذب يُكتب كذباً ، حتى الكذبة كذبة »^(٦) .

وكان رسول الله ﷺ يلاطف عائشة ، رضي الله عنها ، ويواسيها ، ويراعي صغر سنّها ، روي عنها أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ ، قالت : وكانت تأتيني صواحي فكنت ينقمعن^(٧) من رسول الله ﷺ ، قالت : فكان رسول الله ﷺ يسرهن إلي^(٨) .

وكان يأذن لها أن تلهو يوم العيد وتنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد ، فقد روي عنها أن أبا بكر ، رضي الله عنه ، دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضريان ، والنبي ﷺ متعش بثوبه ، فانتهرها أبو بكر ، فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال : « دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عبيد » . وتلك الأيام أيام منى ، وقالت عائشة : رأيت النبي ﷺ يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد ، فزجرهم عمر ، فقال النبي ﷺ : « دعهم ، أمنا بني أرفدة » يعني من الأمن^(٩) .

وعنها أيضاً قالت : خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبذن ، فقال للناس : « تقدّموا » ، فتقدّموا ، ثم قال لي : « تعالي حتى أسألك » ، فسأبته ، فسبته ، فسكت عني ، حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه

(١) الطائر : الحظ ، والمراد هنا على خير حظ ونصيب (فتح الباري : ج ٨/٢٢٤) .

(٢) لم يرعني : أي لم أشعر ، كأنه فجأها بغتة من غير موعد ، فراعها ذلك وأفرغها ، من الروع : الفزع (النهاية : ج ٢/٢٧٨) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٠/٥) كتاب المناقب - باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدموها المدينة ، وصحيح مسلم (ج ١٠٣٩/٢) كتاب النكاح - باب تزويج الأب البكر الصغيرة ح ٧١ .

(٤) الجزور : البعير ذكرًا كان أو أنثى ، والجمع جزر وجزائر (النهاية : ج ٢/٢٦٦) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢١١/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١/٦٢٨) .

(٦) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٤٢٨/٦ ، ٤٥٨) .

(٧) يتقيمن : أي يتعيبن ويدخلن في البيت أو من وراء ستر (النهاية : ج ١/١٠٩) .

(٨) أي : يتبعهن ويؤسهن إلي . (النهاية : ج ٢/٣٥٦) . والخبر في صحيح مسلم (ج ١٨٩٠/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها ح ٨١ .

(٩) صحيح البخاري (ج ٢٩٦/٢) كتاب العيدين - باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين ..

في بعض أسفاره ، فقال للنَّاس : « تَقَدَّمُوا » ، فتقدَّموا ، ثم قال : « تَعَالَى حَتَّى أَسَابِقَكَ » ، فسابقته ، فسبقني ، فجعل يضحك وهو يقول : « هَذِهِ بَيْتَكَ » (١) .

وكانت عائشة ، رضي الله عنها ، تكنى بأُمِّ عبد الله ، بابن أختها عبد الله بن الزَّبير ، روي عنها أنها قالت : يا رسول الله ! كلَّ صواحي لمن كُنِّي ، قال : « فَأَكْتَنِي بِإِنِّكَ عَبْدُ اللَّهِ » (٢) .

- مكانة عائشة رضي الله عنها وبعض فضائلها :

كانت عائشة ، رضي الله عنها ، أحبَّ نساء النبي ﷺ إليه ، فعن أنس ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ سئل : مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ قال : « عَائِشَةُ » ، فقيل : لانعني أهلك ، قال : « فَأَبُو بَكْرٍ » (٣) .

وكان سيدنا عمر ، رضي الله عنه ، يعطي أمهات المؤمنين عشرة آلاف عشرة آلاف ، ويزيد لعائشة في العطاء ويقول : أفضلها لحبِّ رسول الله ﷺ إياها (٤) .

وروي عن عامر الشعبي قال : أتاني رجل فقال لي : كلَّ أمهات المؤمنين أحبَّ إليَّ من عائشة ، قلت : أمَّا أنت فقد خالفت رسول الله ﷺ ، كانت عائشة أحبَّهنَّ إلى رسول الله ﷺ (٥) .

وقد كانت عائشة ، رضي الله عنها ، من أكبر النَّاس عقلاً ، وأفقههم ، وأفصحهم كلاماً ، وأعلمهم بالحلال والحرام والشَّعر والطَّبِّ ، ومن أحفظ أهل زمانها لحديث النبي ﷺ (٦) .

روي عن الزَّهري قال : لو جُمع عِلْم النَّاس كُلِّهِمْ ثُمَّ عِلْمُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لَكَانَتْ عَائِشَةُ أَوْسَعَهُمْ عِلْمًا (٧) .

وعن أبي موسى ، رضي الله عنه ، قال : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قطَّ فسألنا عائشة إلاَّ وجدنا عندها فيه علماً (٨) .

وعن القاسم بن مَحْدٍ عن عائشة قالت : فضَّلت على نساء النبي ﷺ بعشر ، قيل : ما هنَّ يا أمَّ المؤمنين ؟ قالت : لم ينكح بكراً قطَّ غيبي ، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيبي ، وأنزل الله ، عزَّ وجلَّ ، براءتي من السَّماء ، وجاءه جبريل بصورتي من السَّماء في حريرة وقال : تزوجها فإنها امرأتك ، فكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد ، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيبي ، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه ، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيبي ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي ، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيبي ، وقبض الله نفسه وهو بين سَحْرِي ونَحْرِي (٩) ، ومات في الليلة التي كان يدور عليَّ فيها ، ودُفِنَ في بيتي (١٠) .

وكانت مدة مقامه معها عليه الصلاة والسلام تسع سنين ، ومات عنها ولها ثمان عشرة سنة (١١) ، وتوفيت ، رضي الله عنها ، سنة

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٢٦٤/٦) .

(٢) سنن أبي داود (ج ٢٥٢/٥) كتاب الأدب - باب في المرأة تكنى ح ٤٩٧٠ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٢/٤) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وله إسناده صحيح على شرطهما وبه يعرف ، وقال الذهبي : غريب جداً .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٨/٤) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لإرسال مطرف بن طريف إياه .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٢/٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٤٢/٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

(٦) انظر : للمستدرک (ج ١١/٤ ، ١٤) .

(٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١١/٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٤٢/٩) وقال : رواه الطبراني مرسلًا ورجاله ثقات .

(٨) رواه الترمذي في سننه (ج ٧٠٥/٥) كتاب المناقب - باب فضل عائشة رضي الله عنها ح ٢٨٨٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٩) السَّحْرُ : الرَّقَّةُ ، والنَّحْرُ : الصَّدْرُ ، أي أنه مات وهو مُسْتَنِدٌ إِلَى صَدْرِهَا وَمَا يَحَاطِي سَحْرَهَا مِثْلَهُ . (لسان العرب : ج ١٩٥٤/٣ ، ج ٤٣٦٤/٦) .

(١٠) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٢/٨) ، والمستدرک (ج ١٠/٤) .

(١١) انظر : صحيح مسلم (ج ١٠٣٩/٢) كتاب النكاح - باب تزويج الأب البكر الصغيرة ح ٧١ .

سبع وخمسين للمهجرة ليلة الثلاثاء بعد صلاة الوتر ، ودُفنت من ليلتها بالبقيع لخمس عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وصلى عليها أبو هريرة زمن خلافة معاوية رضي الله عنها ، ودخل في قبرها عبد الله وعروة ابنا محمد بن أبي بكر وكانت ، رضي الله عنها ، تُحدّث نفسها أن تدفن في بيتها مع رسول الله ﷺ وأبي بكر ، رضي الله عنه ، فقالت : إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ حَدَثًا ، ادفنوني مع أزواجه ، فدُفنت بالبقيع (١) .

معاذة المهاجرين من حَمَى المدينة :

كانت المدينة في الجاهلية معروفة بالوباء ، وكان واديا بَطْحَان يجري نَجْلًا (٢) ، فلما قدمها المسلمون وأكلوا من ثمارها أصابت الحمى كثيرا منهم ، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيّه ﷺ .

واجْتَنَوِي المهاجرون المدينة (٣) ، ولم يوافق هواؤها أبدانهم ، وجهدوا حتى كانوا ما يصلون إلا وهم قعود ، ثم أخذت تستيقظ فرائز الحنين إلى الوطن المفقود ، فكان رسول الله ﷺ يصبرهم على احتمال الشدائد ويطلبهم بالمزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام ، روي أنه رآهم يوما وهم يصلون من قعود فقال لهم : « اَعْلَمُوا أَنَّ صَلَاةَ الْقَاعِدِ عَلَى النَّصْفِ مِنْ صَلَاةِ الْقَائِمِ » ، فتجشّم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل (٤) .

كما كان رسول الله ﷺ يسعى إلى جمع قلوبهم على المهجر الجديد حتى تطيب به وتنفر من سادته ، فكان يقول : « الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، لَا يَدْعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبَدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَلَا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لِأَوَائِهَا وَجْهَهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥) .

قالت عائشة ، رضي الله عنها ، لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وستم ، فكان أبو بكر وعامر بن قُهَيْرَةَ وبلال مؤليا أبي بكر في بيت واحد ، فأصابتهم الحمى ، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فأذن لي ، فدخلت عليهم ، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوَعَكِ ، فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كلّ امرئ مُصَبِّحٌ في أهله والموت أدنى من شرارك نعلنه

قالت عائشة : فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول ، قالت : ثم دنوت إلى عامر بن قُهَيْرَةَ فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟

فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه كل امرئ مجاهد بطوقه (٦)
إن الجبان حَتَفَه من فوقه كالثور يحمي جلده بروقه (٧)

(١) انظر : للمستدرک (ج ٤/٤ ، ٦) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٢٨/٩) .

(٢) النَجْلُ : هو الماء القليل (النهاية : ج ٢٣/٥) .

(٣) أي : أصابهم الجوى ، وهو المرضُ وداءُ الجوفِ إذا تطاول ، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها . ويقال : اجْتَنَوِي البلد إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة (النهاية : ج ٢١٨/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٧٥/٦) .

(٥) صحيح مسلم (ج ٩٩٢/٢) كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة ح ٤٥٩ . والأولاء : الشدة وضيق المعيشة (النهاية : ج ٢٢١/٤) .

(٦) أي أقصى غايته ، والطوق : اسمٌ لقيطار ما يمكن أن يُفَعَّلَ بِشَقَّةٍ مِنْهُ (النهاية : ج ١٤٤/٣) .

(٧) الرُّوقُ : القرن (النهاية : ج ٢٧٩/٢) .

قالت : فقلت : والله ما يدري عامر ما يقول ، قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع ببناء البيت ثم رفع عقيرته^(١) فقال :

ألا ليت شعري هـل آيتن لي ليلة
وهل أردن يوماً مياه مجننة^(٤) بفح^(٢) وحوالي إذخر وجليل^(٣)
وهل يبدو لي شامة وطفيل^(٥)

اللهم العن شئبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأميمة بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء .

قالت عائشة : فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم فقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ! حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، اللهم ! بارك لنا في مدها وصاعها ، وصححها لنا ، وأنقل وباءها إلى مهيعة » وهي الجحفة . قالت عائشة : فكان المولود يولد بالجحفة فما يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى^(٦) .

وقد روي عنه ﷺ قال : « رأيت امرأة سوداء نائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة ، فأولت أن وباء المدينة نقل إليها »^(٧) .

وروي عن جابر ، رضي الله عنه ، قال : استأذنت الحمى على النبي ﷺ ، فقال : « من هذه ؟ » قالت : أم ملدم ، قال : فأمر بها إلى أهل قباء ، فلقوا منها ما يعلم الله ، فأتوه فشكوا ذلك إليه ، فقال : « ماشئتم ، إن شئتم أن أدعو الله لكم فيكشفها عنكم ، وإن شئتم أن تكون لكم طهوراً » ، قالوا : يا رسول الله ! أو تفعل ؟ قال : « نعم » ، قالوا : فدعها^(٨) .

ثم دعا النبي ﷺ للمدينة فقال : « اللهم ! اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة »^(٩) .

وعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « اللهم ! إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً ، وإنني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها^(١٠) ، أن لا يهراق فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف . اللهم ! بارك لنا في مدينتنا ، اللهم ! بارك لنا في صاعنا ، اللهم ! بارك لنا في مدنا ، اللهم ! بارك لنا في مدينتنا ، اللهم ! اجعل مع البركة بركتين . والذي نفسي بيده ! ما من المدينة شعب ولا نقب^(١١) إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها »^(١٢) .

(١) رفع عقيرته : صوته (النهاية : ج ٢٧٥/٣) .

(٢) فح : واد بمكة (معجم البلدان : ج ٢٤١/٦) .

(٣) الإذخر : خشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الحشيب . والجليل : الشام (النهاية : ج ٢٣٢/١ ، ٢٨٩) .

(٤) مجننة : اسم سوق للعرب كان في الجاهلية (معجم البلدان : ج ٣٩٠/٧) .

(٥) قال ابن هشام : شامة وطفيل : جبلان بمكة (سيرة ابن هشام : ج ٢٢١/٢) ، وقيل : هما عينان من ماء قد يكونان بقرب الجبلين المذكورين (السيرة الحلبية : ج ٨٤/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢١/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢٩٣) أبواب المحصر وجزاء الصيد - باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٦٠/٦) .

(٧) صحيح البخاري (ج ٥٣/٩) كتاب التعبير - باب إذا رأى أنه أخرج الشيء من كورة فأسكنه موضعاً آخر .

(٨) مسند الإمام أحمد (ج ٣١٦/٣) .

(٩) صحيح البخاري (ج ٢٩٣) أبواب المحصر وجزاء الصيد .

(١٠) المأزم : المضيق في الجبال حتى يلتقي بعضها ببعض ويتسع ما وراءه (لسان العرب : ج ٧٤/١) .

(١١) النقب : هو الطريق بين الجبلين والجمع أنقاب . انظر : (النهاية : ج ١٠٢/٥) .

(١٢) صحيح مسلم (ج ١٠٠١/٢) كتاب الحج - باب الترغيب في سكنى المدينة والصرع على لأوائها ح ٤٧٥ .

وجاء عنه عليه السلام في فضل المدينة : « عَلَى أَتْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ ، لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا الدَّجَالُ » (١) .
 وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرِزُ (٢) إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا » (٣) .
 وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الْمَدِينَةُ قُبَّةُ الْإِسْلَامِ ، وَدَارُ الْإِيمَانِ ، وَأَرْضُ الْمُهَاجِرَةِ ، وَمَبْوَأُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ » (٤) .
 قال الشيخ محمد الغزالي : بهذا التشويق والإقبال ارتفع الروح المعنوي بين المساميين ، واتجهت القوى الفتية إلى البناء ، متناسية الماضي وما يضم من ذكريات . إن الهجرة الخالصة لا تعود في هبة ، ولا ترجع عن تضحية ، ولا تبكي على فائت ، بل هي كما قال الشاعر :
 إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكـد إليه بوجه آخر السدهر تقبل (٥)

☆ ☆ ☆

-
- (١) صحيح البخاري (ج ٢٨/٣) أبواب المحصر وجزاء الصيد - باب لا يدخل الدجال المدينة .
 (٢) يَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ : أَي يَنْضَمُّ وَيَجْتَمِعُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ فِيهَا (النهاية : ج ٣٧/١) .
 (٣) صحيح البخاري (ج ٢١/٣) أبواب المحصر وجزاء الصيد - باب الإيمان يأرز إلى المدينة .
 (٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٩٨/٣) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه عيسى بن مينا قالون وحديثه حسن ، وبقيته رجاله ثقات .
 (٥) فقه السيرة / للشيخ محمد الغزالي (ص : ١٨٥) .

أسس المجتمع الجديد

ذكرنا أنه منذ أن استقر النبي ﷺ في المدينة بدأ دور جديد من حياته ﷺ في الدعوة إلى الله ، وإرساء أسس الدولة الإسلامية ، التي لا بد منها لحماية الإسلام والمسلمين .

ولقد تمثلت هذه الأسس بالأمور التالية :

- ١ - بناء المسجد .
- ٢ - عقد المؤاخاة بين المسلمين .
- ٣ - كتابة الصحيفة التي تحدد نظام حياة المسلمين فيما بينهم ، وعلاقتهم مع غيرهم بصورة عامة واليهود بصورة خاصة .

أولاً : بناء المسجد :

ولقد كان بناء المسجد أول عمل قام به رسول الله ﷺ بعد نزوله في دار أبي أيوب رضي الله عنه . وقد ذكرنا فيما مضى أن ناقته ﷺ بركت في مَرَبِدٍ لسهل وسَهَيْلِ ابني عمرو ، غلامين يتيمين من بني مالك بن النجار ، يكفلهما أسعد بن زُرارة أو معاذ بن عفراء رضي الله عنهما^(١) .

وكان أسعد بن زُرارة ، رضي الله عنه ، قد بنى حول المَرَبِدِ جداراً دوغماً سقفاً ، وأتخذَه مصلًى قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة ، فكان يصلي بأصحابه الصلوات الخمس ويجمع بهم فيه كما سبق أن ذكرنا^(٢) .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يبني المسجد دعا الغلامين فساومهما بالمَرَبِدِ ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله - وفي رواية : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله - فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منها بعشرة دنانير أذاها من مال أبي بكر رضي الله عنه ، ثم أمر ﷺ ببناء المسجد في ذلك الموضع ، وكان يصلي قبل ذلك حيث أدركته الصلاة ويصلي في مَرَبِضٍ^(٣) الغنم^(٤) .

وقد كان في ذلك المَرَبِدِ نخل وشجر عَرَقْدٍ^(٥) ، وماء مُسْتَنْجِلٍ^(٦) ، وكانت فيه خِرْبٌ وقبور قديمة للمشركين ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَتْ ، وبالخِرْبِ فسُوِّيت ، وبالماء فصرف ، وبالنخل والشجر فقطع وُصِفَ في قبلة المسجد ، وكانت

- (١) الراجح أنها كانا في كفالة أسعد بن زُرارة ، رضي الله عنه ، كما في رواية البخاري وغيره ، وفي رواية ابن إسحاق أنها كانا في كفالة معاذ بن عفراء . انظر : صحيح البخاري (ج ٧٨/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وسيرة ابن هشام (ج ١١٢/٢) .
- (٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٠٩/٣) .
- (٣) المَرَبِضُ : جمع مَرَبِضٍ وهو مأوى العنم وغيرها من الدواب (لسان العرب : ج ١٥٦٠/٢) .
- (٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٢/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٧٨/٥ ، ٨٦) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ .. ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣٩/١) ، وفتوح البلدان (ص : ٢٠) .
- (٥) العَرَقْدُ : هو ضَرْبٌ من شَجَرِ العِضَاهِ وشَجَرِ الشُّوكِ ، واحِدَتُه : العَرَقْدَةُ (النهاية : ج ٢٦٢/٣) .
- (٦) ماءٌ مُسْتَنْجِلٌ : هو الماءُ المُسْتَنْجِعُ (لسان العرب : ج ٤٣٥٦/٦) .

القبلة إلى بيت المقدس يومئذ . ثم بُني المسجد ، فجعل مربع الشكل ، طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو أقل ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بُني باللبن ، وجعلت عِضادته من حجارة ، وطول جداره قامه (١) .

وكان رسول الله ﷺ يساهم في البناء بنفسه جنباً إلى جنب مع أصحابه ، فكان ينقل اللبن والحجارة حتى اغتر صدره الشريف وهو يقول :

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْرٌ (٢) هَذَا أَبْرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ

وكان يقول أيضاً :

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

ولما رأى الصحابة نبيهم ﷺ يعمل معهم ويجهد كأحدهم دأبوا في العمل حتى قال قائلهم :

لَنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيَّ يَعْمَلُ لِنَاكَ مِنَ الْعَمَلِ الْمُضَلَّلِ

وتضاعف نشاطهم وراحوا يقولون وهم يعملون :

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

فيجيبهم الرسول ﷺ : « لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ » (٣) .

وجعل يحمل كل رجل لبنة لبنة وعمار بن ياسر ، رضي الله عنهما ، يحمل لبنتين لبنتين ، وكان رجلاً ضابطاً (٤) ، فراه رسول الله ﷺ فنفض التراب عن رأسه وقال : « يَا ابْنَ سَمِيَّةِ ! لِلنَّاسِ أَجْرٌ وَلَكَ أَجْرَانِ ، وَأَخْرَجُ زَادَكَ شُرْبَةً مِنْ لَبَنٍ ، وَتَقْتَلُكَ الْفَيْسَةُ الْبَاغِيَّةُ ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَكَ إِلَى النَّارِ » (٥) ، وعمار يقول : أعوذ بالله من الفتن .

وكان عثمان بن مظعون ، رضي الله عنه ، رجلاً منتظماً ، فكان إذا حمل اللبنة يجافي بها عن ثوبه لئلا يصيبه التراب ، فإن أصابه شيء من التراب نفضه ، فنظر إليه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وأشد يقول مباسطة مع عثمان بن مظعون ، رضي الله عنه ، لاطعناً فيه :

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَغْمُرُ الْمَسَاجِدَ يَدَابُ فِيهَا قَائِماً وَقَاعِداً

وَمَنْ يَرَى عَنِ الْغُبَارِ حَائِداً

فسمع ذلك الرجز عمار بن ياسر ، رضي الله عنهما ، فصار يرتجز به وهو لا يدري من يعني بذلك ، فلما أكثر ظن عثمان أن عمّاراً يُعرض به ، فقال له : قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ، والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك ، لعصا كانت في يده ، فسمعه رسول الله ﷺ فغضب وقال : « إِنَّ عَمَّاراً جِلْدَةٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْ وَأَنْفِي ، فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الرَّجُلِ فَلَمْ يَسْتَبِقْ فَاجْتَنَبُوهُ » (٦) .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٨٦/٥) باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣٩/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٦٦/٢) .

(٢) هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْرٍ : الْحِمَالُ بِالْكَسْرِ مِنَ الْحَمَلِ ، وَالَّذِي يُحْمَلُ مِنْ خَيْرِ التَّمْرِ ، أَيْ إِنَّ هَذَا فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ وَأَحْمَدُ عَاقِبَةً ، كَأَنَّهُ جَمْعُ حِمْلٍ أَوْ حَمَلٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ حَمَلٍ أَوْ حَامِلٍ (النِّهَايَةُ : ج ٤٤٢/١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٧٨/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٤) الضَّابِطُ : الشَّدِيدُ الْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ وَالْجِسْمِ (لِسَانُ الْعَرَبِ : ج ٢٥٤٩/٤) .

(٥) يشير النبي ﷺ إلى ما وقع بعد ذلك يوم صفين عندما دعاهم عمّار ، رضي الله عنه ، إلى اتباع علي ، رضي الله عنه ، وطاعته وهو الإمام الواجب طاعته إذ ذلك ، ويدعونه إلى عدم طاعته .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٢/١) كتاب الصلاة - باب التعاون في بناء المسجد ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٥٠/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٧١/٢) .

وفي رواية : أن عماراً قال : يا رسول الله ! قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون ، فأخذ رسول الله ﷺ بيده وجعل ينفّض وَفَرْتَهُ^(١) من التراب ، وكان رجلاً جعداً ، وهو يقول : « وَيْحَ (٢) ابنِ سَمِيّة ! لَيْسُوا بِالَّذِينَ يَقْتُلُونَكَ ، إِنَّمَا تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ »^(٣) .

وخلال سبعة أشهر أو أكثر تم بناء المسجد النبوي الشريف في أبسط صورة ، فراشه الرمال والحصاء ، وأعمدته الجذوع ، وسقفه الجريد^(٤) ، فقيل للنبي ﷺ : أَلَا تَسْقِفُهُ ؟ فقال : « عَرِيشٌ كَعَرِيشِ مُوسَى ، خُشْيِيَّاتٌ وَثِيَامٌ^(٥) ، الشَّأْنُ أُعْجِلَ مِنْ ذَلِكَ » ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، باب في مؤخره ، وباب يقال له باب الرّحمة ، وهو الباب الذي يدعى باب عاتكة ، والباب الثالث الذي يدخل منه رسول الله ﷺ ، وهو الباب الذي يلي آل عثمان ، وهو الذي يقال له باب جبريل .

وَبُنِيَ إلى جانب المسجد عدد من الحجرات باللّين ، وسقفت هي الأخرى بمجذوع النّخل والجريد ، لسكنى رسول الله ﷺ وأهله ، فجعل عائشة ، رضي الله عنها ، في البيت الذي بابه شانع إلى المسجد ، وجعل سوّدة بنت زُمعة ، رضي الله عنها ، في البيت الآخر الذي يليه إلى الباب الذي يلي آل عثمان^(٦) . (انظر : مخطط موقع الحجرات الشريفة من المسجد) .

وقد ظلّ مسجد رسول الله ﷺ على الشكل الذي بناه دون أي زيادة أو تغيير فيه ، حتى كثرت الناس وضاق المسجد بأهله ، فأدخل فيه رسول الله ﷺ الأرض التي اشتراها عثمان بن عفّان ، رضي الله عنه ، بعشرة آلاف درهم^(٧) .

وظلّ المسجد كذلك مدة خلافة أبي بكر ، رضي الله عنه ، ثم استخلف عمر ، رضي الله عنه ، فوسّعه ، وكلم العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، في بيع داره ليزيدها فيه ، فوهبها العباس لله وللمسلمين ، فزادها عمر في المسجد ، ولكنه بناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللّين والجريد ، وأعاد عمده خشباً . ثم غيّره عثمان ، رضي الله عنه ، في خلافته ، فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبني جداره بالحجارة المنقوشة والقصة^(٨) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقّفه بالسّاج^(٩) . (انظر : مخطط المسجد النبوي الشريف والتوسيعات المتتالية) .

ولم يكن المسجد النبوي الشريف موضعاً لأداء الصلوات فحسب ، بل كان مدرسة علمية وتشريعية ، يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومؤسسة اجتماعية يتعلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون التوحيد والإخاء والانضباط ، وجمعاً تلتقي فيه وتصدر منه كافة عمليات الدولة وجزءاً مهماً من نشاطات الجماعة الإسلامية في علاقاتها الداخلية والخارجية على السواء^(١٠) .

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين ، الذين لم يكن لهم دار ولا مال ولا أهل ولا بنون ، وكان رسول الله ﷺ يجالسهم ويأنس بهم ، فإذا جاء وقت العشاء فرقهم على أصحابه ويتعشى معه منهم طائفة ، وكانوا يستمنون أهل الصفة^(١١) .

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن (النهاية : ج ٢١٠/٥) .

(٢) وَيْحَ : كلمة ترخم وتوجع ، تُقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها . (النهاية : ج ٢٣٥/٥) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١١٤/٢) .

(٤) الجريد : جمع جريدة ، وهي السقفة (النهاية : ج ٢٥٧/١) .

(٥) الثيام : ثياب ضعيف قصير لا يطول (النهاية : ج ٢٢٢/١) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٣٩/١ ، ٢٤٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٩/٧) ، والسيرة الحلبية (ج ٧٤/٢) .

(٧) انظر : سنن النسائي (ج ٢٣٥/٦) كتاب الأحباس - باب وقف المساجد .

(٨) القصة : هي الجص بلغة أهل الحجاز ، وقال الخطابي : تشبه الجص وليست به (فتح الباري : ج ٥٤٠/١) .

(٩) السّاج : ضرب من الشجر يظلم جداً ويذهب طويلاً وعرضاً (الوسيط : ج ٤٦٢/١) . وانظر الخبر في صحيح البخاري (ج ١٢٧/١) كتاب الصلاة - باب بنيان المسجد .

(١٠) انظر : دراسة في السيرة / للدكتور عماد الدين خليل (ص : ١٤٩) .

(١١) الصفة : هي المكان المظلل في المسجد الذي كان يأوي إليه أولئك المساكين . انظر : السيرة الحلبية (ج ٨١/٢) ، و (لسان العرب : ج ٢٤٦٢/٤) .

وكان النبي ﷺ يخطب إلى جذع نخلة يُسند ظهره إليه ، فلما كثر الناس قال له أصحابه : لو اتخذت شيئاً تقوم عليه إذا خطبت حتى يراك الناس ، فأمر ببناء المنبر ، وذلك في السنة الثامنة للهجرة ، ويقال في السنة السابعة والقرن الأول أثبت .
فلما صنع له وقام عليه حن ذلك الجذع إليه ، وسَمِعَ له صوت كصوت العِشار^(١) ، حتى أتاه فسح عليه فسكن^(٢) .

روى البخاري بسنده عن أبي حازم بن دينار أن رجلاً أتوا سهل بن سعد الساعدي وقد امتروا في المنبر ممّ عوده ، فسألوه عن ذلك ، فقال : والله إني لأعرف مما هو ، ولقد رأيته أول يوم وضع ، وأول يوم جلس عليه رسول الله ﷺ . أرسل رسول الله ﷺ إلى فلانة امرأة قد سماها سهل : « مري غلامك النجار أن يعمل لي أعواداً أجلسُ عليهن إذا كلمتُ الناس » ، فأمرته فعملها من طرفاء الغابة ، ثم جاء بها ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ ، فأمر بها فوضعت هاهنا ، ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها وكبر وهو عليها ، ثم ركع وهو عليها ، ثم نزل القهقري فسجد في أصل المنبر ، ثم عاد ، فلما فرغ أقبل على الناس ، فقال : « أيها الناس إننا صنعنا هذا لتأتوا ولتعلموا صلاتي »^(٣) .

وروى بسنده عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ! ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ، فإن لي غلاماً نجاراً ؟ قال : « إن شئت » ، قال : فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع ، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق ، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه ، فجعلت تنن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت ، قال : بكت على ما كانت تسمع من الذكر^(٤) .

وعن أنس عن مالك ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة فيسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد فيخطب الناس ، فجاء رومي ، فقال : ألا أصنع لك شيئاً تقعد عليه وكأنك قائم ؟ فصنع له منبراً ، له درجتان ويقعد على الثالثة ، فلما قعد نبي الله ﷺ على ذلك المنبر خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد ، حزناً على رسول الله ﷺ ، فنزل إليه رسول الله ﷺ من المنبر فالتزمه وهو يتنور ، فلما التزمه رسول الله ﷺ سكن ، ثم قال : « أما والذي نفسي مضمّد بيده لو لم ألتزمه لَمَا زال هكذا إلى يوم القيامة حزناً على رسول الله ﷺ » ، فأمر به رسول الله ﷺ فذفن^(٥) .

وفي رواية أخرى عنه أنه كان يخطب إلى خشبة ، فلما تحول إلى المنبر حنت إليه الخشبة حنين الواله^(٦) ، قال أنس : وأنا في المسجد أسمع ذلك ، قال : فوالله ما زالت تنن حتى نزل النبي ﷺ من المنبر فشئ إليها فاحتضنها فسكنت . فبكي الحسن وقال : يامعشر المسلمين ! الخشبة تنن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه ، أفليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه^(٧) ؟
وقد جاء في فضل المنبر أحاديث كثيرة ، منها ما روتته أم سلمة ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال : « إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة »^(٨) .

- (١) العِشار : جمع عشاء ، وهي الناقة التي أتى على حنبلها عشرة أشهر ، ثم أتيب فيه فقبيل لكل حامل عشاء انظر : (النهاية : ج ٢٤٠/٣) .
- (٢) انظر : تاريخ الطبري (ج ٢٢/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٢٣٧/٤) كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام ، ومسنند الإمام أحمد (ج ١٢٨/٥) .
- (٣) صحيح البخاري (ج ١١/٢) كتاب الجمعة - باب الخطبة على المنبر .
- (٤) صحيح البخاري (ج ٨٠/٣) كتاب البيوع - باب النجار .
- (٥) سنن الدارمي (ج ١٩/١) .
- (٦) يقال : رجلٌ ولها ن ووالية : تكلان ، وامرأة ولهى ووالية : شديدة الحزن على ولدها ، وكلُّ أنثى فارقت ولدها فهي وإلة (لسان العرب : ج ٤٩١٧/٦) .
- (٧) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٥٩/٢) .
- (٨) سنن النسائي (ج ٣٦/٢) كتاب المساجد - فضل مسجد النبي ﷺ والصلاة فيه .

وروي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما بين يتي ومُنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي » (١) .

وفي رواية أخرى عنه أنه ﷺ قال : « مِنْبَرِي عَلَى تَرْعَةٍ (٢) مِنْ تَرْعِ الْجَنَّةِ » (٣) .

وعن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَخْلِفُ رَجُلٌ عَلَى يَمِينِ أُمَّةٍ عِنْدَ هَذَا الْمَنْبَرِ إِلَّا تَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ عَلَى سِوَاكِ أُخْضَرَ » (٤) .

وقد كان ابن عمر ، رضي الله عنها ، يضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم يضعها على وجهه ، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد أخذوا برماتة المنبر التي تلي القبر ميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون (٥) .

ثانياً : المؤاخاة بين المسلمين :

أما العمل الثاني الذي قام به النبي ﷺ بعد بنائه المسجد - وقيل بعد قدومه المدينة بخمسة أشهر - فهو عقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وذلك لحل الأزمة المادية التي اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة ، ولتنظيم علاقاتهم الاجتماعية بإخوانهم الأنصار بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية أقوى أثراً من رابطة النسب والوطن (٦) .

وعقدت المؤاخاة - كما جاء في الصحيحين - في دار أنس بن مالك ، رضي الله عنه (٧) ، وكانوا تسعين رجلاً ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، وقيل : كانوا مائة ، فأخى بينهم على الحق والمواصاة ، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام (٨) .
وشدّد الله عقد نبيه ﷺ وأحكه بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (٩) .

قال ابن إسحاق : وأخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال : « تَأَخَّوْا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ » ، ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال : « هَذَا أَخِي » (١٠) .

وكان ممن تأخوا على سبيل المثال : أبو بكر الصديق مع خارجة بن زهير ، عمر بن الخطاب مع عثمان بن مالك ، أبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ ، عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع ، الزبير بن العوام مع سلمة بن سلامة ، عثمان بن عفان مع أوس بن ثابت ، طلحة بن عبيد الله مع كعب بن مالك ، سعيد بن زيد مع أبي بن كعب ، مصعب بن عمير مع أبي أيوب خالد بن زيد ، عبد الله بن مسعود مع معاذ بن جبل ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مع عباد بن بشر ، عمار بن ياسر مع حذيفة بن اليمان ، أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة مع المنذر بن عمرو ، حاطب بن أبي بلتعة مع عويم بن ساعدة ، سلمان الفارسي مع أبي الدرداء عويمر بن

(١) صحيح البخاري (ج ٧٧/٢) باب فضل ما بين القبر والمنبر .

(٢) التَّرْعَةُ فِي الْأَصْلِ : الرُّوْضَةُ عَلَى الْمَكَانِ الْمُرْتَفِعِ خَاصَّةً ، قَالَ الْقُتَيْبِيُّ : مَعْنَا أَنْ الصَّلَاةَ وَالذَّكْرَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يُؤَدِّيَانِ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَكَأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنْهَا (النهاية : ج ١٨٧/١) .

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ٤٠١/٢) .

(٤) طبقات ابن سعد (ج ٢٥٤/١) .

(٦) انظر : (عيون الأثر : ج ٢٠٠/١) ، والدرر في اختصار المغازي والسير (ص : ٨٢) ، ودراسة في السيرة / للدكتور عماد الدين خليل (ص : ١٥٢) .

(٧) صحيح البخاري (ج ١٣٠/٩) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب ما ذكر النبي ﷺ ..

(٨) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٣٨/١) .

(٩) الأنفال : ٧٢ - ٧٤ .

(١٠) سيرة ابن هشام (ج ١٢٣/٢) .

ثعلبة ، بلال الحبشي مع أبي رُوَيْحَةَ عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ، عَثْبَةُ بن عَزْرَوَان مع أبي دُجَانَةَ ، أبو سَلْمَةَ عبد الله بن عبد الأسد مع سعد بن خَيْثَمَةَ ، زيد بن حارثة مع أُسَيْدِ بن الحَضِيرِ ، عبد الله بن جحش مع عاصم بن ثابت رضي الله عنهم (١) .

وقد قيل إن رسول الله ﷺ كان أخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحقِّ والمواساة أيضاً ، فأخى بين أبي بكر وعمر ، وبين حمزة عمه وزيد بن حارثة ، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود ، وبين عُبَيْدَةَ بن الحارث وبلال ، وبين مُصْعَبِ بن عَمَيْرٍ وسعد بن أبي وقاص ، وبين أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح وسالم مولى أبي حَذَيْفَةَ ، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عُبَيْدِة الله ، وهكذا بين كل اثنين منهم ، وأتخذ علياً أخاً لنفسه (٢) .

وأكثر ابن القيم هذه المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم ، وبين المصطفى ﷺ وعلي رضي الله عنه ، لأنهم كانوا مستغنين بأخوة الإسلام ، وأخوة الدار ، وقرابة النسب ، عن عقد مؤاخاة ، بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو أخى بين المهاجرين كان أحق الناس بأخوته أحب الناس إليه ورفيقه في الهجرة وأنيسه في الغار وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه (٣) . يضاف إلى ذلك أن الأحاديث الواردة في هذه المؤاخاة لا تخلو من علةٍ تقدرح في صحتها ، ولذلك أنكرها كثير من العلماء (٤) .

وكما قامت المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار على أسس متينة ترتبط بالدماء والأموال ، فقد كانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه المؤاخاة ، وتتلأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال .

حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة ، ويذكر أنه لما تحول رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف في قباء إلى المدينة تحول أصحابه من المهاجرين ، فتنافس فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان ، فما نزل أحد من المهاجرين على أحد من الأنصار إلا بقرعة بينهم . كما أعلن الأنصار أنهم يهبون رسول الله ﷺ كل فضل في خطط بلدهم وقالوا له : إن شئت فخذ منازلنا ، فقال لهم خيراً ، وخط لأصحابه في كل أرض ليست لأحد أو موهوبة من الأنصار (٥) .

روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقيم بيننا وبين إخواننا النخيل ، قال : « لا » ، فقالوا : تكفونا المؤنة ونشركم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا (٦) .

وقدر المهاجرون إيثار إخوانهم وبنهم الخالص فما استغلوه ولا نالوا منه إلا بقدر ، فقد رفضوا منذ البدء أن يكونوا اتكاليين على إخوانهم وعالة على أولئك الذين آوهم وقاسموهم .

روى البخاري بسنده عن عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، قال : لما قدمنا المدينة أخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد بن الربيع : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقيم لك نصف مالي ، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلّت تزوجتها ، قال : فقال عبد الرحمن : لا حاجة لي في ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟ قال : سوق قَيْنَقَاع ، قال : فغدا إليه عبد الرحمن فأتي بأقط وسمن ، قال : ثم تابع الغدو ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة ، فقال رسول الله ﷺ : « تزوجت ؟ » قال : نعم ، قال : « ومن ؟ » قال : امرأة من الأنصار ، قال : « كم سقت ؟ » قال : زينة نواة من ذهب ، أو نواة من ذهب ، فقال له النبي ﷺ : « أولم ولو بشاة » (٧) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٨٢/٣) ، والدرر (ص : ٨٢ - ٨٤) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٤) ، والمستدرک (ج ١٤٢/٣) ، والدرر (ص : ٨٦) .

(٣) انظر : زاد المعاد (ج ٦٤/٣) .

(٤) انظر على سبيل المثال من تلك الأحاديث ماورد في المستدرک (ج ١٤٢/٣) ، وجمع الزوائد (ج ١١١/٩) .

(٥) انظر : السيرة الحلبية (ج ٦٤/٢ ، ٨٤) ، وصحيح البخاري (ج ٨٥/٥) كتاب المناقب - باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة .

(٦) صحيح البخاري (ج ٢٤٩/٣) كتاب الشروط - باب الشروط في المعاملة .

(٧) صحيح البخاري (ج ٦٨/٣) كتاب البيوع - باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ إذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ .

وعن أس ، رضي الله عنه ، قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا : يا رسول الله ! ما رأينا قوماً أبذل من كثير ، ولا أحسن مواساة من قليل ، من قوم نزلنا بين أظهرهم ، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنة^(١) ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله ، فقال النبي ﷺ : « لا ، مادَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ »^(٢) .

وعن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : لقد رأيتنا وما الرجل المسلم بأحقّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم^(٣) .

لقد كان الإخاء سياسة صائبة حكيمة ، وحلاً للأزمة المادية التي كان يواجهها المهاجرون ، ضرب رسول الله ﷺ فيه مثلاً على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظروف المناسب على أشد العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلاً كما قال الدكتور عماد الدين خليل^(٤) .

وقد ظلّت عقود الإخاء بين المهاجرين والأنصار مقدمة على حقوق القرابة في التوارث إلى موقعة بدر ، التي حظي فيها المسلمون بنصيب لا بأس به من الغنائم والأموال ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(٥) ، فعاد التوارث إلى سيرته الأولى ، ورجع كل إنسان في ذلك إلى نسبه وذوي رحمة^(٦) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة ، يرث المهاجر الأنصاري ، دون ذوي رحمة للأخوة التي أخى النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي ﴾^(٧) نسخت ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ فَأَتَوْهُم نَصِيْبَهُمْ ﴾ من النصر والرّفاة^(٨) والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ، ويوصي له^(٩) .

ثالثاً : كتابة الصحيفة بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود :

أما العمل الثالث الذي قام به رسول الله ﷺ في المدينة فهو كتابة الصحيفة ، التي هي بمثابة الدستور الذي ينظم شؤون المسلمين أنفسهم ، ويمجد علاقاتهم مع غيرهم وبخاصة اليهود . وقد جاء في هذه الصحيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم^(١٠) ، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » ، وذكر بني ساعدة ، وبني الحارث ، وبني جشم ، وبني النجار ، وبني عمرو بن عوف ، وبني النبيت ، وبني الأوس وقال فيهم مثل ما قال في المهاجرين وبني عوف ، ثم قال :

(١) قيل : لما قدم المهاجرون أثرهم الأنصار بمناخ من أشجارهم ، فمنهم من قبلها منيحة محضة ، ومنهم من قبلها بشرط أن يعمل في الشجر والأرض وله نصف الثمار ، ولم تطيب نفسه أن يقبلها منيحة محضة . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي : (ج ١٢ / ٩٩) .

(٢) رواه الترمذي في سننه (ج ٤ / ٦٥٢) كتاب صفة القيامة - باب ٤٤ / ٢٤٨٧ وقال : هذا حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه .

(٣) عيون الأثر (ج ١ / ٢٠٠) .

(٤) في كتابه : دراسة في السيرة (ص : ١٥٤) .

(٥) الأنفال : ٧٥ .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١ / ٢٢٨) .

(٧) النساء : ٣٣ .

(٨) الرّفاة : الإغاة (النهاية : ج ٢ / ١٢٢) .

(٩) صحيح البخاري (ج ٦ / ٥٥) كتاب التفسير - سورة النساء .

(١٠) على ربعتهم يتعاقلون بينهم : أي على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء التي كانت في الجاهلية ، يُؤدونها كما كانوا يُؤدونها في الجاهلية ،

انظر : (لسان العرب : ج ٤ / ٣٠٤٨) .

« وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل . ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم^(٢) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيدهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . وإن ذمة الله واحدة ، يُجير عليهم أديانهم^(٣) . وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

وإن سلّم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يُبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله^(٤) . وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن . وإنه من اعتبَط مؤمناً قتلاً عن بيّنة فإنه قود به^(٥) ، إلا أن يرضى وليّ المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه . وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحديثاً ولا يُؤويه^(٦) ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وإنكم مها اختلقتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله ، عزّ وجلّ ، وإلى محمد ﷺ .

وقد وادع النبي ﷺ في هذه الصحيفة اليهود ، وعاهدكم وأقرهم على دينهم وأمنهم على أنفسهم ، وأمواهم ، ومنع المسلمين من التجاوز والتطاول عليهم ، وشرط لهم شروطاً ، واشترط عليهم ، وطلب إلى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها ، ماداموا موفين بالوعد وبالعهد^(٧) . وهذا نص الصحيفة :

« وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا مُحاربين^(٨) . وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ،

(١) المُفْرَحُ : المُتَقَلُّ مِنَ الدَّيْنِ وَالكَثِيرُ الْعِيَالِ فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ .

(٢) ابْتَغَى دَسِيعةً ظَلَمَ : الدُّسْعُ : الدُّفْعُ ، والدَّسِيعةُ : العَطِيَّةُ ، ومعنى ابْتَغَى دَسِيعةً ظَلَمَ : أَي طَلَبَ دَفْعاً عَلَى سَبِيلِ الظُّلْمِ ، فَأَضَافَهُ إِلَيْهِ ، وَهِيَ إِضَافَةٌ بِمَعْنَى مِثْلِ ، وَبِجَوَازِ أَنْ يُرَادَ بِالدَّسِيعةِ العَطِيَّةُ ، أَي ابْتَغَى مِنْهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَطِيَّةً عَلَى وَجْهِ ظُلْمِهِمْ ، أَي كَوْنِهِمْ مَظْلُومِينَ ، وَأَضَافَهَا إِلَى ظُلْمِهِ لِأَنَّهُ سَبَبٌ دَفَعَهُمْ لَهَا (النِّهَايَةُ : ج ١١٧/٢) فَالْمُرَادُ مَا يَتَنَالُ مِنْهُمْ مِنْ ظُلْمٍ .

(٣) يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْيَانَهُمْ : أَي إِذَا أَحَارَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - حُرّاً أَوْ عَبْدًا أَوْ أُمَّةً - وَاحِدًا أَوْ جَمَاعَةً مِنَ الْكُفَّارِ وَخَفَرَهُمْ وَأَمَّنَّهُمْ جَزَأَ ذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، لَا يَنْقُصُ عَلَيْهِ جَوَازُهُ وَأَمَانَتُهُ (النِّهَايَةُ : ج ٣١٢/١) .

(٤) البَوَاءُ : السَّوَاءُ ، وَقَلَانٌ بَوَاءٌ قَلَانٌ ؛ أَي كَقُوَّةِ إِنْ قِيلَ بِهِ (لِسَانُ الْعَرَبِ : ج ٢٨١/١) ، وَالْمُرَادُ هُنَا بِالْمُؤْمِنِينَ يُبْءُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَائِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ إِنْ قَتَلَ كَافِرٌ مُؤْمِنًا مَقَاتِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ لِأَيِّ مُؤْمِنٍ آخَرَ أَنْ يَأْخُذَ بِشَأْرِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ، فَيَقْتُلُ قَاتِلَهُ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ .

(٥) مَنْ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتَلًا عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوْدٌ بِهِ ؛ أَي قَتَلَهُ بِإِجْنَابِيَّةٍ كَانَتْ مِنْهُ وَلَا جَرِيرَةَ تُوجِبُ قَتْلَهُ ، فَإِنَّ الْقَائِلَ يُقَادُ بِهِ وَيُقْتَلُ ، وَالْقَوْدُ : الْقِصَاصُ . (النِّهَايَةُ : ج ١٧٢/٣ ، ج ١١٩/٤) .

(٦) المُحْدِثُ : بِكسر الدَّالِ وَفَتْحِهَا عَلَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ، فَعْنَى الْعِبَارَةِ بِالْكَسْرِ : مَنْ نَصَرَ جَانِبًا ، وَأَوَّاهُ وَأَجَارَهُ مِنْ خَصْمِهِ ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ ، وَبِالْفَتْحِ : هُوَ الْأَمْرُ الْمُبْتَدِعُ نَفْسَهُ ، وَيَكُونُ مَعْنَى الْإِيوَاءِ فِيهِ : الرُّضَابَةُ وَالصَّبْرُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا رَضِيَ بِالْبِدْعَةِ ، وَأَقْرَبَ فَاعِلَهَا وَلَمْ يُنْكِرْهَا عَلَيْهِ فَقَدْ آوَاهُ (لِسَانُ الْعَرَبِ : ج ٧٩٦/١) .

(٧) الْحَقِيقَةُ أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ اعْتَادُوا الْغَدْرَ حَتَّى تَأَصَّلَ فِي طِبَاعِهِمْ ، لَمْ يَحْفَظُوا حَرَمَةَ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ ، بَلْ أَخَذَتِ الْقِبَائِلُ تَنْقِضُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، مَا سَنَدَكَرَ أَحْبَارُهُ فِي مَوْضِعِهِ يَأْذَنُ اللَّهُ تَعَالَى .

(٨) قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ فِي كِتَابِ الْأَمْوَالِ : إِنَّمَا كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا الْكِتَابَ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الْجِزْيَةُ ، وَإِذَا كَانَ الْإِسْلَامَ ضَعِيفًا ، قَالَ : وَكَانَ لِلْيَهُودِ إِذَا ذَاكَ نَصِيبٌ فِي الْمَغْنَمِ إِذَا قَاتَلُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا شَرَطَ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ التَّنْفَةَ مَعَهُمْ فِي الْحُرُوبِ (الرُّوضُ الْأَنْفُ : ج ٢٥٢/٢) .

مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(١) إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف . وذكر يهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة وجفنة والشطيبة ومواليهم وقال فيهم مثل ما قال في يهود بني عوف ثم قال :

« وإن البر دون الإثم^(٢) .. وإن بطانة^(٣) يهود كأنفسهم . وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لا ينحجز على ثار جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا .

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حُرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار^(٤) يخاف فسادة فإن مردّه إلى الله ، عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره^(٥) .

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم^(٦) يثرب - وإذا دعوا إلى صلح يصلحونهم ويلبسونه فإنهم يصلحونهم ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين - على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم . وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن^(٧) من أهل هذه الصحيفة . وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره . وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن برّ واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ «^(٨) .

وكما عقد النبي ﷺ هذه المعاهدة مع اليهود ، والتي نصّت على التعاون معهم لتوفير الأمن والسلام في ربوع المدينة ، والضرب على أيدي العادين ومدبري الفتن أيّاً كان دينهم ، سعى ﷺ أيضاً إلى عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة للمدينة وذلك لتوسيع منطقة الأمن والسلام ، كما سمحت بذلك الظروف ، فقد روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا : إنك قد نزلت بين أظهرنا ، فأوثق لنا حتى نأتيك وتؤمننا ، فأوثق لهم فأسلموا^(٩) . وكتب رسول الله ﷺ لبني زُرعة وبني الربيعة من جهينة أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، وأن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل ، ولأهل باديتهم من برّ منهم واتقى ما لحاضرتهم^(١٠) .

(١) يوتغ : يهلك ، أو يفسد فيما قال ابن هشام .

(٢) أي إن البرّ والوفاء ينبغي أن يكون حازماً عن الإثم (الروض الأنف : ج ٢٥٢/٢) .

(٣) بطانة الرجل : خاصته ، وصاحب سرّه وداخلة أمره الذي يشاوره في أحواله (لسان العرب : ج ٢٠٤/١) .

(٤) اشتجار : اختلاف (لسان العرب : ج ٢١٩٩/٣) .

(٥) أي إن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به (الروض الأنف : ج ٢٥٢/٢) .

(٦) دهم الأمر ودهمه : غشيه . انظر : (لسان العرب : ج ١٤٤٤/٢) .

(٧) قال ابن هشام : ويقال : مع البرّ المحسين .

(٨) انظر سيرة ابن هشام (ج ١١٩/٢) .

(٩) مسند الإمام أحمد (ج ١٧٨/١) .

(١٠) طبقات ابن سعد (ج ٢٧٠/١) .

مشروعية الأذان :

وفي السنة الأولى للهجرة شرع الأذان ، وقد كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين موافقتها بغير دعوة ، فاهتم لهذا الأمر حتى قال : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبْثَّ رِجَالاً فِي الدُّورِ يَنَادُونَ النَّاسَ بِحِينَ الصَّلَاةِ ، وَحَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ رِجَالاً يَقُومُونَ عَلَى الْأَطْنَامِ يَنَادُونَ الْمُسْلِمِينَ بِحِينَ الصَّلَاةِ » .

ثم تشاور النبي ﷺ مع أصحابه في ذلك ، فقيل له : انصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا رآها الناس آذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك ، فذكر له بوق يهود ، فكرهه وقال ﷺ : « هُوَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ » ، فذكر له الناقوس الذي يدعون به النصارى لصلاتهم ، فقال : « هُوَ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى » ، فقالوا : لو رفعنا ناراً ، فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة ، فقال ﷺ : « ذَلِكَ لِمَجُوسٍ » ، فقال عمر رضي الله عنه : أو لا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يَا بِلَالُ ! قُمْ فَنادِ بِالصَّلَاةِ » . فكانت الصلاة إذا حضرت سعى بلال ، رضي الله عنه ، في الطريق فنادى : الصلاة ، الصلاة . فاشتد ذلك على الناس فقالوا : لو اتخذنا ناقوساً ، فأجمع رسول الله ﷺ أن يضرب بالناقوس ، وهو له كاره لموافقته النصارى ، فأمر بالناقوس فَنَحَتْ لِيُضْرَبَ بِهِ للصلاة ، فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الأذان في منامه .

وفي رواية : فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهمتهم رسول الله ﷺ فأرى الأذان في منامه ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله ! إني لبين نائم ويقظان إذ طاب بي هذه الليلة طائف ، مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت : يا عبد الله ! أتبيع الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ فقلت : ندعو به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ فقلت : بلى ، قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، حيّ على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

قال : ثم استأخر عني غير بعيد ، ثم قال : وتقول إذا أقيمت الصلاة : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . وفي لفظ : قال عبد الله : رأيت رجلاً كأن عليه ثوبان أخضران ، فقام على المسجد فأذن ، ثم قعد قعدة ، ثم قام فقال مثلها ، إلا أنه يقول : قد قامت الصلاة ، ولولا أن يقول الناس لقلت : إني كنت يقطاً غير نائم .

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : « إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٍّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْفِهَا عَلَيْهِ ، فَلْيُؤدِّئْ بِهَا فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتاً مِنْكَ » . قال عبد الله : فقممت مع بلال فجعلت أقيه عليه ويؤدّن به ، فلما سمع عمر بن الخطاب أذان بلال ، وهو في بيته ، خرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجرّ رداءه ، وهو يقول : يانبي الله ! والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال رسول الله ﷺ : « فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ، فَذَلِكَ أَثْبَتَ » ، ثم قال له : « مَا مَتَعَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي ؟ » قال : سبقني عبد الله بن زيد فاستحييت^(١) .

وقد ورد في بعض الروايات أن الوحي جاء النبي ﷺ بالأذان ، فلما أخبره عمر ، رضي الله عنه ، بما رأى قال رسول الله ﷺ : « قَدْ سَبَقَكَ بِذَلِكَ الْوَحْيُ »^(٢) .

وكان بلال وابن أم مكتوم يتناوبان في أذاني الصبح ، فكان أحدهما يؤدّن بعد مضي نصف الليل الأول ، والثاني يؤدّن بعد طلوع الفجر .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٨/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٥٧/١) كتاب الصلاة - باب بدء الأذان ، باب الأذان مثنى مثنى ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٤٣/٤) ، وسنن أبي داود (ج ٣٣٦/١) كتاب الصلاة - باب بدء الأذان ح ٤٩٨ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٩٠/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي أيضاً (ج ١٨٧) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١٢٩/٢) .

روي عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار قالت : كان يبتي من أطول بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة ، فيأتي بسحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تطفى ، ثم قال : اللهم إني أحمدك وأستعينك على قریش أن يقيموا على دينك ، قالت : ثم يؤذن ، قالت : والله ما علمته كان يتركها ليلة واحدة^(١) .

وزاد بلال في أذان الصبح بعد الحيملات : الصلاة خير من النوم مرتين ، فأقرها رسول الله ﷺ ، لأن بلالاً ، رضي الله عنه ، كان يدعو النبي ﷺ للصلاة ، فدعاه ذات غداة إلى الفجر ، فقبل له : إن رسول الله ﷺ نائم ، فصرخ بأعلى صوته : الصلاة خير من النوم^(٢) .

وقد كان لرسول الله ﷺ عدة مؤذنين : بلال ، وابن أم مكتوم ، وأبو مخذرة^(٣) ، وسعد القرظ^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ١٢٩/٢) .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد (ج ٤٣/٤) .

(٣) أسلم أبو مخذرة بعد فتح مكة ، فاتخذته ﷺ مؤذناً لأهلها كما سيأتي ذكره في موضعه .

(٤) انظر : صحيح مسلم (ج ٢٨٧/١) كتاب الصلاة - باب استحباب اتخاذ مؤذنين للمسجد الواحد ح ٧ ، وسنن البيهقي (ج ٤٢٩/١) ، وعيون الأثر (ج ٣١٧/٢) .

عداء اليهود ومناقشاتهم

ذكرنا في المقدمة أن اليهود كانوا انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الروماني ، وكانوا في الحقيقة عبرانيين ، ولكن بعد استقرارهم في الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماؤهم عربية ، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر ، إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم الجنسية ، ولم يندمجوا في العرب نهائياً ، بل كانوا يحتقرونهم احتقاراً بالغاً حتى كانوا يسمونهم أميين ، بمعنى أنهم قوم سذج وأردال متأخرون لا كتاب لهم ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم ، يأكلونها كيف شاؤوا .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتق وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل ، فلاتزال في حروب دامية متواصلة ، حتى كانوا يزودونهم المال بفوائد ربوية ثقيلة حتى لا يجمعوا عن الحرب لعسر النفقة ، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين ؛ الحفاظ على كياناتهم اليهودي ، وإنفاق سوقهم الربوي ليأكلوه أضعافاً مضاعفة ويكسبوا ثروات طائلة .

وكانت في يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة : بنو قَيْقَاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم داخل المدينة . وبنو النَّضِير وبنو قَرْيِظَةَ وكانوا حلفاء الأوس ، وكانت ديارهم في عوالي المدينة .

وهذه القبائل هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد ، وقد ساهمت بأنفسها في حرب بُعَاث مع كل حلفائها .

وقد كان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ رضي الله عنهم : يامعشر يهود ! اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته ، قال سلام بن مُشْكَمٍ أحد بني النَّضِير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكره لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وقال رافع بن خَرِيمَةَ وَوَهْبُ بْنُ يَهُودَا : ما قلنا لكم هنا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولها : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

وروي عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ قومه قالوا : كنا قد علونا اليهود في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبياً يُبعث الآن نتبعه قد أظلم زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ من قريش فاتبعناه كفروا به (٣) .

(١) البقرة : ٨٩ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٢/٢) .

(٢) المائدة : ١٩ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩٢/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٦٦/٢) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس ، فقال : « أخرجوا إليّ أعلمكم » ، فسالوا : عبد الله بن صوريا ، فخلا به رسول الله ﷺ فناشده بدينه وبما أنعم الله به عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم به من الغمام : « أتعلم أنّي رسول الله ؟ » قال : اللهم نعم ، وإن القوم ليعرفون ما أعرف ، وإن صفتك ونعمتك لمبين في التوراة ، ولكنهم حسدوك ، قال : « فما يمتنعك أنت ؟ » قال : أكره خلاف قومي ، وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم^(١) .

لقد كان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام ، فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطأ من المشركين في مخاصمته ، ذلك بأنهم أصحاب كتاب منزل ودين توحيد ، والإسلام قريب منهم ، وقد اعترف بالأديان السابقة له ، وهو دين توحيد كذلك . ثم إن النبي ﷺ تودد إليهم حين دخل المدينة ، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وتعاهد معهم في صحيفة كتبت لهم ، فيها العهد بالوفاء لما اشترط لهم ، ماداموا موافين بالوعد والعهد . لكن اليهود رفضوا الاعتراف بنبوة رسول الله ﷺ وبأن دعوته موجهة إليهم تمسكاً بعقيدتهم التي تنفي أن تكون نبوة في غير بني إسرائيل ، فأبطنوا عداوته أولاً ، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود وإظهار الحقد والعداء ضد رسول الله ﷺ والمسلمين .

ويظهر ذلك جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية ، رضي الله عنها ، قالت : كنت أحبّ ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قطّ مع ولد لها إلا أخذاني دونه ، قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حبيّ بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب ، مُعَلِّسَيْن^(٢) ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتينا كائنين كسلانين ساقطين ميشيان الهويين ، قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ، قالت : وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حبيّ بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت^(٣) .

وفي رواية أخرى عنها قالت : إن عمي أبا ياسر حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب إليه وسمع منه ﷺ وحادثه ، ثم رجع إلى قومه ، فقال : يا قوم ! أطيعوني ، فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرونه فاتبعوه ولا تخالفوه ، ثم انطلق أبي إلى رسول الله ﷺ وسمع منه ، ثم رجع إلى قومه ، فقال لهم : أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً ، فقال له أخوه أبو ياسر : يا ابن أم ! أطعني في هذا الأمر ثم اعصني فيما شئت بعد ، لا تهلك ، فقال : لا والله لا أطيعك^(٤) .

ثم وافق أبو ياسر أخاه حبيّاً ، فكانا أشدّ اليهود عداوة لرسول الله ﷺ جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله تعالى فيهما وفيمن كان موافقاً لهما في ذلك : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾^(٥) .

ويدل على ذلك أيضاً ما جاء في إسلام عبد الله بن سلام ، رضي الله عنه ، فقد كان خبيراً عالماً من كبار علماء اليهود ، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ للمدينة كبر ، وكان في رأس نخلة لأهله يخترف^(٦) لهم ، فسمعت تكبيره عمته خالدة ابنة الحارث فقالت له : خبيثك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت ، قال : أي عمّة ! هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بُعث بما بُعث به ، فقالت : أي ابن أخي ! أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قال : نعم ، فقالت : فذاك إذأ .

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ عجللاً فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشرار الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خبرني بهنّ أنفاً جبريل » ،

(١) طبقات ابن سعد (ج ١٦٤/١) .

(٢) الغلس : ظلّمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح ، وخرجا مُعَلِّسَيْن ، أي : خرجا في ذلك الوقت . انظر : (النهاية : ج ٣٧٧/٣) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٤٠/٢) .

(٤) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٣٢/٢) .

(٥) البقرة : ١٠٩ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٥/٢) .

(٦) يخترف : يجتني من ثبار النخل (النهاية : ج ٢٤٢/٢) .

قال : عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله ﷺ : « أما أولُ أشرارِ السَّاعةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيزَةُ كَبِدِ حَوْتٍ ، وَأَمَّا الشَّبَّةُ فِي الْوَلَدِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مِائَةٌ كَانَ الشَّبَّةُ لَهُ ، وَإِذَا سَبَقَ مِائَةٌ كَانَ الشَّبَّةُ لَهَا » . قال عبد الله : أشهد أنك رسول الله ، وأنتك جئت بحق .

ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا ، وكنتم إسلامه من يهود ، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله ! إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي بهتوني عندك - أي قالوا في ماليس في وعابوني - فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أتي قد أسلمت . فأرسل نبي الله ﷺ إليهم فأقبلوا ، ودخل عبد الله بن سلام البيت ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « يامعشر اليهود ! ويلكم ! اتقوا الله ، فوالذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنني رسولُ الله حقاً ، وأني جئتكم بحق فأسلموا » ، قالوا : مانعنا ، قال : « فأبي رجل فيكم عبث الله بن سلام ؟ » قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا ، وحبرنا وعالمنا ، فقال رسول الله ﷺ : « أقرأئتم إن أسلمتم عبث الله ؟ » قالوا : أعاده الله من ذلك - وفي رواية قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم - أعاد ذلك ثلاث مرات ، فخرج عبد الله إليهم فقال : يا معشر اليهود ! اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقته وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا به وقالوا هو شترنا وابن شترنا ، فقال لرسول الله ﷺ : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟ فأخرجهم رسول الله ﷺ (١) .

وكان اسمه قبل أن يسلم الحُصَيْن ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وكان من يهود بني قينقاع ، وقد أثنى الله تعالى عليه في قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) ، وفي قوله سبحانه : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٣) .

يروى أنه جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن اليهود أعظم قوم غصية (٤) فسألهم عني ، وخذ عليهم ميثاقاً إنني إن أتبعتك وأمنت بكتابتك أن يؤمنوا بك وبكتابتك الذي أنزل عليك ، وأخبرني يا رسول الله قبل أن يدخلوا عليك . فأرسل إلى اليهود فقال : « ما تعلمون عبث الله بن سلام فيكم ؟ » قالوا : خيرنا وأعلمنا بكتاب الله ، سيدنا وعالمنا وأفضلنا ، قال : « أقرأئتم إن شهد أنني رسولُ الله ، وأمن بالكتاب الذي أنزل علي تؤمنون بي ؟ » قالوا : نعم ، فدعاه ، فخرج عليهم عبد الله بن سلام ، فقال : « يا عبث الله بن سلام ! أما تعلم أنني رسولُ الله ، تجدوني مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، أخذ الله ميثاقكم أن تؤمنوا بي ، وأن يتبعتني من أذكرني منكم ؟ » قال : بلى ، قالوا : مانع أنت رسول الله ، وكفروا به ، وهم يعلمون أنه رسول الله وأن ما قال حق ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْكِتَابُ وَالرَّسُولُ - ﴿ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ - يعني عبد الله بن سلام - ﴿ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . ففي ذلك نزلت هذه الآية (٥) .

وعن عبد الله بن سلام قال : لما قدم النبي ﷺ أنجفل الناس عليه (٦) ، فكانت فين اغفل ، فلما تبين وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته يقول : « أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نياماً ، تدخلوا الجنة بسلام » (٧) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٨/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٦٠/٤) كتاب الأنبياء - باب قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ ، (ج ١٨٠/٥) كتاب المناقب - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٢) الأحقاف : ١٠ ، وانظر الخبر في صحيح البخاري (ج ٤٧٥) كتاب المناقب - باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وسيرة ابن هشام (ج ١٣٧/٢) .

(٣) الرعد : ٤٣ ، وانظر الخبر في سنن الترمذي (ج ٣٨١/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الأحقاف ح ٢٢٥٦ .

(٤) الغصية : البهتان والكذب (النهاية : ج ٢٥٤/٣) .

(٥) عيون الأثر (ج ٢٠٧/١) .

(٦) أنجفل الناس عليه : ذهبوا مشرعين نحوه (النهاية : ج ٢٧٩/١) .

(٧) مسند الإمام أحمد (ج ٤٥١/٥) .

قال ابن إسحاق : وقال حَبِيبُ بن أَخْطَبِ وكَعْبُ بن أَسَدِ وأبو نافع وأَشْيَعُ وشُمُويل بن زيد لعبد الله بن سَلَامِ حين أسلم : ماتكون النبوة في العرب ، ولكن صاحبك مَلِكٌ ، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ فسألوه عن ذي القُرَيْنِ ، فقص عليهم ما جاءه من الله تعالى فيه بما كان قصّ على قريش ، وهم كانوا من أمر قريشاً أن يسألوا رسول الله ﷺ عنه حين بعثوا إليهم النَّضْرُ بن الحارث وعُقْبَةُ بن أَبِي مَعِيْطٍ (١) .

- مجاهرة اليهود بالعداء وبعض أخبارهم :

ولما رأى اليهود ظهور الإسلام وانتشاره في المدينة حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها عدا أفراداً من الأوس ، أظهروا الحقد لرسول الله ﷺ ، ونصبوا العداوة له ولأصحابه بغياً وحسداً ، لأنهم أدركوا أن ظهوره وانتشاره سيحد من سلطانهم لانهالة وأن ملكهم سيؤول .

وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان عسا (٢) على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق (٣) على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره ، واجتماع قومهم عليه ، فتظاهروا بالإسلام ، واتخذوه جنة من القتل ، وناقوا في السر ، وكان هوام مع يهود لتكذيبهم النبي ﷺ ووجودهم الإسلام (٤) .

فمن اليهود الذين نصبوا العداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه وكانوا أشد الناس ضغناً وكيداً : حَبِيبُ وأبو ياسر ، وسَلَامُ بن مِشْكَم ، وكِنَانَةُ بن الرَّبِيع ، وكعب بن الأشرف ، وكعب بن أسد ، وعمر بن جَحَّاش ، ورفاعة بن زيد بن النَّبَاتِ (٥) .

ومنهم شَاس بن قيس ، وكان حريصاً على ردة الناس عن الإسلام ، وكان شيخاً قد عسا ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، مر يوماً على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملائني قبيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤم بها من قرار ، فعمد إلى إثارة الأحقاد والبغضاء التي كانت كامنة في نفوس القوم من أيام الجاهلية فأمر فتى شاباً من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار - وكان يوم بُعث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حُضَيْرُ بن سِمَاكِ الأَشْهَلِيُّ أبو أُسَيْدِ بن حُضَيْرٍ ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، فقتل جميعاً - ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب : أوُس بن قَيْظِيٍّ أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس ، وجَبَّار بن صَخْرٍ أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جَدَعَةَ (٦) ، و غضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدم الظاهرة - والظاهرة : الحرة - السلاح السلاح ، فخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فبين معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين ! الله الله ، أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم » . فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس . وأنزل الله تعالى في شاس بن قيس وما صنع : ﴿ قُلْ

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢٠١/٢) .

(٢) عسا : أي كبر وأسن ، وعسا عسواً : غلظ واشتد (لسان العرب : ج ٢٩٤٧/٤) .

(٣) تأخر ظهور النفاق في المدينة إلى بعد غزوة بدر الكبرى كما سيأتي .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٨/٢ ، ١٣٥) .

(٥) انظر أسماء اليهود الذين نصبوا العداوة لرسول الله ﷺ في سيرة ابن هشام (ج ١٣٧/٢ - ١٣٨) .

(٦) يقال : أعدت الأمر جدعاً : أي جديداً كما بدأ (الوسيط : ج ١١٢/١) .

يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنِ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

وأُنزل الله في أوس بن قَيْطِيٍّ وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ ومن كان معها من قومها الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شاس من أمر الجاهلية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيضًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَزِدُّوكُم بِعَدُوِّكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُم آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

ومنهم مالك بن الصَّيْفِ فإنه قال حين ذكر لهم رسول الله ﷺ ما أخذ عليهم له من الميثاق وما عهد الله إليهم فيه - قال : والله ما عهد إلينا في محمد عهد ، وما أخذ له علينا من ميثاق ، فأُنزل الله فيه : ﴿ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

ومنهم رافع بن حَرَيْمِلَةَ وَوَهْبِ بْنِ زَيْدٍ ، قالوا لرسول الله ﷺ : يا محمد ! ائتنا بكتاب تُنزلُه علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهاراً تتبعك ونصدقك ، فأُنزل الله تعالى في ذلك من قولها : ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٤) .

وقال رافع أيضاً لرسول الله ﷺ : يا محمد ! إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فليكن لنا حتى نسمع كلامه ، فأُنزل الله تعالى في ذلك من قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

ومنهم ابن صَلُوبَا الذي قال لرسول الله ﷺ : يا محمد ! ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها ، فأُنزل الله تعالى في ذلك من قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ (٦) .

ومنهم عبد الله بن صُورِيَا الأَعُورِ ، وقد كان من أحبار اليهود ورؤسائهم ، ولم يكن بالحجاز في زمانه أعلم منه بالتوراة ، روي أن رسول الله ﷺ كلم رؤساء من أحبار يهود ، فيهم عبد الله بن صُورِيَا وكعب بن أسد ، فقال لهم : « يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ! اتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِمُوا ، فَوَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ لِحَقٌّ » ، قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، فجددوا ما عرفوا وأصروا على الكفر ، فأُنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِن قَبْلِ أُن نَّطْمِسُ وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٧) .

ومما قال عبد الله بن صُورِيَا لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وروي أن النصراني قالت مثله فأُنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٨) .

(١) آل عمران : ٩٨ - ٩٩ .

(٢) آل عمران : ١٠٠ - ١٠٥ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٨٢/٢) .

(٣) البقرة : ١٠٠ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٤/٢) .

(٤) البقرة : ١٠٨ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٤/٢) .

(٥) البقرة : ١١٨ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٦/٢) .

(٦) البقرة : ٩٩ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٤/٢) .

(٧) النساء : ٤٧ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٣٦/٢ ، ١٨٩) .

(٨) البقرة : ١٣٥ - ١٤١ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٦/٢) .

ومنها فنحاص ، وكان من علماء اليهود وأخبارهم ، روي أن أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه ، دخل بيت المدراس على يهود فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ومعه خبر من أخبارهم يقال له أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص لأبي بكر : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإننا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني ، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا ، قال : فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت رأسك أي عدو الله ، قال : فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! انظر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله ! إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير إليهم وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت الله مما قال وضربت وجهه ، فوجد ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (١) . ونزل في أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وما بلغه في ذلك من الغضب : ﴿ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢) . ثم قال فيما قال فنحاص والأخبار معه من يهود : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ . لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) ، يعني فنحاص وأشباهها من الأخبار الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، أن يقول الناس علماء وليسوا بأهل علم ، لم يحملوهم على هدى ولا على حق ، ويحبون أن يقول الناس قد فعلوا (٤) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ دعا يهود فسألهم عن شيء ، فكتبوه إياه ، وأخبروه بغيره ، فأزوه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أوتوا من كتابهم ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . . وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ (٥) .

ومنها سكين بن أبي سكين وعدي بن زيد من بني قينقاع قالوا : يا محمد ! ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولها : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ . . ﴾ إلى قوله : ﴿ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا ﴾ (٦) .

ودخلت على رسول الله ﷺ جماعة منهم فقال لهم : « أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولٌ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ » ، قالوا : ما نعلمه ، وما نشهد عليه ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧) .

(١) آل عمران : ١٨١ .

(٢) آل عمران : ١٨٦ .

(٣) آل عمران : ١٨٧ - ١٨٨ .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١٨٧/٢) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ٥١/٦) كتاب التفسير - سورة آل عمران .

(٦) النساء : ١٦٣ - ١٦٥ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩١/٢) .

(٧) النساء : ١٦٦ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩١/٢) .

- قصدهم الفتنة واستهزاؤهم :

وقد حاول جماعة من أحرار يهود فتنة النبي ﷺ والمسلمين عن دينهم ، فاجتمع منهم كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد ، لعلنا نفتنه عن دينه ، فإنما هو بشر ، فاتوه فقالوا له : يا محمد ! إنك قد عرفت أننا أحرار يهود وأشرفهم وسادتهم وإنما إن أتبعناك أتبعناك يهود ، ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحناكم إليك فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدقك ؟ فأبى ذلك رسول الله ﷺ عليهم ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

وقال جماعة من اليهود بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع ويرجعون عن دينه . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيْنَا وَكُنَّا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ . قُلْ إِنَّ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

- وكان اليهود إذا كلموا النبي ﷺ قالوا : راعينا سمعك واسمع غير مسمع ، ويضحكون فيما بينهم ، لأن ذلك - كما قال ابن عباس ، رضي الله عنه - بلسان اليهود السب القبيح .

قال ابن إسحاق : وكان رفاة بن زيد بن التائب من عطاء يهود ، إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه ، وقال : أرعينا سمعك يا محمد حتى نفهمك . ثم طعن في الإسلام وعابه ، فأنزل الله فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الضَّلَالَةَ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا ﴾ أي : راعينا سمعك ﴿ لَيْتَا بِالسُّنَنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣) .

- نهى الله تعالى المسلمين عن موادتهم :

قال ابن إسحاق : وكان رفاة بن زيد بن التائب وسويد بن الحارث قد أظهر الإسلام وناقضا ، فكان رجال من المسلمين يوادونها ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (٤) .

قال ابن إسحاق : وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالات من اليهود لما كان بينهم من الجوار والخلف في الجاهلية ، فأنزل الله تعالى فيهم ينههم عن مباطنتهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا لَقَوُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ (٥) إلى آخر القصة (٦) .

وكان رجال من اليهود ، منهم حبيبي بن أخطب ، ورفاة بن زيد بن التائب يأتون رجالاً من الأنصار كانوا يخاطبونهم ينتصحوهم لهم من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم على هؤلاء المهاجرين ، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ،

(١) المائدة : ٤٩ - ٥٠ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩٦/٢) .

(٢) آل عمران : ٧١ - ٧٣ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٨٠/٢) .

(٣) النساء : ٤٤ - ٤٦ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٨٩/٢) .

(٤) المائدة : ٥٧ - ٦١ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩٨/٢) .

(٥) آل عمران : ١١٨ - ١١٩ .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ١٨٦/٢) .

ولا تسارعوا في التّفقة ، فإنكم لا تدرّون علام يكون ، فأُنزل الله فيهم : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ، وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (١) .

- وسأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد نفرًا من أحبار يهود عن بعض ما في التّوراة فكفّوهم إيّاه ، وأبوا أن يخبروه عنه ، فأُنزل الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٢) .

- وقد روي أن أحبار يهود غيروا صفة رسول الله ﷺ التي في التّوراة ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : وصف الله ، عزّ وجلّ ، محمداً ﷺ في التّوراة في كتب بني إسرائيل ، فلما قدم رسول الله ﷺ حسده أحبار اليهود فغيروا صفته في كتابهم وقالوا : لا نجد نعته عندنا ، وقالوا للسّفلة : ليس هذا نعت النبي ، الذي يخرج كذا وكذا كما كتبه وغيروا ، ونعت هذا كما وصف ، فلبسوا بذلك على الناس . قال : وإنما فعلوا ذلك لأن الأحبار كانت لهم مأكلة تطعمهم إيّاها السّفلة لقيامهم على التّوراة ، فحاسفوا أن يؤمن السّفلة فتقطع تلك المأكلة (٣) .

- إباؤهم الإسلام وتعنتهم :

وكان رسول الله ﷺ ، على الرغم من عداء اليهود له وتعنتهم ، يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه ويحذرهم عذاب الله ونقمته ، روي أنه دعا نفرًا منهم وكلمهم في الإسلام ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيرًا منا ، فأُنزل الله في ذلك من قولها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

ودخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : وعلى أيّ دين أنت يا محمد ؟ قال : « على ملة إبراهيم ودينه » ، قالوا : فإن إبراهيم كان يهوديًا ، فقال لها رسول الله ﷺ : « فَهَلُمَّ إِلَى التّوراة فَمِ يَبَيِّنُنَا وَيُبَيِّنُكُمْ » ، فأبى عليه ، فأُنزل الله تعالى فيها : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٥) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، واليهود تقول : إنما مدة الدّنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذب الله الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدّنيا يوماً واحداً في النار من الأيام الآخرة ، وإنما هي سبعة أيام ، ثم ينقطع العذاب ، فأُنزل الله جلّ ثناؤه في ذلك من قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ أي : من عمل بمثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط كفره بماله عند الله من حسنة ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي : خلدوا أبداً ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٦) أي : من آمن بما كفرتم به ، وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنّة خالدين فيها ، يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له (٧) .

(١) النساء : ٢٧ - ٢٩ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٨٨/٢) .

(٢) البقرة : ١٥٩ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٨/٢) .

(٣) دلائل النبوّة للبيهقي (ج ٥٢٧/٢) .

(٤) البقرة : ١٧٠ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٩/٢) .

(٥) آل عمران : ٢٣ - ٢٤ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/٢) .

(٦) البقرة : ٨٠ - ٨٢ .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ١٦٢/٢) .

وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ ، فِيهِمْ شَاسُ بْنُ عَدِيٍّ ، فَكَلَّمُوهُ ، وَكَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَحَدَّرَهُمْ نَقْمَتَهُ ، فَقَالُوا مَا نَخَوْنَا يَا مُحَمَّدُ ؟ نَحْنُ وَاللَّهِ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ ، كَقَوْلِ النَّصَارَى ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

قال ابن إسحاق : وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَافِعُ بْنُ حَارِثَةَ وَسَلَامُ بْنُ مِشْكَمَ وَمَالِكُ بْنُ الضَّيْفِ وَرَافِعُ بْنُ حُرَيْمَةَ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ! أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ ، وَتُؤْمِنُ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ التَّوْرَةِ ، وَتَشْهَدُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ حَقٌّ ؟ قَالَ : « بَلَى ، وَلَكِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ وَجَدْتُمْ مَا فِيهَا مِمَّا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ المِيثَاقِ فِيهَا ، وَكَتَبْتُمْ مِنْهَا مَا أَمَرْتُمْ أَنْ تَتَّبِعُوهُ لِلنَّاسِ ، فَبَرِئْتُ مِنْ إِحْدَاثِكُمْ » ، قَالُوا : فَإِنَّا نَأْخُذُ بِمَا فِي أَيْدِينَا ، فَإِنَّا عَلَى الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا نَتَّبِعُكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : أَبُو يَاسِرَ بْنِ أَخْطَبٍ فَسَأَلُوهُ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَ الرِّسْلِ ، فَقَالَ ﷺ : « نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » ، فَمَا ذَكَرَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ جَحَدُوا نَبُوَّتَهُ ، وَقَالُوا : لَا نُؤْمِنُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَلَا بِمَنْ آمَنَ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْتَرْتُمْ فَاسْفُوهن ﴾ (٣) .

وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ ، فِيهِمْ سَلَامُ بْنُ مِشْكَمَ ، فَقَالُوا : أَحَقُّ يَا مُحَمَّدُ أَنْ هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَإِنَّا لَا نَرَاهُ مَتَّسِقًا كَمَا تَتَّسِقُ التَّوْرَةُ ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْرِفُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَلَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ مَا جَاؤُوا بِهِ » ، فَقَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ وَهُمْ جَمِيعٌ : فَنَحَاصُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَا وَابْنُ سَلُوبَا وَكِثَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيْقِ وَأَشْبَعُ وَكَعْبُ بْنُ أَسَدٍ وَشُمُوَيْلُ بْنُ زَيْدٍ وَجَبَلُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ سَكَيْتَةَ : يَا مُحَمَّدُ ! أَمَا يَعْلَمُكَ هَذَا إِنْسٌ وَلَا جِنٌّ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ ، تَجِدُونَ ذَلِكَ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ » ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ! فَإِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ لِرَسُولِهِ إِذَا بَعَثَهُ مَا يَشَاءُ ، وَيَقْدِرُ مِنْهُ عَلَى مَا أَرَادَ ، فَأَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ تَقْرُوهُ وَنَعْرِفُهُ ، وَإِلَّا جِئْنَاكَ بِمِثْلِ مَا تَأْتِي بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ وَفِي مَا قَالُوا : ﴿ قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٤) .

- أَسْأَلْتُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَا نَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ :

وقد كان أحرار اليهود يسألون رسول الله ﷺ عن أشياء ويتعننونه (٥) ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه .

روى ابن إسحاق بسنده عن شهر بن حوشب الأشعري أن نفراً من أحرار يهود جاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ! أخبرنا عن أربع نسائك عنهن ، فإن فعلت ذلك أتبعناك وصدقناك وآمنا بك ، قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فاسألوا عما بدا لكم » ، قالوا : فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه ،

(١) المائة : ١٨ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩٢/٢) .

(٢) المائة : ٦٨ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩٧/٢) .

(٣) المائة : ٥٩ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩٧/٢) .

(٤) الإسراء : ٨٨ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٠١/٢) ، وذكره ابن كثير مختصراً في تفسير القرآن العظيم (ج ٦٢/٣) وقال : « وفي هذا نظر ، لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة فإلله أعلم » .

(٥) تمننته : سأله عن شيء يريد به اللبس والمشقة (الوسيط : ج ٦٣٦/٢) .

وإنما النطفة من الرجل؟ قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتتهما غلبت صاحبتها كان لها الشبّة؟» قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا كيف نومه؟ فقال: «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أنني لست به تنام عيئة وقلبة يقظان؟» فقالوا: اللهم نعم، قال: «فكذلك نومي؛ تنام عيئي وقلبي يقظان»، قالوا: فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها؟ وأنه اشتكى شكوى فعاها الله منها فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها»، قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا عن الروح، قال: «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون جبريل؟ وهو الذي يأتيني»، قالوا: اللهم نعم، ولكنه يا محمد لنا عدو، وهو ملك، إنما يأتي بالشدة، وبسفسك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك، قال: فأنزل الله، عز وجل، وفيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ... وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (١).

قال ابن إسحاق: وذلك أن رسول الله ﷺ - فيما بلغني - لما ذكر سليمان بن داود في المرسلين قال بعض أبحارهم: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن سليمان بن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أي: باتباعهم السحر وعلمهم به وما أنزل الله على الملكين ببابل هاروت وماروت (٢).

وروى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسه زائدنا الكبدة والكليتان والشحم، إلا ما كان على الظهر؛ فإن ذلك كان يقرب للقربان فتأكله النار (٣).

وجاء مرة يهوديان إلى رسول الله ﷺ فسألاه عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (٤)، فقال لهما: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحرُوا، ولا تأكلوا الرِّبَا، ولا تمسوا بيريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا مخصنة، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تمسوا في السبت»، فقبلاً يده ورجله، وقال: نشهد أنك نبي، فقال: «ما منعكما أن تسليما؟» قال: إن داود، عليه السلام، دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وإننا نخشى أن يقتلنا يهود (٥).

وسأل نفر من اليهود رسول الله ﷺ عن الروح، فقد روي عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب (٦) معه فر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسأله لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم! ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقامت، فلما انجلي عنه فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧).

وسأله عن الساعة فقالوا: يا محمد! أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨).

(١) البقرة: ٩٧ - ١٠٢، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٦٧/٢).

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١٦٨/٢).

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٦٩/٢).

(٤) الإسراء: ١٠١.

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١/١) وقال: هذا حديث صحيح لانعرف له علة بوجه من الوجوه ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(٦) العسيب: جريدة الخُلّ المستقيمة يكشط خوصها، ومالم ينبت عليه الخوص (الوسيط: ج ٦٠٦/٢).

(٧) الإسراء: ٨٥، والخبر في صحيح البخاري (ج ٤٢/١) كتاب العلم - باب قول الله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(٨) الأعراف: ١٨٧، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٦٨/٢).

وأتى رسول الله ﷺ نفر منهم فقالوا له : يا محمد ! أما تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله لا إله إلا هو بذلك بُعِثَ وَإِلَى ذَلِكَ أَدْعُو » . فأنزل الله فيهم وفي قولهم : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وأتى رهط من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ! هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ قال فغضب رسول الله ﷺ حتى انتفع لونه (٢) ، ثم ساورهم (٣) غضباً لربه ، فجاء جبريل ، عليه السلام ، فسكنه ، فقال : خفف عليك يا محمد ، وجاءه من الله جواب ما سأله عنه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٤) . فلما تلاها عليهم قالوا : فصف لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟ فغضب رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول ، وساورهم ، فأتاه جبريل ، عليه السلام ، فقال له مثل ما قال له أول مرة ، وجاءه من الله تعالى جواب ما سأله عنه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٥) .

روى ابن إسحاق بسنده عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ حَتَّى يَقُولُوا قَائِلُهُمْ هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ثم لِيَتَقَلَّ الرَّجُلُ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا ، وَلِيَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (٦) .

قال ابن إسحاق : وكان ممن نزل فيه القرآن خاصة من الأحرار وكفار يهود الذين كانوا يسألونه ويتعنتونه ليلبسوا الحق بالباطل - فيما ذكر لي عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله بن رباب - أن أبا ياسر بن أخطب مر برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة البقرة : ﴿ أَلَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . فقالوا : أنت سمعته ؟ فقال : نعم ، فمشى حَيَّيَّ بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا له : يا محمد ! ألم تذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك : ﴿ أَلَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بَلَى ، قَالُوا : أَجَاءَكَ بِهَا جَبْرِيْلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « نَعَمْ » ، قَالُوا : لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءَ مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ لَنبِيِّ مِنْهُمْ مَا مَدَّةَ مُلْكِهِ ، وَمَا أَكُلَ أُمَّتَهُ (٨) غَيْرِكَ !! فَقَالَ حَيَّيَّ بن أخطب وأقبل على من معه فقال لهم : الألف واحد ، والألف ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفقد خلون في دين إنما مدة ملكه وأكل أُمَّتَهُ إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! هل مع هذا غيره ؟ قال : « نَعَمْ » ، قال : ماذا ؟ قال : ﴿ أَلَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٩) ، قال : والله هذه أثقل وأطول : الألف واحد ، والألف ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه إحدى وستون ومائة سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : « نَعَمْ » ، قال : ﴿ أَلَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١٠) ، قال : هذه أثقل وأطول : الألف واحد ، والألف ثلاثون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان ، هل مع هذا غيره يا محمد ؟

(١) الأنعام : ١٩ - ٢٠ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٩٨/٢) .

(٢) انتفع لونه : تَغَيَّرَ مِنْ خَوْفٍ أَوْ أَلَمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وقد تقدم .

(٣) ساورهم : وَأَتَيْتُهُمْ (النهاية : ج ٤٢٠/٢) .

(٤) سورة الإخلاص .

(٥) الزمر : ٦٧ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٠٢/٢) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٠٢/٢) .

(٧) البقرة : ١ - ٢ .

(٨) الأكل : الرَّزْقُ أَوْ الْحِطُّ مِنَ الدُّنْيَا (لسان العرب : ج ١٠٢/١) ، ولعله يريد بأكل أُمَّتِهِ : مُدَّةَ إِقَامَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا .

(٩) الأعراف : ١ .

(١٠) يوسف : ١ .

قال : « نَعَمْ ؛ ﴿الرَّمِ﴾ (١) » ، قال : هذه أثقل وأطول : الألف واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة ، ثم قال ، لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أ قليلاً أعطيت أم كثيراً ؟ ثم قاموا عنه ، فقال أبو ياسر لأخيه حَيَّي بن أخطب ولن معه من الأحبار : ما يدريك لعله قد جُمع هذا كله لمحمد : إحدى وسبعون سنة ، وإحدى وستون ومائة ، وإحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ؛ فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة ؟ فقالوا : لقد تشابه علينا أمره . فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (٢) .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت من لأتهم من أهل العلم يذكر أن هؤلاء الآيات إنما أنزلن في أهل نجران حين قدموا على رسول الله ﷺ يسألونه عن عيسى ابن مريم عليه السلام (٣) .

ـ استفتناؤهم النبي ﷺ في حكم الرجم والديّة :

وسأله ﷺ عن رجل منهم زنى بعد إحصانه بامرأة من يهود قد أحصنت ، فقد روي أنه اجتمع نفر منهم فقالوا : ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد فسأله كيف الحكم فيهما ، وأولو الحكم عليهما ، فإن عمل فيهما بعملكم من التَّجْبِيهِ (٤) فاتبعوه فإنما هو ملك وصدقوه ، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبي فاحذروه على ما في أيديكم أن يسئلكموه . فأتوه ، فقالوا : يا محمد ! هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت ، فاحكم فيهما فقد وليناك الحكم فيهما ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ ؟ » فقالوا : نفضحهم ويُجْلِدُونَ ، فشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم في بيت المدراس ، فدعا علماءهم ، فقال : « هكذا تجدون حدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟ » قالوا : نعم ، فخلا رسول الله ﷺ بعبد الله بن صوريا ، وكان أعلمهم بالتوراة ، فألظَّ به (٥) المسألة فقال له : « أُنشِدْكَ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، وَأَذَكَّرَكَ بِأَيَّامِهِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟ » قال : لا ، ولولا أنك نشدتي بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لنبي مرسل ، ولكنهم يحسدونك ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « وَيُحَكِّمُ يَامَعْشَرَ يَهُودَ !! مَا دَعَاكُمْ إِلَى تَرْكِ حُكْمِ اللهِ وَهُوَ بِأَيْدِيكُمْ ؟ » فقالوا : أما والله إنه قد كان فينا يعمل به ، ولكنه كثير في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أخذنا عليه الحدَّ ، قلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيم على الشريف والوضيع ، فجعلنا التَّحْمِيمَ (٦) والجُلْدَ مكان الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ » .

وفي رواية : أنهم لما حكموا رسول الله ﷺ فيها دعاهم بالتوراة ، وجلس خبر منهم يتلوها ، وقد وضع يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فضرب عبد الله بن سلام يد الخبر ، ثم قال : هذه يانبي الله آية الرجم يأبى أن يتلوها عليك .

ثم أمر بها رسول الله ﷺ فرجها عند باب مسجده ، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : فرأيت الرجل يخفي على المرأة يقبها الحجارة ، حتى قُتلا جميعاً .

فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا

(١) الرعد : ١ .

(٢) آل عمران : ٧ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٠/٢) ، وذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (ج ٢٨/١) ثم قال : « هذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب مالكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرار فأطمم وأعظم والله أعلم » .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٧٣/٢) .

(٤) التَّجْبِيهِ : الجُلْدُ بِجِيلٍ مِنْ لَيْفٍ مَطْلِيٍّ بَقَارٍ ، ثُمَّ تُسَوَّدُ وَجُوهُهَا ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى حِارِينَ ، وَتُجَعَلُ وَجُوهُهَا مِنْ قَبْلِ أَدْبَارِ الْحِارِينَ (سيرة ابن هشام : ج ١١٣/٢) .

(٥) أَلْظَّ بِهِ : أَي أَلْحَ فِي سَوْأِهِ وَالزَّيْمَةُ إِيَّاهُ (النهاية : ج ٢٥٢/٤) .

(٦) التَّحْمِيمُ : رَجُلٌ مَحْمَمٌ ؛ أَي : مُسَوَّدُ الْوَجْهِ ، مِنَ الْحَمَمَةِ : الْفَحْمَةُ (النهاية : ج ٤٤٤/١) .

فَخَذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُوْتُوهُ فَاحْذَرُوا ﴿١﴾ ، يقول : اتنوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتَّحْمِيمِ والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالترجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) في الكفار كلها (٥) .

- كما سأله ﷺ عن حكم الدية ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن الآيات من المائدة التي قال الله فيها : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُوا شَيْئاً ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٦) إنما أنزلت في الدية بين بني النضير وبني قريظة ، وذلك أن قتلى بني النضير وكان لهم شرف يؤدون الدية كاملة ، وأن بني قريظة كانوا يؤدون نصف الدية ، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك ، فجعل الدية سواء (٧) .

☆ ☆ ☆

موقف مشركي المدينة من النبي ﷺ

أقام بعض أهل المدينة على شركهم وأبوا الدخول في الإسلام حتى التحق بعضهم بقريش وراح يؤلب على الإسلام والمسلمين ، وأشهرهم أبو عامر الراهب ، وعبد الله بن أبي ابن سلول .

أما أبو عامر فهو عبد عمرو بن صيفي أحد بني ضبيعة بن زيد من الأوس ، وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أحد ، وكان قد ترهب في الجاهلية ، ولبس الأسوح ، وكان يقال له الراهب ، فشقي بشرفه وضره ، فقد ألبى الكفر والفرار لقومه ، حين اجتمعوا على الإسلام ، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا تَقُولُوا الرَّاهِبَ وَلَكِنْ قُولُوا الْفَاسِقَ » (٨) .

وقد روي أنه لم يكن في الأوس والخزرج رجل واحد أوصف لرسول الله ﷺ منه ، كان يآلف اليهود ويسألهم عن الدين ويغيرونه بصفة رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى الشام ، فسأل النصارى فأخبروه بصفته النبي ﷺ ، فرجع أبو عامر وهو يقول : أنا على دين إبراهيم الحنفي ، فأقام مترهباً ، وزعم أنه ينتظر خروج النبي ﷺ ، فلما ظهر رسول الله ﷺ بمكة لم يخرج إليه ، وأقام على ما كان عليه ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فقال : « جئت بالحنيفية دين إبراهيم » ، قال : فأنا عليها ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّكَ لَسِتَ عَلَيْهَا » ، قال : بلى ، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها ، قال : « مَا فَعَلْتُ ، وَلَكِنِّي جِئْتُ بِهَا بِيضَاءَ نَفْسِي » ، قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ، يُعْرِضُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أي : إنك ما جئت بها كذلك ، قال رسول الله ﷺ : « أَجَلٌ ، فَمَنْ كَذَبَ فَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِهِ » . فكان هو ذلك عدو الله ، خرج إلى مكة ، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بها طريداً غريباً وحيداً (٩) .

(١) المائدة : ٤١ .

(٢) المائدة : ٤٤ .

(٣) المائدة : ٤٥ .

(٤) المائدة : ٤٧ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٢/٢ - ١٩٥) ، وصحيح البخاري (ج ٢١٤/٨) كتاب الحاربيين من أهل الكفر والردة - باب أحكام أهل الذمة ، وصحيح مسلم (ج ١٣٢٧/٣) كتاب الحدود - باب رجم اليهود ... ج ٢٨ .

(٦) المائدة : ٤٢ .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ١٩٦/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٦/٢) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٦/٢ - ٢١٧) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٩٢/١) .

وأما عبد الله بن أبي ابن سلول العوفي فهو من بني الحُبَلَى من الخزرج ، كان مطاعاً في قومه ، لا يختلف عليه في شرفه منهم اثنان ، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يلكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً ، وأقام على كفره ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِراً على نفاق وضغن وذلك بعد غزوة بدر^(١) .

روى البخاري وابن إسحاق أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكّية، وأسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادة في بني حارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فسارا حتى مرّا بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول - وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي - فإذا في المجلس أخطاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر^(٢) ابن أبي أنه بردائه وقال : لا تغبّروا علينا ، فلما رآه رسول الله ﷺ تَدَمَّ^(٣) من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل ، فسلم ، ثم جلس قليلاً ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، عز وجل ، وذكر بالله ، وحذر وبشر وأنذر ، وعبد الله بن أبي زام^(٤) لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته قال : أيها المرء ! لأحسن من حديثك هذا ، إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك فن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغتبه^(٥) به ولا تأته في مجلسه بما يكره منه ، فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله ، فاعشنا به ، واكتنا به في مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ، وبما أكرمنا الله به وهدانا له ، فقال عبد الله بن أبي :

مق ما يكن مولك خصمك لاتزل تنزل ويصرعك الذي تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه وإن جدّ يوماً ريشه فهو واقع

فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون^(٦) ، فلم يزل رسول الله ﷺ يفضضهم حتى سكتوا . قال أسامة : ثم ركب رسول الله ﷺ دابته ، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي ، فقال : والله يا رسول الله ! إني لأرى في وجهك شيئاً ، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه ، فقال : « أجل » ، ثم أخبره بما قال ابن أبي ، فقال سعد : أي رسول الله ! بأبي أنت اعف عنه واصفح ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحرة على أن يتوجوه ويعصّبوه بالعصابة ، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك^(٧) ، فذلك فعّل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَسْمَعْنَ مِنَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيراً وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٨) ، وقال : ﴿ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٩) ، فكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أخذ له فيهم^(١٠) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٦/٢) .

(٢) خمر الشيء : غطاء (الوسيط : ج ٢٥٤/١) .

(٣) التدمم للصاحب : هو أن يحفظ ذمامة ويترج عن نفسه ذم الناس له إن لم يحفظه (لسان العرب : ج ١٥١٧/٢) .

(٤) زام : أي رافع رأسه لا يقبل عليه ، والزّم : الكبّر (النهاية : ج ٣١٤/٢) .

(٥) غتته بالكلام : آذاه (الوسيط : ج ٦٥٠/٢) .

(٦) المتأوّر : اللواثبة (لسان العرب : ج ٥٢١/١) .

(٧) شرق بذلك : أي عصّ به ، وهو مجاز ، فيما ناله من أمر رسول الله ﷺ وحلّ به ، حتى كأنه شيء لم يقدر على إساغته وابتلاعه ففصّ به (النهاية :

ج ٤٦٦/٢) .

(٨) آل عمران : ١٨٦ .

(٩) البقرة : ١٠٩ .

(١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٨/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٥٧٨/٨) كتاب الأدب - باب كنية المشرك .

وروى البخاري بسنده عن أنس ، رضي الله عنه ، قال : قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً ، فانطلق المسلمون يمشون معه ، وهي أرض سبخة ، فلما أتاه النبي ﷺ فقال : إليك عني ؛ والله لقد أداني تنن حمارك ، فقال رجل من الأنصار منهم : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ربحاً منك فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتما ، فغضب لكل واحد منها أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجر يد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنها أنزلت : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : مر رسول الله ﷺ بعبد الله بن أبي ابن سلول ، وهو في ظل أطم ، فقال : غير علينا ابن أبي كبشة ، فقال ابنه عبد الله بن عبد الله : يارسول الله ! والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه ، فقال : « لا ، ولكن برأباك وأحسن صحبته » (٢) .

- وقد استغلت قريش موقف مشركي المدينة من النبي ﷺ فراحت تتصل بهم وتستفزهم لحرب النبي ﷺ .

روى أبو داود بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم أويتم صاحبنا ، وإننا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لتسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ونستبيح نساءكم . فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال : « لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ ، مَا كَانَتْ تُكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تُكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ ، تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ؟ » . فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش (٣) .

ولما تكشفت نوايا قريش وتأكد لدى النبي ﷺ ما كانت تبينه ضده وضد أصحابه من مكائد ، كان لا يبيت إلا ساهراً أو في حرس ، وكان أصحابه لا يفارقون السلاح .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة ، فقال : « لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ » ، قالت : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : « مَنْ هَذَا ؟ » قال : سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَا جَاءَ بِكَ ؟ » قال : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ ، ثم نام (٤) .

وعنها أيضاً قالت : كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٥) ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! انصرفوا فقد عصمتني الله » (٦) .

وعن أبي ذر الغفاري ، رضي الله عنه ، قال : كان النبي ﷺ لا ينام إلا ونحن حوله من مخافة الغوائل ، حتى نزلت آية العصمة : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٧) .

وقيل : كان على حرسه عباد بن بشر ، رضي الله عنه ، فلما نزلت آية العصمة ترك الحرس (٨) .

(١) الحجرات : ٩ ، والخبر في صحيح البخاري (ج ٢٤٠/٣) كتاب الصلح - باب ما جاء في الإصلاح بين الناس .

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٣١٨/٢) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .

(٣) سنن أبي داود (ج ٤٠٤/٣) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب في خير النصير ح ٣٠٠٤ .

(٤) صحيح مسلم (ج ١٨٧٥/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ح ٤٠ .

(٥) المائدة : ٩٧ .

(٦) رواه الترمذي في سننه (ج ٢٥١/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة المائدة ح ٣٠٤٦ وقال : هذا حديث غريب .

(٧) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٥٥/١) .

(٨) انظر : عيون الأثر (ج ٣١٧/٢) .

وروي عن أبي بن كعب ، رضي الله عنه ، قال : لما قدم رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترؤن أننا نعيش حتى نبني آمين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ إلى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ يعني بالنعمة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١)

الإذن بالقتال (٢) :

مكث رسول الله ﷺ ينذر بالدعوة بغير قتال صابراً هو وأصحابه على كيد المشركين وأذاهم ، امثالاً لأمر الله تعالى لهم بالصبر على الأذى ، والكف والعفو بقوله سبحانه : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) ، وقوله عز وجل : ﴿ فَاصْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٤) ، حتى قويت شوكة المسلمين ، واشتد ساعدكم بإسلام الأنصار فأذن الله لهم بالقتال ولم يفرضه عليهم .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا : يا نبي الله ! كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمننا صرنا أذلة ، فقال : « إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » ، فلما حوله إلى المدينة أمره بالقتال (٥) . أي أذن له فيه .

وعن ابن إسحاق قال : وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ، ولم تحل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصمغ عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من أتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنهم عن دينهم ، ونفهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون في دينه ، ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً ؛ منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه .

فلما عنت قريش على الله ، عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ﷺ وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه واعتم بدينه ، أذن الله ، عز وجل ، لرسوله ﷺ في القتال والامتناع والانتصار من ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم - فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء - قول الله تبارك وتعالى :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٦) .

فكان هذا الإذن لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله على ما أرشدت إليه الآيات ، ثم أنزل الله ، عز وجل ، بعد ذلك الإذن بقتال المشركين كافة كإسياتي بيانه .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ،

(١) النور : ٥٥ ، والخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٤٠١/٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٢) قيل : كان ذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من صفر من السنة الثانية للهجرة . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٨٧/١) .

(٣) الحجر : ٩٤ .

(٤) البقرة : ١٠٩ .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٦/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٦) الحج : ٣٩ - ٤١ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٧٥/٢) .

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لِيُهْلِكَنَّ ، فنزلت : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَبْتَغُونَ بَيْتَهُمْ ظِلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ، قال : فعرف أن سيكون قتال ، قال ابن عباس : هي أول آية نزلت في القتال (١) .

السرايا والغزوات (٢) :

لم يكن رسول الله ﷺ يتعرض لقريش وهي تمر بتجارتها إلى الشام ذاهبة وآية حتى أذن الله له بالقتال ، فتهيأ عندئذ لحربها وبدأ يرسل سراياه المسلحة تجوس خلال الصحراء ، وتخترق طريق قوافل قريش ، وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك ، وكان الهدف منها إلقاء الرعب في قلوب المشركين وإظهار شوكة المسلمين ونشاطهم .

سرية حمزة رضي الله عنه إلى سيف البحر (٣) :

وكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين لواء حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، وذلك في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره (٤) ، وقيل في السنة الثانية من الهجرة (٥) ، وحمل اللواء ، وكان أبيض ، أبو مرثد كنان بن الحصين الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنهما .

وبعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، وقيل : كانوا شطرين من المهاجرين والأنصار ، والأرجح أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين ، ولم يبعث ﷺ أحداً من الأنصار بعثاً حتى غزا بهم بدرأ ، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونهم في دارهم .

وخرج حمزة ، رضي الله عنه ، يعترض لعير قريش قد جاءت من الشام تريد مكة ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص (٦) ، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال ، فثنى مجدي بن عمرو الجهني ، وكان حليفاً للفرقيين جميعاً ، إلى هؤلاء مرة وإلى هؤلاء مرة ، حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا ، فتوجه أبو جهل في أصحابه وعبره إلى مكة ، وانصرف حمزة في أصحابه إلى المدينة (٧) . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

فلما قدم أبو جهل مكة قال : يا معشر قريش ! إن محمداً قد نزل يثرب وأرسل طلئعه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً فاحذروا أن تمرؤا بطريقه وأن تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ، وإنه حنق عليكم ، وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قَيْلَةَ ، فهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم ! والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً ولا أصدق موعداً من أخيك الذي طردتم ، فإن فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه ، فقال أبو سفيان بن الحارث : كونوا أشد ما كنتم عليه ؛ فإن ابني قَيْلَةَ إن ظفروا بكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، وإن أطعتموني الحقهم حيز كنانة (٨) ، أو تخرجوا محمداً من بين أظهرهم فيكون وحيداً طريداً ، وأما ابنا قَيْلَةَ فوالله ماها وأهل دهلك (٩) في المذلة إلا سواء ، وسأكفيكم حدثهم وقال :

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (ج ٢١٦/١) ، ورواه الحاكم في المستدرک (ج ٧/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٢) جرت عادة المحدثين وأهل السير واصطلاحاتهم غالباً أن يسموا كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه الكريمة غزوة ، وما لم يحضره بل أرسل بعضاً من أصحابه إلى العدو سريةً وبعثاً .

(٣) سيف البحر : ساحلة (النهاية : ج ٤٣٤/٢) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٧٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٩/٢) .

(٦) العيص : موضع في بلاد بني سليم به ماء يقال له ذنبان العيص (معجم البلدان : ج ٢٤٨/٦) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٧٢) .

(٨) ناحية من أعراض المدينة (معجم البلدان : ج ٢١٥/٧) .

(٩) دهلك : جزيرة في بحر اليمن ، وهو مثنى بين بلاد اليمن والحشبة (معجم البلدان : ج ١١٤/٤) .

سأمنح جانباً مني غليظاً على ما كان من قرب ويُعد
رجال الخزرجية أهل ذلّ إذا ما كان هزل بعد جدّ

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « والذي نفسي بيده لأقتلنهم ، ولأضلبنهم ، ولأهدينهم وهم كارهون ، إني رحمة بعدي الله ، عز وجل ، ولا يتوفاني حتى يطهر الله دينه » (١) .

سرية عبدة بن الحارث رضي الله عنه إلى رايغ :

ثم بعث رسول الله ﷺ عبدة بن الحارث بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، إلى بطن رايغ في شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ (٢) في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ، وليس فيهم من الأنصار أحد ، وعقد ﷺ له لواء أبيض حمله مسطح بن أثاثة ، رضي الله عنه ، فلقي أبا سفيان بن حرب ، وكان على المشركين ، وقيل : كان عليهم عكرمة بن أبي جهل أو مكرز بن حفص ، وهو في مائتين ، على ماء يقال له الأحياء من بطن رايغ على عشرة أميال من الجحفة ، وقد ترامي الفريقان بالنبل ، ولم يتسأوا السيوف ولم يصطفوا للقتال ، ورمى سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمي به في الإسلام ، ثم انكفأ بعضهم عن بعض وللمسلمين حامية . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

وفتر من المشركين إلى المسلمين المقنن بن عمرو البهراي حليف بني زهرة (٣) ، وعتب بن عمرو المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف ، وكانا مسلمين ، ولكنها خرجا ليتوصلا بالكفار ، وقيل : كانا في حبس قريش قد أسلما قبل ذلك فتوصلا بالمشركين (٤) حتى خرجا إلى عبدة وأصحابه (٥) .

قال ابن إسحاق : وكانت راية عبدة بن الحارث أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام لأحد من المسلمين ، وبعض العلماء يزعم أنه ﷺ بعثه حين أقبل من غزوة الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة ، وبعض الناس يقول كانت راية حمزة أول راية (٦) . كما تقدم .

سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى الخرار (٧) :

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، إلى الخرار في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ (٨) ، وعقد له لواء أبيض حمله المقنن بن عمرو ، وبعثه في عشرين رجلاً من المهاجرين ، وقيل ثمانية ، يعترض غيراً لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار . فخرجوا على أقدامهم يكتمون بالنهار ويسرون بالليل حتى صبحوها صبح خمس ، فوجدوا العير قد مرّت بالأمس ، فانصرفوا إلى المدينة ولم يلقوا كيداً (٩) . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

قال ابن هشام : وقد ذكر بعض أهل العلم أن بعث سعد هذا كان بعد حمزة ، رضي الله عنها ، فالله أعلم (١٠) .

- (١) انظر : جمع الزوائد (ج ٦٧/٦) فقد أخرج الخبر الهيثمي وقال : رواه الطبراني وجاده ... ورجاله ثقات .
- (٢) وقيل : كانت في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٤/٢ ، ٢٢٩) .
- (٣) ويعرف بالمقنن بن الأسود ، لأن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبناه في الجاهلية فصار ينسب إليه . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٨/١) .
- (٤) أي أزيانهم أنها معهم ، حتى خرجوا إلى المسلمين ، وتوصلا : بمعنى توسلا وتقرّبا (النهاية : ج ١٩٢/٥) .
- (٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٩/٢) .
- (٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٩/٢) .
- (٧) قال ابن سعد : الخرار حين تروح من الجحفة إلى مكة أبار عن يسار المحجة قريب من خم (طبقات ابن سعد : ج ٧/٢) .
- (٨) جعلها ابن إسحاق في السنة الثانية للهجرة .
- (٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧/٢) .
- (١٠) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٨/٢) .

من توفي بالمدينة في السنة الأولى للهجرة :

وكان أول من توفي من المسلمين بعد مقدم النبي ﷺ المدينة كلثوم بن الهيثم ، رضي الله عنه ، ثم توفي بعده أسعد بن زرارة ، رضي الله عنه ، على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، أخذه وجع في حلقه ، يقال له الذُبْحَة (١) أو الشُهْمَة ، فقال النبي ﷺ : « لَا يُلْعَنُ أَوْ لَا يُلَيَّنُ فِي أَبِي أَمَامَةَ عُدْرًا » ، فكواه بيده ، فمات ، فقال النبي ﷺ : « بئس الميِّت أبو أمامة ليهود ومنافيي العرب ؛ يقولون : لو كان نبياً لم يمّت صاحبه ، ولا أملىك لنفسي ولا لصاحي من الله شيئاً » .

ثم حضر رسول الله ﷺ غسله ، وكفنه في ثلاثة أثواب منها برد ، ومشى أمام جنازته ودفنه بالبقيع رضي الله عنه . (انظر مخطط قبور السلف المعروفة بالبقيع الشريف) . فجاءت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ ، وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيبهم ، فقالوا له : يارسول الله ! إن هذا الرجل قد كان منّا حيث قد علمت ، فاجعل منّا رجلاً مكانه ، يقيم من أمرنا ما كان يقيم - وفي رواية : قالوا : قد مات تقيننا فنقب علينا - فقال رسول الله ﷺ لهم : « أنتم أخوالي ، وأنا بما فيكم ، وأنا تقييكم » ، وكره رسول الله ﷺ أن يخصّ بها بعضهم دون بعض ، وكان من فضل بني النجار الذي كانوا يعدّون على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم (٢) .



(١) الذُبْحَة : وَجَعٌ يَغْرِضُ فِي الْخَلْقِ مِنَ الدَّمِّ ، وَقِيلَ : هِيَ قُرْحَةٌ تَظْهَرُ فِيهِ فَيَنْسَدُّ مَعَهَا وَيَنْقَطِعُ النَّفْسُ فَتَقْتُلُ (النهاية : ج ١٥٤/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٧/٢) ، والمستدرک (ج ١٨٦/٣) ، وسنن ابن ماجة (ج ١١٥٥/٢) كتاب الطب - باب من أكتوى ح ٣٤٩٢ ، وطبقات ابن سعد (ج ٦١١/٣) ، وتاريخ الطبري (ج ٣٩٧/٢) .

السنة الثانية للهجرة

غزوة وَدَّانَ أو الأَبْوَاء (١) :

وهي أول غزوة غزاها النبي ﷺ ، وذلك في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه ﷺ المدينة ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، وكان لواء أبيض ، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، وخرج في سبعين رجلاً من المهاجرين ، ليس فيهم أنصاري ، يعترض عيراً لقريش حتى بلغ وَدَّانَ ، فلم يلق كيداً .
وفي هذه الغزوة وإدع مخشي بن عمرو ، وكان سيد بني ضَمْرَةَ في زمانه ، على أن لا يغزوا بني ضَمْرَةَ ولا يغزوه ، ولا يكثروا عليه جمعاً ، ولا يعينوا عدواً ، وكتب بينه وبينهم كتاباً هذا نصه :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هذا كتاب من مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِبَنِي ضَمْرَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ ، أَنَّهُمْ آمَنُوا عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ لَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَهُمْ بِظُلْمٍ ، وَعَلَيْهِمْ نَصْرُ النَّبِيِّ ﷺ مَا بَلَ بَحْرَ صَوْفَةَ ؛ إِلَّا أَنْ يُحَارِبُوا فِي دِينِ اللَّهِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا دَعَاهُمْ أَجَابُوهُ ، وَعَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ذِمَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَهُمُ النَّصْرُ عَلَى مَنْ بَرَّ مِنْهُمْ وَاتَّقَى » .

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة (٢) . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

غزوة بُوَاطِ (٣) :

وكانت في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره ﷺ ، وحمل لواءه سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، وكان لواء أبيض ، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ أو السائب بن عثمان بن مظعون ، وخرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجُمَحِيُّ ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بُوَاطِ من ناحية رَضَوَى ، فلم يلق كيداً ، فرجع إلى المدينة (٤) . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

غزوة العُشَيْرَةِ (٥) :

وكانت في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره ﷺ (٦) ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، وكان لواء أبيض ، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي . وخرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ، ويقال في مائتين من المهاجرين

(١) وَدَّانُ : قرية بين مكة والمدينة من نواحي الفرع ، بينها وبين الأَبْوَاء نحو من ثمانية أميال ، قريبة من الجُحْفَةَ (معجم البلدان : ج ٤٠٥/٨) ، فمنهم من أضاف الغزوة لَوَدَّانَ ومنهم للأَبْوَاء لتقاربها . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٩٢/١) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٤/١) ، و (ج ٨٢) ، والسيرة الحلبية (ج ١٢٥/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٣٩٦ ، ٣٩٢/١) .

(٣) بُوَاطِ : بضم الباء وقد تفتح ، وهو جبل من جبال جَهَنِمَةَ بِقُرْبِ يَنْبَعِ عَلَى أَرْبَعَةِ بَرْدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ (شرح الزرقاني : ج ٢٩٢/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٢) .

(٥) العُشَيْرَةُ : ويقال : العُسَيْرَةُ أو العَشِيرُ ، وهي موضع لبني مُدَلِجِ بْنِ يَنْبَعِ ، وبين يَنْبَعِ والمدينة تسعة بُرْدٍ . انظر : صحيح البخاري (ج ٩٠/٥) كتاب المغازي - باب غزوة المشيرة ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٣٩٤/١) .

(٦) جعلها ابن إسحاق في أواخر جمادى الأولى ، وجعل رجوعه منها في أوائل جمادى الآخرة . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٤/٢) .

من انتدب ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يمتقبونها ، يعترضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام ، وكان قد جاء الخبر بقصودها^(١) من مكة فيها أموال قريش ، فبلغ ذا العُشيرة ، فوجد العير قد مضت قبل ذلك بأيام ، وهذه هي العير التي خرج لها أيضاً يريدها حين رجعت من الشام ، فكان بسببها غزوة بدر الكبرى .

وفي هذه الغزوة وادع رسول الله ﷺ بني مُدَلِج وحلفاءهم من بني ضَمْرَةَ^(٢) ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً^(٣) . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

وبذي العُشيرة كنى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أبا تراب ، وسمى طلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنه ، طلحة الفياض^(٤) .

روي عن عمار بن ياسر ، رضي الله عنه ، قال : كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العُشيرة ، فلما نزلنا رسول الله ﷺ وأقام بها ، رأينا بها أناساً من بني مُدَلِج يعملون في عين لهم ، وفي نخل ، فقال لي علي بن أبي طالب : يا أبا اليقظان ! هل لك في أن تأتي هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون ؟ قال : قلت : إن شئت ، قال : فجننهم ، فنظرنا إلى عملهم ساعة ، ثم غشنا النوم ، فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في صُور^(٥) من النخل وفي دَفْعَاء^(٦) من التراب فنمنا ، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ يجر كنا برجله ، وقد تتربنا في تلك الدَفْعَاء التي نمنا فيها ، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب : « مالك يا أبا تراب ؟ » لِمَا يرى عليه من التراب ، ثم قال : « أَلَا أَحَدَثْتُكَمَا بِأَشْقَى النَّاسِ رَجُلَيْنِ ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « أَحَيِّمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ » ، ووضع يده على قرنيه^(٧) « حَتَّى يَبُلَّ مِنْهَا هَذِهِ » وأخذ بلحيته^(٨) .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ إنما سُمِّيَ عَلِيًّا أبا تراب أنه كان إذا عتب على فاطمة في شيء لم يكلمها ، ولم يقل لها شيئاً تكرهه ، إلا أنه يأخذ تراباً فيضعه على رأسه قال : فكان رسول الله ﷺ إذا رأى عليه التراب عرف أنه عاتب على فاطمة ، فيقول : « مَالِكُ يَا أبا تراب ؟ » فالله أعلم أي ذلك كان^(٩) .

وروي عن سهل بن سعد ، رضي الله عنه ، قال : ما كان لعلي اسم أحب إليه من أبي تراب ، وإن كان ليفرح به إذا دعي بها ، جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة ، عليها السلام ، فلم يجد علياً في البيت ، فقال : « أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ ؟ » فقالت : كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يَقِلْ^(١٠) عندي ، فقال رسول الله ﷺ لإنسان : « أَنْظِرْ أَيْنَ هُوَ ؟ » فجاء فقال : يا رسول الله ! هو في المسجد راقد ، فجاء رسول الله ﷺ ، وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب ، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه وهو يقول : « قُمْ أبا تراب ، قُمْ أبا تراب »^(١١) .

(١) فَصَلَ الْقَوْمَ فَصُولًا عَنِ الْبَلَدِ : خَرَجُوا (الوسيط : ج ٦٩٧/٢) .

(٢) تَقَدَّمَ فِي غَزْوَةِ وَكَانَ أَنَّهُ ﷺ وَادِعَ بَنِي ضَمْرَةَ ، فَاعْلَمْ هَذِهِ الْمَوَادِعَةَ فِي ذِي الْعُشَيْرَةِ تَأْكِيدًا لِلأُولَى ، أَوْ أَنَّ حَلْفَاءَ بَنِي مُدَلِجٍ كَانُوا خَارِجِينَ عَنِ بَنِي ضَمْرَةَ لِأَمْرٍ ، وَبِسَبَبِهِ حَالَفَ بَنِي مُدَلِجٍ ، فَكَانَ ابْتِدَاءَ صَلَاحٍ لِبَنِي مُدَلِجٍ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٩٥/١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٤/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩/٢) . وفي سيرة ابن هشام (ج ٢٢٤/٢) الطريق الذي سلكه النبي ﷺ إلى العُشيرة .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٦/٢) ، والمستدرک (ج ٣٧٤/٣) .

(٥) الصُّورُ : جَمَاعَةُ النَّخْلِ الصَّغَارِ (لسان العرب : ج ٢٥٢٤/٤) .

(٦) الدَفْعَاءُ : غَامَّةُ التُّرَابِ ، وَقِيلَ : التُّرَابُ الدَّقِيقُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ (لسان العرب : ج ١٤٠٠/٢) .

(٧) القُرْنُ : جَانِبُ الرَّأْسِ . انظر : الوسيط (ج ٧٣٧/٢) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ٢٣٦/٢) .

(٩) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٧/٢) .

(١٠) قَالَ يَقِيلُ : نَامَ وَسَطَ النَّهَارِ فَهُوَ قَائِلٌ (الوسيط : ج ٧٧٦/٢) .

(١١) صحيح البخاري (ج ٧٧/٨) كتاب الاستئذان - باب القائلة في المسجد .

غزوة سَفَوَانَ :

ولم يَقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العُشَيْرَةِ إلَّا ليالي قلائل لا تبلغ العشر حتى أغار كُرُز بن جابر الفِهْرِيُّ على سُرْح (١) المدينة فاستاقه ، وكان يرفع بالجماء ، والجماء جبل ناحية القَيْقِيق إلى الجَرْفِ بينه وبين المدينة ثلاثة أميال ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وكان لواء أبيض ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، فطلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ وادياً يقال له سَفَوَانَ من ناحية بدر ، وفاته كُرُز بن جابر فلم يلحقه ، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة . وتسمى هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى (٢) . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى نخلة :

وفي رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي ، رضي الله عنه ، إلى نخلة في اثني عشر رجلاً ، وقيل في ثمانية من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، كل اثنين يعتقان بعيراً .

وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » ، فقال عبد الله : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى أتية منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فامض لأمر رسول الله ﷺ . فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد ، وسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بخران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، رضي الله عنهما ، بعيراً لهما كانا يعتقانه ، فتخلفا عليه في طلبه .

وسار عبد الله بن جحش وبقيّة أصحابه حتى نزل بنخلة ، فرّت به عير لقريش تحمل زيبياً وأدماً وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان وتوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة ، فلما رآهم القوم هابوهم وأنكروا أمرهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن ، وكان قد حلق رأسه ليطمئن القوم ، فلما رأوه أمنوا وقالوا : هم عمّار لا بأس عليكم منهم ، فسترحوهم ركابهم (٣) . وصنعوا طعاماً ، وتشاور المسلمون فيهم وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب ؛ فلئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتعن منكم به ، ولكن قتلتهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، وشد المسلمون عليهم ، فاستأثر عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وأفلت توفل بن عبد الله فأعجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش ، رضي الله عنه ، بالعين والأسيرين إلى المدينة . (انظر : مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر) .

وقد ذكر أن عبد الله قال لأصحابه : إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس ، وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم ، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير ، وقسم سائرهما بين أصحابه .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ، فوقف التصرف في العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً .

(١) الشرح : المشاية (النهاية : ج ٢٥٨٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٨٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٢) .

(٣) الركاب : الإبل المركوبة ، أو الحاملة شيئاً (الوسيط : ج ٣٦٧١) .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سَقَطَ في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان ، وقالت يهود تفاعل بذلك على رسول الله ﷺ : عمرو بن الحَضْرَمِيِّ قتلته واقد بن عبد الله ؛ عمرو : عمّرت الحرب ، والحَضْرَمِيُّ : حضرت الحرب ، وواقد : وقّدت الحرب ، فجعل الله عليهم ذلك لآلهم . فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدّوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي : قد كانوا ينتنون المسلم في دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (١) ، أي : ثم هم مقيون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير تائبين ولا نازعين .

فلما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّقِّق (٢) ، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا نَفْدِيكُمْوهَا حَتَّى يَقْدَمَ صَاحِبَانَا » - يعني سعد بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان - « فَإِنَا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهَا ، فَإِنِ اتَّقَتْلُوهُمَا نَقْتُلُ صَاحِبَيْكُمْ » . فقدم سعد وعُتْبَةُ ، ففداهما رسول الله ﷺ منهم ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم ، فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قُتِلَ يوم بئر معونة شهيداً ، رضي الله عنه ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فات بها كافراً (٣) .

روي عن المقداد بن عمرو ، رضي الله عنه ، قال : أنا أسرت الحكم بن كيسان ، فأراد أميرنا ضرب عنقه ، فقلت : دعه ؛ تقدم به على رسول الله ﷺ ، فقدمنا ، فجعل رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، فأطال ، فقال عمر : علام تكلم هذا يا رسول الله ؟ والله لا يسلم هنا آخر الأبد ، دعني أضرب عنقه ويقدم إلى أمه الهاوية ، فجعل النبي ﷺ لا يقبل على عمر ، حتى أسلم الحكم ، فقال عمر : فما هو إلا أن رأيته قد أسلم حتى أخذني ما تقدم وما تأخر ، وقلت : كيف أزد على النبي ﷺ أمراً هو أعلم به مني ، ثم أقول : إنما أردت بذلك النصيحة لله ولرسوله - وفي رواية : فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه فقال : « لَوَأْطَعْتُمْ فِيهِ أَنْفَا فَقَتَلْتَهُ دَخَلَ النَّارَ » (٤) - قال عمر : فأسلم والله فحسن إسلامه وجاهد في الله حتى قُتِلَ شهيداً ببئر معونة ، ورسول الله ﷺ راض عنه ، ودخل الجنان (٥) .

ولما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ، رضي الله عنهم ، ما كانوا فيه - حين نزل القرآن - طمِعوا في الأجر ، فقالوا : يا رسول الله ! أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ - وقد كان قال بعض المسلمين : لكن أصابوا خيراً ما لهم من أجر - فأنزل الله ، عز وجل ، فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦) ، فوضعهم الله ، عز وجل ، من ذلك على أعظم الرجاء . وفي هذه السرية سمي عبد الله أمير المؤمنين .

وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن الله ، عز وجل ، قسم الفيء - حين أحله - فجعل أربعة أخماسه لمن أفاءه ، وخمسه إلى الله ورسوله ، فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير . وهي أول غنيمة غنمها المسلمون ، وعمرو بن الحَضْرَمِيِّ أول من قتله المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون (٧) . فعن زرّ ، رضي الله عنه ، قال : أول راية رفعت في الإسلام راية عبد الله بن جحش ، وأول مال خمس في الإسلام مال عبد الله بن جحش (٨) .

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) الشَّقِّقُ : الخَوْفُ (النهاية : ج ٤٨٧/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠/٢) .

(٤) طبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٤) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١٢٧/٤) .

(٦) البقرة : ٢١٨ .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١١/٩) .

(٨) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٦٧/٦) وقال : رواه الطبراني بإسناد حسن .

ويقال إن رسول الله ﷺ وقف غنّام نخلة حتى رجع من غزوة بدر الكبرى ، فقسّمها مع غنائمها ، وأعطى كل قوم حقهم .
 كما يقال إنه عقل^(١) ابن الحضرمي ، وحرّم الشهر الحرام كما كان يحرمه ، حتى أنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(٢) .

قال ابن إسحاق : فقال أبو بكر الصّدّيق ، رضي الله عنه ، في غزوة عبد الله بن جحش ، ويقال : بل عبد الله بن جحش قالها حين قالت قريش : قد أحلّ محمّد وأصحابه الشهر الحرام ، فسفكوا فيه الدّم ، وأخذوا فيه المال ، وأسروا الرّجال :

تُعَدُّونَ قِتْلًا فِي الْحَرَامِ عَظِيمَةً	وأعظم منه لو يرى الرُّشد رَأِشِد
صُدُودٌ كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ	وكفر به والله راء وشاهد
وإِخْرَاجِكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلِهِ	لئلا يرى الله في البيت ساجد
فإنَّا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقِتْلِهِ	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سَقِينَا مِنْ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ رِمَاحِنَا	بنخلة لَمَّا أوقد الحرب واقد
دَمًا وَإِنْ عَبَدَ اللَّهُ عَثْمَانَ بَيْنَنَا	ينازعه غلّ من القيد عاند ^(٣)

وكانت تلك السرية بما هاجت الحرب بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، وأدركت الأخيرة بأن تجارتها إلى الشّام أمام خطر دائم ، وأن المسلمين يترقبون كل حركة من حركاتهم التجارية ، فازدادوا حنقا وغيظا ، وصمّ صناديدهم على إبادة المسلمين في عقور دارهم .

الإذن بقتال المشركين كافة وفرض الجهاد :

وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ الإذن بقتال المشركين كافة ، وفرض على المسلمين القتال وذلك في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة^(٤) ، فقال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٥) .

وقال جلّ وعلا : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٦) .

روى عن السّديّ قال : أوّل آية أنزلت في القتال : ﴿ أَذِينَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ ، قال محمّد بن نصر : وكانوا في أوّل ما أذن الله ، عزّ وجلّ ، لهم في القتال لم يؤمروا بأن يبتدئوا المشركين كافة بالقتال ، بل إنما أمروا أن يقاتلوا من قاتلهم خاصّة ، ومن ظلمهم وأخرجهم من ديارهم ، على ما ذكر الله ، عزّ وجلّ ، في الآية التي أذن فيها بالقتال ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ - يعني في قتالهم فقاتلوا غير الذين يقاتلونكم - ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾^(٧) ، فلما قدم النبي ﷺ وحولها من عبدة الأوثان وأهل الكتابة جماعات ، لم يقاتل أحدا منهم ولم يتعرّض لهم بحرب ، وكان يتعرّض لقريش خاصّة ويقصدهم وذلك أن الله إنما أمرهم بقتال الذين ظلمهم وأخرجهم من

(١) عقل القَيْل : وداة (الوسيط : ج ٦٢٢/٢) .

(٢) التوبة : ١ ، وانظر : طبقات ابن سعد (ج ١١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٧/٣) .

(٣) الغلّ : طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديها (الوسيط : ج ٦٦٦/٢) ، والقيد : السير يقيد من الجلد ليخطف النعال أو نحو ذلك (الوسيط : ج ٧٢٤/٢) ، وعانيد : سائل بالدم لم يجف . انظر : (الوسيط : ج ٦٣٦/٢) . والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/٢) .

(٤) انظر : الرحيق المختوم / للشيخ صفي الرحمن المباركفوري (ص : ٢٢٢ - ٢٢٤) .

(٥) التوبة : ٣٦ .

(٦) البقرة : ١٩٠ - ١٩٣ .

(٧) قال الشافعي رضي الله عنه : يقال : نزل هذا في أهل مكة وهم كانوا أشدّ العدو على المسلمين ، ففرض عليهم في قتالهم ما ذكر الله ، ثم يقال : نُسَخَ =

ديارهم . وكان المشركون أيضاً بالمدينة من أهل الكتاب وعبدة الأوثان يؤذونه وأصحابه فندبهم الله ، عز وجل ، إلى الصبر على أذاهم والعمو عنهم ، فقال : ﴿ وَلَسَمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسِئاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٢) . وكان ربما أمر يقتل الواحد بعد الواحد من قصد إلى أذاه إذا ظهر ذلك وآلب عليه (٣) .

وروي عن الربيع بن سلیمان قال : قال الشافعي رحمه الله : ولما مضت لرسول الله ﷺ مدة من هجرته أنعم الله تعالى فيها على جماعات باتباعه ، حدثت لهم بها مع عون الله ، عز وجل ، قوة بالعدد لم يكن قبلها ، ففرض الله ، عز وجل ، عليهم الجهاد بعد أن كان إباحة لافرضاً ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٥) ، وذكر سائر الآيات في فرض الجهاد (٦) .

ووعده الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالنصر فقال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) .

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى آيات من نوع آخر ، يعلم فيها المسلمين طريقة القتال ، ويحثهم عليه ، ويبين لهم بعض أحكامه : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فِيمَا مَثَاً بَعْدَ وَإِذَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيُجْزِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْفِهِمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٨) .

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتحقق حين سمعوا الأمر بالقتال : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (٩) .

وإيجاب القتال والحض عليه ، والأمر بالاستعداد له ، هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ، ولو كان هناك قائد يسر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ ، فكيف بالرَّبِّ العليم المتعال ، فالظروف كانت تقتضي عراكاً دامياً بين الحق والباطل ، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم أمتهم وتركتهم يتقبلون على مثل الجمر (١٠) .

صرف القبلة :

وفي النصف من رجب من السنة الثانية للهجرة أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، ويقال : صرفت يوم الثلاثاء في النصف من شعبان من تلك السنة والقول الأول أثبت .

= هذا كله والنهي عن القتال في الشهر الحرام بقول الله عز وجل : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ ونزول هذه الآية بعد فرض الجهاد . (دلائل

النبوة للبيهقي : ج ٥٨١/٢) .

(١) آل عمران : ١٨٦ .

(٢) البقرة : ١٠٩ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٨٠/٢) .

(٤) البقرة : ٢١٦ .

(٥) التوبة : ١١١ .

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٨١/٢) .

(٧) الرُّوم : ٤٧ .

(٨) سورة محمد : ٤ - ٧ .

(٩) سورة محمد : ٢٠ .

(١٠) الرحيق المختوم (ص : ٢٢٤) .

وقد كان رسول الله ﷺ يصلي فيما مضى نحو بين المقدس ، وكان يجب أن يوجه إلى الكعبة قبله إبراهيم ، عليه السلام ، لذلك كان ﷺ حين يصلي بمكة يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، فكأنه يستقبل القبلتين معاً . ولكنه لما هاجر لم يعد يمكنه ذلك ، فصار يكثر تقلب وجهه في السماء ويدعو الله تعالى أن يوجهه إلى البيت الحرام ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنْ نُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (١) ، فتوجه ﷺ نحو الكعبة (٢) .

وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ استقبل بيت المقدس ستة عشر شهراً بعد الهجرة ، فبلغه أن يهود تقول : والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم ! فكره ذلك النبي ﷺ فقال لجبريل عليه السلام : « يا جبريل ! ودِدْتُ أَنْ اللَّهُ صَرَفَ وَجْهِي عَنْ قِبْلَةِ يَهُودَ » ، فقال جبريل : إنما أنا عبد ، فادع ربك وسأله ، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء ، فنزلت عليه : ﴿ قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ الآية (٣) .

وقد اختلف في تعيين الصلاة التي وقع فيها تحويل القبلة ، كما اختلف في المسجد الذي كان يصلي فيه النبي ﷺ حين حوِّلت القبلة .

فيروى أن النبي ﷺ صلى ركعتين من الظهر في مسجده النبوي بالمسجد ، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام ، فاستدار إليه ودار معه المسلمون ، فصلّى بهم ركعتين آخرين .

ويقال : بل زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة ، فصنعت له طعاماً ، وحانت الظهر ، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين ، ثم أمر أن يتوجه إلى الكعبة ، فاستدار إليها واستقبل الميزاب ، فسمي المسجد مسجد القبلتين (٤) .

وفي صحيح البخاري أن الصلاة التي وقع فيها التحويل كانت صلاة العصر (٥) ، وفي مجمع الزوائد أنها إحدى صلاتي العشاء (٦) .

وجمع الحافظ ابن حجر بين الروايات فقال : والتحقيق أن أول صلاة صلاها في بني سلمة الظهر ، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصر (٧) .

ووصل خبر تحويل القبلة وقت العصر إلى من هو داخل المدينة ، وهم بنو حارثة ، ووصل وقت الصبح إلى من هو خارجها وهم أهل قباء .

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : بينا الناس بقباء في صلاة الصبح ، إذ جاءهم آت ، فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة (٨) .

وعن تُوَيْلَةَ بنت أسلم ، وهي من المبايعات ، قالت : إنا لبمقامنا نصلي في بني حارثة ، فقال عباد بن بشر بن قَيْطِي : إن

(١) البقرة : ١٤٤ .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١١٠/١) كتاب الصلاة - باب التوجه نحو القبلة ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٢٥/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤١/١) ، وتاريخ الطبري (ج ٤١٦/٢) ، وعيون الأثر (ج ٢٣٦/١) .

(٣) تاريخ الطبري (ج ٤١٧/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤١/١) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤١/١) .

(٥) صحيح البخاري (ج ١٦٧/١) كتاب الإيمان - باب الصلاة من الإيمان .

(٦) مجمع الزوائد (ج ١٢/٢) وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه عبد الملك بن حسين أبو مالك النخعي وهو ضعيف .

(٧) فتح الباري (ج ١٧/١) .

(٨) صحيح البخاري (ج ١١٧/١) كتاب الصلاة - باب ما جاء في القبلة .

رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام والكعبة ، فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء مكان الرجال ، فصلوا الركعتين الباقيتين نحو الكعبة^(١) .

ولما حول الله القبلة حصل لبعض الناس من المناقنين والكفار واليهود ارتياب وزيف عن الهدى وشك فيه ، فقال المنافقون : ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ وقال المشركون من قريش : تحير على محمد دينه فاستقبل قبلتكم ، وعلم أنكم أهدى منه ، ويوشك أن يدخل في دينكم ، وقالت اليهود : اشتاق إلى بلد أبيه ، وهو يريد أن يرضي قومه ، ولو ثبت على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي الذي كنا ننتظر أن يأتي . فأنزل الله تعالى جواب الفرق كلها ، فأنزل في المناقنين : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢) ، وأنزل في اليهود : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٣) قال السدي في تفسير هذه الآيات : لمن جئتهم بكل آية أنزلها الله في التوراة في شأن القبلة أنها إلى الكعبة ما تبعوا قبلتك ، وهم يعرفون أن قبلة النبي الذي يبعث من ولد إسماعيل ، عليها السلام ، قبل الكعبة ، كذلك هو مكتوب عندهم في التوراة ، وهم يعرفونه بذلك كما يعرفون أبناءهم وهم يكتبون ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك هو الحق ، يقول الله تعالى : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴾^(٤) .

وأنزل في قريش وما قالوا : ﴿ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِيَنَّكُمْ عَالِيكُمْ ﴾^(٥) أي : لا تخشوا قول قريش أن أردكم في دينهم وسأظهر دينكم على الأديان كلها .

أما المسلمون فقال بعضهم : كيف حالنا بصلاتنا إلى بيت المقدس ؟ وكيف بمن مات من إخواننا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؟ وقال بعضهم : كان ذلك طاعة وهذا طاعة ، نفعل ما أمرنا النبي ﷺ ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَإِنْ كُنْتَ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾^(٦) أي : صلاتكم لأنكم كنتم مطيعين في ذلك^(٧) .

روي أنه لما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود ، فيهم كعب بن الأشرف ، ورافع بن أبي رافع ، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق ، فقالوا : يا محمد ! ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها تتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ ... ﴾ الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴾^(٨) .

وكانت اليهود وأهل الكتاب قد أعجبهم إذ كان يصلي ﷺ قبل بيت المقدس - كما روى البخاري عن البراء رضي الله عنه - فلما ولى وجهه قبل الكعبة أنكروا ذلك^(٩) .

وروي أيضاً أنه أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، في نفر آخرين من اليهود فقالوا له : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله ؟ فأنزل الله ، عز وجل ، في ذلك من قولهم : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ

(١) رواه الميمني في جمع الزوائد (ج ١٤/٢) وقال : رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

(٢) البقرة : ١٤٢ .

(٣) البقرة : ١٤٥ - ١٤٦ .

(٤) البقرة : ١٤٧ .

(٥) البقرة : ١٥٠ .

(٦) البقرة : ١٤٣ .

(٧) انظر : عيون الأثر (ج ٢٢٤/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٧٤/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٢٢/١) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ١٧٦/٢) .

(٩) صحيح البخاري (ج ١٧/١) كتاب الإيمان - باب الصلاة من الإيمان .

عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ إلى آخر القصة (٢).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال لعائشة ، رضي الله عنها ، وقد أتاه نفر من اليهود : « تَدْرِينَ عَلَيَّ مَا حَسَدُونَا ؟ » فقالت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فَإِنَّهُمْ حَسَدُونَا عَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَيْنَا لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَيْنَا لَهَا ، وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلَّفَ الْإِمَامَ آمِينَ » (٣).

فرض صوم رمضان وزكاة الفطر :

ونزل فرض صوم شهر رمضان بعد ما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة ، وأمر رسول الله ﷺ في هذه السنة بزكاة الفطر ، وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال (٤) ، وأن تخرج عن الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، صاع من تمر ، أو صاع من شعير ، أو صاع من زبيب ، أو مُدَّتَانِ مِنْ بُرٍّ ، وكان يخطب رسول الله ﷺ قبل الفِطْرِ بيومين ، فيأمر بإخراجها قبل أن يغدو إلى المصلّى ويقول : « أَغْنَوْهُمْ - يعني المساكين - عَنْ طَوَافِ هَذَا الْيَوْمِ » وكان يقسمها إذا رجع ، وصلى رسول الله ﷺ صلاة العيد يوم الفطر بالمُصَلَّى قبل الخطبة ، وصلى العيد يوم الأضحى ، وأمر بالأضحى ، وأقام بالمدينة عشر سنين يضحى كل عام .

وكان رسول الله ﷺ إذا ضحى اشترى كبشَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَبَيْنِ أَمْلَحَيْنِ ، فإذا صلى وخطب أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فدبجه بيده بالمُدِّيَّةِ (٥) ، ثم يقول : « اللَّهُمَّ ! هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعاً مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لِي بِالتَّبْلَاغِ » ، ثم يُؤْتِي بِالْآخِرِ فَيَدْبِجُهُ هُوَ عَنْ نَفْسِهِ بِيَدِهِ ، ثم يقول : « هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ » ، فيأكل هو وأهله منه ويُطعم المساكين (٦).

وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما ، فلما قدم رسول الله ﷺ عليهم وفرض صوم شهر رمضان قال : « قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ يَوْمَيْنِ خَيْراً مِنْهُمَا يَوْمَ الْفِطْرِ وَيَوْمَ النَّحْرِ » (٧).

وقد كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة أمر بصيام يوم عاشوراء ، وصامه ، فلما فرض صوم رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر .

وروى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية ، وكان النبي ﷺ يصومه ، فلما قدم المدينة صامه ، وأمر بصيامه ، فلما نزل رمضان كان من شاء صامه ، ومن شاء لا يصومه (٨).

وروى أيضاً بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء ، فسئلوا عن ذلك فقالوا : هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون ، ونحن نصومه تعظيماً له ، فقال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَوْلَى بِمَوْتِي مِنْكُمْ » ، ثم أمر بصومه (٩).

☆ ☆ ☆

(١) التوبة : ٢٠ .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٠٠) .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (ج ٥٦٢) .

(٤) قيل : فرضت زكاة الأموال في السنة الثانية ، وقيل بعدها ، وقيل سنة تسع من الهجرة . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٤٠٦/١) .

(٥) المُدِّيَّةُ : الشَّفْرَةُ الْكَبِيرَةُ (الوسيط : ج ٨٦٥/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٨/١ ، ٢٤٩) .

(٧) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١٧٨/٢) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٥١/٥) كتاب المناقب - باب أيام الجاهلية .

(٩) صحيح البخاري (ج ٨٩/٥) كتاب المناقب - باب إثبات اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة .

غزوة بدر الكبرى^(١)

كانت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة^(٢) ، وقيل في تاريخها أقوال أخرى .

سبب الغزوة وخروج النبي ﷺ :

وكان سببها مقتل عمرو بن الأخطري في سرية عبد الله بن جحش ، رضي الله عنه ، إلى نخلة ، وإقبال أبي سفيان بن حرب من الشام في غير لقريش عظيمة ، فيها أموال لهم وتجارة من تجاراتهم ، وهي تلك العير التي أفلتت من النبي ﷺ في غزوة العشيرة حين ذهابها من مكة إلى الشام .

ويقال كانت عيرهم ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار ، لم يكن لأحد من قريش أوقية فما فوقها إلا بعث بها مع أبي سفيان ، إلا حويط بن عبد العزى فلذلك كان تخلف عن بدر ، وكان فيها ثلاثون رجلاً من بطون قريش كلها أو أربعون أو سبعون ؛ منهم مخزومة بن نوفل وعمرو بن العاص .

وفي طبقات ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما تحين انصراف تلك العير من الشام بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ، رضي الله عنهما ، يتحسسان خبرها ، فبلغا التجار من أرض الحوراء^(٣) ، فنزلا على كشد الجهنّي ، فأجارها وأنزلها وكنم عليها ، حتى مرّت العير ، ثم خرجا وخرج معها كشد حارساً حتى أوردها ذا المروة ، وساخت^(٤) العير ، فساروا بالليل والنهار فرقاً من الطلب ، فقدم طلحة وسعيد المدينة ليخبرا رسول الله ﷺ خبر العير ، فوجدها قد أخبر بها وخرج ، فلحقاه حتى لقياه بئربان^(٥) منصوراً من بدر .

وقد كان رسول الله ﷺ لما سمع بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب أصحابه إليهم وقال : « هذِهِ عَيْرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَأَخْرَجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلَ كَمْوَاهَا » ، وحدثهم بما معهم من الأموال وبقلة عددهم ، فانتدب الناس ، فحَفَّ بعضهم وثَقَلَ بعضهم ، فتخلف عنه بشر كثير ، وكان من تخلف لم يَلَمْ لأنهم ظنوا أن رسول الله ﷺ لا يلقى حرباً ، إنما خرج للعير^(٦) .

- (١) ويقال لها بدر العظيمة ، وبدر القتال ، وبدر الفرقان لأن الله تعالى فرق فيها بين الحق والباطل . ويذكر : قرية مشهورة بين مكة والمدينة على نحو أربع مراحل من المدينة . انظر : السيرة الخليلية (ج ١٤٢/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٤٠٦/١) .
- (٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٦/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٤٨/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٩٧/٢) .
- (٣) الحوراء : ماء لبني تيهان من طييء (معجم البلدان : ج ٣٥٩/٣) .
- (٤) ساحت : أتى الساحل أو سائر عليه (الوسيط : ج ٤٢٢/١) .
- (٥) بئربان : قرية من مكل على كيلة من المدينة (معجم البلدان : ج ٣٧٤/٢) .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/٢ ، ٢٤٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٢/٢ ، ١٢) و (ج ٢١٦/٣) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٢١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠٢/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٤/٦) كتاب المغازي - باب غزوة تبوك .

روي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال : « إِنَّ لَنَا طَلِبَةَ (١) قَمَنْ كَانَ ظَهْرَهُ (٢) حَاضِرًا فَلْيُرْكَبْ مَعَنَا » ، فجعل رجال يستأذنونهم في ظهراتهم في علو المدينة ، فقال : « لَا ، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا » (٣) .

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وقيل : يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان ، وقيل غير ذلك .

واستعمل ابن أم مكتوم ، رضي الله عنه ، على الصلاة بالناس ، ثم رداً أبا لبابة ، رضي الله عنه ، من الرؤحاء واستعمله على المدينة .

عِدَّةُ الْمُسْلِمِينَ :

وكان عِدَّة من خرج معه ﷺ من المهاجرين والأنصار (٤) ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً ، من المهاجرين : ثلاثة وثمانون رجلاً ، ومن الأوس : واحد وستون رجلاً ، ومن الخزرج : مائة وسبعون رجلاً . ويقال : كان فيهم عشرون رجلاً من الموالي (٥) .

روى البخاري بسنده عن البراء ، رضي الله عنه ، قال : كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ بَعْدَةَ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ ، وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ (٦) .

وتخلف عن الخروج ثمانية رجال بعذر ، ضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وأجورهم ؛ ثلاثة من المهاجرين : عثمان بن عفان خلفه رسول الله ﷺ على امرأته رُقَيْيَةَ بنت رسول الله ﷺ ، وكانت مريضة ، فأقام عليها حتى ماتت ، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بعثها يتحسنان خير العير ، وخمسة من الأنصار : أبو لبابة بن عبد المنذر خلفه على المدينة ، وعاصم بن عدي العجلاني خلفه على قُباء وأهل العالية لشيء بلغه عنهم ، والحارث بن الصمة كسير بالرؤحاء ، وخوات بن جبير كسير أيضاً .

وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري أجمع الخروج مع رسول الله ﷺ ، وكانت أمه مريضة ، فقال له خاله أبو بُرْدَةَ بن نيار : أقم على أمك يا ابن أخت ، فقال له أبو أمامة : بل أنت فأقم على أختك ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه ، وخرج بأبي بُرْدَةَ ، فقدم النبي ﷺ وقد توفيت فصلى عليها (٧) .

وكان سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، يتأهب للخروج أيضاً ، ويأتي دور الأنصار يحضهم على ذلك ، فنهش (٨) قبل أن يخرج فأقام ، فقال رسول الله ﷺ : « لَيْنٌ كَانَ سَعْدٌ لَمْ يَشْهَدْهَا لَقَدْ كَانَ عَلَيْهَا حَرِيصًا » (٩) .

وكان من المتخلفين بعذر أيضاً حذيفة بن اليمان وأبوه ، فقد روى مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان ، رضي الله عنهما ، قال : ما منعتني أن أشهد بديراً إلا أنني خرجت أنا وأبي حَسَيْلَ ، قال : فأخذنا كفار قريش ، قالوا : إنكم تريدون محمداً ؟ فقلنا : ما نريد ؛

(١) الطَّلِبَةُ : الْحَاجَّةُ (النهاية : ج ١٣٧/٢) .

(٢) الظَّهْرُ : الْإِبِلُ الَّتِي يَحْتَمِلُ عَلَيْهَا وَتُرْكَبُ (النهاية : ج ١٦٦/٣) .

(٣) صحيح مسلم (ج ١٥١٠/٣) كتاب الإمارة - باب ثبوت الجنة للشهيد ح ١٤٥ .

(٤) وهذه أول غزاة خرجت فيها الأنصار مع النبي ﷺ ، فلم يكن غزاً بأحد منهم قبل ذلك ، كما سبق أن ذكرنا . وانظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٧/٢ ، ١٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥١/٢ ، ٢٥٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٩٣/٦) .

(٦) صحيح البخاري (ج ٩٤/٥) كتاب المغازي - باب عدة أصحاب بدر .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢/٢) ، والمستدرک (ج ٤١٩/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ٣٧/٣) .

(٨) نَهَشَتْهُ الْحَيَّةُ : لَسَعَتْهُ (الوسيط : ج ٩٦٧/٢) .

(٩) المستدرک (ج ١٩١/٣) .

ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرف إلى المدينة ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر ، فقال : « أَنْصِرْفَا ، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ » (١) .

وفي رواية : فأرادوا أن يقتلوهما ، فأخذوا عليهما عهد الله وميثاقه أن لا يعينان عليهم ، فحلفا ، فأرسلوهما (٢) .

ولما ندب رسول الله ﷺ المسلمين إلى الخروج يوم بدر قالت له أم ورقة ، وكان يزورها كل جمعة ، : يا نبي الله ! أتأذن فأخرج معك أمرض مرضاكم وأداوي جرحاكم لعل الله يهدي لي شهادة ، فقال : « قَرِي ، فَإِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، يَهْدِي لَكَ شَهَادَةً » . وكانت أعتقت جارية لها وغلماً عن دُبُر (٣) منها ، فطال عليها ، فغمَّها (٤) في التغطية حتى ماتت ، وهربا ، فأُتي عمر ، فقيل له : إن أم ورقة قد قتلها غلامها وجاريتها وهربا ، فقام عمر في الناس فقال : إن رسول الله ﷺ كان يزور أم ورقة ، يقول : « أَنْطَلِقُوا نَزُورَ الشَّهِيدَةِ » ، وإن فلانة جاريتها وغلماً غلامها غمَّها ثم هربا ، فلا يؤويها أحد ، ومن وجدها فليأت بها ، فأُتي بها فصلياً ، فكان أول مصلوئين (٥) .

وكان قد تخلف عن بدر رجال آخرون من أكابر الصحابة من النقباء وغيرهم بغير عذر ، لأنهم - كما ذكرنا - لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً ولا قتالاً حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد (٦) .

عتاد المساميين :

خرج المساميون يوم بدر وعامتهم على الإبل ومشاة على أقدامهم ، وكانت إبلهم سبعين بعيراً يتعاقبونها كل ثلاثة على بعير ، فكان رسول الله ﷺ وعليّ بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة ، وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله ﷺ يعتقبون بعيراً ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً .

ويروى أنه كان عليّ وأبو لبابة (٧) زميلي رسول الله ﷺ ، وكان إذا كانت عقبته قالوا له : اركب حتى نمشي ، فيقول : « مَا أَنتُمْ بِأَقْوَى مِنِّي ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمْ » .

وكان رفاة وخلاد ابنا رافع يعتقبان بعيراً أعرج ، حتى إذا كانوا بالزوحاء برك بعيرهما ، فز بها رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله ! برك علينا بعيرنا ، فنزل رسول الله ﷺ فتوضأ ، ثم بصق في وضوءه ، وأمرها أن يفتح له في البعير ، فصب في جوفه من وضوءه ، ثم صب الباقي عليه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! احْمِلْ رِفَاعَةَ وَخَلَادًا » ، ومضى رسول الله ﷺ ، فأدركاه وبعيرهما أول الركب ، فلما رأها رسول الله ﷺ ضحك .

وأمر رسول الله ﷺ بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل وقال : « لَا تَصْحَبِ الْمَلَائِكَةَ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ وَلَا جَرَسٌ » .

وكان مع المساميين من الخيل فرس مرثد بن أبي مرثد ، وكان يقال له السبل ، وفرس المقداد بن عمرو ، وكان يقال له بخرجة

(١) صحيح مسلم (ج ١٤١٤/٣) كتاب الجهاد والسير - باب الوفاء بالعهد ح ٩٨ .

(٢) للستدرك (ج ٣٧٩/٣) .

(٣) يقال : دُبُرْتُ العَبْدَ إِذَا عَلَّقْتَ عِقَّةَ بَمَوْتِكَ ، وَهُوَ التَّدْبِيرُ ؛ أَي : أَنَّهُ يَعْتَقُ بَعْدَمَا يَدْبُرُهُ سَيِّدُهُ وَيَمُوتُ (النهاية : ج ١٨٧/٢) .

(٤) عَمَى الشَّيْءُ : سَتَرَهُ وَغَطَّاهُ (الوسيط : ج ٦٧٠/٢) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٤٠٥/٦) .

(٦) انظر : للستدرك (ج ٢٨٧/٣) .

(٧) وذلك قبل أن يرد أبا لبابة إلى المدينة من الزوحاء ، وبعد أن رده قام مقامه مرثد رضي الله عنها .

أو سَبْحَةَ ، و فرس الزُّبَيْر بن العَوَّام ، وكان يقال له اليَعْسُوب . وقيل : لم يكن معهم إلا فرسان : فرس للزُّبَيْر بن العَوَّام ، و فرس
للمُقَدِّد بن عمرو^(١) .

استعراض النَّبِيِّ ﷺ أصحابه وردّه الصَّغار :

ولما خرج رسول الله ﷺ من المدينة ضرب عسكره ببئر أبي عَنَبَةَ ، وهي على ميل من المدينة ، فعرض أصحابه ، وردّه من
استصفه .

وكان من ردّه : أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، والبراء بن عازب ، ورافع بن خَدِيج ، وأُسَيْد بن ظَهْر ، وزيد بن أرقم ،
وزيد بن ثابت رضي الله عنهم .

ورده عُمَيْر بن أبي وقَّاص فبكى ، فأجازه ، قال سعد : رأيت أخي عَمَيْراً قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ للخروج إلى بدر
يتوارى ، فقلت : مالك يا أخي ؟ فقال : إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرنى فيردّني ، وأنا أحبّ الخروج لعلّ الله يرزقني
الشهادة ، قال : فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره ، فقال : « ارجع » ، فبكى عَمَيْر ، فأجازه رسول الله ﷺ ، قال سعد : فكننت
أعقد له حمائل سيفه من صغره ، قال عَمَيْر : لقد شهدت بدرًا وما في وجهي إلا شعرة واحدة أمسحها بيدي . فقتل ببدر ، قتله
عمرو بن عبد وُدّ .

ويروى أنه ﷺ عسكر ببيوت السُّقْيَا ، وهي عين بينها وبين المدينة يومان ، وأنه شرب منها حين خرج إلى بدر ، وكان يشرب
منها بعد^(٢) .

توزيع القيادات :

ودفع رسول الله ﷺ اللواء الأعظم ، وكان أبيض ، إلى مُصْعَب بن عَمَيْر ، وكان أمامه رايتان سوداوان ؛ إحداهما راية
المهاجرين مع عليّ بن أبي طالب يقال لها العَقاب ، والأخرى راية الأنصار مع سعد بن معاذ^(٣) ، وقيل : مع الحُباب بن المُنْذِر .

وقيل : كان لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الحُباب بن المُنْذِر ، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ .

وجعل رسول الله ﷺ الزُّبَيْر بن العَوَّام على المينة ، والمُقَدِّد بن الأسود على الميسرة ، وجعل على السَّاقَةِ^(٤) قيس بن
أبي صَعَصَعَة أخا بني مازن بن النجار .

وليس رسول الله ﷺ درعه ذات الفضول ، وتقلد سيفه العَضْب ، وكان أرسل إليه بها سعد بن عبادة رضي الله عنه^(٥) .

فلما فصل رسول الله ﷺ من بيوت السُّقْيَا قال : « اللَّهُمَّ ! إِنَّهُمْ حَفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ ، اللَّهُمَّ ! إِنَّهُمْ عَرَاةٌ فَكُسِّمْهُمْ ، اللَّهُمَّ ! إِنَّهُمْ جِيَاعٌ
فَأَشْبِعْهُمْ »^(٦) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥١/٢ ، ٢١٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٢) ، وسنن سعيد بن منصور (ج ١٢٦/٢) ، والمستدرک (ج ١٠٥/٢) و
(ج ٢٠٣) ، ومسنند الإمام أحمد (ج ١٥٠/٦) ، وصحيح مسلم (ج ١٦٢/٢) كتاب اللباس والزينة - باب كراهة الكلب والجريس في السفر
ج ١٠٣ ، وجمع الزوائد (ج ٧٤/٦) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٢/٥) كتاب المغازي - باب عدة أصحاب بدر ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٠٦/١) و (ج ١٢/٢) و (ج ١٤٧/٣) ،
وتاريخ الطبري (ج ٤٧٧/٢) ، وكنز العمال (ج ٤١١/١٠) ، والسيرة الحلبية (ج ١٤٦/٢) .

(٣) المعروف كما قال ابن سيد الناس أن سعد بن معاذ كان يوم بدر على حرس رسول الله ﷺ في العريش (عيون الأثر : ج ٢٤٦/١) .

(٤) السَّاقَةُ : جَمْعُ سَائِيٍّ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْعَرَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ وَرَائِهِ يَحْفَظُونَهُ . وَسَاقَةُ الْجَيْشِ : مُؤَخَّرَةٌ (لسان العرب : ج ٢١٥٤/٣) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥١/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٨٢/٦) ، وعيون الأثر (ج ٣١٨/٢) ، والسيرة الحلبية
(ج ١٤٨/٢) .

(٦) انظر : سنن أبي داود (ج ١٨١/٣) كتاب الجهاد - باب في نفل السرية تخرج من المعسكر ج ٢٧٤٧ .

وأمرهم رسول الله ﷺ بالإفطار، وأفطر^(١)، فعن عبد الله بن عبيدة أن رسول الله ﷺ غزا غزوة بدر في شهر رمضان، فلم يَصُمْ يوماً حتى رجع إلى أهله^(٢).

طريق النبي ﷺ إلى بدر :

سار رسول الله ﷺ بأصحابه على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، فسلك على العقيق، ثم على ذي الحليفة، ثم على ذات الجيوش، ثم مرّ على تَرْبَانَ، ثم على مَكَل، ثم على غَمَيْسِ الْحَمَامِ من مَرِّيْنِ، ثم على صَحِيْرَاتِ الْيَمَامِ، ثم على السَّيَالَةِ، ثم على فَجِّ الرُّوحَاءِ، ثم على شَنُوَكَةَ.

حتى إذا كان بعِزْقِ الطَّيْبِيَّةِ لقوا رجلاً من الأعراب، فسألوه عن الناس، فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله ﷺ، قال: أوفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم، فسلم عليه، ثم قال: إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه، قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله ﷺ وأقبل عليّ فأنا أخبرك عن ذلك؛ نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة^(٣)، فقال رسول الله ﷺ: «مئة أفحشت على الرجل»، ثم عرض عن سلمة.

ونزل رسول الله ﷺ سَجَسَحَ، وهي بئر الرُّوحَاءِ، ثم ارتحل منها، حتى إذا كان بالمَنْصَرَفِ ترك طريق مكة بيسار، وسلك ذات البين على النَّازِيَةِ، يريد بدرأ، فسلك في ناحية منها، حتى جَزَعَ وادياً^(٤) يقال له رَحْقَان، بين النَّازِيَةِ وبين مضيق الصَّفْرَاءِ، ثم على المضيق، ثم انصب منه، فلما استقبل الصَّفْرَاءِ - وهي قرية بين جبلين - سأل عن جبلها ما أسأوها، فقالوا: يقال لأحدهما: هذا مُسْلِح، وقالوا للآخر: هذا مُخْرِيء، وسأل عن أهلها فقيل: بنو النَّار، وبنو خِرَاق؛ بطنان من غِفَار، فكرهها رسول الله ﷺ والمرور بينهما، وتفساء بأسمائها وأسماء أهلها، فتركها رسول الله ﷺ والصفراء بيسار، وسلك ذات البين على واد يقال له ذَفْرَان، فجزع فيه ثم نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمعوا عنهم، ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذَفْرَان، فسلك على ثنايا يقال لها الأَصَافِر، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدَّبَّة، وترك الحنَّانَ بيين، وهو كثيب عظيم كالجبل، ثم نزل قريباً من بدر^(٥).

رفض النبي ﷺ الاستعانة بمشرك :

روي عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: خرج رسول الله ﷺ قبيل بدر، فلما كان بَحْرَةَ الْوَبْرَةِ^(٦) أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لاتبِعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: لا، قال: «فارجع، فلن أَسْتَعِين بِمُشْرِكٍ». قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة، قال: «فارجع فلن أَسْتَعِين بِمُشْرِكٍ»، قال: ثم رجع، فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: «فأنطلق»^(٧).

وروي عن خُبَيْبِ بْنِ يَسَافٍ قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو يريد غزواً، وأنا ورجل من قومي ولم نُسَلِّم، فقلنا: إنا نستحي أن يشهد قومنا مشهداً لانشهده معهم، قال: «أو أسلمتُمَا؟» قلنا: لا، قال: «فلا نستعين بالمُشْرِكِينَ على المُشْرِكِينَ»، قال:

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (ج ٢٢/١).

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢١/٢).

(٣) السُّخْلَةُ: وَكَلْدُ الشَّاةِ مِنَ الْمَعَزِ وَالضَّانِ، ذَكَرَ كَانُ أَوْ أُنْثَى. وقد تقدم.

(٤) جَزَعَ الْوَادِي: قَطَعَهُ عَرْضاً (الوسيط: ج ١٢١/١).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢٥١/٢ - ٢٥٤).

(٦) مَوْضِعٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ (معجم البلدان: ج ٢٦٢/٣).

(٧) صحيح مسلم (ج ١٤٤٩/٣) كتاب الجهاد والسير - باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر ح ١٥٠.

فأسلمنا وشهدنا معه ، فقتلت رجلاً وضربني ضربة ، وتزوجت بابنته بعد ذلك ، فكانت تقول : لاعدمت رجلاً وشحك هذا الوشاح ، فأقول : لاعدمت رجلاً عجل أباك إلى النار (١) .

استنفار أبي سفيان قريشاً لحماية العير ورؤيا عاتكة :

وكان أبو سفيان حين دنا بالعير من أرض الحجاز يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان مخوفاً على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً - ﷺ - قد استنفر أصحابه للعير ، فحذر عند ذلك أبو سفيان فاستأجر ضمّم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لنا في أصحابه ، فخرج ضمّم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

وقبل أن يقدم بثلاث ليال رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعته ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له : يا أخي ! والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني (٢) وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاکتم عني ما أحدثك به ، قال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به (٣) بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارتفضت (٤) ، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منه فلقته . قال العباس : والله إن هذه لرؤيا ، وأنت فاکتميتها ، ولا تذكرها لأحد .

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكة ، حتى تحدّث به قريش في أنديةها .

قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش تعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رأني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ! إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم ، فقال لي أبو جهل : يا بني عبد المطلب ! متى حدثت فيكم هذه النبئية ؟ قال : فقلت : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عاتكة ، قال : قلت : وما رأيت ؟ قال : يا بني عبد المطلب ! أما رضيت أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم !! - وفي رواية : أما رضيت يا بني قضي أنك ذهبت بالحجابه والنسوة والسقاية واللواء حتى جئتمونا ، زعمت ، بنبي منكم ! - فأذاه يومئذ أشد الأذى ، قال أبو جهل : لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك ذلك شيئاً نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس : فوالله ما كان مني إليه كبير ، إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأيت شيئاً - وفي رواية : قال له العباس : مهلاً يا مصفراًسته (٥) ! هل أنت منته ، فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك ، فقال له من حضره : يا أبا الفضل ! ما كنت بجاهل ولا خرف . ونال العباس من عاتكة أذى شديداً فيما أفشى من حديثها .

قال العباس : ثم تفرقتنا ، فلما أمسيت لم تبقى امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت : أفرتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت ؟ قال : قلت : قد والله فعلت ، ما كان مني إليه من كبير ، وإيم الله لأتعرضن له ، فإن عاد لأكفيئكنه . قال : فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد (٦) مغضب ، أرى أني قد

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٤٥٤/٣) .

(٢) أظظعتني : أي أكبرتها وخفتها (النهاية : ج ٤٥٩/٣) .

(٣) مثل به : قام منتصباً (الوسيط : ج ٨٦٠/٢) .

(٤) ارتفضت : تفرقت وتبددت وزالت (الوسيط : ج ٣٦١/١) .

(٥) مصفراًسته : من الصفرة ، وهي كلمة تقال للمنتقم المترف الذي لم تحنكة التجارب والشدائد ، وقيل : من الصفير ؛ أي نسبة إلى الجبن والخور .

انظر : (لسان العرب : ج ٢٤٥٨/٣) .

(٦) رجل حديد من قوم أحياء ، يكون في اللسن والفهر والغضب (لسان العرب : ج ٨٠٠/١) .

فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه ، قال : فدخلت المسجد فرأيتَه ، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به ، وكان رجلاً خفيفاً ، حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر ، قال : إذ خرج نحو باب المسجد يشتد ، قال : فقلت في نفسي : ماله لعنه الله ؟ أكل هذا فَرَقَ مني أن أشأته ؟ قال : وإذا هو قد سمع ما لم أسمع ، صوت ضَمَمَ بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره وقد جَدَعَ (١) أنفه ، وحول رحله ، وشقَّ قيصه ، وهو يقول : يامعشر قريش ! اللطيمة اللطيمة (٢) ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، العوث العوث . قال : فشغلتني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر ، وفزعت قريش أشدَّ الفزع وأشفقوا من قبل رؤيا عاتكة (٣) .

تجهز قريش لملاقاة النبي ﷺ :

فتجهز الناس سراعاً وقالوا : أيعظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك ، ويقال إن أبا جهل قال : أيعظن محمد أن يصيب مثل ما أصاب بنخلة ؟ سيعلم أئمنع عيرنا أم لا ؟ فنفروا على كل صعب وذلول (٤) ، وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعيت قريش ، فلم يتخلف من أشرافها أحد ، سوى أبي لهب بن عبد المطلب ، فإنه قال : واللآت والعزرى لا أخرج ، وما منعه من ذلك إلا إشفافاً من رؤيا عاتكة ، وكان يقول : رؤيا عاتكة أخذ باليد ، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة ، وكان قد لاط له (٥) بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يجزي عنه بعثه ، فخرج عنه .

ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي بن كعب فلم يخرج منهم رجل واحد (٦) ، ولم يتركوا كارهاً للخروج يظنون أنه في صغو (٧) محمد وأصحابه ، ولا مسلماً يعلمون إسلامه ، ولا أحداً من بني هاشم ، إلا من لا يهتمون ، إلا أخرجوه معهم . فكان بمن أخرج كرهاً : العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وطالب وعقيل ابنا أبي طالب في آخرين ، فهناك يقول طالب بن أبي طالب :

إِذَا يَخْرُجْنَ طُـطـالِبُ بِمِقْنَبِ (٨) مِنْ هَذِهِ الْمَقَابِ
فِي نَفَرٍ مَقَاتِلٍ مَحَارِبُ فليكن المسلوب غير السالب
والراجع المغلوب غير الغالب

وأراد أمية بن خلف العمود ، وكان شيخاً جليلاً ثقيلاً ، فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراي قومه بمجمرية يحملها فيها نار ومجمر (٩) حتى وضعها بين يديه ، ثم قال : يا أبا علي ! استجمر فإنما أنت من النساء - وكان أبو جهل سلط عقبة على ذلك وكان سفيهاً - فقال له أمية : قبحك الله وقبح ما جئت به !!

- (١) جدع : قطع (الوسيط : ج ١١٠/١) .
- (٢) أي أدركوا اللطيمة ، وهي عير تحمل المسك والبر وغيرهما للتجارة (الوسيط : ج ٨٢٣/٢) .
- (٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٧٠/٦) .
- (٤) أي خرجوا على كل صعب وذلول لشدة إصرارهم ، والصعب من الإبل : العير الذي لا يتقاز ، والذلول : السهل الانقياد . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٤٦/٢) ، والوسيط : (ج ٥١٦/١ ، ٢١٤) .
- (٥) لاط له : أي أربى له . قال أبو عبيد : وبني الربا لياطاً لأنه ملصق بالبيع وليس ببيع ، وقيل لأنه لاصق بصاحبه لا يقضيه ولا يوضع عنه . انظر : (الروض الأنف : ج ٤٢/٣) .
- (٦) ويقال : إن بني عدي بن كعب خرجت مع النفير ، فلما أرسل إليهم أبو سفيان بنجاة العير وأمرهم بالرجوع رجعوا . انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣/٢) .
- (٧) صغاً إلى القوم : كان هواة معهم (الوسيط : ج ٥١٨/١) .
- (٨) المقنب : جماعة الخيل والفرسان ، وقيل : هو ذون المائة (النهاية : ج ١١١/٤) .
- (٩) المجمر : الذي يتبخر به وأعد له الجمر (النهاية : ج ٢٩٢/١) .

وكان سبب كراهة أمية الخروج أن سعد بن معاذ ، رضي الله عنه ، قدم مكة معترراً ، فنزل على أمية بن خلف ، وكان له صديقاً ، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد ، فقال سعد لأمية : انظر لي ساعة خلوة ، لعلني أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من نصف النهار ، فلقبها أبو جهل ، فقال : يا أبا صفوان ! من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة أمناً وقد أويتم الصبابة وزعمت أنكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان مارجمت إلى أهلِكَ سالماً ، فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتني هذا ، لأمنعتك ما هو أشدّ عليك منه طريقك على المدينة ، فقال له أمية : لا ترفع صوتك ياسعد على أبي الحكم سيّد أهل الوادي ، فقال سعد : دعنا عنك يا أمية ؛ فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم قاتلوك ، قال : بمكة ؟ قال : لأدري ، فقال أمية : والله ما يكذب محمد إذا حدّث . وفزع لذلك فزعاً شديداً حتى كاد يُحدّث^(١) ، فلما رجع إلى أهله قال : يا أمّ صفوان ! ألم تري ما قال لي سعد ؟ قالت : وما قال لك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي ؛ فقلت له : بمكة ؟ قال : لأدري ، فقال أمية : والله لا أخرج من مكة . فلما كان يوم بدر واستنفر الناس لإدراك العير ، كره أمية أن يخرج ، فأتاه عقبه وقال له ما تقدم ، ثم أتاه أبو جهل - وكان يستنفر الناس - فقال : يا أبا صفوان ! إنك متى يراك الناس قد تخلفت ، وأنت سيّد أهل الوادي تخلفوا معك ، ولم يزل به حتى قال أمية : أما إذا غلبتني فوالله لأشتري أجود بعير بمكة ، ثم قال أمية : يا أمّ صفوان ! جهّزي ، فقالت له : يا أبا صفوان ! وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثري ! قال : لا ، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً . فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلاً إلا عقل بعيره ، فلم يزل بذلك حتى قتله الله ، عز وجل ، ببدر^(٢) .

عِدَّة المشركين وعتادهم :

وكانت عِدَّة المشركين تسعمائة وخمسين مقاتلاً ، وقيل : كانوا ألفاً ، وكان معهم مائة فرس أو مائتان ، وسبعمائة

بعير .

وكانت ألويتهم ثلاثة : لواء مع أبي عزيز بن عمير ، ولواء مع النضر بن الحارث ، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة وكلهم من بني عبد الدار^(٣) .

أمر الحرب بين قريش وكنانة :

ولما فرغت قريش من جهازها ، وأجمعت المسير ، ذكرت ما كان بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب ، فقالوا : إننا نخشى أن يأتونا من خلفنا^(٤) ، فكد ذلك يثنيهم ، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقّة بن مالك بن جعشم المُدَجِجِي ، وكان من أشراف بني كنانة ، فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتئكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه - وفي رواية أنه قال لهم : إن بني كنانة ورائي ، وقد أقبلوا لنصركم ، وإنه لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم .

وحينئذ خرجوا ومعهم القيان^(٥) يضربن بالسدفوف ويعجنن بهجاء المسلمين ، وهم في غاية البطر والحيلاء ، كما قال الله تعالى

(١) أي يَبُولُ في ثيابه فَرَعاً (السيرة الحلبية : ج ١٤٥/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٧/٢ ، ٢٥٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٤/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠٥/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٩١/٥) كتاب المغازي - باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر ، والسيرة الحلبية (ج ١٤٥/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥/٢ ، ٢١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٢/٣) ، وصحيح مسلم (ج ١٢٨٢/٣) كتاب الجهاد والسير - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر .. ح ٥٨ ، والبداية والنهاية (ج ٢٦٠/٣) .

(٤) كانت الحرب التي وقعت بين قريش وبين بني بكر في ابن لخص بن الأخيف من بني عامر بن لؤي ، قتله رجل من بني بكر بإشارة من عامر بن يزيد بن عامر بن الملوّح أحد بني بكر ، ثم أخذ بثأره أخوه مكرز بن حفص فقتل عامراً وخاض بسيفه في بطنه ، ثم جاء من الليل فعلقه بأستار الكعبة ، فبينما هم في ذلك من حريمهم حجز الإسلام بين الناس ، فتشاغلوا به ، حتى أجمعت قريش المسير إلى بدر ، فذكروا الذي بينهم وبين بني بكر فخافوهم بسبب ذلك . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٨/٢ - ٢٤٩) .

(٥) القِيَانُ : المُغَنِّيَاتُ (الوسيط : ج ٧٧٦/٢) .

عنهم : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (١) .

المطعمون من قريش :

وكان المطعمون لهذا الجيش اثني عشر رجلاً ؛ من بني هاشم بن عبد مناف : العباس بن عبد المطلب ، ومن بني عبد شمس بن عبد مناف : عتبة بن ربيعة ، ومن بني نوفل بن عبد مناف : الحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، ومن بني أسد بن عبد المطلب : أبا البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ومن بني عبد الدار بن قصي : النضر بن الحارث ، ومن بني مخزوم بن يقظة : أبا جهل بن هشام ، ومن بني جمح : أمية بن خلف ، ومن بني سهم : نبيهة ومتهبا ابني الحجاج بن عامر ، ومن بني عامر بن لؤي : سهيل بن عمرو .

وكان كل واحد منهم ينحدر كل يوم عشر جزائر أو تسعة ، وكان أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل بن هشام ، وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (٢) .

طريق المشركين :

سار المشركون باتجاه بدر ، ومروا في طريقهم بمر الظهران ، ثم سلكوا إلى عسفان ، ثم قديد ، ومالوا من قديد إلى مياه من نحو البحر فأقاموا بها يوماً ، ثم أصبحوا بالجحفة فنزلوا بها .

وكانت قريش حين فصلت من مكة أرسلت قرات بن حيان ، وكان مقياً بمكة ، إلى أبي سفيان يخبره بمسيرها وفصولها ، فخالف أبا سفيان في الطريق ، فوافي المشركين بالجحفة ، فمضى معهم ، فخرج يوم بدر جراحات وهرب على قدميه .

ويروى أنه لما نزلت قريش الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخزومة رؤيا ، فقال : إني رأيت فيما يرى النائم ، وإني لبين النائم واليقظان ، إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وفلان ، وفلان - فعدت رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشرف قريش - ثم رأته ضرب في لجة (٣) بعيره ، ثم أرسله في العسكر ، فما بقي خيأ من أخبية العسكر إلا أصابه نضح (٤) من دمه . فبلغت أبا جهل ، فقال : وهذا أيضاً نبي آخر من بني عبد المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا (٥) .

إحراز أبي سفيان العير ورسالته إلى أهل مكة :

وكان أبو سفيان يسير بالعير على الطريق الرئيسي ، فلما دنوا من المدينة خافوا خوفاً شديداً ، واستبطؤوا ضمماً والتفير ، فتقدم أبو سفيان العير حذراً حتى ورد ماء بدر ، فلقي مجدي بن عمرو الجهنمي ، فقال له : هل أحسست أحداً من عيون محمد ؟ فقال مجدي : والله ما رأيت أحداً أنكره ؛ إلا أتي قد رأيت راكبتين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شئ (٦) لهما ، ثم انطلقا ، وأشار إلى مناخ عدي بن أبي الزغباء وبسبس بن عمرو الجهنمي - وكان رسول الله ﷺ قد بعثها إلى بدر يتحسان له أخبار العير - فبعث أبو سفيان مناخها فأخذ من أبعار بعيريهما ، ففتته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، وهذه عيون محمد ، فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجوه العير واتجه بها نحو ساحل البحر ، وترك الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار ، ثم أسرع فنجأ . (انظر : مصور غزوة بدر الكبرى / قافلة قريش بإمرة أبي سفيان) .

(١) الأنفال : ٤٧ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٨/٢ ، ٢٥٠) ، وعيون الأثر (ج ٢٤٥/١) .

(٢) الأنفال : ٣٦ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١١/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ١٠٩/٣) .

(٣) اللجة : هي اللهزيمة التي فوق الصدر ، وفيها تنحز الإبل (لسان العرب : ج ٣٩٨١/٥) .

(٤) يقال : نضح عليه الماء ونضح به ، إذا رشه عليه (النهاية : ج ٦٩/٥) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٧/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠٩/٣) .

(٦) الشئ : القربة (النهاية : ج ٥٠٦/٢) .

فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس برسالة يقول فيها : إنكم إنما خرجتم لتنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجّاه الله فارجموا .

فلما قال لهم الرسول ذلك - وهم ما زالوا بالْجُحْفَةَ - هموا بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجُزْر ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

وقال الأُخْس بن شريق ، وكان حليفاً لبني زُهْرَةَ : يا بني زُهْرَةَ ! قد نجّى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتنعوه وماله ، فاجعلوا بي جنبها وارجموا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ، لا ما يقول هذا ، يعني أبا جهل ، فرجموا من الجُحْفَةَ ، فلم يشهدوا زُهْرَةَ واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً^(١) . وكان بنو زُهْرَةَ يومئذ مائة رجل ، ويقال : ثلاثمائة رجل .

وأرادت بنو هاشم الرجوع فبين رجع ، فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : والله لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع . ويروى أنه جرى بين طالب بن أبي طالب وبين بعض قريش محاورة فقالوا : والله لقد عرفنا يا بني هاشم ، وإن خرجتم معنا ، إن هواكم مع محمد ، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع^(٢) .

ويروى عن عبد الله بن الحارث قال : لما كان يوم بدر جمعت قريش بني هاشم وحلفاءهم في قبّة وخافوهم ، فوكّلوا بهم من يحفظهم ويشدّد عليهم ، منهم حكيم بن حزام^(٣) .

ومضى المشركون نحو بدر حتى نزلوا قريباً منها وراء كَثِيب يقع بالعدوة القُصوى . وقد كان خُفّاف بن أيّماء بن رَحْضَةَ الغِفاريّ أو أبوه أيّماء بعث إلى قريش - حين مرّوا به - ابناً له يجزائر أهداها لهم وقال : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا ، فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم ؛ قد قضيت الذي عليك ، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة .

ولحق رسول أبي سفيان به فأدركه بالهدّة - وهي على سبعة أميال من عُسْفان إذا رُحّت من مكّة عن يسار الطريق ، وسكانها بنو ضَمْرَةَ وناس من خُزاعة - فأخبره بمضي قريش فقال : واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام^(٤) .

مشاورة النبي ﷺ أصحابه :

وكان رسول الله ﷺ لما دنا من الصُفراء بعث بسبس بن عمرو وعديّ بن أبي الزُعْبَاء يتحسسان أخبار عير أبي سفيان ، فضيا حتى نزلا بدرأ ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شتاً لها يستقيان فيه ، فسمعا جاريتين من جوارى الحاضر ، وهما تتلازمان^(٥) على الماء ، والمكزومة تقول لصاحبتهما : إنما تأتي العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك ، قال مجديّ بن عمرو - وكان على الماء - صدقت ، ثم خلص بينهما ، فلما سمعا ذلك جلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا ، وكان رسول الله ﷺ لا يزال في الطريق بوادي دُفْران ، فلما نزل أتاه الخبر عن قريش بنفرتهم لينعوا عيرهم .

فاستشار النبي ﷺ أصحابه في طلب العير وفي حرب النفير ، فقال : « ما ترؤن في القوم ؟ فإنهم أخبروا بمخرجكم » ، وأخبرهم بسير قريش إليهم ، ثم قال : « إن الله وعدكم إحدى الطائفتين ؛ إما العير وإما النفير » . وكانت العير أحب إليهم وأيسر شوكة وأحضر مغناً ، فكره بعض القوم القتال وقالوا : لا والله مالنا طاقة بقتال العدو ، ولكن أردنا العير . وقال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى

(١) قيل : كان اسمه أبيتاً ، فلما رجع ببني زُهْرَةَ قيل خنس بهم ، فسَمِيَ الأُخْس .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٢/٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠٨/٣) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ١١/٤) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٩/٢ ، ٢٦١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣/٢) .

(٥) تتلازمان : تتخاصمان ، ولزيم الغريم ولازمة : تعلق به . انظر : (الوسيط : ج ٨٢٩/٢) .

نتأهب له ؛ إنا خرجنا للعير ، فعليك بالعير يا رسول الله ودع العدو ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ، وهؤلاء القوم نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ ، يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١) .

وعند ذلك تكلم المهاجرون ، فقام أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك ، فتأهب لذلك أهبطه ، وأعد له عدته ، فقال رسول الله ﷺ : « أشيروا علي أيها الناس » .

فقام المقداد بن عمرو ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون - وفي رواية : ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك - فوالذي بعثك بالحق ؛ لو سرت بنا إلى برك الغماد (٣) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به . قال ابن مسعود رضي الله عنه : فرأيت النبي ﷺ : أشرق وجهه وسره قوله ، فكان ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به .

ثم قال رسول الله ﷺ : « أشيروا علي أيها الناس » ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، وذلك لأنهم عدد الناس (٤) ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : إنا نبرأ من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما منع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا آمن ذمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما كرر رسول الله ﷺ الاستشارة فطن لذلك سيد الأنصار سعد بن معاذ ، رضي الله عنه ، فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أجل » ، قال : فقد أمانا بك ، وصدقتك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فلعنك يا رسول الله تخشى أن لا تكون الأنصار يريدون مواساتك ، ولا يرونها حقاً عليهم ، إلا بأن يروا غدواً في بيوتهم وأولادهم ونساءهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم يا رسول الله ، فاطعن (٥) حيث شئت ، وانزل حيث شئت ، واصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وسالم من شئت ، وحارب من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذته منا أحب إلينا مما تركت علينا ، وما ائتمرت من أمر فأمرنا لأمرك فيه تبع ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ؛ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسير بنا على بركة الله .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، رضي الله عنه ، ونشطه ذلك ، ثم قال : « سيروا على اسم الله ، عز وجل ، وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم » ، فعمد إلى بدر (٦) .

(١) الأنفال : ٥ - ٦ . روي عن عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، قال : نزل الإسلام بالكفر والشدة ، فوجدنا خير الخير في الكراهة ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة ، فجعل لنا في ذلك العلاء والظفر ، وخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى بدر على الحال التي ذكر الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ ﴾ . مجمع الزوائد (ج ٢٦٧) .

(٢) المائة : ٢٤ .

(٣) برك الغماد : بلد باليمن ، أو وراء مكة بجمس ليال مما يلي البحر (معجم البلدان : ج ١٤٩٢) ، وقيل : هي مدينة بالحبشة (السيرة الحلبية : ج ١٥٠٢) .

(٤) أي أكثرهم عدداً (السيرة الحلبية : ج ١٥٠٢) .

(٥) ظعن : سار واقتحل (الوسيط : ج ٥٨١٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٢/٢ ، ٢٥٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٦٠٤/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠٦/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٧٢/٦) ، والسيرة الحلبية (ج ١٤٩/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٢/٥) كتاب المغازي - باب قول الله تعالى ﴿ إِذ تَسْتَعْثِنُونَ رَبُّكُمْ ﴾ .

استنجدوا النبي ﷺ عن جيش قريش :

فلما نزل رسول الله ﷺ قريباً من بدر ركب هو وأبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، يسألان عن قريش ، فوقفنا على شيخ من العرب ، يقال له سفيان الضمري ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما ، فقال رسول الله ﷺ : « إِذَا أُخْبِرْتَنَا أَخْبَرْنَاكَ » ، قال : أَوَذاك بذاك ؟ قال : « نَعَمْ » ، قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمد وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به رسول الله ﷺ ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به قريش ، فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ مِنْ مَاءٍ » ، ثم انصرف عنه ، قال الشيخ : ما من ماء ؟! أمن ماء العراق ؟ ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتصون الخبر له عليه ، فأصابوا رواية^(١) لقريش ، فيها أسلم غلام بني الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد ، فأتوا بها ، وسألوهما ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجعوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلقوهما^(٢) قالوا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم ، وقال : « إِذَا صَدَقْنَاكُمْ صَرَبْتُمُوهُمَا ، وَإِذَا كَذَبْنَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا ، صَدَقًا وَاللَّهِ إِنَّهَا لَقَرِيشٌ ، أَخْبَرَانِي عَنْ قَرِيشٍ » ، قالوا : هم والله وراء هذا الكتيب الذي ترى بالمدونة القصوى (والكتيب العنقثل) ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « كَمْ الْقَوْمُ ؟ » قالوا :

هم والله كثير عددهم ، شديد بأسهم ، قال : « مَا عَدْتُهُمْ ؟ » قالوا : لاندري ، وجهد رسول الله ﷺ أن يخبراهم كم هم فأبى ، فقال : « كَمْ يَنْهَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ » قالوا : يوماً تسماً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « الْقَوْمُ فِيمَا بَيْنَ التَّسْعِمَائَةِ وَالْأَلْفِ » ، ثم قال لهما : « فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قَرِيشٍ ؟ » قالوا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعينة بن عدي ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خلف ، ونبيته ومثبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود . فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاذَ كَيْدِهَا »^(٣) .

وفي رواية عن علي ، رضي الله عنه ، قال : فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا ، سار رسول الله ﷺ إلى بدر ، فسبقنا المشركين إليها ، فوجدنا فيها رجلين منهم ؛ رجلاً من قريش ومولى لعقبة بن أبي معيط ، فأما القرشي فانفلت ، وأما مولى عقبة فأخذناه .

وبلغ قريشاً خبر رسول الله ﷺ وأنه قد أخذ سقاهم ، فاج العسكر^(٤) .

فنزول المطر وسبق المسلمين إلى ماء بدر :

وكان رسول الله ﷺ قد نزل بالمسلمين بعيداً عن الماء بواد في أرض سبخة ، فأصبح المسلمون عطاشاً وجنباً ، وأصابعهم ضعف شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم الخيطة يوسوسهم : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء - وكان المشركون قد نزلوا بالمدونة القصوى قريباً من الماء - وأنتم عطاش وتصلون مجنبيين ؟ فأنزل الله ، عز وجل ، في تلك الليلة مطراً شديداً ، رحمة بهم ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم وسوسة الشيطان ، وكان الوادي دهساً^(٥) ، فلما أصابه الماء صلب

(١) الرواية الدائبة التي يستقى عليها الماء ، وجمعها روايا (الوسيط : ج ٢٨٥/١) .

(٢) الإذلاق : أن يبلغ منه الجهد حتى يثقل ويتصور (لسان العرب : ج ١٥١٣/٢) .

(٣) أراد صمم قريش ولبناتها وأشرفها ، لأن الكيد من أشرف الأعضاء ، وأفلاذ : جمع فلذة ؛ وهي القطعة المقطوعة طولاً (النهاية : ج ٤٧٠/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٤/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١١٧/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥/٢) . وساج العسكر : اختلقت أمورهم واضطربت (الوسيط : ج ٨٩٨/٢) .

(٥) أي كئيباً كثير التراب تسيخ فيه الأقدام . انظر : (الوسيط : ج ٢٩٩/١) ، والسيرة الحلبية (ج ١٥٤/٢) .

ولبّدت الأرض تحت الأقدام . فكان المطر بلاء ونقمة على المشركين ؛ فإنه منهم من الارتحال والوصول إلى ماء بدر ، وكان رحمة وطهراً ونعمة وقوة للمسلمين ؛ ربط به على قلوبهم ، ووطأ به الأرض ، فساروا حتى سبقوا المشركين إلى ماء بدر فنزلوا عليه عشاء . وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١) .

مشورة الحُبَاب رضي الله عنه وبناء حوض على القليب (٢) :

ولما أتى النبي ﷺ وأصحابه ماء بدر ونزلوا على أدنى ماء من مياهه ، قام الحُبَاب بن المُنْذِر ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! رأيت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : « بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ » قال : يا رسول الله ! فإن هذا ليس بمنزل فانض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنزله ، ثم نُغَوِّرُ ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنلوه ماء ، ثم تقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ أَشْرُتْ بِالرَّأْيِ » .

ويروى أن جبريل ، عليه السلام ، نزل على رسول الله ﷺ فقال : الرأي ما أشار إليه الحُبَاب .

فنهض رسول الله ﷺ ، ومن معه من الناس ، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه شطر الليل ، ثم أمر بالقلب فغُورَت ، وبنوا على القليب الذي نزلوا عليه حوضاً عظيماً وملؤوه بالماء (٣) .

بناء العريش (٤) :

وبعد أن استقر المسلمون قال سعد بن معاذ رضي الله عنه : يا نبي الله ! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه وتعدّ عندك ركائبك (٥) ، ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ، يا نبي الله ما نحن بأشدّ لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، ينعك الله بهم ، ينصحونك ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له به .

ثم بُني العريش ، وكان من جريد ، فوق تل مشرف على المعركة ، فدخله النبي ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه (٦) . (انظر : مصور غزوة بدر الكبرى) . وقد روي عن عليّ ، رضي الله عنه ، أنه خطب الناس فقال : أخبروني عن أشجع الناس ، قالوا : أنت ، قال : أشجع الناس أبو بكر ، لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً ، فقلنا : من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ ، لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه ، فهذا أشجع الناس (٧) .

ولما التحم القتال قام سعد بن معاذ ، رضي الله عنه ، على باب العريش متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ ، يخافون عليه كره العدو (٨) .

(١) الأنفال : ١١ . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٩/٢ ، ٢١٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٨٨/٢ ، ١١٠) .

(٢) القليب : البئر التي لم تطو . وقد تقدّم .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٩/٢) ، والمستدرک (ج ٤٢٧/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٠/٢) .

(٤) العريش : ما يستظل به ، وهو خيمة من خشب وأيام أو عيدان تنصب ويظل عليها (لسان العرب : ج ٢٨٨١/٤ - ٢٨٨٢) .

(٥) الركائب : جمع ركاب ، والركاب : هي الإبل التي يسار عليها ، وقد تقدّم شرحها .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٠/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ١٥٦/٢) .

(٧) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٤٦/٩) وقال : رواه البزار وفيه من لم أعرفه .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٩/٢) .

تعبئة النبي ﷺ أصحابه وقضاؤه الليل مصلياً :

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه ليلاً ، وذلك ليلة الجمعة السابع عشر من شهر رمضان ، وجعل يُري أصحابه مصارع أهل بدر فيقول : « هذا مَضْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، ويضع يده على الأرض ههنا وههنا ، قال أنس رضي الله عنه : فما مَاطُ (١) أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

وأصاب المسلمين تلك الليلة النعاس أمنة من الله ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ (٢) .

فقضى المسلمون ليلة بدر نائمين مطمئنين ، بينما أحيأ رسول الله ﷺ تلك الليلة كلها (٣) ، فعن عليّ ، رضي الله عنه ، قال : ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبيكي حتى أصبح (٤) . فلما طلع الفجر نادى رسول الله ﷺ : « الصَّلَاةُ عِبَادَةَ اللَّهِ » ، فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَفِ (٥) - وكانوا قد استظلوا تحتها من المطر - فصلّى بهم رسول الله ﷺ وحرّض على القتال ثم قال : « إِنْ جَمَعَ قَرِيْشٌ تَحْتَ هَذِهِ الصَّلْعِ (٦) الْحَمْرَاءِ مِنَ الْجَبَلِ » (٧) .

تسوية النبي ﷺ الصفوف وتوجيهاته في كيفية القتال :

ثم صفّ النبي ﷺ أصحابه صباحاً ، وذلك قبل أن تنزل قريش إلى الوادي ، وأخذ يعدّل صفوفهم بقِدْحِ (٨) في يده ، يشير إلى هذا تقدّم وإلى هذا تأخّر ، فمرّ بسَوادِ بنِ غَزِيَّةَ ، حليف بني عديّ بن النجار ، وهو مُسْتَنبِلٌ (٩) من الصفّ ، فطعن في بطنه بالقِدْحِ ، وقال : « اسْتَوِ يَا سَوَادُ » ، فقال : يا رسول الله ! أوجعتني وقد بعثك الله بالحقّ والعدل فأقذني (١٠) ، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : « اسْتَنبِدْ » ، فاعتنقه ، فقبل بطنه ، فقال : « مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ ؟ » قال : يا رسول الله ! حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلديك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقاله له .

وبعد ذلك أمر النبي ﷺ أصحابه أن لا يبدأوا القتال حتى يؤذّنهم (١١) ، فعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا يُتَقَدَّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ » (١٢) .

ثم وجّه النبي ﷺ أصحابه إلى كيفية القتال ، فقال : « إِنْ اكْتَنَفَكُمُ الْقَوْمُ فَأَنْضَحُوهُمْ (١٣) عَنْكُمْ بِالنَّبْلِ » ، وفي روايات

(١) مَاطٌ : تَنَحَّى وَتَعَدَّى (الوسيط : ج ٩٠١/٢) .

(٢) الأَنْفَالُ : ١١ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٢/٢) ، وسنن الترمذي (ج ١٩٤/٤) كتاب فضائل الجهاد - باب في الصف والتعبئة عند القتال ح ١٦٧٧ ، وصحيح مسلم (ج ١٤٠٤/٢) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة بدر ح ٨٣ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٠/٢ ، ٢٥) .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ١٢٥/١) .

(٥) الْحَجَفُ : ضَرْبٌ مِنَ التُّرْسِ ، وَاحِدُهَا حَجَفَةٌ ، وَقِيلَ : هِيَ مِنَ الْجُلُودِ (لسان العرب : ج ٧٨٧/١) .

(٦) الصَّلْعُ : جَبَلٌ مُسْتَطِيلٌ فِي الْأَرْضِ لَيْسَ يَمْرُتَعُ فِي السَّمَاءِ (لسان العرب : ج ٢٦٠٠/٤) ..

(٧) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١١٧/١) .

(٨) الْقِدْحُ : السُّهْمُ قَبْلَ أَنْ يُرَاشَ وَيُرَكَّبَ نَصْلُهُ . انظر : (النهاية : ج ٢٠/٤) .

(٩) اسْتَنبَلٌ : تَقَدَّمَ (النهاية : ج ١٣/٥) .

(١٠) الْقَوْدُ : الْقِصَاصُ . وقد تقدّم .

(١١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٦/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١١/٣) .

(١٢) صحيح مسلم (ج ١٥١٠/٣) كتاب الإمارة - باب ثبوت الجنة للشهيد ح ١٤٥ .

(١٣) أَي أَحَاطَ بِكُمْ (النهاية : ج ٢٠٥/٤) .

(١٤) نَضَحُوهُمْ بِالنَّبْلِ : رَمَوْهُمْ (النهاية : ج ٧٠/٥) .

أخرى : « إذا أكتبوكم^(١) فارمؤهم ، واستبقوا نبلكم^(٢) ، ولا تسألوا السيوف حتى يغشوكم »^(٣) .

وعن محمد بن الحجاج بن حسين بن السائب بن أبي لبابة قال : حدثنا أبي عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : « كيف تقاتلون إذا لقيتموهم ؟ » فقام عاصم بن ثابت فقال : يا رسول الله ! إذا كان القوم منا حيث ينالهم النبل كانت المرأمة بالنبل ، فإذا اقتربوا حتى تنالنا وإياهم الحجارة كانت لهم المرأصة^(٤) بالحجارة ، وأخذ ثلاثة أحجار حجراً في يده وحجرين في حُجْرته^(٥) ، فإذا اقتربوا حتى تنالنا وإياهم الرماح كانت المداعسة^(٦) بالرماح ، فإذا انقضت الرماح كانت الجلاذ بالسيوف ، فقال رسول الله ﷺ : « بهذا أنزلت الحرب ، من قاتل فليقاتل قتال عاصم »^(٧) .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(٨) .

نزول قريش بوادي بدر ونصيحة عتبة بن ربيعة بالرجوع :

أما قريش فقضت ليلة بدر في معسكرها بالعدوة القصوى ، فلما أصبحت أقبلت إلى وادي بدر ، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوب^(٩) من العنققل (وهو الكتيب الذي جاؤوا منه) - وكان يصف أصحابه ويعذلهم - قال : « اللهم ! هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك^(١٠) وتكذب رسولك ، اللهم ! فنصرك الذي وعدتني ، اللهم ! أحنهم^(١١) الغداة » . فقال أبو بكر ، رضي الله عنه ، والنبي ﷺ مسك بعضده : يا نبي الله ! أبشر ، فوالذي نفسي بيده ليُنجزن الله تعالى لك ما وعدك . واستنصر المسلمون ربه واستغاثوه .

وأقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ ، فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوهم » ، فاشرب منه رجل يومئذ إلا قتل ، إلا ما كان من حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد في يمينه قال : لا والذي نجاني من يوم بدر .

ولما اطأنت قريش بعثت عمير بن وهب الجُدعيّ طليعة^(١٢) ليحزر أصحاب رسول الله ﷺ ويأتيهم بعددهم وعدتهم ، فاستجبال عمير بفرسه^(١٣) حول العسكر ، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ومعهم سبعون بعيراً وفرسان ، ولكن أهولوني حتى أنظر للقوم كبن أو مدد ، ففرض في الوادي حتى أبعده ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكني قد

(١) يقال : كُتِبَ وأكْتُبَ إذا قازب ، والكُتِبَ : القُرْبُ (النهاية : ج ١٥١/٤) .

(٢) استبقوا نبلكم : أي لا ترموهم على بُعد ؛ فإن الرمي مع البعد غالباً يُخطيء فيضيع النبل بلا فائدة (السيرة الحلبية : ج ١٦١/٢) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٩/٥) كتاب المغازي - باب فضل من شهد بدرأ ، وسنن أبي داود (ج ١١٨/٣) كتاب الجهاد - باب في سلّ السيوف عند اللقاء ح ٢٦٦٤ .

(٤) المرأصة : المرأمة ، من الرُصْح : الشُدْح (النهاية : ج ٢٢٩/٢) .

(٥) الحُجْرَة : موضع شدّ الإزار من الوسط (الوسيط : ج ١٥٨/١) .

(٦) المداعسة : المطاعنة (النهاية : ج ١١٩/٢) .

(٧) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٣٢٧/٥) وقال : رواه الطبراني ، ومحمد بن الحجاج قال أبو حاتم : مجهول .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٦/٢) .

(٩) تصوب : تتخذ (الوسيط : ج ٥٢٩/١) .

(١٠) التحادة : المعادة والمخالفة والمنازعة (النهاية : ج ٣٥٢/١) .

(١١) أي : أهلكتهم (الوسيط : ج ٢١١/١) .

(١٢) الطليعة : هو الذي يُبعث بين يدي الجيش ليطلع عليه العدو كالجاسوس . انظر (النهاية : ج ١٢٢/٣) .

(١٣) أي طاف . انظر : (الوسيط : ج ١٤٩/١) .

رأيت يامعشر قريش البلايا^(١) تحمل المنايا ، نواضح^(٢) يثرب تحمل الموت الناقع^(٣) ، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتكلمظون^(٤) تلمظ الأفاعي ؟ والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فزروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ، فأقى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد ! إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر ، أو قال : هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي ، أو قال : إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي وهو حليفك فتحمل ديته وترجع بالناس ، فقال : قد فعلت ، أنت علي بذلك ، إنما هو حلفني فعلي عقله وما أصيب من ماله ، فأت ابن الحنظليّة ، فإني لا أخشى أن يشجر^(٥) أمر الناس غيره - يعني أبا جهل بن هشام - ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، فقال : يامعشر قريش ! إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبته لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا واخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون - وفي رواية : وإن كان هذا الرجل ملكاً كنتم في ملك أخيك ، وإن كان نبياً لم تقتلوا النبي فتستبوا به ، ولن تخلصوا أحسب إليهم حتى يصيبوا أعدادهم ، ولا آمن أن تكونوا الدبرة^(٦) عليكم .

وركب عتبة جلاً له وصار يجيله في صفوف قريش ويقول لهم : يا قوم ! إني أرى قوماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير ، يا قوم ! اغضبوا اليوم برأسي^(٧) وقولوا جبن عتبة بن ربيعة ، وقد علمت أني لست بأجبنكم - وفي رواية : يا قوم ! ارجعوا بوجوهكم هذه التي كأنها المصابيح عن هؤلاء الذين كأن وجوههم الحيات . فأشار عتبة على الناس بالانصراف وجعل يقول : لا تردوا نصيحتي ولا تسفهوا رأيي .

وقد كان رسول الله ﷺ لما رأى قريشاً أقبلت من العتق من عتبة على جمل أحمر ، قال : « إن يكن في أحد من القوم خير فمنذ صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا » - وفي لفظ : « إن يكن في القوم أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر » - فلما رأى رسول الله ﷺ راكب الجمل الأحمر يجيله في صفوف قريش ، قال : « يا علي ! ناد لي حمزة » وكان أقربهم من المشركين ، فقال له رسول الله ﷺ : « من صاحب الجمل الأحمر ، وماذا يقول لهم ؟ » فجاء حمزة فقال : هو عتبة بن ربيعة ، وهو ينهى الناس عن القتال .

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل فوجده ينثل^(٨) درعاً له من جرابها ويهيتها ، فقال له : يا أبا الحكم ! إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا ، للذي قال - وفي رواية أن حكماً قال له : يقول لك عتبة بن ربيعة : هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بن معك ؟ قال : أما وجد رسولاً غيرك ! فقال : لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره - فقال أبو جهل : انتفخ والله سخره^(٩) حين رأى محمداً

(١) البلايا : جمع بليّة ، وهي الناقّة يموت صاحبها فتخبس على قبره حتى تموت . وهذا من أعراف الجاهليّة (الوسيط : ج ٧٠/١) .

(٢) النواضح : جمع ناضح ، وهي الدابة يستقى عليها (الوسيط : ج ٩٣/٧) .

(٣) الناقع : القاتل (النهاية : ج ١٠٧/٥) .

(٤) تلمظت الحية : إذا أخرجت لسانها كتلمظ الأكليل (لسان العرب : ج ٤٠٧٤/٥) .

(٥) شجر أمر الناس : اضطرب وتنازعوا فيه (الوسيط : ج ٤٧٥/١) .

(٦) الدبرة هنا : الهزيمة ، وتفتح الباء وتسكن (النهاية : ج ٩٨/٢) .

(٧) يريد السبّة التي تلحقهم بترك الحرب والجنوح إلى السلم ، فأضربها اعتياداً على معرفة المخاطبين : أي : أفزونا هذه الحال بي وأنسبوا إلي وإن كانت ذميمة (النهاية : ج ٢٤٤/٣) .

(٨) ينثل : يخرج (لسان العرب : ج ٤٢٤١/٦) .

(٩) السخر : الرثّة ، يقال : انتفخ سخره للجبان الذي ملأ الخوف جوفه فانتفخت رثته حتى رقت القلب إلى الخلقوم (لسان العرب : ج ١٩٥٢/٣) .

وأصحابه ، كلا ! والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعثه ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلتة جزوراً^(١) ، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم وهاجر - فقد تخوفكم عليه .

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي ، فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثارك بعينك ، فقم فانشد خفرتك^(٢) ومقتل أخيك ، فقام عامر بن الحضرمي ، فاكتشف ، ثم صرخ : واعمره !! واعمره !! فحمي القوم ، وحقب أمرهم^(٣) ، واستوسقوا^(٤) على ما هم عليه من الشر ، فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ والله سخره ، قال : سيعلم مصفراسته من انتفخ سخره أنا أم هو ، ثم التمس عتبة بيضة^(٥) ليدخلها في رأسه ، فما وجد في الجيش بيضة تسعه ، من عظم هامته^(٦) ، فلما رأى ذلك اعتجر^(٧) على رأسه ببرد له .

وفي روايات أخرى : أن أبا جهل قال لعتبة وقد جاء إليه والشر في وجهه : أنت تقول هذا ؟ أي : إشارته على الناس بالرجوع - والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته قد ملأت رثتك جوفك رعباً ، فقال عتبة : إياي تعني يا مصفراسته ، ستعلم اليوم أيننا الجبان المفسد لقومه ، أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً ، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي ، وكأن وجوههم السيوف ، ثم دعا أخاه وابنه فخرج يمشي بينهما ، وسل أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه^(٨) ، فقال أيماء بن رخصة : بس الفأل هذا^(٩) .

بدء القتال :

قال ابن إسحاق : وقد خرج الأسود بن عبد الأسد الخزومي ، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمته ، أو لأموتن دونه ، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فلما التقيا ضربه حمزة فاطن قدمه^(١٠) بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً^(١١) ، نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد - زعم - أن يبرئ يمينه ، وأتبعه حمزة ، فضربه حتى قتله في الحوض^(١٢) .

عثبة بن ربيعة يدعو إلى المبارزة :

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبنة وابنه الوليد ، حتى إذ فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث ، وأمهات عفراء ، وعبد الله بن رواحة - وفي رواية : معاذ بن الحارث بدل ابن رواحة - فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : أكفأ كرام ، مالنا بكم من حاجة ، إنما نريد بني عمننا ، ثم نادى منادهم : يا محمد ! أخرج إلينا أكفأنا من قومنا - وفي رواية أن النبي ﷺ استحيا من خروج الأنصار ، لأنه أول قتال التقى فيه المسلمون

(١) يقال : ما هم إلا أكلتة رأس ، أي : هم قليل يشبعهم رأس واحد (لسان العرب : ج ١٠/١) .

(٢) الخفرة : الذمة (لسان العرب : ج ١٢٠/٧٢) .

(٣) أي : فسدت النهاية : ج ٤١١/١) .

(٤) أي : استجمعوا وانضموا (النهاية : ج ١٨٥/٥) .

(٥) البيضة : الخوذة (الوسيط : ج ٧٨/١) .

(٦) الهامة : الرأس . وقد تقدم .

(٧) يقال : اعتجر فلان بالعمامة : لفها على رأسه وزد طرفها على وجهه (الوسيط : ج ٥٩١/٢) .

(٨) متن الفرس : ظهره (الوسيط : ج ٨٥٩/٢) .

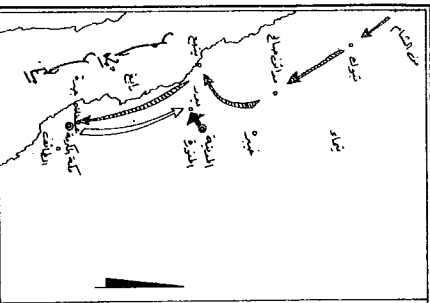
(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٠/٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥/٢ ، ١٦ ، ٢٤) و (ج ١٩٩/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي

(ج ١١٠/٣ ، ١١١) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٢٣/٢ ، ٤٤٣) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١١٧/١) ، ومجمع الزوائد (ج ٧٧/٦) .

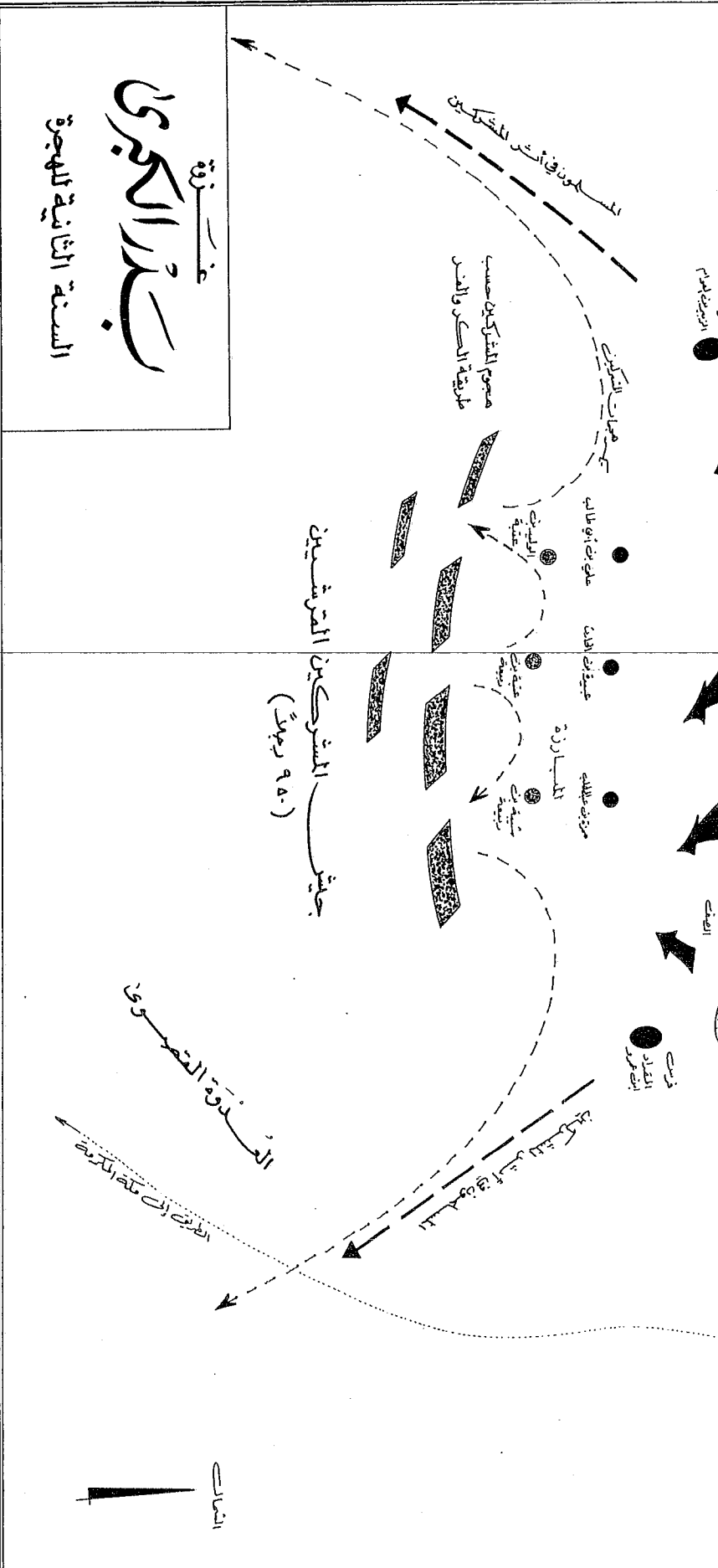
(١٠) أطن قدمته : قطعها ، وأصله من الطنين وهو صوت قطع الشيء الصلب (النهاية : ج ١٤٠/٣) .

(١١) تشخب دماً : تسيل دماً ، والشخب : السيلان (لسان العرب : ج ٢٢١/٣) .

(١٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٤/٢) .

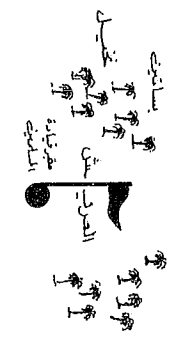


قائمة تواريخ يابرة أخت سفارات
 ● المسيرت ● الثالثة ● الزيت



عزرة الكبرى

المسنة الثانية للهجرة



العزرة الدنية
 الطريق إلى المدينة المنورة

العزرة القصوى
 الطريق إلى مكة المكرمة



والمشركون وهو ﷺ شاهد معهم ، فأحب أن تكون الشوكة ببني عمه ، فأمرهم فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيراً ، ثم نادى بني هاشم فقال : « قَوْمُوا قَاتِلُوا بِحَقِّكُمْ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّكُمْ إِذْ جَاؤُوا بِبَاطِلِهِمْ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ » - فقال رسول الله ﷺ : « قُمْ يَا عَبِيدَةَ بْنَ الْحَارِثِ ، قُمْ يَا حَمْزَةَ ، قُمْ يَا عَلِيٌّ » ، فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ وكان عليهم البيض ، فستوا لهم ، قالوا : نعم أكفء كرام ، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة - وكان أسن الثلاثة للمشركين - وبارز حمزة شيبه بن ربيعة ، وبارز علي الوليد بن عتبة - وقيل : كان عتبة لحمزة وشيبة لعبيدة والوليد لعلي ، وقيل : بل الوليد لعبيدة - فأما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما ، واختلف عبيدة وعتبة بينها ضربتين ، فأثن كل واحد منها صاحبه ، ثم كرز حمزة وعلي على عتبة بأسيا فهاهما فقتلاه ، واحتلا عبيدة ، فجاء به إلى النبي ﷺ وقد قطعت رجله ومخها يسيل فقال : ألسنت شهيداً يا رسول الله ؟ قال : « بلى » ، فقال عبيدة : لو كان أبو طالب حياً لعلم أنا أحق بما قال منه ، حيث يقول :

وَنُسَلِمَهُ حَتَّى نَصَرَ حَوْلَهُ وَنُذْهِلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ

ثم قال :

فَإِنْ تَقَطَّعُوا رَجُلِي فِإِنِّي مُسَلِمٌ أَرْجِي بِهَا عَيْشاً مِنَ اللَّهِ دَانِيَا^(١)

وأُنزل الله تعالى في هذه المبارزة قوله : ﴿ هَذَا نَ خَصَمَانِ اِخْتَصَمَا فِي رَبِّهِمْ ﴾^(٢) ، فقد روى البخاري بسنده عن قيس قال : سمعت أبا ذر يقسم قسماً إن هذه الآية : ﴿ هَذَا نَ خَصَمَانِ اِخْتَصَمَا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر : حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة^(٣) . (انظر : مصور غزوة بدر الكبرى) .

التقاء الفريقين ونشوب الحرب :

ولما قتل المبارزون خرج رسول الله ﷺ من العريش فعدل صفوف المسلمين وجعل شعارهم : أَحَدٌ أَحَدٌ ، ويقال : بل كان شعارهم : يامنصور أميت^(٤) .

ثم عاد إلى العريش ومعه أبو بكر ، رضي الله عنه ، ليس معه أحد غيره ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، متوشح بالسيف مع نفر من الأنصار يخافون على رسول الله ﷺ كرهة العدو ، فاضطجع ﷺ فعشيه نوم غلبه ، فلما نظر بعض القوم إلى بعض ، جعل أبو بكر يقول : يا رسول الله ! قد دنا القوم ، فاستيقظ رسول الله ﷺ وقد أراه الله تعالى إيَّاهم في منامه قليلاً ، وقُلل المسلمين في أعين المشركين ، وقُلل المشركين في أعين المسلمين ، حتى طمع بعض القوم في بعض ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّقِيْتُمْ فِي أُعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَالِكُمْ فِي أُعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾^(٥) .

ثم تراحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وجاء عمير بن وهب فساوش المسلمين ، فثبت المسلمون على صفهم ولم يزلوا ، وقد كان رسول الله ﷺ أمر أصحابه ألا يحملوا على القوم حتى يؤذنه وقال لهم : « إِنْ أَكْثَبُوكُمْ فَعَلَيْكُمْ بِالنَّبْلِ » - كما ذكرنا سابقاً - وشد عامر بن الحضرمي على المسلمين ونشبت الحرب ، فقتل مهجعاً مولى عمر بن الخطاب ، فكان أول قتيل من المسلمين ، ثم رمي حارثة بن

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٥/٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٢/٣) ، والمستدرک (ج ١٨٨/٣) ، وسنن أبي داود (ج ١١٩/٣) كتاب الجهاد - باب في المبارزة ح ٢٦٦٥ .

(٢) الحج : ١٩ .

(٣) صحيح البخاري (ج ٩٦/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .

(٤) يامنصور أميت : هو أمر بالموت . والمراد به التفاوض بالنصر بعد الإمانته ، مع حصول الغرض للشعار (النهاية : ج ٢٧١/٤) .

(٥) الأنفال : ٤٣ - ٤٤ . ونزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمَشَاقِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهُ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ - الأنفال : ٤٩ - قال رجال من ادعى الإسلام وخرج بهم المشركون كرهاً : ما هؤلاء ؟ غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم ، وظنوا أنهم سيهزمهم المشركون لا يشكون في ذلك . انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١١١/٣ ، ١٢٠) .

سُرَاقَةُ أَحَدِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَارِ ، وَهُوَ يَشْرَبُ مِنَ الْحَوْضِ ، بِسَهْمٍ فَأَصَابَ نَحْرَهُ فَقُتِلَ ، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، قَتَلَهُ حَبَّانُ بْنُ الْعَرِقَةِ (١) .

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، أن أم الرُّبَيْعِ بنت البراء ، وهي أم حارثة بن سُرَاقَةَ أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ! ألا تحدثني عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غَرَبٌ (٢) ، فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك ، اجتهدت عليه في البكاء ، قال : « يا أم حارثة ! إنها جنانٌ في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » (٣) .

فلما رأى المسلمون القتال قد نشب عَجَّوا إلى الله تعالى بالدعاء يسألونه النصر ، ورمى قُطَيْبَةُ بن عامر بجر بين الصّتين ثم قال : لا أفرّ حتى يفرّ هذا الحجر .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل حين التقى الناس ودنا بعضهم من بعض فقال : اللهم ! أقطعنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة ، اللهم ! أولانا بالحق فانصره - وفي رواية : اللهم ! انصر خير الدينين ، اللهم ديننا ودين محمد الحديث . وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ، وَلَنْ تُغْنِيَّ عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

مناشدة النبي ﷺ ربّه سبحانه وتعالى :

وقد كان رسول الله ﷺ منذ عودته إلى العريش يناشد ربّه (٥) ما وعده من النصر ويقول : « اللَّهُمَّ ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أُنشِدُكَ عَهْدَكَ وَعَهْدَكَ ، اللَّهُمَّ ! إِنَّ تَشَأْ لَا تُعْبِدُ بَعْدَ الْيَوْمِ ، اللَّهُمَّ ! إِنَّ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدُ فِي الْأَرْضِ » ، فما زال يهتف بربّه ماداً يديه مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأثاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فردّه عليه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله ! بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، ولينصرك وليبيض وجهك - وفي رواية قال : حسبك يا رسول الله ! ألححت على ربك . فكان عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، يقول : ماسعنا مناشداً ينشد حقاً له أشدّ مناشدة من محمد ﷺ (٦) .

روي عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال : لما كان يوم بدر قتلت شيئاً من قتال ، ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ما فعل ، فجئت فأجده وهو ساجد يقول : « يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ » لا يزيد عليها ، فرجعت إلى القتال ، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك ، ثم ذهبت إلى القتال ، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك ، فلم يزل يقول ذلك حتى فتح الله عليه (٧) .

وروي عن عبيد الله بن عبد الله قال : لما كان يوم بدر فنظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثروا ، ونظر إلى المسلمين

- (١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٦/٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤/٢ ، ١٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١١/٣) .
- (٢) أي لا يُعْرَفُ راميهِ (النهاية : ج ٣٥٠/٣) .
- (٣) صحيح البخاري (ج ٢٤/٤) كتاب الجهاد والسير - باب من أثاره سهم غرب فقتله .
- (٤) الأنفال : ١٩ . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٧٩/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٩/٣ ، ١١٤ ، ١١٥) ، والمستدرک (ج ٢٢٨/٢) .
- (٥) يُقَالُ : تَشَدَّدْتَ اللَّهُ ، وَأُنشِدْتَ اللَّهُ بِاللَّهِ ، وَنَشَدْتَهُ اللَّهُ بِاللَّهِ : أَي سَأَلْتَهُ وَأَقْسَمْتَ عَلَيْهِ (النهاية : ج ٥٢/٥) .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٧/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٧٩/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٢٨٢/٣) كتاب الجهاد والسير - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ح ٥٨ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٤/٣) ، وجمع الزوائد (ج ٨٢/٦) .
- (٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٢٢/١) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وليس في إسناده مذكور بجر ، وقال الذهبي : القزاز كذبه أبو داود ، وأما ابن وهب فاختلف قولهم فيه ، وإسماعيل فيه جهالة . ورواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ١٤٧/١٠) وقال : رواه البزار وإسناده حسن ، ورواه أبو يعلى بنحوه كذلك .

فاستقلهم ، فركع ركعتين ، وقام أبو بكر عن يمينه ، فقال رسول الله ﷺ في صلاته : « اللَّهُمَّ ! لا تَدْعُ مِنِّي ، اللَّهُمَّ ! لا تَخْذُلْنِي ، اللَّهُمَّ ! لا تَبْرِيْنِي (١) ، اللَّهُمَّ ! ائْتِدْكَ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ ! إِنْ يَهْزِمَ هَذَا الْجَمْعُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ هَذَا الْجَمْعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لا تُعْبِدْ أَبَدًا » ، فقال أبو بكر : أَلْحَقْتُ (٢) ، والله بأبي أنت وأمي ، والله لا يتودع منك ، ولا يخذلك ، ولا يترك ، ولينصرنك على عدوك كما وعدك . فانصرف رسول الله ﷺ مسرورا (٣) ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٤) ، فأمدّه الله بالملائكة (٥) .

نزول الملائكة وسياهم (٦) :

وأغنى رسول الله ﷺ إغفاءة ، ثم انتبه ، فقال : « أُبْشِرُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ ، هَذَا جَبْرِيْلُ أَخِيذُ بَعْنَانَ (٧) فَرَسِيهِ يَقُوذُهُ عَلَى ثَنَائِيَةِ النَّعْقِ (٨) » - وفي رواية : « هَذَا جَبْرِيْلُ أَخِيذُ بَرَأْسِ فَرَسِيهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ » - فأمد الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل ، عليه السلام ، في خمسمائة ، وميكائيل في خمسمائة .

وأوحى الله ، عز وجل ، إلى الملائكة وأمرهم بأمره وحدثهم أنه معهم ، وأمر بنصر المساميين وتشبيتهم ، وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٩) .

روي عن علي ، رضي الله عنه ، قال : بينما أنا أمشح (١٠) من قليب بدر ، إذ جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها ، فكانت الريح الأولى جبرئيل نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إسرئيل نزل في ألف من الملائكة عن يسرة رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنا في اليسرة (١١) ..

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة قال بعد أن ذهب بصره : لو كنت اليوم ببدر ومعني بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة ، لأشك فيه ولا أتمارى (١٢) .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : حدثني رجل من بني غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، ننتظر الواقعة على من تكون الذبيرة (١٣) فننتهب مع من ينتهب ، قال : فبينما نحن في الجبل إذ دنت منا

(١) يُقَالُ : وَتَرَهُ يَبْرَهُ بَرَةً إِذَا تَقَصَّه (النهاية : ج ١٤٩/٥) .

(٢) أَلْحَقْتُ فِي الْمَسْأَلَةِ يُلْحِفُ الْخَافَا : إِذَا أَلْحَ فِيهَا وَلَزِمَهَا (النهاية : ج ٢٣٧/٤) .

(٣) سان سعيد بن منصور (ج ٣١٢/٢) .

(٤) الأنفال : ٩ .

(٥) صحيح مسلم (ج ١٢٨٢/٢) كتاب الجهاد والسير - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ح ٥٨ .

(٦) السِّمَا : الْعَلَامَةُ (النهاية : ج ٤٢٥/٢) .

(٧) الْعِنَانُ : سَيْرُ الْجَنَامِ (النهاية : ج ٣١٣/٢) .

(٨) النَّعْقُ : الْغَبَارُ (النهاية : ج ١٠٩/٥) .

(٩) الأنفال : ١٢ . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٧/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٣/٥) كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بدراً ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٦٠٣/٢ ، ٧٩) .

(١٠) الْمَاتِحُ : الْمَسْتَقِي مِنَ الْبَيْرِ بِالذَّلْوِ مِنَ أَغْلَى الْبَيْرِ (النهاية : ج ٢٩١/٤) .

(١١) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٩/٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : بل منكر عجيب ، وأبو الحويرث عبد الرحمن قال مالك : ليس بثقة ، وموسى فيه شيء . ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٦/٦) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

(١٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٤/٢) .

(١٣) أَي : الْهَرِيَّةُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ .

سحابة ، فسمعنا فيها حَمَمَةَ الخيل ، فسمعت قائلاً يقول : أَقْدِمَ حَيْرُومَ^(١) ، فأما ابن عمي فانكشف قِنَاعَ قلبه^(٢) ، فات مكانه ، وأما أنا فكِدت أهلك ثم تماسكت^(٣) .

وعن جَبْرِ بنِ مُطْعَم قال : رأيت قبل هزيمة القوم ، والناس يقتتلون ، مثل البِجَاد^(٤) الأسود أقبل من السماء مثل التَّمَلِ السود ، فلم أشكك أنها الملائكة ، فلم يكن إلا هزيمة القوم^(٥) .

وكانت سماء الملائكة يوم بدر عائم بيضاً قد أرسلوها على ظهورهم ، إلا جبريل ، عليه السلام ، فإنه كانت عليه عِمامة صفراء . وجعلوا الصوف الأبيض في نواصي خيلهم وأذنانها ، وكانوا على خيل بُلُق^(٦) .

ثم خرج رسول الله ﷺ من العريش ، وهو يشب في الدرع ويقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أُوْهِى وَأَمْرٌ ﴿^(٧) .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قلت : وأي جمع يهزم ومن يعلب ؟ فلما كان يوم بدر نظرت إلى رسول الله ﷺ يشب في الدرع وثباً وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ، فعلمت أن الله تبارك وتعالى سيهزمهم^(٨) .

تحرير: رضي النبي ﷺ أصحابه على القتال :

وقام رسول الله ﷺ في الناس فوعظهم ، وأخبرهم أن الله تعالى قد أوجب الجنة لمن استشهد اليوم ، فقال : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

ثم قال محرضاً لهم على القتال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، فقال عمير بن الأحمام الأنصاري : يا رسول الله ! جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » ، قال : بئح^(٩) بئح^(٩) ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك بئح بئح ؟ » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » ، فأخرج قرأت من قرانه^(١٠) ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لأن أنا حييت حتى أكل قراتي هذه ، إنها حياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، وأخذ سيفه ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمِل المعاد
والصبر في الله على الجهل زاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

(١) حَيْرُومُ : اسمُ قَرْسِ المَلِكِ (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٨٥/١٢) .

(٢) قِنَاعُ القَلْبِ : غِشَاوَةٌ (النهاية : ج ١١٤/٤) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/٢) .

(٤) البِجَاد : الكِسَاءُ . أراد الملائكة الذين أيدهم الله بهم (النهاية : ج ٩٦/١) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٦١/٣) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٤/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦/٢) ، وكنز العمال (ج ٢٧٨/٢) . وقَرْسٌ أَبْلَقُ : أي فيه تبايضٌ وسوادٌ . (الوسيط : ج ٦٩/١) .

(٧) القمر : ٤٥ - ٤٦ ، وانظر : صحيح البخاري (ج ١٧٩/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ٢٥/٢) .

(٩) بئح بئح : تَقَالُ لتعظيم الأمر وتفخيمه (لسان العرب : ج ٢٢٠/١) .

(١٠) القَرْنُ : الجُنْبَةُ (لسان العرب : ج ٣٦١٢/٥) .

وسأله عوف بن الحارث فقال : يا رسول الله ! ما يضحك الربّ من عبده ؟ قال : « غَمَسَةُ يَدِهِ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا »^(١) ، فنزع درعاً كانت عليه ، فقدفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه^(٢) .

رمى النبي ﷺ المشركين بالحصباء والهجوم عليهم :

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حَفْنَةً من الحصباء ، فاستقبل بها قريشاً وقال : « شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، اللَّهُمَّ ! أَرْعِبْ قُلُوبَهُمْ ، وَزَلِّزْ أقدامَهُمْ » ، ورمى بها في وجوههم ، فإ من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومُنْخِرِيه وفه تراب من تلك الحفنة ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٣) .

وحينئذ أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجوم فقال : « شُدُّوا » ، وأخبرهم أن من قتل قتيلاً فله سَلْبُهُ^(٤) ، ومن أسر أسيراً فهو له ، فحملوا على المشركين حملة واحدة ، وهم يقولون : أَحَدٌ أَحَدٌ - وكان شعارهم - وزادهم استبسالاً أن رأوا رسول الله ﷺ يشب في الدرع مصلتاً بالسيف^(٥) وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ . قال علي رضي الله عنه : لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً .

وقاتل الصحابة أشد القتال ، ونصرتهم الملائكة ؛ يقتلون معهم ويأسرون ، ويجدون النفر من قريش كل رجل منهم منكباً على وجهه لا يدري أين يتوجه ؛ يعالج التراب ينزعه من عينيه ، فقتل الله تعالى من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرفهم ، وفي ذلك نزل قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾^(٦) .

روي عن حكيم بن حزام قال : سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة في طسبست ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصاة فانهمزوا^(٧) . وكان يومئذ يَنْدُرُ^(٨) رأس الرجل لا يدري من ضربه ، وتندر يد الرجل لا يدري من ضربه .

فعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : بينا رجل من المسلمين يومئذ يشتر في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدِمَ حَيْرُومَ ، فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خَطِمَ أنفه^(٩) ، وشقَّ وجهه كضربة السوط ، فاخضر ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ »^(١٠) .

وعن أبي أمامة بن سهل قال : قال لي أبي : يا بني ! لقد رأيتنا يوم بدر ، وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه^(١١) .

(١) الْحَاسِرُ : هو الذي لا درع عليه ولا مِعْفَرٌ (النهاية : ج ٢٨٣/١) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٧/٢ ، ٢٦٨) ، وصحيح مسلم (ج ١٥١٠/٣) كتاب الإمارة - باب ثبوت الجنة للشهيد ح ٤٥ ، وتاريخ الطبري (ج ٤٤٨/٢) .

(٣) الأنفال : ١٧ .

(٤) السَلْبُ : هو ما يأخذُه أحدُ القرَينِ في الحربِ من قرَينِهِ ممَّا يكونُ عليه ومَعَهُ من سِلاحٍ وثيابٍ ودَآئِبَةٍ وغيرها (النهاية : ج ٢٨٧/٢) .

(٥) أَصَلَّتِ السَّيْفُ : جَرَدَهُ مِنْ غِنْدِهِ ، فهو مُصَلَّتٌ (لسان العرب : ج ٢٤٧٨/٤) .

(٦) الأنفال : ١٧ . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٨/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٨٦/١) ، والمستدرک (ج ٤٩٢/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٩/٣ ، ١١٥) ، ومغازي الواقدي (ج ٨١/١) .

(٧) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨٤/٦) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن .

(٨) نَدَرَ : سَقَطَ وَوَقَعَ (النهاية : ج ٣٥/٥) .

(٩) خَطَمَ أَنفَهُ : جَعَلَ عَلَيْهِ خِطَامًا ، والمراد هنا جَعَلَ عليه أثراً مثل أثر الخِطَامِ . انظر : (الوسيط : ج ٢٤٤/١) .

(١٠) صحيح مسلم (ج ١٢٨٤/٣) كتاب الجهاد والسير - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ... ح ٥٨ .

(١١) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٤٠٩/٣) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

وعن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة من قتلهم بضرب فوق الأعناق وعلى البتآن مثل سبّة النار قد أحرق به (١) .

وكان السائب بن أبي حبيش يحدث في زمن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يقول : والله ما أسرني أحد من الناس ، فيقال : فن ؟ فيقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها ، فيدركني رجل أبيض طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض فأوثقني رباطاً ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً ، وكان عبد الرحمن ينادي في المعسكر : من أسره هنا ؟ فليس يزعم أحد أنه أسرني ، حتى انتهى بي إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا ابن أبي حبيش ! من أسرك ؟ » فقلت : لا أعرفه ، وكرهت أن أخبره بالسذي رأيت ، فقال رسول الله ﷺ : « أسرك ملك من الملائكة ، أذهب يا ابن عوف بأسيرك » ، فذهب بي عبد الرحمن بن عوف ، قال السائب : فما زالت تلك الكلمة أحفظها ، وتأخر إسلامي حتى كان من أمري ما كان (٢) .

نكوص إبليس :

ولما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركون نكص على عقبيه (٣) ، وكان قد جاء في صورة سراقه بن مالك في جند من الشياطين معه ، فتشبّث به الحارث بن هشام ، أو عمير بن وهب ، وهو يظنه سراقه ، فقال : إلى أين يا سراقه ؟ ألم تزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لاترون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب ، ثم وكز (٤) في صدر الحارث فألقاه ، وخرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر فرفع يديه وقال : اللهم ! إني أسألك نظيرتك إتي ، وخاف أن يخلص القتل إليه (٥) .

روي عن طلحة بن عبيد الله بن كزيب أن رسول الله ﷺ قال : « ما زوي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ، ولا أذخر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، إلا ما أري يوم بدر » ، قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : « إنه قد رأى جيريل يزغ الملائكة (٦) » (٧) .

هزيمة المشركين وسمود أبي جهل :

ولما رأى المشركون خذلان سراقه لهم ونكوصه على عقبيه وتبرأه من نصرهم ، ورأوا المسلمون يقبلون صفوفهم ويفرّونهم (٨) فرأياً ، أخذت جموعهم في الفرار والانسحاب ، وكان أول من ولى فاراً منهزماً خالد بن الأعلم حليف بني مخزوم .

أما أبو جهل فإنه حاول أن يصمد ، فجعل يحض أصحابه ويقول لهم : لا يهزمنكم خذلان سراقه إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، لا يهولنكم قتل عتبة وشيبة ابني ربيعة ، فإنهم قد عجلوا ؛ فواللآت والعزى لانرجع حتى نقرنهم بالحبال ، فلا ألقين رجلاً منكم قتل رجلاً منهم ، ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفونهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ورجبتهم عن اللآت والعزى .

ثم أقبل أبو جهل يقاتل وحوله عصابة من المشركين تحميه أن يخلص إليه ، ولكن سرعان ما تصدعت صفوف المشركين أمام حملات المسلمين ، وما جاء عصر ذلك اليوم - يوم الجمعة - إلا والمشركون منهزمون على أعقابهم . وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث :
والله ما هو إلا أن لقينا القوم فنحنهم أكتافنا يقتلوننا كيف شأؤوا ويأسروننا كيف شأؤوا . (انظر : مصور غزوة بدر الكبرى) .

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٦٣) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٦٠٣) .

(٣) نكص على عقبيه : رجح عما كان عليه من الخير (لسان العرب : ج ٤٥٤٢/٦) .

(٤) وكز فلاناً : دفعة وضربة (الوسيط : ج ١٠٦٦٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠٩/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٧٧/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٩/٣) .

(٦) يزغ الملائكة : يزيهه ويؤويه ويصفه للحرب ، فكأنه يكفهم عن التفريق والانتشار (النهاية : ج ١٨٠/٥) .

(٧) الموطأ (ص : ٢٩١) جامع الحج .

(٨) قرى الشيء يفرّيه فرأياً : شقّه ، والمراد هنا المبالغة في النكابة والقتل . (لسان العرب : ج ٣٤٠٧/٥ ، ٣٤٠٨) .

روي أنه لما وضع المسلمون أيديهم يأسرون نظروا رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ ، وهو قائم على باب العريش ، فرأى في وجهه الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له : « والله لكأنك ياسعد تكرر ما يصنع القوم ؟ » قال : أجل ، والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال (١) .

نهى النبي ﷺ عن قتل رجال من قريش :

ونهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل رجال من قريش ، فقال : « إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله ؛ فإنه إنما أخرج مستكرهاً » - وفي رواية : قال : « من استطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كرهاً » ، ويقال إنهم كانوا قد أسلموا ؛ لكنهم يكتبون إسلامهم فرقاً من المشركين ، وهم العباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب ، ونوفل بن الحارث .

ولما أمر رسول الله ﷺ بالكف عن هؤلاء قال أبو حذيفة بن عتبة : أقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا (٢) وعشيرتنا ونترك العباس !! والله لئن لقيته لألجمته (٣) السيف - أو لألجمته - فبلغت مقالته رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب : « يا أبا حفص ! أياضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ » ، قال عمر : والله إنه لأول يوم كنا في فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص ، ثم قال : يا رسول الله ! دعني فلاضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً ، إلا أن تكفرها عني الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيداً .

ويروى أن رسول الله ﷺ قال لأبي حذيفة - لما بلغه ما قال - : « أنت القائل كذا وكذا ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، شق علي إذ رأيت أبي وعمي وأخي مقتلين ، فقلت الذي قلت ، فقال له رسول الله ﷺ : « إن أباك وعمك وأخاك خرجوا جادين في قتالنا طائعين غير مكرهين ، وإن هؤلاء أخرجوا مكرهين غير طائعين لقتالنا » .

فأسر أولئك النفر الذين أوصى بهم رسول الله ﷺ إلا أبا البختري العاص بن هشام بن الحارث ؛ فإنه وجد قد قتل ، قتله المجدد بن زياد . وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن قتله وقال : « ألا إنه ليس لأحد من القوم عندي منة إلا لأبي البختري ، فمن كان أخذة فليخل سبيله » وذلك لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب .

قال المجدد بن زياد البلوي : لقيته في المعركة ، ومعه زميل له خرج معه من مكة يقال له جنادة بن مليحة الليثي ، فقلت له : إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلي ؟ فقلت له : لا والله ، ما نحن بتاركي زميلك ، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك ، فقال أبو البختري : لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً ، لا تحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة ، فاقتلا ، فقتله المجدد بن زياد ، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال : والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأتيك به فأبي إلا أن يقاتلني ، فقاتلته ، فقتلته (٤) .

وكان الذي أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو ، فقال له رسول الله ﷺ : « كيف أسرته يا أبا اليسر ؟ » ، فقال

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٨/٢ ، ٢٩٠ ، ٣٦٥) ، ومجمع الزوائد (ج ٧٧/٦) .

(٢) تقدم أن أباه عتبة وعمه شيبة وأخاه الوليد أول من قتل من المشركين مبارزة .

(٣) ألجمت القوم : إذا قتلتهم حتى صاروا لحياناً (لسان العرب : ج ٤٠١٢/٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٩/٢ - ٢٧١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٨٧١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣/٢) و (ج ١٠/٤ ، ١١) .

العبّاس : يارسول الله ! إن هذا والله ما أسرفني ، لقد أسرفني رجل أجْلَحَ^(١) ، من أحسن الناس وجهاً ، على فرس أبلق ، ما أراه في القوم ، فقال أبو اليسر : أنا أسرفته يارسول الله ، فقال : « اسْكُتْ ، فَقَدْ أَعَانَكَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ »^(٢) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، أنه قال لأبيه : يا أبت ! كيف أسرك أبو اليسر ، ولو شئت لجعلته في كفك ؟ قال : يا بني ! لا تقل ذلك ، لقد لقيتني وهو أعظم في عيني من الخندمة^(٣) .

وعن أبي اليسر كعب بن عمرو ، رضي الله عنه ، قال : نظرت إلى العباس بن عبد المطلب يوم بدر ، وهو قائم كأنه صنم وعيناه تذرغان ، فلما نظرت إليه قلت : جزاك الله من ذي رحم شرّاً تقاتل ابن أخيك مع عدوه ! قال : ما فعل وهل أصابه القتل ؟ قلت : الله أعزّله وأنصر من ذلك ، قال : ما تريد إليّ ؟ قلت : إيسر ، فإن رسول الله ﷺ نهى عن قتلك ، قال : ليس بأول صيلته وبرّه ، فأسرفته ، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ^(٤) .

ويقال إن الذي أسره هو وعقيل عبّيد بن أوس من بني ظفّر^(٥) . ويروى أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، نادى يوم بدر : يارسول الله ! بأبي أنت البشري ، قد سلم الله عمك العباس ، فكبر رسول الله ﷺ وقال : « بَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ يَا عُمَرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَلَّمَكَ يَا عُمَرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ ! أَعِنْ عُمَرَ وَأَيِّدْهُ »^(٦) .

مقتل أمّة المشركين :

- مقتل أميّة بن خلف :

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : كان أميّة بن خلف لي صديقاً بمكة ، وكان اسمي عبد عمرو ، فسّماني رسول الله ﷺ عبد الرحمن ، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو ! أرغبت عن اسم سماكه أبواك ؟ فأقول : نعم ، فيقول : فياني لا أعرف الرحمن ؛ فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أمّا أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأمّا أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ، قال عبد الرحمن : فكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه ، فقلت له : يا أبا عليّ ! اجعل ماشئت ، قال : فأنت عبد الإله ، قلت : نعم ، فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله فأجيبه فأحدثت معه - وفي رواية : قال عبد الرحمن : كاتب أميّة بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي^(٧) ، وأحفظه في صاغيته بالمدينة ، فلما ذكرت الرحمن ، قال : لا أعرف الرحمن ؛ كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو - قال عبد الرحمن : حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه عليّ بن أميّة أخذ بيده ، ومعني أذراع لي قد استلبتها ، فأنا أحملها ، فلما رأني قال لي : يا عبد عمرو ! فلم أجبه ، فقال : يا عبد الإله ! فقلت : نعم ، قال : هل لك فيّ ، فأنا خير لك من هذه الأذراع التي معك ؟ فقلت : نعم ها الله إذا ، قال : فطرح الأذراع من يدي ، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول : ما رأيت كالليوم قطّ !! أمّا لكم حاجة في اللبن^(٨) ؟ ثم قال لي : يا عبد الإله ! من الرجل منكم المُعلم بريشة نعامة في صدره ؟ قلت : ذلك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل ، قال عبد الرحمن : ثم خرجت أمشي بها ، فوالله إني لأقودها إذ رآه بلال معي - وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام - فقال بلال : رأس الكفر أميّة بن خلف لا نجوت إن نجا ، فقلت : أي بلال ! أبأسيري ؟

(١) رَجُلٌ أَجْلَحٌ : أي انحسر شعره عن جانبي رأسه (النهاية : ج ٢٨٤/١) .

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١١٧/١ ، ٢٥٢) .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨٥/٦) وقال : رواه الطبراني والبرار ، وفيه علي بن زيد وهو سيء الحفظ ، وبقية رجاله ثقات . والخندمة : جَبَلٌ بِمَكَّةَ (معجم البلدان : ج ٤٧٠/٣) .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨٥/٦) وقال : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢/٤) .

(٦) كنز العمال (ج ٤٠٦/١٠) وقال المصنف : رواه الديلمي .

(٧) صاغية الرجل : خاصّة والمأبؤ إليه (النهاية : ج ٣٢٢/٣) .

(٨) يريد أنه من أسرفني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن .

قال : لاجنوت إن نجا ، فقلت : أسمع يا ابن السوداء ؟ قال : لاجنوت إن نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ! رأس الكفر أمية بن خلف ، لاجنوت إن نجا ، فأحاطوا بنا ، حتى جعلونا في مثل المسكة^(١) وأنا أدب^(٢) عنه ، فأخلف رجل السيف^(٣) فضرب رجل ابنه فوق ، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثله قط ، فقلت : انج بنفسك ولا نجاء بك ، فوالله ما أغني عنك شيئاً ، فهبروها^(٤) بأسيا فمهم حتى فرغوا منها .

وفي رواية أن بلالاً لما استصرخ الأنصار قال عبد الرحمن : خشيت أن يلحقونا ، فخلفت لهم ابنه لأشغلهم ، فقتلوه ، ثم أبوا حتى يتبعونا ، وكان أمية رجلاً ثقيلاً^(٥) ، فلما أدركونا قلت له : ابرك ، فبرك ، فألقيت عليه نفسي لأمنعه ، فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه^(٦) .

- مقتل أبي جهل :

قال عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه : إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان من الأنصار حديثا السن ، فكأنني لم أمن بمكانها - وفي لفظ : تمتب أن أكون بين أضلع منها^(٧) - فغمزني أحدهما وقال لي سرّاً من صاحبه : يا عم ! هل تعرف أبا جهل ؟ قلت : نعم ، ما حاجتك إليه يا ابن أخي - أو قال : ما تصنع به ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، قال : فغمزني الآخر فقال لي مثلاً ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس ، فقلت : ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتاني ، فابتدراه بسيفيهما - وفي لفظ : فشدنا عليه مثل الصقرين - فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه ، فقال : « أَيْكُمْ قَتَلَهُ ؟ » فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، فقال : « هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا ؟ » قالوا : لا ، فنظر في السيفين ، فقال : « كِلَاكُمَا قَتَلَهُ » ، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاد بن عمرو بن الجموح . وكان الفتيان معاذ بن عفراء ، ومعاذ بن عمرو بن الجموح .

وفي رواية أنها عوف ومعوذ ابنا عفراء ، وكانا قد استشهدا ببدر ، فلما وقف النبي ﷺ على مصرعهما قال : « يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَيْ عَفْرَاءَ ، فَهَمَا شُرَكَاءُ فِي قَتْلِ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَرَأْسِ أُمَّةِ الْكُفْرِ » ، فقيل : يا رسول الله ! ومن قتله معها ؟ قال : « الْمَلَائِكَةُ ، وَابْنٌ مَسْعُودٌ قَدْ شَرِكَ فِي قَتْلِهِ »^(٨) .

روي عن معاذ بن عمرو بن الجموح قال : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة^(٩) ، وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأني ، فصددت نحوه^(١٠) ، فلما أمكنني حملت عليه ، فضربت ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، فوالله ماشبتهما - حين طاحت^(١١) - إلا بالنواة تطيح من تحت مرصخة^(١٢) النوى حين يضرب بها ، قال : وضربني ابنه عكرمة على عاتقي

(١) الْمَسْكَةُ : السَّوَارُ وَالْحُلُخَالُ مِنَ الْقُرُونِ أَوْ الْعَاجِ (لسان العرب : ج ٤٢٠٢/٦) .

(٢) أَدَبٌ : أَدْفَعُ وَأَمْنَعُ (الوسيط : ج ٣٠٨/١) .

(٣) يَمَالُ : خَلَفَ لَهُ بِالسَّيْفِ ؛ إِذَا جَاءَهُ مِنْ وِرَائِهِ فَضْرَبَهُ (النهاية : ج ٦٩٢) .

(٤) هَبْرَةٌ بِالسَّيْفِ : قَطْعَةٌ بِهِ (الوسيط : ج ٩٧٨/٢) .

(٥) أَي ضَخَمَ الْحِثَّةَ (فتح الباري : ج ٤٨٠/٤) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧١/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٩٧/٣) كتاب الوكالة - باب إذا وكل المسلم حربياً في دار الحرب .

(٧) أَي بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَقْوَى مِنَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ كُنْتَ بَيْنَهُمَا وَأَشَدُّ (النهاية : ج ٩٧/٣) .

(٨) انظر : صحيح البخاري (ج ١١٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب من لم يحمس الأسلاب ومن قتل قتيلاً فله سلبه ، و (ج ١٠٠/٥) كتاب المغازي -

باب فضل من شهد بدرأ ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٩٣/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٨٨/٣) .

(٩) الْحَرْجَةُ : مُجْتَمِعٌ شَجَرٍ مُتَنَفِّئٌ كَالغَيْضَةِ (النهاية : ج ٣٦٢/١) ، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لخبايته بهذه الحرجة .

(١٠) صَدَّتْ لَهُ : تَبَتُّ لَهُ وَقَصَدَتْهُ (النهاية : ج ٥٢/٣) .

(١١) طَاحَتْ : سَقَطَتْ (النهاية : ج ١٤١/٣) .

(١٢) الْمُرْصَخَةُ : الْحَجَرُ الَّذِي يُرْضَخُ بِهِ النَّوَى ، وَيُرْضَخُ : يَكْتَمَرُ (لسان العرب : ج ١٦٥٨/٣) .

فطرح يدي ؛ فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني^(١) القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي ، وإني لأسحبها خلفي ، فلما أدتني وضعت عليها قدمي ، ثم تطيت بها عليها حتى طرحتها^(٢) . ثم مرّ بأبي جهل ، وهو عقير^(٣) ، معوذ بن عفراء ، فضربه حتى أثبتته^(٤) ، فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل^(٥) .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه قال : « مَنْ يَنْظُرُ مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ ؟ » فتفرق الناس في طلبه ، فوجده عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، بأخر رمق ، فعرفه - وقد كان رسول الله ﷺ قال لهم حين أمر بالناسه : « انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته ، فإني أزدحمت يوماً أنا وهو على مادبة لعبد الله بن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف^(٦) منه بيسير ، فدفعته ، فوقع على ركبته ، فبحش^(٧) في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به » - قال ابن مسعود : فوضعت رجلي على عنقه - وقد كان ضبّ بي^(٨) مرة بمكة فأذاني ولكزني^(٩) - فقال لي : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم ، ثم أخذت لحيته لأحتز رأسه فقلت له : هل أخزاك الله يا عدوّ الله ؟ فقال : وبماذا أخزاني ؟! أأعمد من رجل قتلته^(١٠) ؟ - أو هل فوق رجل قتلته ؟ - ثم قال : فلو غير أكار^(١١) قتلي ، أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ أو لمن الدبرة^(١٢) اليوم ؟ فقلت : لله ولرسوله . ثم جعل ابن مسعود يضربه بسيف له غير طائل ، فأصاب يده ، فندر سيف أبي جهل فأخذه ، فضربه به حتى قتله ، ثم احتز رأسه ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! هذا رأس عدوّ الله أبي جهل ، فقال رسول الله ﷺ : « الله الذي لا إله إلا هو ؟ » فكررها ثلاثاً ، فقال ابن مسعود : نعم ، والله الذي لا إله إلا هو ، ثم ألقى رأسه بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز دينه ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم خرّ رسول الله ﷺ ساجداً شاكراً لله عز وجل فركع ركعتين ، ثم قال لابن مسعود : انطلق أرنيه ، فانطلقا حتى قام عليه رسول الله ﷺ ، فقال : « الحمد لله الذي أخزاك يا عدوّ الله ، هذا كان فرعون هذبه الأمة »^(١٣) .

روي عن موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ أقبل حتى وقف على القتلى ، فالتبس أبا جهل فلم يجده ، حتى عرف ذلك في وجهه ، فقال : « اللهم ! لا يعجزني فرعون هذبه الأمة » ، فسمي له الرجال حتى وجده عبد الله بن مسعود وذكر الخبر بنحو ما تقدم وزاد فيه : وأبصر في عنقه جذراً^(١٤) وفي يديه وفي كتفيه كهيفة آثار السياط ، فقال النبي ﷺ : « ذلك ضرب الملائكة »^(١٥) .

- (١) أجهضة عن الأمر : أجهلة (لسان العرب : ج ٧١٣/١) .
- (٢) قال ابن هشام : ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عمر رضي الله عنه .
- (٣) العقير : مقطوع الساق . وقد تقدم .
- (٤) يقال : أثبت فلان ؛ إذا أثبتته جراحه فلم يتحرك (لسان العرب : ج ٤٦٨/١) .
- (٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٧٥/٢) .
- (٦) أشف : أنحل (الوسيط : ج ٤٨٩/١) .
- (٧) جحش : خدش (الوسيط : ج ١٠٨/١) .
- (٨) ضبّ به : قبض عليه وأخذه (لسان العرب : ج ٢٥٤٦/٤) .
- (٩) لكزة : ضربته بجمع كفه في صدره (الوسيط : ج ٨٤٢/٢) .
- (١٠) أي هل كان إلا هذا ، أي أنه ليس بقار عليه أن يقتله قومه (لسان العرب : ج ٣٠٩٦/٤) .
- (١١) الأكار : الزرّاع ، يريد بقوله : فلو غير أكار قتلي ؛ الأنصار ، لأنهم أصحاب زرع ، فأشار إلى تنقيص واحتمار من قتله منهم (لسان العرب : ج ١٠٠/١) .
- (١٢) أي الدولة والظفر والنصرة (النهاية : ج ٩٨/٢) .
- (١٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٥/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٥/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٤٢٢/١ ، ٤٤٤) ، وسنن ابن ماجه (ج ٤٤٥/١) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء في الصلاة والسجدة عند الشكر ح ١٣٩١ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٨٨/٢ ، ٨٩) .
- (١٤) الجدر : آثار ضرب مرتفعة على جلد الإنسان (لسان العرب : ج ٥٦٥/١) .
- (١٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٦/٣) .

وعن جابر ، رضي الله عنه ، قال : قال أبو جهل بن هشام : إن محمداً يزعم أنكم إن لم تطيعوه كان له منكم ذبح ، فقال رسول الله ﷺ : « وأنا أقول ذلك ، وأنت من ذلك الذبح » فلما نظر إليه يوم بدر مقتولاً قال : « اللهم ! قد أنجزت لي ما وعدتني »^(١) ، وقال لعمار بن ياسر : « قد قتل الله قاتل أمك »^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : استقبل النبي ﷺ الكعبة ، فدعا على نفر من قريش ، على شيبه بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبي جهل بن هشام ، فأشهد بالله لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس ، وكان يوماً حاراً^(٣) . وجاء في رواية أخرى عنه زيادة : أمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط^(٤) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : ما كان بين نزول ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ ﴾^(٥) وقول الله تعالى فيها : ﴿ وَذُرِّي الْمُكْذِبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَثَلُمْ قَلِيلًا ، إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيماً ، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً ﴾^(٦) إلا يسير ، حتى أصاب الله قريشاً بالوقعة يوم بدر^(٧) .

- مقتل عبدة بن سعيد بن العاص :

روى البخاري بسنده عن الزبير ، رضي الله عنه ، قال : لقيت يوم بدر عبدة بن سعيد بن العاص ، وهو مدحج^(٨) لا يرى منه إلا عيناه ، وهو يكنى أبو ذات الكرش ، فقال : أنا أبو ذات الكرش ، فحملت عليه بالعنزة^(٩) فطعنته في عينه فمات . قال هشام : فأخبرت أن الزبير قال : لقد وضعت رجلي عليه ، ثم تمطأت ، فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرفاها ، قال عروة : فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه ، فلما قبض رسول الله ﷺ أخذها ، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه ، فلما قبض أبو بكر سأله إياه عن فأعطاه إياها ، فلما قبض عمر أخذها ، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها ، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي ، فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل^(١٠) .

- مقتل نوفل بن خويلد^(١١) :

روي عن الزهري قال : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : « اللهم ! اكفني نوفل بن خويلد » ، ثم ذكر الحديث في قتله ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « من لمة علم بنوفل بن خويلد ؟ » فقال علي رضي الله عنه : أنا قتلته ، قال : فكبر النبي ﷺ وقال : « الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه »^(١٢) .

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٨/٦) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢٦٤/٨) .

(٣) صحيح البخاري (ج ٩٤/٥) كتاب المغازي - باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٢٧/٤) كتاب الجهاد والسير - باب طرح حيف المشركين في البئر .

(٥) المزمّل : ١ .

(٦) المزمّل : ١١ - ١٣ .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٣١٧/٢) .

(٨) المدحج : من عليه سلاح تام ، سمي به لأنه يدج ؛ أي يشي رويداً ليقتله ، وقيل : لأنه يتغطى به (النهاية : ج ١٠١/٢) .

(٩) العنزة : عصاً في قدر يصف الرُمح ، أو أكثر شيئاً ، فيها سنانٌ مثل سنان الرُمح ، وقيل : في طرفها الأسفل رَجٌ كَرَج الرُمح يتوكأ عليها الشيخ الكبير (لسان العرب : ج ٣١٢٨/٤) .

(١٠) صحيح البخاري (ج ١٠٤/٥) كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بدرأ .

(١١) وهو الذي قرن أباً بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنهما ، في حبل حين أسما ، وكان من شياطين قريش . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٥٧/٢) .

(١٢) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٤/٣) .

ولما انتهت المعركة قيل لرسول الله ﷺ : عليك العير^(١) ، ليس دونها شيء ، فناداه العباس وهو في وثاقه : إنه لا يصلح لك ، قال : « لِمَ ؟ » قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أنجز لك ما وعدك^(٢) .

عِدَّة قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ وَأَسْرَاهُمْ :

روي عن ابن عباس وغيره أنه قتل من المشركين يوم بدر سبعون رجلاً وأسر سبعون رجلاً ، وعامتهم من صناديد قريش وزعمائهم^(٣) .

شهداء المسلمين :

واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً ؛ ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار^(٤) . وقد روى ابن سعد بسنده عن عطاء بن أبي رباح أن رسول الله ﷺ صلى على قتلى بدر^(٥) .

روى البخاري بسنده عن رِفاعَةَ بنِ رافعِ الزُّرَيْقِيِّ ، رضي الله عنه ، وكان من أهل بدر ، قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ » ، أو كلمة نحوها ، قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة^(٦) .

وعن عليّ ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال لعمر وقد أراد أن يقتل حاطب بن أبي بلتعة : « أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ؟ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَّيْتُ لَكُمْ الْجَنَّةَ » ، أو فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ^(٧) .

فإذا كان هذا فضل وجزاء من شهد بدرًا من المسلمين ، فكيف بمن خاض إلى المنايا الغمرات الصعاب حتى استشهد ؟ روي عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، أن الدين قُتِلُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، فِي طَيْرٍ خَضِرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ ، فبينما هم كذلك إذ أطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : يا عبادي ! ماذا تشتهون ؟ فقالوا : يا ربنا ! هل فوق هذا شيء ؟ قال : فيقول : عبادي ! ماذا تشتهون ؟ فيقولون في الرابعة : تردّ أرواحنا في أجسادنا فنقتل كما قُتِلْنَا^(٨) .

صور من روائع الإيمان وبطلوات المسلمين :

- روي أن عبد الرحمن بن أبي بكر دعا يوم بدر إلى البراز ، وكان لم يزل على دين قومه مشركًا ، فقام إليه أبوه أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَتَّعْنَا بِنَفْسِكَ » . فسأدى أبو بكر ابنه فقال : أين مالي^(٩) يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لم يبق غير شكّة ويعبُوب^(١٠) وصارم يقتل ضلال الشيب

(١) أي خذها (لسان العرب : ج ٢٠٩١/٤) .

(٢) الخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٢٧/٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٢/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٧/٥ ، ١٠٠) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٤/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ١٢٢/٣) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ٢٧/٢) .

(٦) صحيح البخاري (ج ١٠٣/٥) كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بدرًا .

(٧) صحيح البخاري (ج ٩٧/٥) كتاب المغازي - باب فضل من شهد بدرًا .

(٨) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٩٠/٦) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٩) تقدّم أن الصديق حل ماله كله لما هاجر ، فلعله يريد ما كان من نحو أمتعة وبعض مواشي لا النقد . انظر السيرة الحلبية (ج ١٦٩/٢) .

(١٠) الشكّة : السلاح (النهاية : ج ٤٩٥/٢) . واليعبُوبُ : الفرس الطويل السريع ، وقيل : الكثير الجري . واليعبُوبُ : الجدول الكثير الماء ، الشديد الجزية ، وبه شبه الفرس الطويل اليعبُوبُ (لسان العرب : ج ٢٧٧/٤) .

ثم أسلم عبد الرحمن بعد ذلك ، فقال لأبيه : يا أبت لقد أهدفت^(١) لي يوم بدر مراراً فصَدَفْتُ عنك^(٢) ، فقال أبو بكر : والله لو كنت أهدفت لي ما صدفتُ عنك^(٣) .

- وروي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال لسعيد بن العاص بن سعيد وقد مرَّ به : مالي أراك معرضاً كأن في نفسك شيئاً ؟ أراك تظنُّ أنني قتلت أباك ، ما أنا قتلتُه ، ولو قتلتُه ، ما اعتذرت إليك من قتل مشرك ، ولكنني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور برؤوقه^(٤) فحَدَّثت عنه وقصد له ابن عمه عليّ فقتله ، فقال سعيد بن العاص : يا أمير المؤمنين ! لو قتلتُه كنت على حقٍّ وكان على باطل ، فسَرَّ ذلك عمر منه^(٥) .

- وتقدّم في مقتل أمية بن خلف أنه سأل عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، عن الرجل المُعَلَّم بريشة نعامه في صدره ، فأخبره أنه حزمة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فقال أمية : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل . وتقدّم أيضاً استبسال عمير بن الحُمام وعوف بن الحارث رضي الله عنهما .

- وكان علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ممن قاتل المشركين ببسالة واستاتة ، فقد روي عنه أنه قال : طعنت بيدي هذه في القوم حتى اختضب هذا مني دماً ، وأشار إلى إبطه^(٦) .

- وروي أن الجراح أبا أبي عبيدة جعل ينصب الأمل^(٧) لابنه يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾^(٨) الآية^(٩) .

ولهذا قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك السنة : لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته^(١٠) .

- ويروى أن مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، مرَّ بأخيه أبي عزيز بن عمير وأبو اليسر رجل من الأنصار يأسره ، فقال له مصعب : شدّ يدك به ؛ فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ، فقال له أبو عزيز : يا أخي ! هذه وصاتك بي ؟ فقال مصعب : إنه أخي دونك^(١١) .

- وكان سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، يقاتل يوم بدر قتال الفارس والراجل^(١٢) . روي عن عامر الشعبي قال : قيل

(١) الإهداف: الدنو منك والاستقبال لك والانصباب (لسان العرب: ج ٤١٣٢/٦) .

(٢) صدفت عنّي: أغرض (لسان العرب: ج ٢٤١٦/٣) .

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/٢) ، والمستدرک (ج ٤٧٤/٣) ، والروض الأنف (ج ٦٤/٣) .

(٤) الرؤق: القرن . وقد تقدّم .

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢٧٧/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١/٥) .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٧٧/٦) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

(٧) الأمل: جمع الأمل ، وهي الحرّبة العظيمة النصل ، سميت بذلك لتبريقها ولمعانها (لسان العرب: ج ١١١/١) .

(٨) المجادلة: ٢٢ .

(٩) انظر: المستدرک (ج ٢٦٤/٣) .

(١٠) تفسير القرآن العظيم / لابن كثير (ج ٢٢٩/٤) .

(١١) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٨/٢) .

(١٢) الخبر رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨٢/٦) وقال : رواه البزار بإسنادين أحدهما متصل والآخر مرسل ورجاله ثقات . والراجل: الماشي على رجلَيْه (الوسيط: ج ٣٢٢/١) .

لسعد بن أبي وقاص : متى أُجِبت الدَّعوة ؟ قال : يوم بدر ؛ كنت أرمي بين يدي النبي ﷺ فأضع السهم في كبد القوس ، ثم أقول : اللهم ! زلزل أقدامهم ، وأرعب قلوبهم ، وافعل بهم وافعل ، فيقول النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ ! اسْتَجِبْ لِسَعْدِ » (١) .

- وروي عن عروة قال : كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف إحداهن في عاتقه ، قال : إن كنت لأدخِل أصابعي فيها ، قال : ضُربتَين يوم بدر ، وواحدة يوم اليرموك ، قال عروة : وقال لي عبد الملك بن مروان - حين قُتل عبد الله بن الزبير - : يا عروة ! هل تعرف سيف الزبير ؟ قلت : نعم ، قال : فما فيه ؟ قلت : فيه فَلَة (٢) فَلَهَا يوم بدر ، قال : صدقتَ بهنَ فُكُول من قرَاع الكتائب (٣) .

من المعجزات يوم بدر :

- روي أن عَكَاشَةَ بن مِحْصَن ، رضي الله عنه ، قاتل المشركين يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جَدلاً (٤) من حطب فقال : « قَاتِلْ بِهَذَا يَا عَكَاشَةُ » ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هَزَه فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المَتْن (٥) ، أبيض الحديدية ، فقاتل به حتى هزم الله المشركين ، وكان ذلك السيف يسمّى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل في حروب الردة وهو عنده ، قتله طَلِيحَةُ بن خُوَيْلِد الأَسَدِي . وكان رسول الله ﷺ يقول : « مِنَّا خَيْرٌ فَارِسٍ فِي الْعَرَبِ » يعني عَكَاشَةَ بن مِحْصَن (٦) .

- وروي أن سَلْمَةَ بن أسلم ، رضي الله عنه ، انكسر سيفه أيضاً يوم بدر ، فبقي أعزل لاسلح معه ، فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب (٧) ، فقال : « أَضْرِبْ بِهِ » ، فإذا سيف جيد ، فلم يزل عنده حتى قُتل يوم جسر أبي عُبَيْد (٨) .

- وعن قَتَادَةَ بن النعمان ، رضي الله عنه ، أنه أصيبت عينه يوم بدر ، فسالت حدقته على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا رسول الله ﷺ فقال : « لا » ، فدعا به ، فغمز حدقته براحته ، فكان لا يدري أيّ عينيه أصيبت (٩) - وفي رواية : فكانت أصحّ عينيه وأحسنها (١٠) .

- وعن رِفَاعَةَ بن رافع قال : رُميت يوم بدر بسهم ففُكِمَتْ عيني ، وبصق فيها رسول الله ﷺ ، ودعا لي فيها ، فما آذاني شيء (١١) .

- (١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٥٢/٩) وقال : رواه الطبراني وإسناده حسن .
- (٢) الفَلَة : التَّلْمَةُ في السَّيْفِ (النهاية : ج ٤٧٢/٣) .
- (٣) صحيح البخاري (ج ٩٦/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .
- (٤) الجَدْل : العَوْدُ (النهاية : ج ٢٥١/١) .
- (٥) مَتْنُ الرُّمْحِ وَالسَّهْمِ : وَسَطُهَا (لسان العرب : ج ٤١٣٠/٦) .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٧/٢ ، ٢٧٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٧/٣) .
- (٧) القَرَّاجِينُ : جَمْعُ عَرَّاجِينٍ ، وهو العَوْدُ الأصْفَرُ الذي فيه شَمَارِيخُ العِدْقِ (النهاية : ج ٢٠٢/٢) ، وابن طاب : هو نوع من تمر المدينة منسوب إلى ابن طاب رجل من أهلها (النهاية : ج ١٤٩/٣) .
- (٨) الخبر في دلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٧/٣) . وأبو عُبَيْد هو ابن مسعود بن عمرو الثقفي وولاه عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بعد عزل خالد بن الوليد على الجيش لقتال الفرس ، وكان على الفرس ملكهم يزيدجرد نفسه ، فالتقوا على جسر الفرات بين القادسية والحيرة ، واشتد القتال ، فاستشهد أبو عُبَيْد يومئذ رحمه الله تعالى وقتل من المسلمين عدد كبير ، فيقال قُتل فلان يوم جسر أبي عُبَيْد . انظر : تاريخ الطبري (ج ٤٥٧/٣ - ٤٥٧) ، والإصابة (ج ١٣٠/٤) .
- (٩) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٩٧/٨) وقال : رواه أبو يعلى وفي إسناده يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف .
- (١٠) طبقات ابن سعد (ج ١٨٧/١) . وقد جاء الخبر من طرق أخرى أنها أصيبت عينه يوم أحد ، وسيأتي ذكره في غزوة أحد إن شاء الله تعالى .
- (١١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨٢/٦) وقال : رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف .

- وردة النبي ﷺ يد خبيث بن يساف ، وضرب يوم بدر على حبل العاتق^(١) فردّها ، فلم ير منه إلا خطاً^(٢) .

- وضرب خبيث بن عدي يوم بدر ، فمال شقه ، فتفل عليه رسول الله ﷺ ، ولأمه وردة فانطبق^(٣) .

طرح المشركين في القليب :

ولما انتهت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على قتلى بدر ، فقال : « جَزَاكُمْ اللهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيِّ ، مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ » - وفي لفظ : « جَزَاكُمْ اللهُ عَمِّي مِنْ عِصَابَةِ شَرًّا ، قَدْ خِنتُمُونِي أَمِينًا ، وَكذَّبْتُمُونِي صَادِقًا » ، ثم التفت إلى أبي جهل فقال : « إِنَّ هَذَا أُعْتِيَ عَلَى اللهِ مِنْ فِرْعَوْنَ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أُيْقِنَ الْهَلَاكَ وَحَدَّ اللهُ ، وَإِنَّ هَذَا لَمَّا أُيْقِنَ بِالْمَوْتِ دَعَا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بهم أن ينقلوا من مصارعهم ويطرحوا في القليب^(٤) ، فسحبوا فطرحوا فيه بعضهم على بعض ، إلا ما كان من أمية بن خلف ؛ فإنه انتفخ في درعه فلأها ، فذهبوا ليحركوه فتقطعت أوصاله ، فأقروه وألقوا عليه ماغيته من التراب والحجارة^(٥) .

وفي رواية في الصحيح عن أبي طلحة ، رضي الله عنه ، أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقذفوا في طوي^(٦) من أطواء بدر خبيث مخبث^(٧) .

ولما ألقى عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة ، رضي الله عنه ، في القليب نظر رسول الله ﷺ في وجه أبي حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : « يَا أَبَا حُذَيْفَةَ ! لَعَلَّكَ قَدْ دَخَلَكَ مِنْ شَأْنِ أَبِيكَ شَيْءٌ ؟ » فقال : لا والله يا رسول الله ؛ ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت مآلات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزني ذلك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً .

ثم جاء رسول الله ﷺ حتى وقف على شفير القليب^(٨) ، بعد ثلاثة أيام من إقائهم فيه ، وذلك ليلاً ، ومعه أصحابه ، فجعل يقول لهم : « يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ ! بُسَّ عَشِيرَةَ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ : كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَقْتِي النَّاسُ ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَانِي النَّاسُ ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرْتِي النَّاسُ » ، ثم ناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم فقال : « يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، وَيَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ » فعدّد من كان منهم في القليب ، « أَيَسْرُكُمْ أَنْكُمْ أَطَعْتُمُ اللهُ وَرَسُولَهُ ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ » فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ ما تكلم من أجساد لأرواح لها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا أَنْتُمْ بِأَنْتُمْ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي » . قال قتادة : أحيام الله حتى أسمعهم قوله ، توييحاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً^(٩) .

(١) العاتق : ما بين الكتف والعنق (لسان العرب : ج ٢٨٠٠/٤) .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٦٢/٢) .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٧/٣) .

(٤) كان من سنة النبي ﷺ في مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بدفنه لا يسأل عنه مؤمناً كان أو كافراً (الحرابي لا يجب دفنه بل يجوز إغراء الكلاب بجيفته) ولكثرة جيف الكفار يوم بدر كره النبي ﷺ أن يشق على أصحابه أن يأمرهم بدفنها ، فكان جرّمهم إلى القليب أيسر (السيرة الحلبية : ج ١٧٩/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٧/٤) كتاب الجهاد - باب طرح جيف المشركين في بدر ، وصحيح مسلم (ج ٢٢٠٣/٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها - باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ح ٧٦ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٧٠/٦) ، وجمع الزوائد (ج ٩١/٦) .

(٦) الطوي : البئر المطوية بالحجارة ، والجمع : أطواء (لسان العرب : ج ٢٧٢٩/٤) .

(٧) صحيح البخاري (ج ٩٧/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .

(٨) شفير كل شيء : حُرْفَةُ (النهاية : ج ٤٨٥/٢) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٧/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنه لما ذكر عندها ذلك الحديث قالت : قال النبي ﷺ : « إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ » ثم قرأت : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى .. ﴾^(١) ، ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ ﴾^(٢) .

وعن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : بينا أنا أسير بجنابت بدر ، إذ خرج رجل من حفرة في عنقه سلسلة ، فناداني يا عبد الله اسقيني ، فلا أدري أعرف اسمي أو دعائي بدعاية العرب ، وخرج رجل في ذلك الحفير في يده سوط فناداني لاتسقه فيانه كافر ، ثم ضربه بالسوط حتى عاد إلى حفرة ، فأتيت النبي ﷺ مسرعاً فأخبرته ، فقال لي : « أَوْقَدُ رَأْيْتَهُ ؟ » قلت : نعم ، قال : « ذَاكَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ بَنُ هِشَامٍ ، وَذَاكَ عَذَابُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(٣) .

بلوغ مكة أنباء الهزيمة :

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحنيمان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قُتِلَ عْتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَأَبُو الْحَكَمِ بْنُ هِشَامٍ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسُودِ ، وَنَبِيَّهُ وَمَنْبَهُ ابْنَا الْحَجَّاجِ ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ . فلما جعل يُعَدِّدُ أَشْرَافَ قَرِيْشٍ ، قَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي الْحِجْرِ : وَاللَّهِ إِنْ يَعْقِلُ هَذَا ، فَاسْأَلُوهُ عَنِّي ، فَقَالُوا : وَمَا فَعَلَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ؟ قَالَ : هَاهُوَ ذَاكَ جَالِسًا فِي الْحِجْرِ ، وَقَدْ وَاللَّهِ رَأَيْتُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ حِينَ قُتِلَا^(٤) .

روي عن عكرمة مولى ابن عباس قال : قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، وكان يكتُم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة ، وكذلك كانوا صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً ، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله^(٥) وأخراه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً .

قال : وكنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح^(٦) أُنحِتُهَا فِي حَجْرَةٍ زَمَزَمَ ، فَوَاللَّهِ إِنْ لَجَلَسَ فِيهَا أُنحِتُ أَقْدَاحِي ، وَعِنْدِي أُمَّ الْفَضْلِ جَالِسَةٌ ، وَقَدْ سَرْنَا مَسَاجِدَنَا مِنَ الْخَبْرِ ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو لَهَبٍ يَجْرُ رَجْلَيْهِ بَشْرًا حَتَّى جَلَسَ عَلَى طُنْبِ^(٧) الْحَجْرَةِ ، فَكَانَ ظَهْرُهُ إِلَى ظَهْرِي ، فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ ، إِذْ قَالَ النَّاسُ : هَذَا أَبُو سَفِيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ قَدْ قَدِمَ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ أَبُو لَهَبٍ : هَلُمَّ إِلَيَّ فَعِنْدَكَ لِعَمْرِي الْخَبْرُ ، قَالَ : فَجَلَسَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاسُ قِيَامٌ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ! أَخْبِرْنِي كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ لَقِينَا الْقَوْمَ فَنَحْنَاهُمْ أَكْتَفَانَا يَقْتُلُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا ، وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا ، وَإِمْ اللَّهُ مَعَ ذَلِكَ مَا لَمْتُ النَّاسَ ، لَقِينَا رِجَالًا بَيْضًا عَلَى خَيْلٍ بَلَّتْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهِ مَا تَلِيقُ^(٨) شَيْئًا ، وَلَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ . قَالَ أَبُو رَافِعٍ : فَرَفَعْتُ طُنْبَ الْحَجْرَةِ بِيَدِي ، ثُمَّ قَلْتُ : تَلِكِ وَاللَّهِ الْمَلَائِكَةُ ، قَالَ : فَرَفَعَ أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ فَضْرَبَ بِهَا وَجْهِي ضَرْبَةً شَدِيدَةً ، قَالَ : وَثَاوَرْتَهُ^(٩) فَاحْتَلَمَنِي فَضْرَبَ بِي الْأَرْضَ ، ثُمَّ بَرَكَ عَلَيَّ يَضْرِبُنِي ، وَكُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا ، فَقَامَتِ أُمُّ الْفَضْلِ إِلَى عَمُودٍ مِنَ الْحَجْرَةِ فَأَخَذَتْهُ ، فَضْرَبَتْهُ بِهِ ضَرْبَةً فَلَقَتْ فِي رَأْسِهِ شَجَّةً

(١) النمل : ٨٠ .

(٢) فاطر : ٢٢ ، والخبر في صحيح البخاري (ج ٩٨/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٥٧/٣) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبد الله بن محمد بن المغيرة وهو ضعيف .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٩/٢) .

(٥) كَبَيْتَهُ اللَّهُ : أَدْلَهُ وَصَرَفَهُ (النهاية : ج ١٢٨/٤) .

(٦) الأقداح : جَمْعُ قَدْحٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُؤْكَلُ فِيهِ . وَقِيلَ : هِيَ جَمْعُ قَدْحٍ ، وَهُوَ السُّهْمُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهِ ، أَوِ الَّذِي يُرْمَى بِهِ عَنِ الْقَوْسِ (النهاية : ج ٢٠/٤) .

(٧) الطَّنْبُ : الطَّرْفُ وَالنَّاحِيَةُ (النهاية : ج ١٤٠/٣) .

(٨) مَا تَلِيقُ : لَا يَثْبُتُ أَمَامَهَا شَيْءٌ . انظر : (لسان العرب : ج ٤١١/٥) .

(٩) ثَاوَرَهُ : وَاتَّبَعَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهَا .

منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ؟ فقام مولياً ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة^(١) فقتلته^(٢) .

قال أبو رافع : فلقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثة ما يديفانه حتى أنتن ، فقال رجل من قريش لابنائه : ألا تستحيان أن أبأكما قد أنتن في بيته ؟ فقالا : إنا نخشى هذه القرحة ، وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي الطاعون ، فقال رجل : انطلقا فأنأ معكما ، فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ، ثم احتملوه ففذفوه في أعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة .

ويروى أن عائشة ، رضي الله عنها ، كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا إلا استترت بشوبها حتى تجوزه^(٣) .

ولما تحققت قريش من خبر الهزيمة ناحت قتلاها شهراً ، وجز النساء رؤوسهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فيوقف بين ظهري النساء ، فيسترنها بالستور وينحن حولها ، ويخرجن إلى الأزقة . ثم أشير عليهم أن لا تفعلوا فيبلغ محمد وأصحابه فيشتموا بكم ، وتواصلوا على ذلك وعلى الأخذ بالثأر ، وقالوا : لا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأزب^(٤) عليكم محمد وأصحابه في الفداء .

وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود ، والحارث بن زمعة ، وكان يحب أن يبكي على بنيته ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أحل النخب^(٥) ؟ هل بكت قريش على قتلاها لعلي أبي علي ؟ يعني زمعة ، فإن جوفي قد احترق ، فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته ، فقال الأسود حينذاك :

وتبكي أن يضل لها بعير	وينعهما من النوم السهود ^(٦)
فلا تبكي على بكر ولكن	على بدرتقاصرت الجود ^(٧)
على بسرارة بني هضيص	ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي إن بكيت على عقيل	وبكي حارثاً أسد الأسود
وبكيتهم ولا تسمي ^(٨) جميعاً	ومالأي حكيمة من نديد ^(٩)
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا ^(١٠)

عودة النبي ﷺ وبلوغ المدينة أنباء النصر :

أقام النبي ﷺ ببدر ، بعد انتهاء المعركة ، ثلاثة أيام - وتلك كانت عادته إذا ظهر على قوم أقام بعرضتهم^(١١) ثلاثاً - ثم أقبل قافلاً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين فيهم عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث ، واحتمل معه النفل^(١٢) الذي أصيب من المشركين وجعل عليه عبد الله بن كعب الأنصاري^(١٣) .

- (١) العَدَسَةُ : بَثْرَةٌ تَخْرُجُ فِي الْبَدَنِ كَالطَّاعُونِ ، وَقَلْبًا يَسْلُمُ صَاحِبَهَا (الوسيط : ج ٥٩٤/٢) .
- (٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٩/٢) .
- (٣) انظر : المستدرک (ج ٣٢٢/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٦/٣) .
- (٤) يَأْزِبُ : يَتَشَدَّدُ عَلَيْكُمْ (النهاية : ج ٣٦/١) .
- (٥) النَّخْبُ : أَشَدُّ الْبَكَاءِ (الوسيط : ج ٩١٣/٢) .
- (٦) السُّهُودُ أَوْ السُّهَادُ : الْأَرْقُ (الوسيط : ج ٤٦٠/١) .
- (٧) الْجُدُودُ : جَمْعُ جَدٍّ ، وَهُوَ الْحَظُّ (الوسيط : ج ١٠٩/١) .
- (٨) أَي لَاتَسْمِي .
- (٩) النَّدِيدُ : الْمِثْلُ وَالنَّظِيرُ (الوسيط : ج ٩١٨/٢) .
- (١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٧/٣) .
- (١١) الْعَرْضَةُ : كُلُّ مَوْضِعٍ وَاسِعٍ لَا يَبْنَاءُ فِيهِ (النهاية : ج ٢٠٨/٣) .
- (١٢) النَّفْلُ : الْعَيْتَةُ (النهاية : ج ٩٩/٥) .
- (١٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٥/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٧/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل .

- وقبل رحيل المسلمين من بدر وقع بينهم خلاف حول الغنائم ، وقد كان رسول الله ﷺ قال لهم حين احتدم القتال : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ ، وَمَنْ جَاءَ بِأَسِيرٍ فَلَهُ سَلْبُهُ » ، فنفل رسول الله ﷺ كل امرئ من المسلمين ما أصاب ؛ فنفل ابن مسعود ، رضي الله عنه ، سيف أبي جهل ، وأبا أسيد الساعدي ، رضي الله عنه ، سيف بني عائذ المرزبان ، وسعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، سيفاً يدعى ذا الكتيبة . فلما نشب الخلاف بينهم واشتد النزاع نزلت سورة الأنفال ، فأمر رسول الله ﷺ بأن يرده الناس ما بأيديهم من النفل ، فاحتله معه ﷺ حين قفل إلى المدينة .

وكان سبب الخلاف أن قال الذين جمعوا المغنم : هو لنا ، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ؛ لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم ، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يكر إليه العدو ؛ والله ما أتم بأحق به منا ؛ لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله أكتافهم ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنع ، ولكننا خفنا على رسول الله ﷺ كره العدو ، فقمنا دونه ، فما أتم بأحق به منا .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ لما قال لهم : « مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا فَلَهُ مِنَ النَّفْلِ كَذَا وَكَذَا » تقدم الفتيان ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها ، فلما فتح الله عليهم قال المشيخة : كنا رداء لكم ، لو انهم لم يفتنوا بنا ، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى ، فأبى الفتيان وقالوا : جعله رسول الله ﷺ لنا ، فأنزل الله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُِونَ ﴾^(١) يقول : فكان ذلك خيراً لهم ، فكذلك أيضاً فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم^(٢) .

روي عن أبي أمامة الباهلي قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فيها أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من بين أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ، يقول على السواء^(٣) ، وكان في ذلك تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين^(٤) .

وروي عن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، قال : جئت إلى النبي ﷺ يوم بدر بسيف ، فقلت : يا رسول الله ! إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو ، فهب لي هذا السيف ، قال : « إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ » ، فذهبت وأنا أقول : يُعْطَاهُ الْيَوْمَ مَنْ لَمْ يُبَلِّ بِلَائِي ، فبينما أنا إذ جاءني الرسول ، فقال : أحب ، فظننت أنه نزل في شيء بكلامي ، فجئت ، فقال لي النبي ﷺ : « إِنَّكَ سَأَلْتَنِي هَذَا السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي وَلَا لَكَ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُ لِي ، فَهُوَ لَكَ » ثم قرأ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ إلى آخر الآية^(٥) .

ولما رد أبو أسيد المرزبان سأله الأرقم بن أبي الأرقم رسول الله ﷺ ، وكان ﷺ لا يمنع شيئاً ، فأعطاه إياه^(٦) .

- تابع النبي ﷺ طريقه إلى المدينة ، ولما بلغ الأثيل^(٧) أدركته صلاة العصر هناك ، فلما صلى ركعة تبسم ، فلما سئل عن تبسمه قال : « مَرَّ بِي مِيكَائِيلُ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَعَلَى جَنَاحَيْهِ النَّعْصُ فَتَبَسَّمْتُ إِلَيْهِ وَقَالَ : إِنَّي كُنْتُ فِي طَلَبِ الْقَوْمِ » . وأتاه جبريل ،

- (١) الأنفال : ١ - ٥ .
- (٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/٢ ، ٢٨٤) ، والمستدرک (ج ٢٢٦/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٨٠/١) ، ومجمع الزوائد (ج ٨١/٦) ، وسنن أبي داود (ج ١٦٦/٣ ، ١٧٥) كتاب الجهاد - باب من أجاز على جريح فتحن ينفل من سلبه ح ٢٧٢٢ ، باب في النفل ح ٢٧٢٧ .
- (٣) أي بعد أن خمسها ﷺ ساوى فيها بين الذين جمعوها ، وبين الذين أتبعوا العدو ، وبين الذين ثبتوا تحت الرايات ، لم يخصص بها فريقاً من ادعى التخصيص (البداية والنهاية : ج ٣٠٢/٣) .
- (٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/٢ ، ٢١٢) .
- (٥) سنن أبي داود (ج ١٧٧/٣) كتاب الجهاد - باب في النفل ح ٢٧٤٠ .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/٢) .
- (٧) الأثيل : وإد قُرب المدينة بين بدر والصُفراء كثير النخل (معجم البلدان : ج ١١٢/١) .

عليه السلام ، فقال : يا محمد ! إن ربّي بعثني إليك وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى ، هل رضيت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » (١) .

ثم بعث رسول الله ﷺ من الأثيل عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، بشيراً إلى أهل العالية (٢) بسلامة رسول الله ﷺ والمسلمين ، وبما فتح الله ، عز وجل ، عليهم ، وما أظفرهم به ، وبعث زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، إلى أهل السافلة (٣) بمثل ذلك .

فلما قدم عبد الله جعل ينادي على راحلته : يامعشر الأنصار ! أباشروا بسؤدد رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم ، قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وبنيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج ، وأبوجهل بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البختري ، وأميمة بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو في أسرى كثيرين ، فقال له عاصم بن عدي : أحقاً ما تقول يا ابن رواحة ؟ قال : إي والله ، غداً يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين ، ثم تبع دور الأنصار بالعالية يبشرون داراً داراً ، والصبيان يشتدون معه يقولون : قتل أبو جهل الفاسق حتى انتهى إلى بني أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ القصواء ، فلما جاء المصلّى صاح على راحلته بمثل ما صاح به عبد الله بن رواحة ، فقال له ابنه أسامة : يا أبت ! أحقّ هذا ؟ قال : نعم والله يا بني .

ويروى أن المسلمين لم يصدقوا بالبشارة حتى رأوا الأسارى ، لأنه قد كان جماعة من الكفار واليهود قد أرحفوا في المدينة بإشاعة الأنباء الكاذبة ، فقال رجل منهم لأسامة بن زيد : قتل صاحبكم ومن معه ، وقال رجل آخر لأبي لبابة بن عبد المنذر : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون معه أبداً ، وقد قتل عليّهم ، فلما قدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ قالوا : قتل محمد ، هذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب ، وجاء فلا (٤) .

وفاة رُقِيَّة بنت الرسول ﷺ :

وكانت رُقِيَّة ، رضي الله عنها ، قد اشتكت وأصابها حصبة ، فخلف النبي ﷺ عليها زوجها عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، وقال له : « أقمْ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنِّي أَوْ مِنْكَ وَأَنْتَ أَحَقُّ » . فلما فتح الله على المسلمين ، وأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل المدينة قدم حين سُوِّي التراب عليها رحها الله ، تعالى ، ورضي عنها (٥) .

تقسيم الغنائم :

ولما خرج رسول الله ﷺ من مضيق الصُّفراء نزل على كتيب بين المضيق وبين النَّازِيَةِ يقال له سَيْر ، فقسم هنالك الغنائم بين المسلمين ، على السواء ، الذين حضروا بدماء ولللثانية النفر الذين تخلّفوا بإذنه ﷺ ، وذلك بعد أن أخذ منها الخمس كما تقدّم .

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه سيف منبّه بن الحجاج وهو الذي يدعى ذا الفقار ، وأخذ سهمه وكان فيه جمل أبي جهل ، وكان مَهْرِيّاً (٦) ، فكان يغزو عليه ويضرب في لقاحه (٧) .

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٣١/٣) .

(٢) أهل العالية : قباء وخطمة ووايل وواقف وبنو أمية بن زيد وقرظطة والنضير (طبقات ابن سعد : ج ١٧٢) .

(٣) أهل السافلة : هم أهل المنطقة الوسطى الشمالية من المدينة .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٠/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٣١/٣ ، ١٢٢) ، والمستدرک (ج ٤٧/٤) .
والقل : المنهزم انظر (النهاية : ج ٤٧٣/٣) .

(٥) انظر : المستدرک (ج ٤٨/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٨٤/٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٦/٨) .

(٦) إبل مَهْرِيَّة : نجائب تسبق الخيل ، منسوبة لقبيلة مهرة بن خندان (الوسيط : ج ٨٩٧/٢) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٦/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٨/٢) ، وسنن الترمذي (ج ١٢٠/٤) كتاب السير - باب في النفل ح ١٥٦١ .

مقتل النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ :

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الصفراء أمر بقتل النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ - وقيل : قتله بالأثيل^(١) - وكان من أشدَّ المشركين إيذاء لرسول الله ﷺ ، فضرب عنقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق : وقالت قَتِيلَةُ بنت الحارث أخت النَّضْرِ بن الحارث تبكيه فذكر أبياتاً منها :

يا راكباً إن الأثيل مَظَنَّة	من صبح خامسة وأنت موفَّق
أبلغ بها ميتاً بأن تحيَّة	ما إن تزال بها النَّجائب ^(٢) تخفيق
مني إليك وعبرة مسفوحة	جادات بؤا كفهها ^(٣) وأخرى تخنق
هل يسمعن النَّضْرُ إن ناديتَه	أم كيف يسمع ميّت لا ينطيق
أعمد يا خير ضيء ^(٤) كريمة	في قومها والفحل فحل مُعْرِق ^(٥)
ما كان ضرك لو مننت وربما	منّ الفتي وهو المقيظ المَحْنِق

قال ابن هشام : فيقال والله أعلم : إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : « لو بلّغني هذا قبّل قَتِيلَةَ لَمَنَنْتُ عَلَيْهِ^(٦) » (٧) .

وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى عِرْقِ الطَّبِيَّةِ أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أحد بني عمرو بن عوف ، رضي الله عنه ، أن يضرب عنق عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ^(٨) أسير عبد الله بن سلمة أحد بني العجلان . وكان عُقْبَةُ من أشدَّ الناس عداوة لرسول الله ﷺ حتى هَمَّ بقتله ، وهو الذي وضع سلاً جَزُورَ على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد .

ويروى أن رسول الله ﷺ لما أمر بقتله جعل عُقْبَةَ يقول : يا ويلاه ! فلما أبصر عاصماً مقبلاً إليه استغاث بقريش ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر قريش ! مالي أقتل من بينكم صبراً^(٩) ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بِكَفْرِكَ بِاللَّهِ وَأَفْتِرَائِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ » - وفي لفظ : « على عداوتك لله ورسوله » - فقال عقبة : يا محمد ! منك أفضل ، فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتني ، وإن مننت عليهم مننت علي ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم ، فأبى رسول الله ﷺ ، فقال عقبة : من للصبيّة يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « النَّارُ ، يَا عَاصِمُ قَدَّمَهُ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ » ، فقدمه فضرب عنقه . ويقال : قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(١٠) .

- (١) الأرجح أنه قتل بالأثيل كما قال ابن سعد في الطبقات (ج ١٨/٢) ، وعلة الترجيح ما ذكرته أخته في رثائه .
- (٢) النَّجَائِبُ : جمع نَجِيْبَةٍ ونَجِيْبٍ ، والنَّجِيْبُ مِنَ الْإِبْلِ : القوي منها ، الخفيف السريع (النهاية : ج ١٧/٥) .
- (٣) وَكَفَّ الدَّمْعُ : تقاطر (النهاية : ج ٢٢٠/٥) .
- (٤) الضَّنْءُ : الأصل ، وقيل : الولد (النهاية : ج ١٠٢/٢) .
- (٥) فَحَلَّ مُعْرِقٌ : أي عريق النسب أصيل (النهاية : ج ٢٢١/٣) .
- (٦) قال ابن المنير : وليس معنى كلامه ﷺ الندم لأنه لا يقول ولا يفعل إلا حقاً ، والحق لا يُندم على فعله ، ولكن معناه لوشفت عندي بهذا القول لقبيلت شفاعتها ، فيه تنبيه على حق الشفاعة والضراعة ولا سيما الاستعطاف بالشعر فإن مكارم الأخلاق تقتضي إجازة الشاعر وتبليغه قصده (شرح الزرقاني على المواهب : ج ٤٥٠/١) .
- (٧) سيرة ابن هشام (ج ٤١٧/٢) .
- (٨) ويقال : قتله بالصفراء (طبقات ابن سعد : ج ١٨/٢) .
- (٩) هو كل ذي روح يؤثّق حتى يُقتل (شرح الزرقاني على المواهب : ج ٤٤٩/١) .
- (١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٦/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٨٩/٦) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٦٤/٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٤/٣ ، ١١٧) .

تهنئة النبي ﷺ بالنصر :

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الرُّوحَاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة رضي الله عنه : ما الذي تهنئونا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجايز صلماً كالْبُدْنِ الْمُعَقَّلَةِ^(١) فنحرنها ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أَيُّ ابْنِ أَخِي ! أَوْلَيْكَ الْمَلَأُ^(٢) » .

وقال أسيد بن الحَضِير : الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك ، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً ، ولكن ظننت أنها غير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقْتَ » .

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى دخل المدينة قبل الأسارى بيوم ، فدخلها من ثنية الوداع مؤيداً منصوراً قد خافه كل عدو له بها وسولها ، فأسلم حينئذ عبد الله بن أبي ابن سؤل وأصحابه نفاقاً^(٣) .

وكان فراغ رسول الله ﷺ من بدر في عقب شهر رمضان أو في شوال ، ويقال إنه قدم المدينة يوم الأربعاء لثاني ليل بقين من رمضان^(٤) .

أمر الأسارى :

ولما أتى بالأسارى - وكان عليهم شقران مولى رسول الله ﷺ - فرّقه رسول الله ﷺ بين أصحابه وقال : « اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْراً » ، فكان الصحابة ، رضي الله عنهم ، يأكلون التمر ، ويطعمون أسراهم الخبز . يقول أبو عزيز بن عمير أخو مصعب وكان من أسر : كنت في رهط من الأنصار - حين أقبلوا بي من بدر - فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله ﷺ إليهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كثره خبز إلا نفخني بها ، قال : فأستحي فأزدها على أحدهم ، فبردها علي ما يسها^(٥) .

روي أنه لما قدم بالأسارى كانت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء - وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب - فلما رجعت إلى بيتها إذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجر مجموعة يدها إلى عنقه بجبل ، قالت سودة : فلا والله ما ملكت نفسي - حين رأيت أبا يزيد كذلك - أن قلت : أي أبا يزيد ! أعطيتم بأيديكم ، ألا تمّم كراماً ، فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت : « يَا سَوْدَةَ أَعْلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ تُحَرِّضِينَ ؟ » قالت : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يدها إلى عنقه أن قلت ما قلت^(٦) .

- واستشار النبي ﷺ أصحابه في الأسارى ، فقال أبو بكر : يا نبي الله ! هم بنو العم والعشيرة والإخوان ، أو قال : هم قومك وأهلك ، وإني أرى أن تستبقيهم وتأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يتوب عليهم ويهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله ﷺ : « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ » فقال : يا رسول الله ! أخرجوك وكذبوك وقاتلوك ، والله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكّننا فنضرب أعناقهم ، فتمكّن علينا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكّنني من فلان - قريباً لعمر - فأضرب

(١) البُدْنُ الْمُعَقَّلَةُ : أي المَشْدُودَةُ بِالْعِقَالِ (النهاية : ج ٢٨١/٢) ، والبُدْنُ : جَمْعُ بَدَنَةٍ وَهِيَ النَّاقَةُ .

(٢) الْمَلَأُ : أَشْرَافُ الْقَوْمِ وَتَرَاتِمُهُمْ (الوسيط : ج ٨٨٩/٢) .

(٣) سَأَى خَيْرٌ دَخُولُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِراً عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ وَبَعْضِ أَخْبَارِهِمْ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٦/٢ ، ٢٨٧ ، ٤٢١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٠٥/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٧/٣) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٨٢/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٨/٢) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٧/٢) .

عنقه ، وتمكّن حزمة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هودة للمشركين ، فإن هؤلاء صنّاديدهم وأئمتهم وقادتهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ! انظر وادياً كثيراً الحطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرم عليهم ناراً ، فقال العباس : قطع الله رحمك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله ليَلَيِّنَ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ مِنَ اللَّبَنِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَشِدُّ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَإِنَّ مَثَلَ يَأْبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَمَثَلَ يَأْبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عِيسَى قَالَ : إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَإِنَّ مَثَلَ يَاعْمَرَ كَمَثَلِ نُوحٍ قَالَ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّاراً ، وَإِنَّ مَثَلَ يَاعْمَرَ كَمَثَلِ مُوسَى قَالَ : رَبِّ اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » . فهوي رسول الله ﷺ ما قاله أبو بكر ولم يهو ما قاله عمر ، وأخذ الفداء .

ويروى أن جبريل ، عليه السلام ، نزل على النبي ﷺ فقال له : خير أصحابك في أسارى بدر : القتل أو الفداء ، على أن يقتل منهم قابل مثلهم ، فنادى النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم بما قال جبريل ، فقالوا : بل نفاذهم فنتقوى بهم ، ويدخل قابل منا الجنة سبعون .

قال عمر رضي الله عنه : فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت : يا رسول الله ! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء لتبكي ، فقال رسول الله ﷺ : « أبكي للذي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ » - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ لَوْ كَانُوا لِيَنبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِرَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . فأحل الله الغنمة لهم (٢) .

وقد نزلت هذه الآيات موافقة لرأي عمر ، رضي الله عنه ، وهي من المواضع التي جاء القرآن فيها موافقاً لقوله رضي الله عنه (٣) ، ومن ثم قال النبي ﷺ له : « كَذَّ أَنْ يُصِيبَنَا فِي خِلَافِكَ بَلَاءٌ » (٤) .

ويروى أنه ﷺ قال : « لَوْ نَزَلَ عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ لَمْ يَنْجُ إِلَّا سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ » لقوله : يانبي الله الإثنان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال (٥) .

والكتاب الذي سبق من الله تعالى - المذكور في الآيات الكريمة - هو قوله : ﴿ قِيَامًا مَنًّا تَعُدُّ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ (٦) ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ، ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا المشركين قبل أن ينخنوا في الأرض ، ثم إنهم قبلوا الفداء منهم وهم من أئمة الكفار وصناديدهم ، فهم في حكم مجرمي الحرب الذين لا يتركهم قانون الحرب الحديث إلا ويحاكمهم ، ولا يكون الحكم في الغالب إلا بالإعدام أو بالسجن حتى الموت (٧) .

(١) الأنفال : ٦٧ - ٦٩ .

(٢) انظر : صحيح مسلم (ج ٣/١٣٨٥) كتاب الجهاد والسير - باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ح ٥٨ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣/١٠١ ، ٢٨٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣/١٢٧) ، وسنن الترمذي (ج ٤/١٢٥) كتاب السير - باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء ح ١٥٦٧ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٢٢) .

(٣) يروى عن عمر رضي الله عنه أن كان يقول : وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر . انظر : صحيح مسلم (ج ٤/١٨٦٥) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل عمر رضي الله عنه ح ٢٤ .

(٤) الخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢/٢٢٩٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : على شرط مسلم .

(٥) تاريخ الطبري (ج ٢/٤٧٧) .

(٦) سورة محمد : ٤ .

(٧) انظر : السنن الكبرى للبيهقي (ج ٦/٢٢٤) ، وفقة السيرة / للشيخ محمد الغزالي (ص : ٢٥٤) .

فداء الأسارى :

جعل رسول الله ﷺ فداء الأسارى يوم بدر أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم ، كل على قدر ماله . وقيل : جعل فداء العربي أربعين أوقية ذهباً ، وفداء المولى عشرين أوقية ، والأوقية أربعين درهماً . ومن لم يكن عنده فداء وهو يحسن القراءة والكتابة - فقد كان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون - جعل رسول الله ﷺ فداءه أن يعلم عشرة من أولاد الأنصار الكتابة ، فإذا حدقوا فهو فداؤه . فكان زيد بن ثابت ، رضي الله عنه ، ممن علم^(١) .

وقد روي عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي أَسَارِي بَدْرٍ : « لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَبْدِ حَيٍّ خِيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ » - أي بغير فداء - وكانت له عند النبي ﷺ يد^(٢) ، وكان أجزى الناس باليد^(٣) .

وقد من رسول الله ﷺ على نفر من الأسرى لم يكن لهم مال ، فأطلقهم بغير فداء . منهم المطلب بن حنطب ، وصيفي بن أبي رفاعه ، وأبو عزة الجُمحي وكان محتاجاً ذا بنات ، فكلم رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! لقد عرفت مالي من مال ، وإني لذو حاجة وذو عيال ، فامنن عليّ ، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يقاتله ، ولا يظهر عليه أحداً ، ولا يكثر عليه أبداً ، فلم يف له بشيء ، فأسر وقتل صبراً كما سيأتي في غزوة أحد .

ومن أيضاً ﷺ على صهره أبي العاص بن الربيع ، واشترط عليه أن يخلي سبيل ابنته زينب ، رضي الله عنها ، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد ، فخلي سبيلها فقدمت المدينة بعد شهر من بدر ، فكان رسول الله ﷺ يشي عليه فيقول : « حَدَّثَنِي وَصَدَّقَنِي ، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي »^(٤) .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها ، قالت : فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال : « إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا فَأَفْعَلُوا » ، فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها . وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه ، أو وعد رسول الله ﷺ بذلك ، أن يخلي سبيل زينب إليه ، أو كان فيها شرط عليه في إطلاقه ، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيعلم ما هو ، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلي سبيله ، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه ، فقال : « كَوْنَا بَطْنِ يَأْجِجٍ^(٥) حَتَّى تَمُرَّ بِكَا زَيْنَبُ فَتَضَحَّبا حَتَّى تَأْتِيَانِي بِهَا » ، وذلك بعد بدر بشهر أو شيء^(٦) ، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها بالحق بأبيها ، فخرجت تجهز^(٧) .

قالت زينب رضي الله عنها : بينا أنا أجهز بمكة للحق بأبي لقيتني هند بنت عتبة ، فقالت : يا بنت محمد ! ألم يبلغني أنك تريدين اللحق بأبيك ، قالت : فقلت : ما أردت ذلك ، فقالت : أي ابنة عمي ! لا تفعلي ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك ، أو بمال تتبلغن به إلى أبيك ، فإن عندي حاجتك فلا تضطني^(٨) مني ؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال ، قالت : والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، قالت : ولكني خفتها ، فأنكرت أن أكون أريد ذلك ، وتجهزت .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢/٢) ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٢٤٧/١) ، وكنز العمال (ج ٤٠٨/١٠) .

(٢) والمراد باليد المذكورة في الحديث دخول النبي ﷺ في جواره لما عاد من الطائف ، وقيل : لأنه كان من أشد من قام في نقض صحيفة المقاطعة .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١١٠/٥) كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بدرًا ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٩/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠٤/٢ ، ٣٠٦) ، وصحيح البخاري (ج ٢٤٧/٣) كتاب الشهادات - باب الشروط في المهر .. ، وسنن البيهقي (ج ٦٥/٩) .

(٥) يَأْجِجٌ : مكان من مكة على ثمانية أميال (معجم البلدان : ج ٤٩٠/٨) .

(٦) أي بشهر أو نحو من شهر أو قريب منه (لسان العرب : ج ٢٢٧٧/٣) .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٢٩٧/٢) .

(٨) لا تضطني : لا تستنجي (لسان العرب : ج ٢٦١٣/٤) .

فلما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قدّم لها حمّوها كِنانة بن الربيع - أخو زوجها - بعيراً فركبته ، وأخذ قوسه وكِنانته ، ثم خرج بها نهراً يقود بها ، وهي في هودج لها ، وتحدّث بذلك رجال من قريش ، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى ، فكان أول من سبق إليها هَبَّار بن الأسود^(١) فروّعها هَبَّار بالرمح وهي في هودجها ، وكانت المرأة حاملاً فيما يزعمون ، فلما ريعت طرحت ذا بطنها ، وبرك حمّوها كِنانة ، ونثر كِنانته ، ثم قال : والله لا يدنو منّي رجل إلا وضعت فيه سهماً ، فتكرّكر^(٢) الناس عنه .

وأق أبو سفيان في جِلَّة من قريش^(٣) ، فقال : أيها الرجل ! كَفَّ عَنَّا نَبْلِكَ حتى نكلمك ، فكفّ ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال : إنك لم تُصِب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظنّ الناس إذا أخرجت ابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك على ذلّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منّا ضعف ووهن ، ولعمري ما لنا بحبسها عن أيها من حاجة ، وما لنا في ذلك من تُورَة^(٤) ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّثت الناس أن قد رددناها فسألها^(٥) سراً وألحقها بأبيها . ففعل ، فأقامت ليالي ، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقديماً بها على رسول الله ﷺ^(٦) .

فكان رسول الله ﷺ يقول : « هي أفضلُ بنتي أُصيبتُ في »^(٧) ، ويقال إنها لم تزل وجعة حتى ماتت من ذلك الوجع ، فكانوا يرون أنها شهيدة^(٨) .

ويروى عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أنه قال : بعث رسول الله ﷺ سريةً أنا فيها ، فقال لنا : « إن ظفرتُم بهبَّار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي سبقَ معة إلى زَيْنَبَ فَحَرِّقُوهَا بالنَّارِ » . قال : فلما كان الغد بعث إلينا ، فقال : « إني كنت أمرتكم بتخريبِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِنْ أَخَذْتُمُوهَا ، ثم رأيتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إِلَّا اللَّهُ فَإِنْ ظَفَرْتُمُ بِهِمَا فَاقْتُلُوهُمَا »^(٩) . فلم تُصَبِّها السرية ، وأهدر النبي ﷺ دم هَبَّار فلم يقدر عليه ثم أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه^(١٠) .

ـ أول من افتدي من الأسارى :

وكان أول أسير افتدي من أسرى بدر أبو وداعة الحارث بن ضَبِيرة السهمي ، فداء ابنه المطلب ، وقد كان قال رسول الله ﷺ : « إن لهُ بمكة ابناً كَيْسًا تاجرًا ذا مال ، وكأنكم به قد جاءكم في طلبِ فداءِ أبيه » . فلما قالت قريش : لا تعجلوا بفداء أسراكم لا يَأْرَبَ عليكم محمد وأصحابه ، قال للمطلب بن أبي وداعة : صدقتم ، لا تعجلوا ، وانسل من الليل ، فقدم المدينة ، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ، فانطلق به .

ثم بعثت قريش في فداء الأسارى ، فقدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو ، وكان الذي أسره مالك بن الدُخْنَم أخو بني سالم بن عوف ، فلما قاولهم فيه مكرز وانتهى إلى رضاهم ، قالوا : هات الذي لنا ، قال : اجعلوا رجلي مكان رجله واخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه ، ففعلوا .

(١) ويروى أنه خرج في طلبها هَبَّار بن الأسود ونافع بن عبد القيس الفهري كما ذكر ابن إسحاق (سيرة ابن هشام : ج ٢/٢٠٢) .

(٢) تَكَرَّكَرَ : رَجَعَ (النهاية : ج ٤/١٦٦) .

(٣) أي : أشرافهم .

(٤) التُّورَة أو التَّأْرُ : الطَّلَبُ بالثَّم (لسان العرب : ج ١/٤٦٥) .

(٥) سَلَّ الشَّيْءَ : ذَهَبَ بِهِ فِي خَفِيَّةِ (الوسيط : ج ١/٤٤٧) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٩٨) .

(٧) المستدرک (ج ٤/٤٢٤) .

(٨) الخبر رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٩/٢١٦) وقال : رواه الطبراني وهو مرسل ، ورجاله رجال الصحيح .

(٩) سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٠٢) .

(١٠) انظر : سنن ابن منصور (ج ٢/٢٤٤) ، وسيأتي خبر إهدار النبي ﷺ دم هَبَّار في فتح مكة إن شاء الله تعالى .

وكان سهيل خطيباً مفاوهاً ، فقال عمر ، رضي الله عنه ، لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ! دعني أنزع ثيبي سهيل بن عمرو يدلع لسانه (١) ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً ، فأبى رسول الله ﷺ خوفاً من بطش الله يوم القيامة فقال : « لا أمثلُ به فِيمَثَلُ اللهُ بِي وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا » ، ثم قال له : « إِنَّهُ عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَاماً لَا تَدْرُمُهُ » (٢) . فلما توفي رسول الله ﷺ هم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام وأرادوا ذلك ، فقام سهيل بن عمرو عند الكعبة فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فن رأينا ضربنا عنقه . فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، فهذا المقام الذي أراد رسول الله ﷺ في قوله لعمر رضي الله عنه (٣) .

- وكان في الأسارى عمرو بن أبي سفيان بن حرب ، أسره علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فقيل لأبي سفيان : افدي عمراً ابنك ، فقال : أبيع علي دمي ومالي ؟ قتلوا حنظلة - وكان الذي قتله زيد بن حارثة رضي الله عنه (٤) - وأفدي عمراً ؟ دعوه في أيديهم يسكوه ما بدا لهم . فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله ﷺ إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف معتراً ، ومعه مريّة (٥) له ، وكان شيخاً مسلماً ، في غم له بالنقيع (٦) ، فخرج من هنالك معتراً ولا يخشى الذي صنع به ، لم يظن أنه يُحبس بمكة ، إنما جاء معتراً ، وقد كان عهد قريشاً لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتراً إلاّ بخير ، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة ، فحبسه بابنه عمرو ، ثم قال أبو سفيان :

أرھط ابن أكّال أجيبوا دعاءه تعاقدم لا تسلموا السيّد الكهلا
فإن بني عمرو لكأما أدلّة لأن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

فشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبرهم ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ، فيفكوا به صاحبهم ، ففعل رسول الله ﷺ ، فبعثوا به إلى أبي سفيان ، فخلّى سبيل سعد (٧) .

- وكان من بين الأسرى الوليد بن الوليد بن المغيرة ، فقدم في فدائه أخواه خالد وهشام ابنا الوليد ، فافتكاه بأربعة آلاف درهم ، فجعل خالد يريد ألا يبلغ ذلك ، فقال هشام لخالد : إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبى فيه إلاّ كذا وكذا لفعلت .

ويقال : إن النبي ﷺ أبى أن يفديه إلاّ بشكّة أبيه الوليد بن المغيرة ، فأبى ذلك خالد ، وأطاع به هشام لأنه أخوه لأبيه وأمه ، وكانت الشكّة درعاً أفضفاضة وسيفاً وبيضة ، فأقم ذلك مائة دينار ، فلما قبض ذلك خرجا بالوليد حتى بلغنا به ذا الحليفة فأفلت منها ، فأقى النبي ﷺ فأسلم ، فقال له خالد : هلاً كان هذا قبل أن تفتدى وتخرج مأثرة أيننا من أيدينا فاتبعتم محمداً إن كان هذا رأيك ؟ فقال : ما كنت لأسلم حتى أفتدي بمثل ما افتدى به قومي ولا تقول قريش : إنما أتبع محمداً فراراً من الفدى ، ثم خرجا به إلى مكة وهو آمن لهما ، فحبساه بمكة مع نفر من بني مخزوم كانوا أقدم إسلاماً منه ، ثم أفلت منهم وقدم المدينة على رسول الله ﷺ (٨) .

- ومن الأسارى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وكان قد شدّ وثاقه في بعض الليالي فأن ، فسهر النبي ﷺ تلك الليلة ولم ينام ، فقال له بعض أصحابه : ما أسهرك يانبي الله ؟ فقال : « أنين العباس » ، فقام رجل فأرخى من وثاقه ، فقال رسول الله ﷺ : « مالي لا أسمع أنين العباس ؟ » فقال الرجل : إني أرخيت من وثاقه شيئاً ، قال : « فأفعل ذلك بالأسارى كلهم » .

(١) يدلع : يخرج من الفم ويسترخي (لسان العرب : ج ١٤١٠/٢) .

(٢) سيأتي خبر إسلامه في غزوة الفتح إن شاء الله تعالى .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٢/٢ ، ٢٩٣) ، و (ج ٢٤٥/٤) .

(٤) ويقال : اشترك في قتله حمزة وعلي وزيد رضي الله عنهم (سيرة ابن هشام : ج ٢٥٥/٢) .

(٥) مريّة : تصغير امرأة (لسان العرب : ج ٤١٦٦/٦) .

(٦) النقيع : موضع قرب المدينة (معجم البلدان : ج ٢١٢/٨) .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٢٩٤/٢) .

(٨) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣١/٤) ، وقد مرت قصة الوليد بالتفصيل عند ذكر هجرة المسلمين إلى المدينة .

وجاء في بعض الروايات أن العباس ، رضي الله عنه ، لما أسر تواعدت الأنصار أن يقتلوه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : « إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » ، قال عمر : أفأنتيهم ؟ قال : « نعم » ، فأتى عمر الأنصار فقال لهم : أرسلوا العباس ، فقالوا : لا والله لا نرسله ، فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله رضي الله عنه فخذوه ، فأخذوه ، فلما صار في يده قال له عمر : يا عباس ! أسلم ، فوالله لأن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك^(١) .

وكان العباس رجلاً طوالاً ، فلما أتى به أسيراً إلى المدينة طلبت الأنصار ثوباً يلبسونه ، فلم يجدوا قبيصاً يصلح عليه ، إلا قبيص عبد الله بن أبي سؤل ، فكساه إياه . فلذلك كفن رسول الله ابن أبي^(٢) في قبيصه مكافأة له لما فعل بالعباس .

وجعل رسول الله ﷺ فداء العباس أربعائة دينار ، وقيل مائة أوقية أو أربعين أوقية من ذهب ، وجعل عليه فداء ابن أخيه عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية . فكان العباس أكثر الأسارى فداء وذلك لأنه كان رجلاً موسراً .

ويروى أن النبي ﷺ قال له : « أفد نفسك يا عباس » ، فقال العباس : يا رسول الله ! إني كنت مسلماً قبل ذلك ، إنما استكروهني ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك ، فأفد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب ، وحليفك عتبة بن عمرو بن جندم أخا بني الحارث بن فهر » ، فقال العباس : يا رسول الله ! تركتني أسأل الناس ما بقيت - وفي لفظ : ألقراية صنعت بي هذا ؟ لقد تركتني فقير قريش ما بقيت - فقال له رسول الله ﷺ : « فأين الذهب يا عباس ؟ » ، قال العباس : أي ذهب ؟ قال : « الذي دفنت أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أصبت فهذا المال لبني الفضل وعبد الله وقم » - وفي لفظ : قال : « كيف تكون فقير قريش وقد استودعت أم الفضل بتادق الذهب ، ثم أقبلت إلي وقلت لها : إن قتلت تركت عتبة ما بقيت ، وإن رجعت فلا يهملك شيء ؟ » - فقال العباس : والله يا رسول الله إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ماعله أحد غيري وغير أم الفضل ، وما أخبرك بهذا إلا الله تعالى ، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي لما أسرت ، فقال رسول الله ﷺ : « لا ، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » .

ففدى العباس ، رضي الله عنه ، نفسه وابني أخويه وحليفه ، ويقال إنه لم يفد إلا نفسه وابن أخيه عقيلاً فقط ، ففي رواية أن رسول الله ﷺ قال لابن عمه نوفل بن الحارث : « أفد نفسك يا نوفل » ، فقال : ما لي شيء أفدي به يا رسول الله ، قال : « أفد نفسك برماحك التي بجدة » ، فقال : والله ما علم أحد أن لي بجدة رماحاً بعد الله غيري ، أشهد أنك رسول الله ، ففدى نفسه ، وكانت ألف ربح .

ويروى أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ! ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس^(٣) فداءه ، فقال : « لا تدعون منها دُرهما »

وأنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَشْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٤) ، فقال العباس حين نزلت : يا نبي الله ! لوددت أنك كنت أخذت مني أضعافها فأتاني الله خيراً منها .

(١) اختلف في زمن إسلام العباس ، رضي الله عنه ، والأظهر أنه أسلم قبل هجرة النبي ﷺ ، لكنه كان يكتن إسلامه لديون له كانت متفرقة في قريش ، وكان يخشى إن أظهر إسلامه ضياعها عندهم ، ومن ثم لما فهرم الله يوم فتح مكة أظهر إسلامه ، وكان كثيراً ما يطلب الهجرة إلى رسول الله ﷺ ، فيكتب له : « مفاذك بمكة خير لك » . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٩٩/٢) .

(٢) سيأتي خبر وفاة ابن أبي بعد غزوة تبوك إن شاء الله تعالى .

(٣) كانت أم عبد المطلب جدّة العباس سلمى بنت عمرو من بني النجار ، أي من الأنصار ، فأطلقوا عليها أختاً لكونها منهم ، وعلى العباس ابنها لكونها جدته (فتح الباري : ج ٢٢٢/٧) .

(٤) الأنفال : ٧٠ .

وفي رواية أنه قال حين نزلت : لقد أعطانا الله تعالى خصلتين ما أحب أن لي بها الدنيا ، أتي أسرت يوم بدر فسدت نفسي بأربعين أوقية ذهباً ، فاتاني الله أربعين عبداً أو عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به ، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله عز وجل^(١) .

ولما جاء مال البحرين ، وكان ثمانين ألفاً ، وهو أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ - بعث به إليه الغلاء بن الحضرمي ، رضي الله عنه ، لما أرسله إلى المنذر بن ساوى^(٢) - أمر به رسول الله ﷺ فنثر على حصير في المسجد ، ونودي بالصلاة ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، وما كان يومئذ عدد ولا وزن وما كان إلا قبضاً ، فجاء العباس ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! أعطني فيأتي فاديت نفسي وفاديت عقيلي ، فقال له رسول الله ﷺ : « خذ » ، فحشا في ثوبه ، ثم ذهب يحمله فلم يستطع فقال : يا رسول الله ! أوامر بعضهم يرفعه إليّ ، قال : « لا » ، قال : فارفعه أنت عليّ ، قال : « لا » ، ثم ذهب يحمله ، فقال : يا رسول الله ! أوامر بعضهم يرفعه عليّ ؟ قال : « لا » ، قال : فارفعه أنت عليّ ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « لا ، ولكن أعد في المال طائفة وقم بما تطيق » ، فنثر منه ، ثم احتله فألقاه على كاهله ، ثم انطلق وهو يقول : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجز لي ، ولا أدري ما يصنع في الأخرى ، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عجباً من حرصه ، وما قام رسول الله ﷺ ونم منها درهم^(٣) .

إسلام عمير بن وهب رضي الله عنه :

وكان في الأسارى وهب بن عمير رضي الله عنه - فإنه أسلم بعد ذلك - أسره رفاعة بن رافع الزُرقي ، رضي الله عنه ، وكان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش ، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويلقون منه عناء وهو بكفة ، فجلس يوماً مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر من قريش ببسير ، فتذاكرا أصحاب القلب والمصاهم ، فقال صفوان : والله إن في العيش بفسادهم خير ، فقال عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين عليّ لليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي قبلمه عملة ، ابني أسير في أيديهم ، فاغتنها صفوان وقال : عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي وأواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم ، فقال له عمير : فاكتم عني شأني وشأنك ، قال : أفعل ، ثم أمر عمير بسيفه فشجذ له ، ونم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم به من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أتاه على باب المسجد متوشحاً بالسيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذي حرش بيننا وحرزنا للقوم يوم بدر ، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ ، فقال : يانبي الله ! هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : « فأدخله عليّ » ، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فكلمه^(٤) بها ، وقال لرجال من كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما راه رسول الله ﷺ ، وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه ، قال : « أرسلة يا عمير ، اذن يا عمير » ، فدنا ، ثم قال : أنعموا صباحاً - وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله ﷺ : « قَدْ أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » ، فقال : أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد ، قال : « فما جاء بك يا عمير ؟ » قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : « فما بال السئب في عنقك » قال : قبضها الله من سيوف ، وهل أغنمت عنسا شيئاً ؟ قال : « اصدقني ، ما الذي جئت له ؟ » قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : « بل فعدت أنت و صفوان بن أمية في الحجر فذكركما

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب الكسوة للأسارى ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢/٤ ، ١٥) ، والمستدرک (ج ٢٤١/٣ ،

٢٢٤ ، ٢٣٠) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٦٨/٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٠/٣ ، ١٤٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٦١٢/٢) .

(٢) كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة ، وسيأتي خبر إرساله في حينه إن شاء الله تعالى .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١١٤/١) كتاب الصلاة - باب القسمة وتعليق القنو في المسجد ، والمستدرک (ج ٢٢٩/٣) ، وطبقات ابن سعد

(ج ١٥/٤) .

(٤) لَبِئْتُ الرَّجُلَ وَلَبِئْتُهُ : إِذَا جَعَلْتَ فِي عُنُقِهِ تَوْبًا أَوْ غَيْرَهُ وَجَرَّرْتَهُ بِهِ (النهاية : ج ٢٢٢/٤) .

أصحاب القليب من فريش ، ثم قلت : لولا دين عليّ وعيالٍ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بن أمية بدنيك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك . قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خير السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق ، ففرح المسلمون حين هداه الله وقال عمر : لخنزير كان أحب إليّ منه حين طلع ، وهو اليوم أحب إليّ من بعض نبيّ ، فقال رسول الله ﷺ : « فقهاؤا أخاكم في دينه ، وأقرئوا القرآن ، وأطلقوا له أسيرة » ، ففعلوا . ثم قال عمير : يا رسول الله ! إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، عز وجلّ ، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة ، فأدعوم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم وإلا أذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة ، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير يقول : أبشروا بواقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً .

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذي من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير^(١) .

فرح النجاشي بنصر النبي ﷺ :

ولما بلغ النجاشي نصره رسول الله ﷺ ببدر فرح فرحاً شديداً ، فقد روي أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقتان^(٢) جالس على التراب ، قال جعفر : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما رأى ما في وجوهنا ، قال : إني أبشركم بما يسركم إنه جاءني من نحو أرضكم عيّن^(٣) لي ، فأخبرني أن الله ، عز وجلّ ، قد نصر نبيّه ﷺ وأهلك عدوّه ، وأسير فلان وفلان ، وقتل فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر ، كثير الأراك ، كأني أنظر إليه ، كنت أرعى له لسدي ، رجل من بني صبرة إبلة ، فقال له جعفر : ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط ، عليك هذه الأخلاق ؟ قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ، عليه السلام ، أن حقاً على عباد الله أن يحدثوا الله ، عز وجلّ ، تواضعاً عندما أحدث لهم نعمة ، فلما أحدث الله ، عز وجلّ ، لي نصر نبيّه ﷺ أحدثت له هذا التواضع^(٤) .

وروي أنه لما كان يوم بدر وظفر المسلمون بالنصر ظهرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون بذلك^(٥) ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنها ، قال : كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل الكتاب ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان ، فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر ، رضي الله عنه ، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أما إنهم سيهزمون » ، فذكر أبو بكر لهم ذلك ، فقالوا : اجعل بيننا وبيننا أجلاً ، فإن ظهروا كان لك كذا وكذا ، وإن ظهروا كان لنا كذا وكذا ، فجعل بينهم أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « ألا جعلتنا » أراه قال : « دون العشرة ؟ » قال : فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ قال : فغلبت الروم ثم غلبت بعد ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾^(٦) . قال سفيان : وسمعت أنهم ظهروا يوم بدر^(٧) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٦٢) ، وجمع الزوائد (ج ٢٨٤/٨) .

(٢) خلقتان : جمع خلق ، وثوب خلق : أي ثوب بال (لسان العرب : ج ١٢٤٧٢) .

(٣) عيّن : أي جاسوس (الوسيط : ج ٦٤٧/٢) .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٣٤/٢) .

(٥) انظر : سنن الترمذي (ج ١٨٩/٥) كتاب القراءات - باب سورة الروم ح ٢٩٣٥ .

(٦) الروم : ١ - ٥ .

(٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٤١٠/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

وفي رواية عن ابن عباس أيضاً ، رضي الله عنها ، قال : ظهرت الروم على فارس يوم الحُدَيْبِيَّةِ وذلك عند رأس سبع سنين (١) .
ما نزل من القرآن في غزوة بدر :

فلما انقضى أمر بدر أنزل الله ، عز وجل ، فيه من القرآن الأنفال بأسرها أو عامتها (٢) .

وأنزل الله تعالى في الفتية المسلمين الذين خرجوا مع المشركين فقتلوا ببدر : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٣) . وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الفتية فقال :

من بني مخزوم : أبو قيس بن الفاكه ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، ومن بني جُمَح : علي بن أمية بن خلف ، ومن بني سَهْم : العاص بن مَنبَه بن الحجاج . وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة ، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة حبسهم أبائهم وعشائريهم بمكة وفتنهم ، فافتتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر ، فأصيبوا به جميعاً .

وقيل : إنه لما هاجر ﷺ كرهوا أن يهاجروا وخافوا ، فلما خرج المشركون إلى بدر أخرجهم مكرهين ، فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : أصحابنا هؤلاء مسامون ، أخرجهم مكرهين ، فاستغفروا لهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ الآية ، فكتب المسلمون إلى من بقي منهم بمكة بهذه الآية فخرجوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ظهر عليهم المشركون ، فلحقوهم فردوهم ، فرجعوا معهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ (٤) ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فحزنوا ، فنزلت هذه الآية : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قَاتَلْتُمُوهُمْ أَنَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) ، فكتبوا إليهم بذلك (٦) .

☆ ☆ ☆

قدوم ذي الجوشن الكلابي :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بدر قدم عليه ذو الجوشن الكلابي وأهدى إليه فرساً ، وهو يومئذ مشرك ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منه وقال له : « إِنَّ شَيْئًا يَعْتَنِيهِ بِالْمُخَيَّرَاتِ مِنْ أَذْرَاعِ بَدْرٍ » ، فقال : ما كنت لأقبضه (٧) اليوم بعدة ، قال النبي ﷺ : « لا حاجة لي فيه » ، ثم قال : « يا ذا الجوشن ! ألا تسلم فتكون من أول أهل هذا الأمر ؟ » فقال : لا ، قال : « فما يمتنعك منه ؟ » قال : رأيت قومك كذبوك وأخرجوك وقتلوك ، قال : « فكيف بلغك عن مصارعهم ببدر ؟ » فقال : قد بلغني ، قال : « فإننا نهدي لك » ، فقال : إن تغلب على الكعبة وتقطن بها - وفي رواية : فأنظر إن ظهرت عليهم أمنت بك وأتبعتك ، وإن ظهروا عليك لم أتبعك - فقال رسول الله ﷺ : « لعلك إن عشت ترى ذلك » ، ثم قال : « يا بلال ! خذ حقيبته الرجل فروده من السجوة » ، فلما أدبرت قال : « أما إنه من خير فرسان بني عامر » .

(١) دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٤٥٤/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧/٢) .

(٣) النساء : ٩٧ .

(٤) العنكبوت : ١٠ .

(٥) النحل : ١١٠ .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٣/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٩٧) .

(٧) قاضية يقبضه : إذا غاضة ، والقبض : العوض ، أقبضك به : أي أبديك به وأعوضك عنه (لسان العرب : ج ٢٧١٥/٥) .

قال : فوالله إني لَبَصْرِيَّةٌ^(١) إذ أقبلت ركب ، فقلت : ما فعل الناس ؟ قال : ظهر محمد على أهل مكة ، فقال : هَبْلَثْنِي أُمِّي^(٢) ، ولو أسلم يومئذ ثم أسأله الحيرة لأقطعنيها . فكان ذو الجوشن يتوجه على تركه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله ﷺ^(٣) .

زواج علي من فاطمة رضي الله عنها :

تزوج علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فاطمة بنت رسول الله ﷺ في رجب بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بخمسة أشهر ، وقيل : في صفر من السنة الثانية للهجرة ، وبنى بها مرجعه من بدر ، وقيل : في ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً من الهجرة . وكانت سنها ، رضي الله عنها ، يوم بنى بها ثماني عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ، وسن علي ، رضي الله عنه ، يومئذ إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر ، وقيل : أربع وعشرون سنة وشهر ونصف شهر^(٤) .

- خطبتها وصداقها :

روي أنه جاء أبو بكر ثم عمر ، رضي الله عنهما ، يخطفان فاطمة إلى النبي ﷺ ، فسكت ولم يرجع إليهما شيئاً - ويقال إنه أعرض عنها ، أو قال لكل منهما : « إنها صغيرة » . وكان ينتظر نزول القضاء - فانطلق أبو بكر وعمر إلى علي يأمرانه بطلب فاطمة ، قال علي : فنبهاني لأمر ، فقممت أجز رداي ، طرف على عاتقي وطرف آخر في الأرض ، حتى أتيت النبي ﷺ فقلت : تزوجني فاطمة ؟ قال : « وما عندك ؟ » فقلت : فرسي وبدي ، يعني درعي ، قال : « أمّا فرسك فلا بد لك منها ، وأمّا بديك فبئس ما ، قال علي : فبعتها بأربعائة وثمانين درهماً ، فأتيت النبي ﷺ فوضعتها في حجره ، فقبض منها قبضة فقال : « يا بلال ! ابغنا بها طيباً »^(٥) . وفي رواية أنه أمر أن يجعل ثلثي الأربعائة والثمانين في الطيب وثلث في الثياب ، وأنه قال : « أكثروا الطيب لفاطمة فإنها امرأة من النساء »^(٦) .

وعن علي ، رضي الله عنه ، قال : خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت لي مولاة لي : هل علمت أن فاطمة قد خطبت ، فما ينمك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك ؟ فقلت : وعندي شيء أتزوج به ؟ فقالت : إنك إن جئت رسول الله ﷺ فيزوجك ، قال : فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ ، وكان لرسول الله ﷺ جلاله وهيبه ، فلما قعدت بين يديه أفحمت^(٧) ، فوالله ما استطعت أن أتكمم ، فقال رسول الله ﷺ : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ » فسكت ، فقال : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ » فسكت ، فقال : « لعلك جئت تخطب فاطمة » ، فقلت : نعم ، فقال : « وهل عندك من شيء تستحلها به ؟ » فقلت : لا والله يا رسول الله ، فقال : « ما فعلت درع سألحكها ؟ » - فوالذي نفس علي بيده إنها لحطيمية^(٨) .. فقلت : عندي ، فقال : « قد زوجتكها ، فأبعث إليها بها فاستحلها بها » . فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ^(٩) .

وجاء في روايات أخرى أن علياً ، رضي الله عنه ، لما أراد أن يخاطب إلى رسول الله ﷺ ابنته ، قال : ما لي من شيء فكيف ؟ ثم إنه ذكر صلته وعائده ، فأناه ، فقال : « ما حاجة ابن أبي طالب ؟ » قال : ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، قال : « مرحباً

(١) صرِيَّةٌ : أرض بنجد ، وقيل قرية لبني كلاب على طريق البصرة ، وهي إلى مكة أقرب (معجم البلدان : ج ٤٣٢/٥) .

(٢) هَبْلَثْنِي أُمِّي : تكلمتني (لسان العرب : ج ٤٦٠/٦) .

(٣) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٦٧/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٧/٦) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢/٨) ، وتاريخ الطبري (ج ٤١٠/٢ ، ٤٨٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢/٢) .

(٥) انظر : سنن النسائي (ج ٦٢/٦) كتاب النكاح - تزوج المرأة مثل سنها ، وجمع الزوائد (ج ٢٠٥/٩ ، ٢٠٦) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢١/٨) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٥٤/٧) .

(٧) أفحمت : أسكت ، والمفحمت : العبي أو الذي لا يطيق جواباً انظر : (لسان العرب : ج ٢٣٥٩/٥) .

(٨) الدرع الحطيمية : درع تنسب إلى رجل كان يعملها ، وقيل : هي منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم : حطمة بن محارب كانوا يعملون

الدرع ، وقيل : هي التي تخطم السيوف ، أي : تكسرها ، وقيل : هي الغريضة الثقيلة (لسان العرب : ج ٩١٧/٢) .

(٩) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦٠/٣) .

وأهلاً ، فخرج عليّ على رهط من الأنصار ينتظرونه ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما أدري غير أنه قال لي : « مَرَحَبًا وَأَهْلًا » ، قالوا : يكفيك من رسول الله إحداهما ، أعطاك الأهل ، أعطاك المرحب .

قال أنس : فدعاني عليه الصلاة والسلام بعد أيام ، فقال : « ادْعُ لي أبا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ وَعِدَّةَ مِنَ الْأَنْصَارِ » ، فلما اجتمعوا وأخذوا مجالسهم ، وكان عليّ غائباً ، فقال ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَحْمُودِ بِنِعْمَتِهِ ، الْمَعْبُودِ بِقُدْرَتِهِ ، الْمُطَاعِ الْمَرْهُوبِ مِنْ عَذَابِهِ وَسَطْوَتِهِ ، النَّافِذِ أَمْرَهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ ، الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَمَيَّرَهُمْ بِأَحْكَامِهِ ، وَأَعَزَّهُمْ بِدِينِهِ ، وَأَكْرَمَهُمْ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ . إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اشْتَمُهُ ، وَتَعَالَتْ عَظَمَتُهُ ، جَعَلَ الْمَصَاهِرَةَ سَبَبًا لِاحِقًا وَأَمْرًا مُفْتَرَضًا ، أَوْشَجَ بِهِ الْأَرْحَامَ ، وَالزَّمَّ بِهِ الْأَنَامَ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (١) ، فَأَمَرَ اللَّهُ يَجْرِي إِلَى قَضَائِهِ ، وَقَضَاؤُهُ يَجْرِي إِلَى قَدْرِهِ ، وَلِكُلِّ قَضَاءٍ قَدْرٌ ، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٢) ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَاشْهَدُوا أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهُ عَلَى أَرْبَعِائَةٍ مِثْقَالِ فِضَّةٍ إِنْ رَضِيَ بِذَلِكَ عَلِيٌّ » .

ثم دعا ﷺ بطبق من بُسْرٍ ، ثم قال : « أَنْتَهُبُوا » (٣) ، قال أنس : فانتبهنا ، ودخل عليّ فتبسم النبي ﷺ في وجهه ، ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَكَ فَاطِمَةَ عَلَى أَرْبَعِائَةٍ مِثْقَالِ فِضَّةٍ ، أَرْضَيْتَ بِذَلِكَ ؟ » فقال : قد رضيت بذلك يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَكُمَا ، وَأَعَزَّ جَسَدَكُمَا ، وَبَارَكَ عَلَيْكُمَا ، وَأَخْرَجَ مِنْكُمَا كَثِيرًا طَيِّبًا » . قال أنس : فوالله لقد أخرج منها الكثير الطيب (٤) .

- جهازها :

وأمر رسول الله ﷺ أن تجهز فاطمة ، رضي الله عنها ، فجعل لها سرير مشرط بالشريط (٥) ، ووسادة من أدم حشوها ليف ، وبعث معها رسول الله ﷺ بجميلة (٦) ، ورَحِيئِينَ (٧) ، وسِقَاءَ (٨) ، وجَرَّتَيْنِ ، ومُنْخَلٍ ، ومِنْشَفَةٍ ، وقَدَحٍ (٩) .

روي أنه دخل النبي ﷺ على النساء ، فقال : « إِنِّي زَوَّجْتُ ابْنَتِي ابْنَ عَمِّي ، وَقَدْ عَلِمْتُنَّ مَنَزِلَتَهَا مِنِّي ، وَأَنَا دَافِعُهَا إِلَيْهِ فَذَوِّكُنَّ » ، فقمن النساء فغلفنّها من طيبهن (١٠) ، وألبسنها من ثيابهن ، وحلّينها من حلّينهن ، ثم عمدن إلى البيت ففرشنه تراباً ليناً من أعراس البطحاء ، ثم حشون مِرْفَقَتَيْنِ (١١) ليفاً ، فنفشنه بأيديهن ، وعمدن إلى عود فعرضنه في جانب البيت ليلقى عليه الثوب ويعلق عليه السقَاءَ (١٢) .

(١) الفرقان : ٥٤ .

(٢) الرعد : ٢٩ .

(٣) أنتهبوا : أي خدوا ، والانتهباب : أن يأخذة من شاء ، والنهب : الغنبة (لسان العرب : ج ٤٥٥٢/٦) .

(٤) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٨٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١/٨) ، وجمع الزوائد (ج ٢٠٩/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٤/٢) .

(٥) الشريط : شبهة خيوط تغفل من الخوص والليف (لسان العرب : ج ٢٢٢٧/٣) .

(٦) الجميلة : القطيفة ، وهي كل ثوب له حمل (النهاية : ج ٨١/٢) .

(٧) الرحي : الأداة التي يطحن بها ، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قُطب (الوسيط : ج ٢٣٥/٨) .

(٨) السقَاء : وعاء من جلد يكون للماء واللبن (الوسيط : ج ٤٢٩/١) .

(٩) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١٠٤/١) ، وجمع الزوائد (ج ٢٠٥/٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤/٨) .

(١٠) أي لطحننها به (النهاية : ج ٢٧٩/٣) .

(١١) المِرْفَقَةُ : كالوسادة (النهاية : ج ٢٤٦/٢) .

(١٢) انظر : جمع الزوائد (ج ٢٠٨/٩) ، وسنن ابن ماجة (ج ٦١٦/١) كتاب النكاح - باب الولية ح ١٩١١ .

- وليمة العرس :

ولما أراد عليّ ، رضي الله عنه ، أن يبتني بفاطمة ، رضي الله عنها ، قال له النبي ﷺ : « لا بُدَّ لِلْعُرْسِ مِنْ وَلِيْمَةٍ » ، فقال سعد : عليّ كَبُش ، وقال فلان : عليّ كذا وكذا من ذرّة ، ورهن عليّ درعه^(١) عند يهوديّ بشطر شعير ، فأولم على فاطمة ، رضي الله عنها ، فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته - لتقللهم حينئذ^(٢) .

روي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : حضرنا عرس عليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فما رأينا عرساً كان أحسن منه حسناً ، هيأ لنا رسول الله ﷺ زيبياً وتمراً ، فأكلنا ، وكان فراشها ليلة عرسها إهاب كبش^(٣) .

فلما كانت ليلة البناء قال النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه : « إِذَا أَتَيْتَ فَلَاحْتَدِثْ شَيْئاً حَتَّى آتِيكَ » ، فجاءت فاطمة مع أمّ آيين فقعدت في جانب البيت وعليّ في جانب ، فجاء النبي ﷺ فقال : « أَهْمُنَا أَخِي ؟ » فقالت أمّ آيين : أخوك وقد زوّجته ابنتك ؟ قال : « نَعَمْ يَا أُمَّ آيْمَنَ » ، ثم دعا فاطمة ، فجاءت بتعتر من الحياء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « اسْكُنِي ، فَقَدْ أَنْكَحْتُكَ أَحَبَّ أَهْلِ بَيْتِي إِلَيَّ ، اللَّهُمَّ ! كَا أَذْهَبْتَ عَنِّي الرَّجْسَ وَطَهَّرْتَنِي فَطَهَّرْهَا » ، ثم قال لها : « اثْبِتِي بِمَاءٍ » ، فقامت إلى قعب^(٤) في البيت فجعلت فيه ماء فأنته به ، ففج فيه ، ثم قال لها : « قُومِي » ، فنضح عليها الماء ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! أَعْيِذْهَا بِكَ وَذَرِّئَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ، وفعل مثل ذلك بعليّ ، ثم دعا لها فقال : « اللَّهُمَّ ! بَارِكْ فِيهَا وَبَارِكْ عَلَيْهَا ، وَبَارِكْ لَهَا فِي نَسْلِهَا » ثم قال لعليّ : « ادْخُلْ عَلَى أَهْلِكَ بِسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ »^(٥) .

- وكان منزل عليّ وفاطمة ، رضي الله عنهما ، بعيداً قليلاً عن بيوت النبي ﷺ ، فحوّها ﷺ إلى جانبه . فقد روي أنه لما تزوّج عليّ فاطمة قال النبي ﷺ لعليّ : « اطْلُبْ مَنْزِلاً » ، فطلب عليّ منزلاً ، فأصابه مستأخراً عن النبي ﷺ قليلاً ، فبني بها فيه ، فجاء النبي ﷺ إليها ، فقال : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحَوِّلَكَ إِلَيَّ » ، فقالت لرسول الله : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحوّل عني ، فقال رسول الله : « قَدْ تَحَوَّلَ حَارِثَةٌ عَنَّا حَتَّى قَدِ اسْتَحْبَبْتُ مِنْهُ » . فبلغ ذلك حارثة فتحوّل ، وجاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنه قد بلغني أنك تريد أن تحوّل فاطمة إليك ، وهذه منازلنا وهي أسقّب^(٦) بيوت بني النجار بك ، وإنا أنا ومالي لله ولرسوله ، والله يا رسول الله ، المال الذي تأخذ مني أحبّ إليّ من الذي تدع ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقْتَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ » . فحوّها رسول الله إلى بيت حارثة^(٧) .

- أولادها :

وولدت فاطمة لعليّ ، رضي الله عنهما ، الحسن والحسين ومُحَسِّن ، فذهب مُحَسِّن صغيراً ، وولدت له أمّ كلثوم وزينب^(٨) .
روي عن عليّ ، رضي الله عنه ، قال : لما ولد الحسن سمّاه حمزة ، فلما ولد الحسين سمّاه بعمّه جعفر ، قال : فدعاني رسول الله ﷺ ، فقال : « إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أُغَيَّرَ اسْمَ هَذَيْنِ » ، فقلت : الله ورسوله أعلم ، فسماها حسناً وحسيناً^(٩) .

(١) لعلمها غير الدرر التي باعها من أجل الصداق ، لتخلل مدة بين العقد والبناء . (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية : ج ٧/٢) .

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٥٧/٥) ، وجمع الزوائد (ج ٥٠/٤) .

(٣) رواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ٥٠/٤) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه مسلم بن خالد الزنجي وهو ضعيف وقد وثق .

(٤) القَعْبُ : القَدْحُ الضَّخْمُ الغَلِيظُ الجَانِي ، وقيل : قَدْحٌ مِنْ حَسَبٍ مُقَعَّرٍ (لسان العرب : ج ٣٦٨٥/٥) .

(٥) انظر : المستدرک (ج ١٥٩٢) ، وجمع الزوائد (ج ٢٠٥/٩ ، ٢٠٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١/٨) .

(٦) السَّقْبُ : القُرْبُ (النهاية : ج ٣٧٧/٢) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢/٨) .

(٨) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦١/٣) .

(٩) مسند الإمام أحمد (ج ١٥٩/١) .

وعنه أيضاً قال : لما ولدت فاطمة الحسن جاء النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « أُرُونِي ابْنِي مَسْمِيئُمُوهُ ؟ » قال : قلت : سَمِيئُهُ حَرْبًا ، قال : « بَلْ هُوَ حَسَنٌ » ، فلما ولدت الحسين جاء رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « أُرُونِي ابْنِي مَسْمِيئُمُوهُ ؟ » قال : قلت : سَمِيئُهُ حَرْبًا ، فقال : « بَلْ هُوَ حَسَنٌ » ، ثم لما ولدت الثالث جاء رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « أُرُونِي ابْنِي مَسْمِيئُمُوهُ ؟ » قلت : سَمِيئُهُ حَرْبًا ، قال : « بَلْ هُوَ مُحَسِّنٌ » ، ثم قال : « إِنَّا سَمَيْتُهُمْ بِاسْمِ وَلَدِ هَارُونَ : شَبْرٍ وَشَبِيرًا وَمُشَبَّرًا (١) » (٢) .

- ولم يتزوج علي رضي الله عنه عليها حتى ماتت ، فتزوج بعدها أمامة بنت أختها زينب رضي الله عنها بوصية من فاطمة ، رضي الله عنها ، بذلك (٣) .

ويروى أن علياً ، رضي الله عنه ، أراد أن يتزوج ابنة أبي جهل ، فلما بلغ ذلك فاطمة ، رضي الله عنها ، أتت رسول الله ﷺ فقالت : يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : « إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُوا فِي أَنْ يُنكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَا أَدْنَى ، ثُمَّ لَا أَدْنَى ، ثُمَّ لَا أَدْنَى ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيُنكِحَ ابْنَتَهُمْ فَإِنَّا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي يُرِيدُنِي مَا أَرَاهَا وَيُؤْذِنُنِي مَا آذَاهَا » - وفي لفظ : « إِنَّا فَاطِمَةَ شَخْنَةٌ (٤) مِنِّي ، يَبْسُطُنِي مَا يَبْسُطُهَا ، وَيَقْبِضُنِي مَا يَقْبِضُهَا » - وفي لفظ آخر : « إِنَّ فَاطِمَةَ مِنِّي ، وَأَنَا أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا » ، ثم ذكر صهرها له من بني عبد شمس فأثنى عليه في مصاهرته إياه ، قال : « حَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي ، وَإِنِّي لَسْتُ أَحْرَمَ حَلَالًا ، وَلَا أَحِلُّ حَرَامًا ، وَلَكِنَّ وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبَدًا » - فترك علي الخطبة (٥) .

- وكانت فاطمة ، رضي الله عنها ، تكنى أم أيها ، وتلقب بالبتول لانقطاعها عن الدنيا ، وكانت أشبه الناس خلقاً وكلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ ، وكانت إذا دخلت عليه قام رسول الله ﷺ إليها فقبلها ورحب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه ، وكانت هي إذا دخل عليها رسول الله ﷺ قامت إليه مستقبلة وقبلت يده . وكان رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة . فكانت فاطمة ، رضي الله عنها ، أحب أهله إليه ، وهي خير نساء العالمين (٦) ، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ » (٧) .

وروي أنها سألت النبي ﷺ خادماً من السبي الذي جاءه يوماً ، وشكت إليه ما تلقى من أثر الرحى مما تطحن ، فأبى وعلمها ما هو خير لها من الخادم ، فعن علي أن فاطمة ، رضي الله عنها ، أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى ، وبلغها أنه جاءه رقيق ، فلم تصادفه ، فذكرت ذلك لعائشة ، فلما جاء أخبرته عائشة ، قال : فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبننا نقوم ، فقال : « عَلَى مَكَانِكُمْ » فجاء فقعده بيني وبينها ، حتى وجدت برد قدميه على بطني ، فقال : « أَلَا أَدَلُّكُمْ عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا ، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمْ أَوْ أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ » (٨) .

(١) الألفاظ عبرانية ومعناها بالعربية حَسَنٌ وَحَسِينٌ وَمُحَسِّنٌ (لسان العرب : ج ٢/٢١٨٥) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٦٥/٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٣) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢/٢٢) .

(٤) الشَّخْنَةُ : العَصْنُ الْمُشْتَبِكُ ، وَالشَّجْرُ الْمُتَلْتَفُ ، وَالرَّحِمُ الْمُشْتَبِكَةُ ، وَالشُّعْبَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (لسان العرب : ج ٢٢/٢٢٠٢) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٠١/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما ذكر من درع النبي ﷺ ، و (ج ٤٧/٧) كتاب النكاح - باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة ، والمستدرک (ج ١٥٤/٣) .

(٦) انظر : مجمع الزوائد (ج ٢١١/٩) ، والمستدرک (ج ١٦٠/٣) ، وسنن أبي داود (ج ٤١٩/٤) كتاب الترجل - باب ما جاء في الانتفاع بالعلاج ح ٤٢١٣ .

(٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٥٤/٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٨) صحيح البخاري (ج ٨٤/٧) كتاب النفقات - باب عمل المرأة في بيت زوجها .

- وفاتها :

توفيت فاطمة ، رضي الله عنها ، بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر ، وما رُئيت ضاحكة بعد وفاته حتى لحقت بالله تعالى ، وكانت أول أهله لحوقاً به .

قيل توفيت لثلاث ليال خلون من شهر رمضان وهي ابنة تسع وعشرين سنة ، أو ابنة سبع أو إحدى وعشرين^(١) .

روي عن أم سلمي قالت : اشتكت فاطمة شكواها التي قبضت فيها ، فكنت أمرضها ، فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيتها في شكواها تلك ، قالت : وخرج عليّ لبعض حاجته ، فقالت : يا أمّه ! اسكّبي لي غسلًا ، فسكبت لها غسلًا ، فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل ، ثم قالت : يا أمّه ! أعطني ثيابي الجُدُد ، فأعطيتها فلبستها ، ثم قالت : يا أمّه ! قدّمي لي فراشي وسط البيت ، ففعلت ، واضطجعت واستقبلت القبلة وجعلت يدها تحت خدّها ، ثم قالت : يا أمّه ! إني مقبوضة الآن وقد تطهّرت ، فلا يكشفني أحد ، فقَبِضت مكانها ، قالت : فجاء عليّ فأخبرته^(٢) . فدفنها ليلاً ، ولم يؤذن بها أباً بكر ، وصلى عليها^(٣) .

وقيل إنها أوصت أن تغسلها أسماء بنت عمّيس وعليّ بن أبي طالب ، ففعلوا ، وصلى عليها أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، ونزل في حفرتها علي والعبّاس وابنه الفضل^(٤) .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، والمستدرک (ج ١٦٢/٤ ، ١٦٣) ، ومجمع الزوائد (ج ٢١١/٩) .

(٢) مسند الإمام أحمد (ج ٤٦١/٦) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٩/٨) .

ظهور النفاق في المدينة

بدأت ظاهرة النفاق في الشيوخ بالمدينة بعد غزوة بدر، وذلك أن المشركين فيها رأوا ما حصل من نصر وعز للمؤمنين وذلكة وخذلان للكفار من أهل مكة، فدخلوا في الإسلام ظاهراً كارهين، وأبطنوا الحقد والكيد له ولأهله، وكان زعيمهم عبد الله بن أبي ابن سؤل، الذي كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجه قبل مقدمه ﷺ المدينة، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً - كما ذكرنا من قبل - ولما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام، ورأى كيف أذل الله بوقعة بدر رقاب الكافرين دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن^(١).

روى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد، رضي الله عنها، قال: فلما غزا رسول الله ﷺ بديراً، فقتل الله بها من قتل من صناديد الكفار وسادة قريش، فقتل رسول الله ﷺ وأصحابه منصورين غافلين، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادة قريش، قال ابن أبي سؤل ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه^(٢)، فبايعوا رسول الله ﷺ، فأسلموا^(٣).

- بعض أخبار المنافقين وما نزل فيهم :

وتكونت في المدينة من هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً، والذين كانوا يتمثلون في طائفة من الأوس والخزرج^(٤) ومن بعض اليهود، جبهة معادية التفت حول رئيسها عبد الله بن أبي، وراحوا يكيدون للإسلام ويتربصون به الدوائر، وكانوا على صلة دائمة مع اليهود. وقد زخر القرآن الكريم بذكرهم وإزاحة الستار عنهم، حتى يبقى المسلمون على حذر دائم منهم، ففيهم وفي أخبار اليهود نزل على سبيل المثال صدر سورة البقرة إلى المائة آية منها، يعرف بهم وبصفتهم ويفضح أساليبهم^(٥).

وقد اتخذت أساليب المنافقين أشكالاً شتى سنتحدث عنها في مواضعها ضمن أحداث السيرة وفق مجراها الزمني، ونكتفي هنا بذكر بعض أخبارهم وما نزل فيهم من القرآن الكريم.

فن هؤلاء الجلاس بن سويد بن صامت^(٦)، ومعتب بن قشير، ورافع بن زيد، وبشر. روي أنه دعا هؤلاء مرة رجال من قومه من المسلمين، في خصومة كانت بينهم، إلى رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الكهان حكّام أهل الجاهلية، فأنزل الله، عز وجل، فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾^(٧) إلى آخر القصة^(٨).

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢١٦/٢، ٢١٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٧/٣).

(٢) أي ظهر وجهه (فتح الباري: ج ٢٢٢/٨).

(٣) صحيح البخاري (ج ٥٧/٨) كتاب الأدب - باب كنية المشرك.

(٤) ذكر بعضهم أنهم كانوا على عهد رسول الله ﷺ ثلاثمائة رجل (السيرة الحلبية: ج ١١٩/٢).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (ج ١٥٢/٢).

(٦) تاب بعد ذلك وحسنت توبته كما سيأتي في غزوة تبوك.

(٧) النساء: ٦٠.

(٨) سيرة ابن هشام (ج ١٤٨/٢).

ومنهم نَبْتَل بن الحارث وهو الذي قال له رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ » . وكان رجلاً جسماً أذلم^(١) ، نائر شعر الرأس ، أحر العينين ، أسفع الحدين^(٢) ، وكان يأتي رسول الله ﷺ يتحدث إليه ، فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذي قال : إنما محمد أذن من حديثه شيئاً صدقه ، فأنزل الله : عز وجل ، فيه : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذنٌ قُلْ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ .. عَذَابَ أَلِيمٍ ﴾^(٣) .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض رجال بلعجلان أنه حدث أن جبريل ، عليه السلام ، أتى رسول الله ﷺ فقال له : إنه يجلس إليك رجل أذلم ، نائر شعر الرأس ، أسفع الحدين ، أحر العينين كأنها قديران من صفر ، كبده أغلظ من كبد الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين فاحذره ، وكانت تلك صفة نَبْتَل بن الحارث فيما يذكرون^(٤) .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : بينما رسول الله ﷺ جالس في ظل حجرة من حجره ، وعنده نفر من المسلمين ، قد كاد يقلص عنها الظل ، قال : « سَيَأْتِيكُمْ رَجُلٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بَعَيْنِ شَيْطَانٍ فَلَا تَكَلِّمُوهُ » . فدخل رجل أزرق ، فقال رسول الله ﷺ : « غلامٌ تَسْبِيهِ أَنْتَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ؟ » لقوم دعا بأسائهم ، فانطلق إليهم فدعاهم ، فحلفوا واعتذروا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾^(٥) .

- وقد كان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ، ويستهزئون بدينهم . فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس ، فرأهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم ، خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله ﷺ ، فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً ، فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أخي بني غنم بن النجار - وكان صاحب أهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول : أخرجني يا أبا أيوب من مزبد بني ثعلبة !؟ ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة أحد بني النجار فلبّبه بردائه ، ثم تراه تترأ شديداً ، ولطم وجهه ، ثم أخرجه من المسجد ، وأبو أيوب يقول له : أف لك منافقاً خبيثاً ، أدرأجك^(٦) يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ . وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان رجلاً طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقادها بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه جميعاً فلدّمته^(٧) بها في صدره لدمّة خرّ منها ، فقال : خدشتني يا عمارة ، قال : أبعدك الله يا منافق ، فأعد الله لك من العذاب أشدّ من ذلك ، فلا تقربنّ مسجد رسول الله ﷺ . وقام أبو محمد مسعود بن أوس أحد بني النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاماً شاباً ، وكان لا يعلم في المنافقين شاباً غيره ، فجعل يدفع في فقاها حتى أخرجه من المسجد . وقام عبد الله بن الحارث رجل من بلخندرة بن الحزرج رهط أبي سعيد الخدري إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو ، وكان ذا جمّة ، فأخذ بجمّته ، فسحبه بها سحباً عنيفاً على مامرّ به من الأرض حتى أخرجه من المسجد ، وهو يقول : لقد أغلظت يا ابن الحارث ، فقال له : إنك أهل لذلك ، أي عدوّ الله ، لها أنزل الله فيك ، فلا تقربنّ مسجد رسول الله ﷺ فإنك نجس . وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زوي بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً وأقف منه ، وقال : غلب عليك الشيطان وأمره^(٨) .

(١) أذلم : شديد السواد (لسان العرب : ج ١٤١٤/٢) .

(٢) أسفع : أسود مشرب حمرة (لسان العرب : ج ٢٠٢٧/٣) .

(٣) التوبة : ٦١ . وانظر سيرة ابن هشام (ج ١٤٢/٢) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١٤٢/٢) .

(٥) المجادلة : ١٨ ، والخبر في دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٨٢/٥) .

(٦) الأدرأج : جمع درج وهو الطريق : أي أخرج من المسجد وخد طريقك الذي جئت منه . يقال : رجّع أدرأجه ؛ أي عاد من حيث جاء (النهاية :

ج ١١٧/٢) .

(٧) قال ابن هشام : اللدّم : الضرب يطئن الكف .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ١٥٠/٢) .

سرية عمير بن عدي رضي الله عنه لقتل عصماء بنت مروان :

وعصماء بنت مروان هي من بني أمية بن زيد ، كانت تعيب الإسلام ، وتؤذي النبي ﷺ وتشتبه ، وتحرض عليه بقول الشعر . وكانت تحت رجل من بني خطمة يقال له يزيد بن زيد ، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه سبها : « أَلَا أَخَذَ لِي مِنْ ابْنَةِ مَرْوَانَ ؟ » فسمع ذلك عمير بن عدي الحطمي ، فجاءها في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها ، فجسها بيده وكان ضرير البصر ، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها ، ثم أصبح مع رسول الله ﷺ فصلّى معه الفجر وقال : يا رسول الله ! إني قد قتلتها ، فقال : « نَصْرَتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَا عَمِيرُ » ، فقال : هل عليّ شيء من شأنها يا رسول الله ؟ فقال : « لَا يَنْتَظِحُ فِيهَا عَزْرَانٌ (١) » ، فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ ، وسمّاه عميراً البصير . فرجع عمير إلى قومه ، وبنو خطمة يومئذ كثير مؤجهم (٢) في شأن بنت مروان ، ولها يومئذ بنون خمسة رجال ، فلما جاءهم عمير بن عدي من عند رسول الله ﷺ قال : يا بني خطمة ! أنا قتلت ابنة مروان ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . وكان ذلك لخمس ليال بقين من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة .

فذلك اليوم أول ما عز الإسلام في دار بني خطمة ، وكان يستخفي بإسلامه فيهم من أسلم ، وكان أول من أسلم من بني خطمة عمير بن عدي ، وهو الذي يدعى القاري ، وعبد الله بن أوس ، وخزيمه بن ثابت . وأسلم يوم قتلت ابنة مروان رجال من بني خطمة لما رأوه من عز الإسلام (٣) .

وقد روى أبو داود في سننه نحو هذه القصة ببعض الاختلاف ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ ، وتقع فيه ، فبناها فلاتنتهي ، ويزجرها فلا تنزجر ، قال : فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه ، فأخذ المغول (٤) ، فوضعه في بطنها ، وأتكا عليها فقتلها ، فوقع بين رجلها طفل ، فلطخت ما هناك بالدم ، فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فجمع الناس ، فقال : « أَنْشُدْ اللَّهَ رَجُلًا فَعَلَّ مَا فَعَلَ ، لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ » ، فقام الأعمى يتخطى الناس ، وهو يتزلزل ، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! أنا صاحبها ، كانت تشتمك وتقع فيك فأبهاها فلاتنتهي ، وأزجرها فلاتنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وكانت بي رفيقة ، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المغول ، فوضعت في بطنها ، وأتكات عليها حتى قتلتها ، فقال النبي ﷺ : « أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرَ » (٥) .

وقيل : إنها كانت يهودية ، وكانت تشتم النبي ﷺ وتطرح الحايض في مسجد بني خطمة ، فأهدر النبي ﷺ دمه (٦) .

سرية سالم بن عمير رضي الله عنه لقتل أبي عفاك :

وأبو عفاك يهودي من بني عمرو بن عوف ، كان شيخاً كبيراً قد بلغ عشرين ومائة سنة ، وكان يحرض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ لِي بِهَذَا الْحَبِيثِ ؟ » ، فقال سالم بن عمير ، وهو أحد البكائين (٧) ، وقد شهد بدرأ . عليّ نذر أن أقتل أبا عفاك أو أموت دونه ، فأمهل يطلب له غيرة (٨) ، حتى كانت ليلة صائفة ، فقام أبو عفاك بالفناء ، وعلم به سالم ،

(١) أي لا يلتقي فيها اثنان ضعيقان ، والمراد هنا : لا يجري فيها خلف ويزاغ (النهاية : ج ٧٤/٥) .

(٢) أي اختلقت أمورهم واضطربت (الوسيط : ج ٨٩٨/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٣/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧/٢) .

(٤) المغول : شبة سيف قصير ، يشتمل به الرجل تحت ثيابه فيغطي به ، وقيل : هو سوط في جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على وسطه ليغتال به الناس ، سمي مغولاً لأن صاحبه يغتال به عدوه من حيث لا يحتسب . انظر : (النهاية : ج ٢٩٧/٣) و (لسان العرب : ج ٣٣١٧/٥) .

(٥) سنن أبي داود (ج ٥٢٨/٤) كتاب الحدود - باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ ح ٤٣٦١ ، والهندر : ما يبطل من دم وغيره ليس فيه قوّة ولا عقل ولا يدرك بثأره (لسان العرب : ج ٤٦٣٢/٦) .

(٦) انظر : السنن الكبرى للبيهقي (ج ٦٠/٧) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٤٥٤/١) .

(٧) سبأني الحديث عن البكائين في غزوة تبوك إن شاء الله تعالى .

(٨) الغيرة : الغفلة (النهاية : ج ٢٥٤/٣) .

فأقبل فوضع السيف على كبده ، ثم اعتمد عليه حتى خشّ في الفراش ، وصاح عدوّ الله ، فثاب إليه ناس من هم على قوله ، فأدخلوه منزله وقبروه .

وكان مقتله في شوال من السنة الثانية للهجرة^(١) .

☆ ☆ ☆

غزوة بني قينقاع

وبنو قينقاع أشهر قوم من اليهود وأشجعهم ، وكانوا صاعّة ، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد ، ونبذوا العهد الذي كان النبي ﷺ عاهدهم وعاهد سائر اليهود في المدينة أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه أحداً ، فكان بنو قينقاع أول يهود غدروا ونقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد^(٢) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع ، فقال : « يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ! أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَ بِهِ قُرَيْشًا » - وفي لفظ : « اخذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم » - فقالوا : يا محمد ! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً^(٣) لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنت لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَنَحْشُرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمِهَادُ ، قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الَّذِينَ تَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْآخَرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾^(٤) .

وروى ابن هشام بسنده عن أبي عون قال : كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب^(٥) لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع^(٦) .

مسير النبي ﷺ إلى بني قينقاع وحصارهم :

فلما رأى رسول الله ﷺ أن بني قينقاع نقضوا العهد والميثاق ، وتوسّعوا في استفزازاتهم حتى تعرّضوا لنساء المسلمين ، وأنزل الله تبارك وتعالى عليه : ﴿ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾^(٧) ، قال ﷺ : « أنا أخاف بني قينقاع » .

فسار إليهم رسول الله ﷺ واستخلف على المدينة أبا لُبابة بشير بن عبد المنذر ، ودفع اللواء إلى حمزة بن عبد المطلب ، وكان لواء أبيض .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٧/٢) . لكن في سيرة ابن هشام أن مقتل أبي عَفَك كان بعد أن نجح نفاقه حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن الصامت بعد أحد ، وأن مقتل عصاء كان بسبب نفاقها بعد مقتل أبي عَفَك .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٧/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٧/٢) .

(٣) الأعمار : جمع عُمر ، وهو الجاهل العُر الذي لم يجرب الأمور (النهاية : ج ٢٨٥/٣) .

(٤) آل عمران : ١٢ - ١٣ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/٢ ، ٤٢٦) ، وسنن أبي داود (ج ٤٠٢/٣) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة ح ٢٠٠١ .

(٥) الجلب : ما جلب من متاع للتجارة (الوسيط : ج ١٢٨/١) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٤٢٧/٢) .

(٧) الأنفال : ٥٨ .

فلما رأوه تحصّصوا في حصونهم ، فحاصرهم رسول الله ﷺ أشدَّ الحصار ، وكان ذلك يوم السبت لل نصف من شوال من السنة الثانية للهجرة ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة ، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ . (انظر : مصور غزوة بني قينقاع) .

فأمر بهم فكفّوا ، واستعمل على كتابتهم المنذر بن قدامة من بني السلم ، فلما أراد قتلهم كلمه فيهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، وألح عليه ، فقال : يا محمد ! أحسن في موالي - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ! أحسن في موالي ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع^(١) رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « أرسلني » ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً^(٢) ، ثم قال : « وَيْحَكَ !! أرسلني » ، قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع^(٣) قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله ﷺ : « هم لك ، لأبارك الله لك فيهم » ثم قال لأصحابه : « خلّوهم لعنهم الله ولعنة معهم » وتركهم من القتل .

وأمر رسول الله ﷺ أن يجلوا من المدينة بذراريهم ونسائهم ، وأمهلهم ثلاثة أيام ، ووكل بإخراجهم منها عبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، فجعلت بنو قينقاع تقول : يا أبا الوليد ! من بين الأوس والخزرج - ونحن مواليك - فعلت هذا بنا ؟ فقال عبادة لهم : لَمَّا حاربتم جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ! أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ إليك من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم - وكان ابن أبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف - فقال عبد الله بن أبي له : تبرأت من حلف مواليك ؟ ما هذه بيدهم عندك ، فذكره مواطن قد أبلوا فيها ، فقال عبادة : أبا الحجاب ! تغيرت القلوب ، وبخا الإسلام اليهود ، أما والله إنك لمعتصم بأمر سترى غبه^(٤) غداً . ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت القصة من سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَادِمِينَ ، إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥﴾ .

فأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء ، وطلبوا التنفّس^(٦) ، فقال لهم : ولا ساعة من نهار ، لكم ثلاث لا أزيدكم عليها ، هذا أمر رسول الله ﷺ ، ولو كنت أنا مانفستكم . فلما مضت ثلاث خرج في آثارهم حتى سلخوا إلى الشام ، وبلغ خلف ذباب^(٧) ، ثم رجع ، ولحقوا بأذرعات ، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم ، بدعوتهم ﷺ في قوله لابن أبي : « لأبارك الله لك فيهم » .

وغنم الله ، عز وجل ، رسوله ﷺ ما كان لهم من مال ، ولم تكن لهم أرضون ولا مزارع ، إنما كانوا صاغة ، ووجدوا في حصونهم آلة الصياغة وسلاحاً كثيراً ، فأخذ رسول الله ﷺ منها ثلاث قسي : قوساً تدعى الكتوم - لأنه لا يسمع لها صوت إذا رمي بها - كسرت يوم أحد ، وقوساً تدعى الروحاء ، وقوساً تدعى البيضاء ، وأخذ درعين : درعاً يقال لها الصغديّة ، وأخرى فضة ، وثلاثة أسياف :

(١) قال ابن هشام : وكان يقال لها ذات الفضول .

(٢) الظلّل : جمع ظلّة ، وهي ما حجب عنك ضوء الشمس وصحّو السماء . وكان وجه رسول الله ﷺ مشرقاً بشاماً ، فإذا غضب تلوّن ألواناً ، فكانت تلك الألوان حائلة دون الإشراف والطلاقة والضياء المنتشر عند تبسّمه (الروض الأنف : ج ١٤٣/٣) .

(٣) الحاسر : هو الذي لا درع عليه ولا يغطّر . وقد تقدّم. والدّارغ : ذو درع (لسان العرب : ج ١٣٦١/٢) .

(٤) غيب الأمر : عاقبته وأخيره (لسان العرب : ج ٢٢٠٢/٤) .

(٥) المائة : ٥١ - ٥٦ .

(٦) يقال لك في هذا الأمر نفسة ، أي : مهلة (لسان العرب : ج ٤٥٠٢/٦) .

(٧) ذباب : جبل بالمدينة (معجم البلدان : ج ١٩١/٤) .

سيف قلبي ، وسيف يقال له بشار ، وسيف آخر يدعى الحتف ، وثلاثة أرماع . وخمس رسول الله ﷺ غنائمهم ، فأخذ صفيه (١) والخمس ، وفض أربعة أحماس على أصحابه ، فكان أول خمس خمس بعد بدر ، وكان الذي ولي قبض أموالهم محمد بن مسلمة رضي الله عنه (٢) .

☆ ☆ ☆

غزوة السويق

غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة ، وولي تلك الحجة المشركون من تلك السنة . وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة ، ورجع قل (٣) قريش من بدر نذر أن لا يس رأسه ماء من جنازة حتى يغزو محمداً - ﷺ - ويثار لأصحابه . فخرج في مائتي راكب من قريش - وقيل في أربعين راكباً - ليبر يمينه ، فسلك النجدية ، حتى نزل بصدرة قناة إلى جبل يقال له ثيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل ، فأتى حبي بن أخطب ، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له بابه وخافه ، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم ، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك ، وصاحب كزهم ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فقراه وسقاه خمراً ، وأخبره من أخبار رسول الله ﷺ ، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالاً من قريش فأتوا ناحية من المدينة يقال لها العريض ، فحرقوا في أصوار (٤) من نخل بها ، ووجدوا رجلاً من الأنصار ، يقال هو معبد بن عمرو ، وحليفاً له في حرث لها فقتلوهما ، ثم ولوا هاربن .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج في أثرهم يطلبهم في مائتين من المهاجرين والأنصار ، واستعمل على المدينة أبا كبابة بشير بن عبد المنذر ، وكان خروجه يوم الأحد خمس خلون من ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة .

وجعل أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب السويق (٥) ، وهي عامة أزوادهم ، يتخفون منها للنجاء ، وبلغ رسول الله ﷺ قرقرة الكثر ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة ، وقد فاتته أبو سفيان وأصحابه ، وكانت غيبته خمسة أيام . فقال المسلمون حين رجع رسول الله ﷺ : يا رسول الله ! أتطمع لنا أن تكون غزوة ؟ قال : « نعم » .

وإنما سميت غزوة السويق لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم السويق ، فرجع المسلمون بسويق كثير فسميت بذلك (٦) .
(انظر : مصور السرايا والغزوات بين بدر وأحد) .

أول أضحى رآه المسلمون (٧) :

وبعد أن انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حضرت الأضحى ، وكان أول أضحى رآه المسلمون ، فذكر أن رسول الله ﷺ ضحى وأهل اليسر من أصحابه ، يوم العاشر من ذي الحجة ، وخرج بالناس إلى المصلى ، فصلّى بهم ، فندلك أول صلاة أضحى صلى رسول الله ﷺ بالناس بالمدينة بالمصلى ، وذبح فيه بيده شاتين ، وقيل شاة (٨) .

(١) الصفي : ما كان يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة (النهاية : ج ٤٠/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٧/٢) ، ومغازي الواقدي (ج ١٧٨/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢١٠/٢) .

(٣) الفل القوم المنهزمون (النهاية : ج ٤٧٢/٢) .

(٤) الصور : النخل الصغار (لسان العرب : ج ٢٥٢/٤) .

(٥) السويق : هو قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن ليُسف نارة بالماء وتارة بسن وتارة بعسل وسن (السيرة الحلبية : ج ٢١١/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٠/٢) .

(٧) وأما أول عيد شهده المسلمون في حياتهم فهو عيد الفطر الذي وقع في شوال من السنة الثانية للهجرة عقب غزوة بدر .

(٨) انظر : تاريخ الطبري (ج ٤٨١/٢) .

وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه :

وتوفي في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة عثمان بن مظعون ، رضي الله عنه ، وكان شهد معه بدرأ ، وقيل إنه توفي في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة .

ولما اشتكى عثمان بن مظعون ، رضي الله عنه ، في مرضه الذي مات فيه ، دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يموت ، فأمر رسول الله ﷺ بثوب فسجى عليه ، وكان عثمان نازلاً على امرأة من الأنصار يقال لها أمّ العلاء أو أمّ معاذ ، فكث رسول الله ﷺ مكياً عليه طويلاً ، وأصحابه معه ، ثم تنحى رسول الله ﷺ فبكى ، فعرفوا أنه قد مات ، فبكى أهل البيت ، فقال رسول الله ﷺ : « رَحِمَكَ اللهُ أبا السائب ، ذهبت ولم تكسب منها بشيء » ، فقالت أمّ العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال النبي ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمته ؟ » قالت : لأدري ، بأبي أنت وأمّي يا رسول الله فمن يكرمه الله ؟ قال : « أمّا هو فقد جاءه والله اليقين ، والله إنني لأرجو له الخير ، وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي » ، قالت : فوالله لأزكي أحداً بعده . قالت : فأحزني ذلك ، فميت فأريت لعثمان بن مظعون عيناً تجري ، فجنث رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « ذَلِكَ عَمَلُهُ » .

وفي رواية أنها قالت : هنيئاً لك الجنة يا عثمان بن مظعون ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وما يدريك ؟ » قالت : يا رسول الله ! فارسك وصاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : « أمّا هو فقد جاءه اليقين ، ولا نعلم إلا خيراً ، وإنني رسول الله وما أدري ما يفعل بي » . فأشفق الناس على عثمان ، فلما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : « أَلْحِقْوْهَا بِسَلْفِنَا الْحَيْرِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ » .

وقد روي أن النبي ﷺ صلى عليه وكبر عليه أربعاً ، ثم شهد دفنه ، وأمر رجلاً أن يأتيه بجر ، فلم يستطع حمله ، فقام إليها رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه ، ثم حملها فوضعها عند رأسه وقال : « أتعلم بها قبر أخي ، وأذنن إليه من مات من أهلي »^(١) .
(انظر : مخطط قبور السلف المعروفة بالبقيع الشريف) .



(١) انظر في وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه : طبقات ابن سعد (ج ٣٩٦/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٨٥/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٨٣) ، والموطأ (ص : ١٦٠) جامع الجنائز ، وصحيح البخاري (ج ٨٥/٥) كتاب المناقب - باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، والمستدرک (ج ١٩٠/٣) ، وسنن أبي داود (ج ٥٤٢/٣) كتاب الجنائز - باب في جمع الموق في قبر ، والقبر يعلم ح ٢٢٠٦ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٤١٠/٣) .

السنة الثالثة للهجرة

غزوة بني سُلَيْم (قَرْقَرَةَ الْكُدْر) :

وكان سببها أن قبائل من سُلَيْم وَعَطْفَانَ حشدت قواتها لغزو المدينة في موضع يقال له قَرْقَرَةَ الْكُدْر^(١) ، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ خرج إليهم في مائتي رجل من أصحابه ، واستخلف على المدينة سِبَاع بن عَرْفَطَةَ الْغِفَارِيِّ أو ابن أُم مَكْتُوم ، ودفع لواءه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فسار إليهم رسول الله ﷺ حتى بلغ ماء من مياههم يقال له الْكُدْر ، فأقام عليه ثلاث ليال ، فلم يلق أحداً من سُلَيْم وَعَطْفَانَ ، فأرسل ﷺ نفرأ من أصحابه في أعلى الوادي ، واستقبلهم رسول الله ﷺ في بطن الوادي ، فوجد رِعاء فيهم غلام يقال له يَسَار ، فسأله عن الناس ، فقال : لا علم لي بهم ، إنما أُورِدَ لِحَمْس ، وهذا يوم رِيعِي^(٢) والناس قد ارتفعوا إلى المياه ، ونحن عَزَاب في النَّعْم^(٣) ، فانصرف رسول الله ﷺ وقد ظفِرَ بِالنَّعْم ، فأنحدر به إلى المدينة ، فاقتسموا غنائمهم بِصِرار ، على ثلاثة أميال من المدينة ، وكانت النَّعْم خمسمائة بعير ، فأخرج خمسة وقسم أربعة أخماسه على المسلمين ، فأصاب كل رجل منهم بعيران ، وصار يَسَار في سهم النبي ﷺ فأعتقه ، وذلك أنه رآه يصلي ، وغاب رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة .

وكانت هذه الغزوة في نصف الحرم من السنة الثالثة للهجرة ، وقيل في أول شوال بعد بدر بسبعة أيام أي في السنة الثانية للهجرة^(٤) . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين بدر وأحد) .

غزوة ذي أَمْرٍ (أُنْمَار)^(٥) :

وسببها أن جمعاً من بني ثَعْلَبَةَ بن سعد من عَطْفَانَ ، ومن بني محارب بن خَصَفَةَ قد تجمعوا بنذي أَمْرٍ في نجد يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، جمعهم رجل منهم يقال له دَعُثُور بن الحارث الْحَارِثِيُّ ، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ ندب المسلمين وخرج في الحرم من السنة الثالثة للهجرة^(٦) في أربعمائة وخمسين رجلاً ، ومعهم أفراس ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، فأصابوا في الطريق رجلاً منهم يقال له جَبَّار من بني ثعلبية ، فأدخل على رسول الله ﷺ فأخبره من خبرهم وقال : لن يلاقوك ، ولو سمعوا بمسيرك هربوا في رؤوس الجبال ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم ، فضمه إلى بلال ، رضي الله عنه ، وأصبح دليلاً للمسلمين إلى

(١) القَرْقَرَةُ : أرضٌ مُلَسَاء ، والكُدْرُ : طَيْرٌ في ألوانها كُدْرَةٌ ، عُرِفَ بها ذلك الموضع (عيون الأثر : ج ٢١٨/١) .

(٢) الْحِمْسُ : من أطباء الإبل ، وهو أن تردَّ الإبلُ الماءَ اليومَ الحامِسَ (لسان العرب : ج ١٢٦٣/٢) ، وأطباءُ : جمع طِبْمٌ وهو ما بين الشَّرْبَيْنِ والوَرْدَيْنِ ، أو هو حَبْسُ الإبلِ عن الماءِ إلى غايةِ الوَرْدِ (لسان العرب : ج ٢٧٦١/٤) ، والرَّيْعُ : الطَّبْمُ من أطباءِ الإبلِ ، وهو أن تردَّ الماءَ يوماً وتُدَعِّعَ يَوْمَيْنِ ، ثم تردَّ اليومَ الرابعَ (لسان العرب : ج ١٥٦٢/٢) .

(٣) عَزَبَ الرَّجُلُ يَأْبِلُهُ : إذا رعاها بعيداً عن الدارِ التي حَلَّتْ بها (لسان العرب : ج ٢٩٢٤/٤) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢١/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١/٢) .

(٥) انظر : تاريخ الطبري (ج ٤٩٢/٢) .

(٦) هذا عند ابن إسحاق ، أما عند ابن سعد فكان خروجه ﷺ لِأَنَّتِي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤/٢) .

عَطْفَانَ . فلما وصلوا إلى مكان تجمعهم لم يجدوا أحداً وكانوا قد تفرقوا في رؤوس الجبال فأقام رسول الله ﷺ بنجد صفاً كله ، أو قريباً من ذلك ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين بدر وأحد) .

وأسلم في هذه الغزوة دُعُوثُور بن الحارث الذي كان قد جمع قومه لمحاربة النبي ﷺ ، فقد روي أن مطراً أصاب المسلمين في تلك الغزوة ، ففرغ رسول الله ﷺ ثوبيه ونشرهما ليحفاً وألقاهما على شجرة ، واضطجع ، وجاء دُعُوثُور ومعه سيف حتى قام على رأس رسول الله ﷺ ، ثم قال : من يمنحك مني اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله ! » ودفع جبريل في صدره ، فوقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال له : « مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ » قال : لأحد ! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ! فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه ، ثم أدبر ، ثم أقبل بوجهه فقال : والله لأنت خير مني ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا أحقُّ بِذَلِكَ مِنْكَ » ، فأتى قومه ، فقالوا : أين ما كنت تقول وقد أمكنك والسيف في يدك ؟ قال : قد كان والله ذلك رأيي ، ولكن نظرت إلى رجل أبيض طويل فدفع في صدري فوقعت لظهري ، فعرفت أنه ملك ، وشهدت أن محمداً رسول الله ، والله لا أكثر عليه ، ثم جعل يدعو قومه إلى الإسلام^(١) . ونزلت هذه الآية فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اذْهَبُوا بِكُمْ أَيْدِيَهُمْ .. ﴾^(٢) الآية^(٣) .

وأهم ما تجدر الإشارة إليه في قصة دُعُوثُور أنها تعتبر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾^(٤) ، فليست العصمة المقصودة في الآية - كما يقول الدكتور البوطي - أن لا يتعرض لأذى أو نحنة من قومه ، إذ تلك هي سنة الله في عباده ، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله . لتتغل فيه الدعوة الإسلامية التي بُعث لتبليغها^(٥) .

مقتبل كعب بن الأشرف :

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه . وكان أبوه عربياً من قبيلة طييء من بني تيهان ، وكان أصاب دماً في الجاهلية ، فأتى المدينة فحالف بني النضير ، فشرّف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق ، فولدت له كعباً ، وكان طويلاً جسماً ذا بطن وهامة ، وكان شاعراً مجيداً ، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ، فكان يعطي أحرار يهود ويصلهم ، وكان حصنه في شرقي جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير^(٦) .

وكان كعب يهجو رسول الله ﷺ بأشعاره ، ويحرض عليه كفسار قریش ، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة قدمها وأهلها أخلاط ، منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان ، ومنهم اليهود ، وكان المشركون واليهود يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾^(٧) ، فأمر الله ، عز وجل ، نبيه ﷺ بالصبر والعفو - كما ذكرنا من قبل - فلما أتى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذاه - وكان قد عاهد النبي ﷺ أن لا يعين عليه أحداً ، فنقض كعب العهد - أمر رسول الله ﷺ بقتله .

وكان من عداوته أنه لما أصيب أصحاب بدر وقدم زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، إلى أهل السافلة ، وعبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، إلى أهل العالية بشيرين بعثها رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله ، عز وجل ، عليه وقتل من قتل من المشركين ، كبر عليه ذلك وقال : أحقّ هنا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان ، فهؤلاء أشرف العرب وملوك

(١) قصة دُعُوثُور هذه شبيهة بقصة غُورث بن الحارث في غزوة ذات الرقاع والخرجة في الصحيح ، فيحتل التعمد ، أو أن ما في الصحيح أصح .

(٢) المائة : ١١ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٥/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦٨/٢) .

(٤) المائة : ٦٧ .

(٥) فقه السيرة / للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص : ٢١٢) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢١/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٨٧٢) .

(٧) آل عمران : ٨٦ .

الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما تيقن الخبر كُتبت وذلل ، وانبعث بهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويمرض عليهم ، فلم يرض بذلك حتى ركب إلى قريش فبكى قتلاهم وحرصهم على قتاله ﷺ ، فنزل بمكة على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وعنده زوجته عاتكة بنت أبي العيص فأنزلته وأكرمته ، فجعل يمرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار .

فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا حسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، فهجا المطلب وزوجته ، فلما بلغ ذلك عاتكة ألفت رحله وقالت : مالنا ولهذا اليهودي ؟ فخرج كعب من عندها وصار يتحول من قوم إلى قوم فيفعل مثل ما فعل عند عاتكة ، ويبلغ خبره النبي ﷺ فيذكره لحسان فيهجوهم ، فيفعلون معه كما فعلت عاتكة .

وقد روي أنه لما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون : أدينا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ فقال ابن الأشرف : دينكم خير وأقدم ، دين محمد حديث ، وأنتم أهدى منه سبيلاً .

ثم رجع إلى المدينة وقد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله ﷺ ، معلناً بعداوتهم ﷺ وهجاءه ، وأخذ يشبب^(١) في أشعاره بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فقال رسول الله ﷺ حينئذ : « من يكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، واستعلن بعداوتنا وهجائنا ، وخرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا ، قد أخبرني الله ، عز وجل ، بذلك ، ثم قدم على أخبث ما كان ينتظر قريشاً أن يقدم فيقاتلنا معهم » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ على المسلمين ما أنزل الله فيه : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجيب والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾^(٢) .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم ! اكفني ابن الأشرف بما شئت » ، فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله ، فقال : « أفعل إن قدوت على ذلك ، وشاور سعد بن معاذ في أمره » . فرجع محمد بن مسلمة ، فكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه^(٣) ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فدعا له ، فقال له : « لم تركت الطعام والشراب ؟ » فقال : يا رسول الله ! قلت لك قولاً لأدري هل أفين لك به أم لا ؟ فقال : « إنما عليك الجهد » . قال محمد بن مسلمة : فأذن لي أن أقول شيئاً ، قال : « قل » .

فأتى محمد سعد بن معاذ فشاوره ، فقال له : امض على بركة الله - وفي رواية أن رسول الله ﷺ أمر سعد بن معاذ أن يبعث إلى كعب خمسة نفر يقتلونه ، فبعث محمد بن مسلمة - فأتى محمد أباً نائلة سلكان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاة ، وعبيد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبا عبس بن جبر - وكلهم من الأوس - فأخبرهم بما وعد به رسول الله ﷺ من قتله ، فأجابوه ، وقالوا : كلنا نقتله ، إلا سلكان فقال له : يا ابن أخي ! أنت عندي مصدق ، ولكن لا أحب أن أفعل من ذلك شيئاً حتى أشفاه رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « امض مع أصحابك » . ثم اجتمعوا كلهم عند رسول الله ﷺ وقالوا له : يا رسول الله ! نحن نقتله ، فأذن لنا فلنقل ، فقال : « قولوا ما بدا لكم ، فأنتم في حل من ذلك ، فإنما الحرب خدعة » .

فأتى محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عتانا^(٤) ، وإني قد أتيتك أستسلفك ، قال كعب : وأيضاً والله لكتلته ، قال : إنا قد اتبعناه ، فلا تحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً^(٥) أو وسقين ، فقال : نعم ارهنوني ، قال : أي شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم ، قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنوني أبناءكم ، قال : كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم فيقال : رهن بوسق أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكننا نرهنك اللامة ، يعني السلاح . فواعده أن يأتيه بعد هداة من الليل .

(١) شبب بفلاة: تغزل بها وذكر حشنها (الوسيط: ج ٤٧٢/١) .

(٢) النساء : ٥١ .

(٣) أي : يبيعي عليها . انظر : (النهاية : ج ٢٨٩/٣) .

(٤) عتاة : كلته ما يشق عليه . وقد تقدم .

(٥) الوسق : الأصل في الوسق الحمل وهو مكيئة معلومة ، وقيل : هو حمل بعير وهو سيتون صاعاً بضاع النبي ﷺ (لسان العرب : ج ٤٨٢٧/٦) .

وأتاه أيضاً أبو نائلة فتحدّثت معه ساعة ، وتناشدا شعراً ، ثم قال له : ويحك يا ابن الأشرف !! إني قد جئتكم لحاجة أريد ذكرها لك فآختم عني ، قال : أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا به العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس^(١) ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ، فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول ، فقال له أبو نائلة : إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ، ونرهنك ونوثق لك ونحسن في ذلك ، فقال : أترهونني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيكم بهم فتبيعهم ، وتحسن في ذلك ، ونرهنك من الحلقة^(٢) ما فيه وفاء ، قال : إن في الحلقة لوفاء - وأراد أبو نائلة ومحمد بن مسلمة قبله أن لا يتكر كعب السلاح إذا جاؤوا بها - وسكن كعب إلى قوله وقال : جئنا بهم متى شئت .

فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيأتوه إذا أمسى ، ثم أتوا رسول الله ﷺ فأخبروه ، وذلك في ليلة مقمرة ، ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة ، فمشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلاً : « انطلقوا على اسم الله ، اللهم ! أعينهم » ، ثم رجع إلى بيته ، وطفق يصلي ويدعو ربّه .

وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه (انظر : مصور مجموعة الغزوات والسرايا ضد اليهود) ، وكان حديث عهد بعرس ، فهتف به أبو نائلة ، فوثب في ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : إنك امرؤ نحارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة ، فأين تخرج ؟ إني أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم ، فقال كعب : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعة أبو نائلة لو وجدني نائماً لما أيقظني ، قالت : والله إني لأعرف في صوته الشر ، فقال : إن الكريم لو دعي إلى طعنة لبلى لأجاب .

وفي رواية قالت له امرأته : ما جاءك هؤلاء في هذه الساعة لشيء مما تحب ، قال : إنهم قد حدّثوني بمحاجتهم ، قالت : أرسل إلى أمثالهم من قومك يكونوا معك ، فقال : لو وجدني هؤلاء نائماً ما أيقظوني ، قالت : فكلمهم من فوق البيت ، فأبى عليها ، فنزل إليهم ، وهو يتفح منه ريح الطيب .

وقد كان محمد بن مسلمة أو أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء كعب فإني أخذ بشعره فأشتمّه ، فإذا رأيتوني استمكن من رأسه فدونكم فاضربوه . فلما نزل كعب إليهم تحدّث معهم ساعة وتحدّثوا معه ، ثم قالوا له : هل لك يا ابن الأشرف أن نتاشى إلى شعث العجوز^(٣) فنتحدّث به بقية ليلتنا هذه ؟ قال : إن شتم ، فخرجوا يتاشون ، فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة شام يده في قود رأسه^(٤) ، ثم شمّ يده وأشتم أصحابه ، فقال : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ، قال كعب : عندي أعطر نساء العرب وأكل العرب ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمتلها حتى اطمان ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمتلها ، فأخذ بقود رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله فاضربوه ، فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً ، فاعتنقه أبو عبس وأخذ محمد بن مسلمة مغولاً من سيفه فوضعه في ثنّته^(٥) ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عاتته ، فوقع عدو الله قتيلاً ، وقد أصيب الحارث بن أوس ، ويقال عبّاد بن بشر ، بدباب^(٦) بعض سيوف أصحابه ، فجرح في رأسه أو في رجله ونزف الدم .

وكان كعب قد صاح صيحة لم يبق حولهم حصن إلا وقد أوقدت عليه نار ، فخرجوا يشتدون سراعاً ، وقد احتزوا رأسه فحملوه معهم ، فسلكوا على بني أمية بن زيد ، ثم على بني قريظة ، ثم على بعات ، فلما وصلوا إلى حرة العريض فقدوا صاحبهم الحارث بن أوس ، فوقفوا له ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم - وفي رواية أنهم رجعوا أدراجهم فوجدوه من وراء جرف بعات - فاحتلوه ، حتى إذا بلغوا

(١) الجهد : المشقة ، ومعنى جهدت الأنفس ، أي : بلغت الأنفس الغاية من المشقة . انظر : (لسان العرب : ج ٧٠٨/١) .

(٢) الحلقة : السلاح عاماً ، وقيل : هي الدرّوع خاصة (النهاية : ج ٤٢٧/١) .

(٣) شعث العجوز : شعث بظاهر المدينة (معجم البلدان : ج ٢٧١/٥) .

(٤) شام : أدخل (لسان العرب : ج ٢٢٨١/٢) ، والقود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن (لسان العرب : ج ٣٤٨٢/٥) .

(٥) الثنّة : موضع أسفل البطن تحت السرة فوق العانة . انظر : (الوسيط : ج ١٠١/١) ، و (السيرة الحلبية : ج ٢٢٦/٢) .

(٦) دباب السيف : طرفه الذي يضرب به (النهاية : ج ١٥٢/٢) .

بقيع الغرقد كبروا ، فسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم فكبر وعرف أن قد قتلوه ، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ ، وذلك من آخر الليل ، وهو قائم يصلي ، سلموا عليه ، فخرج إليهم فقال : « أَفَلَحَتِ الْوَجُوهُ » ، فقالوا : ووجهك يا رسول الله ، ورموا برأس عدو الله بين يديه ، فحمد الله على قتله ، وتفل على جرح الحارث فبرأ ، ويروى أنه قال : « مَنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ فَأَقْتَلُوهُ »^(١) .

وقد أوقعت هذه الحادثة الرعب في نفوس اليهود جميعاً ، فلم يطلع منهم أحد ، ولم ينطقوا بحرف لقتل طباغيتهم ، وخافوا أن يبيتوا كما بيئت ابن الأشرف .

وفي رواية : أنه لما أصبحت اليهود غدوا على النبي ﷺ مذعورين ، فقالوا : طرقت صاحبنا فقتل ، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول ، وما كان يحض عليهم ويمرض في قتالهم ويؤذيهم ، ثم دعاهم ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه ، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسامحة عامة صحيفة صلح ، وكانت تلك الصحيفة مع علي ، رضي الله عنه ، بعد^(٢) .

مقتل ابن سُنَيْتَةَ :

ولما سمع مُحَيِّصَةَ بن مسعود قول رسول الله ﷺ : « مَنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ فَأَقْتَلُوهُ » وثب مُحَيِّصَةَ ، رضي الله عنه ، على ابن سُنَيْتَةَ ، ويقال ابن سُنَيْتَةَ ، رجل من تجار يهود ، كان يلبسهم ويبيعهم ، فقتله ، فقال له أخوه حَوَيْصَةَ وهو مشرك إذ ذاك : أي عدو الله ! أقتلته ؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ، وجعل يضربه ، فقال مُحَيِّصَةَ : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك ، قال : فوالله إن كان لأول إسلام حَوَيْصَةَ ، قال : الله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني ؟ قال : نعم ، والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها ، فقال حَوَيْصَةَ : والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ، فأسلم^(٣) .

قال ابن هشام : وحدثني أبو عبيدة عن أبي عمرو اللدني قال : لما ظفر رسول الله ﷺ ببني قَرِيظَةَ^(٤) أخذ منهم نحواً من أربعائة رجل من اليهود ، وكانوا حلفاء الأوس على الخزرج ، فأمر رسول الله ﷺ بأن تضرب أعناقهم فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم ، ويسرهم ذلك ، فنظر رسول الله ﷺ إلى الخزرج ووجوههم مستبشرة ، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم ، فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وبين بني قريظة ، ولم يكن بقي من بني قريظة إلا اثنا عشر رجلاً ، فدفعهم إلى الأوس ، فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلاً من بني قريظة ، وقال : « لِيَضْرِبَ فُلَانٌ وَلِيُدْفَقَ^(٥) فُلَانٌ » ، فكان ممن دفع إليهم كعب بن يهودا ، وكان عظيماً في بني قريظة ، فدفعه إلى مُحَيِّصَةَ بن مسعود وإلى أبي بَرْدَةَ بن نيار - وأبو بَرْدَةَ هو الذي رخص له رسول الله ﷺ في أن يذبح جَدْعاً^(٦) من المعز في الأضحى - وقال : « لِيَضْرِبُهُ مُحَيِّصَةُ وَلِيُدْفَقَ عَلَيْهِ أَبُو بَرْدَةَ » فضربه مُحَيِّصَةَ ضربة لم تقطع وذفق أبو بَرْدَةَ فأجهز عليه^(٧) ، فقال حَوَيْصَةَ - وكان كافراً - لأخيه مُحَيِّصَةَ : أقتلت كعب بن يهودا ؟ قال : نعم ، فقال حَوَيْصَةَ : أما والله لرب شحم قد نبت في بطنك من ماله !! إنك للمؤم يا مُحَيِّصَةَ ، فقال له مُحَيِّصَةَ : لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لقتلتك ، فعجب من قوله ، ثم ذهب عنه

(١) أي من نقض العهد أو آذى المسلمين ونحو ذلك .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٠/٢ - ٤٣٩) ، وصحيح البخاري (ج ١١٥/٥) كتاب المغازي - باب قتل كعب بن الأشرف ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١٧/٢ - ٣٣) ، وسنن أبي داود (ج ٤٠١/٣) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة ح ٣٠٠ ، والمستدرک (ج ٤٣٥/٣) ، وجمع الزوائد (ج ١٩٦/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٠/٣ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٧) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٩/٢) .

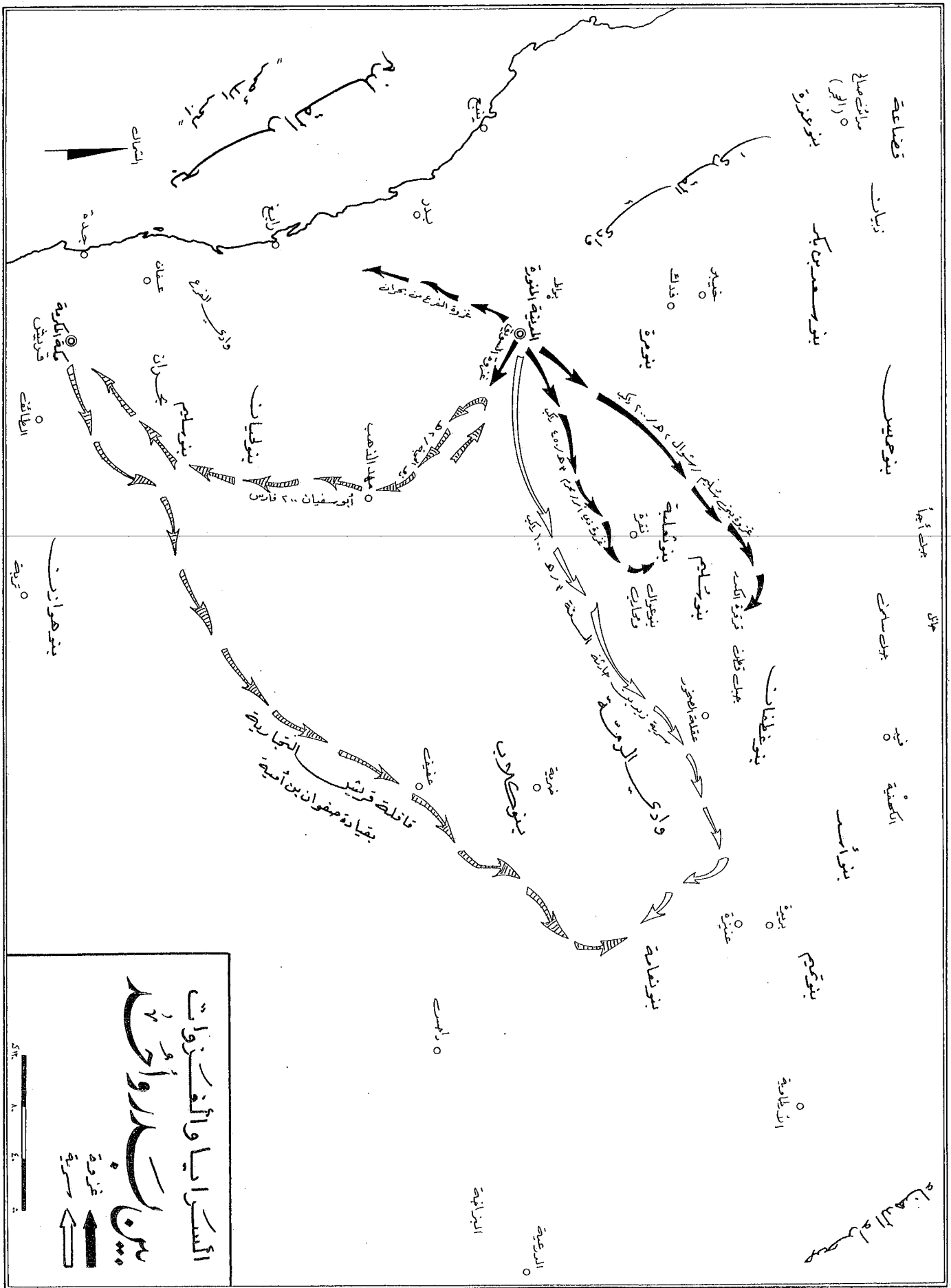
(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٤١/٢) .

(٤) سيأتي خبر ذلك في السنة الخامسة للهجرة بإذن الله تعالى .

(٥) تَذْفِيفُ الْجَرِيحِ : الإجهاز عليه وتحرير قتله (النهاية : ج ١٦٢/٢) .

(٦) الجَدْعُ : من أسنان الدواب ، وهو ما كان منها شاباً فتياً ، وهو من البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية . وقد تقدم .

(٧) أَجْهَرَ عَلَى الْجَرِيحِ يُجْهَرُ : إذا أضرع قتله وحززه (النهاية : ج ٢٢٢/١) .



**السكنايا والفرقوات
بين سبأ وحمير**

↑ تجمع
 → تفرقة
 ... سرية

5 كم
 10
 15

متعجباً ، فذكروا أنه جعل يتيقظ من الليل فيعجب من قول أخيه مَحْيَصَةَ حتى أصبح وهو يقول : والله إن هذا لدين ، ثم أتى النبي ﷺ فأسلم (١) .

☆ ☆ ☆

غزوة بُحْران (٢) :

وكان سببها بلوغ النبي ﷺ أن بُحْران جمعاً كثيراً من بني سَلَيْم ، فخرج ﷺ في ثلاثمائة رجل من أصحابه لست خلون من جمادى الأولى من السنة الثالثة للهجرة ، واستخلف على المدينة ابن أمِّ مَكْتُوم ، رضي الله عنه ، وأحسَّ السير حتى بلغ بُحْران ، فوجدهم قد تفرقوا في مياههم ، فرجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، وكانت غيبته عشر ليال . هذا ما ذكره ابن سعد (٣) .

وعند ابن إسحاق أن النبي ﷺ خرج في شهر ربيع الآخر يريد قريشاً ، فوصل إلى بُحْران ، فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً (٤) . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين بدر وأحد) .

☆ ☆ ☆

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى القردة :

وكان سبب هذه السرية أن قريشاً بعد غزوة بدر خافوا طريقهم التي كانوا يسلكون إلى الشام ، فقالوا وقد اقترب موسم رحلتهم إلى الشام : إن محمداً قد عور علينا متجرنا ، وهو على طريقنا ، فما ندري أين نسلك ، وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقننا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة ، فقال أبو زمعة الأسود بن المطلب : أنا أدلكم على رجل يسلك بمكة التجديية - وهي على طريق العراق ، وتمر في شرقي المدينة على بعد كبير منها - لو سلكها مغمض العينين لاهتدى ، قال صفوان : من هو ؟ قال : فُرات بن حَيَّان ، فدعواه ، فاستأجره دليلاً على الطريق .

فخرجت عبر قريش وفيها مال كثير وفضة كثيرة وزن ثلاثين ألف درهم ، يقودها صفوان بن أمية ، أو أبو سفيان بن حرب ، فسلك بهم فُرات بن حَيَّان على ذات عرق طريق العراق . وقد بلغت النبي ﷺ أنباء هذه العير ، وذلك أن نعيم بن مسعود الأشجعي قدم المدينة ، وهو على دين قومه ، فنزل على كِنَانَةَ بن أبي الحَقِيق في بني النضير فشرب معه ، وعنده سليط بن النعمان - وكان قد أسلم - ولم تحرم الحر يومئذ - فذكر نعيم خروج صفوان في عيره وماعه من الأموال ، فخرج سليط من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره بأمرهم .

فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، في مائة راكب يعترض لعير قريش ، وذلك لئلا يهربوا ، وذلك لئلا يهربوا من السنة الثالثة للهجرة ، فلقبهم على ماء من مياه نجد يقال له القردة ، فأصاب العير وما فيها ، وأفلت أعيان القوم ، وأسر فُرات بن حَيَّان ، فقدموا به وبالعير على رسول الله ﷺ ، فأتي به رسول الله ﷺ ، وقد قيل له : إن تسلم تترك ، فأسلم ، فقالوا لرسول الله ﷺ : إنه يزعم أنه أسلم ، فقال ﷺ : « إِنَّ مِنْكُمْ لَرَجَالاً نَكَلَهُمْ إِلَى إِيْمَانِهِمْ ، مِنْهُمْ فُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ » ، وتركه رسول الله ﷺ من القتل . وقسم ﷺ الغنائم ، فأخذ الخمس وبلغ عشرين ألف درهم ، وقسم ما بقي على أهل السرية (٥) . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين بدر وأحد) .

☆ ☆ ☆

(١) سيرة ابن هشام (ج ٤٤٢/٢) .

(٢) بُحْران : موضع بالحجاز من ناحية الفرع . انظر : معجم البلدان : ج ٦٥/٢ .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٥/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٥/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٦/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٩٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٧١/٢) ،

والمستدرک (ج ١١٥/٢) .

زواج أم كلثوم بنت النبي ﷺ :

لما توفيت رقية بنت رسول الله ﷺ تزوج عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، أم كلثوم بنت النبي ﷺ ، وكانت بكرًا (١) ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة ، وأدخلت عليه في جمادى الآخرة من السنة نفسها .

وقد كان عمر بن الخطاب عرض على عثمان ، رضي الله عنها ، ابنته حفصة ، رضي الله عنها ، فأبى ، فلقبه النبي ﷺ وهو مغموم فقال : « مَا شَأْنُكَ يَا عَثْمَانُ ؟ » قال : بأبي أنت يا رسول الله وأمي ، هل دخل على أحد من الناس ما دخل علي ؟ توفيت بنت رسول الله ﷺ ، رحما لله ، وانقطع الصهر فيما بيني وبينك إلى آخر الأبد ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتَقُولُ ذَلِكَ يَا عَثْمَانُ ؟ وَهَذَا جَبْرِيْلٌ ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، يَأْمُرُنِي عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، أَنْ أَزْوَجَكَ أُخْتَهَا أُمَّ كُلْثُومٍ عَلَى مِثْلِ صَدَاقِهَا وَعَلَى مِثْلِ عَدَّتِهَا . » فزوجه رسول الله ﷺ إياها ، وأمر أم أين أن تجهزها فقال لها : « هَيْتِي ابْنَتِي أُمَّ كُلْثُومٍ وَرَقِيئَهَا إِلَى عَثْمَانَ ، وَخَفِّقِي بَيْنَ يَدَيْهَا بِالذَّفِّ » ، ففعلت . فجاءها النبي ﷺ بعد ثلاث فساءها : « كَيْفَ وَجَدْتِ بَعْلَكَ ؟ » فقالت : هو خير بعل ، فقال النبي ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ أَشْبَهَ النَّاسَ بِجَدِّكَ إِبْرَاهِيمَ وَأَبِيكَ مُحَمَّدًا . »

ويروى أن رسول الله ﷺ قال لعثمان حين تزوجه أم كلثوم رضي الله عنها : « لَوْ أَنَّ عِنْدِي عَشْرًا لَزَوَّجْتُكَهِنَّ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ ، فَإِنِّي عِنْدَكَ رَاضٍ » (٢) .

زواج النبي ﷺ من حفصة رضي الله عنها :

وفي شعبان من السنة الثالثة للهجرة تزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ، رضي الله عنها ، بعد أن انقضت عدتها من زوجها خنيس بن خذافة السهمي ، رضي الله عنه ، الذي كان قد توفي عنها مرجعه من بدر ، ولم تلد له ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم .

وكان عمر ، رضي الله عنه ، حين تَأَيَّمَتْ (٣) حفصة من زوجها عرضها على عثمان بن عفان ، فقال له : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ، قال : سأنظر في أمري ، فلبث ليالي ، ثم قال : قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا ، فلقني عمر أبا بكر ، فقال له : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليه شيئاً ، فكان عمر عليه أَوْجَدُ (٤) منه على عثمان . فلبث ليالي ، ثم خطبها رسول الله ﷺ ، فأنكحها إياه . وفي رواية : أن عمر أتى النبي ﷺ فشكا عثمان ، فقال النبي ﷺ : « قَدْ زَوَّجَ اللَّهُ عَثْمَانَ خَيْرًا مِنْ ابْنَتِكَ ، وَزَوَّجَ ابْنَتَكَ خَيْرًا مِنْ عَثْمَانَ » فتزوج رسول الله ﷺ حفصة ، وزوج أم كلثوم من عثمان بن عفان رضي الله عنها . قال عمر رضي الله عنه : فلقيني أبو بكر ، فقال : لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك ، قلت : نعم ، قال : فإنه لم يعنني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أنني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها لقبيلتها (٥) .

وقد روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة بعد ذلك تطليقة ، فلما بلغ ذلك عمر حثا التراب على رأسه وقال : ما يعبا الله بك يا ابن الخطاب بعدها ، فنزل جبريل ، عليه السلام ، على النبي ﷺ فقال : راجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك في الجنة - وفي رواية : قال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر - فراجعها ﷺ .

(١) تقدم أنها كانت عند ابن أبي لهب ، فأمره أبوه بتطليقها ، فطلقها ولم يكن دخل بها .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٧/٨) ، والمستدرک (ج ٤٧/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٨٢/٩) ، وكنز العمال (ج ٥٢/١٣) .

(٣) تَأَيَّمَتْ : صارت أَيْماً لا تزوج لها . انظر : (لسان العرب : ج ١٩١/٨) .

(٤) وَجَدَ فَلَانَ يَجِدُ وَجْدًا : حَزِنَ ، وَعَلَيْهِ مَوْجِدَةٌ : غَضِبَ (الوسيط : ج ١٠٢٤/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٢/٨ ، ٢١٧) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٦/٥) كتاب المغازي - باب شهود الملائكة بدرًا ، والمستدرک (ج ١٤/٤) .

ودخل عمر مرة على حفصة ، رضي الله عنها ، وهي تبكي ، فقال لها : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، إنه قد كان طلقك مرة ، ثم راجعك من أجلي ، والله إن كان طلقك مرة أخرى لا كلمتك أبداً^(١) .

توفيت حفصة ، رضي الله عنها ، في شعبان سنة خمس وأربعين ، أو إحدى وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ، وهي يومئذ ابنة ستين سنة أو ثلاث وستين سنة ، فصلى عليها مروان بن الحكم ، وهو يومئذ عامل المدينة ، ثم تبعها إلى البقيع ، وجلس حتى فرغ من دفنها ، وكان نزل في قبرها عبد الله وعاصم ابنا عمر وسالم وعبد الله وحمزة بنو عبد الله بن عمر^(٢) .

زواج النبي ﷺ من زَيْنَب بنت خَزِيمَةَ رضي الله عنها :

ثم تزوج رسول الله ﷺ في شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة زَيْنَب بنت خَزِيمَةَ الهلالية من بني عامر بن صعصعة ، وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقنتها عليهم .

وكانت عند الطُّفَيْل بن الحارث فطلقها ، فتزوجها عبدة بن الحارث ، فقتل عنها يوم بدر شهيداً . وقيل : كانت قبل عبدة عند ابن عمها جَهْم بن عمرو بن الحارث ، كما قيل : كانت قبل رسول الله ﷺ عند عبد الله بن جحش ، فقتل عنها يوم أُحُد شهيداً ، فخطبها رسول الله ﷺ فجعلت أمرها إليه - ويقال زوجة إياها قَبِيصَةَ بن عمرو الهلالي ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم . فلم تلبث عنده ﷺ إلا يسيراً حتى توفيت في آخر شهر ربيع الآخر من السنة الرابعة للهجرة ، وكان عمرها يومئذ ثلاثين سنة أو نحوها ، فصلى عليها رسول الله ﷺ ، ودفنها بالبقيع ، وكان إخوة لها ثلاثة قد نزلوا في حفرتها^(٣) .

☆ ☆ ☆

(١) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٤٧٨/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٣٢/٤) و (ج ٢٤٤/٩) .

(٢) انظر : المستدرک (ج ١٥/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٦٨) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢٥/٤) ، والمستدرک (ج ٣٣/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٥/٨ ، ١١٦) .

غزوة أُحُد (١)

وقعت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث للهجرة ، يوم السبت للنصف منه ، وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت منه ، أولسبع ليال خلون منه .

وكان سببها أن قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة ، وقد أصيب أصحاب القليب ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، ومشى معهم رجال آخرون من أشرف قريش ممن أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في العير التي كان قد نجأ بها أبو سفيان تجارة ، وكانت تلك العير موقوفة بدار الندوة ، فقالوا : إن محمداً قد وتركم (٢) وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، ونحن طيبو أنفسنا أن تجهزوا بربح هذه العير جيشاً إلى محمد ، فقال أبو سفيان : وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فباعوها فصارت ذهباً ، وكانت الإبل الحاملة للتجارة ألف بعير والمال خمسين ألف دينار ، فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم وأخرجوا أرباحهم ، وكانوا يريدون في تجارتهم للدينار ديناراً . وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْتَفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنتَفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴾ (٣) .

استنصار قريش العرب والإغراء بقتل حمزة رضي الله عنه :

وتجهزت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وبعثت نفرأ يسرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم ، فأطاع النفر وأبى منهم أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي ، فشى إليه صفوان بن أمية ، فقال : يا أبا عزة ! إنك امرؤ شاعر ، فأعينا بلسانك فاخرج معنا ، فأبى وقال : من عليّ محمد - ﷺ - يوم بدر وعاهدته لا أظاها عليه عدواً أبداً ، وأنا أفي له بما عاهدته عليه ، فقال له صفوان : اخرج معنا ولك الله عليّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر .

فخرج أبو عزة ومسافع بن عبد مناف وهبيرة بن أبي وهب يستنصرون بني كنانة وأهل تهامة بأشعارهم ، ويجرضونهم ويدعونهم إلى حرب رسول الله ﷺ .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وخبني ، يقذف بالحربة ، قلماً يخطيء بها ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد - ﷺ - بعني طعميمة بن عدي فأنت عتيق - وكان حمزة ، رضي الله عنه ، قد قتل طعميمة يوم بدر - وقيل إن

(١) أحد : جبل مشهور من جبال المدينة ، قيل سمي بذلك لتوحده وانفراده عن غيره من الجبال التي هناك . وهذا الجبل يقصد لزيارة سيدنا حمزة ، رضي الله عنه ، ومن فيه من الشهداء (السيرة الحلبية : ج ٢١٦/٢) .

(٢) وتركم : أي ظلمكم ، والموتور : الذي قيل له قتيل فلم يدرك دمه ، وقيل : نقصكم بقتل أشرافكم . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٠٧/٢) ، والنهاية (ج ١٤٨/٥) .

(٣) الأنفال : ٣٦ . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢٣ ، ٥٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٧٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٧/٣) .

ابنة سيده طعيمة قالت له : إن قتلت محمداً أو حمزة أو علياً في أبي ، فإني لأدري في القوم كفواً له غيرهم ، فأنت عتيق (١) .

قوام جيش المشركين وخروجه :

اجتمعت قريش وأحايبيشها (٢) ، ومن استطاعت أن تستجلبه من قبائل كنانة وأهل تهامة لحرب رسول الله ﷺ ، واجتمع إليها أبو عامر الفاسق - وكان قبل ذلك يسمى الراهب - في خمسين رجلاً من قومه ، فخرجوا جميعاً من مكة لخمس ليال مضين من شوال ، على أشهر الأقوال ، وقد بلغت عدتهم ثلاثة آلاف رجل ، فيهم سبعمائة دارع ، وكان معهم مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير .

وكان أشرف قريش قد أجمعوا أن يخرجوا معهم النساء التماس الحفيظة (٣) وأن لا يفرّوا ، فخرج أبو سفيان بهند بنت عتبة بن ربيعة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأُم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وخرج طلحة بن أبي طلحة بسلافة بنت سعد بن شهيد ، وخرج صفوان بن أمية ببرزة ويقال رقية بنت مسعود بن عمرو ، وخرج عمرو بن العاص بربيعة بنت مئبنة بن الحجاج .. فكانت عدة النساء خمس عشرة امرأة ، معهن الذفوف والحمور ، فكن يبيكين قتلى بدر ، ويحرضن الرجال على القتال وعدم الهزيمة والفرار ، وكانت هند بنت عتبة كلما مرّت بوخشي أو مرّ بها قالت : ويها (٤) أبا دثمة اشف واشتف (٥) ، وكان وحشي يكنى بأبي دثمة .

وكان قائد الناس أبو سفيان بن حرب ، وقائد الفرسان خالد بن الوليد ، وحامل اللواء من بني عبد الدار (٦) .

كتاب العباس رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بخبر قريش :

فلما سارت قريش كتب العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، بخبرهم كله إلى رسول الله ﷺ - وأرادوه على الخروج معهم فأبي واعتذر بما لحقه يوم بدر ، ولم يساعدهم بشيء - ودفع الكتاب إلى رجل من بني غفار كان قد استأجره وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام ، ففعل ، وجاء كتابه للنبي ﷺ وهو بقاء ، ففك ﷺ ختمه ودفعه لأبي بن كعب ، رضي الله عنه ، فقرأه عليه ، واستكتم أئبياً ما فيه .

ثم نزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع ، رضي الله عنه ، فأخبره بكتاب العباس ، فقال سعد : يا رسول الله ! إني لأرجو أن يكون في ذلك خير . فلما خرج رسول الله ﷺ من عنده قالت له امرأته : ما قال لك رسول الله ؟ فقال لها : لا أم لك ، وما أنت وذاك ؟ فقالت : قد سمعت ما قال ، وأخبرته بما قال رسول الله ﷺ ، فاسترجع ، وأخذ بيدها ، ولحقه ﷺ ، فأخبره خبرها وقال :

- (١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢ ، ٥ ، ٨٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٢٧) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٠٦٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٢١٧/٢) .
- (٢) الأحيابيش : بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة من كنانة وخزيمية بن مذكرة وخزاعة ، قيل سموها بالأحيابيش باسم جبل أسفل مكة يقال له الأخبش ، وقيل : سموها بذلك لتحبشهم ، أي تجمّعهم . انظر : (السيرة الحلبية : ج ٢١٨/٢) . وراجع : « مكة المكرمة عند ظهور الإسلام » في هذا الكتاب .
- (٣) الحفيظة : العصب (النهاية : ج ٤٠٨/١) .
- (٤) ويها : كلمة معناها الإغراء والتخريض (الوسيط : ج ١٠٧٤/٢) .
- (٥) يعني تحرضه على قتل حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، لتنتقم لأبيها عتبة الذي قتل ببدر .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٣ - ٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٢٧) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٩٣) ، ومغازي الواقدي (ج ٢٠٦/١) .

يا رسول الله ! خشيت أن يظهر من ذلك شيء فتظن أني أفشيت سرّك ، فقال رسول الله ﷺ : « خَلَّ سَبِيلَهَا » (١) .

وصول جيش المشركين إلى المدينة :

تابعت قريش ومن معها مسيرها إلى المدينة ، ولما مروا بالأبواء قالت هند بنت عتبة : إنكم قد خرجتم بالظعن (٢) معكم ، ونحن نخاف على نساءنا ، فتعالوا نبيش قبر أمّ محمد ، فإن النساء عورة ، فإن يُصَب من نسائك أحداً قلت هذه رمة (٣) أمك ، فإن كان برأ بأمه كما يزعم ، فلعمري ليفادينكم برمة أمه ، وإن لم يظفر بأحد من نسائك فلعمري ليفدين أمه ببال كثير إن كان برأ ، فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك ، فقالوا : لا تذكر من هذا شيئاً ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا .

ثم واصلت قريش مسيرها حتى نزلت بعينين ، جبل قرب أحد ، في بطن السبخة من قناة (٤) على شفير الوادي مقابل المدينة ، وكان وصولهم يوم الأربعاء ثاني عشر من شوال ، على أشهر الأقوال فأقاموا هناك ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة - وقيل : كانوا ببطن الوادي الذي قبل أحد بندي الحليفة يوم الخميس صبيحة العاشر أو الخامس من شوال - وقد سرحوا الظهور (٥) والكرّاع (٦) في زرع كانت بالصّعة (٧) من قناة للمسلمين .

وشاع خبر قريش ومسيرهم في الناس ، حتى نزلوا ذا الحليفة وأرجف اليهود والمنافقون ، فبعث رسول الله ﷺ عينين له أنساً ومونساً ابني فضالة الظفريين ، ليلة الخميس ، فأتيا رسول الله ﷺ بخبرهم ، وأنهم قد خلّوا إبلهم وخيلهم في زرع للمسلمين حتى تركوه ليس به خضراء . ثم بعث الحباب بن المنذر إليهم أيضاً ، فدخل فيهم ، فحزّهم ، وجاءه بعلمهم .

ويقال إن عمرو بن سالم الخزاعي مع نفر من قومه فارقوا قريشاً من ذي طوى ، وجاءوا إلى النبي ﷺ وأخبروه خبرهم ، ثم انصرفوا ، فوجدوا قريشاً ببطن رايغ فنكّبوا عنها ، ورايغ على ليال من المدينة (٨) .

حراسة المدينة ورؤيا النبي ﷺ :

وحينئذ أمر رسول الله ﷺ بحراسة المدينة خوفاً من أن يؤخذوا على غرة ، وقام نفر من الأنصار فيهم سعد بن معاذ وأسيّد بن خصّير وسعد بن عبادة ، رضي الله عنهم ، بحراسة رسول الله ﷺ ، فباتوا ليلة الجمعة على بابه وعليهم السلاح حتى أصبحوا . ورأى رسول الله ﷺ ليلة الجمعة رؤيا ، فلما أصبح قال : « إنني قد رأيت البارحة والله خيراً ، رأيت بقرًا تُذبح ، ورأيت في ذباب سيفي - وهو ذو الفقار - ثلماً (٩) ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، ورأيت أني مُردّف كبشاً » ، فلما أخبر

- (١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٧/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢١٧/٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٢٠٢/١) .
- (٢) الظعن : النساء ، واحِدتها : ظعينة ، وقيل للمرأة ظعينة لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن ، أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت (النهاية : ج ١٥٧/٣) .
- (٣) الرمة : العظام البالية (لسان العرب : ج ١٧٣٦/٣) .
- (٤) قناة : وادٍ بالمدينة عليه حرث ومال ، وقد يقال وادي قناة (معجم البلدان : ج ١٦٧/٧) . وقد تقدّم .
- (٥) الظهور : الإبل ، وقد تقدّم .
- (٦) الكراع : اسم لجميع الخيل (النهاية : ج ١٦٥/٤) .
- (٧) الصّعة : أرض قرب جبل أحد (معجم البلدان : ج ٢٨٤/٥) .
- (٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٣ ، ١٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٧/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٦/٣) ، ومغازي الواقدي (ج ٢٠٥/١ ، ٢٠٦) ، والسيرة الحلبية (ج ٢١٨/٢) .
- (٩) الثلم : الجحش (النهاية : ج ٢٢٠/١) .

رسول الله ﷺ أصحابه برؤياه قالوا : يا رسول الله ! ماذا أولت رؤياك ؟ قال : « فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثلثم الذي رأيت في دُباب سفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل ، وأولت الدرع الحصينة المدينة ، وأولت الكبش أنه كبش كتيبة العدو يقتله الله » ، وكبش القوم سيدهم .

وفي رواية قال : « رأيت في سفي ذي الفقار فلا^(١) ، فأولته فلا يكون فيكم » ، وفي رواية أخرى : « ورأيت في رؤياي هذه أنني هزرت سفي فأنقطع صدره - فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد - ثم هزرته بأخرى ، فعاد أحسن ما كان - فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين » .

قال موسى بن عقبة : ويقول رجال : وكان الذي رأى بسيفه الذي أصاب وجهه ، فإن العدو أصابوا وجهه يومئذ ، وقصموا رباعيته ، وجرحوا شفته . كما سيأتي ذكره .

وقد صدق الله رسوله ﷺ الرؤيا ، فقتل عليّ ، رضي الله عنه ، طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين فهو كبش الكتيبة ، وكان الرجل الذي قتل من أهل بيته حمزة ، رضي الله عنه ، سيد الشهداء^(٢) .

مشاورة النبي ﷺ أصحابه في الخروج من المدينة :

ثم قدم النبي ﷺ رأيته إلى أصحابه فقال لهم : « امكثوا في المدينة ، واجعلوا النساء والذرائع في الأطم ، فإن دخل علينا القوم قاتلناهم في الأزقة ، ورُموا من فوق البيوت » - وكانت المدينة قد شبكت بالبنيان من كل ناحية حتى صارت كالحصن - « وإن أقاموا حيث نزلوا أقاموا بشر مقام » .

وكان ذلك رأي الأكبر من المهاجرين والأنصار ، ووافقهم عليه عبد الله بن أبي بن سلول ، فقد أرسل إليه رسول الله ﷺ يستشيره - بصفته أحد زعماء الخزرج - ولم يستشره قبل ذلك ، فكان رأيته مع رأي النبي ﷺ .

فقال عند ذلك رجال من المسلمين ممن لم يشهدوا بدرأ وندموا على ما فاتهم من سابقة بدر : يا رسول الله ! كنا نتنبى هذا اليوم ، وندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا وقرب السير ، فاخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جئنا عنهم وضعفنا . ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فقال ابن أبي بن سلول : يا رسول الله ! أم بالمدينة ، لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر منخس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا .

فقال رجال من الأنصار : ما دخل علينا فيها في الجاهلية ، فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام ؟ وقال رجال : ماذا نمنع إذا لم نمنع الحرت يزرع ؟ وقالت طائفة أخرى من الأنصار : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج جنباً عن لقائهم ، فيكون هذا جراءة منهم علينا ، وتجترى علينا العرب حولنا حتى يطعموا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم . فلم يزل أولئك القوم الذين رغبوا في الشهادة يلحون على النبي ﷺ في الخروج ، حتى قال النعمان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه : يا رسول الله ! لا تحرمنا الجنة ، فوالذي بعثك بالحق لا دخلنا ، فقال له رسول الله ﷺ : « بيم ؟ » قال : بأني أحب الله ورسوله - وفي لفظ : بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وأني لأفر يوم الزحف - فقال له رسول الله ﷺ : « صدقت » ، فاستشهد يومئذ . وقال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه : والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدئهم خارج المدينة .

فلما رأى رسول الله ﷺ الناس قد أبى أكثرهم إلا الخروج إلى العدو ، ولم يتناهاوا إلى رأيته ، قال : « شأنكم إذا » . فترجع عنده

(١) الفلة : التلمة في السيف . وقد تقدم .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢٤٧/٤) كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام ، والمستدرک (ج ١٩٨/٣) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٧١/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٦/٣) .

موافقة رأيهم ، وإن كرهه ابتداء ، ولو رضوا بالذي أمرهم به كان ذلك هو الرأي ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً^(١) .

تهيؤ النبي ﷺ للخروج :

ثم صلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس ، فوعظهم وأمرهم بالجِدِّ والاجتهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، وفرح الناس بذلك .

وقد مات في ذلك اليوم مالك بن عمرو النجاري ، رضي الله عنه ، فصلّى عليه رسول الله ﷺ ، ثم صلى بالناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العوالي ، ثم دخل رسول الله ﷺ بيته ، ومعه أبو بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، فعمّاه وليّساه .

وصفّ الناس له ينتظرون خروجه ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيّد بن حَضِير رضي الله عنهما : استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج ، وهو أعلم بالله وبما يريد ، والوحي ينزل عليه من السماء ، فردّوا الأمر إليه ، فندموا جميعاً على ما صنعوا وقالوا : ردنا على رسول الله ﷺ رأيه !

فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، وقد لبس لأُمته^(٢) ، وظاهر بين درعين^(٣) ، وهما ذات الفضول وفضّة ، وأظهر الدرّع وحزم وسطها بمنطقة^(٤) من آدم من حائل سيفه ، واعتمّ ، وتقلّد السيف ، وألقى التُّرس في ظهره ، فلما رآه الناس قاموا فاعتذروا إليه وقالوا : ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج ، فاصنع ما بدا لك ، أو قالوا : إن شئت فاقعد صلى الله عليك ، فقال : « ما ينبغي لِنبيِّ إذا ليس لأُمته أن يضعها حتى يحكّم الله بينه وبين عدوّه » - وفي رواية : قالوا : يا نبي الله ! أمكث كما أمرتنا ؟ فقال : « لا ينبغي لِنبيِّ إذا أخذ لأمة الحرب ، وأذن في الناس بالخروج إلى العدو أن يرجح حتى يتاتل ، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبئتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله والصبر إذا لقيتم العدو ، وأنظروا ما أمرتكم به فأفعلوه ، وأمضوا على اسم الله »^(٥) .

عقد النبي الألوية وخروجه إلى أحد :

ثم دعا النبي ﷺ بثلاثة أرماع ، فعقد ثلاثة ألوية ، لواء للأوس دفعه إلى أسيّد بن حَضِير ، ولواء للخزرج دفعه إلى الحباب بن المنذر ، ويقال إلى سعد بن عبادة ، ولواء للمهاجرين دفعه إلى عليّ بن أبي طالب ، ثم أخذه ﷺ منه فدفعه لمصعب بن عمير ، وذلك لأن رسول الله ﷺ سأل : « مع من لواء القوم ؟ » فقيل : مع طلحة بن أبي طلحة أخي بني عبد الدار ، فقال رسول الله ﷺ : « نحن أحقّ بالوفاء منهم » ، فدعا مصعب بن عمير فأعطاه اللواء ، لأنه من بني عبد الدار ، وهم أصحاب اللواء في الجاهلية .

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أمّ مكتوم على الصلاة بالناس ، ثم خرج في ألف من أصحابه ، عليهم السلاح قد أظهروا الدروع ، فيهم مائة دارع ، وليس معهم فرس ، وقيل : كان معهم فرس لرسول الله ﷺ يدعى السكّب^(٦) ، وفرس لأبي بُرْدَة بن نيار

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٥١/٣) ، والمستدرک (ج ١٢٩/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٦/٣) ، ومغازي الواقدي (ج ٢١١/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٢/٢) .

(٢) اللأمة : الدرّع .

(٣) ظاهر بين درعين : أي جمع بينهما وليس إحداها فوق الأخرى ، وكأنه من التظاهر بمعنى التعاون والتساعّد ، كأنه جعل إحداها طهارة والأخرى بطانة . انظر : (النهاية : ج ١٦٧/٣) .

(٤) المنطقة : ما يشدّ به الوسط (الوسيط : ج ٩٢٩/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧/٣ ، ١٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٨٧/١) و (ج ٢٨/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٣/٢) ، وسنن البيهقي (ج ٤١/٧) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٥١/٢) .

(٦) يقال فرس سكّب : أي جواد كثير العدو (لسان العرب : ج ٢٠٤٥/٣) ، وكان اسم السكّب قبل أن يبتاعه النبي ﷺ من صاحبه الضرس ومعناه الصعّب السويّ الخلق ، فسماه ﷺ السكّب وكان يكره الأسماء القبيحة .

يُدعى مَلُوح ، وخرج السَّعْدَانِ أَمَامَ النَّبِيِّ ﷺ ، سعد بن معاذ وسعد بن عبادَة يُعَدُّون ، وكانا دارعين ، وخرج حمزة بن عبد المطلب بالحَسْرَةِ (١) يَتَقَدَّمُهُم بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ .

فلما جاوز رسول الله ﷺ ثنية الوداع رأى كتيبة خَشَنَاءَ (٢) لها زَجَلٌ (٤) ، فقال : « ما هذه ؟ » ، فقالوا : حلفاء ابن أبي من اليهود من أهل قَيْنِقَاعَ ، فقال : « وَقَدْ أَسْلَمُوا ؟ » فقالوا : لا ، قال : « قُولُوا لَهُمْ فَلْيُرْجِعُوا ، فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ » (٥) .

استعراض النبي ﷺ جيشه ومبيته بالشَّيْخَيْنِ (٦) :

وسار رسول الله ﷺ حتى أتى الشَّيْخَيْنِ فعسكر فيه ، ثم استعرض جيشه ، فردَّ من كان منهم صغيراً دون الخمسة عشر ، منهم عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسيّد بن ظهير ، وعَرابَة بن أوس ، وأبو سعيد الخدري ، وسعد بن خَيْمَةَ وقيل ابن حَبَسَةَ ، ورافع بن خَدِيدِج ، وسَمْرَةَ بن جُنْدَب . ثم أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خَدِيدِج لما قيل له إنه رام ، فلما أجازته قال سَمْرَةَ بن جُنْدَب لزوج أمّه مَرِيّ ابن سِنَان عمّ أبي سعيد الخدري : يا أبت ! أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خَدِيدِج وردّني ، وأنا أصرعه ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « تَصَارَعَا » ، فصرع سَمْرَةَ رافعاً ، فأجازته رسول الله ﷺ أيضاً .

فما فرغ رسول الله ﷺ من عرض جيشه حتى غابت الشمس ، فأذن بلال بالمغرب ، فصلى النبي ﷺ بأصحابه ، ثم أذن بالعشاء ، فصلى بهم ، وبات رسول الله ﷺ بالشَّيْخَيْنِ - وكان نازلاً في بني النجار - واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مَسْلَمَةَ في خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر ، ونام رسول الله ﷺ وذُكْوَان بن عبد قيس يحرسه لم يفارقه .

وكان المشركون قد رأوا رسول الله ﷺ حيث راح ونزل ، فاجتمعوا واستعملوا على حرسهم عِكْرِمَةَ بن أبي جهل في خيل من المشركين (٧) .

الخزّال (٨) ابن أبي ابن سَلُولِ بالمنافقين :

وقبل طلوع الفجر أدلج رسول الله ﷺ في السحر ، فانتهى إلى موضع يقال له الشُّوْطُ (٩) بين المدينة وأحد ، فحانت صلاة الفجر ، فأمر بلالاً فأذن وأقام ، فصلى بأصحابه الصبح - وفي رواية : أنه ﷺ انتهى إلى أحد إلى موضع القنطرة ، فصلى هناك الصبح بأصحابه صفوفاً عليهم سلاحهم ، وهو يرى المشركين .

(١) الحَسْرَةُ : جَمْعُ حَاسِرٍ وهو الذي لا يدع عليه ولا يغفر . وقد تقدم .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨/٣ ، ١٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٨٧/١) و (ج ٢٨٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٩/٣ ، ٢٢٦) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٨/٢) .

(٣) كَتِيْبَةٌ خَشَنَاءُ : أي كثيرة السلاح (النهاية : ج ٣٥٧/٢) .

(٤) الزَّجَلُ : صَوْتٌ رَفِيعٌ عالٍ (النهاية : ج ٢٩٧/٢) .

(٥) زواه ابن سعد في الطبقات (ج ٣٩٧/٢ ، ٤٨) ، ومعلوم أن حلفاء ابن أبي من بني قينقاع قد تم إجلاؤهم بعد بدر ، فلعلهم كانوا حلفاء آخرين من غير قبيلة . ومعلوم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان قد اشترط عليهم في الصحيفة التي كتبها لهم ووادعهم فيها أن عليهم نصر المسلمين والنفقة معهم ماداموا محاربين ، فلعله ﷺ نهى عن الاستعانة بهم خوفاً من غدرهم وخيانتهم لما أظهوره من العداوة والحقد .

(٦) الشَّيْخَانِ : مَوْضِعٌ بالمدينة ، وهما أطمان كانا في الجاهلية ، فيها شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدّثان ، فسُمِّيَ الأطمان الشَّيْخَيْنِ . انظر : مغازي الواقدي (ج ٢١٥/١) ، ومعجم البلدان (ج ٣١٩/٥) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٩٧/٢) ، و (ج ٥٢/٦) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٥/٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٢١٧/١) .

(٨) الخَزَّالُ : أنقرّة ، والإنخزال : مشية فيها تتأقل وتراجح (لسان العرب : ج ١١٥١/٢) .

(٩) الشُّوْطُ : حَائِطٌ ، أي بستان بين المدينة وأحد . انظر : (السيرة الحلبية : ج ٢٢١/٢) .

واخزل عبد الله بن أبي سلول من ذلك المكان ، ومن معه من أهل النفاق والريب ، وهم ثلاثمائة رجل ، وهو يقول : عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، ماندرى علام تقتل أنفسنا ههنا ؟ ارجعوا أيها الناس ، فرجع بمن أتبعه من قومه ، وبقي رسول الله ﷺ في سبعاثة . (انظر : مصور غزوة أحد) .

فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة وهو والد جابر ، رضي الله عنهما ، يقول : يا قوم ! أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونيبكم عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسماكم ، ولكننا لانرى أن يكون قتال ، فلما استصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف ، قال لهم : أبعدم الله أعداء الله ، فسيغني الله عز وجل عنكم نبيه ﷺ .

وفي هؤلاء المنافقين الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ نزل قول الله تعالى : ﴿ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (١) ، ونزل أيضاً قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَسْزِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٢) ، قال مجاهد في تفسيرها : ميزهم يوم أحد المنافق عن المؤمن .

فلما اخزل ابن أبي وأصحابه ، قالت طائفة من المسلمين نقاتلهم ، وطائفة تقول : لانقاتلهم ، وهما أن تقتتلا ، فنزلت : ﴿ فَهَلْ كَلِمَةٍ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتُنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ (٣) ، والطائفتان هما بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج .

وفي رواية أنه لما رأى بنو سلمة وبنو حارثة عبد الله بن أبي قد رجع سقيط في أيديهم ، وهما بالرجوع ، وكانوا جناحين من العسكر ، فصمهما الله ، عز وجل ، وتولاهما ، لأنه لم يكن ذلك منها عن شك في دينها ، وإنما عن ضعف وهن أصابها ، فثبتتا بعدما سرى فيهما الاضطراب ، ولحقنا بالنبي ﷺ ، وفيها يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

وفي الصحيح عن جابر ، رضي الله عنه ، قال : نزلت هذه الآية فينا : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ بني سلمة وبني حارثة ، وما أحب أنها لم تنزل ، والله يقول : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ﴾ (٥) .

وقالت الأنصار حينئذ : يا رسول الله ! ألا نستعين بخلفائنا من يهود ؟ فقال : « لا حاجة لنا فيهم » (٦) .

متابعة النبي ﷺ مسيره إلى أحد :

ثم قام النبي ﷺ بعد اخزال المنافقين فسار حتى سلك في حرة بني حارثة ، فذبّ فرس بذنبه (٧) ، فأصاب كلاب (٨) ببيف فاستله ، فقال رسول الله ﷺ - وكان يحب الفأل ولا يعتاف (٩) - لصاحب السيف : « شم (١٠) سيفك ، فإنني أرى السيف يومئذ سئسئل » .

- (١) آل عمران : ١٦٧ .
- (٢) آل عمران : ١٧٩ .
- (٣) النساء : ٨٨ .
- (٤) آل عمران : ١٢٢ . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٨٣ ، ٥٨ ، ٧١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٩٧٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢١/٣ ، ٢٢٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة أحد ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٤/٢) .
- (٥) صحيح البخاري (ج ١٢٢/٥) كتاب المغازي - باب ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ ﴾ .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨٣) ، ولم يكونوا سمعوا قوله ﷺ أنه لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك . انظر : (السيرة الحلبية : ج ٢٢١/٢) .
- (٧) ذبّ : ذق ، أي حرّك ذنبه ليذق شيئاً . انظر : (لسان العرب : ج ١٤٨٢/٢) .
- (٨) الكلاب : حديدة متوجّهة الرأس يُنشلُ بها الشيء أو يُعلّقُ (الوسيط : ج ٨٠٠/٢) .
- (٩) العيافة : زجر الطير والتفاؤل بأصواتها وأصواتها وممرّها (النهاية : ج ٢٣٠/٢) .
- (١٠) شم : اغمد ، والشيم من الأضداد يكون سلاً وإغداداً (النهاية : ج ٥٢١/٢) .

ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَتَبٍ ؟ » - أي : من قرب - « مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ » ، فقال أبو خَيْثَمَةَ أَخُو بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ : أنا يا رسول الله ، فنفذ به في حَرَّةِ بَنِي حَارِثَةَ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ ، حَتَّى مَرَّ بِحَائِطِ لُبَيْعِ بْنِ قَيْطِيٍّ ، وَكَانَ رَجُلًا مَنَافِقًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ ، فَلَمَّا سَمِعَ حَسْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ مَعِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَامَ يَحْتِ فِي وَجْهِهِمُ التَّرَابَ ، وَيَقُولُ : إِنْ كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ حَقًّا ، فَإِنِّي لِأَحِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي ، ثُمَّ أَخَذَ حَقْنَةَ مِنْ تَرَابٍ فِي يَدِهِ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي لَا أَصِيبُ بِهَا غَيْرَكَ يَا مُحَمَّدَ لَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَكَ ، فَابْتَدَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ زَيْدِ الْأَشْهَلِيِّ فَضْرِبَهُ بِالْقَوْسِ فِي رَأْسِهِ فَشَجَّهُ ، وَأَرَادَ الْقَوْمُ قَتْلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقْتُلُوهُ ، فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصْرِ » .

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل بالشَّعْبِ مِنْ أَحَدٍ فِي عُدْوَةِ الْوَادِي^(١) إِلَى الْجَبَلِ ، فَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أَحَدٍ ، وَاسْتَقْبَلَ الْمَدِينَةَ ، وَجَعَلَ جَبَلِ عَيْثِينَ بَقْنَاءَ عَنْ يَسَارِهِ^(٢) . (انظر : مصور غزوة أحد) .

تعبئة النبي ﷺ جيشه ووصيته للرماة :

وبعد أن ضرب النبي ﷺ عسكره في أحد أقبل يصفه أصحابه ، ويسوي الصفوف على رجله ، وجعل على المهينة المنذر بن عمرو ، وعلى الميسرة الزبير بن العوام يسانده المقداد بن الأسود ، وقال للزبير : « اسْتَقْبِلْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، فَكُنْ يَأْرَاهُ حَتَّى أَوْذَنَكَ » ، وقال للمنذر ومن معه : « لَا تَبْرَحَنَّ حَتَّى أَوْذَنَكُمْ » وقال للجميع : « لَا يَتَقَاتِلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ » .

وجعل على الرماة ، وكانوا خمسين رجلاً ، عبد الله بن جَبْرِ أَخَا خَوَاتِ بْنِ جَبْرِ ، وَهُوَ مُعَلِّمٌ يَوْمئِذٍ بِشِيَابِ بَيْضَ ، وَأَقَامَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَبَلٍ صَغِيرٍ مَرْتَفِعٍ جَنُوبَ شَرْقِيِّ مَعْسَكَرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَرَفَ فِيهَا بَعْدَ بِجَبَلِ الرَّمَاةِ (انظر : مصور غزوة أحد) ، وقال لأمرهم : « أَنْصَحُ الْحَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ ، لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا ، إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَانْتَبِهُ مَكَانَكَ لِأَنْتَوَيْنَ مِنْ قِبَلِكَ » ، ثم قال للرماة جميعاً : « كُونُوا هَهُنَا فَاحْمُوا ظُهُورَنَا ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونَا - أَوْ لَا نَعِينُونَا - وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرِكُونَا » .

وفي رواية البخاري : « إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ^(٣) فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَا هُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » .

وفي رواية عند غيره قال لهم : « أَيُّهَا الرُّمَاءُ ! إِذَا أَخَذْنَا مَنَازِلَنَا مِنَ الْقِتَالِ ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ خَيْلَ الْمُشْرِكِينَ تَحَرَّكَتْ وَأَنْهَزَمَ أَغْدَاءُ اللَّهِ فَلَا تَشْرِكُوا مَنَازِلَكُمْ ، إِنِّي أَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ أَنْ لَا يُفَارِقَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ مَكَانَهُ وَكَفُونِي الْحَيْلَ - لِأَنَّ الْحَيْلَ لَا تَقْدَمُ عَلَى النَّبْلِ - فَإِنَّا لَا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا لَيْسَتْ مَكَانَكُمْ » فوعز النبي ﷺ إليهم فأبلغ ، ومن نحوهم كان الذي نزل به ﷺ يومئذ والذي أصابه^(٤) .

وقد ذكرنا من قبل أن النبي ﷺ كان قد عقد ثلاثة ألوية ودفع لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه .

خطبة النبي ﷺ صبيحة يوم أحد :

وهكذا تمت تعبئة المسلمين صباح يوم السبت الخامس عشر من شوال أو الحادي عشر منه أو السابع على اختلاف الروايات ، ثم قام رسول الله ﷺ فخطب المسلمين فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! أَوْصِيكُمْ بِمَا أَوْصَانِي اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّنَاهِي عَنِ مَحَارِمِهِ . ثُمَّ إِنَّكُمْ الْيَوْمَ بِمَنْزِلِ أَجْرٍ وَذَخْرٍ لِمَنْ ذَكَرَ الَّذِي عَلَيْهِ ثُمَّ وَطَنَ نَفْسَهُ لَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْجِدِّ وَالنَّشَاطِ ، فَإِنَّ جِهَادَ الْعَدُوِّ شَدِيدٌ ، شَدِيدٌ كَرْبُهُ ، قَلِيلٌ مَنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَزَمَ اللَّهُ رُشْدَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ ، فَافْتَتِحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ ، وَالتَّمَسُّوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ ، فَإِنِّي حَرِيصٌ عَلَى رَشَدِكُمْ ، فَإِنَّ الْإِخْتِلَافَ وَالتَّنَازُعَ وَالتَّشْيِيطَ مِنْ أَمْرِ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ مِمَّا لَا يَحِبُّ اللَّهُ وَلَا يُعْطِي عَلَيْهِ النَّصْرَ وَلَا الظَّفَرَ .

(١) عُدْوَةُ الْوَادِي وَعِدْوَتُهُ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ : جَانِبُهُ (النِّهَايَةُ : ج ١٩٤/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨/٣ - ١٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٩/٢) .

(٣) أي : تَسْتَلْبِنَا وَتَطِيرُ بِنَا ، وَهُوَ مِبَالِغَةٌ فِي الْهَلَاكِ (النِّهَايَةُ : ج ٤٩/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٧٩/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ،

وللمستدرك (ج ٢٩٦/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٩/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٩/٣) .

يا أيها الناس جُدِّدْ في صدري أن من كان على حرام فرَّق الله بينه وبينه ، ومن رغب له عنه غفر الله ذنبيه ، ومن صلى عليّ صلى الله عليه وملائكته عشراً ، ومن أحسن من مسلمٍ أو كافرٍ وقع أجره على الله في عاجل دنياه أو أجل آخريه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبيهاً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غني حميد . ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقرّبكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها ، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجملوا في طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته . قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شئها من الأمر لم تعلموها كثير من الناس إلا من عصم ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى عليه سائر الجسد . والسلام عليكم ^(١) .

تحرير النبي ﷺ أصحابه على القتال :

ثم أخذ النبي ﷺ يبيث روح البسالة في أصحابه ويحرضهم على القتال ، فعرض سيفاً فقال : « من يأخذ مني هذا ؟ » فبسط الناس أيديهم ، كل إنسان منهم يقول : أنا ، أنا ، فقال رسول الله ﷺ : « فمن يأخذه يحقه ؟ » فأجحهم ^(٢) القوم ، فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ، منهم عليّ ، رضي الله عنه ، قام ليأخذه ، فقال له : « أقتد » ، وعمر ، رضي الله عنه ، قال : أنا أخذه ، فأعرض عنه ، والزيبر ، رضي الله عنه ، طلبه ثلاث مرات ، كل ذلك ورسول الله ﷺ يعرض عنه ، حتى قام إليه أبو دجاجة سمك بن خرشة أخو بني ساعدة ، فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : « أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني » . وفي رواية : « أن لا تقتل به مسلماً ، ولا تفر به عن كافر » . فقال : أنا أخذه بحقه يارسول الله ، فأعطاه إياه .

وكان أبو دجاجة ، رضي الله عنه ، رجلاً شجاعاً يفتال في الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت ، فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، ثم جعل يتبختر بين الصفيين ، فلما رآه رسول الله ﷺ يتبختر قال : « إنها لميشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » . فصدق أبو دجاجة به حين لقي العدو ، وعلق به هام المشركين ^(٣) .

تعبيئة قريش جيشها واستفزازها أصحاب اللواء :

وكان المشركون قد صفوا صفوفهم بالسبخة ، واستعملوا على مينة خيلهم خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل . وكان معهم مائتا فرس كما تقدم . وجعلوا على المشاة صفوان بن أمية ويقال عمرو بن العاص ، وعلى الرماة - وكانوا مائة - عبد الله بن أبي ربيعة ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار .

وقد كان بنو عبد الدار أصحاب اللواء منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب ، يرثونه كابراً عن كابر وما كان يمكن لأحد أن ينازعهم فيه ، فقال أبو سفيان لهم - وكان رئيس المشركين يومئذ كما أسلفنا - محرضاً لهم على القتال ومستثيراً لمحبتهم : إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه ، وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نضع !! وذلك الذي أراد أبو سفيان فإنهم ثبتوا عند احتدام القتال حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم ^(٤) .

(١) مغازي الواقدي (ج ٢٢١/١) .

(٢) أجحهم عن الشيء : كَفَّ وَنَكَصَ (الوسيط : ج ١٥٨/١) .

(٣) فلق به هام المشركين : أي شق رؤوسهم (الوسيط : ج ٢٠٨/٢) . انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٣/٣) ، وصحيح مسلم (ج ١٩١٧/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي دجاجة رضي الله عنه ح ١٢٨ ، والمستدرک (ج ٢٣٠/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٠٩/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٥/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١١٣/٣ ، ١٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٠/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠١/٣ ، ٢٠٩) .

مناورات قريش وجهود نساؤها في التحميس :

فلما التقى الناس وصف بعضهم لبعض ، حاولت قريش قبل نشوب القتال إيقاع الفرقة في صفوف المسلمين ، فقد أرسل أبو سفيان رسولا إلى الأنصار يقول لهم : يامعشر الأوس والخزرج ! خلوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم ، فإنه لا حاجة لنا بقتالكم ، فشتوه أفصح الشتم وردوه بما يكره .

ثم خرج إليهم أبو عامر الفاسق عبد عمرو بن صيفي - وكان رأس الأوس في الجاهلية ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة كاشفه بالعداوة ، فخرج إلى مكة مبعداً لرسول الله ﷺ ومعه خمسون غلاماً من قومه ويقال كانوا خمسة عشر ، وكان يعد قريشاً أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان - فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى قومه فقال : يامعشر الأوس ! أنا أبو عامر ، فقالوا : لا أنعم الله بك عيناً يافاسق - أو قالوا : لا مرحباً بك ولا أهلاً يافاسق - فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر ، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى ولّى أبو عامر وأصحابه ، فكان هو أول من أنشب الحرب بين الفريقين .

ولما دنا القوم بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في نسوة من قريش يضربن بالأكُبَار^(١) والدفوف والغرايبيل^(٢) خلف الرجال يحرضنهم على القتال ويدكرنهم قتلى بدر ويقلن :

وَيْهًا بِنِي عَبْدِ الدَّارِ ، وَوَيْهًا حَمَاةَ الأَدْبَارِ ، ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارِ

ويقلن أيضاً :

إِنْ تُقْبِلُوا نَعْمَانِقَ وَنَفْرَشَ النَّمَارِقِ
أَوْ تُدْبِرُوا نَفَارِقَ فِرَاقِ غَيْرِ وَامِيقِ^(٣)

احتدام القتال وإبادة حملة لواء المشركين :

ثم اقتتل الناس حتى حميت الحرب ، والرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل فتولّي هاربة ، وكان بدء القتال بالمبارزة ، فقد خرج حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري ، وكان من أشجع فرسان قريش ، فدعا إلى المبارزة ، فأحجم الناس عنه ، حتى دعا ثلاثاً ، وهو على جبل له ، فخرج إليه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فالتقيا بين الصفين ، فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته فوق ، وهو كبش الكتيبة الذي رآه النبي ﷺ في رؤياه ، فسرى ﷺ بذلك وأظهر التكبير ، وكبر المسلمون .

وفي رواية أن الذي خرج إليه الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، فوثب عليه وهو على بعيره ، فاستوى معه على رحله ، ثم عاتقه ، فاقتتلا فوق البعير جميعاً ، فقال رسول الله ﷺ : « الَّذِي يَلِي حَضِيضَ الأَرْضِ مَقْتُولٌ » ، فوقع المشرك ووقع الزبير عليه فذبحه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ : اذُنُ يَا بَنَ صَفِيَّةَ ، فَلَقَدْ قُتِمَتْ وَإِنِّي لأَهْمُّ بِالْقِيَامِ إِلَيْهِ » ، وذلك لما رأى من إحجام القوم عنه لفرط شجاعته ، ثم قرب رسول الله ﷺ الزبير فأجلسه على فخذه وقال : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ » .

فأخذ لواء المشركين أخو طلحة وهو أبو شيبَةَ عثمان بن أبي طلحة ، وتقدّم للقتال وهو يرتجز ويقول :

إِن عَلَى أَهْلِ اللِّوَاءِ حَقًّا أَنْ تُخَضَّبَ الصَّعْدَةُ^(٤) أَوْ تَنْدَقَا

(١) الأَكُبَارُ : جَمْعُ كَبْرٍ ، وَهُوَ الطَّبْلُ ذُو الوَجْهِ الوَاحِدِ (الوسيط : ج ٧٧٩/٢) .

(٢) الغرايبيلُ : جَمْعُ غَرْبَالٍ ، وَالرَّاءُ بِهِ هُنَا الدَّفْعُ (لسان العرب : ج ٢٢٣١/٤) .

(٣) الوامِقُ : المَحْبُ (الوسيط : ج ١٠٧١/٢) . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٠/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥١١/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٢/٢) .

(٤) الصَّعْدَةُ : القَنَاةُ (الوسيط : ج ٥١٧/١) .

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فضربه بالسيف على كاهله ، فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبتت رثته ، ثم رجع وهو يقول : أنا ابن ساقى الحجيج ، يعني عبد المطلب .

ثم حمل اللواء أخوها أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب حنجرتة ، فأدلع لسانه إدلاع الكلب ، فقتله . وقيل : إن أبا سعد خرج بين الصفين فنادى : أنا قاصم ، من يبارز ؟ مراراً ، فلم يخرج إليه أحد ، فقال : يا أصحاب محمد ! زعمتم أن قتلاكم في الجنة وأن قتلتنا في النار ، كذبتم ، واللوات لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إليّ بعضكم ، فخرج إليه عليّ ، رضي الله عنه ، وهو يقول : أنا أبو القُصم^(١) ، فاختلفا ضربتين ، فضربه عليّ فصرعه ، ثم انصرف عنه ، ولم يجهز عليه ، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلني بعورته ، فعطفتني عنه الرِّجم ، وعرفت أن الله ، عزّ وجلّ ، قد قتله .

ثم حل اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأثلح بسهم فقتله ، ثم حملة الحارث بن طلحة أخو مسافع ، فرماه عاصم بن ثابت بسهم فقتله ، وقيل : قتله قُزَمان حليف لبني ظَفَر ، فكانت أمها - وهي سَلَافَة - معها ، وكان كل واحد منها بعد أن يرميه عاصم يأتي أمه ويضع رأسه في حجرها فتقول : يا بني ! من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلاً حين رماني يقول : خذها وأنا ابن أبي الأثلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الحمر^(٢) .

ثم حل اللواء كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فقتله الزبير بن العوام ، وقيل : قُزَمان ، فحملة الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فقتله طلحة بن عبيد الله ، وقيل : رماه عاصم بن ثابت بسهم فقتله .

فهؤلاء الأربعة أولاد طلحة بن أبي طلحة ، كلّ قتل ، كأبيهم طلحة وعمّهم عثمان وأبي سعد ، حول لواء المشركين ، ثم حملة من بني عبد الدار أُرطاة بن شَرْحِبِيل ، فقتله عليّ بن أبي طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب ، ثم حملة شَرِيح بن قارظ ، ويقال : القاسط بن شَرِيح ، فقتله قُزَمان ، وقيل : لا يدري من قتله ، ثم حملة أبو يزيد بن عمير بن هاشم ، ويقال : أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف بن هاشم العبديّ ، فقتله قُزَمان .

وهكذا قُتل أحد عشر رجلاً من حملة اللواء من بني عبد الدار ، ولم يبق منهم أحد يحمله ، فأخذة صُواب غلام لأبي طلحة حبشي ، فقاتل به حتى قُطعت يده ، ثم برك عليه يقاتل ، فأخذ اللواء بصدرة وعنته حتى قتل عليه وهو يقول : اللهم ! هل أعزرت ، يعني هل أعذرت^(٣) ؟ وقد اختلف فيمن قتله ، فقيل : سعد بن أبي وقاص ، وقيل : عليّ ، وقيل : أبو دُجَانَة ، وقيل : قُزَمان وهو أثبت الأثاويل .

وأصبح لواء المشركين شُوماً عليهم ، ما يدنو منه أحد إلا قُتل ، فتركوه مَلقى على الأرض^(٤) .

استبسال المسلمين في القتال :

وبينما كان اهتمام المسلمين موجّهاً إلى حملة لواء المشركين ، كان القتال المرير يجري في جميع نقاط المعركة ، وازدادت حدّته بعد مقتل أصحاب اللواء ، إذ صار المشركون كتائب متفرقة ، فشدّ المسلمون عليهم يضربونهم حتى نَفَضَتْ^(٥) صفوفهم وأجْهَضَوْهم - أي أزالوهم - عن أمكنتهم ، وهم يقولون : أميت أميت ، وكان ذلك شعارهم يوم أحد ، وحمل الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على خيل خالد بن الوليد ، فهزمه الله ومن معه^(٦) .

(١) ويقال : أبو القُصم ، ورجل قُصم : أي يَحْطِمُ مَالِي (لسان العرب : ج ٣٦٥/٥) .

(٢) سيأتي خبر مقتل عاصم ، رضي الله عنه ، في سرية الرُّجِيع إن شاء الله تعالى .

(٣) لأنه كان أعجمياً بيدل ذال أعذرت زايأ ، فيقول أعزرت .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩/٣ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٨١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٠/٢ ، ٤١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٧/٣) ، والبداية والنهاية (ج ٢٠/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٤/٢) .

(٥) نَفَضَتْ : تَحَرَّكَتْ وَوَهَبَتْ وَقَلَبَتْ (النهاية : ج ٨٧/٥) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٠/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥١٠/٢) .

- وقاتل أبو دُجَانَةَ يومئذ حتى أمعن^(١) في الناس ، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه : وجدت في نفسي ، حين سألت رسول الله ﷺ السيف فنعنيه وأعطاه أبا دُجَانَةَ وقلت : أنا ابن صَفِيَّةَ عَمَّتِه ، ومن قريش ، وقد قتت إليه فسألته إِيَّاهُ قبله ، فأعطاه إِيَّاهُ وتركني ، والله لأُنظِرَنَّ ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عِصَابَةَ له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دُجَانَةَ عِصَابَةَ الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول^(٢) أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقي أحداً إلا قتلته ، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذُقَّفَ عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دُجَانَةَ ، فاتقاه بدرقته^(٣) فعصت بسيفه^(٤) ، فضربه أبو دُجَانَةَ فقتله .

ثم أمعن أبو دُجَانَةَ ، رضي الله عنه ، في الصفوف حتى انتهى إلى نسوة في سفح الجبل ، فأهوى بالسيف على مفرق رأس هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، ثم كف عنها . قال الزبير : فلما انكشف القتال قلت له : كل عملك قد رأيت ، ما خلا رفعك السيف على المرأة لم تضربها ، فقال أبو دُجَانَةَ : رأيت إنساناً يحمّش^(٥) الناس حمشاً شديداً فصدمت له ، فلما حملت عليه السيف وأول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة^(٦) .

- مقتل حمزة رضي الله عنه :

وقاتل حمزة ، رضي الله عنه ، قتالاً شديداً ، وكان يدعى أسد الله ، ومرّ به سيّاح بن عبد العزى الغبشاني ، وكان يكنى بأبي نيار ، فقال له حمزة : هلّم إليّ يا ابن مقطّعة البطور - وكانت أمّه أمّ أنمار مولاة شريق بن عمرو وقيل : شريق بن الأحنس بن شريق ختانة بكة - فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه^(٧) . وفي رواية : أنهم لما اصطفوا للقتال خرج سيّاح ، فقال : هل من مبارز ؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فقال : ياسيّاح ! يا ابن أمّ أنمار مقطّعة البطور ، أتحدّ^(٨) الله ورسوله ﷺ ؟ ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب^(٩) .

يقول وحشي بن حرب قاتل حمزة : كنت غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان عمّه طعيمة بن عدي قد قتلته حمزة يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي مولاي جبير بن مطعم : إن قتلت حمزة عمّ محمد بعمي فأنت حرّ ، قال : فخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً أذف بالحربة قذف الحبشة ، قلباً أخطيء بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته في عرض الناس^(١٠) مثل الجبل الأورق يهدّ الناس بسيفه هدأ ما يقوم له شيء ، وهو يقول : أنا أسد الله ، ويقبل ويدبر ، فبينما هو كذلك إذ عثر عثره وقع منها على ظهره ، فانكشف الدرع عن بطنه ، ففهرزت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقع في ثنته حتى خرجت

(١) أمعن : جدّ وبالغ (الوسيط : ج ٢/٨٨٥) .

(٢) الكيول : آخر الصفوف في الحرب (لسان العرب : ج ٥/٢٩٦٧) .

(٣) الدرقة : الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب (الوسيط : ج ٨/٢٨٠١) .

(٤) أي كرمته ولزقت به (لسان العرب : ج ٤/٢٩٨٦) .

(٥) يحمّش : يؤقد الحرب ويثيرها ، ويحمش الناس : أي يسوقهم بغضب . انظر : (النهاية : ج ١/٤٤١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢/٢٢٥) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/١٢) ، والمستدرک (ج ٣/٢٣٠) .

(٧) هذا يقال عند المبالغة في الإصابة (شرح الزرقاني على المواهب : ج ٢/٣٢٢) .

(٨) أي : أتعايد . وقد تقدم .

(٩) أي حمّل عليه فقتله (النهاية : ج ٢/٤٥١) .

(١٠) عرض الناس : وسطهم (لسان العرب : ج ٤/٢٨٩٠) .

من بين رجليه ، فأقبل نحوي ، فغلب فوق ، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي ، ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم يكن لي بشيء حاجة غيره ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة أعتقت^(١) .

- ومن قاتل يومئذ قتالاً فلّ عزائم المشركين وقت في أعضادهم^(٢) أبو بكر وعمر وعليّ وعبد الله بن جحش وغيرهم كثير كالزبير والمقداد ومصعب وطلحة بن عبيد الله وسعد بن معاذ وسعد بن عباد رضي الله عنهم .

روي أن عبد الرحمن بن أبي بكر خرج من صفوف المشركين ، فقال : من يبارز ؟ فنهض إليه أبو بكر شاهراً سيفه ، فقال له رسول الله ﷺ : « شِمَّ سَيْفَكَ وَارْجِعْ إِلَى مَكَانِكَ ، وَلَا تَفْجَعْنَا بِنَفْسِكَ » .

وروي أيضاً أن عبد الرحمن قال لأبيه أبي بكر رضي الله عنه : قد رأيتك يوم أحد فصصحت عنك ، فقال أبو بكر : لكني لو رأيتك لم أصفح عنك^(٣) .

وعن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، أن عمر بن الخطاب قال لأخيه زيد بن الخطاب يوم أحد : خذ درعي هذه يا أخي ، فقال له : إني أريد من الشهادة مثل ماتريد ، فتركاها جميعاً^(٤) .

وروي أن عبد الله بن جحش ، رضي الله عنه ، قاتل المشركين حتى انكسر سيفه ، فألقى النبي ﷺ فأعطاه عسيباً من نخل ، فرجع في يد عبد الله سيفاً قاتل به^(٥) .

وعن أبي رافع قال : لما قتل عليّ بن أبي طالب أصحاب الألوية ، أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش ، فقال لعليّ : « اخمِلْ عَلَيْهِمْ » ، فحمل عليهم ، ففرق جماعتهم ، وقتل عمرو بن عبد الله الحنفيّ ، قال : ثم أبصر رسول الله ﷺ جماعة من مشركي قريش ، فقال لعليّ : « اخمِلْ عَلَيْهِمْ » ، فحمل عليهم ، ففرق جماعتهم ، وقتل شَيْبَةَ بن مالك أحد بني عامر بن لُؤَيّ ، فقال جبريل : يا رسول الله ! إن هذه للمواساة ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » ، فقال جبريل : وأنا منك ، قال : فسمعوا صوتاً :

لا سيف إلا ذو الفقار
ولا فتى إلاّ عليّ^(٦)

- مقتل حَنْظَلَةَ بن أبي عامر الغسيل رضي الله عنه :

وكان من الأبطال يومئذ حَنْظَلَةَ بن أبي عامر الفاسق ، فقد روي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لما فرض للناس فرض لعبد الله بن حَنْظَلَةَ ألفي درهم ، ففضله على غيره في العطاء ، فلما سئل عن سبب تفضيله ، قال : لأني رأيت أباه - يعني حَنْظَلَةَ - يوم أحد يَسْتَنُّ^(٧) سيفه كما يستنّ الجمل^(٨) .

فلما انهزم المشركون اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حرب ، فضرب عُرْقُوب فرسه^(٩) ، فوقع أبو سفيان إلى الأرض ، فصاح :

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٥/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٨/٥) كتاب المغازي - باب قتل حمة رضي الله عنه ، ودلائل النبوة للبيهقي

(ج ٢٤٢/٣) ، وكنز العمال (ج ٤٣٧/١٠) .

(٢) فَتَّ فِي عَضْدِهِ : أَوْهَنَ قُوَّتَهُ (الوسيط : ج ٦٧٨/٢) .

(٣) انظر : كنز العمال (ج ٦٥٨/٥) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٤/٢) ، والمستدرک (ج ٤٨٥/٣) .

(٤) عيون الأثر (ج ٢٤/٢) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٠/٣) .

(٦) تاريخ الطبري (ج ٥١٤/٢) .

(٧) يَسْتَنُّ : يَمْزَحُ وَيَخْطُرُ بِهِ (النهاية : ج ٤١١/٢) .

(٨) انظر : المستدرک (ج ٢٠٥/٣) .

(٩) عُرْقُوبُ الدَّابَّةِ فِي رِجْلِهَا بِمَنْزِلَةِ الرُّكْبَةِ فِي يَدَيْهَا (لسان العرب : ج ٢٩٠٩/٤) .

يامعشر قريش ! أنا أبو سفيان بن حرب ، وعلاء حنظلة بالسيف يريد ذبحه ، فرآه شداد بن الأسود وهو ابن شَعُوب^(١) فحمل على حنظلة بالرمح فقتله ، وهرب أبو سفيان ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ صَاحِبَكُمْ لَتُعَسِّلَنَّ الْمَلَائِكَةَ » - وفي رواية قال : « إِنِّي رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمَاءِ الْمَرْزَنِ فِي صِحَافِ الْفِضَّةِ » ، قال أبو أُسَيْدٍ السَّاعِدِيُّ : فنظرنا فإذا رأسه يقطر ماء ، فسألوا امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي سُلَول - وكان دخل عليها عروساً تلك الليلة التي صبيحتها قتال أحد - فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاطقة^(٢) ، فقال رسول الله ﷺ : « لِنَذِيكَ غَسَّلتُهُ الْمَلَائِكَةُ » . فلما قُتِلَ حنظلة مرَّ عليه أبوه أبو عامر الفاسق وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش ، فدفع صدره برجله ، ثم قال : إن كنت لأحدرك هذا الرجل من قبل هذا المصراع ، ولعمر الله إن كنت لو أصلاً للرحم براً بالوالد ، شريف الخلق في حياتك ، وإن ماتك لمع سراة أصحابك ، وإن جرى الله هذا القتل - حمزة - خيراً ، أو أحداً من أصحاب محمد ، فجزاك الله خيراً ، ثم نادى : يامعشر قريش ! حنظلة لا يُمَثَّلُ به ، وإن كان خالفني وخالفكم ، فمُتَّلُ بالناس وترك فلم يُمَثَّلُ به^(٣) .

انتصار المسلمين ودور الرماة فيه :

وبالرغم من قلة عدد المسلمين يومئذ فقد ظلوا مسيطرين على الموقف كله حتى انكشف المشركون منهزمين لا يلبون على شيء ، ونساؤهم يدعون بالويل ، وألقين الدفوف ، وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن يرفعن ثيابهن ، قال الزبير رضي الله عنه : والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَم^(٤) هند بنت عتبة وصواحبها مشترات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير .

وتبع المسلمون المشركين يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا وينتهبون الغنائم ، يقول ابن إسحاق : وأُنزل الله نصره على المؤمنين وصدقهم وعده فحسبهم بالسيف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها^(٥) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه قال : ما نُصِرَ النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في موطن كما نُصِرَ يوم أحد ، قال : فأذكرنا ذلك ، فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل : إن الله ، عز وجل ، يقول في يوم أحد : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾^(٦) ، يقول ابن عباس : والحس : القتل^(٧) .

وقد كان للرماة دور هام في هذا النصر ، فقد حملت خيل المشركين بقيادة خالد بن الوليد ثلاث مرات على المسلمين ليحدثوا البلبلة والاضطراب في صفوفهم ، ويزلوا بهم هزيمة ساحقة ، فقام الرماة بنضحهم بالنبل حتى رجعت خيلهم مقلوبة^(٨) منقمة وفشلت هجراتهم الثلاث^(٩) .

(١) شَعُوب : أمه .

(٢) أي لما سمع منادي رسول الله ﷺ بالخروج إلى العدو عجل عن الغسل إجابة للداعي . والهاطقة : الصَّوتُ يُنْتَمِعُ دُونَ أَنْ يَرَى شَخْصَ الصَّائِحِ (الوسيط : ج ٩٨١/٢) ، وفي رواية : الهاطقة : وهي الصَّيْحَةُ التي فيها الفزع (سيرة ابن هشام : ج ٢٠٢/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٢/٢) ، والمستدرک (ج ٢٠٤/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٨٨/٩) ، ودلائل البيهقي (ج ٢١٤/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٦٢٢/٢) .

(٤) الخَدَمُ : جَمْعُ خَدَمَةٍ ، وهي الخُلَعَالُ (لسان العرب : ج ١١١٥/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٨٠/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ، وطبقات ابن سعد (ج ٤١/٢) .

(٦) آل عمران : ١٥٢ .

(٧) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٩٦/٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٨) مقلوبة : منهزومة .

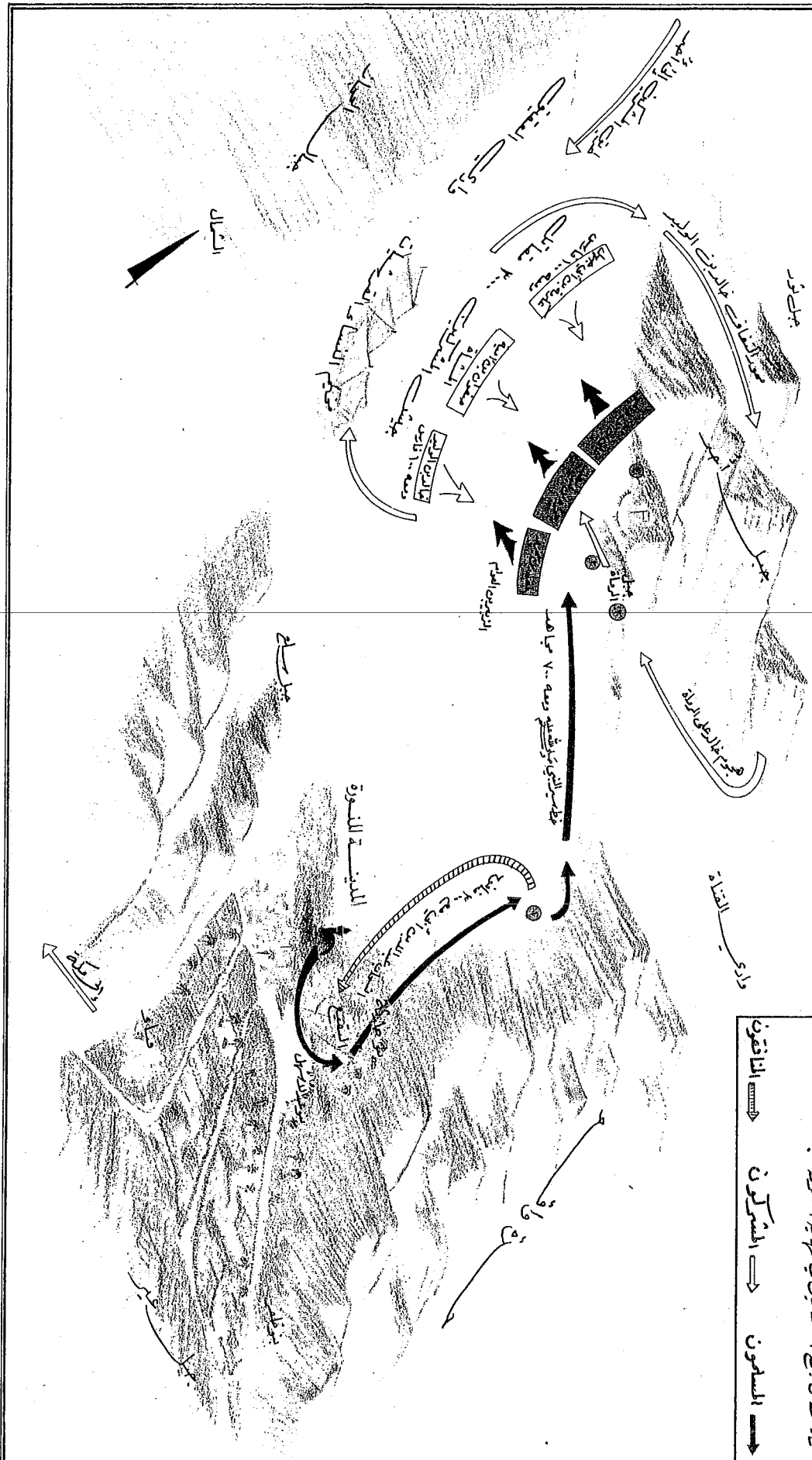
(٩) انظر : تاريخ الطبري (ج ٥١٠/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٠/٢) .

غزوة أحد

١٤ ربيع الأول ٣ هـ - كانزوت الثاني ٦٢٥ / ٣

- ١- تجمع المسلمين في الشيخين .
- ٢- بيل عيينه وعليه ضرس من الرماة يارة عميد الأبرار جهير .
- ٣- هجوم خالد بن ولید نزول الرماة .
- ٤- كان نجح المسلمين في تهاية المعركة .

المسلمون → المشركون → المنافقون



الكَرَّةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمُخَالَفَةُ الرَّمَاةِ :

ولكن عندما رأى الرماة هزيمة المشركين ، ورأوا أصحابهم ينتهبون غنائم العدو ، قال بعضهم لبعض : الغنمية أي قوم الغنمية ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ - وفي رواية : قال بعضهم : ماتقيمون ههنا في غير شيء ، فقد هزم الله العدو ، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فأدركوا الغنمية مع إخوانكم قبل أن يسبقونا إليها - وقال آخرون : ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : « احموا ظهورنا ، فلا تبرأوا مكانكم » ؟ فقالوا لهم : لم يرد رسول الله ﷺ هذا ، وقد أذل الله العدو وهزمهم .

فخطبهم عبد الله بن جبير ، أميرهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، فقال : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ ثم أمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ، وأن لا يخالف لرسول الله أمر . فأبى عامتهم أن يطيعوه وقالوا : والله لنائين الناس فلنصين من الغنمية ، ثم انطلقوا ، فلحقوا بالعدو ليشاركوا في جمع الغنائم ، تاركين منازلهم التي عهد إليهم رسول الله ﷺ ألا يتركوها ، وخلوا ظهور المسلمين للعدو . وثبت عبد الله بن جبير ، رضي الله عنه ، في مكانه وثبت معه نفي ما يبلغون العشرة فيهم الحارث بن أنس بن رافع .

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِئْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ ﴾ : أي : عصيت الرسول من بعد ما أراكم الغنائم وهزيمة العدو ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ : أي : الذين أرادوا الغنمية ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (١) الذين أطاعوا الرسول وثبتوا مكانهم ، فكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : ما شعرت أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يومئذ .

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة ، فقد نظر إلى خلاء الجبل وقلة من به من الرماة ، فكر بالخیل ، وتبعه عكرمة بن أبي جهل ، فحملوا على عبد الله بن جبير وأصحابه فقتلهم جميعاً . (انظر : مصور غزوة أحد) . ويروى أن عبد الله رماه حتى فنيته نبله ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر ، ثم كسر جفن سيفه فقاتلهم حتى قتل ، قتله عكرمة بن أبي جهل ، فلما وقع جردوه ومثلوا به أبيض المثل ، وكانت الرماح قد شرعت في بطنه حتى خرقت ما بين سرتيه إلى خاصرته إلى عاتقه ، فكانت حشوته قد خرجت منها .

ثم انتفض خالد على المسلمين من خلفهم ، فبينما المسلمون قد شغلوا بجمع الغنائم إذ دخلت خيول المشركين تنادي فرسانها بشعارهم : يا للزمي ! يا للهبل ! فلما رأى المشركون المنهزمون أن خيلهم تقاتل تناذوا حتى أقبلوا ، وأسرع امرأة منهم تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعت لواء للمشركين المطروح على الأرض ، فاجتمع حوله المشركون ، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ، وقتل منهم ناس كثير ، وولى من ولى منهم يومئذ (٢) .

اضطراب موقف المسلمين ومقتل مصعب رضي الله عنه :

فلما وقع المسلمون في التطويق ووضع المشركون فيهم السيوف وأوجعوا فيهم قتلاً ذريعاً ، انتفضت صفوفهم ، واختلطوا ، فصاروا يقتتلون على غير شعار (٣) ، ويضرب بعضهم بعضاً ما يشعرون به ، مما أصابهم من الدهش والحيرة (٤) .

(١) ال عمران : ١٥٢ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤/٣ ، ٢٥) ، وصحيح البخاري (ج ٨٠/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب .. ومسند الإمام أحمد (ج ٤٦٣/١) و (ج ٢٩٤/٤) ، والمستدرک (ج ٢٩٦/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٧٥/٣ ، ٤٧٦) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٠٨/٢ ، ٥١٠) ، ودلائل البيهقي (ج ٢١٠/٣) .

(٣) أي من غير أن يأتوا بما كانوا يتنادون به في الحرب ويتعارفون به في ظلمة الليل وعند الاختلاط ، وهو أميت أميت (السيرة الحلبية : ج ٢٢٦/٢) .

(٤) انظر : المستدرک (ج ٢٩٦/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٢/٢) .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها قالت : لما كان يوم أحد هُزم المشركون ، فصرخ إبليس لعنة الله عليه : أي عباد الله ! أحرأكم^(١) ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أي عباد الله ! أبي أبي ، قال : قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله^(٢) .

وعن محمود بن لبيد قال : لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رَفَعَ حَسَيْلُ بن جابر - وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان - وثابت بن وقش في الأظام مع النساء والصبيان ، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران : لأبأ لك ، ماتتظنر ؟ فوالله إن بقي لواحد منا من عمره إلا ظمُّه حمار^(٣) ، إنما نحن هامة اليوم أو غد^(٤) ، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ ، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ ، فأخذنا أسيافها ، ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يعلم بها . .

فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون ، وأما حَسَيْلُ بن جابر فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبي والله ، فقالوا : والله إن عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه ، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً^(٥) .

وتراجع المسلمون وترك بعضهم ساحة القتال ، وثبت مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، وهو حامل اللواء يقاتل دون رسول الله ﷺ ، فأقبل ابن قميته وهو فارس ، فضرب يده اليمنى فقطعها ، ومصعب يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾^(٦) الآية ، وأخذ اللواء بيده اليسرى ، وحنا عليه ، فضرب يده اليسرى فقطعها ، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية ، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب قتيلاً ، وسقط اللواء ، فأخذه رسول الله ﷺ فدفعه إلى علي بن أبي طالب ، وقيل : ابتدره رجلان من بني عبد الدار ، سَوَّيْبُ بن سعد بن خزيمه ، وأبو الروم بن عمير ، فأخذه أبو الروم ، فلم يزل في يده حتى دخل به المدينة حين انصرف المسلمون .

فلما قتل ابن قميته مصعب بن عمير ، وكان يشبه النبي ﷺ إذا لبس لأمته ، ظن أنه قتل رسول الله ﷺ ، فرجع إلى قريش وهو يقول : قتلت محمداً ، وصرخ الشيطان بأبعد صوت : ألا إن محمداً قد قُتِلَ ، فلما سمع المسلمون ذلك ، وكانوا قد أصابهم الاضطراب وجهدهم الحرب ، سَقَطَ في أيديهم ، وكادت أن تنهار الروح المعنوية في نفوس كثير منهم ، وأصبحوا حيارى لا يدرون ماذا يصنعون .

وهكذا صار المسلمون ثلاث فرق : فرقة لاذت بالفرار وتركت ساحة القتال ، وهؤلاء انقسموا أيضاً ، فمنهم من انطلق إلى فوق الجبل ، إلى قريب من المِهْرَاسِ^(٧) في الشعب ، ومنهم من استمر في الهزيمة إلى موضع قرب المدينة يدعى المنقى ، أو انتهوا إلى الجَلْعَبِ^(٨)

(١) أي احتجزوا من جهة أحرأكم ، وهي كلمة تُقال لِمَنْ يَجْشَى أَنْ يُوْتَى عِنْدَ الْقِتَالِ مِنْ وِرَائِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ لِمَا تَرَكَ الرُّمَاتُ مَكَانَهُمْ وَدَخَلُوا يَنْتَهَبُونَ عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ (فتح الباري : ج ٣٦٢/٧) .

(٢) صحيح البخاري (ج ١٢٥/٥) كتاب المغازي - باب ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ .. ﴾ .

(٣) الظَّمُّ : مَا بَيْنَ الشُّرْبَيْنِ ، وَفِي الْمَثَلِ : لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا قَسْدُرٌ ظِمُّهُ الْحَيَارِ ، أَي : لَمْ يَبْقَ مِنْ عَظْمِهِ إِلَّا الْبَسِيرُ ، لِأَنَّ الْحَيَارَ قَلِيلُ الصَّبْرِ عَلَى الظَّمِّ (الوسيط : ج ٥٨٢/٢) .

(٤) أَي يَمُوتَانِ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا (لسان العرب : ج ٤٧٢٢/٦) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٣٦٣/٣) .

(٦) آل عمران : ١٤٤ .

(٧) المِهْرَاسُ : حَجَرٌ مَتَقَوَّرٌ يَمْسِكُ الْمَاءَ فَيَتَوَضَّأُ مِنْهُ ، شَبَّهَ بِالْمِهْرَاسِ الَّذِي هُوَ الْهَائِوُنُ ، وَهُوَ هُنَا اسْمٌ مَاءٍ بِجَبَلٍ أَحَدٌ . انظر : (معجم البلدان : ج ٢٠٨/٨) ، و (شرح الزرقاني على المواهب : ج ٤٦/٢) .

(٨) الْمُنْقَى : مَوْضِعٌ بَيْنَ أَحَدِ الْمَدِينَتَيْنِ (معجم البلدان : ج ١٨٢/٨) ، وَالْجَلْعَبُ : جَبَلٌ بِنَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ (معجم البلدان : ج ١٢٦/٣) .

فأقاموا هناك ثلاثاً ، فارجعوا حتى انفض القتال ، فلما راهم رسول الله ﷺ قال لهم : « لَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِهَا عَرِيضَةً » - أي واسعة - وقيل : بل دخل بعضهم المدينة ، فجعل النساء يقتلن لهم : عن رسول الله ﷺ تَفِرُونَ ؟ وجعلت أمّ أيمن تحثي في وجوههم التراب وتقول لبعضهم : هاك المِغْزَلِ فاغزِلْ به وهلمَّ سيفك . وروي أن صَفِيَّةَ بنت عبد المطلب جاءت يوم أحد ، وقد انهزم الناس ، وببيدها رمح تضرب به في وجوه الناس ، وتقول : انهزمت عن رسول الله ﷺ !

وكان في جملة من انهزم عثمان بن عفان ، والحارث بن حاطب ، وسواد بن غزيرة ، وسعد وعقبة ابنا عثمان ، ورفاعة بن معلى ، وخارجة بن عامر ، وأوس بن قَيْظِي . وهؤلاء الذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

والفرقة الثانية ثبتت مع النبي ﷺ واستماتت في القتال دونه كما سيأتي .

أما الفرقة الثالثة فصاروا حيارى لما سمعوا أن النبي ﷺ قد قُتِل ، فقال بعضهم : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي ابن سلول ، فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ! يا قوم إن محمداً قد قُتِل ، فارجعوا إلى قومكم ليؤمّنوكم قبل أن يأتكم المشركون فيقتلوكم ، وقال رجل من المنافقين أحد بني قَشِيرٍ : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، وقال رجل آخر منهم : لو كان نبياً ما قتل ، فارجعوا إلى دينكم الأول ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ الآية . وقال بعضهم : إن كان رسول الله ﷺ قد قُتِل أفلا تقاتلون عن دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء ؟ منهم أنس بن النضر شهد له بها سعد بن معاذ عند رسول الله ﷺ ، وألقى آخرون السلاح مستكينين وقالوا : علام تقاتل إذا كان محمد قد قُتِل ؟

ومرّ هؤلاء أنس بن النضر - وهو عمّ أنس بن مالك - وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : فإذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم قال : اللهم ! إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدّم ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمرو ؟ فقال : ياسعد بن معاذ ؟ الجنة وربّ النضر إني أجد ربيها من دون أحد ، ثم شدّ بسيفه فقاتل القوم حتى قتل . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف وطعنة برمحة ورمية بسهم ، فما عرفه أحد ، وقد مثل به المشركون ، إلا أخته بنانة . قال أنس بن مالك : كنت نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٢) .

ومن قال مثل مقالة أنس بن النضر ثابت بن الدخداح ، رضي الله عنه ، فإنه قال : يامعشر الأنصار ! إن كان محمد قد قُتِل ، فإن الله حي لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم ، فهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب ، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله ، وقتل من كان معه من الأنصار رضي الله تعالى عنهم .

وروي أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشخط في دمه ، فقال له : يا فلان ! أشعرت أن محمداً ﷺ قد قُتِل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قُتِل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم .

(١) آل عمران : ١٥٥ .

(٢) الأحزاب : ٢٣ .

ويعتدل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم صوابهم ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبي ، وأخذوا سلاحهم ، يقاتلون المشركين بضراوة بالغة ، وصارت غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه أو يستمر في القتال إلى أن يقتل (١) .

وقد كثرت الجراح في المسلمين وأصيب منهم عدد كبير ، منهم رافع بن خديج ، رضي الله عنه ، فقد أصابه سهم في ترقوته ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ شِئْتَ نَزَعْتُ السَّهْمَ وَتَرَكْتُ الْقُطْبَةَ ، وَشَهِدْتُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّكَ شَهِيدٌ » ، فتركها رافع لقول رسول الله ﷺ ، فكان لا يحسن منه شيئاً دهنراً ، فلما كان في خلافة عثمان ، رضي الله عنه ، انتقض به ذلك الجرح فات منه (٢) .

ومنهم أبو سلمة بن عبد الأسد ، رضي الله عنه ، جرح في عضده ، فمكث شهراً يداويه ، فبرأ فيما يرى ، وقد اندمل الجرح على بغي (٣) لا يعرفه .

ومنهم أبو زهم كلثوم بن الحصين الغفاري ، رضي الله عنه ، رمي يومئذ بسهم ، فوقع في نحره ، فجاء إلى رسول الله ﷺ ، فبصق عليه ، فبرأ ، فكان أبو زهم يسمى المنحور .

ومنهم قطبة بن عامر ، رضي الله عنه ، جرح تسع جراحات ، وأبو زيد الأنصاري ، رضي الله عنه ، أصيبت رجله فكان يصلّي قاعداً .

ورمي أبي بن كعب ، رضي الله عنه ، بسهم فأصاب أكحله (٤) ، فأمر النبي ﷺ فكوي على أكحله ، ورمي سبرة بن معبد ، رضي الله عنه ، بجحر ، فأصاب رجله ، فلم يزل بها ضالعا (٥) حتى مات (٦) .

ثبات النبي ﷺ ومالقيه من الأذى :

أما النبي ﷺ فقد ثبت في ساحة المعركة ، ولم يفارق مكانه الذي وصل إليه وقت انهزام المشركين ، قال المقداد : فوالذي بعثه بالحق ، ما زالت قدمه شبراً واحداً عن موقفه ، وإنه لفي وجه العدو . وما زال ﷺ يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا ويرمي بالحجر ، وكان أقرب الناس إلى القوم ، والمسلمون قد انكشفوا عنه ، وأصعدوا في الجبل لا يلوون على أحد ، وهو يناديهم : « هَلُمَّ إِلَيَّ ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ » ، وأنا ابنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . وكان ﷺ يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرأ بنفسه في ذلك الظرف الدقيق .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨/٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٦) ، وصحيح البخاري (ج ٢٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب قوله تعالى ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا .. ﴾ ، وصحيح مسلم (ج ١٥١٢/٣) كتاب الإمارة - باب ثبوت اللجنة للشهيد ح ١٤٨ ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٢/٢) و (ج ٤١/٨) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٧٥/٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٠/٣ ، ٢١٧ ، ٢١٠) ، وعيون الأثر (ج ٢٤/٢) ، والبداية والنهاية (ج ٣٠/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٧/٢) ، وفتح الباري (ج ٣٦٢/٧) .

(٢) المستدرک (ج ٥٦١/٣) .

(٣) أندمل الجرح على بغي : أي على فساد (لسان العرب : ج ٢٢٢/١) .

(٤) الأكحل : عرق في وسط الذراع يكثر قصده .. فإذا قطع في اليد لم يرق الدم (لسان العرب : ج ٢٨٢/٥) .

(٥) الضالغ : المائل (لسان العرب : ج ٢٦٠/٤) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٠/٣ ، ٥٧٩) و (ج ٢٤٤/٤) و (ج ٢٧/٧) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٠٢/٣) ، وجمع الزوائد (ج ١١٧/٦) ، وسيرة ابن هشام (ج ٣١/٣) .

وهذا ما حدث فعلاً ، فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يفيء إليه المسلمون ، ولم يكن مع رسول الله ﷺ حينئذ إلا اثنا عشر رجلاً من الأنصار ، وفيهم طلحة بن عبيد الله^(١) . وقيل : بل سبعة من الأنصار ورجلان من قريش ، فقاتل هؤلاء الفردون رسول الله ﷺ وأبلاوا يومئذ أشد البلاء .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ أُفريد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رَهَقوه^(٢) قال : « مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ ، أَوْ هُوَ زَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟ » - وفي رواية أنه قال حين غَشِيَهُ القوم : « مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ ؟ » - فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قُتِل ، ثم رَهَقوه أيضاً ، فقال : « مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ ، أَوْ هُوَ زَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟ » فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قُتِل ، فلم يزل كذلك حتى قُتِل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا » - وفي رواية : وكان آخرهم عَمَارَةُ بن يَزِيد بن السَّكَن ، أو زياد بن السَّكَن ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، فقال رسول الله ﷺ : « أَذَنُوهُ مِنِّي » ، فأذنوه منه ، فوسَّده قدمه ، فمات وخذته على قدم رسول الله ﷺ^(٣) .

ولم يبق مع رسول الله ﷺ بعد مقتل ابن السَّكَن غير طلحة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، فشَدَّ المشركون على النبي ﷺ طمعاً في القضاء عليه - وقد كان تعاهد أربعة نفر منهم وتعاهدوا يوم أُحد لكن رأوا رسول الله ﷺ لَيَقْتُلَنَّهُ أو لَيَقْتُلُنَّ دونه ، وهم : عبد الله بن شهاب الزُّهري ، وأبَيُّ بن خَلْف ، وابن قَمِيَّة اللَّيْثِي ، وعُتْبَةُ بن أَبِي وقاص - فرماه عُتْبَةُ بن أبي وقاص بالحجارة حتى وقع لَشِقِّهِ ، وأصيبت رِباعِيته اليماني ، وجرح في وجهه ، وكَلِمَت شَفْتِهِ السَّفْلَى ، وكسرت البيضة على رأسه . وتقدم إليه عبد الله بن شهاب فشجَّه في جبهته ، وأتى ابن قَمِيَّة فعلاه بالسيف وضربه على مَتَكِبِهِ الأيمن ضربة عنيفة شكَا النبي ﷺ لأجلها أكثر من شهر ، ثم ضربه على وَجْنَتِهِ وقال : خذها وأنا ابن قَمِيَّة ، فدخلت حَلَقَتَانِ من حَلَقِ المَغْفَرِ^(٤) في وَجْنَتِهِ ﷺ ، فقال : « أَقْمَأَكْ^(٥) اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » ، وجعل رسول الله ﷺ يمسح الدم عن وجهه وهو يقول : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ » ، فأَنْزَلَ اللهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، في ذلك : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(٦) . فكان رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »^(٧) .

وفي رواية عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ على قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ - يشير إلى رِباعِيته - اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ على رَجُلٍ يَفْتَلُهُ رَسُولُ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ »^(٨) .

وعن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، أنه كان يقول : والله ما حرصت على قتل رجل قط كحرصتي على قتل عُتْبَةَ بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمت لسيء الخلق مُبْعَضاً في قومه ، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ : « اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ على مَنْ دَمَى وَجْهَ رَسُولِهِ »^(٩) .

وقد استجاب الله في ابن قَمِيَّة دعوة نبيِّه ﷺ ، فإنه لما انصرف ابن قَمِيَّة من ذلك اليوم إلى أهله خرج إلى غنمه ، فوافاها على

- (١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٤/٣ ، ٢٧١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٨/٢) ، وكنز العمال (ج ٤٣٦/١) ، وصحيح البخاري (ج ٨٠/٤) كتاب الجهاد والسير ، وسنن النسائي (ج ٢٩/٦) كتاب الجهاد والسير - ما يقوله من يطعمه العدو .
- (٢) رَهَقَ الشَّيْءُ فلاناً : غَشِيَهُ وَلَحِقَهُ (الوسيط : ج ٢٧٩/١) .
- (٣) انظر : صحيح مسلم (ج ١٤١٥/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة أحد ح ١٠٠ ، وسيرة ابن هشام (ج ٢٩٣/٣) .
- (٤) المَغْفَرُ : زُرَّةٌ يُنْسَجُ مِنَ الدُّرُوعِ على قَدَرِ الرُّأْسِ ، يُلْبَسُ تحت القَلْبِ (الوسيط : ج ٦٦٣/٢) .
- (٥) أَقْمَأَةٌ : أذَلَّةٌ (لسان العرب : ج ٢٧٣٢/٥) .
- (٦) آل عمران : ١٢٨ .
- (٧) انظر : صحيح البخاري (ج ١٢٤/٥ ، ١٢٧) كتاب المغازي - باب ﴿ إِذْ هَمَّت طائفتانِ منكُم أن تَفْشَلَا ﴾ ، باب ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٥/٤) ، وسيرة ابن هشام (ج ٢٧/٣) ، وجمع الزوائد (ج ١١٧/٦) .
- (٨) صحيح البخاري (ج ١٢٩/٥) كتاب المغازي - باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أُحد .
- (٩) سيرة ابن هشام (ج ٣٥/٣) .

ذُرْوَة جبل ، فسَلَطَ اللهُ عليه تَيْسًا ، فلم يزل ينطحه حتى قَطَعَهُ قطعة قطعة - وفي رواية : فشدَّ عليه التَّيسَ فنطحه نطحه أرداه من شاهق الجبل فتقطع .

ودعا رسول الله ﷺ على عَثْبَةَ بن أبي وقاص ، فقال : « اللَّهُمَّ ! لا تَحِلْ عَلَيْهِ الحَوْلَ حتى يَمُوتَ كَافِرًا » ، وقد استجاب الله تعالى ذلك أيضاً ، فاحال عليه الحول حتى مات كافرًا إلى النار^(١) . وقيل : قتله يوم أحد حاطب بن أبي بلتعة ، رضي الله عنه ، وعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، أن حاطب بن أبي بلتعة لحق بالنبي ﷺ وهو يغسل وجهه ، فقال له حاطب : مَنْ فعل بك هذا ؟ قال : « عَثْبَةُ بن أبي وقاص ، هَشَمَ وَجْهِي ، ودَقَّ رِباعِي بِحَجَرٍ رَمَانِي » ، فقال حاطب : إني سمعت صائحاً يصيح على الجبل قتل محمد ، فأتيت إليك ، وكان قد ذهبت روحي ، ثم قال له : أين توجه عَثْبَةُ ؟ فأشار إلى حيث توجه ، قال : فضيت حتى ظفرت به ، فزبرته بالسيف فطرحت رأسه ، فهبطت فأخذت رأسه وسلَّبه وفرسه وجئت به إلى النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فسلم ذلك إلي ، ودعا لي فقال : « رَضِيَ اللهُ عَنْكَ » مرَّتين^(٢) .

- وقد قاتل كلَّ من طلحة وسعد ، رضي الله عنهما ، قتالاً منقطع النظير ، حتى ما تركا للمشركين سبيلاً إلى تحقيق هدفهم في القضاء على النبي ﷺ . فكان رسول الله ﷺ يقول : « مَا صَبَرَ مَعِيَ يَوْمَ أُحُدٍ غَيْرَ طَلْحَةَ ، لَقَدْ كَانَ يَقِينِي النَّبْلَ بِكَفِيهِ »^(٣) .

روي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، قال بعد أن ذكر تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومقتل النفر الأنصاريين دونه ﷺ : حتى بقي رسول الله ﷺ وطلحة بن عبيد الله ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَلِقَوْمَ ؟ » فقال طلحة : أنا ، فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه ، فقال : حس^(٤) ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ قُلْتَ بِسْمِ اللَّهِ لَرَفَعْتُكَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ » . قال جابر : ثم ردَّ الله المشركين^(٥) .

وعن قيس قال : رأيت يد طلحة شلاء وفي بها النبي ﷺ يوم أحد^(٦) .

وعن موسى بن طلحة أن طلحة رجع بسبع وثلاثين أو خمس وثلاثين بين ضربة وطعنة ورمية ترصع^(٧) جبينه ، وقطعت سبائبه ، وشلَّت الإصبع التي تليها^(٨) . وقيل : قطع نساها - أي عرق النسا ، وضرب في رأسه ضربتين ضربه إيَّاهما ضرار بن الخطاب^(٩) .

وروي عن أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد بكى ، ثم قال : كان ذاك يوماً ، كان كلُّه يوم طلحة^(١٠) .

وكان عليّ ، رضي الله عنه ، إذا قيل له : حدثنا عن طلحة ، قال : ذاك امرؤ نزل فيه آية من كتاب الله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَصَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾^(١١) ، طلحة بمن قضى نحبه لا حساب عليه فيما يستقبل^(١٢) .

(١) انظر : مجمع الزوائد (ج ١١٧/٦) ، وعيون الأثر (ج ١٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٥/٣) .

(٢) المستدرک (ج ٣٠٠/٣) .

(٣) كنز العمال (ج ٦٩٧/١١) وقال المصنف رواه الديلمي .

(٤) حسن : كلمة تُقالُ عندَ الألمِ المُفاجِئِ (الوسيط : ج ١٧٢/١) .

(٥) سنن النسائي (ج ٣٠/٦) كتاب الجهاد - ما يقوله من يطعنه العدو .

(٦) صحيح البخاري (ج ١٢٥/٥) كتاب للغازي - باب ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ .

(٧) الرُّصْعُ : شِدَّةُ الطَّعْنِ ، وَرِصْعَةٌ بِالرُّمْحِ يَرْصَعُهُ رِصْعًا : طَعَنَهُ طَعْنًا شَدِيدًا غَيَّبَ السِّنَانَ كُلَّهُ فِيهِ (لسان العرب : ج ١٦٥٥/٣) .

(٨) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٥/٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٩) انظر : للمستدرک (ج ٣٦٩/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٧/٣) .

(١٠) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٢/٣) .

(١١) الأحزاب : ٢٣ .

(١٢) كنز العمال (ج ١٩٩/١٣) وقال المصنف رواه ابن عساکر .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « طَلْحَةُ مِمَّنْ قَصَى نَحْبَةَ » (١) ، وقال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ » (٢) .

- وأما سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، فقد كان أشدَّ الناس بأساً يوم أُحُد ، ورمى دون رسول الله ﷺ حتى فנית نَبْلَهُ ، فنَثَلَ له ﷺ كِنَاتَهُ ، وجعل يناوله النَّبْلَ وهو يقول : « اِزْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » ، حتى إنه ليناوله السَّهْمَ ماله نَصَلَ (٣) فيقول : « اِزْمِ بِهِ » (٤) .

روي عن عليّ ، رضي الله عنه ، قال : ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك ، فإني سمعته يقول يوم أُحُد : « يَا سَعْدُ ! اِزْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » (٥) .

وعن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، قال : لما جال الناس (٦) عن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، تلك الجولة يوم أُحُد ، تنَحَّيت فقلت : أدود عن نفسي ، فيما أن أستشهد وإما أن أنجو حتى ألقى رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فبينما أنا كذلك إذا برجل مُخَمَّر وجهه ما أدري من هو ، فأقبل المشركون حتى قلت قد ركبوه ، ملأ يده من الحصى ، ثم رمى به في وجوههم ، فنكَبُوا (٧) على أعقابهم القهقري ، حتى يأتوا الجبل ، ففعل ذلك مراراً ، ولا أدري من هو ، وبينه والمقداد بن الأسود ، فبينما أنا أريد أن أسأل المقداد عنه ، إذ قال المقداد : ياسعد ! هذا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يدعوك ، فقلت : وأين هو ؟ فأشار لي المقداد إليه ، فقممت ولكأنه لم يُصِبنِ شيء من الأذى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أَيْنَ كُنْتَ الْيَوْمَ يَا سَعْدُ ؟ » فقلت : حيث رأيت يا رسول الله ، فأجاسني أمامه ، فجعلت أرمي وأقول : اللهم ! سهمك فارم به عدوك ، ورسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : « اللَّهُمَّ ! اسْتَجِبْ لِسَعْدِ ، اللَّهُمَّ ! سَدِّدْ رُمِيَّتَهُ ، إِنَّهَا (٨) سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » ، فما من سهم أرمي به إلا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللَّهُمَّ ! سَدِّدْ رُمِيَّتَهُ ، وَأَجِبْ دَعْوَتَهُ ، إِنَّهَا سَعْدُ » ، حتى إذا فرغت من كِنَاتِي ، نثر رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ما في كِنَاتِهِ ، فنَبَلَنِي سَهْمًا نَضِيًّا (٩) ... قال الزُّهْرِيُّ : إن السهام التي رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم (١٠) .

(١) سنن الترمذي (ج ٣٥٠/٥) كتاب التفسير - باب سورة الأحزاب ح ٣٢٠٢ .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٨/٣) .

(٣) النَّصْلُ : حَدِيدَةُ السَّهْمِ (الوسيط : ج ٩٣٥/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٤/٥) كتاب المغازي - باب ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ .. ﴾ .

(٥) صحيح البخاري (ج ١٢٤/٥) كتاب المغازي - باب ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ ﴾ .

(٦) جَالِ الْقَوْمِ فِي الْحَرْبِ جَوْلَةٌ : إِذَا انْكَشَفُوا ثُمَّ كَرُّوا ، وَمَعْنَى جَالِ النَّاسِ عَنْهُ تِلْكَ الْجَوْلَةُ هُنَا : انْكَشَفُوا عَنْهُ وَقَرُّوا . انظر : (لسان العرب : ج ٧٣٠/١) .

(٧) نَكَبُوا : أَي تَنَحَّوْا عَنَّا وَعَدَلُوا (النهاية : ج ١١٢/٥) .

(٨) إِلَيْهِ : كَلِمَةٌ اسْتِزَادَةٌ وَاسْتِنْطَاقٌ تُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا اسْتَزَدْتَهُ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَإِيَّاهُ قَدْ تَرَدَّ بِمَعْنَى التَّصْدِيقِ وَالرِّضَا بِالشَّيْءِ (لسان العرب : ج ١٩٥/١) .

(٩) نَبْلَةٌ : نَاوِلَةُ النَّبْلِ لِتُرْمِي ، وَالنَّضِيُّ : هُوَ مِنَ السَّهْمِ مَا بَيْنَ الرَّيشِ وَالنَّصْلِ ، قَالُوا : سُمِّيَ نَضِيًّا ، لِكَثْرَةِ الْبُرِّيِّ وَالتَّخْتِ فَكَانَهُ جَمِيلَ نَضُوا : أَي هَزِيلًا (النهاية : ج ١٠/٥ ، ٧٣) .

(١٠) المستدرک (ج ٢٦/٣) .

حضور الملائكة :

وفي هذه اللحظات الحرجة أنزل الله ملائكته لحماية نبيه ﷺ ، فقد روى البخاري بسنده عن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، قال رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ ومعه رجلان يُقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، مارأيتها قبل ولا بعد^(١) . وزاد مسلم في روايته عنه : يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام^(٢) .

وروي عن عمير بن إسحاق قال : لما كان يوم أُحُدٍ انكشفوا عن رسول الله ﷺ ، وسعد يرمي بين يديه ، وفقى ينبل له ، كلما ذهبت نبلة أتاه بها ، قال : ارم أبا إسحاق ، فلما فرغوا نظرت من الشاب فلم يروه ولم يُعرف^(٣) .

وعن نافع بن جبير قال : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أُحُدًا ، فنظرت إلى النبيل يأتي من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يُصرف عنه^(٤) .

وقد قيل إن الملائكة حضرت يومئذ ولم تقاتل كما روي عن مجاهد ، قال : لم تقاتل معهم الملائكة يومئذ ولا قبله ولا بعده إلا يوم بدر^(٥) . قال البيهقي : وهذا لا ينافي أنهم قاتلوا عنه ﷺ خاصة ، وكان الله ، عز وجل ، وعدم على الصبر والتقوى أن يمدم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين ، فلما عصوا أمر الرسول وأرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة^(٦) .

عودة المسلمين للتجمع حول النبي ﷺ واستماتتهم في الدفاع عنه :

وما كاد الصحابة ، الذين يقاتلون العدو ، يسمعون صوت رسول الله ﷺ يناديهم : إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، حتى أقبلوا إليه ، وقد كان أصابه ما أصابه من الجراحات ، وحوله نفر من الأنصار قد قتلوا دونه ، وسعد وطلحة ، رضي الله عنهما ، يقاتلان أشد القتال ويقبانه صربات العدو ، فاجتمع إليه عصابة من أصحابه أربعة عشر رجلاً : سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار ، منهم أبو بكر وعمر ، وعلي ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو طلحة ، والحارث بن الصمة ، ومالك بن سنان ، وأبو دجانة ، وشماس بن عثمان ، وقتادة بن النعمان ، وأم عمارة .

وكان أول من رجع إليه أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، قال أبو بكر : لما انصرف الناس عن النبي ﷺ كنت أول من فاء إلى رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ ، وبين يدي رسول الله ﷺ رجل يقاتل عنه ويحميه ، فقلت : كن طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فلما نظرت فإذا أنا بإنسان خلفي ، قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً ، فلم أنشأ أن أدركني ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فدفعنا إلى رسول الله ﷺ جميعاً ، فقال لنا : « دُونَكُمْ أَخَاكُمْ فَقَدْ أُوجِبَ^(٧) » - يريد طلحة وكان قد نزع - فتركناه ، وأقبلنا على النبي ﷺ وقد انكسرت رباعيته وشج في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر ، فأردت أن أنزعها ، فقال أبو عبيدة : أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله ﷺ ، قال أبو بكر : فما زال يسألني ويطلب إلي حتى تركته ، فأزم^(٨) بأسنانه على إحدى الحلقتين فنزعها ، فسقطت ثنيتته ، ثم لم يزل يسكنني ويطلب إلي أن أدعه ينزع الأخرى ، فوضع ثنيتته عليها ، وأزم عليها

(١) صحيح البخاري (ج ١٢٤/٥) كتاب المغازي - باب (إذ همت طائفتان منكم ..) .

(٢) صحيح مسلم (ج ١٨٠٢/٤) كتاب الفضائل - باب في قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أُحُدٍ ح ٤٧ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٧/٣) .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٤/٣) .

(٥) دلائل البيهقي (ج ٢٥٥/٣) .

(٦) دلائل البيهقي (ج ٢٥٦/٣) .

(٧) أُوجِبَ طَلْحَةُ : أي عَمِلَ عَمَلًا أُوجِبَ لَهُ الْجَنَّةَ (النهاية : ج ١٥٢/٥) .

(٨) أزم : عَضَّ وَأَفْسَكَ (النهاية : ج ٤٦/١) .

كراهية أن يؤدي رسول الله ﷺ إن تحولت ، فزعهما وسقطت ثنيتيه الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين^(١) . وقيل : الذي نزعها عقبته بن وهب بن كلدانة^(٢) .

ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنها الدم عن وجه رسول الله ﷺ حتى أنقى الجرح ولاح أبيض ، فقال : « مُجَّة » ، فقال : لا والله لا أمجته أبداً ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَسَّ دَمَةَ دَمِي لَمْ تُصِبْهُ النَّارُ » ، ثم أدبر يقاتل ، فقال النبي ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » فاستشهد^(٣) .

- واستامت الصحابة الذين اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ في الدفاع عنه وحمايته ، كلهم يجيء حتى يجشوا أو يتقدم بين يديه ، ثم يقول : وجهي لوجهك الوقاء ، ونفسي لنفسك الفداء ، وعليك سلام الله غير مودع ، حتى تساقط منهم الكثير وأصابتهم الجراح وهم يقاتلون قتالاً بطولياً مريراً^(٤) .

- منهم أبو طلحة زيد بن سهل ، رضي الله عنه^(٥) ، فعن أنس ، رضي الله عنه ، قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مَجُوب^(٦) عليه بِحَجَفَةٍ^(٧) له ، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديداً النَّزَع^(٨) ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان الرجل يمر معه بِجَعْبَةٍ^(٩) من النَّبَل فيقول : « أَنْتُمْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ » ، قال : ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نخري دون نخرك^(١٠) .

وعنه أيضاً أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد ، والنبي خلفه يَتَرَس به ، وكان رامياً ، وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه ، ويرفع أبو طلحة صدره ويقول : هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا يصيبك سهم ، نخري دون نخرك ، وكان أبو طلحة يسوق نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ويقول : إني جلد يا رسول الله ، فوجهني في حوائجك ومزني بما شئت^(١١) . وكان رسول الله ﷺ يقول : « صَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الْجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ »^(١٢) .

- ومنهم أيضاً الحارث بن الصمة ، وسهل بن حنيف ، رضي الله عنهما ، فإيها بايعا النبي ﷺ على الموت ، وجعل سهل ينضح بالنبل عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « تَبَلَّوْا سَهْلًا فَإِنَّهُ سَهْلٌ » .

- وترس أبو دجانة ، رضي الله عنه ، بنفسه دون رسول الله ﷺ ، يقع النبل في ظهره وهو منحني على النبي ﷺ حتى امتلأ ظهره سهاماً وهو لا يتحرك ، غير مبال ما أصابه في سبيل الله .

- (١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤١٠/٣) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٢٠/٢) ، والمستدرک (ج ٢٦٦/٣ ، ٢٧٦) ، ومجمع الزوائد (ج ١١٢/٦) ، ومغازي الواقدي (ج ٢٤٠/١) .
- (٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٤٥/٣) .
- (٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٦/٣) .
- (٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤٦/٢) .
- (٥) هو زوج أم سلمة والدة أنس بن مالك رضي الله عنهم .
- (٦) مَجُوب : أي مترس عليه يقيه بها (النهاية : ج ٢١٧/١) .
- (٧) الحَجَفَةُ : التُّرْس . وقد تقدم .
- (٨) نَزَع في القوس نَزَع نَزَعاً : جَذَب الوتر بالسهم (لسان العرب : ج ٤٣٩/٦) .
- (٩) الجَعْبَةُ : وعاء السهام والنبال (الوسيط : ج ١٢٥/١) .
- (١٠) صحيح البخاري (ج ١٢٥/٥) كتاب المغازي - باب ﴿ إذ همت طائفتان منكم .. ﴾ .
- (١١) مسند الإمام أحمد (ج ٢٨٦/٣) .
- (١٢) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٣٥٢/٣) وقال : رواه عن آخرهم ثقات ، وأقره الذهبي .

- وقاتل عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، حتى أصيب فوه يومئذ فهتم^(١) ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها في رجله فعرّج .

- ودافع شماس بن عثمان ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، حتى قال ﷺ : « مَا وَجَدْتُ لِشَّمَّاسِ بْنِ عَثْمَانَ شَبَهًا إِلَّا الْجِنَّةَ » ، وكان رسول الله ﷺ لا يرمي ببصره يمينا ولا شمالا إلا رأى شماسا في ذلك الوجه يذّب بسيفه ، حتى غشي رسول الله ﷺ فترس بنفسه دونه حتى قتل .

- وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه - كما ذكرنا سابقا - ولم يزل يرمي عن قوسه حتى اندقت سيّتها^(٢) ، فأخذها قتادة بن النعمان ، رضي الله عنه ، فكانت عنده ، وكان قتادة يقف نُصْب وجه رسول الله ﷺ يقي وجهه الشريف بوجهه ، وأصيبت عينه يومئذ حتى وقعت على وجنته ، فردّها رسول الله ﷺ بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما^(٣) .

روي عن قتادة بن النعمان ، رضي الله عنه ، قال : أهدني إلى رسول الله ﷺ قوس ، فدفعها إليّ رسول الله ﷺ يوم أُحُد ، فرميت بها بين يدي رسول الله ﷺ حتى اندقت سيّتها ، ولم أزل على مُقامي نُصْب وجه رسول الله ﷺ ألقى السهام بوجهي ، كلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله ﷺ ميّلت رأسي لأقبي وجه رسول الله ﷺ بلا رمي أرميه ، فكان آخرها سهما نذرت منها حدّقتي بكفي ، فسعيت بها في كفي إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآها رسول الله ﷺ في كفي دمعت عيناه ، فقال : « اللَّهُمَّ ! إِنَّ قَتَادَةَ قَدْ أَوْجَعَتْ نَبِيكَ بِوَجْهِهِ ، فَاجْعَلْهَا أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وَأَحَدَهُمَا نَظْرًا » ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظرا^(٤) .

- وقاتلت أمّ عمارة نسّيب بنت كعب المازنية ، رضي الله عنها ، حتى جرحت اثني عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، وهي تدافع عن رسول الله ﷺ^(٥) ، فعن أمّ سعد بنت سعد بن الربيع قالت : دخلت على أمّ عمارة ، فقلت لها : يا خالة ! أخبريني خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعني سقاء فيه ماء ، فإنتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه ، والدؤولة والريح^(٦) للمسلمين ، فلما انهمز المسلمون انحزرت إلى رسول الله ﷺ ، فقامت أباشر القتال وأدبّ عنه بالسيف ، وأرمي عن القوس ، حتى خلصت الجراح إليّ . فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قميّة أمّاه الله ، لما ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول : دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأنا من ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضر بني هذه الضربة ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدوّ الله كانت عليه درعان^(٧) .

وفي رواية أنها خرجت يوم أُحُد وزوجها زيد بن عاصم^(٨) وابناها عبد الله وحبيب ولما جرح ابنها عبد الله بن زيد - وكان يقاتل دون رسول الله ﷺ ويذّب عنه - وراح الدم ينزف منه بغزارة من عضده اليسرى ، سعت أمّ عمارة ، وربطت جرحه بعصاية كانت قد أعدتها لمداواة الجرحى ، ثم قالت له : انض يا بني فضارب القوم ، فناداها رسول الله ﷺ قائلا : « وَمَنْ يُطِيقْ مَا تُطِيقِينَ يَا أُمَّ عَمَّارَةَ ! » ، ثم قال لأصحابه : « مَا أَلْتَمْتُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَأَنَا أَرَاهَا تُقَاتِلُ دُونِي » ، فسألته أمّ عمارة : ادع الله أن نرافقتك في الجنة ، قال : « اللَّهُمَّ ! اجْعَلْهُمْ رُفَقَائِي فِي الْجَنَّةِ » ، فقالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا^(٩) .

(١) هتمّ : تكسّرت ثناياها من أصلها (الوسيط : ج ٩٨١/٢) .

(٢) سيّة القوس : ما عطّفت من طرفيها (لسان العرب : ج ٢١٧٣/٣) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٥/٣ ، ٤٧١ ، ٥٠٩) ، وسيرة ابن هشام (ج ٢٠/٣ ، ٢١) ، وجمع الزوائد (ج ١١٢/٦) .

(٤) رواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ١١٣/٦) وقال : رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤١٢/٨ ، ٤١٣) .

(٦) الرّيح هنا : النّضّ والغلبّة (الوسيط : ج ٢٨٢/١) .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٢٩/٣) .

(٨) تزوّج أمّ عمارة بنت كعب زيد بن عاصم فولدت له عبد الله وحبيباً ، صحبا النبي ﷺ ، ثم خلف عليها غزيرة بن عمرو . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤١٢/٨) .

(٩) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤١٣/٨ - ٤١٥) .

- ومن أبلَى يومئذ وهب بن قاسبوس المزني وابن أخيه الحارث بن عتبة ، رضي الله عنهما ، فقد أقبلا ومعهما غنم لهما ، فدخلتا المدينة ، فلقياها قد خلت من الناس ، فقالا : أين الناس ؟ فقيل : بأحد ، فلحقا بهم ، وكانا ممن ثبت مع رسول الله ﷺ وقاتلا أشد القتال حتى قتلا ، ووجد في وهب يومئذ عشرون طعنة برمح كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومثّل به يومئذ أقبح المثّل ، فوقف عليه رسول الله ﷺ فقال : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ فَإِنِّي عَنْكَ رَاضٍ » ، ثم قام ﷺ على قدميه ، وقد ناله من الجراح ما ناله ، وإن القيام ليشقّ عليه ، فلم يزل قائماً حتى وُضع وهب في لُحْدِهِ ، عليه بُرْدَةٌ لها أعلام حُمْر ، فدنا رسول الله ﷺ البُرْدَةَ على رأسه فخمره وجعل الحُرْمَلُ (١) على رجليه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ . فكان عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص يقولان : فما حال موت عليها أحبّ إلينا من أن نلقى الله على حال المزني (٢) .

وعلى الرغم من بلاء المسلمين وقتالهم المستتيت في الدفاع عن نبيهم ﷺ ، فإنه لما اشتدت حملات المشركين على المسلمين وازدادت ضراوتهم ، وقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق قد حفرها للمسلمين ليقعوا فيها ، فأغى عليه ﷺ وجحشت (٣) ركبته ، فأخذ عليّ بيده ورفع طلحة حتى استوى قائماً (٤) .

النجياز النبي ﷺ بأصحابه نحو الجبل :

وبعد أن تمكن الصحابة الذين فاؤوا إلى رسول الله ﷺ من صد هجمات المشركين ، استطاع رسول الله ﷺ أن يشقّ الطريق إلى بقية المسلمين ، فأقبل إليهم ، فكان أول من عرفه - بعد انتشار شائعة مقتله - كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : عرفت عينيه الشريفتين تزهران (٥) من تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ! أبشروا ! هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه ﷺ أن اسكت ، قال كعب : ثم ألبسني رسول الله ﷺ لأمته وليس لأمتي ، فلقد ضربت حتى جرحت عشرين جراحة ، أو قال : بضعة وعشرين جرحاً ، كل من يضربني يحسبني رسول الله ﷺ ، وسرعان ما سمع المسلمون الصوت فأقبلوا إلى النبي ﷺ ، وهم ثلاثون رجلاً ، وعرفوه من تكفّته في مشيته (٦) ، وقد طلع بين السعديين ، فلما رآه حياً بين أظهرهم فرحوا حتى كأنه لم يصبهم ما أصابهم ، وهان عليهم ما فاتهم من التوم بعد الظهور عليهم والمصيبة التي أصابتهم في إخوانهم حين صرف الله القتل عن نبيهم ﷺ . ثم طلب إليهم ﷺ أن ينحازوا نحو جبل أحد ، وعندما أخذ رسول الله ﷺ يشقّ الطريق إلى شعب الجبل ، ومعه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص والحارث بن الصمة وكعب بن مالك وأبو دجانة وسهل بن حنيف ورهط آخرون ، سعى المشركون إلى عرقلة انسحابه ﷺ بالمسلمين ، واشتدوا في هجومهم عليهم ، فقد روي أنه أقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة على فرس أبلق وعليه لأمته كاملة قاصداً رسول الله ﷺ وهو متوجّه للشعب وهو يقول : لا نجوت إن نجيا ، فوقف رسول الله ﷺ ، فعثر بعثمان فرسه في بعض تلك الحفر ، ومشى إليه الحارث بن الصمة ، رضي الله عنه ، فاصطدما ساعة بسيفيهما ، ثم ضربه الحارث على رجله فبرك ، وذف عليه ، وأخذ درعه ومغفره ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي أحانته » (٧) .

وأقبل عبد الله بن جابر العامريّ يعدو ، فضرب الحارث على عاتقه فجرحه ، فاحتلمه أصحابه ، ووثب أبو دجانة إلى عبد الله فذبحه بالسيف ، ولحق برسول الله ﷺ .

(١) الحُرْمَلُ : بُنْتُ لَه حَبٌّ أَسْوَدٌ كَالْحُرْمَلِ (الوسيط : ج ١٦٩/١) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٧/٤) .

(٣) جَحِشَتْ : خُدِشَتْ . وقد تقدّم .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٩٧/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٢/٢) .

(٥) تَزْهَرَان : تَتَلَأَلَانٌ وَتَشْرِقَانِ (الوسيط : ج ٤٠٥/١) .

(٦) التَّكْفِي : التَّأْيِلُ إِلَى قَدَامٍ ، وقد تقدّم .

(٧) أحانته : أهلكته . وقد تقدّم .

وهكذا انهزم المشركون وفشلت محاولاتهم أمام بسالة المسلمين ، واستطاع الآخرون أن ينسحبوا مع رسول الله ﷺ إلى شعب الجبل . وأراد رسول الله ﷺ أن يعلو الصخرة التي في الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع ، لأنه ﷺ كان قد بَدَنَ (١) وظاهر بين درعين ، وأصابه ضعف لكثرة ما نزف دماً من جرحه ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنه ، فنهض به حتى استوى عليها ، فقال رسول الله ﷺ : « أُوجِبَ طَلْحَةَ » - أي : فعل شيئاً استوجب به الجنة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع (٢) .

روي عن عائشة وأم إسحاق ابنتي طلحة قالتا : ورسول الله ﷺ مكسورة رباعيته ، مشجوج في وجهه ، قد علاه العُشي ، وطلحة بن عبيد الله يحمله ، يرجع به القهقري ، كلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه حتى أَسْنَدَهُ (٣) إلى الشعب (٤) . ويروي أن رسول الله ﷺ قال له حينذاك : « هذا جبريل ، عليه السلام ، أخبرني أنه لا يراك يوم القيامة في هؤل إلا أتذك منك » (٥) .

وقد روي أنه ﷺ انطلق إلى الشعب حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة - أي الجماعة من الصحابة الذين علوا الصخرة لما انهزموا - فلما رأوه وضع رجل سهماً في قوسه فأراد أن يرميه ، فقال : « أنا رسول الله » ، ففرحوا بذلك ، وفرح رسول الله ﷺ حين رأى أن في أصحابه من يمتنع به (٦) .

مقتل أبي بن خلف :

فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد لا نجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله ! يعطيف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دَعُوهُ » - وفي رواية : فاعترضه رجال من المؤمنين ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « اسْتَأْخِرُوا ، اسْتَأْخِرُوا » ، فخلوا سبيله - فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة أو من الزبير أو غيره ، فلما أخذها انتفض بها انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الشعراء (٧) عن ظهر البعير إذا انتفض بها ، ثم استقبله ﷺ فطعنه في عنقه طعنه - وفي لفظ : في ترؤفوته من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة - تدأداً (٨) منها - أي : من الطعنة - عن فرسه مراراً ، وجعل يخور كما يخور الثور ، فاتاه أصحابه وهو يخور كالثور ، فاحتلوه وقالوا : ما نرى بك بأساً ، إنما هو خدش فما يجزعك ؟ قال : إنه قد استسقى الله دمي ، والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي الحجاز ماتوا أجمعين - وفي لفظ : إني لأجد لها مالو كانت على ربيعة ومضر لو سمعتهم أو لقتلتهم ، أليس قد كان قال لي بمكة « أنا أقتلك » ؟ وخبر ذلك أن أبي بن خلف كان يلتقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول : يا محمد ! إن عندي العوذ فرساً أعلفه كل يوم فرقاً (٩) من ذرة أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » . فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير فاحتقن الدم ، قال : قتلتني والله محمد ، قالوا له : ذهب والله

(١) بَدَنَ : أي كَبُرَ وَأَسَنَّ ، والبَادِنُ : الضَّخْمُ (النهاية : ج ١٠٧/١) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٦٨) ، والمستدرك (ج ٢/٢٩٦) ، وجمع الزوائد (ج ٦/١١٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٢/٥٢٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢/٢٧١) ، وسان الترمذي (ج ٥/٦٤٢) كتاب المناقب - باب مناقب طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ج ٢٧٢٨ ، والسيرة الحلبية (ج ٢/٢٣٦) .

(٣) أَسْنَدَ فِي الْجَبَلِ : رَقِيَ فِيهِ وَصَعِدَ (الوسيط : ج ١/٤٥٦) .

(٤) طبقات ابن سعد (ج ٣/٢١٧) .

(٥) جمع الزوائد (ج ٩/١٤٩) .

(٦) تاريخ الطبري (ج ٢/٥٢٠) .

(٧) الشعراء : ذباب أزرَق يصيب الدواب (لسان العرب : ج ٢٢٧٧/٣) .

(٨) قال ابن هشام : تدأداً : تَقَلَّبَ عَنْ فَرَسِهِ ، فجعل يترجرج (سيرة ابن هشام : ج ٣/٢٧٢) . وفي الوسيط (ج ١/٢٦٧) تدأداً عن فَرَسِهِ : تَدَخَّرَجَ وَسَقَطَ .

(٩) الفرق والقُرَى : مِكْيَالٌ ضَخْمٌ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ . وقد تقدّم .

فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : « أنا أقتلك » ، فوالله لو بصرني لقتلني ، فات عدو الله بصرني ، وهم قافلون به إلى مكة . وفيه أنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (١) الآية (٧) .

آخر هجوم قام به المشركون وتغشية النعاس المؤمنين :

وحاول المشركون - بعد أن استقر رسول الله ﷺ في الشعب - الالتفاف حول المسلمين كزة أخرى والانتفاض عليهم من جبل أحد ، إلا أن المسلمين رموه بالحجارة وقتلوه حتى فشلوا وارتدوا على أعقابهم .

روى ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرها أنه بينما رسول الله ﷺ بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه إذ علت عالية من خيل قريش الجبل ، يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد ، فاغتم المسلمون لذلك ، وقال رسول الله ﷺ : « اللهم ! إنه لا ينبغي لهم أن يعلمونا ، اللهم ! إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض » ، ثم ندب أصحابه ، فتصدى لهم عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين ، فقاتلوه ورموه بالحجارة حتى أهبطوهم من الجبل (٣) .

وفي بعض الروايات أنه ﷺ قال لسعد : « أرؤدوهم » ، قال : كيف أرؤدوهم وحدي ؟ فقال له : « أرؤدوهم » ، قال سعد رضي الله عنه : فأخذت سهماً من كنانتي فرميت به رجلاً منهم فقتلته ، ثم أخذت سهماً فإذا هو سهمي الذي رميت به ، فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذت سهماً آخر فإذا هو سهمي الذي رميت به ، فرميت به آخر فقتلته ، فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فكان عندي في كنانتي لا يفارق كنانتي ، وكان بعده عند بنييه (٤) .

ثم أنزل الله سبحانه النعاس أمتة منه على المسلمين ، حين اشتد عليهم الخوف ، فسا منهم أحد إلا وذقنه في صدره ، حتى أن حجبهم لتنتطح في أيديهم ، والعدو تحتهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٥) .

روى البخاري بسنده عن أبي طلحة ، رضي الله عنه ، قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وأخذه ، ويسقط فأخذه (٦) .

وأما المنافقون فلم يكن لهم هم إلا أنفسهم ، فقعدها يتلاومون ويتحسرون على ما أصابهم ، وذلك أنهم لا يرجون عاقبة ، فأنزل الله ، عز وجل ، في ذلك : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ... يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا ﴾ (٧) إلى آخر القصة (٨) .

(١) الأنفال : ١٧ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤/٢٦) ، والمستدرک (ج ٢/٢٢٧) ، وتاريخ الطبري (ج ٢/٥١٨) ، وكنز العمال (ج ٤٣٩/١٠) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٣٥) ، وصحيح مسلم (ج ٢/١٢٦٢) كتاب الجهاد والسير - باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو ج ٢٣ ، وتاريخ الطبري (ج ٢/٥٢١) .

(٤) السيرة الحلبية (ج ٢/٢٣٧) .

(٥) آل عمران : ١٥٤ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٦٨) ، وسنن الترمذي (ج ٥/٢٢٧) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة آل عمران ح ٣٠٠٧ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢/٦٢٦) .

(٦) صحيح البخاري (ج ٥/١٢٧) كتاب المغازي - باب ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم ... ﴾ .

(٧) آل عمران : ١٥٤ .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/١٤٤) و (ج ٣/٦٨) ، وسنن الترمذي (ج ٥/٢٣٠) ح ٣٠٠٨ .

روي عن الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، قال : والله إني لأسمع قول مُعْتَب بن قَشِير أَخِي بني عمرو بن عوف ، والنعاس يغشاني ، ما أسمع إلا كالحلم حين قال : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا^(١) .

مداواة جراح النبي ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ قد عطش عطشاً شديداً ، حتى جعل يقع على ركبتيه ، فلما انتهى إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، حتى ملأ درقته ماء من المهراس ، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحاً فعافه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : « اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَى وَجْهَ نَبِيِّهِ » ﷺ .

ومالئ محمد بن مسلمة ، رضي الله عنه ، أن جاء بماء عذب فشرب منه رسول الله ﷺ ودعا له بخير . وصلى النبي ﷺ يومئذ الظهر قاعداً من أثر الجراح التي أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً .

وكانت فاطمة بنت النبي ﷺ قد خرجت من المدينة - بعد أن انتهت المعركة - في نساء من المهاجرات والأنصار يحملن على ظهورهن الماء والطعام ، فلما لقيت فاطمة أباهما اعتنقته ، وجعلت تغسل جراحاته ، وعلي يسكب الماء باليخن ، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة ، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ، ثم ألصقتها بالجرح ، فاستمسك الدم .

وكان في هؤلاء النسوة أم سليم وأم سليط والدة أبي سعيد الخدري^(٢) ، وأم أيمن ، وعائشة ، وحننة بنت جحش رضي الله عنهم . فكن يسقين الماء ويداوين الجرحى^(٣) .

روي البخاري بسنده عن أنس ، رضي الله عنه ، قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمترتان ، أرى خدَم سَوْقِهَا ، تَنْقِرَانِ الْقَرْبَ^(٤) عن مَتُونِهَا تَفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ، ثم ترجعان فتملأنا ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم^(٥) .

وروى بسنده عن الربييع بنت معوذ قالت : . كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، فنسقي القوم ونخدمهم ، ونزود الجرحى والقتلى إلى المدينة^(٦) .

وروى بسنده عن ابن شهاب قال ثعلبة بن أبي مالك : إن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قسم مَرُوطاً^(٧) بين نساء من نساء أهل المدينة ، فبقي مرط جيد ، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ! أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر : أم سليط أحق وأم سليط من نساء الأنصار ، من بايع رسول الله ﷺ قال عمر : فإنها كانت تزفر^(٨) لنا القرب يوم أحد^(٩) .

وكانت أم أيمن يوم أحد في المدينة فلما رأت فلول المسلمين قد دخلوا المدينة جعلت تحثو التراب في وجوههم - كما تقدم - ثم خرجت مسرعة إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقي العطشى وتداوي الجرحى ، فرماها حيان بن العرقه بسهم ، فوقع وتكشفت ،

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢/٦٢٦) .

(٢) كانت أم سليط زوجاً لأبي سليط ، مات عنها قبل الهجرة ، فتزوجها مالك بن سنان ، فولدت أبا سعيد (فتح الباري : ج ٧/٣٦٧) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٣٤ ، ٣٦) ، وكنز العمال (ج ١٠/٤٣٩) ، وصحيح البخاري (ج ٥/١٣٠) كتاب المغازي - باب ما أصاب النبي ﷺ من

الجراح يوم أحد ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣/٢١٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٢/٢٣٦) .

(٤) تَنْقِرَانِ الْقَرْبِ : أي تحملائها وتفقزها بها وثباً (النهاية : ج ٥/١٠٧) .

(٥) صحيح البخاري (ج ٥/١٢٥) كتاب المغازي - باب غزوة أحد .

(٦) صحيح البخاري (ج ٤/٤١٧) كتاب الجهاد والسير - باب رد النساء الجرحى والقتلى .

(٧) المَرُوطُ : جمع مرط : كساء من خز أو صوف أو كتان يُؤْتَرُّ بِهِ وَتَتَلَفَعُ بِهِ الْمَرَأَةُ (الوسيط : ج ٧/٨٧١) .

(٨) تَزْفُرُ : تَحْمِلُ (الوسيط : ج ١/٣٩٦) .

(٩) صحيح البخاري (ج ٤/٤٠٤) كتاب الجهاد والسير - باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو .

فأغرق عدو الله ، في الضحك ، فشَقَّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لانصل له وقال : « ارم به » ، فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حَبَّان ، فوقع مستلقياً حتى بدت عورته ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « اسْتَقَادَ لَهَا سَعْدٌ ، أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ » (١) .

المُثَلَّةُ بالمسامين وبحمزة رضي الله عنه :

ولما أدرك المشركون أن دون إبادة المسلمين المستحيل ، وكانوا قد أصابهم التعب والجراح آثروا الانسحاب ، وأخذوا يتهيؤون للرجوع إلى مكة ، واشتغل من اشتغل منهم ؛ الرجال والنساء بقتلى المسلمين يمثّلون بهم ؛ يقطعون الأذان والأنوف والفروج ، ويبقرون (٢) البطون ، وهم يظنّون أنهم أصابوا رسول الله ﷺ وأشرف أصحابه .

واتخذت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان من أذان الرجال وأنوفهم خدماً وقلائد ، وأعطت خدَمها وقلائدَها وقُرطها وحشياً ، وبقرت عن كبد حمزة ، رضي الله عنه ، فلاكتها - أي : مضغتها ، فلم تستطع أن تُسبغها - أي : تبتلعها ، فلفظتها . وكانت قد نذرت إن قدرت على حمزة لتأكل من كبده ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أَأَكَلْتِ مِنْهُ شَيْئاً ؟ » قالوا : لا ، فقال : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ شَيْئاً مِنْ حِمَزَةِ النَّارِ » ، ثم علّت على صخرة مشرفة ، فصرخت بأعلى صوتها فقالت أحياناً تتشقى فيها من المسلمين .

وفي رواية : أن وحشياً هو الذي بقر بطن حمزة وأخرج كبده ، فاحتلها إلى هند بنت عتبة في نذر نذرته حين قُتل أباه يوم بدر ، فأعطته حَلِيها .

ولم يترك المشركون قتيلاً إلا مثّلوا به ، إلا حنظلة بن أبي عامر ، كان أبوه من المشركين ، فترك له . ومن مثّلوا به يومئذ عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، رضي الله عنهما ، فجدعوا أنفه وأذنه .

وكان خارجة بن زيد ، رضي الله عنه ، قد أخذته الرماح ، ففجرح بضعة عشر جرحاً ، فرّ به صفوان بن أمية فعرفه ، فأجهز عليه ومثّل به وقال : هذا من أغرى بأبي يوم بدر ، الآن حيث شَقَّيت نفسي حين قتلت الأمثال (٣) من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوئل ، وقتلت ابن أبي زهير ، يعني خارجة بن زيد ، وقتلت أوس بن أرقم .

ومن مثّل به أيضاً كما مثّل بحمزة عبد الله بن جحش ، رضي الله عنهما ، إلا أنه لم يبق عن كبده (٤) .

شهادة أبي سفيان وصنيعه بحمزة رضي الله عنه :

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل فقال : أفي القوم محمد ؟ ثلاث مرات ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا تُجِيبُوهُ » ، فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ ثلاث مرات قال : « لَا تُجِيبُوهُ » ، فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثلاث مرات ، ثم التفت أبو سفيان إلى أصحابه ، فقال : أمّا هؤلاء فقد قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه ، فقال : كذبت يا عدو الله ، فقد أبقى الله عليك ما يزيك - وفي لفظ : إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد بقي لك ما يسووك - فقال : اغلّ هَبْلُ (٥) .

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٥/٨) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٧/٢) .

(٢) بَقَرَ الشَّيْءَ بَقْرًا : شَقَّهُ وَوَسَّعَ شَقَّهُ (الوسيط : ج ٦٥/١) .

(٣) الأُمَاتِلُ : جَمْعُ مَثِيلٍ ، وَهُوَ الْقَاضِلُ (لسان العرب : ج ٤١٣٤/٦) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤١٣/٣ ، ٤٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٣/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٣/٣ ، ١٢ ، ٥٢٥) ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٤٦٣/١) .

(٥) أي أظهر دينك أو زد علواً ، أو ليرتفع أمرك ويعز دينك ، فقد غلبت . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٥/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٤٨٢) .

وسبب قول أبي سفيان ذلك أنه كان حين أراد الخروج إلى أحد استقسم بالأزلام عند هبل ، فخرج سهم نعم ، الذي يجب ، فتوجه إلى أحد .

فلما قال : اغل هبل ، قال رسول الله ﷺ : « أجيبوه » ، فقالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » ، فقالوا : الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « أجيبوه » ، قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا : الله مؤلانا ولا مؤلى لكم » - وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال : « قم يا عمر فأجبه » ، فلما أجابه صرخ أبو سفيان بأعلى صوته : أنعمت فقال^(١) ، إن الحرب سجال^(٢) ، يوم أحد بيوم بدر - وفي لفظ : يوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة^(٣) ، وفلان بفلان - فقال عمر : لا سواء ؛ قتلانا في الجنة وقتلناكم في النار - وفي رواية : أما قتلانا فأحياء يرزقون وقتلناكم في النار يعدون - ثم قال أبو سفيان : هللم إلي يا عمر ، فقال له رسول الله ﷺ : « أئته ، فانظر ما شأنه ؟ » فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسع كلامك الآن ، فقال : أنت أصدق عندي من ابن قميّة وأبر ، لقول ابن قميّة لهم : إني قد قتلت محمداً .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلاكم مثل ، والله ما رضيت وما سخطت ، وما نهيت وما أمرت - وفي رواية : ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا ، ثم أدركته حية الجاهلية فقال : أما إنه إذ كان ذلك لم نكرهه .

وقد كان الحليّس بن زبّان أخو بني الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيّد الأحابيش ، قد مرّ بأبي سفيان وهو يضرب في شدة حمزة بن عبد المطلب بزجّ الرمح ، ويقول : دقّ عقق^(٤) ، فقال الحليّس : يا بني كنانة ! هذا سيّد قريش يصنع بآبن عمّه ماترون لحم^(٥) ، فقال : ويحك ! اكتبها عني فإنها كانت زلة^(٦) .

مواعدة التلاقي في بدر :

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر على رأس الحوّل ، حيث قتلتم أصحابنا ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب : « قل نعم إن شاء الله ، هو بيننا وبينك موعد » ، فافترق الناس على ذلك^(٧) .

بعث النبي ﷺ عليّاً رضي الله عنه في آثار قريش :

فلما علم المشركون أن رسول الله ﷺ وأشراف أصحابه أحياء كتبهم الله فانكفروا إلى أئقاهم^(٨) ، ولا يدري المسلمون ما يريدون ، فلما أدبروا بعث رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب ، وقيل : سعد بن أبي وقاص ، فقال : « اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل^(٩) وامتنطوا الإبل^(١٠) فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم

(١) أنعمت فقال : أي اترك ذكرها فقد صدقت في فتواها - أي الأزلام - وأنعمت : أي أجابت بتعم (النهاية : ج ٨٤/٥) .

(٢) سجال : أي مرة لنا ومرة علينا (النهاية : ج ٣٤٤/٢) .

(٣) كان حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر .

(٤) دقّ عقق : أراد دقّ القتل يا عاق قومك كما قتلت يوم بدر من قومك - يعني كفار قريش (النهاية : ج ٢٧٧/٢) .

(٥) لحم : صرته وأصاب لحمه ، واللحم : القليل (لسان العرب : ج ٤٠١١/٥) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٤/٣ ، ٤٥) ، وصحيح البخاري (ج ٨٠/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما يكره في التنازع والاختلاف في الحرب ، و (ج ١٢١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة أحد ، والمستدرک (ج ٢٩٧/٢) ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٤٦٣/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٥/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٩/٢) .

(٨) أنكفأ : رجع (لسان العرب : ج ٣٨٩٤/٥) ، والأثقال : جمع قفل وهو متاع المسافرين (لسان العرب : ج ٤٩٢/١ - ٤٩٤) .

(٩) جنب الفرس : فاده إلى جنبه (لسان العرب : ج ٦٩١/١) .

(١٠) أي ركبوا ظهورها . انظر : (لسان العرب : ج ٤٢٢٧/٦) .

يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكُنْ أَرَادُوهَا لِأَسِيرِنَّ إِلَيْهِمْ فِيهَا ثُمَّ لَأَنجِزَنَّهَمْ . قال عليّ أو سعد بن أبي وقاص : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنّبوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، بعد أن تشاوروا في نهب المدينة ، فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا تفعلوا وقال لهم : فإنكم لا تدرّون ما يغشاكم .

وقد كان رسول الله ﷺ قال لعليّ حين بعثه : « أَيُّ ذَلِكَ كَانَ فَأَخْبِهِ حَتَّى تَأْتِيَنِي » ، قال عليّ رضي الله عنه : فلما رأيتهم قد توجهوا إلى مكة أقبلت أصيح ؛ ما أستطيع أن أكتم الذي أمرني به رسول الله ﷺ لما بي من الفرح ؛ إذ رأيتهم انصرفوا إلى مكة (١) .

تفقد المسلمين قتلاهم :

ولما انصرفت قريش إلى مكة طابت أنفس المسلمين لذهابهم ، وانتشروا يتفقدون قتلاهم ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ أَفِي الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ ؟ فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ وَقَدْ شَرَعْتُ فِيهِ اثْنَا عَشَرَ سِنَانًا » ، فقال رجل من الأنصار هو أبيّ بن كعب أو محمد بن مسلمة أو زيد بن ثابت (٢) : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد ، قال : « إِنْ رَأَيْتَهُ فَأَقْرُبْهُ مِنِّي السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » ، فجعل يطوف بين القتلى ، فأناه ، فوجده جريحاً وهو في آخر رمق ، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم ، فقال له : إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرني كيف تجدك ، وقد أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ - وفي رواية أن محمد بن مسلمة أو أبيّ بن كعب نادى في القتلى : يا سعد بن الربيع ، فلم يجبه حتى قال : إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك ، فأجابه بصوت ضعيف - قال : أنا في الأموات ، وأجدي أجد ريح الجنة ، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام ، وقل له : جزاك الله عناً خيراً ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ ومنكم عين تطرف . قال : ثم لم أبرح حتى فاضت نفسه ، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « رَحِمَهُ اللَّهُ ، نَصَحَ اللَّهُ وَالرَّسُولَ حَيًّا وَمَيِّتًا » ثم استقبل القبلة ورفع يديه يقول : « اللَّهُمَّ ! أَلْقِ سَعْدَ بْنَ الرَّبِيعِ وَأَنْتَ عَنَّهُ رَاضٍ » .

وخلف سعد بن الربيع بنتين ، فأعطاها رسول الله ﷺ من ميراثه الثلثين . ودخلت بنت له على أبي بكر ، رضي الله عنه ، فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه ، فدخل عليه عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال : يا خليفة رسول الله ! من هذه ؟ قال : هذه بنت من هو خير مني ومنك ، رجل قبض على عهد رسول الله ﷺ وبقيت أنا وأنت (٣) .

قال ابن هشام : وحدثني أبو بكر الزبيري أن رجلاً دخل على أبي بكر الصديق وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره ، يرشّفها ويقلّبها ، فقال له الرجل : من هذه ؟ قال : هذه بنت رجل خير مني سعد بن الربيع ، كان من النقباء يوم العقبة ، وشهد بدرًا ، واستشهد يوم أحد (٤) .

- وخرج رسول الله ﷺ يلتبس حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، وجعل يقول : « مَا فَعَلَ عَمِّي ؟ مَا فَعَلَ حَمْرَةَ ؟ » فقال له رجل : رأيته عند تلك الشجرة وهو يقول : أنا أسد الله وأسد رسوله ، فخرج الحارث بن الصمة في طلبه ، فأبطأ ، فخرج علي بن أبي طالب ، حتى انتهى إلى الحارث فوجده ووجد حمزة مقتولاً ، فرجعا فأخبرا النبي ﷺ ، فسار نحو حمزة ، فوجده بينن الوادي قد بقّر بطنه عن كبده ، ومثّل به فجذع أنفه وأذناه ، فرأى رسول الله ﷺ منظرًا لم ير منظرًا قطّ أوجع لقلبه منه ولا أوجع ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٥/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٢/٣) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٢٨/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٤٥/٢) .

(٢) لعلّ النبي ﷺ أرسلهم كلهم متعاقبين أو دفعة واحدة .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٦/٣) ، والمستدرک (ج ٢١٠/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٢٢/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٢/٣) ، ومغازي

الواقدي (ج ٢٩٢/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٤٥/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٣١٠/٩) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٤٦/٣) .

فبكى حتى شهق ، وقال : « لَنْ أَصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَدًا ، مَا وَقَفْتُ مُوقِفًا قَطُّ أُعْطِظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا » ، ثم قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، قَدْ كُنْتُ وَصُولًا لِلرَّحِيمِ ، فَعَوْلًا لِلْخَيْرَاتِ ، وَلَوْلَا حُزْنٌ مِنْ بَعْدِكَ عَلَيْكَ لَسَرَّيْتُ أَنْ أَدْعَكَ حَتَّى تُحْشَرَ مِنْ بَطُونِ شَتَّى » - وفي رواية قال : « لَوْلَا أَنْ تُحْزَنَ صَفِيَّةٌ وَتَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْتُكَ حَتَّى يَكُونَ فِي بَطُونِ السَّبَاعِ وَخَوَاصِلِ الطَّيْرِ » - ونزل جبريل عليه السلام ، فقال : إن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع وأسد الله وأسد رسوله ، ثم حلف ﷺ وهو واقف مكانه : « وَاللَّهِ لَأُمْتَلِنَ بِسَبْعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ مَكَانَكَ » - وفي رواية قال : « أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مُوطِنٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ لَأُمْتَلِنَ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ » .

ولما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على مَنْ فعل بعمته ما فعل ، ورأوا تمثيل المشركين بقتلامه ، قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنتلن بهم مثله لم يمثلهما أحد من العرب - وفي رواية : قالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً من الدهر لنتريين^(١) عليهم - فأنزل الله ، عز وجل ، في ذلك من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾^(٢) . ويقال : إن هذه الآيات نزلت والنبي ﷺ واقف في مكانه لم يبرح^(٣) . فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة ، وكفر عن يمينه ، وأمسك عما أراد^(٤) .

روي عن سَرة بن جُنْدَب ، رضي الله عنه ، قال : ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقته حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة^(٥) .

وأمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام أن يرجع أمه صفيّة أخت حمزة رضي الله عنها ، عن رؤيته ، فقال لها : يا أمّه ! إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي ، فدفعت في صدره وقالت : لا أم لك ، ولم ، وقد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله ؟ فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ، فجاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك : فقال : « خَلِّ سَبِيلَهَا » ، فأتته فنظرت إليه ، فصلت عليه ، واسترجعت واستغفرت له . وفي رواية : أنها أقبلت تطلب حمزة لاتدري ما صنع ، فلقيت علياً والزبير ، فقالت لها : ما فعل حمزة ؟ فأريهاها أنها لا يدريان ، رحمة بها ، فجاءت النبي ﷺ ، فقال : « إِنِّي أَخَافُ عَلَى عَقْلِيهَا » ، فوضع يده على صدرها ، ودعا لها ، فاسترجعت وبكت^(٦) .

- وكان ممن قُتل يومئذ عبد الله بن جحش ، رضي الله عنه ، قتله أبو الحَكَم بن الأَخْنَس بن شَرِيْق^(٧) ، فعن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، أن عبد الله بن جحش قال يوم أحد : ألا تأتي ندعو الله ؟ فخلوا في ناحية ، فدعا سعد فقال : يارب ! إذا لقينا القوم غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه ، شديداً حرّه^(٨) ، فأقاتله فيك ويقاتلني ، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله وأخذ سلبه . فقام عبد الله بن جحش ، ثم قال : اللهم ! ارزقني غداً رجلاً شديداً حرّه ، شديداً بأسه ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيت غداً قلت : يا عبد الله ! فيم جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك ، فتقول : صدقت . قال سعد بن

(١) أي لنتريدن ولنضاعفن (لسان العرب : ج ١٥٧٢/٢) .

(٢) النحل : ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) وقيل : إن هذه الآيات نزلت يوم فتح مكة لما نادى رجل من الأنصار : لا قرئ بعد اليوم فنزلت ، وجمع بعضهم بين الرويتين بأنها نزلت بأحد ، ثم يوم الفتح تذكرياً من الله لعباده . انظر : (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية : ج ٥٧/٢) ، وسنن الترمذي (ج ٢٩٩/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة النحل ح ٣١٢٩ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٧/٣) ، والمستدرک (ج ٣٥٩/٢) ، و (ج ١٩٧/٣ ، ١٩٩) ، وسنن أبي داود (ج ٤٩٩/٣) كتاب الجنائز - باب الشهيد يغسل ح ٣١٣٦ .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٤٨/٣) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٨/٣) ، والمستدرک (ج ١٩٧/٣) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٩١/٣) .

(٨) الحرّ : الغيظ والغضب (لسان العرب ٨٢٤/٢) .

أبي وقاص : يا بُنيّ ! كان دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي ، لقد رأيتُه آخر النهار وإنّ أذنه وأنفه لمعلقان في خيط^(١) . وفي رواية أنه قال قبل أحد : اللهم ! إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً ، فيقتلونني ويبقروا بطني ويمدعوني ، فإذا قلت لي : لم فعل بك هذا ؟ فأقول : اللهم فيك^(٢) .

- ووجد في القتلى عمرو بن الجموح ، رضي الله عنه ، وكان رجلاً أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يوم أحد . أرادوا حبسه وقالوا له : إن الله عز وجل ، قد عذرك ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقال : إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك » ، وقال لبنيه : « ما عليكم أن لا تمنعوه ، لعل الله أن يرزق الشهادة » . فأخذ بسلاحه وولى ، فلما ولى أقبل على القبلة وقال : اللهم ارزقني الشهادة ، ولا تردني إلى أهلي خائباً ، فقتل يوم أحد ، وقتل معه ابنه خلاد ، ومولاه أمين ، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال : « كأنني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة » . ويروى أنه قال : « والذي نفسي بيده ! إن منكم من لو أقتم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح ، ولقد رأيتُه يطأ في الجنة بعرجته »^(٣) .

- وكان عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، رضي الله عنها ، أول قتيل قتل من المسلمين يوم أحد ، قتله سفيان بن عبد شمس أبو أبي الأعور السلميّ قبل الهزيمة . وكان رأى في نومه قبل أحد مبشّر بن عبد المنذر يقول له : أنت قادم علينا في الأيام ، فقال له عبد الله : وأين أنت ؟ قال : في الجنة نسرح فيها كيف نشاء ، قال : ألم تقتل يوم بدر ؟ فقال : بلى ، ثم أحييت . فذكر عبد الله ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « هذه الشهادة يا أبا جابر » . فلما خرج عبد الله إلى أحد قال لابنه : لا عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا ، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي^(٤) .

روى البخاري بسنده عن جابر ، رضي الله عنه ، قال : لما حضر أحد دعاني أبي من الليل ، فقال : ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ ، وإني لأترك بعدي أعز عليّ منك غير نفس رسول الله ﷺ ، فإن عليّ ديناً فاقض واستوص بأخواتك خيراً ، فأصبحتنا ، فكان أول قتيل^(٥) .

وروى عنه أيضاً قال : لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكي ، وينهوني عنه ، والنبي ﷺ لا ينهاني ، فجعلت عمتي فاطمة تبكي ، فقال النبي ﷺ : « تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظلمة بأجنتها حتى رفعتنوه »^(٦) .

- ووجدوا في الجرحى الأصيرم عمرو بن ثابت بن وقش ، وكان يأبى الإسلام على قومه بني عبد الأشهل ، فلما كان يوم خروج النبي ﷺ إلى أحد بدا له في الإسلام ، فأسلم ، ثم أخذ سيفه ولبس لأمته وركب فرسه ، فعدا حتى دخل في عرض الناس ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتسون قتلاهم في المعركة ، إذا هم به ، فقالوا : والله إن هذا الأصيرم ، فسألوه ما جاء بك يا عمرو ؟ أهدب على قومك ، أم رغبة في الإسلام ، فقال : بل رغبة في الإسلام ، أمنت بالله وبرسوله ﷺ ، ثم جئت وقاتلت حتى أصابني ما أصابني ، ثم لم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله ﷺ ، فقال : « إني لمن أهل الجنة » .

وقيل : إنه لما رآه المسلمون قد لحق بهم ، قالوا : إليك عنّا يا عمرو ، فقال : إني قد أمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحاً ، فجاهه سعد بن معاذ ، فقال لأخته : سليه حمية لقومك ، أو غضباً لهم ، أم غضباً لله ؟ فقال : بل غضباً لله ولرسوله ، فات ،

(١) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢/٧٦) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٣/٩٠) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٤٠) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٥/٢٩٩) ، والمستدرک (ج ٣/٢٠٥) ، وعيون الأثر (ج ٢/١٧٧) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣/٥٦٢) ، والمستدرک (ج ٣/٢٠٤) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣/٢٩٧) .

(٥) صحيح البخاري (ج ٢/١١٦) كتاب الجنائز - باب هل يخرج الميت من القبر واللحد للعلمة .

(٦) صحيح البخاري (ج ٢/٩١) كتاب الجنائز - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفته .

فدخل الجنة وما صلى من صلاة ، فقال النبي ﷺ : « عَمِلَ هَذَا يَسِيرًا وَأَجْرٌ كَثِيرًا » . وكان أبو هريرة ، رضي الله عنه ، يقول : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط ، فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو ؟ فيقول : أصيرم^(١) .

- ووجدوا في الجرحى يزيد بن حاطب بن أمية ، فحمل إلى دار قومه وهو بالموت ، فاجتمع إليه أهل الدار ، فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء : أبشر يا ابن حاطب بالجنة ، وكان حاطب شيخاً قد عسا في الجاهلية ، فنجم^(٢) يومئذ نفاقه ، فقال : بأي شيء تبشرونه ؟ أجنة من حرمل ؟! غرتم والله هذا الغلام من نفسه^(٣) .

- ووجد في الجرحى أيضاً قزمان ، وكان رجلاً أتياً^(٤) لا يدري من هو ، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له : « إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ » . قال عاصم بن عمر بن قتادة : فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس ، فأثبتته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظفر ، قال : فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت ، قال : فلما اشتدت عليه جراحته ، أخذ سهماً من كنانته ، فقتل به نفسه^(٥) .

- وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق ، رجل من يهود بني نعلبة بن الفطيريق ، وكان مخيريق حرباً عالماً ، غنياً كثير الأموال ، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان يوم أحد ، وكان يوم أحد يوم السبت ، قال : يا معشر يهود ! والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق (وذلك لوجود صحيفة معاهدة بينهم وبين رسول الله ﷺ أن يدافعوا مع المسلمين عن يثرب إذا هاجمها عدو) ، فاعتذروا وقالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم ، فأخذ سيفه وعدته ، وعهد إلى من وراءه من قومه إن أصبت فإني لأصنع فيه ما شاء ، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل ، فقال رسول الله ﷺ : « مُخَيْرِيقُ خَيْرُ يَهُودٍ » . وقبض رسول الله ﷺ أمواله وتصدق بها^(٦) .

- مقتل المجذّر بن ذِياد وقصته مع الحارث بن سُوَيْد :

ومن قتل يومئذ المجذّر بن ذِياد البَلَوِيُّ ، قتله الحارث بن سُوَيْد بن الصّامِت ، بأبيه سُوَيْد . وكان الحارث بن سُوَيْد منافقاً لم ينصرف مع عبد الله بن أبيّ حين انصرف عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، فلما التقى الناس عدا على المجذّر بن ذِياد وقيس بن زيد أحد بني ضُبَيْعَة ، فقتلها غيلةً ، ثم لحق بمكة بقريش ، وكان رسول الله ﷺ قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به ، ففاته ، فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه الجلاس بن سُوَيْد يطلب التوبة ليرجع إلى قومه ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ ﴾^(٧) .

فبينما رسول الله ﷺ يوماً في نفر من أصحابه ، إذ خرج الحارث بن سُوَيْد من بعض حوائط المدينة ، فأمر به رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فضرب عنقه .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٣٩) ، وصحيح البخاري (ج ٤/٢٤) كتاب الجهاد والسير - باب عمل صالح قبل القتال ، وصحيح مسلم (ج ٣/١٥٠٩) كتاب الإمارة - باب ثبوت الجنة للشهيد ح ١٤٤ ، وسنن أبي داود (ج ٣/٤٢) كتاب الجهاد - باب فمن يسل ويقتل مكانه في سبيل الله عز وجل ح ٢٥٢٧ .

(٢) عَسَا : كَبُرَ وَأَسَنَّ . وَقَد تَقَدَّمَ . وَنَجَمَ : ظَهَرَ وَبَدَأَ (الوسيط : ج ٢/٩١٧) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٧) .

(٤) الْأَتِيُّ : الْغَرِيبُ الدَّعِيُّ (الوسيط : ج ١/٥٨) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٧) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/١٤٠) و (ج ٣/٢٨) .

(٧) آل عمران : ٨٦ .

ويقال إنه لما رجع النبي ﷺ من حراء الأسد ، أتاه جبريل عليه السلام ، فأخبره أن الحارث بن سويد قتل مُجَدَّر بن زياد غيلة ، وأمره بقتله ، فركب رسول الله ﷺ إلى قباء ، فلما رآه دعا عَوَيْمَ بن ساعدة فقال : « قَدِمَ الحارِثُ بنَ سَويدِ إلى بابِ المُسجِدِ فأضربَ عُنُقَهُ بِالْمَجْدَرِ بنِ ذِيادٍ فَإِنَّهُ قَتَلَهُ يَوْمَ أُحُدٍ غِيلَةً » ، فأخذه عَوَيْمُ ، فقال الحارث : دَعْنِي أَكَلِمَ رسولِ الله ﷺ ، فأبى عليه عَوَيْمُ ، فجاوزه يريد كلام رسول الله ﷺ ، ونهض رسول الله ﷺ يريد أن يركب ، فجعل الحارث يقول : قد والله قتلته يا رسول الله ، والله ما كان قتلي إِيَّاه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه ، ولكنه حَمِيَّةُ الشيطان ، وأمر وَكَيْلَت فيه إلى نفسي ، فإني أتوب إلى الله ، عز وجل ، وإلى رسول الله ، وأخرج دَيْتَهُ وأصوم شهرين متتابعين ، وأتق رغبة ، وأطعم ستين مسكيناً ، إني أتوب إلى الله ، وجعل يمسك بركاب رسول الله ﷺ ، وبنو مُجَدَّر حضوراً لا يقول لهم رسول الله ﷺ شيئاً ، حتى إذا استوعب كلامه ، قال : « قَدِمْتُمَا يَا عَوَيْمُ فَأضربَ عُنُقَهُ » ، فضرب عنقه .

وفي رواية : أنه لما أمر رسول الله ﷺ عَوَيْمًا بضرب عنقه ، قال الحارث : عم يا رسول الله ؟ فقال : « بِقَتْلِكَ الْمَجْدَرُ بنَ ذِيادٍ وَقَيْسُ بنَ زَيْدٍ » . فارجعه الحارث بكلمة (١) .

جمع الشهداء ودفنهم :

ولما أشرف رسول الله ﷺ على القتلى ، قال : « أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ ، إِنَّهُ مَآ مِنْ جَرِيحٍ يُجْرَحُ فِي اللَّهِ إِلَّا وَاللَّهُ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى جُرْحُهُ ؛ أَلَلُّونَ كَوْنُ دَمٍ ، وَالرَّيْحُ رِيحٌ مِسْكِ » (٢) .

روي عن أبي النضر أنه لما قال رسول الله ﷺ لشهداء أحد : « هَؤُلَاءِ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ » ، قال أبو بكر الصديق : ألسنا يا رسول الله إخوانهم ، أسلمنا كما أسلموا وجاهدنا كما جاهدوا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بَلَى ، وَلَكِنْ لَأَذْرِي مَا تَحْدِثُونَ بَعْدِي » ، فبكى أبو بكر ، ثم بكى ، ثم قال : أئنا لكائون بعدك ؟

وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر أصحاب أحد قال : « وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي عَوَدْتُ مَعَ أَصْحَابِي بِحِصْنِ الْجَبَلِ » .

وأمر رسول الله ﷺ بقتلى أحد أن ينزع عنهم الحديد والجلود ، وأن يدفنهم حيث صرعوا بدمائهم وثيابهم ، ولا يغسلوهم (٣) . فممن عبد الله بن ثعلبة بن صعيث قال : قال رسول الله ﷺ لقتلى أحد : « زَمَلُوهُمْ بِدِمَائِهِمْ » (٤) ، وعن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ أنه قال في قتلى أحد : « لَا تَغْسَلُوهُمْ ، فَإِنَّ كُلَّ جُرْحٍ أَوْ كُلُّ دَمٍ يَفُوحُ مِسْكَاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥) .

وكثر القتلى يوم أحد ، وقت الثياب ، فكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون في الثوب الواحد ، ثم يدفنون في القبر الواحد . وكان رسول الله ﷺ يقول لهم : « أَنْظَرُوا أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ جَمْعاً لِلْقُرْآنِ فَاجْعَلُوهُ أَمَامَ أَصْحَابِهِ فِي الْقَبْرِ » - وفي رواية : كان يقول : « أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخَذًا لِلْقُرْآنِ ؟ » فإذا أشير له إلى أحد قدمه في اللحد .

فممن دفن في قبر واحد عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح ، رضي الله عنهما ، لقول رسول الله ﷺ : « أَنْظَرُوا إِلَى عَمْرٍو بنِ الْجَمُوحِ وَعَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو بنِ حَرَامٍ فَإِنَّهُمَا كَانَا مَتَّصِفَيْنِ فِي الدُّنْيَا فَاجْعَلُوهُمَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ » .

وممن دفن في قبر واحد أيضاً خارجة بن زيد وسعد بن الربيع في قبر ، والنعمان بن مالك وعبد بن الحسحاس في قبر .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨/٢ ، ٣٩) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٥٧/٨) ، والدرر في اختصار المغازي والسير (ص : ١٦٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٩/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٣١/٥) كتاب المغازي - باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٩/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٣١/٥) كتاب المغازي - باب من قتل من المسلمين يوم أحد ، والموطأ (ص : ٣٠٧)

الشهداء في سبيل الله ، والمستدرک (ج ٧٦/٢) ، وسنن أبي داود (ج ٤٩٨/٢) كتاب الجنائز - باب في الشهيد يغسل ح ٣١٢٤ .

(٤) سنن النسائي (ج ٧٨/٤) كتاب الجنائز - مواراة الشهيد في دمه .

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٢٩٩/٣) .

وقد جاء في سبب دفنهم الاثني والثلاثة في القبر الواحد ماروي عن هشام بن عامر قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله ﷺ يوم أحد ، فقالوا : أصابنا قرح وجهد ، فكيف تأمرنا ؟ قال : « اخفروا وأوسعوا واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر » ، قيل : فأنتهم يُقدّم ؟ قال : « أكثرهم قراناً » .

وكان أناس من المسلمين قد احتملوا قتلاهم إلى المدينة ليدفنهم بها ، فاتاهم منادي رسول الله ﷺ يقول : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تدفنوا القتلى في مصارعهم ، أو في مصارعهم ، فردّهم إلا من دفن فأبقوه^(١) .

روي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، قال : فبينما أنا في النظارين إذ جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتها على ناضح ، فدخلت بها المدينة لتدفنها في مقابرنا ، إذ لحق رجل ينادي ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت ، فرجعنا بها ، فدفنناها حيث قتلا ، فبينما أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ جاءني رجل فقال : يا جابر بن عبد الله ! والله لقد أثار أباك^(٢) عمال معاوية فبدا فخرج طائفة منه ، فأتيته فوجدته على النحو الذي دفنته لم يتغيّر ، إلا ما لم يدع القتل أو القتل ، فواريته^(٣) .

وعنه أيضاً قال : ودفن معه آخر في قبر ، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر ، فاستخرجته بعد ستة أشهر ، فإذا هو كيوم وضعته هنيئة غير أذنه^(٤) .

ومن حمل المسلمون إلى المدينة شماس بن عثمان ، فإنه كان به رمق ، فمات عند أم سلمة - وكان ابن عمها - فأمر رسول الله ﷺ أن يرده إلى أحد فيدفن هناك كما هو في ثيابه التي مات فيها ، وكان عمره يوم قتل أربعاً وثلاثين سنة .

- ولم يوجد لحمزة ، رضي الله عنه ، وهو سيّد الشهداء كفن إلا بردة إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه ، فأمر رسول الله ﷺ أن يمدّوها على رأسه ويجعلوا على قدميه الإذخر أو الحرمل ، ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش ، وكان ابن أخته أمية بنت عبد المطلب .

وكفّن مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، في بردة أيضاً لم تغطّ رجله ، قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : قتل مصعب وهو خير منّي ، كفّن في بردة إن غطّي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطّي رجلاه بدا رأسه ، وقال أيضاً : وقُتل حمزة وهو خير منّي ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ، أو قال : أعطينا من الدنيا ما أعطينا ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا . ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام وكان صائماً^(٥) .

وعن خبّاب ، رضي الله عنه ، قال : هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجهه الله ، فوجب أخرجنا على الله ، ومنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئاً ، كان منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد لم يترك إلا نيمرة^(٦) كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطّي بها رجلاه خرج رأسه ، فقال لنا النبي ﷺ : « غطّوا بها رأسه ، واجعلوا على رجله الإذخر » ، أو قال : « ألقوا على رجله من الإذخر » ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدّ بها^(٧) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٩٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٣١/٥) كتاب المغازي - باب من قتل من المسلمين يوم أحد ، وسنن النسائي (ج ٧٩/٤) كتاب الجنائز - أين يدفن الشهيد ، وسنن أبي داود (ج ٤٩٩/٣) كتاب الجنائز - باب في الشهيد يغسل ح ٣١٣٦ ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٤/٢) .

(٢) أي قلب الأرض عن أبيك . انظر : (لسان العرب : ج ٥٢٣/١) .

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ٢٩٨/٣) .

(٤) صحيح البخاري (ج ١١٦/٢) كتاب الجنائز - باب هل يخرج الميت من القبر واللحد .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١١١/٥) ، وجمع الزوائد (ج ١١٩/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٦/٣) ، وسيرة ابن هشام (ج ٤٨/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٢١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة أحد .

(٦) النيمرة : كل دئلة مخططة من مازر الأعراب ، وجمعتها نيمار ، كأنها أخذت من لون النيمر لما فيها من السواد والبياض (النهاية : ج ١١٨/٥) .

(٧) يهدّ بها : يجنّبها (النهاية : ج ٢٥٠/٥) ، والحرير في صحيح البخاري (ج ١٢١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة أحد .

فلما كَفَّنَ مصعب في بردته وقف عليه رسول الله ﷺ فقال : « لَقَدْ رَأَيْتَكَ بِمَكَّةَ وَمَا بِهَا أَحَدٌ أَزَقَّ حُلَّةً وَلَا أَحْسَنَ لِمَةً (١) مِنْكَ ، ثُمَّ أَنْتَ شَعْتَ الرَّأْسَ فِي بُرْدَةٍ » ، وقرأ ﷺ : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الآية . ونزل في قبره أخوه أبو الروم ، وعامر بن ربيعة وسُوَيْبِطُ بن سعد (٢) .

- واختلف في صلاة رسول الله ﷺ على شهداء أحد ، فقد روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسجى ببردة ، ثم صلى عليه ، فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى يوضعون إلى حمزة ، فصلّى عليهم وعليه معهم ، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة (٣) . وفي رواية أبي داود بسنده عن أنس أنه لم يصل على أحد من الشهداء غيره (٤) أي : حمزة رضي الله عنه .

وروى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ لم يصلّ عليهم ولم يغسلوا (٥) .

والأرجح أن النبي ﷺ لم يصلّ على قتلى أحد - كما قال الإمام الشافعي وغيره - وأما الحديث الذي رواه الشيخان (٦) وأبو داود والنسائي وهو أن رسول الله ﷺ صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين صلاته على الميت ، كالمودع للأحياء والأموات ، فمعناه أنه دعا لهم كدعائه للميت حين علم قرب أجله ﷺ .

قال السهيلي : ولم يرد عن رسول الله ﷺ أنه صلى على شهيد في شيء من مغازيه إلا في هذه الرواية في أحد - أي رواية ابن إسحاق - وكذلك لم يصل أحد من الأئمة بعده ﷺ (٧) .

زيارة قبور الشهداء ومنزلتهم :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء وقف عليهم ، فقال : « أَشْهَدُ أَنْكُمْ أَحْيَاءُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَزُورُوهُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْلَمُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَّا رَدُّوا عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٨) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَحَسَنَ مَقِيلِهِمْ قَالُوا : يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ بِنَا لئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلَا يَتَنَكَّلُوا (٩) عِنْدَ الْحَرْبِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : فَأَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ » . فأنزل الله على رسوله ﷺ هؤلاء الآيات : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .. ﴾ (١٠) .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « الشُّهُدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ ، فِي قَبَّةِ خَضْرَاءَ ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا » (١١) .

(١) اللِّمَّةُ مِنْ شَعَرَ الرَّأْسِ : دُونَ الْجُمَّةِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا أَلْمَّتْ بِالْمُنْكَبِينَ ، فَإِذَا زَادَتْ فِي الْجُمَّةِ (النهاية : ج ٢٧٢/٤) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٢/٣) ، والمستدرک (ج ٢٠٠/٣) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٤٨/٣) .

(٤) سنن أبي داود (ج ٥٠٠/٣) كتاب الجنائز - باب في الشهيد يغسل ح ٣١٣٧ .

(٥) صحيح البخاري (ج ١٣١/٥) كتاب المغازي - باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٢٠/٥) كتاب المغازي ، وصحيح مسلم (ج ١٧٦٧/٤) كتاب الفضائل - باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ح ٣١٠ .

(٧) انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٤٨/٢ - ٢٤٩) ، والروض الأنتف (ج ١٧٨/٢) .

(٨) انظر : جمع الزوائد (ج ١٢٢/٦) ، والمستدرک (ج ٢٩٣) .

(٩) نَكَلَ عَنِ الْأَمْرِ : جَبَّنَ وَنَكَصَ (الوسيط : ج ٩٦٢/٢) .

(١٠) آل عمران : ١٦٩ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ٧٢/٣) .

(١١) سيرة ابن هشام (ج ٧٢/٣) .

وعن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : لقيني رسول الله ﷺ فقال لي : « يا جابر مالي أراك منكسراً ؟ » قلت : يا رسول الله ! استشهد أبي ، قُتل يوم أُحُد ، وترك عيالاً وديناً ، قال : « أفلا أبشركَ بما لقيَ الله به أباك ؟ » قال : قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « ما كلمَ الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب ، وأخياً أباك فكلمته كفاحاً^(١) ، فقال : يا عبدي ! تمنَّ عليَّ أعطيك ، قال : يا ربَّ تحييني فأقتل فيك ثانيةً ، قال الربُّ عزَّ وجلَّ : إنه قد سبق مني ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ . » قال : وأنزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ أَمْواتًا ﴾ الآية^(٢) .

- وكان النبي ﷺ يزور قبور الشهداء ، فإذا أتى فُرصة الشعب^(٣) يقول : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » . ثم كان الخلفاء بعده ﷺ يفعلون ذلك ، وكانت فاطمة ، رضي الله عنها ، تزور قبر عمها حمزة بن عبد المطلب وتبكي عنده^(٤) .

عِدَّة الشهداء :

بلغ عدد قتلى المسلمين يوم أُحُد سبعين رجلاً : أربعة من المهاجرين وهم : حمزة ومصعب وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان ، وخمسة وستين من الأنصار ، ورجلاً من اليهود^(٥) .

روي عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فذكر حديث غزوة بدر ثم قال : فلما كان يوم أُحُد من العام المقبل عُوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ... وأنزل الله تعالى : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾^(٦) الآية بأخذكم الفداء^(٧) .

وروي عن موسى بن عقبة أن المسلمين استكثروا الذي أصابهم من البلاء يوم أُحُد ، وقد كانوا أصابوا يوم بدر من المشركين ضعف ذلك ، فأنزل الله ، عزَّ وجلَّ ، في ذلك : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وآيات معها بعدها^(٨) .

وجاء في بعض الروايات أنه قتل من الأنصار خاصة سبعون رجلاً ، فقد روى البخاري بسنده عن قتادة قال : ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعزَّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدثنا أنس بن مالك أنه قتل منهم يوم أُحُد سبعون^(٩) .

قتلى المشركين :

أما قتلى المشركين فبلغ عددهم ثلاثة وعشرين رجلاً^(١٠) . وقد قال الشيخ صفي الرحمن المباركفوري في الرحيق المختوم : ولكن الإحصاء الدقيق - بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير ، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون - كما ذكر ابن إسحاق - والله أعلم^(١١) .

- (١) أي مواجهة ، ليس بينهما حجاب ولا رسول (لسان العرب) ج ٢٨٩٧/٥ .
- (٢) سنن الترمذي (ج ٢٣٠/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة آل عمران ح ٣٠١٠ .
- (٣) فُرصة الشعب : ما انحدر من وسطه وجانبه (الوسيط : ج ٦٩٠/٢) .
- (٤) انظر : المستدرک (ج ٢٨٨/٣ ، ٢٩) ، وسنن أبي داود (ج ٥٢٥/٢) كتاب المناسك - باب زيارة القبور ح ٢٠٤٣ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٦/٢) .
- (٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٥/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦/٣) .
- (٦) آل عمران : ١٦٥ .
- (٧) مسند الإمام أحمد (ج ٣١٨) .
- (٨) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٨/٣) .
- (٩) صحيح البخاري (ج ١٣٠/٥) كتاب المغازي - باب من قتل من المسلمين يوم أُحُد .
- (١٠) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤٢/٢) .
- (١١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨٢/٣) ، والرحيق المختوم (ص : ٣١٨) .

رجوع النبي ﷺ إلى المدينة ونوادير الحب والتفاني :

ولما أراد رسول الله ﷺ الرجوع إلى المدينة ومعه أصحابه ، وقف بهم في أصل جبل أحد ، فأثنى على ربه ، وتضرع إليه ، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن رفاعة الزُرقي قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : « اسْتَوْوُوا حَتَّى أَتِيَّ عَلَى رَبِّي » ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال : « اللَّهُمَّ ! لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، اللَّهُمَّ ! لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ ، وَلَا هَادِيَّ لِمَا أَضَلَلْتَ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَّ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدْتَ ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ ، اللَّهُمَّ ! ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَسْأَلُكَ النِّعِمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحْوُلُ وَلَا يَزُولُ ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَسْأَلُكَ النِّعِمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ ، وَالْأَمْنِ يَوْمَ الْخَوْفِ ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي عَائِدٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أُعْطِينَنَا ، وَشَرِّ مَا مَنَعْتُمْ ، اللَّهُمَّ ! حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزِينَتَهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللَّهُمَّ ! تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَخِينَا مُسْلِمِينَ ، وَالْحَقِيقَةَ بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مُفْتُونِينَ ، اللَّهُمَّ ! قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ رَسُولَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ ، اللَّهُمَّ ! قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ » (١) .

ثم انصرف رسول الله ﷺ مساء يوم السبت راجعاً إلى المدينة ، فصلى بها المغرب .

وكانت النساء قد خرجن يتلقين الناس يسألنهم عن أهليهن ، فلقيتهم حمنة بنت جحش ، فنعى لها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت وقالت : وإخرياه (٢) ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ زَوْجَ الْمَرْأَةِ مِنْهَا لَبِمَكَانٍ » - وفي لفظ : « إِنَّ لِلزَّوْجِ مِنَ الْمَرْأَةِ لَشَيْبَةً مَا هِيَ لِشَيْءٍ » - ثم قال لها : « كَيْفَ قُلْتِ عَلَى مُصْعَبٍ مَا لَمْ تَقُولِي عَلَى غَيْرِهِ ؟ » قالت : يا رسول الله ! ذكرت يتم ولده (٣) .

وخرجت السُمَيْرَاءُ بنت قيس إحدى نساء بني ديار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها ، فامسا نعوها لها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشهر لها إليه ، حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جلل ، تريد صغيرة ، وفي رواية : أنها أخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لا أبالي إذا سلمت من غطب (٤) .

وجاءت أم سعد بن معاذ ، رضي الله عنها ، تعدو نحو رسول الله ﷺ ، وهو على فرسه ، وسعد بن معاذ أخذ بلجامها ، فقال له سعد : يا رسول الله ! أمي ، فقال رسول الله ﷺ : « مَرَحَبًا بِهَا » ، فوقف لها ، فندنت حتى تأملت رسول الله ﷺ ، فمزأها رسول الله ﷺ بابنها عمرو بن معاذ ، فقالت : أما إذا رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة ، أي : استقلتتها ، ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال : « يَا أُمَّ سَعْدِ ! أَبْشِرِي وَبَشِّرِي أَهْلَهُمْ أَنْ قَتَلَاهُمْ تَرَأَفَقُوا فِي الْجَنَّةِ جَمِيعاً ، وَقَدْ شَفَعُوا فِي أَهْلِهِمْ جَمِيعاً » ، قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا ؟! ثم قالت : يا رسول الله ! ادع لمن خلفوا ، فقال : « اللَّهُمَّ ! أَذْهِبْ حُزْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَاجْبُرْ مُصِيبَتَهُمْ ، وَأَحْسِنِ الْخَلْفَ عَلَى مَنْ خَلَفُوا » (٥) .

فلما دخل النبي ﷺ أريكة المدينة إذا النوح والبكاء في الدور ، فقال : « مَا هَذَا ؟ » قالوا : هذه نساء الأنصار يبكين قتلاهم ، فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قال : « لَكِنَّ حَمْرَةَ لَا تَبْوَئِي لَهَ » .

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٤٢٤/٣) .

(٢) الحزب : نهب مال الإنسان وتركه لشيء له ، ومنه وإخرياه يقولونه إذا مات الرجل ، كأنهم إذ فجعوا به قد سلَبُوا ونهبوا . انظر : (لسان العرب : ج ٨١٦/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٠/٣) ، والمستدرک (ج ٦٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٤/٢) و (ج ٢٤١/٨) . وذكر ابن سعد أنه تزوجها بعد ذلك طلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنه ، فولدت له محمد بن طلحة السجاد .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥١/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ١١٥/٦) .

(٥) انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٥٤/٢) .

فبلغ ذلك سعد بن معاذ وأسيّد بن خضير، رضي الله عنهما، فأمر سعد نساء بني عبد الأشهل أن يتحرّمن ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله ﷺ - وفي رواية: فسمع ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد ومعاذ بن جبل وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، فمشوا في دورهم، فجمعوا كل نائحة وباكية كانت بالمدينة وقالوا: والله لا تبكين قتلى الأنصار حتى تبكين عمّ رسول الله ﷺ، فإنه قد ذكر أن لا بواكي له بالمدينة.

فلما سمع رسول الله ﷺ البكاء، قال: « ما هذا؟ » فأخبر بما فعلت الأنصار بنسائهم، فقال: « رحم الله الأنصار، فإنّ المواساة منهم ما علمت لقديمة، ما هذا أزدت وما أحبّ البكاء، » ثم خرج عليهن رسول الله ﷺ وهنّ على باب مسجده، فقال: « ارجعن يرحمك الله، فقد آسيتن بأنفسكن ». ونهى يومئذ عن النوح وقال: « ثلاث من عمل الجاهلية لن تتركهنّ أمّي: النياحة على الموتى، والطعن في النسب، وقيل هذا المطر بنوء^(١) كذا وكذا وليس بنوء إنا هو عطاء الله ورزقه^(٢) »

من أجاد القتال يوم أحد:

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفه ذا الفقار ابنته فاطمة، فقال: « اغسلي عن هذا دمة يابنية، فوالله لقد صدقني اليوم »، وناولها علي بن أبي طالب سيفه، فقال: وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله ﷺ: « لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف، وأبو دجاجة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة^(٣) ».

شماطة اليهود والمنافقين:

ولما بكى المسلمون على قتلاهم سرّ بذلك المنافقون، وأظهروا شماطة، وقالوا: لو كانوا عندنا ماقتلوا، فردّ الله عليهم قولهم: ﴿ قُلْ فَأُدْرَوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتُ ۖ ﴾^(٤)، وصار ابن أبي يوبخ ابنه عبد الله وكان جرح في الغزوة، فقال له ابنه: الذي صنع الله لرسوله والمسلمين خير.

وظهر غش اليهود الذي كانوا يخفونه خوفاً من المسلمين، حيث ظنّوا وهنهم، فقالوا: لو كان نبياً ماظهروا عليه، ولكنه طالب ملك؛ تكون له الدولة مرة وعليه مرة، ما أصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه. وقال المنافقون نحو قولهم.

وصار رسول الله ﷺ يقول: « أخبروني عن الناس ما فعلوا وأين ذهبوا؟ » فقيل له: كفر عامتهم، فقال: « لا يصيب المشركون منّا مثلها حتى يفتح الله علينا » أو قال: « حتى تستلم الركن ».

وكان من عادة عبد الله بن أبي ابن سلول إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر قام فقال: أيها الناس! هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله تعالى به وأعزكم فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس. فبعد غزوة أحد أراد أن يفعل ذلك، فلما قام أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه وقالوا له: اجلس أي عدو الله، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنا قلت بجزأ^(٥) أن قت أشدّ أمره، فلقيه بعض الأنصار، فسأله عن أمره، فلما أخبره قال له: ويلك! ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أتبعني أن يستغفر لي^(٦).

(١) النوء: هو النجم الذي يكون مع المطر. وقد تقدّم.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٥٠٣، ٥١)، ومسنّد الإمام أحمد (ج ٨٤٢)، وطبقات ابن سعد (ج ١٨٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٦٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٥١٣)، والمستدرک (ج ٢٤٣).

(٤) آل عمران: ١٦٨.

(٥) البجر: الشّر والأمر العظيم والعجب (الوسيط: ج ٣٨١).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٥٢٣، ٥٧)، وطبقات ابن سعد (ج ٤٤٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٦٣)، والسيرة الحلبسية (ج ٢٥٥٢ - ٢٥٦).

(ج ٢٥٥٢ - ٢٥٦)، وشرح الزرقاني على اللواهب الدننية (ج ٥٦٢ - ٥٧).

حراسة المدينة :

وبات المسالون ليلة قدومهم يحرسون أنقاب المدينة ومدخلها ، وقد أنهكهم التعب ، وبات وجوه الأنصار على باب النبي ﷺ بالمسجد يحرسونه خوفاً من كزة العدو على المدينة (١) .

غزوة حمراء الأسد (٢) :

وكانت صبيحة غزوة أُحُد ، يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أو لثمان ليال خلون منه ، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال في زمن غزوة أُحُد .

وسببها ما بلغ النبي ﷺ عن أبي سفيان بن حرب أنه يريد الرجوع بقريش إلى المدينة ليستأصلوا من بقي من أصحابه ﷺ . وقيل : كانت إرهاباً للعدو وليبلغهم أنه ﷺ خرج في طلبهم ليظنوا به ﷺ قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحُد وبلغوا الرُّوحاء ، قال أبو سفيان : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب (٣) أردفتم ، شر ما صنعتم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب الناس .

ويذكر أن عبد الله بن عمرو المزنيّ جاء إلى النبي ﷺ عند طلوع الفجر صبيحة قدومه من أُحُد وأخبره أنه قد أقبل من عند أهله حتى إذا كان بمثل (٤) إذا قريش قد نزلوا به ، فسمع أبا سفيان وأصحابه يقولون : ما صنعتم شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدهم (٥) ، ثم تركتهم ولم تبيدوهم ، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا نستأصل من بقي ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول : لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا (٦) وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج ، وأن يكون لهم قتال غير الذي كان ، فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم ، فقال رسول الله ﷺ : « أرشدتهم صفوان وما كان برشيد » .

فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، فذكر لهما الخبر ، فقالا : يا رسول الله ! اطلب العدو لا يقتحمون على الذرية . فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أمر بلالاً أن ينادي أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس . فكلّمه جابر بن عبد الله ، فقال : يا رسول الله ! إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع أو قال تسع ، وقال : يا بئري ! إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهنّ ، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي ، فتخلف على أخواتك ، فتخلفت عليهنّ ، ولا أحبّ أن تتوجّه وجهاً إلا كنت معك ، وقد كرهت أن يطلب معك إلا من شهد القتال ، فأذن لي ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال غيره : واستأذنه رجال لم يحضروا القتال ؛ منهم ابن أبيّ قال له : أنا راكب معك ، فأبى ذلك عليهم رسول الله ﷺ .

ودعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يحلّ ، فدفعه إلى عليّ بن أبي طالب ، ويقال إلى أبي بكر الصديق . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . وركب رسول الله ﷺ فرسه - وهو مجروح في وجهه ، ومشجوج في جبهته ، ورباعيته قد شطّيت ، وشفته السفلى قد كَلِمَت في باطنها ، وهو متوهن منكبه الأيمن من ضربة ابن قميّة ، وركبته مجحوشتان - وخرج معه جميع من حضر القتال معه بأحد على ما هم من الجراح وأشدّ القرّح ، فمنهم من كان به تسع جراحات وهو أسيد بن حصير وعقبة بن عامر ، ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصمة ، ومن كان به بضع عشرة جراحة وهو كعب بن مالك ، ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤٩/٢) .

(٢) حمراء الأسد : موضع على عشرة أميال من المدينة على طريق القتيق متباينة عن ذي الحليفة إذا أخذتها في الوادي (طبقات ابن سعد : ج ٤٩/٢) .

(٣) الكواعب : جمع كاعب ، وهي الفتاة إذا نهت ثديها (الوسيط : ج ٧٩٧/٢) .

(٤) مثل : موضع قرب المدينة .

(٥) خد الرجل : رأسه (الوسيط : ج ١٦١/١) .

(٦) حرب : اشتد غضبه (الوسيط : ج ١٦٢/١) .

وهو طلحة بن عبيد الله ... وكان في الأنصار من بني سلمة أربعون جريحاً ، فقال رسول الله ﷺ لما رآهم خارجين : « اللهم ! ارحم بني سلمة » (١) .

روى ابن إسحاق بسنده عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال : شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي لي ، فرجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو ، قلت لأخي أو قال لي : أنفتوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله مالنا من دابة نركبها ، ومامننا إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً منه ، فكان إذا غلب حملته عتبة (٢) ومثنى عقبه ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون (٣) . وهذان الرجلان عبد الله ورافع ابنا سهيل بن رافع (٤) .

وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) . قالت لعروة : يا ابن أخي ! كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر ، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحُدٍ وانصرف عنه المشركون خائف أن يرجعوا ، قال : « مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ ؟ » فانتدب منهم سبعون رجلاً ، قال : كان فيهم أبو بكر والزبير (٦) . والمراد بقول عائشة رضي الله عنها : فانتدب منهم سبعون أنهم سبقوا غيرهم ، ثم تلاحق بهم الباقيون (٧) .

وبعث رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم طليعة في آثار القوم ، فلحق اثنان منهم القوم بجمراء الأسد ، وللقوم زجل (٨) ، وهم يأتمرون بالرجوع ، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك ، فبصروا بالرجلين فمطفوا عليها فقتلوهما ومضوا .

ومضى رسول الله ﷺ ودليله في السير ثابت بن الضحاك الخزرجي ، حتى عسكر بجمراء الأسد ، فوجد الرجلين قد قُتلا فدفنها في قبر واحد ، فهما القرينان : مالك ونعمان ابنا خلف بن عوف .

وأقام المسلمون بذلك المكان ثلاث ليال ، وكانوا يوقدون في كل ليلة من تلك الليالي خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه ، فكبت الله عدوهم .

ولقي النبي ﷺ بجمراء الأسد معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم غيبة نصح (٩) رسول الله ﷺ بهتامة ، صقهم معه (١٠) ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك ، فقال : يا محمد ! أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالزُّوحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حدّاً أصحابه وأشرفهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكفرن على بقيتهم فلنفرعن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٢/٣ ، ٥٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٨/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٢١/٦) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٥٩/٢) .

(٢) العتبة : النوبة (الوسيط : ج ٦١٩/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٥٢/٣) .

(٤) السيرة الحلبية (ج ٢٥٨/٢) .

(٥) آل عمران ١٧٢ .

(٦) صحيح البخاري (ج ١٢٠/٥) كتاب المغازي - باب ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

(٧) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٥٩/٢) .

(٨) الرَّجُلُ : الصَّوتُ . وقد تقدّم .

(٩) غيبة الرجل : خاصته وموضع سره . والعرب تكني عن القلوب والصُّدُورِ بالغياب (جمع غيبة) لأنها مستودع السرّاء ، كما أن العياب مستودع الثياب (النهاية : ج ٢٢٧/٢) . أي كانت خزاعة موضع النصح والأمانة على سره ﷺ . وكان الأصل في موالة خزاعة للنبي ﷺ أن بني هاشم في الجاهلية كانوا تحالفوا مع خزاعة فاستبرأوا على ذلك في الإسلام . انظر : (فتح الباري : ج ٢٣٧/٥) .

(١٠) أي اجتمعهم إليه (النهاية : ج ٢٩٧/٢) .

تحرّقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ماضيهم ، وفيهم من الحنق^(١) عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال : ويحك !! ماتقول ؟ قال : والله ما رأيت أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكثرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنفك عن ذلك ، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من شعر .

فتى^(٢) ذلك أبا سفيان ومن معه فانصرفوا سراعاً إلى مكة . وعند انصرفهم مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميثة^(٣) ، قال : فهل أنتم متبلّغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه غداً زيبياً بمكاظ إذا وافيتوها ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتوه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

مرّ الراكب برسول الله ﷺ وهو بجمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قاله أبو سفيان ، فقال : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . وأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(٤) .

وقال النبي ﷺ حين بلغه أنهم هموا بالرجعة : « والذي نفسي بيده ، لقد سوّمت لهم حجارة لو صبّحوا بها لكانوا كأس الذاهب » ثم انصرف ﷺ إلى المدينة^(٥) .

مقتل أبي عزة الجمحي ومعاوية بن المغيرة :

وأخذ رسول الله ﷺ في وجهه ذلك قبل رجوعه إلى المدينة أبا عزة الجمحي ، وهو الذي كان ﷺ قد منّ عليه من أسارى بدر لأجل بناته وفاقته ، وأخذ عليه عهداً أن لا يقاتله ولا يظاهر عليه أحداً ، فنقض العهد ، وخرج مع قريش وصار يستنفر الناس ويحرّضهم بأشعاره على قتال النبي ﷺ - كما مضى ذكره - فلما أسر وجيء به إلى النبي ﷺ قال : يا محمد أقلني^(٦) ، إنما أخرجت كرهاً ، لي بنات ، فامتن علي ، وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت ، فقال رسول الله ﷺ : « أين ما أعطيتني من العهد والميثاق ؟ لا والله ، لا تمسح عارضيك^(٧) بمكة بعدها وتقول : خدعت محمداً مرتين » - وفي لفظ : « سخرت بمحمد مرتين » - « أضرب عنقه يا زبير » - وفي رواية قال : « إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين » ، يا عاصم بن ثابت قدّمه فأضرب عنقه - فضربت عنقه .

وأمر النبي ﷺ في ذلك للكان بقتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وهو جدّ عبد الملك بن مروان لأمه ، وقد كان لجأ إلى عثمان بن عفان لما رجع المسلمون من أحد ، فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتل . فأقام معاوية ثلاثاً ، ثم توارى بعدها يستعلم أخبار رسول الله ﷺ ليأتي بها قريشاً ، فلما عاد رسول الله ﷺ من جمراء الأسد ، خرج معاوية هارباً ، فبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وعمر بن ياسر وقال لهما : « إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا » ، فوجداه به ، فقتلاه^(٨) .

ما نزل من القرآن في يوم أحد :

وأنزل الله تبارك وتعالى من القرآن في غزوة أحد ستين آية في سورة آل عمران ، فيها صفة ما كان في يوم أحد ، ومعاتبة من عاتب منهم ، تبتدىء بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ

(١) الحنق : الغيظ (النهاية : ج ٤٥/١) .

(٢) فتى : صرفه ورده (الوسيط : ج ١٠/٧) .

(٣) الميثة : جلب الطعام (لسان العرب : ج ٤٢٠٦/٦) .

(٤) آل عمران : ١٧٢ - ١٧٣ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٢/٣ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦) ، وصحيح البخاري (ج ٤٨/٦) كتاب التفسير - سورة آل عمران ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٨/٢ ،

٤٩) ، وجمع الزوائد (ج ٢١/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٧/٢) ، وعيون الأثر (ج ٢٨/٢) .

(٦) أقالته : صفح عنه وتجاوز (الوسيط : ج ٧٧/٢) .

(٧) عارضاً الإنسان : صفحتاً خبّيه (النهاية : ج ٢١٢/٣) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٦/٣ - ٥٧) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٦٥/٩) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٦٠/٢) .

للقتال ... ﴿ وتنتهي بتعليق جامع على نتائج هذه المعركة وحكمتها في قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ، فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ، وَاِنْ تُؤْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَلَكُمْ اَجْرًا عَظِيْمًا ﴿ (١) .

☆ ☆ ☆

(١) آل عمران : ١٢٦ - ١٢٩ .

فهرس موضوعات

الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
تقديم	١١
المقدمة	١٣
أهمية دراسة السيرة النبوية	١٥
تاريخ التأليف في السيرة النبوية	٢٤
مقدمة عن وضع الجزيرة العربية قبل الإسلام	٣٢ - ٩٢
موقع الجزيرة العربية وحدودها	٣٢
طبيعة الجزيرة وأقسامها	٣٢
مصور الجزيرة العربية : طبيعتها وأهم المدن فيها	٣٤
سكان الجزيرة وطبيعتهم	٣٥
أنساب العرب ومنازلهم	٣٦
لوحة الأنساب القحطانية	٣٨
مصور منازل أهم القبائل في الجزيرة العربية قبيل البعثة	٤٠
لوحة الأنساب العدنانية	٤١
مصور التقسيمات السياسية للجزيرة العربية قبيل الإسلام	٤٦
الحكم والسياسة في بلاد العرب	٤٧
أديان العرب	٥٦
مصور الجزيرة العربية قبيل الإسلام - الأديان	٥٧
الحالة الاقتصادية	٦٦
الحالة الاجتماعية	٦٦
العلوم والآداب	٧٠
الأخلاق	٧١
الحاجة إلى نبي مرسل	٧٦
مكة المكرمة عند ظهور الإسلام:	٧٩
- أعمال قصي وتنظيم شؤون مكة	٨٠
- الحالة الاقتصادية	٨٣
- القوة الحربية	٨٤
- الأحوال الاجتماعية والخلقية والدينية	٨٤

٨٥	يثر ب قبل الإسلام :
٨٥	- موقع يثر ب وأهميته ، طبيعة يثر ب
٨٦	- سكانها
٨٩	- الحالة الدينية
٩٠	- الحالة الاجتماعية
٩٠	- الحالة السياسية والحكم
٩١	- الحالة الاقتصادية

١٣٨ - ٩٣

القسم الأول

« من الولادة إلى البعثة »

٩٥	نسب النبي ﷺ وولادته :
٩٥	- نسبه الشريف ﷺ
٩٥	- أصالة نسب النبي ﷺ
٩٦	- طهارة نسب النبي ﷺ وشرف آبائه
٩٦	- أسرة النبي ﷺ
١٠٠	مصور رحلات السهيلي والحشني وغزوة أبرهة الأشرم مكة المكرمة
١٠٤	- الآيات التي ظهرت لأمنة عند حملها برسول الله ﷺ
١٠٥	- وفاة عبد الله
١٠٥	- ميراث النبي ﷺ من أبيه
١٠٥	- ولادة النبي ﷺ
١٠٨	- فرح عبد المطلب بولادة النبي ﷺ وتسميته
١٠٩	- رضاع النبي ﷺ
١١١	- فطام النبي ﷺ وحادثة شق الصدر
١١٣	- عودة النبي ﷺ إلى أمه آمنة
١١٤	- حواضن النبي ﷺ
١١٤	وفاة أم النبي ﷺ
١١٤	كفالة عبد المطلب للنبي ﷺ
١١٥	كفالة أبي طالب للنبي ﷺ
١١٧	سفر النبي ﷺ إلى الشام
١١٨	رعي النبي ﷺ الغنم
١١٨	كلاءة الله عز وجل للنبي وسيرته قبل البعثة
١١٩	شهود النبي ﷺ حرب الفجار
١١٩	شهود النبي ﷺ حلف الفضول
١٢٠	اشتغال النبي ﷺ بالتجارة
١٢١	زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة
١٢٢	أولاد النبي ﷺ

١٢٣	بناء الكعبة ومشاركة النبي ﷺ
١٢٥	صفة النبي ﷺ في الكتب السماوية
١٢٩	تنبؤ الأحرار والرهبان والكهان بمبعث النبي ﷺ
١٣٢	حجب الشياطين عن استراق السمع عند قرب المبعث
١٣٣	بقايا الحنفاء قبل بعثة النبي ﷺ

٢٨٤ - ١٣٩

القسم الثاني

« البعثة والدعوة في دورها المكي »

١٤١	بعثة النبي ﷺ :
١٤١	- مقدمات نزول الوحي
١٤٣	- نزول الوحي
١٤٥	- فترة الوحي
١٤٥	- نزول الوحي مرة ثانية والأمر بالدعوة إلى الله
١٤٦	- تحقق خديجة رضي الله عنها من الوحي
١٤٦	- مراتب الوحي وشدة نزوله
١٤٨	أدوار الدعوة في حياة النبي ﷺ ومراحلها :
١٤٩	المرحلة الأولى : الدعوة إلى الإسلام سرّاً
١٤٩	- المسلمون الأوائل
١٥١	- أول فرض الصلاة والبوضوء
١٥٢	- استخفاء النبي ﷺ والمسلمين في دار الأرقم
١٥٤	المرحلة الثانية : الجهر بالدعوة
١٥٤	- الدعوة في الأقربين
١٥٥	- الدعوة على جبل الصفا
١٥٦	- موقف قريش من النبي ﷺ إثر جهره بالدعوة
١٥٦	- وفد قريش إلى أبي طالب
١٥٧	- تشاور قريش في أمر النبي ﷺ لصد الحجيج عن الاستماع إليه
١٥٨	- ما نزل بشأن ابن أم مكتوم رضي الله عنه
١٥٩	- أساليب قريش في محاربة النبي ﷺ ودعوته
١٦٢	- تعذيب قريش للمسلمين
١٦٢	- صور من التعذيب والإيذاء
١٦٤	- أول من جهر بالقرآن
١٦٥	- اشتداد أذى قريش
١٦٦	- استهزاء المشركين بالنبي ﷺ
١٧٣	- رسل قريش إلى أحرار يهود وامتحانهم النبي ﷺ
١٧٤	- عناد كفار قريش وموقفهم من القرآن الكريم

الموضوع	الصفحة
الهجرة الأولى إلى الحبشة	١٧٦
قصة الغرانيق	١٧٧
عودة مهاجري الحبشة	١٧٨
مفاوضة قريش أبا طالب في أمر النبي ﷺ	١٧٩
- طلب قريش تسليم النبي ﷺ	١٧٩
- محاولة قريش اغتيال النبي ﷺ	١٨٠
- إيناء المشركين لأبي بكر رضي الله عنه	١٨١
- إسلام حزة بن عبد المطلب رضي الله عنه	١٨٢
- إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١٨٢
- إغراءات قريش للنبي ﷺ	١٨٧
- تمنعت قريش وطلبهم الآيات المعجزات	١٨٩
- انشقاق القمر	١٩١
الهجرة الثانية إلى الحبشة	١٩١
- تعقب قريش لمهاجرة الحبشة	١٩٢
- التمكين للنجاشي في ملكه	١٩٤
أول وفد قدم على النبي ﷺ	١٩٥
مقاطعة قريش بني هاشم وحصار الشعب	١٩٥
- شدة الحصار	١٩٦
- نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة	١٩٧
آخر مفاوضات قريش لأبي طالب	١٩٩
وفاة أبي طالب	٢٠٠
وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها	٢٠١
زواج النبي ﷺ بسودة بنت زمعة رضي الله عنها	٢٠٢
اشتداد إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب	٢٠٣
استئذان أبي بكر رضي الله عنه النبي ﷺ في الهجرة	٢٠٧
الخروج إلى الطائف	٢٠٩
وفد الجن وإسلامهم	٢١١
- دخول النبي ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي	٢١١
عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل والأفراد	٢١٣
- القبائل التي عرض عليها الإسلام	٢١٤
- من الأفراد الذين عرض عليهم الإسلام	٢١٧
بدء إسلام الأنصار	٢٢١
الإسراء والمعراج	٢٢٤
- الآيات التي رآها النبي ﷺ في طريقه إلى بيت المقدس	٢٢٦
- صلاة النبي ﷺ بالأنبياء عليهم السلام	٢٢٨
- عرض الأنبياء في بيت المقدس	٢٣٠

- ٢٣٠ - صعود النبي ﷺ في المعراج إلى السماء
- ٢٣١ - رؤية النبي ﷺ النار ونماذج من عذاب أهلها
- ٢٣٢ - صعود النبي ﷺ في السماوات السبع
- ٢٣٤ - دخول النبي ﷺ الجنة وما رآه فيها
- ٢٣٤ - رؤيته ﷺ نهر الكوثر
- ٢٣٥ - انتهاء النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى
- ٢٣٦ - رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام
- ٢٣٦ - افتراض الصلوات الخمس
- ٢٣٧ - مما خص به النبي ﷺ وأمته
- ٢٣٨ - رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى
- ٢٣٩ - عودة النبي ﷺ إلى مكة وإخباره الناس بمسراه
- ٢٤٢ - مواقيت الصلاة
- ٢٤٤ - بيعة العقبة الأولى
- ٢٤٥ - بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة ودعوته إلى الإسلام فيها
- ٢٤٥ - إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما
- ٢٤٦ - أول جمعة أقيمت في الإسلام
- ٢٤٨ - بيعة العقبة الثانية
- ٢٤٩ - استيثاق العباس للنبي ﷺ وعزم الأنصار على البيعة
- ٢٥٠ - انتخاب النقباء وعقد البيعة
- ٢٥٢ - بلوغ قريش خبر البيعة واحتجاجها لدى رؤساء يثرب
- ٢٥٢ - تأكيد قريش من صحة الخبر وملاحقتها المبايعين
- ٢٥٣ - إسلام عمرو بن الجموح رضي الله عنه
- ٢٥٥ - الهجرة إلى المدينة
- ٢٥٥ - الإذن بالهجرة
- ٢٥٦ - أوائل المهاجرين وصور من المصاعب التي لاقوها
- ٢٦١ - أنصاريون مهاجرون
- ٢٦١ - انتظار النبي ﷺ الإذن له بالهجرة
- ٢٦٢ - اجتماع قريش في دار الندوة وأثارتها على قتل النبي ﷺ
- ٢٦٣ - هجرة النبي ﷺ
- ٢٦٤ - تطويق المشركين منزل النبي ﷺ
- ٢٦٥ - خروج النبي ﷺ وصاحبه إلى غار ثور
- ٢٦٦ - مصور طريق هجرة النبي ﷺ إلى المدينة
- ٢٦٧ - خروج قريش في طلب النبي ﷺ وصاحبه
- ٢٦٨ - مغادرة النبي ﷺ الغار وتوديعه مكة
- ٢٦٩ - الطريق إلى المدينة
- ٢٧٠ - أحداث جرت في الطريق :

الموضوع	الصفحة
- سقيا اللين وإسلام الراعي	٢٧٠
- شأن سراقه بن مالك	٢٧٠
- شأن أم معبد	٢٧٢
- إسلام بريدة بن الحصيبي	٢٧٣
- نزول النبي ﷺ في قباء	٢٧٣
- منزل النبي ﷺ وصاحبه	٢٧٤
- قدوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٢٧٤
- إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه	٢٧٥
- مصور رحلات سلمان الفارسي رضي الله عنه	٢٧٦
- مدة إقامة النبي ﷺ بقباء	٢٧٨
- تأسيس مسجد قباء وفضيلته	٢٧٨
- ارتحال النبي ﷺ من قباء وأول جمعة صلاها	٢٧٩
- استقبال أهل المدينة النبي ﷺ وترحيبهم به وفرحهم	٢٨٠
- مصور المدينة للنورة / قبائل ومساجد ومسير ناقة النبي ﷺ فيها	٢٨٢
- وفاة البراء بن معمر رضي الله عنه	٢٨٣

القسم الثالث

« الدولة الإسلامية والدعوة في دورها المدني »

السنة الأولى للهجرة :	٢٨٧ - ٢٢٦
إقامة النبي ﷺ في دار أبي أيوب رضي الله عنه	٢٨٧
قدوم آل النبي ﷺ وعيال أبي بكر رضي الله عنه	٢٨٨
زواج النبي ﷺ من عائشة رضي الله عنها	٢٨٩
- مكانة عائشة رضي الله عنها وبعض فضائلها	٢٩٢
معاناة المهاجرين من حمى المدينة	٢٩٣
أسس المجتمع الجديد	٢٩٦
- أولاً : بناء المسجد	٢٩٦
مصور المسجد النبوي الشريف والتوسيعات المتتالية	٢٩٨
- بناء المنبر	٣٠٠
- ثانياً : المؤاخاة بين المسلمين	٣٠١
- ثالثاً : كتابة الصحيفة بين المهاجرين والأنصار ومواعدة اليهود	٣٠٣
مشروعية الأذان	٣٠٦
عداء اليهود ومناقشتهم	٣٠٨
- مجاهرة اليهود بالعداء وبعض أخبارهم	٣١١
- قصدهم الفتنة واستهزاؤهم	٣١٤
- نهي الله تعالى المسلمين عن موادتهم	٣١٤

- ٣١٥ - إباؤهم الإسلام وتعنتهم
- ٣١٦ - أسألتهم النبي ﷺ وما نزل فيهم من القرآن
- ٣١٩ - استفتاؤهم النبي ﷺ في حكم الرجم والدية
- ٣٢٠ موقف مشركي المدينة من النبي ﷺ
- ٣٢٣ الإذن بالقتال
- ٣٢٤ السرايا والغزوات :
- ٣٢٤ - سرية حزة رضي الله عنه إلى سيف البحر
- ٣٢٥ - سرية عبيدة بن الحارث رضي الله عنه إلى رايغ
- ٣٢٥ - سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى الخرار
- ٣٢٦ من توفي بالمدينة في السنة الأولى للهجرة
- ٣٢٦ - ٣٢٧ السنة الثانية للهجرة :
- ٣٢٧ غزوة ودان أو الأبواء
- ٣٢٧ غزوة بواط
- ٣٢٧ غزوة العشيرة
- ٣٢٨ مصور السرايا والغزوات قبل غزوة بدر
- ٣٣٠ غزوة سفوان
- ٣٣٠ سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى نخلة
- ٣٣٢ الإذن بقتال المشركين كافة وفرض الجهاد
- ٣٣٣ صرف القبلة
- ٣٣٦ فرض صوم رمضان وزكاة الفطر
- ٣٣٧ غزوة بدر الكبرى :
- ٣٣٧ - سبب الغزوة وخروج النبي ﷺ
- ٣٣٨ - عدة المسلمين
- ٣٣٩ - عتاد المسلمين
- ٣٤٠ - استعراض النبي ﷺ أصحابه ورده الصغار
- ٣٤٠ - توزيع القيادات
- ٣٤١ - طريق النبي ﷺ إلى بدر
- ٣٤١ - رفض النبي ﷺ الاستعانة بمشرك
- ٣٤٢ - استنفار أبي سفيان قريشاً لحماية العير ورؤيا عاتكة
- ٣٤٢ - تجهز قريش لملاقاة النبي ﷺ
- ٣٤٤ - عدة المشركين وعتادهم
- ٣٤٤ - أمر الحرب بين قريش وكنانة
- ٣٤٥ - المطعمون من قريش
- ٣٤٥ - طريق المشركين
- ٣٤٥ - إحراز أبي سفيان العير ورسالته إلى أهل مكة

- مشاورة النبي ﷺ أصحابه ٢٤٦
- استخبار النبي ﷺ عن جيش قريش ٢٤٨
- نزول المطر وسبق المسلمين إلى ماء بدر ٢٤٨
- مشورة الحباب رضي الله عنه وبناء حوض على القليب ٢٤٩
- بناء العريش ٢٤٩
- تعبئة النبي ﷺ أصحابه وقضاؤه الليل مصلياً ٢٥٠
- تسوية النبي ﷺ الصفوف وتوجيهاته في كيفية القتال ٢٥٠
- نزول قريش بوادي بدر ونصيحة عتبة بن ربيعة بالرجوع ٢٥١
- بدء القتال ٢٥٣
- عتبة بن ربيعة يدعو إلى المبارزة ٢٥٣
- مصور غزوة بدر الكبرى ٢٥٤
- التقاء الفريقين ونشوب الحرب ٢٥٥
- مناشدة النبي ﷺ ربه سبحانه وتعالى ٢٥٦
- نزول الملائكة وسياهم ٢٥٧
- تحريض النبي ﷺ أصحابه على القتال ٢٥٨
- رمي النبي ﷺ المشركين بالحصاة والمهجوم عليهم ٢٥٩
- نكوص إبليس ٢٦٠
- هزيمة المشركين وصمود أبي جهل ٢٦٠
- نهي النبي ﷺ عن قتل رجال من المشركين ٢٦١
- مقتل أئمة المشركين : ٢٦٢
- مقتل أمية بن خلف ٢٦٢
- مقتل أبي جهل ٢٦٣
- مقتل عبيدة بن سعيد بن العاص ٢٦٥
- مقتل نوفل بن خويلد ٢٦٥
- عدة قتلى المشركين وأسراهم ٢٦٦
- شهداء المسلمين ٢٦٦
- صور من روائع الإيمان وبطولات المسلمين ٢٦٦
- من المعجزات يوم بدر ٢٦٨
- طرح المشركين في القليب ٢٦٩
- بلوغ مكة أنباء الهزيمة ٢٧٠
- عودة النبي ﷺ وبلوغ المدينة أنباء النصر ٢٧١
- وفاة رقية بنت الرسول ﷺ ٢٧٣
- تقسيم الغنائم ٢٧٣
- مقتل النضر بن الحارث وعقبته بن أبي معيط ٢٧٤
- تهنئة النبي ﷺ بالنصر ٢٧٥

٣٧٥	- أمر الأسارى
٣٧٧	- فداء الأسارى
٣٧٨	- أول من افتدي من الأسارى
٣٨١	- إسلام عمير بن وهب رضي الله عنه
٣٨٢	- فرح النجاشي بنصر النبي ﷺ
٣٨٣	- ما نزل من القرآن في غزوة بدر
٣٨٣	قدوم ذي الجوشن الكلابي
٣٨٤	زواج علي من فاطمة رضي الله عنها
٣٨٩	ظهور النفاق في المدينة
٣٩١	سرية عمير بن عدي رضي الله عنه لقتل عصماء بنت مروان
٣٩١	سرية سالم بن عمير رضي الله عنه لقتل أبي عفك
٣٩٢	غزوة بني قينقاع
٣٩٤	مصور غزوة بني قينقاع
٣٩٥	غزوة السويق
٣٩٥	أول أضحى رآه المسلمون
٣٩٦	وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه
٤٥٠ - ٣٩٧	السنة الثالثة للهجرة :
٣٩٧	غزوة بني سليم (قرقرة الكدر)
٣٩٧	غزوة ذي أمر (أمار)
٣٩٨	مقتل كعب بن الأشرف
٤٠١	مقتل ابن سنينة
٤٠٢	مصور السرايا والغزوات بين بدر وأحد
٤٠٣	غزوة بجران
٤٠٣	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى القردة
٤٠٤	زواج أم كلثوم بنت النبي ﷺ
٤٠٤	زواج النبي ﷺ من حفصة رضي الله عنها
٤٠٥	زواج النبي ﷺ من زينب بنت خزيمة رضي الله عنها
٤٠٦	غزوة أحد :
٤٠٦	- استنفار قريش العرب والإغراء بقتل حمزة رضي الله عنه
٤٠٧	- قوام جيش المشركين وخروجه
٤٠٧	- كتاب العباس رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بجبر قريش
٤٠٨	- وصول جيش المشركين إلى المدينة
٤٠٨	- حراسة المدينة ورؤيا النبي ﷺ
٤٠٩	- مشاوره النبي ﷺ أصحابه في الخروج من المدينة
٤١٠	- تهيؤ النبي ﷺ للخروج

- ٤١٠ - عقد النبي ﷺ الألوية وخروجه إلى أحد
- ٤١١ - استعراض النبي ﷺ جيشه ومبيته بالشيخين
- ٤١١ - انخزال ابن أبي سلول بالمنافقين
- ٤١٢ - متابعة النبي ﷺ مسيره إلى أحد
- ٤١٣ - تعبئة النبي ﷺ جيشه ووصيته للرماة
- ٤١٣ - خطبة النبي ﷺ صبيحة يوم أحد
- ٤١٤ - تحريض النبي ﷺ أصحابه على القتال
- ٤١٤ - تعبئة قريش جيشها واستفزازها أصحاب اللواء
- ٤١٥ - مناورات قريش وجهود نساءها في التحميس
- ٤١٥ - احتدام القتال وإبادة حملة لواء المشركين
- ٤١٦ - استبسال المسلمين في القتال
- ٤١٧ - مقتل حمزة رضي الله عنه
- ٤١٨ - مقتل حنظلة بن أبي عامر الغسيل رضي الله عنه
- ٤١٩ - انتصار المسلمين ودور الرماة فيه
-
- ٤٢٠ - مصور غزوة أحد
- ٤٢١ - الكثرة على المسلمين ومخالفة الرماة
- ٤٢١ - اضطراب موقف المسلمين ومقتل مصعب رضي الله عنه
- ٤٢٤ - ثبات النبي ﷺ وما لقيه من الأذى
- ٤٢٨ - حضور الملائكة
- ٤٢٨ - عودة المسلمين للتجمع حول النبي ﷺ واستماتتهم في الدفاع عنه
- ٤٣١ - انخياز النبي ﷺ بأصحابه نحو الجبل
- ٤٣٢ - مقتل أبي بن خلف
- ٤٣٣ - آخر هجوم قام به المشركون وتغشية النعاس المؤمنين
- ٤٣٤ - مداواة جراح النبي ﷺ
- ٤٣٥ - المثلة بالمسلمين وبحمزة رضي الله عنه
- ٤٣٥ - شامة أبي سفيان وصنيعه بحمزة رضي الله عنه
- ٤٣٦ - مواعدة التلاقي في بدر
- ٤٣٦ - بعث النبي ﷺ علياً رضي الله عنه في آثار قريش
- ٤٣٧ - تفقد المسلمين قتلاهم
- ٤٤٠ - مقتل المجذر بن ذياد وقصته مع الحارث بن سويد
- ٤٤١ - جمع الشهداء ودفنهم
- ٤٤٣ - زيارة قبور الشهداء ومنزلتهم
- ٤٤٤ - عدة الشهداء
- ٤٤٤ - قتلى المشركين
- ٤٤٥ - رجوع النبي ﷺ إلى المدينة ونوادير الحب والتفاني

٤٤٦ من أجاد القتال يوم أحد
٤٤٦ شماتة اليهود والمنافقين
٤٤٧ حراسة المدينة
٤٤٧ غزوة حمراء الأسد
٤٤٩ مقتل أبي عزة الجمحي ومعاوية بن المغيرة
٤٤٩ ما نزل من القرآن في يوم أحد
٤٥١ الفهرس

